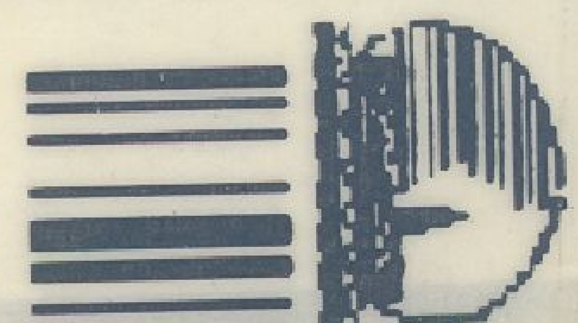


المجلد الأول

الأعمال القصصية

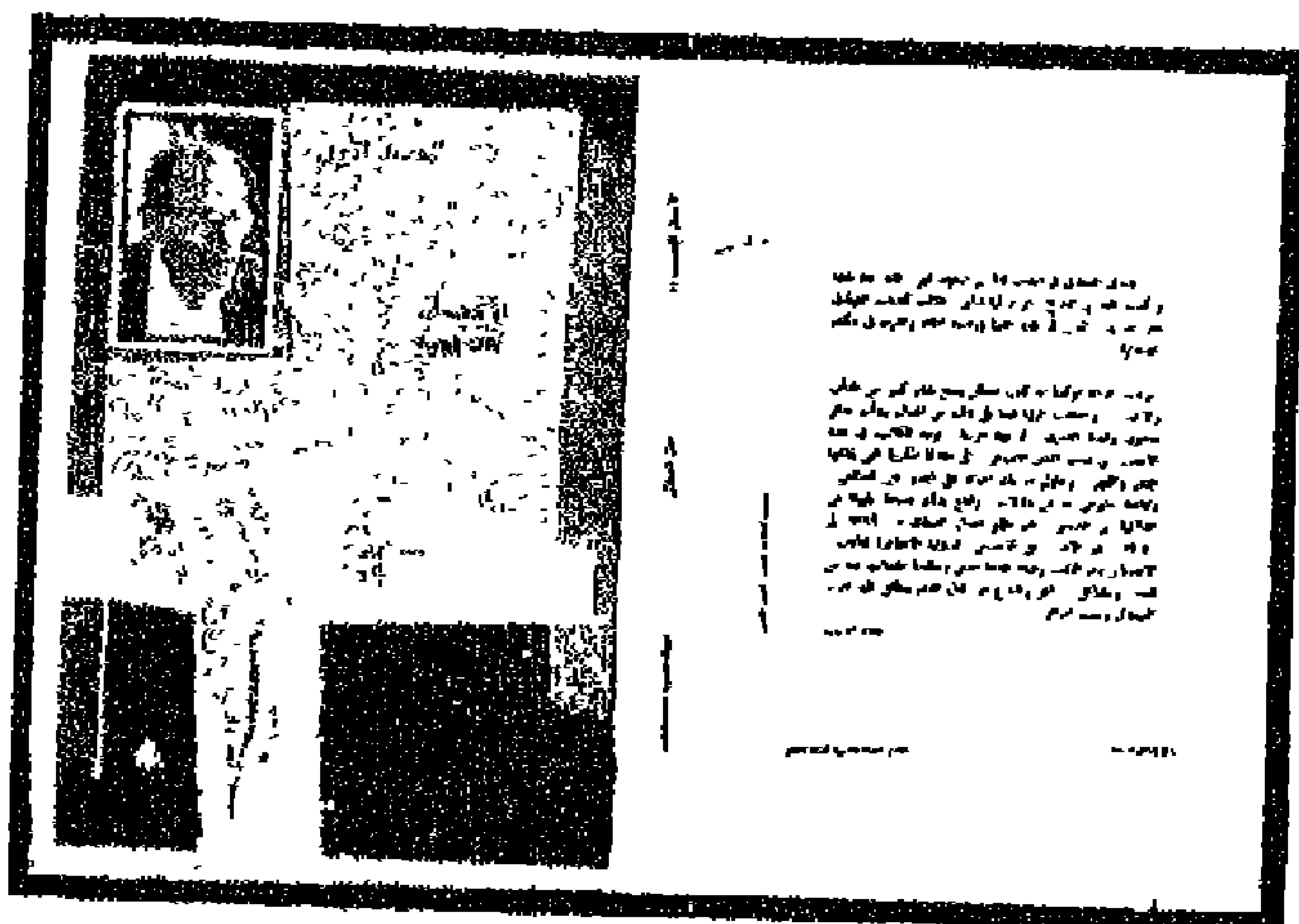
جمال الغيطاني





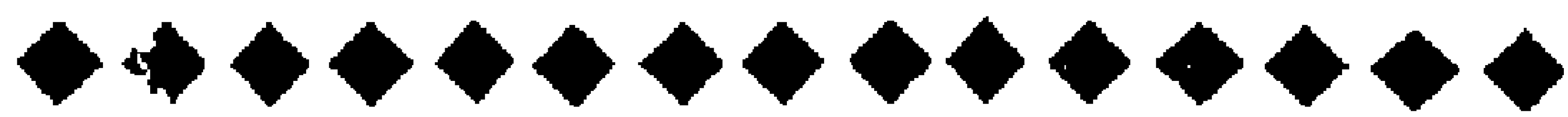
- ...اب
- ...ذ ألف عام
- ...من ثلاث جهات
- ... الزمان
- ... جلبى السلطان
- ثمار الوقت







تصميم الغلاف : محمود الهندى



الإخراج الفنى : هاشم الاشمونى

جمال الغيطاني

جمال الغيطاني

أوراق شاب
عاش منذ
ألف عام

مقدمــة

« عثر علماؤنا على هذه الأوراق أثناء عمليات تنقيب فى المنطقة الواقعة شمال مصنع المرئيات رقم ستين ، حيث قامت منذ ألف عام مدينة كبيرة يحتمل أن يكون اسمها « المنيا » أو « أسيوط » ، وتخص تلك الأوراق أحد سكان هذه المدينة . وقد كتبها أثناء الحرب التى نشبت فى تلك الأحقاب البعيدة بين أجدادنا على ضفاف النيل وبين دويلة صغيرة لم يصلنا غير معلومات ضئيلة عنها ، وكانت تسمى إسرائيل . لكنه من المعروف أن هذه الدويلة قد اختفت تماماً بعد ذلك وضاعت أخبارها نهائياً ، ونرى هنا مشاعر أحد أجدادنا فى هذا العصر البعيد حيث يبدو أن وطنه كان يتعرض لبعض الأخطار ، كما نلمس أيضاً إحساسات أبناء هذه الفترة المليئة بالتناقض قبل انتصار الاشتراكية فى كوكب الأرض كله ، كذلك أورد هذا الشاب مختارات من قراءاته ومن معالم العصر ، وقدمنا هذه الأوراق كما هى ، فيما عدا توضيحات بسيطة راعينا أن تكون فى أضيق الحدود ، إننا لا نعرف تفصيلات كثيرة عن كاتب هذه الأوراق ، لكننا لا نملك إلا الإحساس بالاحترام لأحد المكافحين الأوائل المجهولين لنا والذين مهدوا لحياتنا هذه » .

كانت مدينتى مظلمة تماماً ، المبانى الكبيرة أشباح هائلة لا تفصح عن تفاصيلها ، كان الصمت مستكناً فى الزوايا والأركان لا انفجارات ، لا صوت مدافع ، عدت أصغى إلى الراديو ، الموسيقى العسكرية ، صمت مضن مرهق منذ الظهيرة ، لمح أحد الزملاء شعلة ضوء فى نافذة علوية ، عندئذ صحنا كلنا . . . طفوا النور . . طفوا النور . . هبت موجات متتابعة من الهواء ، أمام بيت قديم جلس رجل عجوز أصر على السير معنا كان يؤكد أنه قد رأى أربع طائرات . لم يعرف بالضبط إن كانوا من طائراتنا أو طائراتهم ، انقضوا ثم ارتفعوا حتى شك فى أنه هو الهدف المقصود . ابتسمت فى الظلام ، عدت أصغى إلى الراديو ، صاحت امرأة تأمر طفلها بالسكوت ، سقط وعاء نحاسى فى طابق علوى ، عامت رائحة غامضة فى الفراغ ، قال المذيع . .

. . وخاضت قواتنا معارك رهيبة فوق الأرض المصرية . .

صاح شاب لم أره . . ما معنى ذلك ، أدرت المؤشر ، لكن الصمت حاد قاس ، عاد المذيع يكرر البيان ، إحساس غامض ، بأن ثمة أشياء هائلة تحدث ، صحيح المسافة بعيدة ، أين سيناء من مدينتنا ؟ (**كانت المسافة من منطقة سيناء التى كانت فى هذا الوقت صحراء تماماً إلى أقصى نقطة فى الوادى تعتبر بعيدة بمقاييس هذا العصر**) لكنى شعرت بالخطر ، ثم ما الذى يحدث لو انهار سد أسوان ؟؟

ستغرق المياه أرضنا بعد ساعات ، عدت أصغى إلى الأصوات الخافتة .

ـ ليس من المستبعد أن يضربونا هنا . .

ـ إنهم كلاب عمى لا يفرقون بين شىء وشىء . .

إقترب منى أحد الجيران . . أشار إلى الراديو . .

ـ هذا يعنى أنهم فوق أرضنا . !!

حملقت فى العتمة اللزجة الكثيفة « خرس الراديو » لم يعد قادراً على إعطائى أى شىء ، ترى ما الذى يحدث ؟ ما الذى يجرى ؟ أريد أن أعرف ، فليحدث ما يبدد هذا الغموض الذى يخنقنى . .

لكن الصمت كان قاسياً ، لمحنا شعلة ضوء ، فعدنا نصيح .. طفوا النور .. طفوا النور ..

« صفحة من المذكرات »

* * *

بلادى بلادى بلادى
لك حبى وفؤادى
هنا القاهرة ...
لحظة صمت ...
موسيقى عسكرية ..
مصر التى فى خاطرى وفى دمى ...
أحبها من كل روحى ودمى ...
« الإذاعة فى صباح باكر من الأيام الأولى ليونيه »

* * *

اقشعر جسمى ، أغنية كئيبة .. رمادية تثير فى نفسى انقباضاً مؤلماً ، كل شىء فى خطر ، خرجت بسرعة من حجرتى الصغيرة إلى شوارع مدينتى الضيقة ، كان الصباح صافياً جداً ، السماء براقة جداً لكنى أحسست بالسماء حمراء كالدم ، مخنوقة ، شىء ما يرثى .. ما هو ؟ لا أدرى . ربما النهر الكبير ، ربما الناس ، الأطفال الصغار فى زحامهم حول بائع حلوى أمام مدرسة ، المسافرون لحظة الوداع ، ربما همسات الفتيات فى المساء ، ربما الأشجار وهسيس الحشرات بين أغصانها ، هذا الجبل ، تلك الكتب . قال الراديو قواتنا تقاتل فى الخط الثانى ، طحننى السؤال كحجرى الرحاية ، أين مواقع الخط ؟ لم تسعفنى الخرائط التى لا معالم بها ، شرب مدير المكتب قهوته ، تحدث عن روميل .. (قائد نازى عاش فى النصف الأول من القرن العشرين) . وتكلم عن « الحرب العالمية والعلمين » وتساءل أخيراً عما إذا

كانت دور السينما تغلق فى المساء أم تفتح أبوابها ؟ .. ثم قال إنه من الممكن للسينما أن تعمل فى أيام الغارات إذا ما أحكم إغلاق المبنى ، ومنع تسرب الضوء ، قمت واقفاً وخرجت ، فى العصر لم أستطع النوم ، كنت مرهقاً .. منهكاً .. قال ساكن الطابق العلوى ..

ــ ضربونا الأمريكان ..

ردت عليه امرأته البدينة ..

ــ صحيح بينزلوا البلاد ويفتحوا بطون الستات ؟

صاح الرجل ..

ــ يا وليه احنا رحنا فين .. والله يوم ما تحصل نموت أحسن ؟ تصايح أطفال فى الحارة ، نظرت إلى الكتب المكومة فوق أرض الغرفة ، زحف صرصار فوق الجدار ولم أحرك أصبعاً ، ترى ماذا يفعل أصحابى فى القاهرة ؟ الغارات لا تهدأ فوقهم ، لابد أن حالهم أحسن منى ، كان من المفروض أن أنام حتى أستطيع السهر فى نوبة المقاومة ، جفونى ثقيلة وذرات الرمل تملأ عينى لكم أنا فى حاجة إلى النوم ، النوم حتى أسهر ، حتى أرى شعلات النور التى تثقب ظلام المدينة ، لكننى قمت بسرعة ، خرجت إلى الطريق ..

« صفحة من المذكرات »

إنى أشعر ببرودة أشد من برودة الماء ..

إنى أشعر بحرارة أشد من حرارة النار ..

ويغرق جسمى فى العرق بينما أهتز من شدة البرد ..

هناك غشاوة على عينى ولا أستطيع الرؤية ..

« شكوى الآله رع إلى إيزيس »

* * *

تسلل اللون الرمادى القاتم فى خبث إلى الفراغ ، غرقت البيوت القديمة فى صمت ما بعد الغروب ، أسرع المارة إلى بيوتهم ، حامت فى الشارع رائحة شىء يحترق فى مكان ما ، عند ناصية حارة ضيقة رأيت زحاماً ، وقفت أسمع المذيع . . . همس أحد الواقفين .

ــ انسحبت قواتنا إلى الضفة الغربية .

قديماً نصحنى صديق أن أتمضمض بالشبة لأزيل آلام أسنانى كان الطعم مراً قاسياً مثيراً للقىء ، لكنى مضغته فى بطء ، جف حلقى ، لمع نجم كبير فى الطرف القصى للسماء ، بدأ الجبل خطاً باهتاً على الناحية الأخرى ، وكان النهر يمضى هادئاً بلا ضجيج .

« صفحة من المذكرات »

* * *

وفى هذه السنة نقص ماء النيل ، فشحت الغلال . ونزل الوباء فى الناس ، فكادت مصر أن تخلو من سكانها . وكان النيل يفيض على الأرض فلا تجد من يزرعها .

« تاريخ قديم »

أنا الملك سوريد ابن الملك البودشير ، بنيت هذه الأهرام فى ستين عاما ، فليهدمها من يشاء فى ستمائة سنة علماً بأن الهدم أيسر من البناء .

« التاريخ الأسطورى »

* * *

« وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم » .

« قرآن كريم »

* * *

كنت أعبر الميدان فى البلدة ، كان خالياً غارقاً فى عصر أصفر كئيب . . زحفت عربة نقل كبيرة . فجأة . . ! لا أدرى من أين جاء كل هذا العدد من الناس ، أفندية أسرعوا إلى العربة ، امتدت الأيدى إلى حمولة البطيخ . . خبطت الأكف على الثمار الخضراء ، تزايد الصياح ، حملقت البيوت الواطئة فى صمت ، رفعت عينى إلى دار السينما . .

نجاة الصغيرة تركب دراجة ، يقودها الشاب خفيف الدم حسن يوسف . . وقد أحاطها بذراعيه . . فيلم شاطىء المرح . . أسبوع ثالث بناء على طلب الجماهير . . .

عاودنى طعم الشبة المر ، الهواء ساخن كالماء الدسم ، العرق مثير ، لزج ، فى المساء تمنيت أن ينزل المطر ، ينزل ، ينزل ، ثم ينزل . أكلنى الحنين . . الباردة الرطبة وأقسمت فى سرى لو نزل المطر فسأقف فى الميدان الكبير أتلقاه ، لن أجرى أبداً ، لكن هيهات أن يحدث هذا فى أيام الصيف المجدبة تلك ، كانت السماء صافية تماماً ، ورأيت مدينتى الصغيرة علبة ضيقة ملقاة بعيداً عن الدنيا ، وتذكرت أرض واق الواق ، وجبال قاف ، والبحارة المسافرين فى بحار بلا شطآن ، والطيور الصغيرة الضعيفة المهاجرة التى لا تجد قلباً حنوناً تأوى إليه ، عندما انقضى النصف الأول ، من الليل دقت الساعة الكبيرة فى بهو المحطة ، حملقت إلى الطريق الممتد فى جوف الليل . . من يدرى . . ربما سقط المطر فى المدينة الكبيرة .

« صفحة من المذكرات »

* * *

اللهم بقدرتك أجر نيلنا ، وبلغ به المنافع ، اللهم أنبت لنا الزرع ، وأدر لنا الضرع ، اللهم لا تؤاخذنا بما جنته أيدينا ، اللهم دعوناك كما أمرتنا ، فاستجب لنا كما وعدتنا .

« من خطبة استسقاء »

* * *

كان زحام الأوتوبيس شديداً ، نظرت امرأة إلى رجل يحاول الالتصاق بها في حذر . في أقصى الميدان كانت مئذنة الحسين تنتصب رشيقة تطعن الفراغ ، الرجال يدخلون الجامع في خشوع منكسي الرؤس ، فوق الرصيف وقف رجل بدين يصيح ملوحاً بيديه . .

ـ عندنا الدواء الشافي من جميع الأوجاع ، قرش صاغ واحد يا سلام . . عندنا . .

بجوار باب الفندق جلس جزار بدين ، قصير جداً ، قال لجاره الحلاق . .

ـ بنينا كل شيء لكن ينقصنا تربية النفث . أي والله أهم شيء تنيناه تربية النفث .

من النافذة رأيت فتاة تقف في الشرفة المقابلة ، حملقت في لحظة . مسحت شعرها بيدها . ضحكت ، تثني جسمها وأشارت إلى الطريق . عدت أدور بعيني في الحجرة وطعم الشبة المر يدور في فمي ، من أسفل صاح بائع صحف . .

ـ إلحق يا جدع . . حرقوا أمريكا في فيتنام يا جدع . .

تمددت فوق السرير . . راح المساء يهبط رمادياً مقبضاً ، لم أنم ، ثاني ليلة في المدينة الكبيرة . . قلت للمسئول الكبير . .

أستطيع عمل أى شيء تطلبونه سواء فى بلدق أو هنا . . . هز رأسه وقال :

ـ كل شيء وله وقت . . عندما نحتاجك سنبعث إليك . .

وعندما عدت إلى الطريق تذكرت بلدق والطريق إليها ، خفق قلبى ، لم أع من قبل معنى وجود كلاب فوق أرض بلادى ، شيء لزج حقير أهان رجولتى ، رجال أجلاف اقتحموا بيتى واغتصبوا أختى أمام عينى ، أسمعها تتأوه ولا أتحرك ، تغوص أسنانى فى الأرض الصلبة ، لكن بلا فائدة (وهذا يؤكد لنا أن أجدادنا قد تعرضوا لمتاعب مؤقتة مع هذه الدويلة الصغيرة التى لم تعمر كثيراً) . نظرت إلى الخارج . الليل ينزل فوق المدينة هادئاً بلا ضجيج ، إن لم أصل إلى شيء الليلة فسأرجع إلى بلدق ، إلى العلبة الضيقة ، الثرثرة على المقاهى ، الحديث عن النساء ، كلام زميلتى عن المسبك ، التخديعة ، المسلوق .

إذا قلت لن أرجع فإلى أين ؟؟

نظرت فى الساعة ، بعد قليل أنزل ، آخر الليالى فى المدينة ثم . . لا أدرى . !

« صفحة من المذكرات »

* * *

يجب أن نجد حلاً للشبان الذين لا زالوا يتسكعون على النواصى . افتحوا لهم أبواب معسكرات المقاومة الشعبية . . . (صورة تمثل شباناً يضعون أيديهم فى جيوبهم . ويجلسون على السور الحديدى أمام الأمريكيين ؟) .

هجوم جرىء لثوار فيتنام . . مصرع ألف جندى أمريكى .

على أفندى ابراهيم يشكر ضابط وجنود نقطة الناحية لمساعدتهم إياه فى ضبط جاموسته المسروقة . . فلهم الشكر .

مصرع جين مانسفيلد صاحبة أضخم صدر عرفته السينما العالمية ، انفصل رأسها عن جسمها !! . .

الأمم المتحدة تفشل فى إتخاذ قرار .
أين تقضى السهرة هذا المساء ؟
كفروييد أقوى مبيد . . .

(من صحف الأيام الأخيرة من يونيو)

* * *

أحمر . . أزرق . . خطان لونهما أصفر . اللافتة المقابلة تضىء وتنطفىء . . المقهى مزدحم بالناس . . قال صديقى وهو يرفع نظارته التى انزلقت على أنفه . .

ـ لابد من الالتحام بالناس والنزول إليهم . . والتحدث معهم ومعايشتهم .

أكل قطعة خيار صغيرة مملحة ، شرب من كوب البيرة جرعة .
ـ هكذا يكون العمل وإلا فلا . . ألست معى . .
صمت برهة . . سألنى فجأة !

ـ إلا قل لى . أخبار الثورة الثقافية اختفت هذه الأيام . . ألا تعرف ما وصلت إليه ؟

هززت رأسى . . قمت واقفاً . . أحسست بطنين فى أذنى . أحد الزنابير التى تطن فوق حقول صعيدنا قد حاذى رأسى . . عدت إلى الطريق . . الشوارع حبلى بفتيات جميلات ، وشبان متأنقين . . الفساتين قصيرة جداً والأرداف تترجرج تحت القماش . أمام محل بيع العصير وقفت عربات طويلة يشرب أصحابها أكواب المانجو والفراولة . . تزايد ظمأى . . لكننى مضيت . . هل أبعد ؟ أم أظل ماشياً بلا نهاية ؟ ! أم أذهب إلى الفندق وأنام ثم لا أصحو إلا بعد ألف عام . . أعود إلى الشوارع طويل اللحية . . قذر

الأظافر . . زائغ العينين . . تحملق العيون فى مستنكرة . . تمتد الأيدى تتفحصنى . . البنايات غريبة لا تتسع لى . الطعام ليس كما تعودته . حتى الماء أجد فيه طعم الشبة . . المر . . أشعر بوحدة . . بخوف . . أتمنى لو تقلصت . . لو تلاشيت فأعود من حيث جئت .

أشعلت سيجارة . . نفذت رائحة الدخان إلى أنفى . . كانت الأضواء تختلط ببعضها فى نهاية الطريق ، تمنيت فى هذه اللحظة لو أن معى صديقة ، حلوة ، رقيقة ، صوتها هادىء عميق ، تومىء بذقن صغيرة ، حلو ، يبدو فى عينيها الحلوتين بريق يبعث الدفء فى نفسى . . أتكلم وتتكلم وأسمع . . أتكلم وتصغى ، أخذت نفساً عميقاً . . وبدت لى حجرة الفندق بسريرها الحديدى الأسود الضخم مقبرة هائلة ضخمة يمرح فيها دراكولا ، يحملق إلى الباب فى إنتظارى . . يلمع نابيه ، يقطر منهما الدم . . لمعت أضواء السينما ، تمايل المطرب على شاشة التلفزيون . . لم أسمع ما قاله . . مشيت متمهلا . . قالت امرأة لرجل عجوز . . « هو فاكر الفلوس اللى بيسيبها لى تكفى . . والله باستلف على العشرة صاغ عشرة تانيين علشان أكفى العيال عيش حاف بس . . قل له ييجى أنا تعبت !! الحمل تقيل عليه ومش قادرة أشيله لوحدى . . » .

« صفحة من مذكرات »

* * *

لو مت ع السرير ابقوا احرقوا الجسد .
ونطوروا رمادى ع البيوت .
شوية لبيوت البلد . .
وشوية ترموهم على (تانيس) .
وشوية حطوهم فى إيد ولد .
ولد أكون بسته ولا اعرفوش .

(شعر عامى . . حجاب)

قلت لصديقى الذى التقيت به قرب الفندق . .
ـ وهكذا أنا حائر . . لا أعرف هل أرجع أم أبقى . . !
حلق فى . . أسند كوب العصير الفارغ إلى ترابيزة الرخام
ـ إسمع . . مازن سافر إلى الاسماعيلية ،
ـ من مازن ؟
ـ أى واحد . . أنا نويت . . الجو هناك سنجد فيه ما نبحث عنه . .

بللت شفتى بلسانى . . ووضعت يدى على كتف صاحبى ، عيناه تلمعان لمعاناً غريباً ، سألتقى بكثيرين مثله . . بالتأكيد ستجىء ليالى مشحونة بما أنا فى حاجة إليه . . قلت . .
ـ نلتقى غداً . .
ـ هات معك بطانية وزمزمية ماء .
ـ إلى اللقاء . .

لن أعود إلى الحجرة الضيقة . . إلى الفتاة التى تلوح بيدها . سأدور فى الطرقات حتى يسحب الليل نفسه . وتتساقط ذرات النهار فى الفراغ . ثم أرحل .

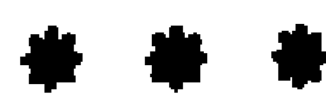
المقتبس من عودة ابن إياس إلى زماننا

ارتعبت فالدنيا غير الدنيا والمدينة ليست بالمدينة ، حتى الناس خلاف الناس . لا أهلى لقيتهم ، لا كبير أو صغير . . عظيم أو حقير من أيامى التى أجهل مصيرها ولم أعرف مايفصلنى عنها شهور أو سنين . وعندما بعث أصحاب الرقيم من نومهم ليتساءلوا فيما بينهم ، قال قائل منهم . .

كم لبثتم ؟

قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم .

لكننى لم أعرف كم مضى على ولم أعرف لم جئت ؟ غير أنى قلت لو انسقت وراء الدهشة والغربة ، لو تملكت منى الرهبة وافترسنى الخوف ، لضعت فى هذا الزمان الذى تحرك وطار فيه الجهاد ، فلأرقب وأستمع ما يدور حولى من عجائب وغرائب . والله لو رآها واحد من أهل زمانى لنشف جلده ومات رعباً وراح على نفسه .



المقتبس الأول من اليوم الأول

تعاظم الزحام فى الطريق حتى خلته يوم الحشر . . كدت أتعثر فى مشيتى . وصدمنى الكثيرون حتى أن عمامتى كادت أن تنخلع . وكان الليل يرحل فما زال الليل يلى النهار . وكانت الأصوات عالية . رجال يزعقون وصبية يتصايحون ونساء يتهامسن ويتغامزن . . وتمنيت لو أقعد فى مكان بعيد أرقب كل هذا ، غير أنى لا أعرف الطريق ، وكنت تعباً فقد بلغت فى زمانى الأول سبعا وسبعين سنة ، لكننى لم أستطع إلا المشى ، إذ أن المارة يتدفقون كنهر النيل فى عام تعاظم فيه الفيضان واشتد ، فجأة جذبنى رجل من ذراعى فكدت أنكفىء على وجهى .

ــ لو تسمح . . امش فوق الرصيف .

ما الذى جرى للناس فجأة . . لم أعرف ما يحدث ، فى عرض الطريق وقف شباب ينظمون الرايح والجاى ، وقرأت فى الوجوه أن شيئاً عظيماً يقع ، وكان الليل قد نزل جامداً كالحديد ، خفض الأصوات فجأة فارتعب قلبى . تتبعت من بعيد أصواتاً مكتومة هائلة كأن السماء تقع فوق بعضها ، ارتجت البيوت رجاً مهولا ، كادت ضلوعى تنخلع من الخوف ، قال رجل .

الضرب جامد ناحية العباسية .

رد آخر . . أوقعنا لهم طائرتين .

لم أرهم غير أن ما قالاه أحسسته ، هناك خطر وكانت الرجل قد خفت من الطريق ، فاستندت إلى جدار قديم ، وتمنيت لو ألقى امرأتى وعيالى ، لو بيتى قائم كما هو .

انقطع الصوت فنزل هدوء كأنه السوق لحظة قطع رأس طفل صغيرة فوق باب زويلة . كأنه البلدة أيام توقف النيل عن الزيادة ، كأنه ، والله ، وجوه العوام المبتئسة لحظة طواف المنادى معلناً عن مكوس جديدة من قبل السلطان . فجأة . . قرقعت السماء وسمعت أصوات غريبة ، ضحك رجل وقال : ولا يهمك ، سأل شاب فى مكان قريب ، كله تمام ؟ وأصغيت متعجباً وكأن الليل قد أوغل حتى آخر عظامى .

(منادى قلعة الجبل يقرع طبلته ، يتوجه بالنداء إلى أهل المدينة .
أهالى القاهرة . .
سيخرج الملك المعظم سيف الدين قطز .
بعد أيام قليلة لمجاهدة الكفار .
ونصرة الدين . .
فجند التتار يهددون الديار . وهم خربوا بغداد وقتلوا خليفة المسلمين
واستباحوا نساءها .
ومزقوا أبكارها ولاطوا بأطفالها .
جند التتار يهددون الأهل والديار .
ادعوا للملك العظيم سيف الدين بالنصرة على عدو الله وعدوكم .

* * *

يا أعراب البادية . يا نسل الصحابة والمجاهدين .
أوقفوا غاراتكم على قوافل السفر . تصالحوا فيما بينكم .
أخرجوا يداً واحدة للجهاد .
واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

* * *

يا فتيان مرجوش وبولاق والربوع .
يا زينة أهل المدينة .
يا أشجع رجالها .
الجهاد . . الجهاد .
وما النصر إلا من عند الله .

* * *

المقتبس الثانى من يوم لا يعرف موقعه بالضبط من أيام العودة :

المفروض أن يكون النيل على أشده فى الزيادة ، فالجو حار والتراب يطلع من الأرض وينزل من السماء يملأ الفراغ . وعندما يتكاثف الزحام يصبح المشى والوقوف شيئاً لا يطاق ، سرت فى طريق هادىء حن إليه قلبى . ورحت أتفرج على البنايات المحيطة بى . فجأة سمعت حس رجل ورائى فالتفت . شاب يقارب عمرى وقت أن جاء السلطان قايتباى إلى الحكم . كنت يومئذ فى العشرين . أول العمر وفرحته . حاذانى فى مشيتى . . وجهه نحيل . . يتأبط كتباً . فى عينيه حزن كبير كما لو مات له قريب . . لم يرد على السلام . قال :

ـ إنها هنا .

ـ من ؟؟

ـ سعاد !

توقفنا تحت شجرة ضخمة لا مثيل لها فى هذا الطريق . كاد الرعب أن يتملكنى . استعذت بالله . حرت فى أمور هذا الزمان . يا بنى من أى عصر أنت ؟ ومن أى زمان حتى أستريح وأعرف بدايتى من منتهاى . ألا يكفى نطق الجماد وطيران الحديد . فأى سعاد هذه يا ولدى ؟

ـ إنها تعيش فى كل قطرة دم فى عروقى . من خلالها أرى الدنيا كلها بحلوها ومرها . لا أنام إلا على صورة وجهها . خضرة عينيها وما تمنحنى من أمان ، سعاد . . شعرها وهذه الوردة الصغيرة التى تتوسط مقدمة رأسها كأنها علامة تهدى المسافرين التائهين .

ـ أحبها حتى النخاع يا سيدى ومع ذلك لا ألقاها . . لا ألقاها . .

تخللت لحيتى بأصابعى . كدت أولى مبتعداً فعيناه تبرقان . . حتى خلته فقد العقل والصواب . أم أن هذا حب ذاك الزمان ؟

ـ كيف يا ولدى . . أليست امرأتك وأم عيالك ؟

ـ أطرق برأسه . الحزن الرقيق يشع من هيئته . . أشفقت عليه ؟ لو أقول له ما يريحه . . لكنى لا أعرف ما يحسه . . لا أعرف . .

ــ إنها لا تعرف أننى أحبها . إن كيانى يذوب من أجلها .

صحت . . كيف ! رغبت فى سماع جوابه . . وكان الليل حولنا غامضاً كبحر الصين . كأنى أحسه لأول مرة ولم أر مثله فى العصر الثانى . . زعق شيء ما فى مكان بعيد .

ــ لن تعرف كما لا تعرف هى . كم أحبها ! كم عانيت من أجلها !

هذه الليالى الطويلة التى وقفت أمام نافذتها . ربما رأيت خيالها يلوح من وراء الستارة . . ربما امتدت تتناول شيئاً من فوق النافذة ، ربما أسعدتنى فخرجت تطل إلى الطريق . فى أكثر من ليلة جرجرنى عسكرى الداورية . وفى ليلة أخرى أمسكنى رجل ، كاد يضربنى ، فما الذى يجعل شاباً يقف تحت بيت . آه لو رأيتنى يوم أن قابلتها ، فى الصبح لم يكن فى الطريق سوانا . قلت لنفسى فلأكلمها ، فلأقل لها لفظاً واحداً ، ورحت أقترب منها وأقترب ، وعندما نظرت إليها إلتقت عيناى بعينيها . . ساعتها أثقلت لسانى أطنان الحديد ، قيدت حركاتى آلاف القيود ، توقفت لحظة كأنها تنتظر ودق قلبى وهبط حمل ثقيل فى داخلى ولم أقل كلمة فمضت ، وعندما اختفت ضربت وجهى بيدى ، لطمتنى بيوت الطريق فى السكة القاسية التى لا ترحم .

حرت ولم أدر ما أقول ، غير أننى خفت عليه ، تصلبت عروقه كأن المسكين لم يحدث شخصاً إلاى ، وددت لو أرى سعاداً هذه ، كنت لشدة كلامه وقوة حجته قد أحسست بوجودها ، لكن أين ؟

ــ إذهب واطلبها من أباها .

ــ لا أقدر . . فزواج هذه الأيام صعب يا سيدى ، كما أن أبيها رجل قاس لا يرحم ولو أخبره بما أشعر به لكتفنى وأثقل جسمى وألقانى فى النيل .

ــ منذ متى وأنت فى هذا العذاب ؟

ـ لا أعرف . . كانت سعاد تسكن شارعنا ، كانت صغيرة كزهرة السوسن ، نما حبى لها كعقلى وجسمى ، فجأة انتقلت عائلتها إلى شارع غير الشارع ، غير أن حبها علق فى قلبى ، رحت أراقبها فى كل مكان . لا أبوح لها ولا تحس بى . وها أنا أروح وأجىء فى الطريق الذى تسكن فى بيت من بيوته . . ربما رأيتها .

ـ والله لا أعرف ما أقوله يا ولدى .

إنطلق من قدامى وعندما درت لم ألمحه ، كان الطريق ساكناً وفيه وحشة . تابعت مشيتى وأنا من الدهشة فى أمر عظيم ، أى شىء هذا الذى يحسه .

أهى قوة الجن الخفية ، يغذى حبه طوال السنين . لو أن ما يشعر به شىء ملموس لفهم وعرفت ، لو أننى رأيت سعاداً ، عاودنى الشعور بوجودها . كأنها تطل على من الليل كله بأشجاره وأطياره ونيله وحتى وطاويطه وخباياه . حرت فيها داخل عقلى فجأة وصرت مملوءاً بالدهشة والرهبة . تمنيت لو أجد هذا الشاب أمامى !.

« انتهى ذلك »

مقتبس من ليلة كان الزحام فيها شديداً والشتاء لا زال بعيداً .

منذ أن قابلت بوابة زويلة وكأنى وجدت جزءاً من نفسى . أو عضواً كان مفقوداً من لحمى وعظمى . لم أر رقاباً مقطوعة تتدلى منه أو أجساداً مخوزقة أو موسطة معلقة به ، أما المتزنتان فنفس الوقفة لم تتغير . صارت سلوتى الرواح والمجىء كأنى أستظل به وأدثر روحى بأحجاره . كانت قاهرتى تبدأ من هنا وتنتهى عند بوابة النصر . زعق بائع جوافة . . . ضرب مكارى حماره . . وأمام دكان صغير استقر صندوق صغير يطلق الأصوات وما ترسله آلات الطرب والغناء . . قلت لنفسى فلأسمع بعض ما نطق به الحديد . انبعثت أنغام حادة . اقترب البعض . . صوت رجل غليظ يقول إن العدو فتح نيزانه صباح اليوم ، هز الواقفون رءوسهم . ثم قال إن هجوماً جرى فى الجنوب وإن الفدائيين اقتحموا مدينة عدن . وأن الانجليز مات منهم ستون ، لم أعرف إلى

أى جنس ينتمى هؤلاء ، لكن إحساساً خفياً همس لى ، لابد أنهم ينتمون إلى الافرنج الذين عبثوا طويلا بشواطىء مصر زمن الأشرف قنصوه الغورى ، إلا أنه أرسل من التجار البحرية ما قطع دابرهم من البحر المالح كله ، سكت الصوت لحظة ، آذان الجميع مصغية ، كأنهم ينتظرون أمراً عظيماً أو شيئاً خفياً عنهم ، ثم قال إن شخصاً من زعماء الفرنج قابل زعيماً آخر وأصدر بياناً وقال إن مائة رجل من الفيتنامية هاجموا ألفاً من عسكر الأمريكان وأبادوهم عن آخرهم ، فقامت الطائرات وضربت البيوت بقنابل الحريق وقتلت أولاداً صغاراً ومات كثيرون .

وعجبت ! كيف لمائة أن يقتلوا ألفاً ، وزماننا . قالوا إن الكثرة غلبت الشجاعة . لكن الأمور انقلبت فى هذا العصر وتغير الحال ، وقف رجل يحمل فوق رأسه قفصاً كبيراً مليئاً بالخبز يسنده بيد واحدة ويركب عجلة تمشى فى توازن عجيب . وعاد الصندوق يكرر ما بدأ به . مشيت متمهلا وكان الليل ينزل أسود مغتاظاً يسيل كالقار . آه لو أكلم واحداً وأحكى له همى . كيف وجدت نفسى فى عصر غير عصرى وزمان غير زمانى . أهذا لسوء بختى أو لحسن حظى ؟ لكننى لو قلت ذلك لرجل أو امرأة لما عرفت ما سيفعلونه ، وكان مستحيلا أن أعثر على واحد من أيامى ، لعنت ألف مرة الذين تمنوا أن يعيشوا ألف عام ، أحسست أننى تلاشيت فى أى لحظة ، كنت تعباً مرهقاً العطش يتملكنى ، مشيت بجوارى بنت مليئة تلبس لباساً قصيراً كشف عن ركبتها ، وكانت تهز مؤخرتها هزاً محكماً ليناً ، لو أعود شاباً استعذت بالله ، ما الذى جرى للناس ، ربما هذا من علامات الساعة ، فجأة توقف أمامى رجل عجوز على رأسه طرطور أخضر ، مقوس الظهر حتى يكاد أن يلمس الأرض بوجهه يرفع سيفاً خشبياً ، صاح بصوت غليظ وريقه يسيل . .

ــ وحد الله يا رجل .

ــ لا إله إلا هو .

ــ أنا حامى الحسين الشهيد . هل تقصده بسوء أنا أعرفك .

ارتعبت . . اهتزت لحيتى .

مددت يدى باسطاً أصابعى .

ـ رحم الله سيد الشهداء وزينة شباب أهل الجنة .

همس ، إبتعد أنا أعرفك . مضى مهتزاً ولم أدرك قوله . وصلت إلى الشارع الكبير ، ملت إلى قهوة صغيرة أمامها عيال يزعقون وامرأة تجرى أمام رجل صارخة ، الراجل سابنى من غير مصروف يرضى مين ده يا مسلمين ، حولى كثيرون يحملقون إلى صورة امرأة .. تعودت هذه المخايلة ، وكانت المرأة الأولى حلوة بيضاء تسأل الثانية الرفيعة كالبرص .

ـ وصلتنا رسائل كثيرة يا مدام ، كلها تلاحظ أن فساتينك الأخيرة جديدة خالص .

رفعت حاجبيها وقالت . إنها تحرص على تغيير لباسها دائماً ، ثم قالت : ما رأيك فى تسريحة شعرى ، ألم تصلك ملاحظات عليها ؟

فقالت المرأة البيضاء : جنان .. جنان .. جنان ..

وتتابع الحديث وظهرت امرأة تتشقلب ورجل يفتح فمه ويغلقه ويبرق بعينيه ، وجاءت شابة ورجل سمين بكرش طويل وبعض الفلاحين وكانوا يقولون كلاما لا أفهمه ، غير أن البنت الشابة تفتح فمها وتغلقه قائلة : لازم تأخذوا حقوقكم .. لازم ، وكان الرجل البدين يزعق فيها ـ لا انتى بنتى ولا أعرفك ـ والفلاحون يصرخون والمركبات تطلق أصواتاً مزعجة وأشخاص يزعقون فى ركن القهوة ـ هيه زنقته فى اليك !! ـ والبنت تصر على أن يأخذوا حقوقهم . طاف رجل ينادى على بضاعته ، وأطلت امرأة تتمايل وتتثنى وتتخلع وترقص حاجبيها ، تغمض عينيها وتقول :

ـ الوله جه ونده عليه أنا قلت لأ ـ وعاد الشاب يطل علينا مكرراً حديثه عن النيران والفرنج والقنبل وآلمنى رأسى وضربنى مشاعلى على ظهرى بسيفه حتى تكسر .. ومشيت فى إتجاه الجامع الأزهر حيث بعض راحتى . ورأيت المرأة .. الشاب النحيل . آه لو أجده .. يكلمنى عن سعاد . هل كلمها ؟ حتى الشارع الذى قابلته فيه ضللت الطريق إليه .. آه لو أرجع إلى زمنى هذه اللحظة .. إننى غريب حتى عظامى .. تقطع قلبى .. الخمدة حولى كهواء بلدة بها الوباء .. آه .. لو عدت فى زمان غير الزمان .

بدا الجامع الأزهر . . جلس أمامه فقيه أعمى يهز جسمه ويتأوه بصوت مبحوح نفذ إلى كليتى .

« فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها . قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً » .

« انتهى ذلك »

وهذه نبذة فيها عجائب وموعظة للمؤمنين :

. . وإذا تقوم القيامة . ويصطف الخلق صفوفاً . طول الصف مسيرة أربعين ألف سنة ولا يعرف الواقف أباه ولا أخاه ويرشح العرق ويأخذهم على قدر ذنوبهم . فمنهم من يأخذه إلى عنقه . ومنهم من يعوم فيه عوماً . ويطول الوقوف ويشتد الكرب . فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم فنسأله أن يشفع فينا فيأتونه فيقول : مالى وللشفاعة . . ويذكر ذنبه . . فيأتون نوحاً فيقول كيف لى بالشفاعة وقد أهلك الله بدعوتى كل من فى الأرض . فيأتون إلى الخليل صلوات الله عليه ويذكرون له الحال فيقول مالى وللشفاعة وقد قتلت نفساً . فيجيئون إلى عيسى ابن البتول فيقول إنى أدلكم على صاحب الشفاعة الكبرى انطلقوا إلى أبى القاسم بن عبد الله خاتم المرسلين . وإذ يشكون إليه حالهم يبكى النبى عليه الصلاة والسلام فيأتى العرش ويخر ساجداً فينادى يامحمد ليس هذا يوم السجود فسل تعط واشفع تشفع . فيقول يا رب مربالعباد إلى الحساب بعد أن اشتد الكرب . فيجاب إلى ذلك وينادى . وعزتى وجلالى لا يجاورنى اليوم ظلم ظالم ولا جور جائز . ولأقتص من الشاة القرناء إذا نطحت الشاة العجفاء ، ولأسألن العود لم خدش العود ولا يدخلن أحد النار أو الجنة وفى قلبه مظلمة . قال كعب الأحبار لو وجد من عمل مثل عمل سبعين نبياً لخشى فى ذلك اليوم .

لحظات شديدة الحزن تخللت أحد أيام العودة:

الزحام على أشده والخلائق تصطدم ببعضها ، البنات يتخلعن وينظرن نظراتهن الجانبية ، بائع بسبوسة يخبط حافة صينية بسكين صغيرة . رجال ألسنتهم تخرج من أفواههم . خرجوا فجأة من زقاق جانبى وهم ممسكون برجل حليق الشعر رفيع العنق جاحظ العينين . يضربونه على عنقه ويصرخون . الحرامى . . الحرامى . لمحت شاباً صغيراً يرمق الناس كأنه يبحث عن شىء ، إقترب منى .

تصور يا سيدنا الشيخ إن أبى خرج ولم يرجع حتى الآن ! تدافع الناس حولنا وكانت أيام زيادة النيل ولى والصيف يموت وعينا الشاب غير مستقرتين ، ترى أين راح أبوك يا بنى ؟

ـ سافر إلى البلدة ليحضر نقوداً ، مرتبه لا يكفيه وإخوتى يعلمهم أبى أما أنا فأعمل لأساعده ، ومع ذلك فقروشنا قليلة ، دائماً نطالبه بنقود ، أمى تطالبه ، إخوتى يطالبونه ، ما أعطيه له لا يكفينا . أبى عجوز يا سيدنا الشيخ وطيب جداً ، لم يعرف السهر ، لم يأكل اللوز المقشر ، لو تدعو يا سيدنا سيعود إلينا ولو يوماً واحداً من هذه الأيام البعيدة ، عندما كنا صغاراً عندما يدخل علينا بطعام العشاء ، لو يرجع هذا اليوم الذى دفع فيه مصاريف أخى كان سعيداً . . . كاد يطير من الفرحة لأنه دفع المصاريف . لأنهم لم يطردوا أخى . .

كان ما قاله غامض . غير أنى أحسست ما تمناه ، أنا لا أرغب فى عودة يوم بل أتمنى عصرى لأستريح ، أرى أخى يوسف الزردكاش وصهرى قرقماس المصارع . أنا لا أعرف كم من الوقت مضى على . . أحياناً يخيل لى أننى قضيت ألف عام أسمع وأشم وأرى ومرة أغوص فى عمق حقيقى بعيد ولا أعرف حقيقة حالى وأكاد أروح على نفسى . آه من بعد الزمن الذى لا أفهمه . .

ـ فى الأيام الأخيرة كنا نتشاجر ، أخيراً يا سيدنا ـ ترك أبى البيت عدة مرات . عندما قابلته هائماً على وجهه فوق كوبري الجامعة . نظرت إلى عينيه العجوزتين . . دق قلبى مرتعباً . . أحسست به لكم هو عجوز بانحناء كتفيه . . . نام فوق الأرض لكنه لم يشأ ذلك لواحد منا وها نحن نجازيه . . نتسبب فى طرده . .

شق الطريق رجل ملون الوجه بالصبغة . . خلفه عيال يحملون خشبة عليها رسم رجل يحضن امرأة . . يوزع ورقاً صغيراً ، ـ هل تسمعنى يا عم الشيخ ؟

قلت برثاء . . وأنا لا أعرف إن كان النهار يتقدم أم يرجع فأرى الشمس تطلع مرة ثانية ، بل اننى أرى والدك أمامى ، قال لو ألف الدنيا ، أحكى للناس عن أبى ، لقد شعرت بمدى جرمى يا سيدى ، بأننى حقير بأننى صرصار عندما رأيت حالة أبى . . كان جائعاً لم يأكل ، أخذته وأكلت معه وعدنا إلى البيت . لكن لم يمر يومان حتى تشاجر مع أمى . . فسافر إلى بلدتنا فى آخر الصعيد ، يبيع نخلات يملكها ، ويرجع ليسدد ما عليه من ديون .

نسمة هواء ، من أى خريف موبوء جئت ؟ ما هذه السنة التى لا أعرف لها فصلا من شهر . . عينا الشاب تمتلىء بدموع غزيرة كالنيل إذا تزاحم ماؤه وراء سد الخليج قبل فتحه . .

قال إنه سيغيب يومان لكن مضى شهر ولم يرجع .

ـ سافر يا بنى .

ـ ربما وجدته لا أستطيع أن يفصلونى من شغلى .

كأنه يقول لغزاً ، تعاظم الزحام من حولنا حتى كاد أن يجرفنا ، قلت له ارسل مكتوباً ، فقال إنه لا يعرف أحدا من أهل البلدة ، فمنذ خروج أبيه منها ماشياً على قدميه ثلاثين عاماً ، وأبناؤه لا يعرفون واحدا منهم . . خبطت كفاً بكف ، وحرت فيما أقول !!

ـ ولن يعرف أحد أبداً ، آه يا أبى ، كنت أحبك ولم أشعر بك إلا بعد ضياعك . لو أراك لحظة واحدة ، وينتهى كل شيء موجود ، حياتنا لم تعطنا الفرصة لنقول الكلمة الحلوة لبعضنا ، سأقضى العمر باحثاً عنك .

طبطبت بيدى على كتفه ومر الناس من حولنا مسرعين وكان الوجود فيه صفرة وخنقة وكأن الصيف جاء بكل ثقله فى لحظة .

ـ ربما جاء ياولدى ،

قال ربما قتلوه ياسيدنا ، ربما وجدوا فى شخصه الفقير ما يسد دين دم على عائلته لعائلة أخرى .

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، يتمنى لقاء أبيه ولا يلقاه ، لماذا لم تقل له ما ترغب ، هل ستجده ومن يصغى إليك فى هذا الزحام ، حملق إلى طويلاً وانطلق فجأة درت برأسى فلم ألمحه ، والله لو استمر يوقف هؤلاء الناس واحداً بعد الآخر فلن يحس به أحد ، الزحام وتتابع الوجوه يأكل ما عظم وما صغر ، اشتدت الحيرة بى ، وانطلقت فى نفسى جمرة من حسرة لو أحكى لواحد من الناس ، علا التراب وترنحت النساء وطالعت فى العيون شيئاً كأنه موجه لى ، يقول فى صمت . . . إخرس !! ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً .

« إنتهى ذلك »

* * *

لحظة واحدة لم ير بعدها الشيخ العجوز الذى اعتاد التجول فى طرقات المدينة .

وأمام الناس كلهم استوقفتنى امرأة وكانت تمسك فى يدها قلماً ، فى يدها أوراق ، واستعذت بالله وسخطت عليها .

ـ كيف تكلمين رجلا لا تعرفينه .

ـ يهمنى معرفة رأيك . قل لى إسمك وسأكتب ما تجيبنى به . عيناى متعبتان . . البرد حاد كما أن صدرى يضيق وتنزل عليه كتمة . والله لا أعرف ما تريدون . الغيظ فى عينيها لكن الضيق والحيرة يثقلان نفسى ، ترى إلى أى جيل من النساء تنتمين ، أحقيقى أنك من سلالة حواء . . وفى أى الأعوام نحن ؟

أليس لك رأى فى رجوع الكرة أو عدم رجوعها ؟

زمت فمها ، ثبتت نظراتها على ، حملق فينا شاب هز رأسه ثم مضى . . المجذوب حامى سيد الشهداء يمشى منحنياً رافعاً سيفه ، فجأة انفرجت أساريرها :

ـ آه . . أنت ضد الكرة لأنك شيخ . . يهمنى أكثر معرفة رأيك . . ما اسمك ؟

قلت متهملا . . والبرد ينفذ إلى عظامى ، حتى الشتاء ليس بالشتاء .

ـ محمد أحمد بن اياس . .

تحرك قلمها فوق الورقة . . نظرت إلى بدهشة .

ـ ألم تسمع عن الأهلى ؟

ـ لا أعرف شيئاً عن هذا ! ؟

سنة ربما خمسمائة عام . . حملقت فى . . قلت لا تتعجبى . . فأنا لا أعرف ما تقولينه ، ضيقت عينيها وقالت : ما اسمك . ؟ أعدت عليها فتقوس حاجباها .

ـ إننى أعرفك ؟

وكان الليل قد رمى نفسه حولنا . . تغير لون وجهها ، كأنها غير التى كانت تقف أمامى ، وكان لسانى ثقيلاً وراسى مدفون ، كأنهم يحرقوننى على شموع ضعيفة .

سألتنى :

ـ ما الذى أتى بك إلينا ؟

قلت : لا أعرف وقلت لها أهكذا توقفين الرجال وتسألينهم عما يفهمونه ولا يفهمونه . . قالت : هذا عيشى . عادة تسألنى : لم جئت ؟ غير أننى لم أرد . . وتابعت مسيرى . حنين فى نفسى إليها غير أنى ابتعدت . ارتعشت أسنانى وكان الطريق قد نزلت عليه خمدة وظلمة ، تلاشى كل أثر لصوت الصناديق . ومنظر المركبات المندفعة لتدهسنى . تمنيت ألا أرجع . أن أظل أبتعد . لكن نفسى اشتاقت إلى الناس . لكن مع من أتكلم . . ! كيف أفهم أمورهم ! إلى أى العصور والأجيال ينتمون ، نظرت ورائى كأننى أغوص فى بئر القلعة السحيق ، ومن خلال الظلام خيل لى أننى سمعت صوتاً له صدى عميق ، وتذكرت الفقيه الأعمى العجوز الجالس فوق الرصيف . وكان يتلو بلا ملل : « هذا فراق بينى وبينك . . هذا فرق بينى وبينك » وكنت من التعب فى حال فأغمضت عينى .

أيـام الرعـب

الاسم بالكامل : محروس فياض سلامه .
تاريخ الميلاد : ١٩٤٥/٥/٩ .
الديانة : مسلم .
الوظيفة : رسام بالمؤسسة العامة .
محل الإقامة : الجمالية ، كفر الطماعين .
رقم البطاقة : ٨١٦٦ .
فصيلة الدم :
تجددت هذه البطاقة فى يوم ٦٨/١١/١٨ .

* * *

. . . حارة الوطاويط ، البلاط المضلع ، الجدران الرمادية المنتفخة بالرطوبة ، إمرأة عجوز ترمش بعينيها . . بنت تمشى متهملة تحمل حقيبتها الممتلئة بالكتب المدرسية . . إنحناءة خفيفة ، عيناها جميلتان . . قشر قصب ملقى عند زاوية الحارة .

إلتفت وراءه بسرعة ..
المنحنى الضيق خال .. لا أحد ..

صوت تلاميذ صغار من داخل المدرسة ، يقرأون فى صوت واحد .

رجل ..
صوت رفيع لطالب صغير ...
امرأة ..
مصلحة الدمغة والموازين ...

بائعة الفجل أمام دكان عم محمود السماك ، عند باب الحارة أبطأت خطواته .. جامع سيدى مرزوق مغلق .. لن ينظر وراءه قضبان نافذة الضريح حديدية سمراء باردة كالهواء المحيط به .. أغمض عينيه .. بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ...

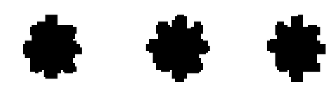
صبى صغير يدحرج طوقاً حديدياً ، بائع كرنب ، رجل يرتدى جلباباً صوفياً قديماً ، فتاة سمراء تعبر الطريق على مهل ، لم تتوقف عيناه عند ردفيها ، عض شفتيه .

منزل رقم ... إنتخبوا ... فريق النسر الذهبى يتحدى الشواكيش ، سينما الكواكب ، هذا المساء .. إعلان قديم تآكل ورقه .. مربع رقم «٢٦» فرن الحاج نصيف ..

قبل أن يدخل المندرة فى الدور الأول ، قبل أن يفتح الباب قبل أن يخرج المفتاح ، أطل من باب البيت القديم ، رائحة غسيل يا خس يا حلو قوى ، هل رأى بائع الخس من قبل ؟ هل صادفه فى الحارة ؟ نعم .. نعم .. بالتأكيد . رائحة بصل يقلى فى زيت .. أم سيد الحلوة تنشر غسيلها ، تومىء برأسها لست عطيات ... الشرفات متقاربة متعبة .. وحدة العصر الشتوية وجو رمضان النهارى يغلف الحارة .. صاحت أم يوسف ... يا بت .

لا أحد ..

تمدد بثيابه كاملة فوق السرير . . كأن الباب له رأس وذراعان وعينان ترقبانه . . قام واقفاً ليتأكد من إغلاقه مرة أخرى . . . رائحة الرطوبة فى أنفه . . النافذة الوحيدة مغلقة . . . لن يقف وراءها أحد سيلفت أنظار الناس . لكن ! عندما يجىء الليل . . ، عض شفته . مد يده داخل الجاكتة . . لكم يبدو مظروف الخطاب الذى لم يصله إلا الأمس متآكلاً .



ولدنا الغالى محروس فياض . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . بعد السؤال عن صحتكم نعرفكم بأننا طيبون لا ينقصنا سوى رؤياكم . . .

أما بعد . . .

فما كنا نحب إزعاجكم ، لكنك ولدنا ونخاف عليك كما نخاف على أرواحنا بالتمام ، فنعرفك يا محروس إن عويضه طلع من السجن ، وجمع عليه مهران واد مخلوف وبالمثل الدقل ولد الحويج ، وعلمنا انهم سهروا مع بعض كام مرة . وقال عويضة إنه ما دام أبوك مات ميتة ربنا يرحمه الله ويرحمنا أجمعين ، يبقى لازم يأخذ تاره منك انت . . ايوه منك انت يا محروس . . . وحلف على مصحف انه لابد يدور عليك ولو كنت فى آخر الدنيا ، وقام طلق دقنه ، وقلب شال عمامته وحلف ما يحلق ولا يعدل الشال إلا بعد ما يشرب من دمك ، واتفق معه مهران والدقل وسافروا من أسبوع قاصدين مصر . ولم يقدر راجل فى البلدة أن يمنعهم فأنت تعرف عويضه وهو على حق فى نظر مشايخ البلد وأكابرها . ونحب اطمئنانك فنقول انهم لا يعرفوا عنوانك ، فنحن لم نعط عنوانك لأحد من أهل البلدة لأنهم ناس ألسنتهم طويلة كما تعرف ويخافوا من عويضه أشد الخوف . فنحن لم نعط العنوان لأحد البتة . فخذ بالك من نفسك ، حماك ربنا ، ومن عندنا يهدوك السلام أنجالنا فرداً فرداً ويهديك سلام

خصوصى قريبنا ابراهيم خليفة وأخوه فضل الله ، كما أن صاحبك السيد المهدى يذكرك على الدوام ، ودائماً فى سيرتك .

وكل من بطرفنا يهديك السلام ، والسلام ختام .

جـــدك

سيد أبو الغيط

* * *

دائماً وجه أبيه مهموم ، كان رجلا نحيلا رفيعاً كعود البوص أسمر جداً ، عيناه ضيقتان ، إذ يرجعان من السوق آخر النهار لا يجلس مع رجال القرية سواء من عائلة السماعنه ، أو عائلة الضبع ، يلقى السلام ويمد خطاه ، عندئذ يضطر محروس إلى الجرى ممسكاً طرف جلبابه حتى يلحق خطواته ، ينظر وراءه ، نظرات الرجال معلقة بهما . فى مرة سمع أحدهم يقول ، مسكين ما دام عويضة خرج من السجن يبقى أجله قرب . رد شيخ كبير يومها . يا خسارة والواحد ما قادر يعمل عشانه حاجة واصل .. يتضاعف الهم فوق الوجه النحيل . يلتفت إلى محروس .. يمد يده ، تلتف أصابعه الكبيرة حول اليد الصغيرة . يسرعان . الوقت عصر . والطريق من المدرسة إلى بيتهم قصير كله تراب .. فوقه غبار وبرد وسكون .. بوك .. بوك .. بوك .. وابور الطحين ينفث آخر ما فى جوفه ، يسرع رجل يركب حماره .. تنتشر فى الجو رائحة التوت . عند باب المدرسة يقف ينتظر أباه . قال له : ما تمشيش لوحدك .. تتغلغل رائحة التوت إلى دمه .. حوم فى الفراغ طير . صوته كالضحك . كالبكاء .. لم يعرف بالضبط . نبحت كلاب عالية عند أول الطريق المؤدى إلى البيوت ، رءوسها عالية كالغيلان ، يجىء أبوه . يسرع والكتب تثقل عنقه . تتدلى فوق صدره . عيناه معلقتان بالشمس النازلة .

تروح الشمس .. ربما لن ترجع .. لن تعود .. صحيح ! من يضمن رجوعها مرة ثانية . تذهب ولا تجىء . عندئذ لن يضىء القرية بصيص ولو من لمبة ساروخ . سيحبس أبوه نفسه فى صومعة الغلال المثقوبة الخاوية ويضمه إلى

صدره ويطخها عويضة وتختلط الألوان . . الأزرق فوق الأحمر فوق خضرة شديدة السخاء . من آخر الطريق ترتفع الأرض فثمة كوبرى خشبى صغير يعلو مجرى الماء . فجأة ظهر !! تصلبت قبضة أبيه . ارتجف قلبه كحمامة صغيرة جداً ابتل ريشها بماء ثلجى . نفذت رائحة التوت المغموس فى اللبن الرائب إلى صدره . توقف الأب . اقترب منها طويلا . عريض المنكبين . كبير الرأس . على كتفيه عباءة سوداء . تحتها قفطان حريرى . ربما لونه أحمر . أزرق . أبيض ، أما انتفاخ العباءة فلم يستطع أن يخفى استطالة البندقية ، رائحة عطر تفوح منه ، همس الأب ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله انفرجت شفتا عويضة الغليظتين . ظلتا هكذا لحظات ثم تشكلت فوقهما ابتسامة لها لون كيزان الذرة الجافة المهروسة .

ـ لسه . . لسه . . لسه . . يا بن سلامة وقتك ما قربش . .

لم ينطق أبوه ، لم يرد أما الشمس فنزلت صامتة بعد أن فارقتهما بلا سند .

ها . وده ولدك محروس ! محروس ! بتوديه المدرسة كمان . . والله عال والله عال . . !

عويضة ينقض فى عين النهار . . يختطف الطفل وفى قلب غيطان الذرة يخفيه . يرسل إلى أهله طالباً الفدية والمهلة يومان فى الثانية الأولى لأول دقيقة اليوم الثالث يصل الرأس الصغير مقطوع إلى الأهل . . يعلوم صراخ الأم .

عويضة يختطف أولاد البلدة . لا أحد يسأله . . حتى الأم الثكلى لا تجرؤ أن ترفع عينيها فى وجهه . . لا أحد .

لم ينطق الأب ، ضم « محروس إليه ، فى الليل نبحت كلاب فوق البيت المجاور ، حامت رائحة خبيز ، الليل فوق البيوت كالمصيبة كالجبل ، كالجبانة . أما وجه الأب فصامت لا ينطق ، صفحة كراسة بيضاء ، قال محروس والليل يغزو قلبه الصغير :

وساكت ليه يا بوى ؟

عض شفته ، ضرب جدار الصومعة الفارغة بيده ، اهتز جسمه ورأى الصغير أباه جداراً يميل . غيط قصب ينكسر تحت زوبعة ، مركب يغرق ، جمل برك تحت حمل ثقيل . . سكت ، سكت ، قال :

ما فيش حد فى البلد يحمينى منه وأنا عمرى ما قتلت حد . . عمرى ما رفعت دبوس إبرة فى وش واحد .

فى السواد حلق إليه ، يدخشنه قبضت قلبه ، ضغطته . .
أمال طالبك ليه يا بوى ؟ . طالبك ليه !!

فى الصباح كانت الشمس عالية خارج البيوت ، الأب تقدم فى العمر سنين . عند الجسر قابلهما الشيخ محمود ناظر المدرسة .

ما تنساش فى البندر يا واديا محروس .

من نافذة الحلزونة الخلفية المتسخة رأى أباه يقف فوق الجسر وحيداً . . ثار الغبار . . اختفى . ثم ظهر . التوى الطريق ، دمعت عيناه وكان الرجال من حوله يثرثرون .

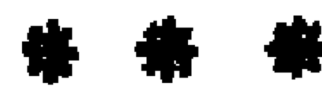
* * *

ـ طالبك ليه يا بوى ؟

ـ أنا طلعت من صغرى يا محروس يا ولدى ولقيت الناس بتشاور على وتقول انى مطلوب لعيلة عويضة ، أبوى قتل خاله من أربعين سنة ، قبل ما تولد وقبل ما هو ييجى على وش الدنيا . حتى لما كنا عيال صغيرين كان دايما يقول أنا اللى حقطع جتهارك يا ولد سلامة أبوك قتل خالى ، وأنا اللى حاخد تاره . أمه بخيته دايماً وراه من صغره . . دايماً تقول له رقبتنا فى الطين وسط البلد . خالك ما تعملوش ميتم لغاية دلوقتى . خالك دمه راح هدر . المهم يا بنى إنه كبر . . سرق جاموسة واتحبس . . خرج ، برضه وراه أمه بخيته . كان يقول لصاحبه انه حيموتنى بطريقة ما حصلتش . حيموتنى وأنا عند الجسر ، باصص لى وهو ساكت . بيجى يخبط على فى الليل . أصله مفترى

ما بير عاش حرمة حد فى البلد . كل ما أقابله ألاقيه يقول لى لسه . . لسه يا ولد سلامة . الحقيقة يا محروس أنا عدت أخاف عليك منه . . دا وحش ما بيعرف أبوه ولا أخوه . إنت شايف حد فى البلد قادر يرفع عينه فيه . حتى الشيخ صالح لما رحت له قال لى وأنا حعمل لك إيه ديه شريعة البلد يا فياض . ويعدين هو عملك إيه . . عويضة لغاية دلوقتى ما هويش ناحيتك . أنا قلت فى عقلى يا بنى أبعتك سوهاج تتعلم هناك وبعدين تروح مصر . أنا هنا عارف ديتها لكن ذنبك انت، إيه ؟

قال والليل يثقل كتفيه ويبلل لعابه بطعم السواد . . وليه أنا اللى حموت عويضة ! هو راعبنى أنا بس ما هو موقف البلد كلها على رجل . . مشيلها جالوس طين حد قادر يقول له كفاية . . . حد قادر يقول له انت بتعمل كده ليه ؟



ربما يجلسون الآن فى مقهى ويمشون فى شارع من الشوارع . أسبوع كامل تجوب نظراتهم الطرقات وتتفحص الوجوه ، والملامح بحثاً عن محروس ، محروس فياض سلامة . أسبوع ولا يحس . ربما مر بالقرب منهم ، مشى بجوار فندق ينامون به ، فى أى مكان هم يا ترى ؟ فى أى بيت ؟ أى حجرة ؟ فوق أى سرير تخفق قلوبهم لليوم الذى تنعكس صورته فى أعينهم ثم ينقضون عليه ! عندئذ يحلق عويضة لحيته . يعدل شال عمامته ، يذهب إلى أمه فى البلدة . تقيم مأتم الخال الذى لم يرتفع صوت نائحة عليه من أربعين عاماً .

دار فى الحجرة ، نفذت الرطوبة إلى عظامه ، فرقعة بومبة فى الخارج ، تصايح أطفال صغار ، وحوى يا وحوى . الجميع يخرجون إلى الطريق بعد السكون الجامد الذى نزل فوق البيوت . أثناء الإفطار تناول ما تبقى من الرغيف وقطع البطاطس الصفراء الصغيرة التى تقطر زيتاً ، أسند ذراعه إلى عمود السرير الحديدى ، هذه اللحظات الأولى من الليل ، بداية السواد ، البرد ، لا يطيق البقاء فى هذه المندرة الباردة الصماء الجدران . الحبلى برطوبة

تقوس العظام ، تأمل مقدمة حذائه . . بلاط الحجرة المربع الأصفر القديم الذى تكسر وتشقق وفصلته عن بعض مجارى رفيعة سوداء . . السقف العالى والأعمدة الخشبية التى تحمله ، لم يعدها من قبل ، كأنه يدرك لأول مرة أن سقف الحجرة محمل على تلك الأعمدة الخشبية ، ليس السقف فقط ، خمسة أدوار كبيرة . فى كل طابق أسرتان ربما . ربما أحد سكان البيت قريب ، قريب أو معرفة لعويضة وجماعته ، ربما يأويهم عنده . . لكن ! لا . . ليس معقولا ، بالتأكيد كان التقى بهم صدفة . إنه يجتاز الباب الخارجى فى اليوم الواحد أربع مرات ، يخرج إلى دورة المياه بالحوش ست أو سبع مرات ، صحيح لا يفتح باب المندرة حتى فى الصيف فهو يعرف تماماً ما سيقوله رجال البيت عندئذ . الأعزب الوحيد فى البيت كله محروس . لا ، بل فى الحارة كلها ، صحيح . من يسكن بمفرده فى الحارة كلها ، عطفة كفر الطماعين ، عندما زاره إبراهيم أفندى زميله سأل المكوجى . سأل الأولاد . . قالوا له ؛

أيوه . . أيوه . . محروس أفندى أبو نضارة . . نمرة حداشر . . نمرة حداشر . .

وقاده من يده ولد صغير . جاء إلى المندرة . ألن يسهل هذا مأمورية عويضة . لو أنه دار على حارات الجمالية كلها . سأل أى طفل صغير . . محروس الصعيدى فين ؟ أيوه يا عم . . جوه يا عم . .

خرجت أنفاسه ساخنة . ضرب راحة يده اليمنى بقبضته اليسرى الباب صامت يصغى إلى زفراته المكتومة . . لم يدر كم مرة راح وجاء فى المندرة . لم يدر كم ألف متر قطعها فى هذه العلبة ؟ قاسها بخطواته . . ست إن أفسح الخطى . . سبع إذا مشى على مهل . قال ركن المرأة فى جريدة قرأها منذ أيام أن ربة البيت التى لا تغادر دارها تقطع فى اليوم الواحد سبعة أميال . شرع فى إبتسامة ما لبثت أن تلاشت . . كتلة الخشب خرساء . . القفل وحيد وليس متيناً . . لابد أن يشترى واحداً إضافياً . . أما النافذة المطلة على الحارة فالقضبان الحديدية لا تدع مسافة كافية للمرور من خلالها . . لكن ! لكن . لا يمكنه فتح الضلفة الخارجية . . عويضة دائماً يحمل مسدساً . عويضة تاجر

مخدرات . . عويضة لا يتحرك فى البلدة إلا وتحت عباءته كارل جوستاف . اما فى المدينة فلن يخلو من فوهة سعتها ٩ مللى أبداً . أبداً . . ربما تسللت الفوهة من بين القضبان . . السرير فى مواجهة النافذة رأساً . . ترى فى أى مكان يبعده عنها ! المساحة ضيقة وشنطة الهدوم الكبيرة إلى جانبه تكمل الفراغ . . لو وضعه بالعرض لواجه النافذة أكثر . لو تمدد بالطول فهذا ألعن . فليتركه كما هو ولينقل المرتبة من فوقه إلى تحته . مكان ضيق محكوم تحت مستوى النافذة بكثير . فلتظل الفوهة السوداء سعة ٩ مللى ، فليطل الميزر . . يدركه . . أما الباب فلا بد من قفل إضافى جديد . . لو يسكن جار أمامه . لكن الفناء لعين . مخيف . . مظلم . . رطب . . خال حتى من لمبة ساروخ . المصيبة أن الدورة فى الطرف الآخر منه . حتى قبل أن يجىء عويضة كان يبدو موحشاً كالجبانة . . كالخرابة . . عدا هذه اللحظات الضئيلة التى تبدأ عندما تخطو سلوى عتبة الباب بقدمها وتقف أمام باب المندرة وتصيح بصوت لين كأنه مضغ التفاح أو مذاق البيتى فور أو الأيس كريم فى يوم حار . . يا سعاد . .

تنادى صاحبتها . عندما خرج وراءها أول مرة لم ينس طوال يومه وقفتها . يداها تحملان حقيبة منتفخة بالكتب . على ظهرها تهتز ضفيرة نحاسية اللون غليظة . أما عيناها فهما السماء فى يوم صيفى حار . . فى كل صباح ينفذ الصوت إلى أذنيه . عندئذ يخرج . ويطيل وقوفه أمام الباب وظهره لها بينما يدير المفتاح فى الثقب الضيق ، وفى يوم من أيام هذا العام دار على المندرة . وتصبب عرقه وتوالت دق ن ات قلبه كقرع الطبل . بلسان مثقل همس . صباح الخير . طول النهار أحس أنه حمامة خفيفة . . شراع قارب صغير . إيشارب وردى حول رأس حسناء يتطاير مرحاً فى هواء ربيعى . . صباح الخير . . وللمرة الثالثة ردت . . لكن ماذا بعد . قال له حسن صاحبه . كلمها ما تبقاش لخمة . لكن البيت والجيران ، ماذا يفعل ؟ الآن لا يعرف ما تفعله سلوى ؟ فى هذه اللحظة بالذات . قام واقفاً . لا بد أن يخرج . . إلى أى مكان ! ميدان الحسين يزدحم بالعربات . . طوفان ضوء يغرق الشوارع المحيطة به . فى الزحام يستطيع المشى متخفياً لكن لو التقى به فجأة !

الثلاثة . . جدار أصم يطفح غيظاً وغلا . طعنة بسيطة فى الجزء الأمامى من الجسم ولن ينتبه أحد . . لكن لو رأى عويضة . هل يعرفه ؟ من سنين . من الصغر . لم يره . . لم يحملق إليه . كل صبى فى البلدة يعرفه . أما هو فنسيه . لا يذكر غير عينيه الحادتين والرقبة الغليظة . . والعباءة السوداء .

* * *

الجدة بهانة . .

الله يقطعه طالع لابوه . جسمه طويل زى الجمل . كتافه عريضة ورقبته فيها ذراع . طول النهار ماشى رايح جاى فى البلد ما حد قادر يلمه . . ما خلى مرة من نسوان البلد إلا ومردغ سمعتها فى الطين . مكسور الرقبة قعد ورا البت صفية لغاية ما رجعت فى يوم من الخلاء وحرقت روحها . . داهية تخفس بيه الأرض . .

الود السيد . .

اسكتى يا ددة أحسن حد يسمعك يروح يدله (يقول له) . . !!

* * *

لبن زبادى . زينهم بائع اللبن . ليس بالتأكيد بائعاً آخر . الحارة الهواء البارود . الليل المظلم ، هؤلاء الصبية الملاعين . . لو أنهم لم يكسروا المصباح ، دخان خفيف ، الفرن القريب يستعد لعمل المكوجى تقترب فجأة . فى هذه اللحظة . تلك الثانية . كأن انفجار دوى أمامه . إبرة ثقبت رأسه حتى اليافوخ . ضبع نهش بطنه وراح يلحس أمعاءه على مهل ولا زال حيا . فجأة ! أدرك أن حياته فى خطر . كأنه لم يعرف هذا من قبل . ربما مات الآن . . بعد ساعة ، بعد يومين . . حتماً سيحدث هذا . بل إن أى شىء يمكن أن يقع الآن تستحيل البيوت إلى ضباب أزرق فاقع . يطل لسان أحمر مبلل باللعاب من شق يفتح فجأة فى السماء . . يتحول الناس إلى ذرات صغيرة . ينفتح تحت قدميه ثقب يغوص فيه حتى يصل إلى البلدة المقابلة على الطرف الآخر للكرة الأرضية . أى شىء يمكن أن يقع . . انغراس الجسم المعدنى فى لحمه هو . .

عظامه هو . . لكن متى !! كيف . . أين !! لا يدري . عندئذ يغمض عينيه . . ولا يطل على شيء فى الدنيا . . أبداً . . أبداً .

* * *

بعد التحية . . .

نلفت نظركم إلى أنكم قد تغيبتم عن العمل خمسة أيام بدون تقديم عذر رسمى . ولما كانت اللوائح لا تسمح بالأجازة العارضة أو التغيب المفاجيء . . . لهذا ننذركم بضرورة . . . .

مدير شئون العاملين

* * *

بائع يانصيب يطوف بالمقهى والقش يملأ الطريق فى الخارج يخفى قمة السور الكبير أمام بوابة الفتوح . . يتثاءب الرجال فوق عربات الكارو الصغيرة . . شرب ما تبقى فى كوب الحلبة المطحونة . صاح رجل . . بصرة !! ضحك شاب ، مر الجرسون ، يرتدى جاكتة حكومية صفراء قديمة حاملا صينية كبيرة مثقلة بأكواب الشاى ، نفث سحابة دخان ، للمرة الثالثة ينظر الجرسون إليه ، ألصق جبهته بالزجاج . . . لا أحد بالخارج ، حتى لو دخل هنا فلن تنفذ رصاصته بسهولة ، هؤلاء العجائز والشبان لا يعرف واحد منهم لكنهم لن يتركوه يذبحه . . . وعويضة مجرم لكنه جبان . . لم يقتل واحدا من ضحاياه العديدين وجهاً لوجه أبداً ، دائماً تتسلل فوهته من بين أعواد الذرة ، من نافذة بيت ، لهذا قتل الكثيرين ولم تثبت عليه جريمة واحدة حتى اليوم . . فى مواجهة الباب صورة قديمة باهتة الألوان مبقعة بهباب الفحم الدفين ، رجل يركب حصاناً . . . باهت الملامح مضيع الوجه ، ألف ألف ليل ونهار خطا فوقها ، فى نفس المكان ، الجدار . أمام المدخل ، لو أن الأيام تمشى إلى الوراء ـــ ١٩٦٧ و١٩٦٦ ، العام القادم ١٩٦٥ ، بعد عشر سنوات نصبح فى عام ١٩٥٥ ويكون البرج لم يشيد بعد ، وسلوى الحلوة الرقيقة لم تدخل

الابتدائى . . أما أم سيد الشهية فصبية ناضجة يترجرج نهداها ، نهداها إذا ما نفضت عن شباك بيتها غباره ، وتمضى أربعون عاماً ويجىء ١٩١٥ ، ترى من سيولد قبله ويراه ، أى حنين يأكله إلى هذه الأيام . . الشوارع الضيقة ، الرجال يمشون تحت البواكى . . . الفونغراف فوق منضدة عالية . . زبائن المقهى يتبادلون الضحكات ، المعلم فى الصدارة ضخم . . غليظ الشارب . . يغنى شاعر الربابة . . يتوقف . . يتراهن الجميع ، من سيغلب ؟ أبو زيد ولا دياب ؟ يصيح فريق أبو زيد ، ويصيح الفريق الثانى . . لا دياب . فى شارع رئيسى ينطلق رصاص محموم يستقر فى لحم طرى وحناجر يرتدى أصحابها الطرابيش . . . الموت التام أو . . . بائع صحف يصيح اللطائف . . المقطم . . البصير يا جدع . .

آه . . لو يرحل موغلا فى البعد أربعين سنة . . لو أنه يملك أسطوانات قديمة تدور على مهل ، تتعثر الإبرة ، تتوه فى ملفاتها العديدة . . الأصوات صفراء رفيعة . . هيه يا رائحة الزمن الذى لا يعرف فى أى أرض من أراضى الله أوغل ويعد . . آه لو يرحل . . هناك لن يرى عويضة . . لن يلمحه . . الأمان . . الأمان للمتعب المحكوم عليه بالموت حتماً . راحة القلب المنهك المخنوق المرعوش أبداً اللوحة صامتة كأنها تقول : سأبهت أبداً . . . لن ترجع ألوانى إلى زهوها . صاح رجل معمم . . تكاثف الدخان . . فجأة . ! أقترب الجرسون منه .

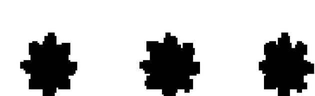
ــ الأستاذ . . يعنى لو سمحت . حضرتك . جارنا ولا . .

بلع ريقه . . أى عقارب تنسل لتشهر ذيبانها فجأة . . ماذا تقصد يابن الأفاعى . . لم السؤال ؟ تلفت حوله ، انحنى ، كاد رأسه يلامس جبهته . .

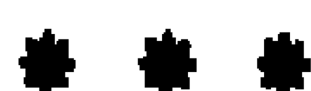
ــ بصراحة يعنى . . كده جدعنه ، يعنى فيه كام زبون هنا متعودين آخر الليل يلفوا كام سيجارة ، حاجة بسيطة كده . خايفين لتكون من رجال الشعبة . . وانت عارف الزبائن . . وعلى العموم المعلوم .

ــ لا . . لا . . أنا جاركم هنا . . أنا مش من الشعبة .

أى حفرة وقع فيها ؟ جار لهم ؟ كيف يقول ذلك ببساطة ؟ صحيح البيت بعيد لكنها نفس المنطقة . ما الذى لا يدريه أن سؤاله لا يخفى غرضاً أشد فتكاً . فليقم فوراً ، ثلاث ليال يجىء إلى المقهى . لن يطيل الظهور فى مكان واحد أكثر من ليلة . . العيون يعرفونه ويعرفون عويضة ، كفت الأيدى عن إلقاء الزهر . . خرست طرقعة الطاولة . مجذوب فى الركن يحملق إليه . . زحف النمل تحت جلده . ذرات الرمل الساخنة فى عروقه بدلا من الدماء . حسابك ! يرقبون ما تخرجه يده ، سقط قرش ، لم ينحن . . . الهواء بارد . بوابة الفتوح . سوق الليمون ، رائحة الحنين الغامض المعذب . المئذنة سوداء غريبة . فوق السور فى الجدران حفر ضباط فرنسيون أسماءهم منذ مائة وسبعين عاماً كأنهم يطلون عليه يخترقون ظهره بنظراتهم . . حسابك ! وكأن الجميع ، كل من فى المقهى . . فى الشارع ينظر إليه . أما الهواء البارد فثلجى موحش .



وأرسل عويضة مكتوباً إلى أمه بخيتة قال فيه إنه قرب خالص منك . . . وكما أخبرنا بأن تستعد لتقيم مأتما على أخيها فهو كما تعلمون لم تنح عليه ندابة من أربعين سنة . . فرجاء تطمئنونا بكلمة لأن عويضة جعل الشيطان يركبنا . ومن عندنا الجميع . . .



لو أصحابه عرفوا ما يهدده . .

ها . . أصحابه . .

أى أصحاب ، حسن ، لم يفترقا أبداً ، السهر حتى منتصف الليل ، العودة إلى بيتهما ، الطريق البارد ، المصابيح فى نهاية الأعمدة الطويلة ترقبهما ناعسة ، فى العصر قبل انتهاء النهار ، ما أحلى شارع الموسكى ما أن يتجاوزوا شارع الخليج وتمرق عربات الترام الخضراء حتى يحوطهما الزحام ، صياح الباعة ، فانلات ، شرابات ، التاجر بيفلس يا جدع البلوفر بثلاثين قرشا ، من المقلة يشتريان الفول السودانى ، يهمس حسن بكلمات خافتة فى آذان الفتيات ، عند

العتبة ينتهى الزحام ، يجره محروس إلى سور الأزبكية ، كل كتاب بقرشين ، أدب .. علم .. فلسفة .. كله بقرشين المكاتب بتقفل يا جدع .. رائحة العصر فى الطريق . عربات المدينة تمضى مسرعة .. أصوات موسيقى من دار الأوبرا .. وسط الميدان يقف التمثال الرمادى ، كتلة من الرصاص جامدة وإشارة من فارس النحاس بلا معنى .. إلى أين يا حسن .. تنطلق المياه من النافورة الصغيرة ، الهواء ، الأمان . يكلمه عن سلوى . بعد طول تردد قرر أن يكلمها . خرج من الباب ، كانت ترفع رأسها على وشك نداء صاحبتها ، أومأ برأسه ، أحس بها تنتظر شيئاً ، فسألها عن مدرستها وأين هى فقالت الحلمية الثانوية ، لم يدر ما يقول بعد ذلك ، كيف يدفع الحديث من جانبه ، سألها عما إذا كانت تذهب كل يوم . أومأت برأسها مخفية ضحكة . حقاً لكم هو سخيف وهل هذا سؤال ؟ عندئذ يصيح حسن غاضباً ، غبى .. كان السؤال الطبيعى متى تخرجين ثم تتفقان على ميعاد . حسن هو القلب الوحيد الذى يقتسم معه ما ينوء به .. أين هو الآن فى أى بلدة أى شارع ؟ عندما وقف يتأمل الطائرة عن قرب بكى .. عض شفتيه .. لمح الطيار يقف مرتدياً حلته الأنيقة .. سعيد هذا الانسان الذى ينطلق بسرعة ألف كيلو متر فى فضاء نهائى سحيق .. أين أمانى الطفولة ؟ فوق البلدة .. لسبب ما تمر بين حين وحين طائرة ، يرفع رأسه .. يجرى يتابعها .. لكم ود أن يصبح طياراً .. دائماً يرسم صور الطائرات فى أوضاع مختلفة .. فوق منضدة قهوة .. فى مكتبة .. بل إنه يحتفظ بكتاب يحوى كل أنواع الطائرات .. جاء حسن مسرعاً ، عيناه تضحكان .. الليل حولهما غميق أسود ، غريب ، امتلأ الهواء المتسرب إلى رئتيه بطيور صغيرة دقيقة مناقيرها مثلثة تنهش الكبد فى مخبئه الأمين عندما تابع الجسم الصغير يبتعد فى الهواء لم يصدق أن هذه المساحة الضئيلة تضم (حسن) .. وسنوات عديدة من عمره ... وقتها رأى بلاط الشرفة العريضة سلاسل رفيعة مزقت جسمه ، أثقلت قلبه أطنان الحديد ، قضى الليل كله ، زمانه فوق قبرص ، الآن نزل بمطار أثينا ، بعد أسبوعين وصله جواب . لن أنساك يا محروس .. بعد شهرين .. أنا سعيد يا محروس . أرى

كل يوم ناساً غير الناس . أحن إليك ولكنى هنا حمامة لا قيد لها . ومن شهر لم يصله المظروف ذو الطوابع الأجنبية ، لن أنساك ، أبدا ميه . ذاب حسن فى بلاد الثلج والضباب ، لكم اشترى مجلات أجنبية ، ربما رأى حسنا فى صورة شارع مزدحم . أبداً لن يراه ، لا يعرف حسن أى دقائق تمر عليه فتصرع روحه فى كل ثانية من ثوانيها الستين ، لو معه الآن لأقام عنده ، لو سافر معه لن يهتدى عويضة إليه أبداً ، زملاء مدرسة الصنايع تفرقوا فى البلاد وابتعدوا ، قابل ابراهيم ، شاربه كثيف ، انت فين . لازم نشوفك . اتفقا على ميعاد . لم يذهب بالتأكيد ، هو لم يذهب أيضاً ، لو قابله الآن ، وقال له إن عويضة يطلبه ، يتعقبه ، قطع ستمائة كيلو متر من أقصى الصعيد ليبحث عنه ، سيبدو الخوف فى عينيه ، يتطلع إلى البنايات المحيطة . . النوافذ ، ربما يطل عليهما عويضة من مكان ما ، يتسمعهما بأذنيه الحادتين . فى حقول الذرة وسط وشيش الريح يسمع بهما خطوات الأقدام على بعد أربعين ذراعاً ، سيجرى إبراهيم . . هكذا كلهم عدا حسن ، حسن الذى راح ، نسى حتى الخطابات ، لو أنه سافر معه ، ركب البحر ، يبتعد عن الأرض التى يجوبها عويضة ، ينزل فى الموانىء ، البعيدة . يرى وجوهاً غريبة ، نسمات هواء على شاطىء بحر أزرق عميق ينبض كالرئتين ، الأطفال كالأرغفة الساخنة الطرية . أصابعهم فى أفواههم . الطائرة تنتقل من مدينة إلى مدينة . . . سيداتى سادتى وصلنا . بعد قليل سنهبط فى . . لكن لا أمل فى رؤية هذا . سيظل يرى نفس البيوت ، الشوارع ، الناس يجول بينهم عويضة . لن يلحق حسن أبداً ، ربما نقض عويضة الآن . إنه لا يصدق وجود هذه البلاد الغريبة . . صور الجبال المكسوة بالثلوج البيضاء كاللبن زائفة . لا بحار واسعة تعجز العين عن رؤية آخرها . أوهام بحارة عجائز سافروا ورجعوا بلهاء مجانين . أما حسن فاختطفه الطائر الحديدى ليغوص به فى فراغ عتيم ، ليس من المعقول أنه فى مدينة يطلع النهار عليها الآن وهو هنا تحت السرير وعويضة يحس المدينة بست عيون وست آذان لا وجود لمدن يمرح الربيع فيها ، لا رجال قصار يرتدون الفراء يعيشون فى الثلج . الصور وهم . الخيالات المتحركة بهجة مزيفة لممثل مسلول . الحقيقى ، الصلب كالجبل ، كغيطان القصب .

الموجود عويضة ينهى كل شيء فى لحظة . يمحو الضحكات والدموع وقلق الليالى وفرحة القلب عند رؤية سلوى . كل ما رآه . قبل انطلاق المدفع دخل الحارة ربط الحذاء والتفت إلى الوراء ، لا أحد عند المنحنى قبل الفرن ، يقف رجل عجوز طاقيته تغطى رأسه تنزل حتى عينيه . جاكتته بنية اللون تآكلت عند الكوعين . بشرته ملساء كأنها ستنفجر بالدم . يسند يديه إلى صندوق صغير مصمت الجوانب سطحه زجاجى ، قوائمه أربع رفيعة عالية . صاح طفل ، ألقت إمرأة بمياه من طابق علوى . هذا العجوز لم يره من قبل . حملق فيه . عيناه لا تتحركان . مفتوحتان واسعتان . لكنهما لا تتحركان كأنه لا يشعر به . ربما يتصنع . نزل العرق من جسمه . بدا الصيام له قاسياً قاحلاً . امتلأ حلقه بقشر سمك ، كاد يصيح فيه من أى أرض هو . هل هذا وقت يبيع فيه للناس . اندفع فجأة صبى عرفه . يوسف ابن زينب التى لا تشبع عينيها أبداً . بتعريفة حمصية ياعم حسين . اهتز رأس عم حسين . كاد محروس أن يصرخ خوفاً عندما سمع صوته . صوت رفيع رفيع جداً كخيط نحيل ومتسلخ . حمصية ولا سمسمية . جالت يده داخل الصندوق . أخرج قطعة الحلوى المرصعة بالحبات الصغيرة الصفراء ، عاد يحملق فى الهواء ، على وجهه ابتسامة سخرية ، استهزاء . وفجأة رفع يده . قبل باطن يده وظهرها عدة مرات . اهتز دماغه . اندفعت الدماء إلى قلب محروس . هذه الحركة ملأته بقشعريرة كالصداع . يوسف الصغير ينظر إليه . . انتبه إليه . أمسك يده . مين ده يا يوسف ، عم حسين . دى أول مرة يقف هنا . أبداً طول عمره ساكن هنا . بس ما كانش بيطلع من أوضته تحت السلم أبداً . مرة أخرى ، عم حسين يقبل يده . ضرب الأرض بحذائه ، أغلق باب المندرة جيداً . .

عاد يتأكد من إغلاقه . . زعق راديو . . موسيقى كئيبة حزينة . فى البندر كان يقف على سلم المحطة . السلالم عريضة والرجال يجلسون القرفصاء . أمامهم مقاطف وصفائح وصناديق منبعجة وقلل فخار . عابرو الميدان قلائل . المقهى الكبير فى مواجهة المحطة باهت الطلاء يتصدره إعلان قديم . . سجائر سمسون . . معدن كوتاريللى . . ومضت بقرة بنية اللون . سمينة تعبر الميدان متمهلة . صفرت قاطرة ، نزل هدوء غريب كأنه الصقيع فوق الغيطان آخر

الليل . من أحشاء الحوارى . موسيقى لونها نحاسى . طويلة كأنها آخر زفرة لطفل يرحل عن البيوت والخضرة ، تخفت . تعلو كالنحيب ، انقبض قلبه ، مصمصت النساء شفاههن . بدا رجال قصار يلبسون أردية صفراء ويحملون أبواقاً نحاسية كبيرة . يضعونها على أفواههم لحظات فيحوم النحيب وينبض صداع القلوب ، يخفضونها فيسمع نواح النساء الماشيات وراء الرجال . أغمض عينيه عندما رأى الميدان خالياً ، فوقه صفرة غريبة . أما الهواء فدسم كماء ساخن . فى هذه اللحظة دخل القطار المحطة . لا يدرى إلى أى البلاد سافر يومها ، ولا أى شخص يجلس الآن فوق المقعد الذى أسند ظهره إليه يومئذ ، أين راح اليوم نفسه . النهار الزجاجى . الآن يقول انه ربما لم يمر يوم كهذا ولم يمت أحد . أى شىء يعلمه عن حال الجثمان المدفون من سبع سنوات ، اليوم الأول كما هو . الثانى تجحظ العينان وتنتفخ العروق ، ينزل حارس القبر ليسرق الكفن . فى الثالث تعلو البطن وتنمو آلاف المخلوقات الصغيرة لتأخذ نصيبها من الحياة ، شد الغطاء حتى عنقه . تأمل خشب السرير والمرتبة ، أمن المعقول هذا ؟ فى يوم معين ، لحظة بعينها يغمض عينيه ولا يفتحهما أبداً . . أبداً . . لن يسمع ولن يرى . . أما هو فما أقرب اللحظات .

لن يكف الوريد عن ضخ السائل الأحمر فجأة . لن تخرج الذبابة الزرقاء ، ترفرف بجناحيها ليتلقاها ملائكة اليمين والشمال فيسألونها الحساب . عويضة هو الذى حدد ميعاداً لكل هذا . ترى هل عرف البيت أو لا ؟ أما هذه الليلة فلم يمر أبرد منها طوال الشتاء . ينتهى رمضان ، لساعاته مذاق غير المذاق . كم مضى من الليل ولم يتبق عنده أكل للسحور يجىء زينهم بعد قليل ويشترى منه سلطانية اللبن . صوت خطوات ثقيلة ، رفع رقبته . . أصغى . الوقع ثقيل . لم يتعود سماعه فى مثل هذا الوقت . . كل ليلة . هل هو الحذاء الأسود والرقبة المحلاة بقطعة أستك صغيرة تبيح للقدم الغليظة أن تنزلق داخله . . ازدادت الخطوات وضوحاً . أين المخرج ؟ النافذة . القضبان الحديدية . . دخل الحذاء ، باب البيت . . فى الفناء . تردد أمام الباب . . صمت ! بلع ريقه . أرهف أذنيه محاولا التقاط صرير البلاط تحت الثقل المخيف نزل سكون

قاس . . حد سكين . . ماسورة ميزر . . أين راح ؟ ربما ينتظر حتى تحين الفرصة . آلمته رقبته المتصلبة . السرير يخنقه . . خرج من تحته على مهل محاذرا أن يحدث صوتاً ولو ضئيلاً . فجأة توالى صوت عصا تصطدم بجدران البيوت . فوق النوافذ ، صوت عجوز كالماء البارد فى يوم حار تسرب إليه :

ــ وحد الله يا عم سيد . يا عم صالح وحد الله . ياسى سعودى ياعم نادر وحد الله . . يا محروس افندى . .

لا . . لا داعى . قفز ناحية النافذة ، صاح من ورائها :

ــ عم عبده . . عم عبده .

نزل صمت لحظة ، جاء صوت الرجل من الخارج متسائلا ، أجابه بصوت خال مرتجف :

ــ ما فيش داعى تنده إسمى . . أنا دايماً صاحى . . و . . عيديتك محفوظة .

بدا العجب فى صوت الرجل عندما أجابه موافقاً ، لكن من يعلم ؟ ربما لم يكن هو صاحب الخطوات . ربما لم يهتد إلى البيت . ربما تصادف مروره ، يسمع النداء . . عندئذ يكون سلم نفسه إليه . .

امض . . امض يا عم عبده .

ــ وحد الله . . وحد الله يا نايم .

* * *

توقف حسين المكوجى عن العمل . . سأل صبيه :

ــ مش محروس أفندى اللى دخل ده من شوية .

ــ آه . . أفتكر هو .

لوح الأسطى حسين بيده :

ــ نسيت أقول له إن واحدا سأل عنه ، إبقى فكرنى أقول له ؟

ـ فيه سبانخ وكوسة وبسلة .. وفيه مكرونة بالفرن وكباب وكفتة ..

الدخان يحمل رائحة اللحم المشوى .. المريلة البيضاء الكتابة فوقها بحروف حمراء متسخة . مطاعم الحسين . الجالسون فى المطعم قلة . هذا العجوز بجوار الجدار .. إمرأة بيضاء فستانها أخضر .. ورجل أقصر منها يجلس أمامها فى الطريق الخارجى . شبان يلوحون بأيديهم يغنون . عويضة لا يأكل الآن فى المطعم .. ليس بين الموجودين .. ربما يقف على ناصية الطريق يرقب الشارع .

لكنه ليس بالداخل :

ـ أبوه يا أستاذ ..

لا زال ينتظر . أى شىء يأكله ! من أيام لا يعرف غير الجبنة والحلاوة الطحينية ..

ـ سبانخ .. ارز .

الوجوه تتتابع .. الأضواء فى الخارج .. حمراء وزرقاء وخضراء خادم القهوة المقابلة يروح ويجىء بسرعة .. الزبائن يتكاثرون ، سحابات البخور والضباب تتصاعد لتملأ الفراغ .

عربات الباعة الصغيرة تصطف على جانبى الميدان .. المئذنة الرشيقة تطعن الفضاء . لو وقف فوقها لاستطاع رؤية كل آدمى فى المدينة .. فى البلدة يصعد الرجل ليجنى البلح من النخيل .. يطلق صوتاً ليحذر الحريم فى البيوت المحيطة المنخفضة .. أما عويضة فلو انسرب إلى المئذنة واستند إلى الحاجز الحديدى ! سيعرف أين يخطو ؟ كم مرة تنفس فى الثانية ! كيف ينبض قلبه ! الأمنية التى تجول بعقله ، نوعية الذكرى . أهل البلدة يعرفون أن عويضة يلم بكل شىء عن ضحيته قبل انقضاضه . عندما قتل الأعور جاد الله كان قد اختار التوقيت الذى يتمدد فيه بين ذراعى امرأته سعدة التى يشتهيها ويشتهى مصاغها . لن يغيب أى شىء عنه ، هكذا يعلم الجميع .

تلفت حوله .. الطبلة والمزمار من الطرف المقابل للميدان . طلبة يزعقون . يضحك شبان حوله . شنبو ياشنبو .. يهزون خصورهم ، نظر إليهم وقرض شفته . كأنه يقف على قنطرة صغيرة والماء يتدفق هادراً من تحتها . إضحكوا هزوا أردافكم يا من يماثل تاريخ ميلادكم ميلاده . التصقوا بالبنات ، أحقيقى أنكم بعيدون عن عويضة ؟ لو أعجبته ساعة فى معصم أحدكم لتتبعه وقطع يده .. لو اشتهى صاحبة واحد منكم لأخذها فى وضح النهار والشمس تغلى فى السماء ولن يجرؤ أحد على هز أصبع فى وجهه .. صاح منادى العربات .. نزل رجل حول رقبته كوفيه حمراء منقطة بدوائر بيضاء .. دار برأسه .. رفع المنادى يده بالتحية . أشار الرجل إلى البيوت القديمة القائمة عند ضلع الميدان الشمالى :

ـ إيه ده ياريس !

ـ دى بيوت يا سعادة البيك .

هز رأسه .. ابتسامة تودد على وجه المنادى ـ أشار إلى المجذوب حامل وعاء البخور .

ـ إيه ده ياريس !

ـ دا بنى آدم ولا مؤاخذة مجذوب يا بك .

هيه ، إلى الحسين ، أين غاب عنه ، من سنين لم يعرف الطريق إلى هذه الهدأة السكونية التى تلفه منذ مئات السنين ، على بعد خطوات منه ولم يدخله ، لم يقبل مأوي الرأس المفصول عن الجسد والتى طارت من كربلاء إلى مصر مدة أربعين يوماً لتخفيها أم الغلام المسكين الفقيرة وتفتديها برأس إبنها ، عويضة لن يقبل الفدية ولو كانت خزائن قارون وكنوز سليمان الحكيم ، كيف يرفع رأسه وسط الناس ، لابد أن يجز عنق محروس .

المقصورة مغلقة . فوق الباب الحديدى المزخرف ورود حمراء كبيرة ، بالمدخل هدوء غريب نفذ حتى نخاعه ، فى حائط الباب الأخضر خارج المسجد شق لا يروح العطر منه ، قال الشيخ العجوز إن الرأس حط هنا بعد رحلته

الشاقة . ومن يومها والعطر الحزين لا يفارق المكان ، قال الشيخ الحزين أيضا لو كشفوا عن الحسين الآن لوجدوه على حاله ، ملأته دهشة . أكد الشيخ ما قاله . ها هو يرى سيد الشهداء ، رأسه الحبيب الطاهر الذي لم يكف عن ذكر إسم الله طوال حياته . بداخل المقصورة يسيل الضوء ناعماً وقوراً ، إنه يرى سيد شباب أهل الجنة ، هذه الخضرة بجوار الحبيب . تحت السقف العالى المرتفع ، هنا وليس فى أى مكان آخر لن يستطيع عويضة اللحاق به . فليدخل الحبيب سيصفح عنه ، يغفر له ، إنه ظل سنوات يمر كل يوم أربع مرات أو ستا ولم يدخله بل لم يفكر فيه . الآن لن يغادر المكان ، بالداخل أمان لن يعرفه إلا هنا . بجوار الجسد الذى لم تجف دماؤه ، ولن تجف حتى ينفخ النفخة الثالثة فى الصور ، نفخة طولها أربعون ألف سنة ، يعقبها صمت أربعين ألف سنة ، وينفخ نفخته الثانية ، ثم يجيء نفس الصمت حتى ينفخ النفخة الثالثة . لكن الباب موصد يا سيد الشهداء ، المقصورة مغلقة ياعصب العين ، يا صاحب الدماء الزكية ، يا ربان السفينة . عويضة يسعى وراءه ، يقتفى رائحته ، يتسمع صوته ، همسه ، حركاته وسكناته ، عويضة يقتله فى هدوء ، قم يا زينة شباب الجنة ، يا ملجأ الشاة المذعورة من الذئب ، يانور الأرض ، محروس يناديك أنت ، أبوه ، قتلوا ابنك فى حجرك بعد أن منعوا الماء عنك . جرحوك مائة وسبعين جرحاً . ذبحوك واحتزوا رأسك وداسوك . آه لو يدخل فلن يفارقك أبداً ، ولن يقوم من جانبك وفى كل عام ، فى نفس ميعادك ، يقيم الندب عليك سنة بأكملها حتى تبعث حياً . . لو يدخل . . لو يستكين . . الباب موصد .

المنبر الخشبى زخارفه صماء . . بكى . . يد تقبض قلبه كأنه صبى صغير تركه أهله ونزل عليه الليل فى الخلاء بعد أن دخلوا الملجأ الأمين . قعد بين الرجال . الجميع يحملقون إلى شرفة خشبية عالية ، لم ير شيئاً . الجميع صامت خاشع . مال إلى الجالس بجانبه يستفسره ، قال الرجل وكان عجوزاً جداً . . جبته قديمة . قفاه نحيل ، يصلبه عرقان غليظان جافان . .

مقرىء جديد صوته أحلى من صوت عبد الباسط .
ياه .. منذ متى لم يكلم أحداً .. كأنه يحرك لسانه بيده ..
ـ يا ترى حيقرأ سورة إيه ؟

لم يرد الرجل .. النجف الثقيل ينوء به السقف الملون .. رجل يحمل قربة ماء ويمسك أكواباً نحاسية ، تناول منه كوباً تسربت برودته إلى لحمه ، ما ألذ الماء فى هذا الوقت من الشتاء ، نهاية العام ، أومأ الرجل شاكراً ، عاد يتتبع زخارف السجادة المعقدة المتشابكة ، رفع رأسه . الرجل يحمل قربته ، ينظر إليه غاضباً .

ـ تعريفة يا أستاذ .

كالملسوع انتفض ، بحث فى جيبه عن القطعة المعدنية الصغيرة انصرف الرجل مبتعداً .. يا كريم .. الكل يحملق ناحية الشرفة الخشبية العريضة .. لا صوت ، وقف ، أى ضجة ثقيلة فوق أرض الشارع ، الطريق مغطى بالرؤوس ، نزل تحت الرصيف إلى أين ؟ البيت ! المخبأ ! تحت السرير ! ربما ينتظره بجوار دورة المياه خارج المندرة ، ربما عند الناصية . لا يعرف إلى أى الناس تنتمى هذه الملامح التى وصفها له حسين المكوجى ، لكن هذا الغريب رفض أن يقول اسمه ، بل وسأل عن ميعاد دخوله وخروجه .. لابد أن ينتظر والزحام سيتلاشى بمجرد عبوره حارة الوطاويط ، تصبح الشوارع وحيدة قاسية شرهة إلى الدماء تماماً كما سيجد ميدان الحسين ثانى يوم العيد .. تذوب كل هذه الضجة ، كثيراً ما عبره فى الليل . يبدو متسعاً خالياً تماماً ، إلا من شحاذ يفترش رصيف الجامع . بائع لبن يغلق أبوابه . لكم يبدو الحسين وقتها وحيداً عجوزاً تثقله آلام سنين طويلة من الغربة ، آه لو أن المقصورة مفتوحة .. ألف ألف سنة والرأس لم يلتق به أبداً .. أبداً .. أما عويضة فيا أقربه ، لن يرجع إلى المندرة سيمضى بين هؤلاء حتى يبدو النهار الأزرق ، مضى حول الميدان ، لو سلوى معه ، أى أمان يحوطه ، أى مشاعر تريحه ، منذ شهر وكانت أنفاس الخريف تحتضر أمام زحف الشتاء القاسى .. رآها تعبر الميدان بمفردها متجهة إلى محطة الأوتوبيس ، صمم أن يكلمها ، تردد أمامها كثيراً . اندفع وتدفقت الدماء من قلبه إلى أقصى أطراف جسمه ، ركبت ، ركب ، نزلت .. كاد أن

يحاذيها بقرب هذه الحديقة الصغيرة . عندها تراجع فجأة ، كأن يداً لطمته ، تهاوى على المقعد الرخامى وراح يرقبها تبتعد . ذراعها فى ذراع شاب . ربما يشبهه ، بما لا يقل عنه . . أى عجز ثقب قلبه . الوقت عصر والشمس فوق النيل لا تبين . عبر الكوبرى . أى وحدة مرهفة كسن موس مصقول آلته ؟ حتى حسن راح ، لو معه لحكى له ما هز قلبه . . لكنه بعيد . وسلوى نائية مثل كهوف الجليد ولا أصدقاء . . لا شىء غير وجوه غريبة تمر حوله ضاحكة زاعقة . . هامسة . . حتى المندرة بعيدة . . لا يجرؤ على الرجوع . . لكن إلى أين ؟ هل صدمه أحد ؟ . . رجل عريض طويل . . جلباب بلدى . . معطف وبر الجمل . . إبتسامة خفيفة على وجهه ينظر إليه . . لا يذكر ملامح عويضة . . لكنها أوصاف المكوجى . . التفت وراءه . . غاص قلبه . . أين الرجل ؟ لا يعرف عويضة . لكنه سيشم رائحته . . عويضة قريب من هنا . . ربما داخل واحد من هؤلاء . . . الخطاب فى جيبه من البلدة يقول إن اللعين أرسل لأمه يأمرها بتجهيز مناحة على الخال المقتول من زمن لم تعرفها كفور ولا نجوع البلدة منذ ألف عام . . أين هو . . ؟ أين ؟ تزايد اندفاع الناس حوله ، دار حول الضلع الشرقى للجامع ، الموازى لحارة أم الغلام . ابتسم معلم شاربه ضخم كبير طرفاه مرفوعان إلى أعلى . . داخل فمه أسنان ذهبية ولسان أحمر يهتز اهتزازات صغيرة سريعة . . صاحت امرأة على رأسها صف من ريش ، اشترى منى بخور ، صاح مجذوب يرتدى جاكته عسكرية قديمة مليئة بالأنواط والشارات وقطع قماش صغيرة . رفع سيفه الخشبى الأخضر والمكتوب فوقه . . لا إله إلا الله . . زعق فى الناس . . أين عين الخلد ؟ مد شاب ذراعه . احتضن صديقه . . تراجع إلى الخلف ليتأمله . . يا راجل من إمتى ما شفتكش . . خبط البائع على طبلة بنية اللون مزخرفة الحواف . قال للشاب الذى يرتدى قناعاً ورقياً يمثل قرصاناً ، دى نغمتها ترقص أجدع ست فى البلد . مد الشحاذ يداً واحدة سليمة . . سبع عيال وأمهم يا بك . طوح شاب يده فاحتكت بردفى بنت قصيرة ممتلئة . . تنهد بقوة . شاب أسمر طويل يهز وسطه ويلعب حاجبيه . . قال بائع الكتب . بجنيه وعشرين فى المية

تخفيض يبقى ثمانين .. اللافتة على السرادق الكبير . دخول عموسى بثلاثة قروش .. فوق الرصيف اقترب منه طفل صغير أبيض حلو العينين ، قال بصوت هامس . عاوز نسوان يا بيه . ضعف الضوء حول المئذنة صرخ رجل مقلداً صوت امرأة . تطايرت رائحة الكباب من مدخل خان الخليلي .

والنافورة الرخامية خرساء جف ماؤها . الرجل قريب منه .. لكنه لا يراه .. أين ؟ صوت المطربة سيدة أم السعد صاحبة السرادق المطل على حارة الوطاويط ، توقف غناؤها .. تتابعت الأصوات .. والمعلم . و .. والأستاذ وأنا وأنت سلام كبير قوى .. هل يسمع إسم عويضة أبدا ؟ لكنه يعذبه . يعرف أهل البلدة المساكين عادته ، لا يقتل ضحيته مرة واحدة ، يتركه فى متناوله حتى اللحظة التى يحددها هو ، وهكذا يعيش كل مزارع صغير أو صاحب بقالة أو صاحب جمل فى البلدة . وهو يظن أن عويضة يطلبه هو وعينه على ماله ، لهذا لا يجرؤ واحد على الوقوف أمامه أو ذكر اسمه بصوت مرتفع .. بالتأكيد عويضة قريب جداً ، لكن أين ؟ لا يعرف ، ربما العينان الضاحكتان الناعستان ، الصوت الناعم .. الآذان المرهفة .. ابتسامة البائع الزائغة .. غضب جندى المرور . مساومة البائع .. شهوة المراهق إلى لحم امرأة ، حتماً هنا .. الميدان كله يعرف ولا يعرف ومع هذا يضحكون ويتمايلون ويشترون الطبل ويرتدون أقنعة الربان بلود .. عويضة هنا .. افيقوا ! أحقا إنكم لا تعلمون .. أبداً .. أبداً .. حتى ساعى البريد الذى حمل رسالات الجد أبو الغيط كان لا يبدو عليه أنه يعلم ما تحويه الخطابات ، فوقه السماء لا تبدو من الأضواء .. آه لو أنه فى مكان ناء ، لو هناك حياة غير الحياة لو عاش إنساناً آخر فى عالم ثان .

لن تمضى غير دقائق وثوانى يشق الزحام ، تخمد كل هذه الضجة ، يسكت الشباب الذين يرقصون التويست ، تظل سيقان النساء مكشوفة بلا حقائب تغطيها ، عندما يقترب منه سيشيرون كلهم ، لكن لن يرفع واحد منهم صوته باحتجاج ، لكن لابد أن ينبههم قبل اقترابه ، لابد أن يوجد شخص ما فى هذا

الزحام يحميه ، لم يخلق الله عويضة بمفرده ، لابد .. لابد .. دار رأسه تصبب عرقه غزيراً يائساً . من يوقفه في الزحام ، الكل لاه .. يضحك .. يغني . أقشعر جسمه . زحف تحت جلده نمل شائك يخز عروقه ، تلفت وراءه وأمامه ، إلى اليمين وإلى الشمال .. ثمة ذبابة تطن بجوار أذنه ، أي حشرة يسمع أزيزها في الطوفان ، هي روح أمه أم أبيه ؟ يقولون في البلدة أن روح الميت ، إذا ما حنت إلى شخص حي ، بدت في هيئة ذبابة زرقاء شفافة الجناحين لا يراها ، لكنه يسمع الآن .. ابتلت ثيابه من العرق الغزير ، اعتلى قاعدة النافورة ، عبر المسافة الضيقة التي تفصله عن الزهرة الرخامية التي تتوسطها .. انتبهي يا غابة من رؤوس سوداء ، لابد أن يعرفوا أي خطر يكمن بينهم ، يتهدده ، أي سكين تكاد أن تلامس رقبته ؟! لابد يا غابة الرؤوس السوداء والعيون والأنوف والضوء الأزرق والأسنان الذهبية ، ووقع الخطى في جوف الليل ؟ لابد أن يشعروا به ، يتنبهوا إليه .. رمى جاكتته فوق الرصيف ، لوح ببطاقته الشخصية ، زعق بأعلى ما يمكن لأوتار حنجرته أن تخرجه ..

ـ أنا واحد وثمانين ستة وستين .. جمالية .

طوح بالبطاقة ، فليلتقطها عويضة ، فليعرفه ، فليرحمه ، فليقبل إن لم يجدوا أحداً من الزحام يمنعه فلا مانع بعد اليوم ، ولا عاصم ، انتبهي يا غابة الرؤوس السوداء ، يا معرض العيون المترجرجة الزجاجية .

أشارت سيدة أنيقة جداً فستاناً أخضر قصيراً جداً ..

ـ لوك يا حليم .. الراجل باين عليه حيلعب لعبة .

ثم مضت ، رمى آخر قطعة من ثيابه الداخلية في إتجاه المسجد ، تكاثف الزحام ، أشار إليه شبان ضاحكون . الذبابة تطن من جديد أي صوت آخر سمعه ، لم يدر تماماً ، بكل ما تبقى في خلاياه من قوة صاح للمرة الأخيرة ..

ـ أنا واحد وثمانين ستة وستين ، أنا واحد وثمانين وستة وستين جمالية !!

الجميع يمضون ومجموعة شبان يرفعون عقيرتهم بالغناء . شنبو يا شنبو .. لم يشعر بوخزات البرد التي تلسع لحمه العارى ، لم يدفع عنه أحد ما يهدده ،

توالى وقع طبل سريع متوتر محموم يوشى بجسم راقصة يتثنى ، كأنه سمع ضحكة هازلة تخرج من فم سمع أوصافه من حسين المكوجى ، عاد طنين الذبابة ، دفن رأسه فى صدره ، وانحنى حتى كاد جسمه أن يتقوس ، وسمع عويضة يشق للزحام واثقاً ، ثقيل الخطى لا يوقفه أحد .

هداية أهل الورى لبعض مما جرى فى المقشرة

اطلعت على هذا المخطوط منذ شهور فى خزانة كتب أحد الجوامع القديمة بالجمالية ، وأثارنى بغرابة موضوعه ، إذ لا يمت إلى أى من المسائل المتعلقة بالفقه أو الشرع ، حيث تضم هذه الصفحات ذكريات آمر السجن الذى عرف فى عصور المماليك الغابرة باسم المقشرة ، وكثير من صفحات المخطوط مفقودة ، غير انى آثرت نشر ما وجدته لندرة مادته وغرابتها ، ولم أتدخل إلا نادراً كذا لاحظت أن المؤلف لم يحدد عصر السلطان الذى تولى فيه أمرة المقشرة . غير أنى أرجح أنه كان زمن السلطان الأشرف قايتباى . أو الأشرف قانصوه الغورى ، آخر سلاطين المماليك . ولعل القارىء أو الباحث يجد فى هذه الصفحات مادة مفيدة وصفحات هامة لبعض مما كان يجرى فى مصر خلال هذه الأزمان البعيدة ، غفر الله لنا ما تقدم وما تأخر من ذنوبنا .

رب يسر وأعن ..

أغفر ذنوبنا يا سلطان السلاطين ، واستر عيوبنا يا أرحم الراحمين إياك نعبد وإياك نستعين ، اللهم صل وسلم على سيد المرسلين الذى كان نبياً وآدم لم يزل بعد بين الماء والطين وعلى آله وصحابه أجمعين .

أما بعد . .

فلما كنت قد توليت إحدى الوظائف الغريبة فى زمانى ، التى أخدم بها مولاى السلطان ، ونظراً لما وقع لى من حوادث غريبة ، ونوادر قد تبدو للبعض أليمة وللبعض ظريفة ، ولما كنت أقضى جل وقتى فى المقشرة ، قلت فلأخط شيئاً مما أراه وما أسمعه ، ومن يدرى ، ربما قرأ مولاى أشرف زماننا ما كتبته فيعرف إلى أى حد تفانيت فى وظيفتى وذقت فيها الألم ، وكدت أرى منها الهلاك ، عندئذ يرق قلبه ، وينعم علىّ بتقدمة ألف أو ربما دنانير من بعض جوده ، وأعلم غفر الله لنا أجمعين ، أن السجن الذى أنا آمره ، يقع بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين جامع الحاكم بأمر الله ، وسمى بالمقشرة ، لأنه أقيم موضع فى كان يقشر فيه القمح . والعامة لسوقة والمشايخ وجميع أهل مصر يقولون أنه من أبشع السجون وأشدها هولاً . يقاسى المسجونون فيه من الغم والكرب ما لا يوصف . والذين يقولون عنه هذا لم يروه من الداخل فكيف بهم إذا دخلوه . ولو مر الرجال والنساء من جواره لقالوا سراً أو علانية وهم من بنائه يبتعدون ، اللهم عافنا شره وبلاءه . وأسمعهم يقولون هذا فأسخر منهم ، لا يستبعد واحد مكنم نفسه عن المقشرة . ربما اليوم وسط عيالك وإلى جوار امرأتك ، وفى الصباح فى أسفل طباق المقشرة .

وفى بعض الليالى التى أقضيها هنا أضيق بوجودى وبنفسى ، فى النصف الثانى من الليل يكون الهدوء غويطاً كالموت والظلام غيفاً حتى للذين ألفوه . وأسمع أصواتاً تجىء من الأحياء المجاورة . لا يبين فيها صوت الرجل من صوت المرأة . ولا تفسر منها كلمة ، أقوم متجولاً حول السور الذى يعلو البناء . إذ أقترب من منتصف السطح أسمع هسيساً . . أصواتنا رفيعة ممطوطة يقشعر لها البدن ، من هنا يبدأ سلم حلزونى هابط إلى عمق كبير . على جانبيه حفر ضيقة فى الجدران . لا يتمدد فيها الإنسان على راحته كما لا يمكنه الوقوف بطول قامته . هذه هى المواضع التى يربط فيها المحابيس ، وربما نزلت من حين إلى حين يتقدمنى السجانة ينيرون السراديب ، وأسأل نفسى ما الذى يفكر فيه شيخ قضى هنا ما يزيد على سبعين عاماً . أو شاب مضى عليه عامان .

أتأمل وجوههم . أداعبهم وربما ضربتهم فجأة وصحت فيهم إنه لا أمل لهم يرجى . فالوجوه تبدو كريهة ممقوتة . وإذا أردت أن تجعل رجلاً من المحابيس الجدد يبكى كالنساء ويقول أنا امرأة ، فأخبره أن عياله مات منهم اثنين وأن زوجته طلبت الطلاق منه وتزوجت ، وإذ ينزل الليل تطلع الوطاويط ويسمع صوت أجنحتها عندما تصطدم بالجدران أو أراها تأكل النبق المختطف من شجرة قريبة . وساعات يصرخ المحابيس من أسفل وتنبعث رائحة كريهة مهولة تهب فى أحايين كثيرة فجأة ويكاد السجانة أن يهجوا على رؤوسهم لفظاعتها . ولم يعرف سبب ذلك .

جاءنى سجان كبير وأخبرنى أن الأمير طبقطباى مقدم ألف أرسل جملة محابيس لإيداعهم عندنا . قلت كم عددهم . قال أربعون ولن تمضى ساعة أو أكثر وكان الليل قد نزل تماماً حتى سمعت جلبة بأسفل . وقفت عند حافة السور وأنا أتحرق لرؤية المحابيس الجدد . هكذا كلما جاء وارد جديد تمنيت أن أراه بسرعة . وأروح أخمن من ؟ إعلم . إننى لا أعرف من يجىء إلى المقشرة إلا بعد تسلمى له ، ومن يدرى ، ربما كان أحد الأمراء ، ربما الأمير الدوادار أو أتابك العساكر نفسه لا يعلو إنسان فى بر مصر والعرب والعجم على المقشرة . وإذ يكون واحداً (كلام مطموس فى الأصل) ماذا يدور بباطنه . وكيف . وكيف يجد نفسه الآن . بعد أن كان فى صباح اليوم نفسه . أميراً عظيماً تدق على بابه الكوسات (الطبول) ويمشى السعاة أمام ركبه . وقبل شكه فى الزناجير (الحديد) أضربه مرة وإثنين وثلاثاً وأجعله يقاسى فى البهدلة والمشاق ما لا خير فيه . لا يعلو إنسان على المقشرة . أنت أمير . أمير فى بيتك وعلى نسائك . وأقول له ربما خربوا بيتك واغتصبوا نساءك ونهبوا شاشك وقماشك وكلما علا الإنسان فى مقامه زدنا فى إيلامه . هكذا يقول مولانا وسبحان من له الدوام .

قمت متجولاً فوق السور . الطريق الكبير تحتنا مقطوع الرجل من المارة ، عليه خمدة . فمن أيام نادى مولانا بألا يمشى أحد بعد العشاء ولا يغادر المماليك الطباق ولا ينزلون إلى المدينة ملثمى الوجوه . ضربت الحجارة بيدى وناديت

سجاناً كبيراً . سألته . . متى يصل الوارد الجديد ؟ قال بعد ساعة زمن . قلت ألم تعرف بعد من هم ؟ قال إنهم فلاحون . هززت رأسي بلا اهتمام . هذا شيء يثير القرف . سألني أين نضعهم ؟ قلت فى القاعة الصغرى . قال الأربعون مرة واحدة ! قلت نعم .

رب يسر وأعن..

كل منهم كالعود البوص أو عصا الخيزران ، ثيابهم مقطعة . . أيديهم مربوطة إلى بعضها . . عيونهم جاحظة كأنهم زجوا إلى يوم الحشر . لا تعلو منهم همهمات أو أصوات . أما الليل فساكن لا يبدد هدوءه صوت . ولن أنام فى وقت قريب . فلأعرف بعض أحوالهم قال سجان كبير إننى لن أجد فيهم ما يسر . كلهم مثيرون للقرف سألت واحداً منهم . ماذا فعلت يا إبن معيكة ؟ طلع صوته متحشرجاً غليظاً . والله لم أجن ذنباً ولم ينكسر على درهم واحد من مال السلطان . صفعت آخر على قفاه وتلقى الصفعة بهدوء كأنه يقول . . إضرب غيرها ورجعنى إلى امرأتى وعيالى . ثم قال إنهم كانوا فى الغيط يرمون البذار ولا يدرون إلا الفرسان يكسبونهم . وينتقون أربعين رجلاً ويشكونهم فى الحديد . سكت الرجل وصاح فلاح عجوز . جاءوا بنا على أننا عربان يا سيدنا ، ما قدروا يمسكوا عربياً واحداً من أهل الجبل . . فأمسكونا نحن حتى يقولوا للسلطان . . أنظر أحضرنا لك أربعين عاصياً . ونحن لم نعص ولم . . درت حولهم ولمحت أربعة صبية صغاراً يتمنى أى من المحابيس أن يسكن مع واحد منهم ، صاح سجان كبير آمراً إياهم بألا يزعقوا فى الليل . لأن السلطان سوف يعرضهم قريباً . ارتفع عويلهم كالنساء . زعقت فيهم فسكتوا . ورأيت رقابهم نحيلة جداً وعظامهم بارزة لمحت شاباً عيناه واسعتان . سألته هل أنت متزوج ؟ قلت إمرأتك شابة ؟ لم يرد . كتفاه عريضتان . قلت على مهل . لن ترى عيالك أبداً تصور هذا وتمعن فيه جيداً ، ظل صامتاً ، وقلت له إنك أول من ستقطع رقبته أو يوسط على باب زويلة ، ألا تخاف . . ؟ فقال أنا حزين وبى رجفة ، قلت هذا لن يمنع وأشرت بيدى

وغمزت بعيني ، سألني فجأة ، كم سأقضي في المحبوس ؟ أطرقت لحظة ثم قلت له أتحب أن تعرف ! لم يرد . قلت .. إذا قدر لرقبتك ألا تقطع أو جسمك ألا يوسط ، فربما تقضي عندنا تسعين عاماً إذا قدر لك أن تعيش هذه المدة وربما سنة ، وربما عشرين ، لن تخرج إلا إذا أمر السلطان بذلك ، وأنت من سيوصل أمرك إلى مولانا ؟ هل تعرف والى القاهرة أو أميراً كبيراً حتى يشفعا لك عنده ؟ رأيت الخوف يغشى عينيه ، قلت لنفسي هذا واحد لا يعرف ما ينتظره ، فلأقل له ولأتمعن ما يدور على وجهه ولأخمن ما في نفسه . وها هم بقية الزعر مصغين كأن على رؤوسهم الطير ، قلت هذا إذا لم تمت مطعوناً « بالطاعون » أو لم يمص الوطواط دمك ... وأعلم أن الوطواط في المقشرة كالرجل والعقرب كالبغل ، أما إذا شعرت أنا بالملل في أي ليلة فربما جئت بك عندي لأعريك وأقطع لك « كلام فاحش آثرت حذفه » وأعلم أننا لو فعلنا ما نريد بك ، تصور ، أي شيء يخطر لنا ، فلن يتكلم أحد ، ولن يرفع رجل سبابته احتجاجاً ، ولن تعول عليك امرأة أو تنوح عليك زوجة ، قلت لنفسي إنني أعرف تماماً ما يجرى الآن في عقله وصدره ، فلأبعث فيه ما قد يسقطه ميتاً . سلطاننا نفسه لا يملك أن يفعل مثلما أفعل . هل يستطيع أن يقول ما أقول لأي من المحابيس في السلطنة ؟ همس الفلاح العجوز ، والله يا أمير ما عملنا شيئاً .. ضربه سجان كبير على وجهه ونزل الصمت فوق الجميع كالمصيبة .

وكان القمر يتسحب على حائط السماء مخنوقاً مبتور الوجه ، اقتربت من الشاب عريض الكتفين . طبعاً أنت لا تعرف كل ما عندنا من ألوان العذاب ، والويل لك لو أشار واحد من أصحابك عليك وقال إنك تحوز مبلغاً من المال حتى لو عشرة دنانير ... تكلب وتخوزق وتعصر أطرافك وأصداغك وتخلع أسنانك وتدق في فروة رأسك أو نخلع أبزازك ونشويها ونطعمها لك . لاحظت أن ثبات عينيه قد اهتز ، وشفتيه ترتجفان ... قربت وجهي من وجهه كاد أنفي أن يلامس أنفه ، وفجأة زعقت عليه زعقة عظيمة فتراجع إلى الوراء متعثراً ، فانطلقت ألكمه في صدره لكماً هيناً طرياً لكني أعرف تماماً ما يحدثه من أثر . وصحت منبهاً إياه وإياهم أنه لن يرى أمه أبداً .. أبداً ..

ولن يسمع نداء زوجته إذ يرجع من الغيط . وفى الجب سينسى ملامح أولاده وأسماءهم . . قلت لهم كلهم وأنا أعتدل فى وقفتى . . لن تعثر شامة لكم على أثر .

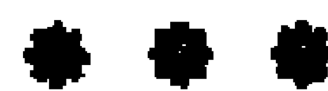
صحت على سجان كبير فرفع عصاه . وتدافعوا فوق السلم الحلزونى الضيق وهم يعولون كالنساء . . وكلما أوغلوا فى البعد إلى أسفل . . ماتت صرخاتهم . وفى الطيقان السفلى سيحاول رجال ربما مضى عليهم ستون أو سبعون سنة أن يعرفوا القادمين من العالم الذى باتوا يجهلونه ، ذات ليلة عندما نزلت بنفسى لأضع الأمير أقباى الطويل فى الحبس . سمعت رجلاً يزعق من مكان مظلم مررنا به يسأل عما إذا كان يوجد عالم حقيقة أم لا . وآخر يسأل عن أحوال الناس ومن أى جى جاء القادم الجديد . . . . وتتلاحق الأصوات حتى كاد أقباى الطويل أن يموت رعباً على نفسه . . لكنه لم يمت . استندت على السور الحجر بذراعى ورأيت المدينة عليها خمدة . . وكانت الليلة وسط بين الخريف والشتاء . وعما قليل تجىء الأمطار وتهطل حتى توحل الأسواق وتمسى المقشرة مكاناً مهولاً مفزعاً . تنبهت إلى أننى لم أصل العشاء فاستغفرت ربى . ومشيت إلى غرفتى . لحقنى سجان كبير وأخبرنى أن السلطان سيأمر بعرض هؤلاء المحبوس ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة . لم أرد وطلبت منه سجادة الصلاة .



درة

قال ابن سيدة . .

السجن هو الحبس . والسجان هو صاحب السجن . ورجل سجين يعنى مسجون . . وقال رحمه الله أيضاً وحبسه يحبسه حبساً فهو محبوس وحبيس واحتبسه وحبسه يعنى أمسكه عن وجهه ومنع حركته وخنق جولاته وروحاته .

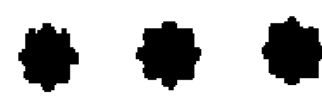


ب يسر وأعن

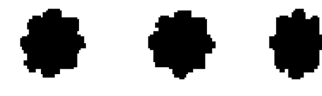
من ليالى أوقفنى الشيخ مسعود عند حارتى بعد أن تركت بيتى قال ألا تخاف الله يوم القيامة ، قلت أستعيذ به وإليه ألجأ ، هل رأيتنى فاسقاً أو مقصراً فى الفريضة أو أبلغك عن الزعر أنى جدفت فى حق ربى ، لا والله يا شيخ مسعود ، قال لا هذا ولا ذاك ، لكنى أسمع أنك تذيق المحابيس صنوفاً من العذاب وأنك تجمع الكثيرين فى موضع يضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة وقد يرى بعضهم عورة الآخر ، قلت كل عمل وله سوءاته وميزاته يا سيدنا ، وأعلم أن كل ما بلغك كذب من أوله إلى آخره ، قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، طلبت منه أن يدعو لى بالمغفرة ، قال اللهم أحجب عنا بلاءك وشرك فمضيت وبنفسى منه ، كأنه يظننى آمراً لبرج القلعة ولخزانة شمائل وسجن الديلم أيضاً والعرقانة ، وما ذنبى أنا . . ؟ هل أنا الذى ابتدعت الحبوس ! أليس أمير المؤمنين وثانى الخلفاء هو الذى ابتدع الحبس فى الإسلام ؟؟ وابتاع داراً فى مكة يضع فيها ما يرى أنه يستحق أن يوضع ويوثق ، والله ليس غريباً أن تجىء إلى المقشرة يوماً ما يا شيخ مسعود . . . عندما أمشى فى السوق والناس حولى يتدافعون فى إتجاه سوق الليمون . وباعة يصيحون ، وغلمان يعودون . . نهاية النهار وبداية الليل . . تزيد الحركة ويكثر البيع والشراء وفجأة يحل الهدوء والسكون . . كأن العالم مات عندما أمر فى هذا الطريق يثور بى خاطر . . لابد أن جميع هؤلاء سيجيئون إلى المقشرة ويصبحون تحت إمرتى . . . ليسوا مرة واحدة . لكن كل منهم له دور . . كل عليه عدة لابد أن يقضيها أو يقضى . . طلعت إلى حجرتى وأنا من الضيق فى أمر عظيم . . طلبت إحضار الأمير مغلباى الذى خامر على السلطان وركب جامع السلطان حسن وحاول أن يتعبث بعرش السلطان ويسطو عليه . . كان داهية . . لا يجرؤ مملوك أو واحد من أولاد الناس أو العوام أن يعترض سبيله . . والله لأفعلن به وأجعله .

(. . . هنا أصاب الورقة تلف جعل الأحداث تتوقف ، غير أن ما يلى هذا لا يبعد الأحداث كثيراً عن سياقها الطبيعى) .

.. ولا أدرى إلى أين ؟ وهممت أن أستل سيفى وأطيح برأس كل من يقابلنى . غير أن المصيبة عظمى فهدأت روحى . الأمر لا بد أن يدبر فى هدوء .. لو شاع وافتضح لاهتزت رأسى .. أى أيام سوداء فى انتظارى ؟ كل سيوز السلطان على بكلمة . أما أتابيك العسكر نفسه فسوف يركبنى فوق بغل بالمقلوب ويجرسنى فى القاهرة كلها .. إرجموه ، إضربوه ، عذب ولدى ، قتل رجلى قطع ذراعى ، خوزقنى ، أدخل خنجره المحمى فى .. رمانى ثلاثين عاماً كاملة لأنه طمع فى امرأتى فحبسنى ليخلو له الجو وينالها .. الفاسق .. الزانى يا رب الطف . يارب أعن .. يلطمنى السوقة والعامة .. ويصيح المنادى أمام الركب .. هذا جزاء من لا يتحفظ على حبوس السلطنة وأى حبوس هربت يا خراب ديارى أربعون فلاحاً لو قتل منهم فى الطريق لما ارتفع أصبع ولا اهتزت شفة ، جمعت السجانة ، طحت فيهم ضرباً وركلاً ورأيت أبدانهم تكاد أن تنخلع لهول رعبهم ، صرخت عليهم أتعرفون أى هول ينتظركم ؟ أنتم أدرى الناس بالمقشرة ، ستغدو مكاناً بعيد المنال منكم ، غير أنى بعد وقت جمعتهم ، لو افتضح الأمر لو ذاع الخبر ، لقتلتكم أجمعين ، وعقدت يدى أمام صدرى وتمنيت من الله ألا يرسل السلطان فى طلب العربان المفسدين ليعرضهم ، وخرجت إلى الطريق طافشاً على وجهى ، وفى قلبى جمرة نار ، أقبل رجال يرفعون بيارق حمراء ويدقون الطبول ، يتقدمهم رجل حول وسطه قماش أحمر يدور حوله بسرعة كبيرة ، والرجل يلف ولا يدوخ ولا يقع ، وكانوا يزعقون فى حماس .. الله .. الله .. تمهلت حتى مروا وكان المغيب يقترب ، وعما قليل ينزل الليل فجأة ، هب الهواء بارداً حتى وخز عظامى ، توقفت حائراً والطريق تزداد به الحركة وتعلو ، تذكرت عيالى وامرأتى فى البيت ، تمنيت أن أمتطى جواداً يمضى بى ولا يتوقف لكنهم سيدركوننى ، حرت فيما أفعل ، وصحت بنفسى .. الثبات .. الثبات .. نزلت ثلاث درجات تؤدى إلى جامع قديم منخفض ، وكان الهواء مقبضاً وقفت خاشعاً وتذكرت عددهم .. أربعون فلاحاً .. والأمر لله .



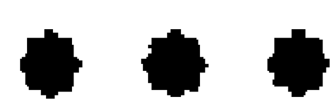
سبحانك أنى تبت إليك وأنا أول المؤمنين . . اللهم أعف عنا واغفر لنا ، اللهم لا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم المارقين أرجو رحمتك بقولك ــ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ــ ذنوبنا كثيرة ، وطاعتنا يسيرة ، كلنا تحت الزلة والتقصير ، يارب لولا ذنب المذنب لما ظهرت صفة عفو الكريم ، ولولا تقصير المقصر لما بان غفران وحلم الحليم ، اللهم أنى أعوذ وأستجير بحبيبك الذى نزل فى حقه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . .



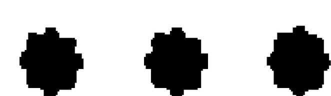
رب يسر وأعن..

سألت سجاناً كبيراً ، هل رآكم الأهالى ؟ هل زعق عليكم المماليك ؟ فقال لا صغير ولا كبير أحس بنا ، فالمماليك لا يتزلون من القلعة بعد المغيب ، ودرك الوالى لا يجولون فى الطرقات إلا بعد توغل الليل . . ثم من نحن ؟ ألسنا جند السلطان ! إسم كل منا يعرفه أهالى البلدة أجمعون . . وفوقنا تجمعت غيوم ثقيلة ناءت بحملها السماء ومالت حتى تكاد أن تلامس البيوت . . زعق أولهم عندما طالعنى . . ماذا فعلت يا أمير؟ صفعته بالسوط على وجهه . . ودققت فى الورم المستطيل الأحمر المفاجىء الذى انتفخ مكان الضربة . . صرخ أحدهم كالنساء . . يا خراب بيتى وعيالى وقال آخرون إنهم ما جنوا شيئاً يؤاخذون عليه وأن واحداً منهم لم يغش مخلوقاً ولم يشوش على إنسان . . وقال بعضهم إنهم أكثر أهل مصر طاعة لكل ما قيل وما سيقال . . فماذا فعلناه حتى تحطوا علينا فجأة ونحن نبيع الليمون فى السوق وتأخذوا جمالنا وأحمالنا وتشكونا فى القيد الحديد ؟ قالوا إنهم غلابة ؟ وإن أهاليهم سيموتون حزناً عليهم ، لأنهم راحوا مصر ولم يعودوا ، أنا لى عشرة أولاد يا سيدنا ، أما أنا فقد وضعت حياتى فى قفة الليمون التى حملتها فوق عنقى لأبيعها فى السوق ، رحت أصغى إلى ما يقولونه ، وثمة برد وسلام ينزل على قلبى ، لم أتكلم ، الفلاحون الذى أتى بهم الداودار لم يكونوا كهؤلاء فى الزعيق والصراخ اللين لكن هذا بطبيعة الحال ، الآخرون جاءوا من قراهم مباشرة ، أما أولئك فما أغرب حالهم ، رجل يخرج من بلدته ولا يرجع ، ولن تعرف امرأته ولا عياله ما جرى له ،

وبعد أيام يطلب السلطان عرض العربان المفسدين المتعبثين فى الأرض الذين أسرهم الأمير الكبير ، فتضرب أعناق البعض ويوسط الآخرون وتتدلى أجسامهم المزيلة من باب زويلة وباب الشعرية ، وقد ينتن الواحد منهم فيجيف لحمه ولا يجد من يدفنه حتى يتصدق عليه مؤمن فيدفنه ، ولن تنتطح فى ذلك شاتان ، ويروح كل منهم على أمره ويخلو مكانه وينتهى خبره ، قلت لهم وكلهم مصغون كأن الصور قد نفخ فيه النفخة الأولى فخربت الأرض جميعها .. أنتم من العربان المفسدين ومهما زعقتم وقلتم غير هذا فأنتم تقطعون الطرق وتهاجمون ركب الحج ، ستقولون نحن تجار ليمون ، نزرعه ونبيعه ، لكن لن يسمعكم أحد ، رحت أدور حولهم أتملى جحوظ عيونهم وملامحهم المرتعبة والرجاء المخلوط باليأس فوق الوجوه ، عجباً أهذه الرؤوس كلها ستحشى بالقش بعد قليل ، ارتعش جلدى وطاف بدماغى خاطر طردته بعيداً واستعذت من الشيطان الرجيم ، الغيوم الثقال حبلى بالمطر وعما قليل ينزل السيل كالبحار ، صرخاتهم تطلع إلى الفضاء الوسيع حتى لو سمعتهم الدنيا كلها فمن يسأل آمر المقشرة ؟ تراجعت إلى الوراء خطوة وزعقت على سجان كبير أن يرميهم فى الطباق الأوسط وأن يربط كلا منهم إلى الجدار بثلاثة مرابط حديد ، قبل أن ينزل إليهم سألته كم عددهم ؟ فقال إثنان وأربعون ، قلت له وكم كان أسرى الأمير ، قال أربعون ، أطرقت مقدار درجة وقلت له إرسل إلى إثنين ، خلعت خنجرى من جرابه وبرق نصله فى الهواء .



هكذا تنتهى أوراق المخطوط فجأة وأكاد أكون متيقناً أن هناك أجزاء مفقودة منه ، كل ما أرجوه ألا تكون يد الفناء قد امتدت إليها فأتت عليها . لذا أرجو من هواة ودارسى المخطوطات القديمة إذا ما عثروا على الأجزاء المكملة لتلك الأحداث الغريبة أن يتكرموا بارسالها إلى .. حتى أنشرها ويمكن الاستفادة منها .



كشف اللثام
عن أخبار ابن سلام

يارب يا ساتر المؤمن من العيوب . . يا كاشف الغيوب . . يا من ارشدت قوماً من دون الخلق إليك . ثم وفقتهم للاعتماد فى كل أمر عليك . . اللهم صلى وسلم على نبيك سيد البشر . . كاشف الحقيقة وحامى الصدق العائم فوق البحور الغريقة . . وبعد ، أعلم أنى سطرت هذه السطور . . لا لشيء إلا ابتغاء مرضاة ربى . وكشفاً لحقيقة انسان عرفت أخباره عن قرب . قاسى ما لم يقاسه الأولون . . وذاق مراً وهجاجاً لم يذقه الآخرون . وفى أيامنا تضاربت حوله التواريخ . فثمة من ينسب إليه سوى الفعال . وآخر يحمل سيرته بما لم يجر ولم يحدث وزعم آخرون أنه وهم لم يوجد . ومن يعلم ؟ ربما جاء فى قادم العصور من يرغب فى معرفة طرف من أخباره . فيكون حديثى هذا هادياً ومرشداً .

* * *

ذكر أصله ونسبه .

هو الفقير إلى ربه ، يوسف بن إبراهيم بن سلام ، لا يعرف أبعد من جده الثالث ، وإذا سألته لأجاب ، أنا يوسف أبى إبراهيم وجدى سلام ، وكنيتى

ابن سلام ، فلا تنادني إلا بهذا ، كما أنه لم يقل لأحد متى ولد بالضبط ولا أين ، يقول إنه سمع أمه تقرن تاريخ مولده بمجيء الوباء العظيم الذى مات فيه أبوه ، غير أنه كان يطرق ثم يقول ، لكن أى السنين لم تخل من الوباء ، وأشاع عساكر العثمانية بين العامة أنه غريب عن بر مصر ، قالوا إنه يطمع فى ثروات الجراكسة ، بل أن السبب فى مروره بالطرقات متوقفاً بين لحظة وأخرى زاعقاً بأعلى صوته عما جرى فى النهار من جند ابن عثمان . إنه كان يقيم فى عشة قديمة على باب حارة درب الرصاص وعندما شرع العسكر لإزالة أبواب الحارات قوضوا عشته . ابن سلام بلا مأوى فسخط وطفش فى الطرقات . ويكررون أنه ليس من أهل مصر . وإلا فأين كان وقت خروج التجاريد ؟ وإلا فأين كان وقت أن علق طومانباى على باب زويلة . وإلا فليقل للعوام الذين يمشون دائماً وراءه ، يرددون ما يقوله . يحيطون به إذ ينام . لماذا لم يمت إذا كان يبكى ما جرى ! لا يا قوم . لا تصدقوه فهو دجال .

* * *

حاشية .

أخبرنى من أثق به : أن بعض السوقة دفعوا عنه خطر العثمانية عندما حاولوا خطفه . وراح ابن سلام يطلق صوته الغريب الذى لا هو زعيق ولا صراخ ولا حتى بين بين ، تراجعوا من حوله وابتعدوا فى كبكبة الزرد والسلاح لا يجرؤون على الاقتراب منه ، وأطلق العامة صيحات التكبير والتهليل .

* * *

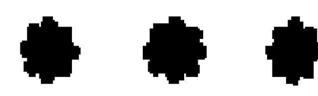
فصل فيما جرى له عند دخول العثمانية .

. . . عندما ثارت فتنة بن عثمان . وجاءت الرسل من الشام بما جرى . لم يعد الرجال يغلقون أبوابهم فى حارة درب الرصاص . كما أن ابن سلام لم يعد يغلق بوابتها بعد المغيب . كل من أهل الحارة أمام بيته . يخمنون ما يجرى . فالأخبار مقطوعة . والقول الذى يبدو مؤكداً . الصباح يصير مكذباً ، فى

المساء . كل هذا والناس فى كرشة عظيمة . وابن سلام لا يأوى إلى عشته أبداً . وفى هذه الليلة التى جاء فيها رجل نفذ بجلده من الشرقية وراح يحكى ما جرى ، إقترب منه ابن سلام ويبدا أن ظهره الهرم قد ازداد انحناء . . ابن عثمان يعطى الأمان ويدخل بلبيس . . رجاله يطيحون السيف فى أهلها حتى قيل أنه قتل فوق العشرة آلاف إنسان من عربان وجند وفلاحين صارت جثثهم مرمية فى الطرقات . أما الأحياء منهم فخطفهم العثمانية وباعوهم بأبخس الأثمان حتى إن البكر التى لم تفتض بيعت بثلاثة دراهم . هنا زعق ابن سلام متسائلاً عن الثمن الذى بيعت به البكر ؟ ثم سأل عن عدد القتلى . وأضاف الرجل أن سائر البلاد التى مر بها ابن عثمان كادت تخلو من سكانها حتى إنك لتدخل القرية وتنادى فلا يصادفك إنسان . تحسر الرجال . واستعاذ ابن سلام بربه . . سمعه الرجال يقول : والله لم يجر هذا لمصر من قديم الزمان . إلا زمن البختنصر البابلى . أصغوا وكأن عليهم الطيرة ، ماذا يقول عجوز الحارة ؟ ومن هو البختنصر البابلى ؟ لم يكرر قوله ، راحت أسئلة الناس كحجارة رموها فى بئر بلا قرار . بل أدركوا أنها المرة الأولى التى يسمعون فيها العجوز . طوال سنين لم يفارق عشته . لم يدخل بيتاً ولم يعبر حتى أسوار المدينة . . . منذ هذه الليلة لاحظوا أنه يخرج كل نهار . رؤى فى أطراف القاهرة وعند صحراء الرميلة . وقال آخرون والله أعلم أنهم شاهدوه فى ميدان الريدانية . بل إن هناك من أقسم أنه رآه عند سبيل علان ، يسقى الجند ويحمل معهم الأتربة . . وفى اليوم السابق لدخول الخنكار مدينة القاهرة رجع إلى عشته مغموراً مقهوراً ممزق الثياب . بارز العظام . . حتى ظن من رآه أن الصغار رموه بالحجارة . أما الحارة فنزل فوقها الخراب . وزع الأغنياء من أهلها ذهبهم وفضتهم وقماشهم على الأماكن المجهولة . ولجأ من يخاف على نفسه وعلى حريمه وعياله إلى المزارات البعيدة وفساقى الموتى . وإن لم ينفع هذا فيما بعد . ويبدا لمن تبقوا أنهم يرون ابن سلام أول مرة فى حياتهم . . عيناه اللتان دبت فيهما الحياة زعيقه فى جوف الليل . يارب : وتنبهوا إلى أنه لا ينام أبداً . حتى حاروا فيما جرى له وما أصبح عليه . وفى الصباح سألوا عنه . وجدوا عشته خاوية . تذكر البعض أنهم رأوه يصلى الفجر فى المسجد القريب . وطلع النهار وزادت

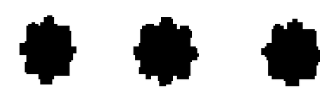
الرِجْل فى الطرقات . وفجأة علا صراخ الموقعة . وكانت الكبكبة . وهول النزال والقتل والطعان . ورجفة الأرض إذ تنطلق المكاحل الكبار بالبارود . وانعقد الغبار سحابات قتيمة فى سماء المدينة . وبدت البيوت يتيمة . والدكاكين مرعوشة تنادى . . الأمان . . الأمان . . والحوارى كالمساكين فى المجاعة . كل هذا والشتاء يعمل عمله . ونظر الأهالى من خلف الطيقان المغلقة . والعصر يرمى فى الشوارع وحشة وخنقة . وأغرق النفوس ألم وخملة . ها هم جند الخنكار يطلقون البندق الرصاص فى الهواء . يصرخون كالبهائم . . همج بلا نظام . ها هم يتوقفون يلجون البيوت حجتهم البحث عن المماليك الجراكسة . وعلا صراخ الحريم وآلام العيال واستمر النهب والقتل عمالاً حتى بعد مجىء الغروب والشمس ليس لها من أثر . . والمنادين فى الطرقات ، إدعوا بالنصر للخنكار سليم بن عثمان . لا يخبىء أحد منكم جركسياً وإلا . . ومن ناحية سبيل علان . . وفوق قناطر السباع . خيل للناس أنهم يسمعون صوتاً يقول كلاماً آخر . عجوز محنى الظهر . يبدو فى حمرة المغيب . . يتكىء على فرع شجرة ، يمشى بسرعة كأنه يجرى ، هزيل لا يبين « راح الصالح بالطالح ولعب السيف فى رقاب الأبرياء . . طرش العثمانية من أهل مصر فى يوم واحد ألف ألف ألف إنسان . . الجثث مرمية تهشها الغربان . . لا تجد من يدفنها . . أبدان بلا رؤوس ورؤوس بلا أبدان . . يا حى يا قيوم يا من لك الدوام راح الصالح بالطالح . . » قيل إن الصوت سمع فى الباطنية . بل أن أهالى الجوانبة استطاعوا تفسير ما قاله الصوت . وأى مسافة تفصل المكانين عن بعضهما وحاروا فيمن يكون ومن يجرؤ على التجوال والزعيق وسط هذا الضجيج والعجيج قالوا إنه مجذوب . . وقيل انه رجل قتل ولده فى الموقعة وذكر آخرون أنه إنسان فاض به الحزن لهول ما رأى . وأقسم ثلاثة ممن كانوا يختبئون فى فساقى الموتى قرب ضريح الإمام الشافعى . . . ما هو إلا عجوز معروف لأهالى قصر الشوق عامة وساكنى درب الرصاص خاصة . . إنه معروف لدينا من صغرنا نراه . الشيخ العابد الزاهد ابن سلام . . وأكد شاب أنه اصطدم به أثناء جريه فزعاً . انتابت جسمه عندئذ رعشة . وأقسم بتربة أبيه أنه رأى فم ابن سلام خالياً تماماً من الأسنان . فراغ

مظلم يقطر دماً غير أن أهالى الدرب كذبوا ما سمعوه ، صحيح ابن سلام عجوز لكن أسنانه سليمة . وقال آخرون إن فمه لم يكن به أسنان ، غير أنهم تعجبوا كيف يتناقشون والموت يمشى على أقدامه فى الطرقات لا يأمن أحد على روحه ، الحرائق تشتعل فى عدة أماكن ، غير أنهم فجأة سمعوا صوتاً واضحاً أثار الرعشة فى قلوبهم ، أخذهم حتى كادوا يبكون ، لا عجب فالناس فى أسى وهم عظيم وجرحهم طرى مفتوح لا يزال ينزف . . الصوت متوحش وغريب ، ضاع الأمان . . وراح من راح . هتكوا عرض عشر نساء فى جامع المؤيد ، وقتلوا بائع خيار عند باب النصر ، أكلوا خياره . . . القتل والنهب عمال . . راح من راح . . أطلوا من الطيقان التى غلقت من وقت بعيد . صاحب الصوت مضى . سمع من يردد ما قاله . . سألوا بعضهم فأكد رجل رأى المنادى بعينيه . . هو بعينيه ، زاهدنا وفقيرنا . . !



ذكر أخبار شعره :

اعلم غفر الله لك أن ابن سلام لم يقرض الشعر طوال عمره أو هكذا قيل حتى وقعت الشدة العظمى . وحدثت الكارثة . وعمت القارعة . وصال جند ابن عثمان وجالوا وهاشوا على ناس مصر . وما راعوا لجوامعها ولا لزرعها ولا لنسائها حرمة . . . ونهبوا دكاكينها وقصورها وما أبقوا إلا الجدران ، يذكر الناس . إن ابن سلام بدأ عندئذ يقول الشعر ، وقد أشاع العثمانية أن الجراكسة كانوا ينظمون له هذا الشعر ليقوله فى الطرقات . . لكن أخبرنى من أثق به من أن ابن سلام هو الذى قرض كل ما قاله من شعر . . ثم إن شعره الذى أبكى الناس وأجرى الدمع أنهاراً من العيون ، لم يتبق منه شىء ، ولو كان واحد من الخلق كتبه له لبقى منه بعض ما كنا نود أن نورده هنا . يقول القاضى بدر الدين بن زيتون ــ نفعنا الله به آمين ــ إن إلقاء ابن سلام لإحدى قصائده استغرق مرة وقتاً ينحصر بين آذان العصر ونزول صفرة المغيب . وهذا من غرائب الزمان .



فصل فيما كان يفعله ويقوله :

افترش ابن سلام الطريق الكبير القريب من السوق . يحيط به من اعتادوا المشى وراءه ، وتساءل التجار والناس والعيال عما ينويه ابن سلام ، وفوق البيوت تجمعت الغيوم الثقال . . . ولا عجب فقد أمطرت السماء طوال ثلاثة أيام . ولم يكف الرعد فى الليل أو النهار كذا البرق ، حتى أوحلت الأرض وصار المشى صعباً ، ويقسم من كانوا على مقربة من ابن سلام أنه لم يرتجف من البرد أبداً ، كما أن ثيابه لم تبللها نقطة ماء . وفجأة وقبل الظهيرة ، علا دق الكوسات والطبلخانات وزعق النفير من بعيد ، وبدا من نهاية الطريق متولى حسبة القاهرة قادماً من ناحية الرميلة حيث القلعة ، يمشى أمامه السعاة ، له هيبة ومهابة تكاد تحاكى هيبة الملوك ، قام ابن سلام زاعقاً . . متوسطاً الطريق يا حى يا قيوم وتردد الجميع مقدار درجة فى الاحاطة به ، غير أنهم قد أحاطوا به ، وأطل الأهل من الطيقان ، وبطل النداء على سائر أنواع البضاعة ، كفت الطبول ، سكتت الكوسات . . زعق ابن سلام زعقة عظيمة ، أقول وقد عاينت ذلك بنفسى ، إن قلب الواقف على بعد ألف متر منه لابد أنه ارتجف هولا ورهبة ، تقدم من حصان المحتسب ، أنزل يا زينى من فوق سرجك وكلمنى ، وعلى مهل نزل الزينى يتعثر فى قفطانه الحرير وجبته ، صاح عليه ابن سلام ، ظلمت العباد وفرضت من الضرائب ما لا يطيقون ، شردت العيال ، وزدت عدد الأرامل وفى هذه اللحظة تصايح الواقفون وراء بن سلام ، ومعظمهم فلاحون جاءوا من أقاصى البلاد بعد أن سمعوا به ، والآخرون حاقت بهم المصائب فلزموا جانبه ، وأطرق الزينى برأسه ، يا زينى ألم تكن أنت الرجل المقرب عند السلطان الشهيد قنصوة الغورى ! وكنت تقبل يده وطرف جبته فى اليوم مرات ! ما الذى جرى يا عالم ! ما الذى فعلته ! وقمت به حتى نراك اليوم الحبيب المقرب لابن عثمان ؟ ألم تدعو أنت على الخنكار قبل خروج الغورى إلى الشام ؟ ألم تشرف على جمع النقود والضرائب ؟ ويا ليتك اليوم نصيراً لأهلك عند العثمانية . ها أنت مستمر فى فرض المكوس وترينا من المظالم أنواعاً وأنواعا . قيل أن الزينى صار يتلفت حوله مذعوراً . . انتابته رجفة .

ربما سمع الكلام من ينقله فى التو إلى ملك الأمراء ، يا خراب دياره . . لن يمضى المغرب إلا ويشك فى الزناجير ويعدم اليوم التالى . يشك من ضلوعه كالباذنجان . . كل هذا وابن سلام لا يكف ولا يهدأ . . أنت كنت معهم عندما هجموا أمس على سكان الجزيرة الوسطى ، طفشوا فى بيوتهم ورموا عفشهم فى الطرقات وضربوهم حتى انقطع حسهم . كل هذا وأنت معهم . لا تقول إسكتوا ولا ترفع عنهم الأذى ، كل هؤلاء شاهدوك وسمعوك واستغاثوا بك ، لكنك لم تأبه لهم ويهم يا كافر . . يا عدو الله . انتفرت عروقه . . وكاد الدم يخرج من عينيه . . أما الناس خلفه فصاروا يصرخون ويستغيثون ، وفجأة مد ابن سلام يده وجذب الزينى بركات ابن موسى من لحيته ، وخلع عمامته ، ورماها فى الوحل ، ويهدله آخر بهدلة ، وهذا لم يتفق فى قديم الزمان أو حديثه أن ناسكاً أو غير ناسك مرمغ هيبة رجل ذى سطوة وجبروت خاصة كالزينى بركات ابن موسى ، فقد ظل نجمه يلمع وسعده يطلع فى زمن الغورى وزمن الخنكار ، مما حير العقول وأربك الألباب ، وقيل أن الزينى وعد ابن سلام أن يكلم ملك الأمراء فى أمر هذا الخراب ، غير ان ابن سلام لم يصغ إليه ، وتزايد عدد العامة فجأة حتى أنك لو نثرت ذرات الملح فوقهم لما نفذت ذرة واحدة ، وأرعدت السماء فجأة رعداً مهولا حتى وجفت قلوب الناس بما فيهم عسكر العثمانية الذين تجمعوا عن قرب ، وتهامس العامة وسائر أهل مصر ، أن البارى عز وجل غاضب على ما نزل بعباده ، انتابت القلوب رجفة ورهبة ، ورفع ابن سلام عصاه ممسكاً بها من منتصفها . زعق نائحاً على من مات . معدداً من رآهم قتلوا منذ دخول العثمانية ، راثياً أهل مصر الذين انتزعوهم من وسط عيالهم وأرسلوهم إلى بلاد الخنكار ، حتى حدائق الفرجة التى حربت ، وإيوانات الجوامع الجميلة التى نهبت عواميدها وأحجارها . وعندما استرسل كاد القوم يشقون ثيابهم ، كبروا وهللوا ، وانطلقت فيهم جمرة نار مهولة تقيد ولا تنطفىء . صكوا الزينى ورجاله بالمقارع وبرغم زيادة الهول وشدة الضجيج ، فقد سمع جميع أهل المدينة صوت ابن سلام نقياً كالزئبق ، صافياً كالبللور برغم تقدم العمر ، وزيادة الهم ، وشدة الضيق ، والكرب .

ذكر أخباره الأخيرة وكيف انتهى أمره:

طاف المشاعلية ثلاثة أيام . راكبين وراجلين . ينادون : بأن الكاذب اللئيم مدعي الزهد والعبادة ، سوف تدق رأسه بالطبر عند باب زويلة ظهر يوم الجمعة ، ولمدة أيام ثلاثة علا النواح من البيوت . وبرغم أن الوالى قد حرم النعى بالدق على الطارات ، غير أن النساء تحت ستار الليل رحن يقمن ويضربن على الطارات حتى الفجر ، لدرجة أن المدينة يأخذها الهول حتى ليشيب من حالتها الرضيع . ولم يجرؤ دركى واحد أن يأمر بالنهى عن هذا ، وقيل أن الجنود الذين أمسكوا ابن سلام وضربوه ، قد انتابهم الندم ، لأن النساك لا يقربون ، فرموا أنفسهم من فوق سور القلعة ، وراح خفاف العقول من العامة يقولون إن ابن سلام هارب هائم على وجهه فى الجبال . وأن الله سبحانه وتعالى سيمده بجند من عنده ، وأنهم لم يمسكوه هو بعينه . لكن جاء ظهر الجمعة حيث خلت الجوامع من مصليها ، وخرجت النساء حاسرات ، أما نوافذ جامع المؤيد شيخ ، فقد تعلق الخلق بها ليرقبوا البوابة الكثيبة وما يجرى عندها ، وعند ظهور الحمار المربوط إليه العجوز ، سرت همهمة بين الجمع وخرست فجأة ، النسوة لم يطلقن زفيراً مرتفعاً ، ونزل الخراب والموت حتى لتحسه فوق البيوت ، وتكاد تخال مئذنتى المؤيد فوق زويلة تميلان حزناً وقهراً ، وخلف ابن سلام سحبوا جمعاً يبلغ العشرين ، قيل إنهم الذين نهبت بيوتهم فى الجزيرة الوسطى ، وشكوا إلى ابن سلام حالهم ، وكان ما كان . . . طلع ابن سلام فوق المصطبة . رأسه محلوق تماماً ، جسمه عار إلا من زنط قديم يحيط نصفه الأسفل ، جال بعينيه فى الجمع الذى احتشد وسكن . صاح فجأة . اقرأوا الفاتحة ، اهتزت الشفاه وترقرق الدمع خلف المآقى ، وقيل إنه التفت إلى المشاعلى وقال : اعمل شغلك . وجلس القرفصاء ، بينما رفع المشاعلى الطبر الثقيل وأهوى به فوق عظام الرأس الذى انخسف وبدا كومة غريبة فى حجم قبضة اليد فوق الرقبة . انتفض الجسم إلى أعلى وقيل ظل واقفاً مقدار درجات وبسرعة هوى الطبر مرة ثانية . وزعق الواقفون جميعاً زعقة

هائلة . وكثر التحسر والأسى ، وقيل إن أحجار البوابة رمت دماً ولاتزال ، وعاطت النساء عياطاً مهولا ، ارتجت له القاهرة ، وظل جسده معلقاً فوق بوابة زويلة ثلاثة أيام .

جمال الغيطاني

الحصار
من ثلاث جهات

منتصف
ليل الغربة

إشارة تليفونية

من : مديرية الصناعة إلى : مديرية الصحة

بناء على إشارتكم لنا بتاريخ اليوم ، بخصوص وجود سرير خال بالاستراحة طرفكم ، نرجو حجز مكان باسم السيد / يوسف عبد الرحمن . . . الموظف المستجد طرفنا . .

مبلغ الاشارة
امضاء

* * *

تتراجع البيوت على مهل ، الدكاكين الصغيرة والاعلانات والواح الزجاج ، يصيح رجل منادياً على تاكسى بالنفر ، تنساب أغنية من بيت قريب ، يذيعونها دائماً فى هذا الوقت ، وحدة الظهيرة ، تزايد الحركة . الآن يعود الناس من أعمالهم فى مدينته البعيدة ، كان إذ يرى أباه يصيح : هيه . . بابا جه . . بابا جه ، لا تذكره الأغنية بأيام راحت بل تثير فى نفسه تراب

الحزن الدفين ، أيام حلوة مزهرة مشرقة . جرى فوق رمال الشاطىء ، احتوى البحر بعينيه وسامية بين ذراعيه ، أطعمته بيدها لحم السمك المشوى الأبيض ، مسحت عن شفتيه قطرات ماء البحر مالحة الطعم ، الآن يعض شفته ، وقع عجلات الحنطور رتيب ، الهواء حوله بارد ، قالوا له إن برد المدينة شديد خاصة إذا ما نزل الليل ، قالت أمه : إذا شعرت ببرد ضع جريدة قديمة فوق صدرك . ربما تقف الآن فى الشرفة ، تعرف أن يوسف لن يظهر عند منحنى الشارع ، أبوه لم يصل ، ربما جاءت أخته الآن ، كان يروح ويجىء بين الغرف ، يقرص أخته . . يسألها . . هل تعرض لها أحد . يأكل بسرعة ، يمد يده . يداعب ذقن أمه ، تحكى له عما رأته عندما نزلت تشترى السمك ، دارت . . بحثت حتى وجدت السمك الذى يحبه ، الأسواق ما فيها إلا الشبار الصغير ، عند رجوعها قابلت الست أمينة ، كلمتها عن محمد الذى جاء وقرأ فاتحة سعاد ابنتها ، سعاد لم تتعلم ، ولها ثلاث أخوات كلهن بنات . . أصلها ترضى بأول ابن حلال يجىء للبنت ، يصغى يوسف . فجأة . . يسأل أمه : ألم تحضر بنت حلوة كالقمر وسألت عنه ، فترفع أمه يديها وتطلب من الله تعالى أن يعجل بهذا اليوم الذى ترى فيه عروسة ابنها . تجاوزت العربة آخر بيوت البلدة ، الخلاء يتسع ، النخيل يتشابك ، الحنطور يمضى متمهلاً . . .

* * *

الأربعاء ٢٢ ديسمبر..

هل خاف الأطباء على أنفسهم من العدوى فآثروا العزلة . لكى أقطع المسافة حتى المدينة لابد أن أمشى نصف ساعة فى طريق مترب خال تماماً من البيوت والعشش ، تماماً ما توقعته لحظة رؤيتى المبنى ، النوافذ مستطيلة وكبيرة جداً ، مغلقة كأنها لا تفتح أبداً ، أما الشرفة فقد أحاطت الطابق الثانى كله ، محمولة على قوائم خشبية ترتكز على الأرض ، لحظتها تذكرت بيوت مدينتى البعيدة ذات الواجهات الخشبية ، آه من رائحة الغسيل المنشور فى الهواء وملح البحر . . لو أغمض عينى وأفتحهما وأجد الطرق والمتاجر النظيفة والنساء

الجميلات ، والبحر . . . لم يمر يوم إلا ورأيته ، فى الليل أرهبه ، أخاف لو مشيت فأجد نفسي فوق مياهه ، أمشي بعيداً عن السور ، ربما امتدت يد غليظة الأصابع ، شدتنى إلى أعماقه ، ابتعد عن وشيش الأمواج ، العمق المحسوس غير المرئى ، بدا المبنى خرباً ، عند عبورى حديقة الاستراحة الجرباء تيقنت أن هناك من يرقبنى ، اقشعر ظهرى ، طلعت السلم الذى يدور حول المبنى ، الدرجات الخشبية مغطاة بأوراق شجر جافة ، الصمت كالجبل ، كأن العالم خرب مدينتى البكر واسعة العينين لم توجد أبداً مع إنى فارقتها منذ ساعات ، فجأة ظهر عبد المقصود كنت متعباً ، عيناى تكادان أن تنغلقا حزناً وتعباً ، إنه طويل الجسم والعنق ، جامد الوجه ، ينظر دائماً فى خط مستقيم ، لم يرحب عبد المقصود بى ، نفس الجمود الذى قابلنى به الموظفون ، لم أسمع من يقول حمدا لله على السلامة . أنا أيضاً بادلتهم نظرات الكره ، خاصة الشاب المتأنق ، والعجوز صاحب الصوت الملىء بالرغاوى . تبعت عم عبد المقصود وصداع أليم فى قلبى ، لم أصدق أننى بعيد عن سامية ، عن البحر وقد أسندت الحقيبة أمامى . . . وأطرقت مدة برأسى ، مغمضاً عينى .

« يوسف »

* * *

١ — الدكتور جلال محمود مرسى من ١٢ / ٧ / ١٩٦٨ حتى ١٣ / ٧ / ١٩٦٨ .

٢ — محمد فوزى عبد السلام من ٢٠ / ٨ / ١٩٦٨ حتى ٢١ / ٨ / ١٩٦٨ .

٣ — يوسف عبد الرحمن من ١١ / ٨ / ١٩٦٨ حتى . . . .

* * *

— يعنى مفيش حد فى الاستراحة غيرى يا عم عبد المقصود ؟

— ايوه . . .

— لو نزلت البلد دلوقتى ورجعت متأخر مين يفتح لى ؟

— أنا . . . دايماً تلاقيني تحت . . . ما بتزلش البلد غير قليل خالص .

— لكن السكة وحشة خالص يا عم عبد المقصود . . .

— شوف يا يوسف أفندى . . . الحتة دى طول عمرها خلا . . . ما حد هوب ناحيتها . . . والطريق خطر . . . وأولاد الحرام كتير . . .

— يعنى الرجوع بالليل مش مأمون ؟

— دا إذا جالك قلب وقدرت يا يوسف أفندى . .

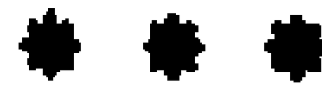
الأربعاء ٢٢ ديسمبر ...

لا أعرف ما الذى يجرى لى لو لم أحضر كراستى والقلم . فى مدينتى انقطع عن الكتابة بالشهر واليوم ألجأ إليها مرتين ، فى العصر كسرت عادتى ولم أنم ، البرد يشتد فلا أستطيع القراءة إلا تحت البطانية ، ثم لو نزلت البلدة ، مع من أقضى ليلتى ؟ المقاهى قليلة وصغيرة . فى بلدتى لو جلست على مقهى حى غير شارعى لنظروا إلى بريبة ، فكيف هنا والناس كلهم يعرفون بعضهم . قال أبى إن أهالى البلدة كالحريم ينتهون من أعمالهم ويدخلون بيوتهم فلا يخرجون منها إلا فى صباح اليوم التالى . . . قال أبى ، الله يبعدك عن أولاد الحرام ، قلت وعيناى تدمعان والجرس رنته الأولى . . . سأقضى وقتى وأذاكر انجليزى . . . وأقرأ الكتب ، ونصحنى بأننى لو استطعت أن أجد شاباً فى مثل سنى . . . غريباً ، ونستأجر غرفة أو شقة ، وبت أعلم لماذا يقول أبى هذا ، حتى لا يضحك على أحد ويوقعنى فى بنت قد تبعدنى عنه ، وتقطع ما قد أرسله إلى العائلة ، وعلى العموم نساء البلدة كلهن لسن جميلات كفتيات مدينتى ، آه من الزحام والشمس الحلوة صباح الجمعة عند محطة الترام الرئيسية والهواء يهب مشبعاً بزرقة البحر ، عند المحطة رأيت سامية أول مرة ، بلوزة بيضاء ، جونلة برتقالية ، جورباً أسود ، حذاء أبيض كبيراً ، عيناها بلون . . أى لون . . عسل النحل . . رأيتها كمطر خفيف ينزل على مهل

فى يوم حار ، أوراق زهر صغيرة تكسو الرصيف فى أيام مارس الأخيرة . . . نجماً شاحباً بعيداً له عينان واسعتان ، وأنف دقيق ، وشفتان كالفراولة ، قلت لن أجد مثلها . . . لو أنى خلقت بنتاً لتمنيت أن أكون هكذا ، لفترة حاولت أن أقيم علاقات من فتيات يسكن فى شارعنا ، لكنى ترددت ، وارتعشت قبل حديثى إليهن ، ونصحنى زملائى بالجرأة ، وها هى ، هذا الشىء الخفى الذى لا أراه ولا أدركه ، لو ضاعت ، لقضيت عمرى بعيداً عن جنس النساء ، حاذيتها وقلت لها ان قلبى ارتجف عندما رآها ، وأننى أشعر بصداقتها لى من زمن ، توقفت ، نظرت إلى وابتسامة على وجهها حيرتنى ، قالت : آه وماذا بعد ؟ اصرار عجيب انتابنى . سألتها عن اسمها وفى أى سنة هى . قالت أولى ثانوى . ثم قالت إننى ظريف وطيب ، وفجأة تبدلت وطالبتنى بالابتعاد ، قلت لها إن اسمى يوسف . . وإننى حاصل على دبلوم تجارة متوسطة ، وساعمل قريباً ، وإننى أنوى دخول الثانوية العامة فلابد من الالتحاق بالجامعة ، وقلت يمكننا مذاكرة الانجليزى معاً ، ضحكت وكررت إننى طيب جداً ، وسألتها أهذا مدح أم ذم ؟؟ فطلبت منى برقة ألا أتقدم معها أكثر من ذلك ، بيت خالتها يقترب ، قلت إننى سأنتظرها وأرجع معها حتى لو قضيت الليل هناك ، ابتسمت وقالت لا داعى . . . تابعتها حتى اختفت ، وكررت فى ذهنى عنوان المدرسة ، فجأة صحت بأعلى صوتى ، انطلقت أجرى ، أجرع هواء البحر ، ألتهم اسفلت الطريق اللين . . وددت لو أوقف كل من يقابلنى لأقول له كل ما جرى ، ضحكت ، داعبت أمى كثيراً حتى ظنت إنى شارب حاجة ، وقلت لها إنك أعظم أم فى العالم . عندما قابلتها ليلة سفرى دمعت عيناها . قلت لها ربما غبت عنك شهوراً ، قالت أسافر معك . ضغطت يدها ، الكازينو خال إلا منا ، المصابيح الملونة تضىء فى انكسار ، وبقايا الأمطار فى منخفض من أرض الحديقة وغناء من بعيد ، قبلتها ، تخللت أصابعى شعرها الناعم كالليل . . أقسمت لى بتربة أمها أنها سترسل لى كل ثلاثة أيام خطاباً ،

ستقول كل شيء جرى لها ، وللمدينة ، وفى المدرسة ، إذا نزل المطر ، إذا هاج البحر ، لو دخلت السينما مع أبيها وزوجته ، فستحكى لى بالضبط ما رأته من أفلام ، وعندما خرجنا كان للهواء طعم القرنفل ، المصابيح عالية ، ضوؤها مخنوق كصوتها لحظة الوداع ، لو أنها معى لا نقلب كل شيء ، عدت أصغى إلى أزيز الصمت ، تطلعت إلى السقف المرتفع جداً ، عندما سألت عبد المقصود عن هذه المدفأة الرخامية . . قال إن الانجليز كانوا يتدفأون بنارها ، سألته هل حضر أيام الانجليز هنا ؟ قال إنهم هم الذين بنوا الاستراحة لمهندس الرى ، وكنت واحداً من الذين وضعوا حجارة المبنى وأخشابه فوق أكتافهم . . ثم عينت فيه ، صمت فجأة وبدا غير راغب فى الكلام ، أسند الدورق وخرج ، لا أعرف ما يفعله فى هذه اللحظة ، كأنه لم ينم إنما يطل علىّ من ثقب الباب ، ارتعش دمى ، نفضت ما يتدافع إلى ذهنى ، تأملت الكتب محاولاً اختيار رواية أقتل بها ما تبقى من وقت . . .

« يوسف »



تمسك يده بحافة النافذة ، يمرق شريط الضوء اللامع يكشف العربات التى بدت مستطيلاً واحداً ، مرور العجل فوق فواصل القضبان ، قطار الثانية عشرة ، قادم من الشلال إلى القاهرة ، مفتخر لا يقف أبداً ، يوسف يتابع بعقله الرجال النائمين على المقاعد الزرقاء فى العربات ، آخرون يشربون الشاى ، يأكلون الجاتوه فى عربة الأكل ، يبدو عليهم ملل ، الرحلة طويلة ، لو يركبه يوسف ، بعد ساعات يقف فى القاهرة ، ثم قطار آخر ينقله إلى البحر ، لكم يبدو بعيداً وبطيئاً هذا الوقت الذى سيمضى عليه هنا حتى يحصل على إجازة ويسافر . يسيل الضوء ناعماً فى الخارج ، أضواء المدينة البعيدة خافتة تزيدها بعداً ، فجأة ينتبه إلى وجود رجال فوق القنطرة الحجرية ، هل عبد المقصود بينهم ؟ لا يرى الملامح ، أياديهم طويلة تلمس ماء الترعة ، لا يجرؤ على اغماض

عينيه ، لو يأتى بأقل حركة ربما تنبهوا إليه ، تنبعث من بعيد أصوات مجهولة لم يميز منها إلا ما يشبه إطلاق نار ، هل له صلة بعمل الرجال ، لا يعرف من أى جهة يجيئون ؟ يظهرون فجأة ، ربما يخرجون من الاستراحة ، فجأة . . . يضيع كل ما يراه ، يتبخر الضوء الناعم ، تضيع معالم الحجرة ، تحته فراغ وفوقه ، هل أصيب بالعمى المفاجىء ؟ هل يحيط به غرباء ؟ أقزام ؟ عمالقة ؟ لم يطلع عليهم النهار . . هالك ، لن يعيش اللحظة التى تلى هذه ، لن يدرى أحد ، لن يحميه عبد المقصود ، يتحرك مشلولاً ناحية السرير ، تتقلص أصابعه ممسكة بالبطانية ، ينتزعها بعنف ، ويلفها حول جسمه ، يصطدم اصبع قدمه بالمقعد المدبب الحواف ، لو قطعوا لسانه اللحظة لما شعر بألم ، يسند ظهره إلى الباب ، وحيد تماماً ، نواة ملقاة فى فضاء خلا حتى من النجوم والأرض وذرات الرمل وسامية وحراشيف النخيل . . .

* * *

— صباح النور . . لا والله ما سمعتش . . أصل النور بيطفى بعد الساعة اتناشر . . وابور البلد بيقف .

* * *

الخميس ۲۳ / ۱۲ .

طلبنى المدير ، سألنى عن مجموعى فى الدبلوم ، وسرعتى فى الآلة الكاتبة . . . وأعطانى ثلاثة خطابات ، طلب منى أن أنسخها ، شعره يلمع وأسنانه بيضاء ، يتكلم برقة ، يتناول بين لحظة وأخرى قلمه الحبر الطويل المغموس فى محبرة نحاسية ليؤشر به كلمة واحدة فقط ، كدت أقول له أن الاستراحة مزعجة وأننى لن أرجع الليلة إليها ، غير أنى ترددت ، ما هى مبرراتى ؟ خرجت من عنده . وفوجئت بزملائى ينتظرون خروجى . سألونى عما قاله سيادته ؟ قلت لا شىء . سكتوا ، نظروا إلى

بعداء ، جاء رئيسى الشاب ، أعطانى عشر استمارات صرف لأراجعها ، نظر إلى الدوسيهات الكثيرة أمامى ، قال لا بأس إذا كان العمل كثر عليك ، لكن هذا لابد منه حتى تتمرن . . قلت أبداً ، فجأة سألنى عما قاله المدير ، قلت لا شيء ، وفعلاً لم أر فى كلامه ما يستحق أن أكرره ، غير أنه اعتدل واقفاً ، نظر إلى بعداء لم يخفه . . كنت مجهداً وعيناى مليئتين بالصابون الحارق ، وعندى ميل إلى القيء ، تخز قلبى صورة سامية . . بعد فترة جاء وأشار إلى حقيبتى الصغيرة ، فقلت له عما بها ، كراستى ورواية لم أتمها ، وثلاثة ظروف خطابات ، ومحفظة نقودى لأنى لا أحمل نقودى فى جيبى ، قال على مسمع من الآخرين ، إنه لا مجال لقراءة الروايات هنا ، وأن العمل جاد وأنه هو نفسه لا يحب أن يحضر أحد موظفيه روايات أثناء تأدية العمل الرسمى ، عند الساعة الثانية وقّعت أمامى اسمى ، وفجأة جاء الساعى العجوز وطلب أن أكلم المدير ، تلفت حولى غير أنى لم أهتم بنظراتهم ودخلت إلى سيادته ، ابتسم ولاحظت

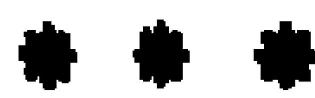
بدهشة أنه قصير القامة ، بعكس ما يبدو أثناء جلوسه ، قال لعل العمل لا يكون ثقيلاً على نفسى . . ارتحت ، فارقتنى الرغبة فى النوم . . كأنها لحظة رؤيتى سامية مقبلة من ناحية البحر ، قلت أبداً إن العمل لا يرهقنى ، قلت فى نفسى بعد دقيقة أكلمه عن الاستراحة ، كدت أقول له أشعر بأننى أتكلم أول مرة مع انسان منذ وصولى ، قال : هل تعرف أحد الموظفين هنا ؟ قلت أبداً . . سكت لحظة وقال . . أنا هنا مثلك وربما أنت أعزب لا يهمك لكن أنا عندى أسرة مقيمة هنا . . وللأسف هؤلاء الموظفون لا يكفون عن الحديث عنى ، سكت ، ثم تابع ، طبعاً هذا شيء مزعج ، ولكن لو عرف ما يقولونه بالضبط سيصبح الأمر غير ذى أهمية ، كل ما على أن أسمع ما يقولونه فقط وأنقله بالحرف الواحد لا أزيد ولا أنقص ، وبهذه المناسبة . . هل تكلموا فى موضوع يخصنى اليوم ؟ قلت لا أذكر ، لوح بيده وبدا وجهه غير مهتم ، وطلب منى أن أنتبه من الآن ، خرجت والرغبة فى النوم تعاودنى ، ذهبت إلى المحطة . . جلست فوق

رصيف المسافرين ، ثلاث بنات تلميذات وقفن بعيداً عنى .. ينتظرون أوتوبيس الديزل الصغير الذى يصل المدينة بالقرى القريبة ، لم أنظر إليهن ، أين هن من سامية ؟ بل أين البحر ،

الطرق اللامعة المتعطشة إلى ماء المطر ، الأشرعة البعيدة كجناحى طائر محدودب ، أين البهجة فى وعائى عسل النحل المصفى ؟ تضحك ، تتقدمنى إلى الترام ، ننزل آخر الخط .. نمشى بجوار البحر الذى يتنفس بقوة ، فجأة نجرى ، نجلس فى نهاية اللسان الحجرى ، أسند رأسى إلى فخذها ، أحيطها بذراعى ، ربما وأنا أحلم ، لكننى أقطف ثمار الفراولة والكثرى وأشرب عصير المشمش ، إذ تهدأ تأوهاتها ، تتحدث عن آمال نرجو أن تتحقق ، وسفر لابد من الشروع فيه ، ليس من المعقول أن نقضى حياتنا فى هذه المدينة ، يا سامية ، بعد زواجنا سنرحل إلى السودان ، إلى أريتريا ، إلى بيروت ، إلى أوروبا ، نطوف المدن البعيدة معاً ، نجلس على المقاهى تحت سفوح الجبال ، تخرج قلما وورقة ، نكتب تكاليف الرحلة الأولى ، تثير بعض الاعتراضات غير أننا نتغلب عليها ، ها .. ربما تفكر سامية فيما قلناه الآن ؟ هل يعرف الموظفون أى مشاريع صغيرة رسمناها معاً ، هل يدرى المدير بأحلامنا .. كأن دنياهم تتوقف على معرفة ما قالوه أو ما قاله ؟ يثور بى الخاطر أن أركب أول قطار إلى مدينتى ، إلى سامية ، وأسند رأسى إلى صدرها وأبكى ، بلا دموع . قمت حاملاً حقيبتى الصغيرة ، الرصيف خلا من الركاب ، والفتيات رحلن إلى قراهن البعيدة ، وسامية خرجت من المدرسة الآن ...

« يوسف »

— أنت فاكر كلمتك فى ايه ياعم عبد المقصود . ايه رأيك تبات معايه .. أديك شلن كل ليلة .. السريرين واحد ليه .. وواحد ليك . كل ليلة شلن .. آه والنبى ، أحسن الأوده واسعة والبيت فاضى والحتة كده شكلها يخوف .



لو معه راديو لسمع الأصوات المنبعثة من العالم ، هنا بيروت ، هنا لندن ، اذاعة الجمهورية العراقية من بغداد ، محطة الاذاعة العربية من موسكو ، عدن . . الجزائر تختلط الأصوات ، تضيع النداءات ، حنين حاد يتحرك فى دمه ، لو يسمع أغنية من قرب ، أصوات الرجال ستبدأ بعد قليل فوق القنطرة . . منذ ساعتين دخل عبد المقصود ، تلفت حوله ، عيناه فحصتا كل ما فى الحجرة . كأنه يدخلها أول مرة ، ثيابه المعلقة فوق المشجب ، الحقيبة التى لازالت مفتوحة . . الحذاء الجورب ، الفوطة الحمراء الملونة بخطوط سوداء ، المشط ، سأله عما يفعله بالكتب ، سكت . . ثم سأله عن سنه ، فقال يوسف تسعة عشر عاماً . . قال إنه صغير ، تمدد ملتحفاً بالبطانية ، أنهى الحديث فجأة ، لا يدرى يوسف ما الذى يفعله الآن . يطفىء النور أم يقرأ عليه ، عبد المقصود لم يطلب اطفاءه ، لا يعرف هل رجعوا إلى القنطرة ، لكن ربما يعرفهم عبد المقصود . . يظن أن يوسف يرصد حركاتهم ، فيناله ضرر ، قرض يوسف شفتيه ، برغم أن مظهره ينم عن نوم عميق ، غير أن إحساساً خفياً يقول ليوسف : عبد المقصود لم ينم ، لو نظر إلى عينيه من الناحية الأخرى ، لرآهما مفتوحتين . . خفت الضوء ، بعد قليل ينقطع . منذ لحظات خرجت حفلات السينما الأخيرة . أربع مرات دخلها مع سامية . . تقول لزوجة أبيها إنها ستذاكر مع صاحبتها ، تاهت نظراته على السقف وهو لا يعرف ما الذى تفعله سامية الآن . .

* * *

السبت ٢٥ / ١٢ .

أرعبنى الليلة عبد المقصود ، ظل ساعة كاملة ينظر إلى . متجمداً كالحجر . . قطع ما كنت أود أن أسأله عليه . . حياته ، نزلاء الاستراحة ، وحدته . . وفى الهواء تصاعدت رائحة عرق لم أشمها فيه من قبل . بالرغم أنه تمدد من ساعة مولياً وجهه إلى الحائط فهو يرقبنى الآن ، أذناه تسمعان حركاتى . تحصيان دقات قلبى ، أنا متعب ، خطابات سامية لم تصلنى بعد ،

كل يوم أسأل مدير البوستة قبلى البلدة ، أنا حزين وأكاد أبكى ولا اعرف لماذا يبدو عبد المقصود هكذا . . .

« يوسف »

الساعة الآن الثانية صباحاً تقريباً . . أقصى عمق لظلام الليل ، يوسف لم ينم ، حتى قطار الثانية عشرة لم يمر ، يصر السرير فجأة ، يكف الهواء عن دخول رئيته ، حفيف جلباب ، عبد المقصود لم يعد متمدداً فوق السرير . . ما الذى ينويه ؟ هل صمته ، إخفاء حركاته يخفى أمراً ، ينزل يشارك الرجال فوق القنطرة ، لا يتجه إلى الباب ، يقترب منه ، لحظات الكابوس . . صراخه المكتوم من الأنف وشلل الجسم وصياح أبيه . . اصحى . . اصحى ، ولو ، فمن يهرع إليه هنا . . من يهز جسمه حتى يفيق ؟ من . . من . يصر السرير ، ليس كابوساً ، عرق عبد المقصود يملأ أنفه ، عبد المقصود يلامس جسمه ، يده الغليظة الخشنة تسد فمه ، أنفاسه ساخنة لزجة تقشعر ما وراء أذنيه ، ثقل جسمه ، اليد الأخرى تمتد إلى بنطلون بيجامته ، الحجرة تغرق فى زيت لزج ، لو يصرخ . . لكن من يجيب لو يزعق . .

* * *

« كنت تقول انك لو نظرت إلى وجهى لشعرت بحزن لا يحز قلبى إنما يشحن نفسك بما لا تدريه أنت ، وسألتك كيف تحزن إذ تنظر فى وجهى ؟ قلت إنك حائر ، وهنا فى الغروب ، كل ليلة أذهب إلى صاحبتى سعاد أذاكر معها ، وأرى وجهك أكثر من مرة فى الطريق . . عند منحنيات الشوارع ، أمام محلات عصير الفواكه ، أتذكر مشروعاتنا للسفر ، وأتخيل نفسى أننى سافرت وحدى ، إلى بلدة صغيرة عند حدود العالم ، شوارعها مبلطة وكنيستها قديمة ، أجلس فى مطعم له شرفة خشبية ، وفجأة أراك تعبر الطريق ، ولا أكون متوقعة رؤيتك ، فأقفز من مكانى ، أناديك ، تدهش أنت إذ من يناديك بالعربية فى هذا المكان ؟ تفتح ذراعيك ، تدور فى الهواء ، أسألك ما الذى جاء بك ، وتسألنى ما الذى جاء بى ؟ ولا تسعنا الفرحة فنتمنى لو تحولنا إلى طائرين صغيرين وطرنا إلى أعلى الجبال المغطاة بالثلوج . . آه . . هل تذكر عندما كنت

أتقدمك فى نزول سلم السينما الطويل الحديدى المفروش بسجاد أحمر ، كنت تقول لى . . أنت الآن تنزلين سلم البوينج ، وإذ نخرج إلى الشارع ، نقول إننا اجتزنا الجمارك فلا شيء معنا نحاسب عليه ، ثم تشرح كل ما تراه . .

يوسف ...

فى اليوم الواحد أفكر فيك يومين . هل تذكر الجمبرى ، هذا الطريق الطويل المفروش بالظلال ، ساعات يخيل لى أن المدينة خراب بدونك ، لم أعرف قسوة الفراق إلا لحظة موت أمى ، ورحيلك أنت ، سأكتب لك كل ثلاثة أيام ، ربما كل يومين ، وربما كل يوم ، وإذا ما كتبت لى ، فلا تكتب أقل من أربع صفحات فولسكاب ، لابد أن أعرف كل كبيرة وصغيرة عنك . أكلك . نومك . شربك ، أصحابك ، وقتك ، كل شيء حتى أهدأ ، حتى أستريح . وأخبرنى متى ستحضر .

المخلصة لك

سامية

* * *

الأحد ٢٦ / ١٢ .

أكلت فى المطعم الوحيد ، سألت الرجل عن مسكن خال حتى لو كان حجراً . . فقال إن مأمور المركز كان أولى ، وإنه لا يستطيع احضار عائلته لأنه لا يجد مسكناً ، ونصحنى ألا أتعب نفسى فأهالى البلد لا يقبلون عزاباً ، فى العصر خنقتنى الغيوم ، همت على وجهى ، لا أجرؤ على إخراج خطاب سامية ، منذ جئت أنتظره ، عندما قرأت خطها الرقيق خجلت من سطورها ، وبكيت . . وحقدت على لون الضوء المنسال فى الفراغ ، والنوافذ الكبيرة المغلقة ، والرجال الذين يحملون أكياس الفاكهة إلى عيالهم ، أغرقنى النهر حزناً كالنحاس الأزرق ، وإذ رأيت بنات المدرسة الثانوية وثيابهن الرمادية

تذكرت سامية ، وارتعشت ، كأنها تنظر إلى مكان لا أراه ، بعيدة عنى ، لكنها تلمحنى من مكان خفى ، وجهها فى الفراغ ، أينما رحت ينظر إلى برثاء ، كدت أرمى نفسى فى النهر ، كدت أضرب المدير القصير عندما طلب منى فى حدة أن أنقل إليه ما يقال حرفياً ، وأن أعتبر هذا أمراً ، بدا لى أنه يعرف تماماً ما جرى وأنه على صلة خفية بعبد المقصود ، أما الموظفون فنظروا إلى بسخرية من وراء الدوسيهات ، طلب لى أحدهم شاياً ، ولم أدر سبب الود المفاجىء ، كدت أرفضه ، وفى كل رشفة شعرت بنظراته .. ها أنا أسقيك شاياً .. أنا لست أقل شأناً من عبد المقصود طبعاً . آخر النهار سألت عم محمد عن مكان خال ، فقال هذا مستحيل ، حتى الباعة ، خادم المقهى ، هزوا رؤوسهم ، كلهم يعرفون ، حتى الرجال المحملقون إلى المحطة ليركبوا القطار ، كلهم يعرفون ، مهدوا لما جرى ، لو أعود الآن إلى مدينتى ، يعرفون فوراً قلت فلأنم الليل على رصيف المحطة ، أتأمل القطارات التى تجىء ولا تقف .. شربت شايا ، امتدت مخالب طيور صغيرة تنهش كبدى ، نزول السواد يمنعنى من العودة إلى الاستراحة ، مقدمات المغيب كالطاعون ، تطردنى البيوت إلى الخلاء المؤدى إلى غابة النخيل .

* * *

أنا عارف كويس أنك دورت على لوكاندة طول اليوم .. وكمان فكرت أنك تسافر ، ولما يئست فكرت أنك تنام على رصيف المحطة ، لكن البوليس لازم يمسكك .. أنا عارف أنك مش حتلاقى .. حتى لو لقيت ، فمش ممكن تسيب الاستراحة برضه .. أنت هنا .. عندى أنا مش مخليك تحتاج حاجة أبداً . بس تقول لى على كل اللى أنت بتعمله .. تقرأ الجوابات اللى بتبعتها لأبيك وأمك .. وأصحابك .. إذا دخلت فيلم تحكيه لى . أنا من سنين ما دخلتش سينما . وبعدين الكتب الكثيرة اللى انت جايبها معاك دى .. فيها إيه .. أنا يا يوسف من أربعين سنة هنا ، عايش على أمل أنه واحد زيك بيجى .. يمكن اليوم اللى انت اتولدت فيه أنا كنت باتمنى الأمنية دى .. أنا وأنت من هنا ورايح حتة واحدة .. الاستراحة كلها تحت أمرك حتى لو انتهت

مدتك الرسمية . حتفضل معايا ، أنا هنا الكل فى الكل . . ياما قضينا سنين ما دخل على حد غير الصراف ييجى يسلم لى الماهية . . شوف . . حتى المديرية ما أعرف طريقها فين . . هما اللى يعرفوا طريقى . .

* * *

« . . أقول كل شيء ولا أقوله ، الآن لم يبق لى إلا أنت ، خطابى إليك يا حبيبتى هو الشيء الوحيد الذى أكتبه على رصيف المحطة ، ومن يدرينى ربما فتحوه وأخذوه ليعرفوا ما قلته لك ، أما خطابات أمى وأبى وأصحابى فأنا مطالب بتلاوتها أمام شيء لن أقول لك ما هو ، إنما . . إنه قوة لابد أنا ملاقى حتفى على يديها ، الناس هنا يا سامية غير الناس والعيون غير العيون ، الحياة غير الحياة ، كدت أبكى عندما أدركت فى لحظة بعينها أننى لم أفكر فيك يوماً كاملاً ، ملامحك بدت لى باهتة ، أنا لا أكذب عليك ، بل أصارحك تماماً . كدت أجرى لاطماً وجهى ، صرعنى الحنين إليك ، حتى لو أرسلت صورتك إلى فلن أستطيع الاحتفاظ بها ولا تعليقها فى مكان ظاهر ، هذا الشيء لو رأى رسمك . أخاف عليك منه ، ربما تعقبك ، ربما ذهب إليك فى مدينتنا . . ربما قضى عليك كما يقضى على . .

* * *

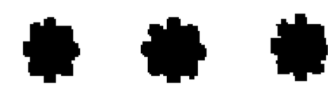
— يوسف . . هات فلوس عشان الغدا . . اسمع . هات اللى معاك كله . . انت الفلوس حتعمل بها ايه ، ما تخليش معاك غير المصروف وده خده منى كل يوم . . .

* * *

الاتنين ١٧ يناير .

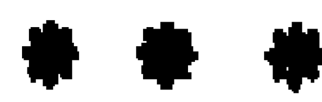
منذ مدة لم تصلنى خطابات من سامية ، خبر هادى ، الآن أخاف عليها . . حتى لو عدت إلى المدينة ، حتى لو نقلت ، حتى لو رجعت ورأيت

البحر كل يوم ، هل يعود ما كان بيننا . . هل تجرى بنفس الحيوية ، نضحك نأمل ، نتبادل القبلات . . .



الأربعاء ١٩ يناير .

صباح اليوم طلبت المصروف من عبد المقصود ، أخرج محفظته الكبيرة . . قال إن الدنيا برد ، وقال إننى صرخت مرتين أثناء نومى وأيقظنى ، كان يقف على بعد متر منى ، عيناه ثبت السواد فيهما ، فى الخارج علا ضجيج قطار ، تقدم منى وأمسك عنقى . . يده دافئة ، أنفاسه مشبعة برائحة الدخان لم اتحرك . قيدت مكانى بآلاف القيود أحاطنى بذراعه ، قال إنه لم يكف طول الليل عن الحلم بحسنية التى تمنى زواجها من عشرين سنة ، ولم يقبل أهلها ، قال إنه لن يدعنى أذهب إلى المصلحة ، سحبنى إلى الحجرة مرة ثانية ، وكانت الشمس ضعيفة عاجزة . . وكان يرتجف وريقه يسيل ، لا يعى . . ما الذى يقولونه إذا لم أذهب . . وهمس إنه اليوم سيطبخ حماماً محشواً بالفريك ، وعلا ضجيج قطار . .



يروح المدير فى الحجرة ويجىء ، يداه معقودتان وراء ظهره ، يثنى شفته السفلى ، يعضها ، ينفخ الهواء ساخناً من فمه ، يستدير إلى يوسف كأنه يود لو يسأل . . هل هذا صحيح ، محروس أفندى قال عنه هذا ، كأنه لا يصدق . . لكنه يثق بكل ما يقوله يوسف الآن ، بعد عدة أيام من نقله كل كبيرة وصغيرة إلى سيادته شد على يده ، تأكد له صحة ما يقوله يوسف ، كيف . . يوسف لم يعرف ، ربما يتولى أحدهم نقل الأخبار إليه ثم يقارن ما يصل إليه ، يدور المدير فجأة ، يقسم أن ينقل محروس أفندى إلى قرى الضفة الشرقية من النهر ، يخرج يوسف ، يطلب قهوة ، لا يبالى نظراتهم ، يطل على الميدان الصغير من النافذة المجاورة له ، حقاً ، ، أى جرأة فى تبليغ النبأ إلى سيادته ، لكن هذا ما

سمعه فعلاً من محروس افندى ، البيك المدير لا يملأ عين امرأته ، لكن هل رآها واحد منكم .. هل رأى الجوع المطل من عينيها .

« .. حتى أننى وأرجو أن تعذرنى ذهبت بالخطاب إلى صاحبتى سعاد ، فهى تعرف كل شيء بيننا لكنها لم تفهم . لم تعرف ، قالت ربما حبيبك فى ورطة ، لكن الخطاب به ما هو أشنع من ذلك ، ماذا جرى يا حبيبى ، هل يهددك شخص ما ؟ اختطفتك عصابة ، هل آذاك المدير ، ماذا جرى ، أين خطط مستقبلنا ، أين ما تواعدنا عليه .. » .

* * *

فى الصباح أعطاه المصروف وهو متمدد كالقتيل ، فمنذ أربع ليال يرقد من الغروب حتى خروج يوسف لا يتحرك ، آخر الليالى بدا متوحشاً فاقد الوعى ، آلمه حتى صرخ . بالأمس كاد يوقظه ليبادله الحديث ، فالوحشة شديدة ، لم يعد يقتل الوقت فى القراءة ، كوّم عبد المقصود كل الكتب فى الحجرة الأخرى . كما يقول تشغل يوسف عنه ، أطل يوسف من النافذة غير أنه لم يجد الرجال الذين يجيئون إلى القنطرة ، ها هو يعبر الطريق الخالى إلى المقهى ، يقول الخادم ان البلدة لم تر برداً كهذا ، منذ لحظات توسط الميدان الكبير ، تعب فجأة ، البيوت حوله ، صامتة ، كالحة .. كأن الحجارة لها عيون وآذان ، إنه وحيد حتى النخاع والنافوخ ، لا وقع أقدام يسمع فى المدينة إلا له ، جرى فى الميدان ، الأهالى ينظرون من وراء شيش النوافذ المائل فى اتجاه الطريق .. كاد يصرخ ، مطالباً أى أحد ، بشر .. جن ، خفى ، ظاهر ، أن ينتزعه من هذه الشوارع ، تلك البيوت ، المقهى حوله خال ، كل ما جرى يبدو له وكأنه يجرى أول مرة ، خطاب سامية الحزين مدفون الآن فى درج مكتبه الشيء الوحيد الذى أخفاه ، من يدريه ، ربما يعرف عبد المقصود كل شيء فمنذ ليال سأله بدأب عن علاقاته مع النساء ، يوسف يتساءل بمرارة ، لماذا يخفى عنه الخطاب ؟ لو تجيء سامية الآن ، سامية ، لا آمال تبنى ، لا حديث خافت مهموس يدغدغ ما وراء الأذن ، لا قبلات ، لن يطبق البحر على

جسميها كالخيمة إذ يغوصان فيه حتى العنق ، لن يقفا أمام فتارين الأثاث . هذا الركن يصلح فى الانتريه . . يوسف . . الصالون لابد أن يكون مودرن ، كأنه يدرك ضياعها أول مرة . . الآن سامية غريبة ، أمه ، أبوه ، كل أيامه البعيدة فى مدينته المغسولة بماء البحر ، عض راحة يده . . يخاف أن يرى سامية فجأة ، ستعرف كل شيء ، تهرب ، تجرى ، فربما أخذها من يدها وذهب بها إليه . . فعلا . . ضاع كل شيء .

يوسف يقوم واقفاً ، الأبر المدببة تنفذ إلى كليتيه ، على الناصية ، دكان لبيع أدوات الحلاقة ، زجاجات العطر ، الأمواس أنواع ، المقابض حمراء ، سوداء ، الزجاج متسخ ، أصابع قدميه تتوتر داخل حذائه ، تتشابك يداه ، ربما رآها عبد المقصود ، يسأله . . لماذا يحملها ، يعرف بسرعة ، ربما يرقبه الآن ، ربما صاحب المحل يعرفه ، يضربه عبد المقصود . . . يمزقه ، يرميه فى الترعة ، لن يدرى أحد ، الحيرة تشطره ، يزداد الضوء قتامة . . والبرد ينفذ إلى رئتيه ، غمامة كبيرة تزحف فوق البيوت ، يرفع عينيه تحتوى وجهاً مشوه الملامح ، جاحظ العينين ، كاد يعرف صاحبه لولا أن الريح أزاحتها بسرعة ، يخرج صاحب المحل فجأة . . يقول وعيناه محملقتان إلى السماء . . المطر لا ينزل هنا أبداً » .

١٩٦٩

* * *

الحصار
من ثلاث
جهات

نداء .

إلى سائر جنود الأعداء .
قواتى تطبق عليكم من ثلاث جهات .
راياتى تخفق فوق مواقعكم .
قادتكم أسرى .
استسلموا .. استسلموا ..
نداء إلى .....

* * *

السيد أندريه مالرو ...
بقلق بالغ ، تلقيت نبأ اصابتكم بوعكة صحية ، وأننى لأتجه ...... » .

* * *

إلى مدير المصلحة العام ...
إلى مدير المستخدمين ...

إقدامكم على خصم أربعة وثلاثين قرشا من راتبي عن شهر مارس ، خطوة عدائية أدرسها بعناية ، وأنني إذ أعرب عن قلقي البالغ بسبب ...... » .

* * *

زعيم الصين ، ماوتسي تونج ...
أرق أمنياتي ، لبلوغكم .... » .

* * *

الشيخ عاشور المأذون ...
في هذه اللحظات الحرجة من حياتي ، أطلب الكف فوراً ، عن تكليف عبده البواب بالتجسس عليّ ، وابلاغ .... » .

* * *

مستر ادوارد هيث ...
المعذبون في روديسيا الجنوبية يقضون مضجعي ، صرخاتهم تمنع النوم عني . أطالبكم بالتدخل .... » .

* * *

في آخر الأدراج يستقر ملف أنيق أخضر ، وآخر أحمر ، خصص الأول للبرقيات المرسلة . كتب فوق الثاني بخط أنيق « سري للغاية » يضم نصوص الأوامر الصادرة إلى قواته ، مواقعها ، تحركاتها أثناء معاركه المقبلة ، الخطط البديلة لصد حلمي زميله في المصلحة ، ما يقوم به من اعداد لاحباط هجماته ، يضم أيضاً قراراته ، هذا الملف لا يفتح إلا بالضغط على قفل صغير ، بطريقة معينة . أرهق نفسه كثيراً حتى اشتراه ، توقف طويلاً أمام فترينات المكتبات الافرنجية في وسط المدينة . بطاقات المعايدة ، أقلام حبر في علب مبطنة بحرير ، الورق الملون ، قال البائع الأجنبي الملامح :

عندي نوع مستورد من فرنسا ...

قبل طلوعه السلم القصير ، التفت محذراً .

— نوع جيد جداً ، لا مثيل له فى بقية المكتبات . .

على مهل يهز رأسه . يداه فى جيبى قميصه ، وقت طويل استغرقه حتى قرر اتخاذ هذا الوضع لمواجهة الناس . توقف كثيراً أمام المرآة الصغيرة المربعة فى حجرته ، راقب نفسه أثناء مشيه فى شوارع المدينة ، فى مرايا محلات الأثاث ، انعكاس صورته فى زجاج الفترينات ، المرايا الصغيرة المعلقة بعربات الأتوبيس ، تعديلات طفيفة يدخلها عند الادلاء بحديث تليفزيونى أو صحفى . دائماً يختار الصحفيين الناشئين الذين لم يعرفوا بعد ، يستدعى الواحد منهم ، يدلى إليه بأخطر التصريحات حتى يمهد أمامهم الطريق . عندما جاءه هذا الشاب النحيل ، بدا مرتبكاً ، وجلاً ، لم يمض على تعيينه فى أكبر صحف البلاد إلا شهر واحد ، ها هو يقف أمام القائد ، ناداه باسمه مجرداً ، تلك عادته عند اللقاء بالناس ، ينادى الاسم الأول ، يزيل الحواجز ، يضيع الهيبة ويبقيها فى الوقت ذاته ، عند إلقاء خطاب أمام جماهير لا أول لها ولا آخر ، توصل إلى نظرة جانبية لم يسبقه إليها أحد من عظماء التاريخ الانسانى ، صور الاسكندر توحى بإطراقة رأس معينة لم يتخل عنها ، وقفة ملوك الفراعنة تنقل وضعاً إلهياً جاؤوا به من السماء ، أما مشية نابليون فتتجسد من صمت اللوحات ، فى أيام عطلته يذهب إلى المطار خارج المدينة ، بخطا بطيئة يمضى إلى صالة المسافرين ، يقرأ لافتات الشركات ، يتأمل الراحلين ، يرفع يده محيياً الجماهير على مهل يستعرض حرس الشرف ، مرافقوه يمشون خلفه حتى يتيحوا للخلق فرصة رؤيته . أعلام ملونة . صورة معلقة ، زهور تنثر فوقه ، طفلان جميلان يتقدمان منه ، يقلدانه باقة . على مهل يطلع السلم إلى شرفة الزائرين . المودعون يقفون ، يندس بينهم ، يرقب هدير الطائرات ، حركة العربات فوق أرض المطار ، يرفع يده مودعاً ، لا تنظر إليه عينان لكنه يرفع كلتا يديه ، أطفال صغار ، فتيات ، رجال يرتدون القبعات . أى بلد ينزل إليها فى العالم ، يعرف لغة قاطنيها ، الوجوه ، يدرك الهمسات ، النجوى الليلية ، متاعب نهاية العمر ، يخاطب الجهاد ، يسمع همسات النمل فى أعماق

جحوره ، يوجه الطيور إلى مواطن الدفء ، يأمر سفراءه ومندوبيه بالتوجه إلى الزعماء الكبار ، يطلب منهم رفقاً بحشائش الحدائق من دوس الأقدام ، إشفاقاً على قطرات الندى من أشعة شمس حارقة . أصول رسائله وبرقياته يضمها الملف الأخضر ، يحتفظ بها ، يوفر جهداً سيبذله علماء تاريخ لم يولدوا بعد ، سيتنافسون فى تدوين سيرته ، استقصاء أخباره ، يخضعون موقفه للتحليلات ، كل آهة ونظرة فى حياته الآن ستصبح همهم وشاغلهم ، وثائقه وقراراته يحفظها أيضاً حتى لا يزيف أعداؤه حقيقة مواقفه .

* * *

ونلاحظ فى رسالته إلى السيدة أنديرا غاندى ، رئيسة وزراء الهند وقتئذ ، أنه يلم بثقافة هندية واسعة ، ويفسر هذا وجود عدد من الكتب فى مخلفاته عن البراهمية ، والبوذا الأعظم ويؤدى بنا هذا إلى التساؤل ، هل أضمر نية ضم الهند إلى دولته العالمية التى أرسى . . . » .

وتؤكد دقة العبارات التى خاطب بها بابلو نيرودا ، بعد فوزه بجائزة نوبل ، أنه نظم الشعر ، بلغ درجة من رقة العبارة حتى لتبدو ألفاظه صافية كطيران فراشة فوق عبير حقل من السوسن . ومن المناسب أن نورد هنا تلك المقطوعة الشعرية التى عثر عليها بين مخلفاته ، وللأسف الشديد لم يصلنا من فيض عبقريته سوى تلك القصيدة . وبعض أبيات أخرى . . .

« فتحت ستائرى لتدخل البلابل الصغيرة .
« ثقبت ورق نافذتى ليخرج البعوض المسكين .
« أحب الفئران ، فأترك لها شيئاً من الأرز . .
« أرحم النجوم فلا أشعل مصباحى قط . .

وبالتأكيد ، لو تفرغ لكتابة الشعر لكسبنا ـ قطعاً ـ شاعراً عالمياً . أما قصائده القليلة ، المنظومة عبر مشاغله . العذيذة ، ومسؤولياته الجسام فقد أمر بإعدامها قبل وفاته ، حتى لا تتحول إلى ما يشبه التراتيل الدينية لدى أتباعه ، ومحبيه فى . . . . . » .

* * *

أول الليل يخفت إيقاع اليوم ، يشحب ، ينادى باعة ، يزعق بائع صعيدى على البلح زعيقاً حزيناً يائساً من انعدام القوت ومجىء الليل ، يدحرج أطفال أطواقاً حديدية ، يود لو خاطبه أطفال الدنيا واحداً واحداً ، ينبىء بما سيجىء ، يحذر من أمور ستقع بعد قليل ، يحقق لكل منهم الأمنيات العذاب ، والأحلام الطرية الخضراء ، يرجوهم ألا يسخروا منه ، ألا يرجموه بالحصى ، لو رأوه يقف يوماً فوق سلالم مسجد ، أمام مبنى حكومى ، يعلن رسالته ، ينهى إلى العالم ظهوره بعد طول استتار وكثافة احتجاب ، آه لو يستعيد رحلة البائع الصعيدى عبر العمر الطويل ، حنينه إلى بيوت الطين ، وشيش سعف النخيل ، أرغفة الخبز ساخنة كنهود العذارى ، زوجة بعيدة وصغار . يترجم له صرير الساقية ، ما تقوله دقات وابور الطحين ، ما يهمس به الضفدع إلى الضفدع ، يرقق للبائع شظف أيامه ، يجعل أيامه حانيات ، يخرج إلى المقهى الفسيح ، يتجنب لقاء الأصحاب ، يستشعر عذاب الجمرات فى احتراقها ، يرقّ لأوجاع كوب زجاجى يقاسى سخونة سائل ، ينأى عن بؤرة الضجيج ، صخب اللاعبين ، رجاء باعة السميط ، والجمبرى ، خبطات

ماسحى الأحذية لصناديقهم ، يتساءل ، هل يعرفون الجالس بينهم ؟ أيدركون موقعه من حركة التاريخ ؟ لو عرفه أحدهم الآن ، سيقف ، يبتسم ، يسأله عن اسمه ، عنوانه ، يكتبهما فى مفكرته ذهبية اللون ، خصصها لتدوين أسماء بشر قاموا بما يتواءم مع رسالته . جندى مرور ساعد عجوزاً على عبور طريق ، شاب تخلى عن مقعده لامرأة مسنة فى مترو مزدحم ، فى مرحلة معينة من عمر الرجل الذى كشف حقيقته يفاجأ بالشرطة تدق بابه ، لا . . لن يرسل إليه الشرطة ، الأفضل رجال مهذبون ، يقولون له . . سيادته لا ينسى أبداً ، يذكر أحاسيسه فى الرحم ، أنت تقدمت منه يوم كذا ، فى مقهى كذا ، صافحته ، تعرفت إليه فى وقت جهله الناس ، تاهوا عنه ، سيادته يهديك هذا المبلغ لتصلح به أمورك وتستعين على قضاء حوائجك ، تفضل بعد أيام أربعة بزيارته ، ستنشر الصحف قصة اللقاء ، كيف تم ، أى عبارات قيلت ؟ انفعالات الرجل ، تظهر تعليقات صغيرة موجزة ، يجرى الصحفيون تحقيقات

عديدة حول الرجل ، حياته قبل اللقاء وبعده ، أينما سار فى الشوارع تشير إليه الأيدى . . هذا الرجل صافح سيادته بيده ، يتجه إليه أقاربه ومعارفه يطلبون منه التوسط لقضاء حوائجهم ، ها هو عزمى ، عزمى أقرب أصدقائه ، يتجه إليه ، سيصبح عزمى مستشاراً لشؤون قواته . عرف مكانه فى المقهى ، لابد أن عبده البواب أخبره ، لا يكف اللعين عن تتبعه .

— يا رجل بحثت عنك كثيراً . . مالك ؟ ؟

— أهلاً . . أهلا . .

لا بأس من تبسط أقرب أصحابه فى الحديث . لو أثبت عزمى ولاءه تماماً سيسند إليه إدارة البلاد المنطوية تحت رايته ، ربما أبدى ضيقاً لأنه ينوى تعيين سامى رفيق دراسته فى أشد المناصب حساسية ، يعرف كيف يوفق بينهما ، كثرة مشاغلهما لن تدع للواحد منهما فرصة الضيق بالآخر .

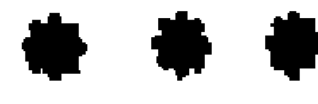
— أدعوك إلى السينما . .

القيام بأعباء العالم أمر صعب ، لكنه بالتأكيد يقبل دعوة صاحبه إلى السينما ، ثم مأدبة العشاء ، يضيق بخاطر عابر ، لابد أن يقيم له مأدبة مماثلة فى وقت قريب . يرهق مصروفه ، لكن دعوة عزمى ينظر الآن إليها بعين الرضا ، بارتياح . عندما يعود إلى حجرته يفتح الدولاب ، يخرج دفتراً صغيراً يحوى أسماء أصحابه ، يقسمهم درجات ، يقرن بكل منهم ما ينوى تكليفه به ، سيقدمهم بنفسه إلى الجماهير ، يشرح تاريخ علاقته بكل منهم ، ربما أضاف إلى مهام عزمى مهمة أخرى ، حقاً سيبدى المؤرخون ملاحظة ، لكنه سيقدم التفسير ، يتحدث عن كل من أسدى إليه معروفاً ، مقرضه وقت العوز . . .

* * *

« . . ولم يعرف عنه أى تهاون مع أصدقائه الذين أسند إليهم مختلف المناصب ، شدد عليهم أساليب الرقابة ، فى الوقت نفسه لم يكلف أياً من

أقاربه ـ برغم كثرتهم ـ بأدنى مسؤولية ، بل نجدهم يعيشون حياة عادية جداً ، لا يتمتعون بأى امتيازات ، والمدهش . . . » .



تتعلق عيناه بسقف حجرته المنخفض ، لا يسمع دبيب خطوات ساكنى الطوابق الأولى أو السائرين فوق الرصيف المحاذى لقاعدة نافذته الوحيدة . منها يرى معرضاً من سيقان ، وأحذية ، وقباقيب ، وحفاه ، يتبدل ، يمرق ، يتغير ، عندما وقع عقد الايجار مع الشيخ عاشور المأذون صاحب العمارة ، أحضر مصحفاً ، فتحه على سورة ياسين ، طلب منه أن يقسم يميناً خالصاً لوجه الله تعالى وحده ، الا يزنى فى حجرته ، ما يخشاه أن يزنى أحد السكان فى ملكه . وقته يقضيه على المقهى المواجه يرصد الخلق ، عبده البواب يقدم إليه أدق الأخبار يومياً ، حتى الآن لم يتخذ قراراً بشأنها ، هل يعد لعبده البواب محاكمة علنية ، أو يأمر بإعدامه رمياً بالرصاص ، أو شيه على نار بطيئة ؟ أبداً . . سيلتزم العدالة ، سيطلب محامين للترافع عنه ، سيحاسبه القضاء التاريخى حساباً عسيراً ، لماذا يفتح عليه باب الحجرة دون إذن ؟ ؟ معه مفتاح إضافى ، ولا يخفى هذا . يسخر منه علانية عند خروجه ودخوله ، فى أمسية حادة ، لحظة إمساكه بقضبان النافذة يستكشف الآتى . زحف عبده البواب فوق الرصيف على أربع ، إندفع فجأة محدثاً بفمه صوتاً مزعجاً ، دفع به إلى الوراء ، آلمه سقوطه فوق حافة سريره الحديدى . عندما هدأت دقات قلبه ، أيقن أن هذا لم يتم مصادفة ، هناك قوى عظمى دفعت عبده البواب إلى هذا السلوك ، لم ينم ليلة بأكملها ، عانى طويلاً حتى اتخذ قراراً معيناً ، منذ فترة يستشعر بدايات هجوم أعدائه ، لا يعلنون عن أنفسهم إنما يأتونه متخفين . وحتى يعلن عن موقعه فى حركة التاريخ ، لن يثق بإنسان ، أو جماد ، ولكن ربما تعرض لمحاولة اغتيال . نقوده قليلة ولا يمكنه اتخاذ حرس خاص من رجال الجيش أو البوليس المحالين إلى الاستيداع ، عزمى قريب إلى قلبه . يثق تماماً به ، قائد قواته والحاكم الإدارى لما سيتم غزوه من أقاليم ، منذ الآن سيتم تكليفه بمهام حراسته ، يمشى بجواره ، يصحبه معه فى المقهى ، يفارقه أمام

المنزل ، الأفضل على مقربة منه حتى لا يكتشف عبده البواب شخصيته ، أوقات مشيه بمفرده يتبعه عزمى عن قرب ، يمضى الآن إلى المعلم عدوى تاجر البط والأوز ، يتردد كثيراً قبل ذهابه إليه ، لا يرفض له طلباً ، يتحدثان فى أمور الدنيا ، يتساءل المعمل عما تنويه أمريكا بالضبط ؟ ؟ يسر فى أعماقه ، المعلم عدوى يسأله هو فقط ، يعرف بحسه الفطرى الصادق أين يلقى ما يشفى غليله ، وتجىء إجاباته محددة موجزة ، تدركه حيرة مفاجئة أثناء حديثه ، ماذا يقول رؤساء الدول عند لقائهم فى المطارات ، أى عبارات يتبادلونها ، لماذا يتعانقون فى أول مرة يلتقون فيها ؟ ؟ تدق الساعة ثمانى مرات ، يقوم فجأة ، يصغيان معاً إلى موجز الأنباء ، يضرب ركبته بقبضة يده . . .

— فظيع . . ما يجرى فظيع . . فظيع . .

مذابح فيتنام مستمرة ، رسائله إلى الجنرال كاوكى لم تجد ، ناشده طويلاً الوصول إلى حل مع مواطنيه الفيتناميين ، هل ضعف صوته بحيث لا يسمع فى سايجون ؟ ؟ من يدرى . ربما علم كاوكى بمضمون خطابه إلى هوشى منه ، لكنه لن يخفى آراءه ، قاعدة لن يحيد عنها ، لن يرضى كاوكى على حساب إخفاء رأيه فى هوشى منه ، المعلم عدوى حائر ، فى أصابع يده اليمنى ثلاثة خواتم ذهبية ، رائحة الدجاج فى الأقفاص ، أوعية فخار مليئة بالبرغل المبلول ، يلتحم الحديث ، يتشعب ، يضمر ، على مهل يميل ، فجأة يرجع ، تتشابك أصابعه تنفرج ثم . . . .

* * *

« . . خلال هذه الحقبة من عمره ، عانى مصاعب ، ونزل به ضيق ، ويرجع هذا إلى ضآلة مرتبه الذى لم يتجاوز العشر جنيهات وأربعين قرشاً وقتئذ ، وربما يفسر هذا قراره الذى حير المؤرخين طويلاً ، مضاعفة مرتبات العمال والموظفين ، وبالتأكيد حفرت هذه الأيام فى روحه آثاراً لا تمحى ، حباً لمعذبى العالم ، أسى يدركه قبل نومه ، كثيرون يتألمون فى أنحاء الكون ، لا

يقدر على تخفيف جروحهم ، عانى ليالى عديدة بسبب نبأ عن زلزال فى ايران ، يجسد السطور فى وعيه . يسمع صرخات الضحايا عند انقلاب قطار ، ينقبض قلبه إذ تسقط عصفورة فى إسار فخ ، يود لو يحول جسده ذرات ، يذوب فى الهواء مخففاً البلايا ، ترياقاً سحرياً ينبىء بالمصاعب قبل وقوعها ، رعشة هدب تنبىء بقدوم غائب ، دهاناً سحرياً يقرب المسافات القصية ، درجة من حرارة تدفىء العرايا ، تخفف آلام الأرض إذ يحفرها الصلب القاسى . . . . » .

* * *

— بصراحة يا معلم عدوى . . أقصدك فى جنيه وعشرة قروش . . حتى . .

أزاح عن صدره ثقلاً . أذاب عبئاً ، مبدأ المعونة لا يشين . .

« لم يخف ما مر به . . والحقيقة إن الصدق المذهل فى يومياته ليجعلنا . . » .

* * *

ترى ، أى منصب يسنده إلى المعلم ؟ ؟ فى أى موضع سيقف بجواره عشية انتصاره فى أكبر معاركه ضد أعدائه ، لو نال نصيباً من التعليم لهان الأمر ، هل يكلفه بتنمية الثروة الحيوانية والدجاجية ؟ ؟

* * *

« . . لكنه كافأه بطريقة أخرى ، بدأ يزوره كل شهر مرة ، يمضى إليه بلا موكب رسمى ، مرتدياً حلة خالية من النياشين ، والأوسمة تتوقف سيارته أمام الدكان ، يقوم المعلم ، يقف الحارس الخاص بعيداً ، يبقى السائق فى العربة ، يعانق المعلم . . . . . » .

* * *

— اشكرك يا معلم عدوى . . وسوف أرده أول الشهر . .

— ولا يهمك يا أمير يا ابن الأمراء . .

لن يضيع دقيقة واحدة ، ليمض إلى مطعم أبى حجر ، رائحة الفول والزيت ، وأوعية المخلل . .

* * *

« . . وهذه صورة فوتوغرافية لدكان أبى حجر الذى أصبح الآن متحفاً قومياً ، وهنا . . . . » .

يبدو الخادم العجوز جافاً هزيلاً ، يراه فى الافطار ، فى موعد الغداء ، فى العشاء ، عندما يخلو المحل إلا من باعة وصبية يعملون فى ورش قريبة يجىء يومياً فى الحادية عشرة تاجر قماش متجول ، يسند لفافات الثياب إلى كرسى مجاور ، ينظر إلى طبق الفول ، يضيف إليه ملحاً ، ذرات كمون ، رائحة شطة . يخرج من جيب صديريته حافظة جلدية كالكيس ، يرفعها إلى أعلى ، يدخل يده ، يخرج فصاً من الثوم بقشره ، يقطعه قطعاً صغيرة يضيفها إلى الطبق ، يقلب الحبات ، يهرسها ، يتراجع متأملاً ما فى الطبق ، يبدأ بمحاصرة حبات الفول بثلاثة أرغفة ، يشرب كوبين ماء ، يأكل ثمرة بصل يأتيه بها الخادم كخدمة خاصة ، الخادم ينام فى الدكان ، تساءل كيف يحتمل العجوز قسوة البلاط ؟ ؟ .

« . . من الأحداث المهمة التى رواها فى مذكراته ، المنشورة بمختلف طرق النشر بعد رحيله الأبدى بخمس سنوات كما أوصى ، إذ حدث أنه لم يستطع الرقاد ليلتين بأكملهما ، وجه الخادم يتعقبه فى حجرته ، أقسى ما ينوء به منظر عجوز يكد ليتقوت ، الرجل منخنخ فى مشيته ، مقعدته لا تلامس كرسياً ، دائماً . يراه واقفاً ، يلبى الطلبات هنا ، وهناك ، أغرب ما يلحظه بابيوناً صغيراً مجهول اللون ، يطل من ياقة قميصه ، قام فى منتصف الليل ، تناول جاكتة لديه ، إحدى جاكتتين يملكهما ، (يراجع الفصل الخاص بثيابه ، ومخلفاتها) خرج . دثرته برودة ، المقهى المواجه أغلق أبوابه ، ذهب الشيخ عاشور ، لكن عبده البواب لا يغفو ، يبقى مستيقظاً ليحمى العمارةمن الدنس .

أخيراً ، توقف ، طرق باب المطعم الصاج طويلاً ، جاء جندى الحراسة ، وقف لم يفارق موضعه ، (قام أحد الصحفيين بالبحث عن هذا الجندى ، وفعلاً قابله ، ونشر رواية للحادثة ، يراجع كتاب « ذكريات معه ») . بعد وقت صر الباب ارتفع إلى أعلى محدثاً ضجة ، أطل الخادم ، بدا أشد نحولاً ، الليل والبرودة ، وقسوة الرقاد ، اختصروا من جسمه قدراً ، قال « تفضل .. تفضل يا عمى .. الدنيا برد » ، لم يقل العجوز حرفاً ، أخذ الجاكتة ، كأنه انتظر طويلاً تلك اللحظة . أغلق الباب ، وهنا لندع المذكرات تتحدث : « نظرت إلى الجندى ، همست « تصبح على خير » ، أصغيت إلى تردد خطواتى فوق الأسفلت الليلى ، سمعت العسكرى يقول : « ياما فى الدنيا أولاد حلال » ، ارتعشت شفتاى ، ضمنى أمن وأحاطتنى طمأنينة ، على الرغم من وحشة المدينة ، وإدراكى التام بتربص أعدائى ، احتمال انقضاضهم على ، ابتعاد قائد عام قواتى وفقدان إتصالى به فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؛ لم أبال ، رأيت وجه العجوز المتعب . دمعت عيناى . وفى جوف الليل أخرجت الملف الأحمر ، أضفت قراراً جديداً إلى قراراتى ، أى عجوز فى دنياى لن يشقى أبداً ، أبداً ... »

عند عبور الميدان أصغى إلى صوت رفيع يتردد من خلال مكبر الصوت :

« اللى رايح يقول للجاى ، والجاى يقول للرايح ، الحاج تيسير اتبرع بألف جنيه عشان الغلابة تاكل .

يا لحمنا يا موحد ربنا ، يا للى بتتغدى بغاشة ، وتتعشى ماورد ، بخمسين بس يا بن العبيطة » .

تدفق التأثر فى صدره ، لم يخل العالم من الطيبين ، بخطى بطيئة اقترب من الدكان ، الحاج تيسير وراء منضدة عالية ، أمامه صندوق زجاجى يمتلئ بالكبد والكلاوى والقلوب ، عمامته كبيرة ، مبسم الشيشة لا يفارق فمه ...

— أتوجه بأسمى معانى الشكر إليك يا حاج .. أنت رجل خير ..

بدا فخوراً بدكانه ، بالذبائح المدلاة من الخطاطيف ، التفت إلى صبى يمسك ساطوراً . .

— شوف حاجة الأستاذ يا بنى . .

ينحنى مرات ، كاد يصطدم بأحد الزبائن ، عينا الحاج قاسيتان .

« خمسين قرش يابو العيال ، عشان الأهالى تتغذى ، اللى متغاظ مننا يعمل زينا ، أيوه يا بن العبيطة . . » .

— شكراً يا معلم . . شكراً . .

توقف الحاج عن التدخين ، يمسك مبسم الشيشة كما يمسك العصا ، لم يتم حديثه عن إنسانية العمل وعظمته ، أسرع الخطى مبتعداً . الحاج لم يفهمه ، على وشك إيذائه ، فكر فى ارسال مندوب إليه يشرح وجهة نظره ، أو برقية مطولة يعلن تأييده ، لم تفارقه الحيرة حتى المساء ، جاءه قائد قواته وحاكم الأقاليم التى سيتم فتحها ، أو كما يسميه الآخرون « الرجل الثانى » صافحه ، خاطبه بألفاظ ود ، فى مثل هذه اللحظات يتخفف من المراسم ، يتصرف كأى إنسان بسيط عادى لا تثقل كاهله أعباء جسام ، بدأ يتحدث إليه عما قام به الحاج تيسير كيف تبرع بألف جنيه كاملة ، قام ، راح وجاء فى الحجرةالضيقة ، ربما كان الحاج واحداً من حلفاء الخير ، قام عزمى قائد القوات ، تقدم منه ، دفعه فى صدره ، صفان من أسنان يلمعان فى فمه ، لم يره ضاحكاً من قبل هكذا ، لن يسمح للعلاقة أن تصل إلى هذا الحد من البساطة ، يضحك عزمى ، ما الذى يجرى ؟ هل يواجه تمرداً من أقرب الناس إليه ، أخطر شخصيات معاونيه ، تراجع خطوة ، عليه التزام الحذر ، فى مثل تلك المواقف ينعطف مجرى التاريخ . رفع يداه أمام وجهه ، قال بصوت عال : « الحاج تيسير من حلفائنا . . الحاج تبرع بألف جنيه وبيبيع الكيلو بخمسين قرشاً » . يقهقه عزمى قائد القوات ، ترتعش عضلات وجهه ، يتعاقب عليه زحام تعبيرات صامتة ، عزمى يمسك بطنه ، يضحك حتى ينحنى ، هل نسى دوره كحارس خاص فى تلك الحقبة ، هل يكشف ظهره لمأذون ، لمدير المصلحة ، لعبده البواب ، لسائر الأعداء ، هل يدعه وحيداً

بلا سند ، ربما استمالوه إليهم ، لا أمان فى الدنيا ، يتراجع حذرا حتى يلتصق بالجدار . .

* * *

بيان

يؤسفنى أن أنهى إلى العالم قراراً اتخذته بخصوص قائد قواتى ، وحاكم الأقاليم المنتظر غزوها ، وقائد حرسى ، عزمى على شاكر ، إذ أبدى سخرية منى ، وأهان مشاعرى أنا أقرب الناس إليه ، من أوليته ثقتى ، واتخذته مستودعاً لسرى الدفين ، من هنا قررت إعفاءه من كافة مناصبه ، وتجريده من الأوسمة والنياشين الممنوحة له منى ، مع احتفاظه بالوشاح الأعظم لأنه يستحقه فعلاً ، وينقل اسمه من ملفى الأحمر ومفكرتى الذهبية ، إلى الملف الأسود ، وسوف أتولى جميع مهامه بنفسى . . » .

* * *

يطيل التأمل فى صفحات الملف الأسود ، شطب محمد أفندى من قائمة خصومه ، صباح اليوم قابله أبدى ناحيته وداً رائقاً بعد جفاء ، بعناية أضاف إسماً آخر بعد طول تردد ، الشيخ عاشور صاحب العمارة . الملف لا يضم من آذوه وخانوه وضايقوه فى حياته ، إنما يحوى أسماء عديدين من أزمنة قريبة وبعيدة ، الأعاصير المدمرة ، قاطعى أصبع جيفاراً ، مقارنى البصمات ، مغلقى الزنازين ، نابليون ، الاسكندر ، الطاعون ، تيمورلنك بانى الاهرامات من جماجم البشر ، هتلر ، جورنج ، تجار الرقيق ، صانعى السلاسل ، هند بنت عتبة ماضغة كبد حمزة بن عبد المطلب ، مثقلى صدر بلال بالحجر ، العابث بشفتى الحسين ، قضاة أحمد بن حنبل . . ربما سئل يوماً ، وكيف يتخلص منهم ؟ إن الاقتصاص من الشيخ عاشور ، وحلمى زميله ، والمدير غليظ الساعدين ، كثيف شعر الصدر ، ووالد شهيرة التى شرع فى خطوبتها يوماً ممكن ، لكن . . وحتى لا يحرج ، أعد منذ الآن أجوبة جاهزة ، متقنة الصياغة لكل ما سوف يوجه إليه يوماً .

* * *

« . . أعيد صياغة تواريخهم ، لا تهمنى عظمة الإسكندر ، لكن يعنينى كم عدد ضحاياه ، وبدلاً من البحث عن قبره لتمجيده ، ربما نبشناه ، ألقينا بقاياه فى البحر . . لا تهمنى صلات مدير المصلحة وأقاربه وسلطانه ، لن أعبأ بأمجاد نابليون ، أو ملكية الشيخ عاشور للعمارة . .

— نلاحظ أنكم أدرجتم الفقر والآلام والمخاوف فى الملف الأسود . .
وهنا أطرق الزعيم ، قطب جبينه ، زم شفتيه ، ثم اعتدل فجأة . .

— القضاء عليهم حلم كونى أبدى . . بجهدنا الإنسانى المحدود واللا محدود نخلق جيوشاً لا تهزم ، نحارب الأوبئة ، نغتال الأوجاع نطاردها إلى كون آخر . . » .

إلى عزمى على شاكر ، قائد قواتى وحاكم الأقاليم التى سيتم غزوها ، وقائد حرسى ، وصديق عمرى سابقاً .

بقلق تابعت استمراركم فى السخرية منى ، والهزء بى أمام أعدائى فى المقهى والمصلحة وهذا لا يليق ، وأرفضه بشدة . . . أنذركم . .

* * *

أما الشيخ عاشور ، فلابد من البحث عن أسلوب مستحدث لم يصل إليه إنسان لتعذيبه ، عندما طرق الباب أضطر إلى إخفاءبرقية تهنئة إلى الملك محمد ظاهر شاه ملك أفغانستان بمناسبة عيد ميلاده ، ومجموعة ردود على خطابات أرسلها إليه أطفال من أركان الدنيا ، يخاطب كلا منهم باسمه ، أحياناً أثناء سفره ، يأمر بوقف القطار ، أو السيارة ، يحادث طفلاً عابر طريق ، أو فلاحاً كادحاً ، أو إمرأة عجوزاً تحمل قفصاً من أوز وبط ، تتجه إلى السوق لتبيعه ، يسأل عن مصاعب الحياة ، كيف تحل ، وكثير من رجال شعبه لا يعرفونه ، خاصة فى المناطق النائية ، يتصور فيما بعد وقع الخبر على وجوههم المتعبة ، الطيبة ، عندما يعلمون أن محدثهم هو الزعيم بذاته ، يستعيدون كلماته ولهجته ، وطريقة إخراجه الألفاظ ، أحد الخطابات هنا يسأل كاتبه الذى مازال فى مقتبل العمر ، هل يتحدث كبقية البشر عندما يخلو إلى نفسه ، ما الذى

يفكر فيه قبل نومه مباشرة ، كيف يخاطب أصدقاءه آه . . يدركه ألم ، كتب إلى الطفل النائي ، يشرح ما وقع من عزمى ، ما أتاه ترك فى نفسه جرحاً لا يلتئم وعذاباً نفسياً ينوء به لحظات الوحدة ، يضايقه ما اتخذه ضده من إجراءات ، ملف واحد يضم اسمه واسم الشيخ عاشور . . دخل الشيخ ، قعد ، أصابعه تدحرج حبات المسبحة ، ينظر فى أنحاء الغرفة رفوف مثقلة بكتب ، كلها تراجم ذاتية لعظماء . .

« وتوضح الصورة ضيق الحجرة ، يبدو إلى اليمين الدولاب الصغير الذي ضم الملفات كلها ، القرارات ، والبرقيات والبيانات المتضمنة للمشاكل والحلول ، وفى المقدمة السرير الحديدى الصغير تحته الحذاء القديم مرتوق النعل والقبقاب وزوج من الجوارب ، والمعروف أن خطته بالنسبة للجوارب تتلخص فى شراء زوج واحد ، يرتديه يومياً ، يغسله بماء بارد قبل نومه ، وعندما يتمزق يلقيه ثم يشترى زوجاً جديداً ، وبجوار السرير مكان خال احتله يوماً مقعد قديم سرقه عبده البواب ، ويلاحظ فى الصورة عدم استواء المرتبة فوق السرير . ويرجع هذا إلى غارة مفاجئة قام بها عبده البواب ، سرق خلالها قطعتى خشب من « ملة السرير » . وسبب هذا أوجاعاً وآلاماً .

— هل تذكر عندما عرضت على استئجار غرفتى . . أى شرط اشترطته عليك ؟

* * *

تبرق آلات التصوير ، بينما يقف فى المواجهة رافعاً كلتا يديه . . .

* * *

— نعم يا مولانا . . والله لم أخل به أبداً . .

* * *

« سيداتى ، سادتى ،
ما نشهده الآن لا مثيل له ، القاعة حافلة بصور العظماء الحاصلين على

الجائزة من قبله ، السيدات ينثرن زهور البانسيه التى صرح سيادته ذات مرة بحبه لها ، أبناء وطنى . . » .

* * *

— أنا لا أكذب . . أنت أدخلت عندك امرأة ، وقضيت معها وقتاً . .

* * *

بين الصفوف تجلس شهيرة ، والمعروف أنه اختار قرينته من أبناء الشعب ، فى سنين حياته الصعبة رآها كثيراً تنزل سلم العمارة أثناء ذهابها إلى المدرسة ، أمسك قضبان النافذة ، إذا سارت فوق الرصيف ، يدقق النظر فى حذائها وساقيها ، إذ يمران بمحاذاة وجهه ، لم تشعر بعاطفته النقية قط ، لم تدر شيئاً عن الليالى العديدة التى قضاها يحلم بها ، يراها بجواره فى لحظات معاناته قبل اتخاذه قراراً يمس ملايين البشر ، أبداً ، لم يعبأ عندما اختارها بعد وصوله بما جرى يوماً عندما توجه إلى الطابق الثالث ، بعد تلميع حذائه وإضفاء بريق عليه ، جلوسه فى وقار أمام والدها فضى الشارب ، أصلع النظرات ، حين راح يستجوبه بدقة . . .

* * *

— من الآن لا تصلح ساكناً عندى . . أنا رجل صالح لم يدنس بيتى مخلوق ، قطعت على نفسى عهداً ألا يرتكب زنا فى بيتى . . تجىء و . . . .

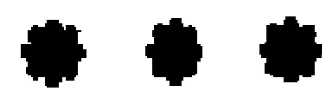
* * *

إلى الزعيم ، إلى الزعيم ، أمل العالم ، وقائد القوات التى لم تعرف الهزيمة .

إزاء استفزازات الشيخ عاشور ، وتهديداته ، نرجو منكم التمسك بضبط النفس . . .

* * *

— افتروا علىّ يا مولانا .. عبده البواب يطمع فى تأجيرها لأحد أقاربه ..



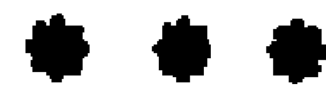
وهذه صورته قبل إنتهاء آخر معاركه ، وأشدها ضراوة ، وقد نقلنا عناوين بعض الصحف الصادرة وقتئذ ، ومقتطفات من خطاب النصر ..

« محاصرة العدو من ثلاث جهات » .

« إبادة الفرق الرئيسية والتوغل فى .... » .

« قاد المعركة الأخيرة بنفسه ... » .

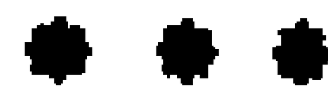
« أخرست الألسنة ، هزمت الأمراض ، أسرت الأوبئة فى قمقم نحاس ، نفيت رياح السموم ، طوعت الخماسين ، منعت نزول الأمطار فى غير أوانها ، منعت الجدب ، دفعت الرزق إلى شباك الصيادين .. » .



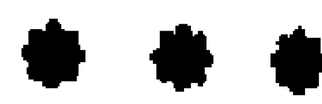
— والله يا مولانا لم يحدث شىء من هذا .. أبداً ..

— تأخر الإيجار لمدة خمسة شهور ، قلت الصبر جميل ، جاءوا وقالوا انه يصرخ فى الليل ، قلت ربما المرض ..

إسمع .. بدلاً من تشريدك فى المحاكم ، وأقسام البوليس ، إبحث عن مكان بعيد عن بيتى .. وأسامحك فى الشهور القديمة ..



« ويتخيل الفنان فى هذه اللوحة الزيتية الرائعة ، لحظة استسلام الأعداء ، يبدو سيادته ناظراً إلى بعيد ، بينما يقف فى أسفل اللوحة بشر وعظماء من حقب تاريخية مختلفة ، لكن المحير ظهور عزمى على شاكر فى ..



— لا تحاول .. لن يرق قلبي لك .. لن تبقى في بيتي ..

* * *

نرجو الحفاظ على ضبط النفس .

* * *

يقوم إلى أين ؟ ؟ ما موقف الأجيال القادمة من هذه اللحظات ؟ شوارع المدينة أفواه حيات شرهة ، يحاول الأعداء محاصرته ، الآن أدرك خططهم ، يتربصون به ، الشيخ عاشور أول طلائعهم . ألم يجلس أمام العمارة لمراقبة السكان ؟ منذ لحظات فكر في إتخاذ قرار ، أعاده عزمي إلى مناصبه ، يوليه قيادة القوات ، لكنه يكتشف الآن عبث ما فكر فيه ، خانه أقرب الأصدقاء ، آخر الأحبة ، صاحب عمره ، إنضم إلى أعدائه ، يقود فيالقهم ، يعرف مواطن ضعفه ، الهين من حصونه ودفاعاته ، عزمي على شاكر يقف في صف واحد إلى جوار الشيخ عاشور ، عبده البواب ، مدير المصلحة ، كافة من ناصبوه العداء ، أضمروا له الكراهية . عزمي يرسم الخطط لتطويقه ، آه من ضياع العمر الطويل ، يريدون حرمانه من لحظة يعلن فيها النصر عليهم ، ترفرف بيارقه على تخوم لا يدرك نهايتها بصر ، يمنعونه من تنفيذ قراراته ، محاربته بالأوجاع والآلام ، بسرعة فتح الدرج الثالث في الدولاب ، يعرف ما سيقومون به ، في غفلة من الخلق يهجمون عليه ، يكممون فمه ، يمنعونه من البوح ، الاتجاه إلى الأفئدة والقلوب لما ينويه لسائر البشر ، يعرف قوة الأعداء ، ينوء بخيانة قائد قواته ، لكنه سينازلهم بطريقة أخرى . يلملم الشيخ عاشور أطراف قفطانه . سيقرأ على الناس من نافذته المحاذية لرصيف الطريق آماله ، ما ينوى تنفيذه ، عندما تصل إلى آذانهم قراراته ، تتبدل الأمور ، يقفون سداً حائلاً ، حصناً منيعاً لم يختبره قائد قواته الخائن من قبل ، سيدفعون عنه الأعداء ، يساعدونه على الإسراع في تنفيذ ما ينويه .

— إصغوا إلى .. إصغوا إلى ما اعتزمته بشأنكم ..

تروح السيقان وتجيء ، أحذية قديمة وجديدة ، أرض مبلولة ، الطين أسمر لزج ، أين مستشاروه الذين استدعاهم من جوف التاريخ ، أين ؟ . . يرفع الشيخ عاشور عصاه ، يبدأ الهجوم المعلن ، لكنه يحيط قضبان النافذة بذراعه ، باليد الأخرى يفتح صفحات الملف الأحمر .

— إصغوا إلى قراراق . . . إصغوا إلى ما . . . . » .

* * *

البلاد البعيدة

عدلى عبد الرءوف . .
السيد عدلى عبد الرءوف . .
رجاء التوجه بسرعة إلى الطائرة . .

أيها السادة نرحب بكم ، نقلع الآن ، الرجاء ربط أحزمة الأمان وعدم التدخين ، ارتفاعنا ألف قدم ، نصل بعد زمن غير محدد إلى جبال قاف ، أرض واق الواق ، ثم نطير إلى جزر بعيدة نائية لا يسكنها غير نساء جميلات مستباحات ، نرجو لكم رحلة سعيدة عبر ممرات جبال الألب المنخورة فى عنق الصخور المجللة بالثلوج .

سنطوف حول بحيرة جنيف ، ثم تشربون البيرة فى ميونيخ ، تنزلون فى ريكيافيك عاصمة أيسلندة ، طائراتنا تتجنب جبال النحاس ، والطلاسم التى تمنع الطيران وراء البحر المحيط

السيد عدلى ، نهنئك بسلامة الوصول ، هنا نيويورك باريس ، روما ، هنا لوجانوا ، زيوريخ ، هنا موسكو ، طوكيو ، هنا سنتياجو ، مدريد .

السيد عدلى .

السيد عدلى عبد الرءوف .

هنا .. هنا سهالوط ، سهالوط ما بعد العصر وقبل الغروب ، سهالوط يتيمة ، منكمشة ، الغبار أمامنا وفوقنا وتحتنا ، يخفى العمر الضائع ، يطلع الغبار من أرض سهالوط ، ينزل من سماء سهالوط .

* * *

الآن بالذات هذا الجزء من الثانية ، كأنه يرى اللافتة القديمة فوق رصيف المحطة لأول مرة ، يلحظ الحروف السوداء الباهتة فوق الأرضية الرمادية ، فى طفولته ويجىء إلى المحطة يتقدمه أبوه ، يجرى وراءه ، لحظة أن تلامس أقدامهم رصيف المحطة ، يزعق .. إبعد عدلى .. إبعد عن الرصيف يا ولد .. يخاف أن تزل قدمه ، يسقط بين الفلنكات ، يخاف عليه مع أن الطريق خال ولن تأتى قطارات ، سهالوط الحروف الضائعة ، والهواء فى لون الترعة ، من أين اسم البلدة الغريب ؟ ؟ كم رجلاً وامرأة وقفوا مكانه ، راحوا ، جاءوا سنين .. وبقيت البلدة بهم أو بدونهم ، من الآن حتى صباح اليوم التالى لن تقف قطارات ، عدا قطارات البضاعة الكثيرة العربات ، الخالية من الركاب ، تبعث الملل ، بطيئة ، فى الليل أثناء نومه يسمع صرير عجلاتها الحديدية واصطدام مقدمات العربات ببعضها عندما تهدىء لتقف ، فى الثامنة والنصف ، بداية الليل ، لحظة إعلان الراديو عن نشرة الأخبار الرابعة ، إشراق الفجر فى نصف الكرة الأرضية الآخر ، لا يصدق هذا بسهولة ، كيف الليل هنا والنهار هناك ؟ فى هذه اللحظة تماماً ، يمرق قطار الديزل القادم من أسيوط ، العربات التى يراها فى الصباح ، تعود فى المساء ، تقوم الوحدة من القاهرة فى العاشرة ، تنتهى رحلتها فى أسيوط ، تعود أول الليل ، منذ وقت قصير ، قال فؤاد ، وعيون المسافرين تتطلع إلى مجىء الإكسبريس .

لو أننى نزلت المنيا وركبت الديزل لضمنت رحلة مريحة ، عربات الديزل لا تدخلها ذرة تراب ، لا تشعر فيها باهتزازات الطريق ، ولا طول المسافة . .

لحظتها ، انتفخ قلبه ، وخزته دبابيس ، لكم يبدو فؤاد شاباً وصغيراً ، عاش مدة قصيرة فى المدينة مع هذا يشعر أنه يعرفه من بداية العمر ، قال منذ ساعة ونصف بالضبط . .

لابد أن ألحقك عن قريب .

إبتسم فؤاد . . ضحك . .

توحشنى ، سأرسل لك خطابات . . لابد أن نتراسل . .

كلمات معتادة تقال بلا معنى ، فؤاد سينساه ، لن يذكره ، لو أرسل خطاباً فلن يكتب الثانى ، الآن ، يروح ، يجيء فوق الرصيف ، فتيات صغيرات ، حافيات ، ثيابهن ممزقة ، عائدات من المحلج ، ضيق عينيه ، مشيتهن بطيئة ، ضحكاتهن متعبة ، فيها إرهاق يوم عمل طويل ، كأنهن غير موجودات . حلم يمر به ، ماء الترعة لا يتحرك ، تلاميذ من المدرسة مقبلون ، صمتوا عندما اقتربوا منه ، رفعوا أيديهم بالتحية ، يعرفهم جميعاً بالاسم ، عائلاتهم ، تفاصيل كثيرة عنهم ، أخرج دفتر مواعيد القطارات ، لا يسافر أبداً ، إنما اشتراه لتتبع القطارات المارة بالمحطة ، يتأمل أسماء البلاد والقرى ، خطوط السكك الحديدية الواصلة بينها ، يغمض عينيه ويتخيل الإكسبريس الذى قام الآن من نجع حمادى ، بعد مدة ينظر الساعة ، الآن يقترب القطار من إدفو ، فؤاد ركب قطار رقم ٨٧ ، فى الرابعة والثلث تحرك ، منذ ساعة ونصف ، ساعة ونصف ؟ ؟ ربما سنة ، ربما غداً ، لا يصدق رحيله ، بعد خمس دقائق يقف القطار فى مغاغة ، يعوى عبر البلاد الصغيرة ، إذ يلامس العقرب الصغير الرقم الحادى عشر ، والكبير الثانى عشر ، ينتصف الليل ، ينزل فؤاد ، تمضى ساعات ثم يروح إلى الأبد ، تبتلعه الموانىء البعيدة ، صفارات السفن ، ودفء المقاعد الوثيرة فى الطائرات ، عربات الباص الغريبة الألوان ، ذات الطابقين ، فى مدن كل بيوتها محدبة السقوف ، محاطة بحديقة صغيرة ، أحواض زهور ، النافورات الملونة فى الميادين الفسيحة ، النيون ، دفع الهواء إلى صدره ، إحتوى البيوت المنكسرة سجينة أسياخ الحديد وعروق الخشب ، أسند قدمه إلى الدكة الصغيرة ، الآن الآن ، هذه اللحظة يقرر ، لن يبقى

لحظة واحدة هنا ، لن تشرق شمس جديدة عليه فى هذه البلدة ، لن يجىء نهار يصحو فيه ويذهب إلى المدرسة ، لن يغسل رأسه فى مائها ، لن يلتحف ببطانية تحت سقف بيته ، لابد ، هذه اللحظة ، تلك الثانية ، الآن ، الآن ، قبل اختفاء عربة النقل السريعة هذه .

قبل أن يغلق هذا الرجل الذى يتثاءب فمه ، لابد أن يمضى ، يذوب ، يتلاشى ، يحزم روحه بالشنابر ، يرميها فى الفراغ المدفوع أبداً ، يفرد عروقه حبلاً طويلاً يتعلق به ، يربط نفسه بساق الرخ ، يرحل ، يرحل ، يلم أجزاء جسمه فى مكان بعيد قصى وناء ، أما هنا ، البلدة ، البيوت القديمة ، بنات المحلج المنهكات ، العمر المنقضى فى الحوارى الضيقة ، الوقوف عند دكان البقالة ، رنين الجرس فى فناء المدرسة ، مشية الناظر ، خوف التلاميذ ، نظرات الرجال إليه ، ذهابه اليومى المنتظم إلى محطة القطار ، تأمله الركاب ، ترى ما اسم هذا الرجل ، تلك المرأة التى تنظر من وراء زجاج عربة الأكل ، أهى متزوجة أم لا ؟ ؟ كيف تسافر بمفردها ، ربما أغراها شاب واختلى بها فى عربة القطار ، بالضبط فى العربة نفسها ، هذا البدين ، لابد أنه موظف كبير يسافر مجاناً على حساب الحكومة ، أطفال مع أمهم ، أبوهم ينتظرهم عند الوصول ، يتوقف أمام نافذة يطل منها رجل يرتدى الملابس البلدية ، حول أصبعه خاتم ذهبى كبير ، لابد أنه مقاول أو تاجر غلال ، ضابط بوليس فى الدرجة الثانية ، يغمض عينيه ، ربما بلدته الأصلية اسكندرية ويعمل مأمور مركز أو رئيس نقطة فى بلدة قصية بجوف الصعيد ، الضيق يبدو على وجهه ، ضيق أو تعب ، لا ، إنه ضيق بعودته من إجازاته ، ربما يقيم أطفاله فى اسكندرية ولا يراهم إلا فى الاجازات ، زوجته كرهت أن تقيم معه فى الصعيد ، إذن تقيم بمفردها فى شقة باسكندرية ، من يدرى كيف تقضى وقتها ، ربما تصاحب شاباً عفياً فالرجل يبدو عجوزاً قبل الأوان ، ينقل عدلى أفندى خطواته ، يمر آخر قطارات الركاب ، يعود إلى طرقات البلدة ، الغموض فى جوف الليل ، صراخ الغفير الممدود ، من هناك ؟ ؟ الزحام لحظة الخروج من السينما ليلة الخميس ، تخيله لما سيجرى طوال الليل بين الرجال

والنساء ، أكيد فالليلة ليلة جمعة ، بخوفه من الترعة ، ما تحمله من رمم ، ابتعاده عنها ، مرور العربات فوق الطريق ، اللحظات البطيئة ، يوم الجمعة الخامل المشمس الكئيب الخالى من الحركة ، نزول العصر القتيم فوق البيوت ، الجرارات المولية إلى العزب البعيدة ، المشى فوق الزراعية فى ثنايا برد الشتاء الأزرق ، مصنع السجاد ، حجرة فؤاد التى رأى الدنيا فيها ، كل ذرة هواء ، تملأ الفراغ ما بين هذا كله ، لن تجد طريقها إلى صدره فى شهيقه التالى .

* * *

فؤاد : ألم تذهب إلى الحسين ؟ ؟

. . . : زمان زرته مع أبى .

فؤاد : إذا قلت لك ان بيروت فيها من الأماكن ما يشبه الحسين فهل تتخيل المكان ؟ ؟ .

. . . : زمان زرته وكنت طفلاً مريضاً . . رحنا أيضاً السيد البدوى . .

فؤاد : يا سلام يا أستاذ عدلى ، تطيق البقاء كل هذه السنين هنا ؟ ؟ البلدة كلها شارعان ، أنا من ساعة ما نقلونى هنا ولا أطيق روحى ، أنت عمرك كله تفنيه هنا . .

. . . : إحك عن بيروت . .

فؤاد : طبعاً تعرف ناس البلدة بالإسم ؟ ؟

. . . : كلهم . . حريمهم وعيالهم . . خمسون سنة أراهم كل لحظة . . إحك . .

فؤاد : لن يكلفك رغيف كبير محشو بالشاورمة غير ليرة واحدة . . . . :

. . . . . ؟ ؟

فؤاد : لحم مشوى على وهج النار ، لكن عموماً الحياة غالية جداً هناك ، إنما لو أمسكت لن تنفق فى اليوم أكثر من عشرين ليرة . .

. . . . ؟ ؟

فؤاد : العملة اللبنانية . . تساوى رسمياً حوالى عشرة قروش وعملياً

عشرين .. معك فلوس فى لبنان تشترى كل شىء .. كل شىء ممكن تتصوره تشتريه بالمصارى فى لبنان .. المصارى يعنى النقود ..

* * *

سواد الليل ، لا تبدو تفاصيل البيوت ، البلدة مطموسة ، الأنفاس لا تعبر الجدرانِ إلى الخارج ، يتصاعد بخار الماء كثيف القوام ، من الحقول القريبة ، ينفذ الصمت إلى مرارته ، خطواته بطيئة ، يكتشف البلدة من جديد ، لم يعش أبداً لحظات الليل هذه ، دائماً يمر آخر القطارات التى لا تقف فلا يمكنه رؤية وجوه ركابها ، فى التاسعة ، يمضى إلى كشك التحويلة ، العامل سئم أسئلته المكررة ، منذ سنوات فرح جداً ، لأنهم نقلوا العامل وجاء آخر ، يروح ، يجالسه ، يحضر له فطيراً مشلتتاً وجبناً قديماً ، يسأله ، كأنه لا يعرف شيئاً ، ما الحكمة من السيمافور ، كيف لا يخرج القطار عن القضبان ، هل السائق هو الذى يدور بالعربات عند المنحنيات أم أن القضبان تحدد المسار ، كيف لا تقفز عربة فوق الأخرى خلال الاندفاع السريع ، الليلة يتمنى لو تكلم فؤاد حتى الفجر ، لحظة خروجه لسعه البرد ، خطواته واسعة فى البداية ، صرير الحشرات يرتفع من جانبى الترعة ، أزيز فى أعماقه ، يمضى الآن إلى بيته ، يفتح الباب ، رائحة الرطوبة والأثاث القديم ، البيت بارد ، لا تضيئه حرارة موقد ، لا تدفئه صيحة طفل ، يعلو تساؤل أمه ، هل وصل بالسلامة ؟ ؟ فيقول .. جئت الحمد لله ، فوق الطبلية يأكل بسرعة ، يقوم ، يغسل الصحون والأوانى ، تئن أمه ، لو باستطاعتها فعل ذلك لما تأخرت ، يغسل رأسه من الغبار ، يتخلل الماء ما بين أصابع قدميه ، بالفوطة يجفف وجهه ، يبحث عن قماشة يدلك بها قدميه ، يدور فى البيت ، بنوه واسعاً عالياً لماذا ؟ ؟ عروق الخشب مصلوبة ، الجدران قاسية ، يتأكد أن نافذة المطبخ مغلقة ، قفلها محكم ، الغرف خالية ، يطل داخل كل واحدة ، يتراجع أخيراً ، الباب الرئيسى ، يدفعه ، يهزه ، يتأكد من إغلاقه ، يسألها ، تحتاج إلى شىء ؟ ؟ تدعو له ، تطلب منه ألا يتعب نفسه ، السهر مرهق عليه وعلى صحته ، يهز رأسه ، الكلمات واحدة ، كل ليلة هى هى ، لا فرق بينها وبين

الليالى المنقضية ، يدخل إلى سريره الخالى ، الرطوبة تنفذ إليه تحت الغطاء ، يحيط وجهه عدا أنفه وعينيه ، فجأة . . يقفز ، بالضبط نفس اللحظة الليلية ، يطل برأسه تحت السرير ، الفراغ اليتيم ، ربما تسلل أحد ، يذبحه إذ يغفو ، يصغى إلى وقع الزمن الليلى الرتيب ، الأصوات البعيدة حيث سعف النخيل ، لا تمضي دقائق حتى تخزه مثانته ، لا يمكنه النوم إلا إذا أفرغها تماماً ، لو تردد إلى دورة المياه عشرين مرة ، يعود ، يتمنى النوم ، تتوجع أمه ، يسألها عما بها ، تقول لا شيء ، لا يدرى ، ، نام أم لا ؟ ؟ فى الصباح يقوم على صرير المنبه العتيق ، إستيقاظ السابعة المرهق ، النهار الضعيف يتلوى فى الخارج ، تبدأ الدراسة بعد قليل ، يقوم ، يتثاءب مرات ، يتحسس الأرض بحثاً عن شبشبه ، يمسك ظهره ، صباح الخير ، صباح النور يسمعها واهنة ، لكم يزعجه غسيل رأسه بالصابون ، كل يوم منذ خمسين عاماً يغسل رأسه بالصابون والمياه الباردة ، رأسه وفمه وأسنانه ، ثم الدورة ، يخرج ، يلبس ثيابه بسرعة ، يأكل بسرعة ، بيضة واحدة مسلوقة وقطعة خبز ، ترقبه أمه بنفس النظرات ، يدس المحفظة فى جيب جاكتته ، الشارع خال ، يكاد يجرى ، فى الطريق الواسع تبطىء خطواته ، عندما يسرع تنحنى قامته الطويلة جداً ، الرفيعة ، يثير منظره الصبية ، تبدو يداه وكأنهما لا علاقة لهما بجسمه ، لاحظ هذا منذ عشر سنوات ، من لحظتها يمشى متمهلاً حذراً ، أحياناً يهز رقبته وكتفيه ، يعدل وضع جاكتته ، يرفع يده بالتحية خمس عشرة مرة ، عند القنطرة ، أمام الحلزونة المزدحمة المتجهة إلى القرى البعيدة ، فى نفس المكان ، تراوده الرغبة ، آه لو رجع ، يستكمل نومه ، ما أحلى النوم حتى العاشرة ، يتثاءب ، خمسون سنة ، تحية الناظر ، الطابور ، أصص الزرع ، الورود ، الفصول كئيبة الطلاء ، الأدراج ، كل ثلاثة تلاميذ يجلسون فوق الدكة ، الروائح الكريهة التى تملأ الجو فجأة ، فى البداية ، كان يصيح . . من أتاها ؟ ؟ من أتاها يخرج ؟ ؟ وطبعاً لا يقوم أى واحد منهم ، لاحظ أنهم يكتمون ضحكاً إذ يزعق فيهم ، من أتاها ؟ ؟ آه لابد أن الكلمات تخرج بطريقة توحى بسخرية ، الآن عندما يشم رائحتهم يصيح ، إفتحوا الشباك ، إفتحوا الشباك فى عز الشتاء ، الكلام المعاد ، لو عاش ألف ألف سنة ، لن

يتغير ، النحو هو ، الألفاظ هى ، لا تتبدل ، أكل ، شرب ، نام ، ضرب ، عاط ، زاط ، هبط ، صعد ، نزل ، طلع ، أمسى ، أصبح ، مازال ، كأن ؛ لأن ، حيث ، هى ، هو ، سافر ، رحل ، وصل ، ودع ، ساح ؛ رأى ؛ أن ؛ يزهقون ، يفتحون أفواههم ، فى الظهيرة يلفه التراب ، لحظات ما قبل نوم العصر ، موت اليقظة فى الخارج واقع غير ما يراه ويلمسه ، صمت ثقيل كجبل ، لو فتح الباب ، فلن يلقى غير الفراغ المجهول ، لا أثر لقدم إنسان ، الظلام يدرك الظلام ، لا حس ، ولا خبر ، يتمنى لو أوقف قطارات الدنيا ، سفنها ، وطائراتها ، حتى عربات الرحيل الصغيرة ، ينزل الركلب ، يوقفهم فى طابور طويل يقاس بالسنين ، يسأل كلا منهم عن حكايته بالضبط ، لماذا سافر ؟ ؟ من أين جاء ؟ ؟ إلى أين يمضى ؟ ؟ إذ يرى الناس ساعات الصيف بجوار الترعة ، ماذا يدور فى أذهانهم ، هل يشعرون بمثل ما يشعر به ، يرونه بأى صورة ، آه لو يرى نفسه من الخارج ، لو يسمع وقع صوته فى الآذان .

سيد عدلى . .

هل تفضل الرحيل بالطائرة ، أو المركب ؟ ؟

الطائرة ثلاثة أسابيع ، أما السفن فلا تتم الرحلة إلا بعد عدة شهور .

لن تأكل فوق ظهرها غير السمك ، وعشب البحر المطبوخ ، وزيت الحيتان .

أى الأنواع تفضل ؟ ؟

فى البوينج راحة وسرعة ، أليوشن آمنة ثم وجبة إضافية ، خدمة ممتازة ، مضايقة بالنسبة للصوت لكنها آمنة .

تفضل ، إجلس بجوار النافذة ، لا تفك الحزام ، أوثق نفسك جيداً .

عندما تصل إلى البلاد الصغيرة الرقيقة الواقعة على حافة العالم ستلقى أمامك ، كل ما رأيته فى المجلات الأجنبية وكتب السياحة المصورة التى أخذتها من فؤاد ، ستركب الزحافات فوق الجليد ، ترى الدخان يتصاعد من البيوت الصغيرة المغلقة ، الفتيات الجميلات يمشين فى الطرقات يبحثن عن صديق ، رمال المصايف ، المظلات الملونة ، الغوص فى أعماق البحار ، دخان

البراكين ، الفنادق المعلقة فى الغابات الكثيفة ، المليئة بالوحوش ، وصراخ القردة ، الأطواف الخشبية السابحة فوق الأنهار العريضة ، سريعة المجرى ، طلوع الجبال ، السحاب تنظره من أعلى ، أنت تركب الغمام ، طير السماء المجنح ، سترى هذا كله يا سيد عدلى ، الآن ، إربط حزامك جيداً أوثق نفسك ، أوثق نفسك .

* * *

عند عبور الكوبرى الخشبى فوق المصرف ، البيت، فى نهاية الطريق ، كيف عاش خمسين سنة أيامها متشابهة ؟ ؟ يوم واحد يغنى عن بقية الأيام ، ليله نهاره ، نهاره ليله ، طوله خمسون ، سبعون ، مائة ، انكمش قلبه بين ضلوعه ، إنسال داخل فقرات ظهره حزن صلب رفيع ، خمسون فى سواد وحل الإبراهيمية ، رحلت ، جرفها الموج الراكد البطىء ، نظراته تتوه ، ضالة ، بلا دليل ، خمسون تبدو كالباب الصغير الذى يتوسط العربة الأخيرة من قطار راحل ، راحل ساعة مغيب ، استحالة النفاذ بالجسم من أبواب السماء إلا بسلطان ، أى سلطان يعيد إليه ما إنقضى ، ضاعوا إلى أبد لن يدركه ، لكم يبدو العالم من كلام فؤاد فسيحاً متسع الأركان ، لو مشى فى خط مستقيم ، لا يحيد ، تتبدل البلاد ، تتلون الوجوه ، اللغات ، تتغير البحار كلها أسرار ومخاوف ، فى جزر نائية ناس يأكلون الناس ، كلها أعاصير ، تيارات ، أمواج كالجبال ، البراكين الخامدة تجذب الحديد فيضيع المسافرون ، من ينجو ، يعيش لا يموت أبد الدهر ، ثم الإحساس بالبعد السحيق عن الوطن . فى المطارات البعيدة ، عاوده الألم المخيف ، أسى عجوز ، طويل المخالب ، بشع الملامح ، يفقد الحامل جنينها ، خمسون ضاعت ، ماتت فى الإبراهيمية ، كانت أمامه الفرصة ليبدأ الرحلة عبر الخط المستقيم ، كان يمكنه السفر فى كل إجازة صيف ، يرى جزءاً من الدنيا ، ثم يرجع ، لم ينتبه ، لم يفق ، الآن ، الليلة ، ربما نام ، ولا يفتح عينيه ، لا يرى العالم أبداً ، سهالوط حتى . إنطلق يجرى ، لطمه الحزن ، الخوف ، الألم ، على مؤخرة رأسه ، كاد يرمى نفسه فى المصرف العطن ، يدق رأسه فى حجارة الطريق ، ضاعت خمسون ، رغاوى

صابون ذابت فى نهر من السنين والشهور ، المتلاحقة ، أين اللحاق بها ؟ وعندما سألته أمه أن يسقيها ، غمره رعب عفى . .

* * *

فؤاد :

قبل أول رحيل ، كنت ألف مصر ، العادة إسكندرية للمصيف ، أسوان للشتاء أما أنا فسافرت فى عربة لاندروفر إلى واحات الفرافرة والجوينز بالقيظ والسخونة ، مرسى مطروح لا يطأها فى الشتاء غريب ، رحت إليها فى الصقيع ، وقفت عند صخور البحر ، الموج عال يطاول الجبال ، أخضر فى لون الزرع المثقل بالثلوج والريم ، صدقنى يا أستاذ عدلى ، ذبت ، تلاشيت ضعت فى السماء الوسيعة والصخر الأجرد ، فى غروب طالت وقفتى ، الليل غير الليل فى أى مكان ، فجأة خفت ، ربما طلع على مخلوق غريب يشدنى ويرمينى فى القاع ، لن ينجدنى أحد ، لن يسمعنى أحد ، ربما ينفصل الجزء الذى أقف عليه ، يهوى فى الفراغ السحيق ، درت ، جريت ، زعقت بأعلى صوتى ، لم يجاوبنى أحد ، إختلط صوتى بالريح والموج والصخر والبيوت الصغيرة المغلقة والعشش الخالية ، ليس خوفاً بالضبط ما فاجأنى ، إنما فرحة ورغبة فى البكاء ، وأمنية لو إحتويت البحر داخلى وطحنت الصخر فى جوفى ، أما الطريق فخال مهجور من كل إنسان وحيوان ، حتى ظننت نفسى فى أحد الأيام الأولى للدنيا ، فجر الخلقة ، وأننى وحيد ، يتيم ، لا أحد فى الكون كله ، العالم كله ، غيرى . .

* * *

يغرق بناء المحطة فى بخار الظهيرة الزجاجى ، الدهشة تزم شفتيه ، منذ لحظات رأى صلعة الناظر ، نفر من صوته ، ثلاثون سنة تدور الأرض ملايين الدورات ، فى كل دورة يرى الناظر ، يعايشه أكثر مما يعايش أمه ، ألم يكتشف صلعته إلا اليوم ؟ سأله الرجل ، هل يؤلمه شىء ؟ هز رأسه ، عبر الفناء المتسع

إلى الطريق ، الترعة لا تتحرك ، فوق الرصيف بنات الفصل الثانوى ، ينقلهن القطار إلى القرى ، اطسا ، البرجاية ، قلوصنا ، زى المدرسة البسيط ، البلوزة البيضاء ، الجونلة الرمادية ، نقط الحبر الجافة فوق الثياب ، ثمار التفاح الخضراء التى لم يدركها العطن ، القضبان تشع الصهد والوحدة ، رائحة المازوت المتساقط بين الفلنكات ، يعرف عدد الكتب الخشبية المتراصة فى وضع أفقى ثابت ، من أول الرصيف حتى نهاية الجسر ، ثلاثة وتسعون ، عندما جاء العمال من شهور ونزعوا الفلنكات القديمة ، حولوا مرور القطارات إلى إتجاه واحد ، بعد أن أتموا عملهم ، أحصى الكتل الخشبية ، ثلاثة وتسعون ، لم تزد أو تنقص ، مع أن المسافات الفاصلة بينهم خيل إليه أنها ضاقت قليلا ، جلس مواجهاً البنات ، عند أقصى الرصيف عجوز أمامها سلة جبن ، ما يراه حلم ، المبنى القديم ، سمالوط ، همس البنات ، قصر الشريعى الراسخ فى مواجهة المحطة ، يرى كل ما حوله من خلال حاجز زجاجى شفاف ، عاش اللحظة من قبل ، لكن ، أين ، متى ؟ رأى وجه البنت الحلوة العفية ، متى أين ؟

الوجع يمد رأسه المدببة فى شرايين قلبه ، كتلة اللحم المنتفضة أبداً ، خمسون سنة تدفع الدم ، تستقبل الدم ، ترتجف ، ترتعش ، كيف ؟ حتى البيوت على الناحية الأخرى ، العربات المندفعة فوق أسفلت الطريق ، ماء الترعة المدوم البطىء كالزمن ، أكوام التراب والورق على جانبى الطريق ، سعف النخيل الأجرب المطرود الساقط من العلو الشاهق ، العربات ، حقول الطرف الآخر ، الأسى الذى يبعثه فيه منظر العجوز ، ضحك البنات ، ينخر مرارته ، فى اليابان نام فؤاد مع بنت كاليمامة ، يا سلام يا أستاذ عدلى ، أى صدر ، جامد كالبرتقال ، ناعم أيضاً كالحرير ، لما مر بأعمارهن لم يعرف البنات ، هل مر عمره فعلاً بالعام السادس ، السابع ، التاسع عشر ، أبداً ، أدمى غيره ، شخص آخر ، عمره يبدأ بالخمسين ، المولود ينسى الزمن الذى قضاه فى الرحم ، هو لم يعرف الخمسين المنقضية ، لم تخفق كتلة اللحم الحمراء المنكمشة فى صدره لواحدة كصاحبة الشعر الناعم ، تضحك بليونة ، تهمس ، التهبت أعصابه ، ما الذى حال بين الغريب الذى عاش عمره البعيد وبين

اقترانه بأنثى ، الأيام توالت ، ناعمة ، إنسيال الماء من بين الأصابع ، دائماً إذا اقترب منهن أو جلس إلى واحدة منهن ترتعش أطرافه ، لا يدرى إلى أى ناحيه يوجه نظراته ، كيف يختار كلمات الحديث إليهن ، يتمنى لو انتهى الموقف بسرعة ، لو اختلى بواحدة منهن ، لن يعرف ، كيف يتصرف ، ماذا يقول ، حتماً يفشل ، آه لو اقترن الغريب البعيد بامرأة ، لو تزوج عند مروره بالعام الرابع ، الخامس ، السادس والعشرين ، دفء الليالى ، الجسد القريب ، أى وقت يطلبه ، الخروج من السينما الوحيدة ليلة الخميس ، ظل الأنثى على الرصيف ، متابعته لتفاصيل التصرفات الصغيرة لأنثى تعيش معه أربعة وعشرين ساعة ، الضحكات الصغيرة ، طريقة أكلها ، تقلبها فى الفراش ، شدها الغطاء ، أى همس متبادل والليل فوقهما ، لحظات الصفاء بينهما ، حديثها إليه عند خروجه ، البيت يحتاج أرز وبصل ، هات معك بطيخ ، بعد رجوعك من المدرسة نروح نزور بيت أبو الغيط ، امرأته وصلت من مصر ، آه لو أنها تشبه الجالسة أمامه ، متران ، خطوتان ، ثلاث بنات ، لو يلمس لمسة ، الحلوة طويلة الشعر ، القصيرة الأخرى ، تعرف ما يفكر فيه . يتشرب همس الأنوثة ، نعومة النفس ، حتماً سيفعل هذا رجلٍ ما ، كل منهن سيحتضنها ، يخور فوقها رجل ، إذ يرى امرأة حلوة جداً ، بيضاء فاتنة ، غريبة أو تركب قطاراً عابراً . يقول ، ليس معقولاً أن هذه تعتصر وتحضن وتقبل ، أبداً لا يلمسها رجل ، عندما تميل الحلوة منهن إلى صاحبها تبدو كأنها تستجديه الكلام ، يصيح دهشاً ، أما هو ، ، هو ، البنات يتهامسن ، يتغامزن ، كلماتهن عنه ، صريرٍ عجلات الديزل الحاد ، إقترب منهن ، الأخيرة ، دارت قريبة منه جداً ، من ثيابها تفوح رائحة جلد الأنثى ، تعجبت ، إختفت ، عاد وجهها يطل من النافذة ، عيناه تغرقانها ، تشدانها إليه ، تمسكان بها ، لو يبدأ عمره من جديد ، فى مكان قصى ، لو بدأ الرحيل ، ربما لاقى فى المكان ما يمضى من زمن ، العمر لم يتلاش ، حتماً موجود فى موضع ما ، مجهول لا يصله بشر ، مقبرة الأفيال ، ربما جوف بركان خامد ، أحشاء غابة وحشية ، قمة جبل ، يصل إليه ، يبحث أعماقاً من

عمره ، لن يطول البحث ، يعثر عليه ، يسترد ما فات ، اللحظات المنقضية ، يغير كما يشاء ، يعرف الأخطاء التى مرت به فينفيها تماماً ، راح وجاء بجوار العربة المتسخة ، قطبت البنت حاجبيها ، غداً يقفن فى الفناء ويقلن ، الأستاذ عدلى نظر إلينا بطريقة غريبة ، الأستاذ . . صرير العجلات ، صفارة المحلج الذئبية تعوى ، ساعة جيبه الكبيرة تمضى فى إصرار مخيف ، سير جلدى لماكينة وابور الطحين لا يعمل إلا إذا أذاق دم صبى ، فؤاد لن ينهى عمله قبل ساعة ، ساعة ، ساعتان ثلاث مضت ، ما هذا ؟ ما المعنى ؟ الديزل نقطة بعيدة تسد القضبان ، الهواء يحرك الأعشاب الكثيفة على جانبى القضبان الحديدية ، الصمت يتمدد فى الهواء ، ساد فى الزوايا ، حتى سمع تكتكات الساعة . . .

* * *

فؤاد :

لا أعرف عددهن بالضبط ، لكن كل بلدة مررت بها تقريباً عرفت فيها امرأة ، الحب فى البلاد البعيدة أجمل حيث لا يعرفك أحد وتحيطك حرية من نوع غريب ، فى الباخرة التى دارت بى حول الساحل الأفريقى ، كنت أغسل الصحون طوال اليوم ، وأنام فى المساء فوق السطح ، يا سلام أستاذ عدلى لو كنت معى ، يا سلام . . لكن ما علينا ، عندما خلفنا ساحل العاج ، إستمرت المركب تسير ساعات بقرب الساحل ، أحياناً تغيب عنه فلا نرى غير الموج العالى كالجبال ، الضخامة والقوة ، الطول والعرض كله يفقد هيبته وقوته أمام البحر ، ولما استحال النوم فوق السطح المبلل نزلت إلى الممرات القريبة من قمرات الدرجة الثانية ، رأيتها تخرج مرة أو مرتين ، أسبانية سمراء ، لون أسمر فيه حمرة خفيفة ، تسافر وحدها ، رأيتها يا أستاذ عدلى وقلت لنفسى ، إن لم أعرفها ، إن لم يلتصق لحمى بلحمها كما يلتصق سلم السفينة برصيف الميناء ، فلا سلام يحوط رحلتنا ولا أمان ، التهبت عروقى ، لم أنم ، عندما إقتربت منها وكلمتها ، بدا الساحل الافريقى من النافذة

المستديرة وزجاجها السميك ، تبلله المياه والملح ، ذهب العصر ، والغروب فى البحر ، شىء خرافى ، ياه . . لم أعرف فى أى موضع نحن أمام أفريقيا ، كم المسافة التى تفصلنى عن بيتى فى اسكندرية ؟ لم أذكر ، أى الأشياء تفعل أمى ؟ أختى ، أبى ، بل ساءلت نفسى والمركب تميل ، هل هناك عالم فعلا ؟ هل توجد أرض يا بسة ؟ صدقنى يا أستاذ عدلى لم نخرج يومين كاملين إلا لنأكل ، الموج والغربة والرحيل وإحتواء أنثى لا تعرفها من قبل ، ولدت أنا وهى من أجل هذه اللحظات ، لن يروح هذا من عقلى طوال عمرى ، يا سلام . . اللحظات الحلوة تنتهى دائماً ، تعرف ساعات أقول لنفسى ، ليس معقولاً أن كل لحظة تفنى ، وإلا فنحن نضيع ، ننتهى ، نموت كل لحظة ، من يومين قلت لى إن عمرك المنقضى موجود فى حيز ، مكان ما ، وأنا أقول ، لو درنا ، لو بحثنا جيداً ، حتماً نلاقى ما فات . . المهم . . هل عرفت زنجيات فى حياتك . .

* * *

السيد عدلى . .

ظل رمادى ، يمشى فى شوارع فسيحة يقسمها رصيف مرصع بحجارة صغيرة ، تظلله أشجار تطرح ثماراً كالرءوس الآدمية ، الناس عيونهم واسعة ، كلامهم همهمات ، الوجوه مريحة ، الطفل بعد رضع اللبن ، جبال عالية زرقاء بعيدة ، لها عيون وآذان ، السيد عدلى لا يرحل عبر المكان فقط إنما يعبر الزمان ، يتوقف عند أى عصر يشاء ، أسواق فارس المزدحمة ، يتأمل الغريب فيها ، النواح فى كربلاء ، الرجال يشقون جباههم ، يرحل متخفياً مع جيوش الغزو البربرية ، مراكب تفرد قلوعها الضخمة تبتعد عن شواطىء صخرية ، رقصات مجنونة ، السيد عدلى ، يعود إلى أزمان مقبلة ، أطراف الكون تقاربت ، البيوت خاوية ، صامتة ، المدن نظيفة ، فى الشوارع ، واجهات المبانى ، ساعات كبيرة ، ملونة الأرقام والعقارب ، إذ يسود الصمت يمتلىء بتكتكات التروس الصغيرة . .

* * *

لحظة المغيب ، إنزاح الغبار فجأة ، بدأت نسمات باردة فيها رائحة برتقال ، إزدحم الكورنيش المحاذى للترعة ، أطل من النافذة العريضة ، رأى الهواء الرقراق فى الفراغ ، قال ، البلدة كلها خرجت تشم الليل والهواء ، أطل فؤاد ، قال ، إن الإنسان مهما عاش فى أى بلد تفوقه أشياء ، ولحظة رحيله الأخيرة يكتشف أموراً كثيرة وصغيرة يتعجب ، كيف لم يدركها قبل الآن ؟ .

إرتعش فمه ، أزاح نظارته ، بصوته ورم ، سأل . .
هل أغلقت الحقيبة الكبيرة ؟
قال فؤاد لم أنس لكن ساعدنى فى قفل الصغرى . .

أضطر عدلى إلى الجلوس فوقها حتى يتمكنا من إغلاق قفلها ، بدأ يلحظ حركة فؤاد ، فرحته وهو يجمع حاجياته ، يسأل . . هل نسينا القلم الحبر ؟ وماكينة الحلاقة ، كتب السياحة ، والمجلات المصورة خذها يا أستاذ عدلى . . لن أحتاج إليها . . سأحصل على غيرها .

خرجا من باب المصنع ، سأل الخفير . .
خلاص يا بك ؟

وخزته الكلمة ، آه لو أن كلمات الخفير قيلت له هو ، حاول أن يعد البلاط المضلع فى رصيف الكورنيش ، فؤاد يطير ، يرحل دائماً ، أما هو فباق هنا ، طاف فوق ماء الترعة الميت ، جسمه نحيل ، ملىء بالعظام ، لم يتأمل نفسه فى مرآة ، فكه بارز ، عيناه ضيقتان ، أنفه رفيع ، حاد . . تمدد ، أنت أمه أنيناً خافتاً ، الوجع الليلى .

يا بنى كل لقمة
سكت . . قال . .
فؤاد سيسافر . .
بالسلامة يا حبيبى . .

وما الذى يهمها ؟ سفره لا يعنى شيئاً بالنسبة لها ، لم تره ، لم تخرج من

سهالوط عمرها ، الساعة تقارب منتصف الليل ، ما اسم لحظة إنشطار الليل ؟ إلى أى يوم تنتمى ، الأحد الراحل أو الأثنين المقبل ، ثم ، ثم ، ثم يجىء الأحد ، اليوم أحد ، غداً أحد ، عمره أحد طويل ، ثم فى لحظة معينة ، ثانية بعينها تتخلل الأحد الطويل ، تمنت أمه ، فزع ، الأزيز الخافت ، تغمض عينيها ، لا تفتحهما ثم الأحد . . الأحد ، يخلو العالم منه ، تنطلق القطارات ، تجرى العربات ، تهاجر السفن ، تضحك النساء ، يجىء أطفال ، فى عالم هو لا يتنفس هواءه ، برق أمامه ضوء ، طلقة ، تحسس الأرض بقدميه ، أطل على أمه ، تنام ، إستدار مطمئناً إلى الصالة ، عندما رأى غطاءها يرتفع وينزل بطيئاً ، رتيباً ، سيكون وحيداً فى البيت الخاوى ، ينطبق جفناه يتلاشى فوق سريره ، لا يدرى أحد . راح ، جاء .

الليل يسيل ، مسود اللون ، عندما صرت عجلات القطار ، فارقت آخر العربات رصيف المحطة ، إبتسم فؤاد ، إلتوت العربات فجأة مع إنحناء القضبان ، ضاع فؤاد ، ذهب يعيش عمره ، لحظة ، حقد فيها عليه ، لولاه ، لكن من يدرى . . ربما ضحك عليه طوال المدة التى عاشها مديراً للمصنع الصغير فى البلدة ، كيف لف هذه البلاد كلها وعمره لم يتجاوز الثلاثين ، من أين له بالنقود ؟ ربما يقنع نفسه أنه رأى العالم ، ولو . . فتح عينيه على الدنيا ، لابد أن يلحقه ، يتجاوزه ، لن يقف ، لن يمر عليه ليل ، عبر القضبان .

الآن ينطلق القطار ، سهم معدنى فؤاد يركب مقدمته ، مطاى ، مغاغة ، الفشن ، الجيزة ، إسكندرية ، روما ، برلين ، باريس ، لندن ، مونتريال ، الاسكا ، هونولولو ، توقف فوق الفلنكات الخشبية الغليظة . . فى الضوء الضعيف نظر فى ساعة جيبه الكبيرة ، التروس تتكتك ، إصرار عجيب ، مخيف ، الثانية تدرك الأخرى ، تجىء الدقائق ، الساعات ، فى كل جزء من الثانية تطوى العجلات مسافة . . فوق نفس القضيب الممتد فى الليل ، يقف هنا . . يرحل هناك . قلب دفتر المواعيد الصغير ، أصابعه مرتعشة ، الضوء

خافت واهن ، قرب عينيه من الحروف الصغيرة الدقيقة وعلامات القطارات ، بحثاً عن الاكسبريس رقم « ٨٧ » وأين وصل بالضبط فى هذه اللحظة تماماً ، الآن . . الآن . .

١٩٧٠

* * *

خراب الجسور

« .. عندما سمعت صوت أختى « سنوات » . على الطرف الآخر من التليفون تعجبت ، تساءلت عما جرى ، لا تحدثنى هنا إطلاقاً ، تشير الساعة إلى تجاوز الثالثة والنصف ، بدا صوتها بعيداً مما أجهدنى فى إلتقاط الألفاظ . .

— من أى مكان تتحدثين ؟ ؟
— تحت البيت .
— بيتنا ؟ ؟
— طبعاً . . من الاجزخانة . . باقى لك وقت طويل ؟ ؟
— هل جرى شىء ؟ ؟ إرفعى صوتك . .
— أنا مصرة نأكل معاً . . أتمنى الحديث إليك . . من مدة كبيرة لم نقعد على مائدة واحدة . .
— لابد فيه حاجة .
— أبداً والله . . نفسى أقعد وأتكلم معك . .
— لكن . . .
— ولا يهمك . . أقضى شغلك ومهما تأخرت . أنا منتظرة . .

لم أرها أثناء الحديث ، لكن صوتها ، تدفق الكلمات ، أو حيا بالبهجة التي تزحم روحها ، رأيتها تقف ، تحيط بوق السماعة بيدها ، صوتها خفيض ، تشب على أطراف قدميها ، تقطب عينيها إذ يرق حسها . « . . نفسي أقعد وأتكلم معك . . » تختلف مواعيدنا ، تضمر أوقات لقائنا ، تقل مرات أحاديثنا ، أول النهار لا ألمح إلا آثار عملها المبكر في البيت ، نظافة الصالة ، إفطاري فوق الصينية الخضراء المنقوشة بورود حمراء أطيل تأملها ومتابعة فروعها المتشابكة ، طبق فول ، بيضة مسلوقة ، ملح ناعم مخلوط بفلفل ، آكل بسرعة ، لا أنظف الأطباق . « سنوات » تنفض الغبار عن المكتب ، تلملم الملابس ، تخصص يوم الثلاثاء للغسيل ، تنهى كل شيء قبل وصولي ، أعود متعباً ، يضج النهار في رأسي ، زحام عربات وعرق وبحث في أدغال القواميس عن معان مبهمة ، ألوذ بفراشي الضيق في ساعة متأخرة أسمع خطواتها الخفيفة ، تلامس مشاية اللوف في الطرقة ، تطل عليّ ، تقف بباب حجرتي ، عيناي مفتوحتان ، لا أتحرك ، لا أنطق حرفاً ، أخبيء يقظتي ، أضيق بحروف خفيفة قد نتبادلها ، تصغى ، ربما إلى وقع أنفاسي ، تتراجع على مهل ، مخلفة همساً من رائحتها في الغرفة ، استعدت ملامح صوتها ، « نفسي أقعد وأتكلم . . . . . » أي مناسبة أو حدث ؟ ؟ في زحام حياتنا تفقد المناسبات ، أجهل يوم ميلادها ، أعرف إبريل لكنني لا أدرى اليوم ، لا نتبادل الهدايا ، توقفت عن ترجمة البحث ، مكاتب الصاج مصفوفة أمامي ، في السقف تدور المروحة الكبيرة على مهل ، أي جدوى لهذه الدورات ؟ ؟ الحر يمتد في الفراغ ، استعدت هدوء البيت ، صورة أمي وأبي تطل علينا من إطار كبير ، طرقت صاج المكتب بقلمي ، « . . نفسي أقعد وأتكلم . . . . . » .

— ٢ —

بدا الليل غطاء كثيفاً من غربة وإرهاق ، أرى ذرات الفراغ ، عاط بوق عياطاً متصلاً إنقطع فجأة ، أي أمور شغلتني ، أضاعت حديث « سنوات » مني ، أي واقعة بالتحديد ؟ ؟ خروجي من المكتب ، تحسس جيوبي بحثاً عن

دفتر تليفوناتى ، ضيقى وعودتى إلى المكتب ، إخراج ما فى الأدراج ، فض المظاريف ، ثم يبرق خاطر كطلقة أفتح الحقيبة وأجده ، أقلب وريقاته ، أضعه فى جيب قميصى ، كيف نسيت ما قالته ؟ ؟ بعد المحاضرة الثانية ، وقوفنا فى الطرقة أمام المدرجات ، مجىء مجدى يقضب رغيفاً صغيراً سألته ، من أين ؟ ؟ أشار إلى الخارج ، اعتبرت هذا عشاء يكفينى . . « سنوات » فى عينيها وحشة انتظار ، تقف أمام المطبخ ، تمسك خصرها بيديها .

— قم واغسل وجهك . . أعددت ما يسرك . . ولم أنس السلطة الخضراء . . يتصف الليل بعد قليل ، أقاوم ثقل جفونى ، لا أدرى ما الذى يحرك « سنوات » بخفة هكذا ؟ ؟ ربما تخبىء مفاجأة . عضضت شفتى ، استعدت هزهزات الأوتوبيس ، تعلقت بعينين واسعتين تنظرانى من فوق أحد مقاعد الدرجة الأولى ، نافذتان شفافتان ، يبرقان يرفرفان على عالم فيه راحة وأمان ووعود غامضة بالوصول ، إتخذت موقعاً مناسباً يمكننى الإطلال عليهما ، أحياناً تحولهما صاحبتهما إلى الطريق ، كأنها تعرفنى ، وتعرف « سنوات » ، من أين جئت ، وإلى أين ؟ ؟ أزددت قرباً ، فى إنسيال النظرات نبل أسطورى ، ألغاز حضارة بعيدة ، تمنيت النزول وراءها ، أقف على سرها ، أفك رموزها ، تابعت نزولها ، أعتذر خفى بكل كيانى ، المحاضرة بدأت فعلاً ، هل سأراها ثانية فى أى مكان ، متى ، تقول « سنوات » :

— أنظر هذه المجلة الانجليزية . . منذ شهور قررت أن أعد لك هذه الأطباق . . لن تأكلها مرة واحدة طبعاً . . إنما سأعدها لك صنفاً صنفاً وكلما سمح مصروف البيت . . مد يدك . . تذوق . .

قضمت نصف أصبع كفتة . .

— الطبق كأنه تجسد خارج الصفحة . .

— ولكن . .

مدت يدها ، أصبعها يلامس شفتى ، حركة تفيض أنوثة ورقة ، عاودتنى زرقاء العينين ، زرقة حقيقية ، نغمية ، راودنى يقين أننى سأراها فى الحلم . .

— لا تخشى المصاريف . . تكاليف الطعام اليوم بدعوة منى . . يا أخى العظيم . . عندى بقية نقودى من جمعية قبضتها منذ شهور . . أنت مدعو الليلة إلى العشاء . .

يغدق من عينيها حنو عظيم على ، الخطوة الطبيعية أن أقوم ، أحتضنها أقبلها ، ثقل يحوشنى ، عواطفنا لا نعبر عنها بالقبلات ، حتى مرات سفرى النادرة أكتفى منها بملامسة اليد ، لا نلوح بالأيدى ، ينعقد اللعاب فى فمى ، يبدو الطعام شهياً ، لكن . . هل أتساءل عن إمكانية بقاء الطعام إلى الغد ، تبدو مستعدة لحديث طويل بعد العشاء ، « نفسى أقعد وأتكلم . . » أود اللجوء إلى فراشى فى لحظة ، قبل خطوها إلى الداخل . . ناديت . .

— سنوات . . .

التفتت . . .

— ٣ —

لمحتها . . .

لم يخن نظرى ، ولست مخطئاً ، عند نهاية الكوبرى تتدفق المركبات ، يمكننى القفز من العربة قبل المحطة ، أستدير ، ألحقها ، أتأكد مما رأيته ، يبدو النيل ، أمواجه تمضى فى وثبات لينة ، النهار لم ينتصف بعد ، لم تمض دقيقتان ، لا تكفيان للعبور إلى الطرف الآخر ، إذن تحركا فى هذا الاتجاه ، بالتأكيد لا تتأبط ذراعه ، إنما تمشى بجواره تماماً ، يلوح بيده ، هى صامتة لكن ملامح وجهها تصل الحديث بينهما ، أدركته تعبيرات وجهها فى رؤيتى العابرة ، بخطى تقترب من الجرى ، حاولت دخول الحديقة . . صدنى حارس أسمر اللون . .

— ممنوع . . ممنوع يا أستاذ . .

لم أجادله ، لابد أنهما اتجها إلى الطريق المحاذى للنيل ، ، ثلاث درجات بها تقترب الأرض من النيل ، مددت البصر ، بلاط مربع كبير ، التراب مخلوط

بزهور جافة تساقطت ، رائحه نبات مهروس ، تموت هنا أصوات العربات ، الطريق قريب ، لكن ثمة هدوء متراح فى الفراغ ، لا أحد هنا ، كيف . . فى هذه الساعة من النهار ، حتى العشاق نأوا ، وباعة عقود الفل ، والترمس ، والزهور ، واللب ، ومتكدرى الخاطر المعتصمين بهدأة النيل ، تلفت ، يمتد الكوبرى كقلعة ضخمة من الصلب والأسفلت ، دعائمه تطعن بطن النهر ، تتحرك العربات بلا صوت يدرك هنا ، كأن حاجزاً غير مرئى يجمد الأصوات ، يحول المنطوق إلى صامت ، أين ذهبا ، تأخذنى رغبة حادة لأراها الآن ، أمد لها يداً ، أتعرف إليه ، أطلب منها أن تجيب ، هل تحبه هل تحبه فعلاً ؟ أسأله ، هل يحبها ، أمسك أيديهما ، أميل ، أقبلها ، أنتحى بها ركناً ، أصغى إلى كل ما تخبئه ، « . . نفسى أقعد وأتكلم معك . . » أخفف عنها ، أزيح ثقلاً تنوء به ، ربما دعوتها إلى عصير فاكهة فى الكازينو القريب ، نمشى ثلاثتنا ، ياه . . لم نخرج أبداً للنزهة منذ وقت بعيد ، لم ندخل سينما ، لم نزر أحد أقاربنا معاً ، لا أعرف أسماء صاحباتها ، رأيت بعضهن فى البيت ، بتحفظ صافحتهن ، تجهل أصدقائى ، زملائى فى قسم الدراسات العليا ، لا أتساءل عن الأماكن التى أتردد عليها ، أبداً . . سأصارحها الآن بضرورة اقترابنا ، لن أمضى إلى الكلية لكن الطريق موحش ، الزحام قريب والخلاء هنا عجيب . عيون النيل الخفية تنظرنى ، ريح خفيفة تحرك أوراق الشجر ، ربما رأيت اسطورية العينين الآن ، سأتقدم منها ، أحدثها عن « سنوات » ، نبحث عنها معاً ، فوق النهر يمضى مركب شراعى متمهلاً ، لم ألمح فوقه إنساناً ، لا أدرى أين ذهبت سنوات . أين صاحبها ، أين تقيم زرقاء العينين ، أين تخفى أسرارها ، يهبط قلبى بمقدار قبضة يد ، ربما تركب قطاراً يحملها إلى مدينة أخرى ، ربما سافرت إلى بلدة بعيدة لن أذهب إليها قط ، تحادث غرباء وتناجى غرباء ، ربما . . ربما رحلت رحيلاً أبدياً ، ثلاثة أيام مضت على رؤيتها ، ما يمكن وقوعه خلالها كثير ، أما سنوات ، أين وكأننى ألمحها ، لكم أود الأصغاء إلى ما تكنه الآن ، أثق فى رؤيتها ، أدركنى عجز ونأى بى أسى .

— سنوات . . سنوات . . .

رأيتها تقف بالباب ، أنهيت اضطجاعى . .

— تعالى . .

أومأت مرحة ، جلست عند طرف السرير ، تبسط راحتيها ، تضمهما ، تدسهما بين ساقيها . .

— سأعطلك . .

— أبداً . .

— عموماً قررت الليلة ألا أنام حتى أراك . .

— خيراً . .

بدلال هزت راسها . .

— أبداً . . أراك . .

أطرقت ، على مهل تقول :

— وأتكلم معك . .

تتأهب للإفضاء بما تود البوح به . فى هذه اللحظة أدركت أننى نسيت تماماً ملامح زرقاء العينين ، اختلطت بالزحام ، وأشجار حديقة الأورمان ، والخضرة الخصبة ، لكننى لم أفتقد خلاصة المعانى ، أين ذهبا إذن ؟ كيف ضاعا منى ؟ رأيت ألا أفاتحها فى الأمر الليلة ، ربما امتد الحديث وتشعب الموضوع ، لست متأهباً للاستفسار والمناقشة ، جاءت بنفسها ، هل لمحتنى أثناء بحثى عنها ، منذ أيام أخفت ضيقها ، حتى الآن لم نأكل معاً ، أول أمس ، قالت إنها لن تدع يوم الجمعة يفلت ، ستغلق الباب ، لن تسمح لى بالخروج .

— هل أعطلك ؟ ؟

— أبداً . . أبداً . .

تعض شفتها السفلى ، بحركة خاطفة تتربع فوق السرير ، نظراتها جانبية ضاحكة ، لم أعتد هذا الخجل الأنثوى ، عندما أنظر إلى صورها أثناء الطفولة ، لا أتعرف فيها على مقدمات هذه الأنثى التى تفيض حيوية . تستعد للحديث .

— تعرف ؟

لحظة نطق الكلمة ، بلا قصد ، نظرت ساعة معصمى ، تمضى العقارب إلى الثانية صباحاً ، قامت . .

— واصح أننى أعطلك . .

بريق الحماسة خبا فى عينيها ، الألفاظ صرعت عند طرف لسانها ، تدلت يداها ، قطعت حبالاً تصل الأشرعة ، مزقت وصلاً كاد يتم . .

— أبداً . . إننى أسمعك . .

عبثاً تلتئم الضفاف ، أعطبت وداً رائقاً فى عينيها . .

— أعرف مشاغلك . . لن أعطلك . .

فى صوتها خيبة من أوشك على بلوغ المراسى ، ثم أكتشف وعورة القيعان ، نتوءات الصخر الحجرى ، فعلا سألقى راحتى بمفردى قبلك ، أستدعى حوادث يومى ، أرقب دولاب الكتب فى العتمة ، قبل خروجها صحت :

— ياه . . كدت أنسى . . خيل لى أننى رأيتك فوق كوبرى قصر النيل عند الظهر . .

— أنا ؟ ؟ أبداً . . أنا لم أفارق عملى اليوم كله . . يمكنك أن . . تبدو فرحة قليلاً بتلميحى ، صدور اهتمام من جانبى ، ربما استعادت حماستها ، تعود إلى الجلوس ، تحدثنى عما تكتم ، أبداً ، الصدأ يخنق البريق ، تثاءبت ، أغدقت حنواً على صوتى . .

— أبداً يا سنوات . . يكفى قولك هذا . . خيل لى فقط .

لا أدرى كم نمت ؟ فى هدأة الليل إذ يدركنى قلق ، أعود جنيناً أتلمس جدران الرحم ، يثقلنى همود الليل ، بينما يعدو النهار فى رأسى ، أرى ما لم أتوقف عنده فى يومى الراحل ، أستعيد ملامح عجوز يمشى مرتجف الخطى ، يوشك أن يقع ، بعد أيام أدركت هدفه ، فتاة سمراء صغيرة ترتدى زى

المدارس الثانوية ، تطل من حقيبتها كراسات ومسطرة وعلبة ألوان مائية ، يقترب حتى يحاذيها ، يبتعد ليعود من جديد لحظة وصول أتوبيس ، تنتشر الحركة بين الواقفين ، يزداد قرباً منها ، اليوم سمعته يلقى تحية مقتضبة خجولة « صباح الخير » . أسرع مختفياً ، تنظر الفتاة إلى الأمام ، لا يعنيها ما يدور حولها ، الآن . . تطل زرقاء العينين ، السمات ضائعة ، لكن الجوهر لم يفتقد ، تنظرنى من إطار باهت قديم ، لحن غير منطوق يأتى من جزر بعيدة ، لغز من حضارة قديمة لم يحل ، أضعتها بسهولة ، فى المكتب أثقلنى وجودها

داخلى ، قام جلال زميلى ، إقترب منى ، شكا إلي ألماً فى كليتيه ، قلت أذهب إلى الطبيب لعمل أشعة ، وددت لو ابتعد عنى ، عدت باحثاً عن معنى العينين ، أمسك يدى ، لامست جنبه الأيسر ، ضغط أصابعى ، هز رأسه ، ليست هى السبب ، قلت ماذا إذن ؟ مال إلى هامساً ، قال إنه منذ ليلتين فتح النافذة ، لا عمارات أمامه ، يطل على خلاء وسيع ، أصر أن ينام مع امرأته فى ليلة الصيف الحارة هذه ، تمدد بجوارها حوالى العاشرة والربع بالضبط ، يذكر الوقت تماماً ، التحما ، التصقا ، احتكا ، مثيرات ومقدمات ، كم استغرق ؟ خمس ساعات كاملة ، حتى كادت تجن ، وعندما صرخت من اللذة كان العرق يبلله تماماً ، أثناء الحديث صوته يتمهل ، يبدو بطيئاً يبتلع لعابه ، أصغيت ، يلقى متعه فى قص التفاصيل ، قال : بالتأكيدنسمة برد هى السبب ، إذ حدث فى حوالى الساعة الثالثة والنصف بعد استلقائه هامداً ، أن هبت رقائق هواء نفذت كالابر الرفيعة إلى كليتيه . قلت يستحسن الإسراع بالعلاج ، البرد فى هذه المناطق وعر وخطر ، لابد من الذهاب إلى طبيب ، قام . بعد ساعات عاد إلى هامساً ، خمس ساعات ، أى والله حتى كدت أجن ، راودنى حنين إلى أسرة وأطفال ، أنثى فى متناول اليد . لم أسأل « سنوات » عن أفكارها حول الزواج ، الرجل الذى تنوى قضاء بقية عمرها معه ، صورته فى ذهنها ، ربما أحد زملائها ، لا أعرف واحداً منهم ، لم أزرها فى العمل مرة ، غداً سأسألها عنهم ، عن معارفها ، غداً بعد عودتى سأوقظها لو وجدتها نائمة ، نجلس معاً ، نتبادل الضحكات ، أمس كنت قاسياً ، غليظ القلب ، عندها ما تود

قوله ، لم أصغ ، الآن . . يترامى من بعيد صوت قطار يعبر الخط الحديدى القريب ،

بدا الصوت مطاطا كأنه لن ينتهى ، فى أويقات أرقى يثير فىَّ هذا الصوت حزناً ، وذكرى أيام غائبات ، أرهفت السمع . باب حجرة « سنوات » يفتح ، التقط صريره الضئيل فى نهاية الطرقة ، تتجه إلى الدورة ، لم تضىء المصباح ، هل أقوم ؟ أقفز أمامها فجأة بعد فتح بابى ؟ دعابة من دعابات الزمن البعيد ، فى البداية ستبدى انزعاجاً لكنها تضحك نتعانق ، صوت ورق يمزق ، ماذا تفعل « سنوات » ؟ لم يغلق باب الدورة ، واضح أنها تقف أمامه ، أوراق تمزق قطعاً صغيرة ، يبطىء صوت التمزيق إذ يزداد سمك الورق فيصعب تقطيعه ، تشد « السيفون » تتدفق المياه بسرعة عالية ، اتخذت من طشيشها ستاراً لنزولى من السرير ، أصغيت من خلف باب حجرتى ، أى أمر يحدث ؟ يد طويلة الأظافر خمشت قلبى ، تبكى « سنوات » بصوت عال ، نشيجها يصلنى واضحاً ، أرى جسمها يهتز ، تذرف دمعاً ، حتى رأيتها تبكى ؟ ؟ لحظة إنزال « والدنا » غرفة الدفن ، إندفاعها المفاجىء ونواحها الملتاع ، أيدى الحريم تمتد إليها ، تحوشها ، تمنعها . « سنوات » الآن تبكى ، جاءنى صفير القطار من بعيد خيطاً متسلخاً متعباً ، يذوب فى الليل ، عندما إنتهى أحدث خواءً كونياً وحشياً صارماً يثقلنى ، لم أدر هل بقيت فى الصالة ؟ هل عادت إلى غرفتها ، هل تقف مكانها ؟ تلملم ما تناثر من قصاصات لتعاود إبادتها ، هل إرتابت فى قيامى فأخرست نوحها ، هل سمعتُ فعلاً حركة قدميها وطشيش المياه ، غداً . . أستفسرت وأعرف . .

— ٦ —

طلعت السلم بسرعة ، لن اذهب إلى الجامعة ، سنخرج مقعدين إلى الشرفة ، نجلس معاً ، لن تضايقنا الشمس ، تواجه الآن جانب البيت الأخر ، تدثرنا ظلال حانية ، نأكل معاً ، نتحدث ، نتحدث ، « نفسى أقعد وأتكلم معك . . » لا أنسى هزة صوتها عبر الأسلاك أصغى إليها ، أقول وكأن

حديثى يبدو عابراً ، خيل لى فى الليلة الماضية أنك قلقلت ، وأنك تبكين » .

— أهلاً . . أى مفاجأة . .

إفتقد رائحة البيت في مثل هذا الوقت ، عبير الاستقرار ، رائحة الأثاث والغسيل وطعام طهى فعلاً ، حملت حقيبتى عنى ، لا تتحرك بخفة ، إفتقدت بهجتها ، عندما نبدأ حديثنا ستتبدد الوحشة . . باب حجرتها مفتوح .

— الله . . عندك ضيوف ؟

— سهام صاحبتى . . تعال أعرفك بها . . تعال . .

قامت سهام ، تبدو خجلة .

أخى يا سهام . .

فاجأنى افتقاد زرقاء العينين ، كريستالية النظرات ، لحظات فى مركبة عامة ، عمر طويل من علاقة لم تتصل ، طاقة قدر فى سماء فسيحة ، تبرق لحظة ، لا يراها إلا صافى القلب . فوق السرير مجموعة من صورى ، تعرضها سنوات على صاحبتها . .

— لا حديث لسنوات معنا إلا عنك . عرفناك قبل أن نراك . .

— يا . . سنوات تبالغ . .

تراجعت برأسها إلى الوراء ، تقول بجرأة تمحو آثار الخجل الأولى . .

— أبداً . . يا سلام . .

هل طالعتنى عيناها فعلاً ؟ هل رأيت « سنوات » فوق كوبرى قصر النيل » تشب على أطراف أصابعها ، تعاودها سعادة ، تود لو بقيت معهما ، عدت إلى الصالة ، تنفذ رائحة البيض المقلى . قالت إنها لم تعرف نيتى فى العودة مبكراً ، لم أقل أننى رغبت فى الحديث معها ، أسألها وتجيب ، قالت إنها لم تشتر بسطرمة لكنها تظن البيض والجبنة كافيين . عادت إلى سهام ، سمعتها تقول أنه يرهق نفسه كثيراً ، يخرج من مكتب الترجمة إلى الكلية ، يواظب على المحاضرات ، قالت أنه لن يهدأ حتى يحصل على الدكتوراه بعد الماجستير ،

قالت بصوت خفيض ، أوقفت مضغ اللقيمات ، أن أخاها مثابر ، قالت سهام كلاماً لم أتبينه ، ضحكت سنوات ، عاودنى الصوت خفيضاً ، تتوالى دقات هاون نحاس من الطابق العلوى ، خطر لى القيام والزعيق مطالباً بالكف ، الوقت عصر ، البعض يغفو من عناء . سيبدو هذا منفراً ، عادت سنوات تضحك بهدوء ضحكاً رائقاً تذكرت بكاءها ليلة أمس ، بدا قضاء العصر فى البيت مقبضاً ، نظرت ساعتى ، يمكننى لحاق المحاضرات .

— ٧ —

يبدو الحديث مصحوباً بصدى ، تنثال الرؤيا ، تقول سنوات انها ستدعونى ليلة ظهور النتيجة ، سترتدى فستاناً لامعاً ، أبيض محلى بلآلىء صغيرة ، دقيق كإيماءة رأس ، تتأبط ذراعى ، ندخل معاً ، نذهب بعد العشاء إلى مسرح أو سينما ، سكتت لحظة ضئيلة كثقب إبرة ، فى بريق البهجة ألمح الأسى ، فى تدفق الألفاظ أرى تعثر المعانى وإختناقها ، شىء ما لا أقدر الإمساك به ، يدفع مرارة مقطرة إلى ركنى عينيها ، كأنها أهينت منذ قليل ثم كتمت ما حاق بها ، فجأة سألتنى ، ألا تفكر فى السفر ؟ ؟ قلت ، إلى أين ؟ ؟ ؟ قالت إلى بلاد الدنيا ، رأيت رحيلنا معاً ، ركوبنا سفينة لنرى ونتعرف إليهم ، نقيم العلاقات ونكتب العناوين ، نناقش الركاب فى القطارات ، إذ يحاصرنا البرد فى غرفتنا الصغيرة ، بفندق قديم ، نستعيد طفولتنا ، ملامح أيامنا الضائعة ، نذكر حديث والدنا عن استانبول ، رحل إليها فى شبابه أثناء عمله مدرساً ، سنوات تذكر بريق عينيه عند حديثه عما رآه ، ضفاف البوسفور ، مآذن استانبول ، حواريها الضيقة ، لكنه الآذان الغريبة ، قالت ، نبدأ باستانبول ، ما رأيك . . ؟ ؟ أومأت موافقاً ، رفعت ذراعاً ممدودة إلى أعلى ، لندخر المال ، لن أضايقك ، ابتسمت ، لو رأيتك معجباً بفتاة ما فلن أقف حائلاً أمامك ، يمكنك تجاهل وجودى تماماً ، وكأننى لا أشغل حتى جزءاً من الفراغ . . أبداً . .

— ٨ —

يرسل المصباح ضوءاً واهناً كالوحدة ، البيوت مصلوبة فى سواد الليل ، أربعة رجال يقفون أمام البيت ، أبطأت خطاى ، طفلة صغيرة تلمحنى ، تصرخ . .

— أبلة سنوات . . أبلة سنوات . .

أحاطت ساقى بيديها ، إبنة عم محمد البواب ، تقدموا ، رأيت الشارع ، بلاطه المضلع ، الهواء فى الفراغ ، رائحة غسيل منشور ، رأيت أحد الرجال مرتدياً حلة زرقاء بصفين من الزراير النحاسية ، رأيت استانبول ، الصور القديمة ، فى إحداها أحيط سنوات بذراعى ترتدى عقالاً عربياً ، اشهر مسدساً بينما يبدو وجهها الطفل رائقاً ، رأيت الرحيل ، الأطباق منكفئة فوق طعام بارد بينما يهبط داخلى ثقل من رصاص . .

— أبلة سنوات . . أبلة سنوات . .

— بقيت هناك مغطاة أربع ساعات . . لو نعرف تليفونك لاتصلنا بك . . الاسعاف لم تنقلها . .

— أخذوا عم محمد البواب لسماع شهادته . . هو الذى رأى كل شيء . .

— كان يقف لحظة . . .

•

تنفصل الطفلة عنى ، لا أقدر على النظر إلى أعلى ، إلى شرفتنا ، رأيت شرفات السلالم لامعة ، موضع العينين تجويف خال من الزرقة ، إنتحت الطفلة ركناً ، مثل تماماً ، لم تر لحظة مجيئها إلى العالم ، ولا لحظة رحيلها عنه ، لا أتبين ملامح الطفلة ، لا أدرك أصوات المتحدثين ، يدمينى النشيج الوعر . .

— آه . . أبلة سنوات . . أبلة سنوات . .

١٩٧٢

* * *

ناطق الزمان

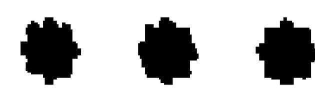
مفتتح

فى آخر الزمان ، يقوم المهدى المنتظر ، ناطق الزمان ، يجىء إلى الدنيا بعد أن يبلغ أمرها حداً لا حد بعده ، بعده ، أنه يعيش فيها ، لكنه خفى لا يبين ، وفى يوم معين ، لحظة بعينها ، قيل إنها ساعة شروق الشمس ، يظهر ، فيراه أولاً الصفوة ثم يعم . عندئذ ، يقوم جنده من كل مكان ، من فجاج الأرض ودروبها يجيئون ، آمنين ، موحدين ، فيملك الدنيا شرقها وغربها ، كما ملكها سليمان الحكيم ، وذو القرنين ، قال الثقاة إنه لو ظهر ثم اختفى ، وبقى فى عمر الدنيا يوم واحد ، لأطال الله عمر ذلك اليوم حتى يبعثه رب العالمين ، حينئذ تمتلىء آخر أيام الدنيا عدلاً وسلاماً ، من بعد أن ملئت ظلماً وجوراً » .

« جمع الكلمات »

هدأ القطار سرعته ، إنزلق سامى من فوق السطح إلى فراغ ما بين العربات ، قفز إلى الأرض ، الهواء بارد ، يقول أن الشتاء بانتظاره ، باع كل

شيء من أجله ثم فارقه . سامى نهار هجره الضوء ، فى الميدان حركة ليالى الشتاء ، أصدقاء يفترقون ، جنود عابرون ، مواصلات تشح فتتقطع أوصال المدينة ، عليه أن ينتظر ، يبحث عن مولاه من جديد ، سيجمع الحروف يضاهى الأرقام ، ينبش ضفتى النيل بابرة ، وحتماً يلاقيه كما قابله ، سامى الآن وحيد حتى مرارته ، بلا بطاقة شخصية ، نزع كل أوراقه ، ربما أذاقوه العزلة ، سجنوه ، وأين مخلصه لينقذه ؟ أين ناطق الزمان ، من يجمع كلماته ليوصلها إليه ؟ سيختفى فى الزحام ، يمضى إلى أضرحة الأولياء ، بعينيه يسأل الناس عنه ، بإرهاف أذنيه ، بالذكرى المتبقية ، يزور أمه ، يرثيها ، ينثر القرنفل الحزين فوق قبرها ، يطلب منها أن تساعده ، يسألها كيف تجلى له ؟ رافقه ، أضاع ما أضاع من أجله ، ثم غادر . . كيف ؟ .



أول الرؤية . .

سامى لم يفه حرفاً ، بالدمع يكاد يبكى ، عاش اللحظة الأولى ، رعشة الميلاد ، خروجه اليومى الصباحى ، السماء زجاجية اللون ، سور باب النصر ، عربات نقل الرمال ، رآه قادماً من ناحية جبل الدراسة ، قرص الشمس يلمس حافة الصحراء ، كل شيء أعد ، ليس صدفة أبداً ، رآه فى خفقات النهار الأولى ، فى إندفاق اللبن من إناء إلى إناء ، سامى يعرفه ، هذا ما قرأ عنه . قال مقترباً منه :

— أنت أنت . .

فى الطريق يخطو الصباح طفلاً واسع العينين . . رقائق هواء . .

— لن تفارقنى يا سامى . . مادمت عرفتنى فلا يحدث هذا كثيراً فى الزمان . .

أتركنى فى غرفتك . . امض أنت إلى رزقك فأنا لست محدوداً بمكان .

يبدأ ميلاد سامى ، فكر فى اللهجة التى يواجه بها صاحب المتجر ، هل

يتحدث إليه بأنفه وكبرياء ؟ أو بلا مبالاة ؟ كتم ما فى نفسه ، لم يبح ، ستجىء لحظة معينة ، يدرك فيها صاحب المتجر ، وزملاؤه البائعون ، والزبائن ما أدركه هو ، يعلمون أن سامى أول من أتبع خطى ناطق الزمان . فى المساء عبر كوبرى الجلاء ، تعاوده لحظات قديمة ، تدفق دماً ساخناً طرياً ، عودته إلى البيت ، يعرف أن أمه بانتظاره ، أبوه يصل بعد قليل ، خروجه لمقابلة هدى ، حركة يدها ، لون نظرتها ، رقة وجهها ، مشروعاتهما المشتركة ، تخيلهما شكل البيت الصغير المنتظر ، وقوفه أمام الهدايا ، يتمنى لو إشترى لها ، هذا القماش ، تلك الحقيبة ، يسرع الخطى ، يقابلها ، تضحك فرحة ، آه من حيرته فى ليل المدينة ، البيوت قضبان سجن ، أين يذهب ؟ ؟ يود لو يوقف أى رجل مار ، فقط يتحدث إليه ، فترة ما بين السابعة عشر وعامه العشرين ، بسرعة مرت ، لم يعشها ، أين راحت ؟ ؟ كيف ؟ ؟ كأنها ستعود من جديد ، فيض الآمال ، إعداد المشاريع لحظات ما قبل النوم ، الآن . . يعرف أن أيامه العطشى كأرض جفاها النيل ، ستنبض من جديد ، بكل ما راح ، ما ضاع ، صوامع الغلال الفارغة المنخورة تمتلىء من جديد يشم رائحة التبن فى الطريق الضيق المحفوف ، بمجرى النيل فى قريته النائية ، يمشى مع أبيه . . سامى لم يزر بلدته منذ سنين ، بعد اليوم ، لن تعصيه كلمة « لو » فى ميدان التحرير ، أمام محل يبيع الألبان ، تتصدره زجاجة لبن كبيرة ، آلة عصير مانجو ، مناضد ، همس شفاه ، قاوم نفسه ، آه لو صرخ ، يطلع فوق برج القاهرة ، يدور بهيلوكبتر ، يشق فراغ ما بين الأهرامات ، يعبر الكبارى الصغيرة المصنوعة من أخشاب النخيل ، يطوى مدقات الجبال ، يزعق . . ابشروا . .

ظهر قائم الزمان . . ناطق الزمان . . جاء العدل والسلام . .

* * *

يطل من عينيه آمان ، آه يا أب اليتيم ، يا عائل الشريد ، يا منجى الغرقى ، نطق فارتجف سامى :

— أحسنت . . لكل لحظة أوانها المحتوم . .

بينها صمت شفاف نقى كماء الورد ، أصوات العصر تجىء من الحارة ،

يسمعها سامى أيام عطلته بمفرده ، ثرثرة النساء ، نداءات الباعة ، يتأمل إيقاع أصواتهم وتنوعها ، « يا خس يا حلو قوى » . « اصلح بوابير الجاز » . « الوداع يا ملوخية » . أوان بعيدة تسقط ، موقد يشتعل ، صفارة نائية ، مجهولة المصدر ، رفع عينيه ، وجه ناطق الزمان ، لا يمكن من خلاله تحديد العمر ، ربما قال ناظر ، إنه مليح شاب ، ربما أكد مجرب حكيم ، إنها ملامح شيخ تجاوز الثمانين ، محير ، متى مولده ؟ ؟ هل لمثله أم عانت آلام المخاض ؟ ؟ .

— طالت رحلتى . . عذاباتى طوال السنين ؟ ؟

الليلة ، يتم سامى عامه الثلاثين ، من منتصف الليلة ينحدر العمر ، أيام رمضان الأخيرة تقول أمه . ما نصوصه لن يتكرر ، أيام شبابه أيضاً ذابت ، قال ناطق الزمان أنه سينزل إلى العالم ، خفى ، واضح ، ظاهر ، باطن ، سيعرفه المقربون ، بصيته يزعقون ، الأمر فى هذا الزمان صعب ، عسير ، منذ مئات السنين أنتقل بين القرى وأسواق المدن ، عبر جبال الثلوج البعيدة ، الطرق الصحراوية المؤدية إلى الواحات ، بعضها لا وجود له الآن ، لم يطلب منه أحد تصاريح سفر ، وإذا إستبد الفضول بمخلوق فهو طواف لا يهدأ له قرار . .

— أما الآن . . فالحذار . . الحذار . . كثر الأعداء . .

سامى الآن يشم رائحة أبيه ، عودته كل ظهيرة بأقراص الطعمية الساخنة ، أمه تقعد أمام باب الحجرة ، ترتق قطع القماش القديم تصلها ببعضها ، بتأن تحاول إدخال الخيط فى ثقب الإبرة ، سامى يشد ثوبها ، تقول اسكت يا سامى ، اسكت يا حبيبى ، قالُ ناطق الزمان ، أن الأعداء لا ينتهون ، منذ أن طاردوه زمن الخلفاء الأمويين ، ثم العباسيين . اضطر إلى الاستتار فى بلدة صغيرة ، رقيقة كقصيدة شعر ، نائية فى الشام ، إسمها سلمية ، منها إنطلق دعاته ، غير أن الخلاف دب بين الأتباع ظهر أكثر من واحد فى المغرب ، فى الهند ، فى مصر والسودان ، إدعى كل منهم أنه هو ناطق

الزمان ، لكنهم خابوا جميعا ، بقى هو مستترا ، سامى ينظر إلى مولاه ، يسمع إقتراب الليل ، يرى أعوامه الثلاثين ، زمان . . زم أبوه شفتيه ، فرح بنجاح ولده ، قال أنه سيبيع ما أمامه وما وراءه ، سيحمل حقائب المسافرين ، يقشر عيدان القصب فى مخازن محلات العصير ، المهم أن يتم سامى تعليمه . يعرف ناس بالوحشة ، أصابعه تمسك طرف ردائه الأبيض ، فى أى عصر نسج ، من أى البلدة ومشايخها أن سامى ولده دخل الجامعة ، بالتحديد كلية الطب . ربما جاء تعيينه طبيباً لمستشفى البندر ، يمتطى الحاج سلامة أغنى مشايخ البلدة ركوبته ، يمضى إلى المستشفى ، الثقة تملؤه ، الطبيب هو سامى بن هارون القط ، أى والله هارون عرف يربى ، يقول سامى :

— يمكننى أن أعمل لأساعدك . . وفى نفس الوقت . .

يصيح أبوه : أبداً أبداً ،

همس سامى وعيناه تحتويان ناطق الزمان :

— أينما ذهبت تتحقق الأمنيات . . لن يتحسر إنسان . .

يقترب الغروب ، لا يطيق سامى البقاء فى حجرته ، كل ما يراه ، يتدفق إليه حزين ، يفصله عن العالم بحر صعب العبور ، مولاه يتمتم بأدعية تنأى بالوحشة ، أصابعه تمسك طرف ردائه الأبيض ، فى أى عصر نسج ، من أى قماش هو ؟ ؟ قال أن غربته لن تطول ، لن يرى أكثر مما رآه هنا فى مصر منذ أربعمائة وسبعين عاماً ، قبض عليه العسس ، ظنوه من العريان المفسدين رموه فى سجن الجبل ، قضى فيه مائة عام وازدادت تسعاً ، تعاقب عليه أجيال من الحراس ، استسلم للقضاء ، أليست عذاباته بعض مما يجرى فى العالم ؟ ؟ كاد سامى يبكى ، يسمع نواح أمه . .

يا ليتنى قبلك . .

طفشت فى الحارة ، تشد ثياب النساء ، تهيل التراب فوق شعرها تعفر نفسها ، تقول للرجال العابرين . . راح أبو سامى . . راح من يعولنا . . راح رجلى . من يعولنا ؟ ؟ رجلى ؟ ؟ ألفاظ توجع سامى ، ينزل ثقل فى دمه ، تعريشة الأسرة إنكسرت ، الدفة التوت ، الربان هوى فى قاع أليم ، النخاع

انسل هاربا من تجاويف العظام ، طوال شهور تلت ، أمه تلقى أحزانها فوق أمور صغيرة وقعت ، لو أنه لم يذهب إلى أقاربه فى مصر القديمة لعاش ، لو أنه رأى أخته نظلة ، راح محسوراً لم يرها ، لو أخذ إجازة ، لم يعرف الراحة أبداً ، لكن ما نسبة هذا إلى ما رآه ناطق الزمان ؟ ؟ عذابات الكون منذ أن كانت الأرض صخراً ملتهباً ، ثم نبات وحشى خال من الإنسان ، الآن الليلة ، تولد الآمال ، تمتلىء الوديان خضرة ، تمطر السماء فى أفواه المحتضرين عطشاً . .

— إذن . . أنت تعرف اليوم الذى رحل فيه أبى . .

ليس هذا فقط ، إنما يعرف رعشة قلبه عندما عرف هدى ، لحظة مجيئها إلى المتجر تشترى فستاناً بسيطاً ، تلاقى عيونهم ، إدراكه مرفأ الحنين ، مولاه يعرف طوافه الليلى ، هدى موجودة فى كل فتاة عابرة ، تطل عليه من مكان خفى ، معه دائماً ، يتخذ فى جوف الليل قراراً ، أن يمشى من الحسين حتى كوبرى الجلاء ، يقف عند الحد الفاصل بين محافظتى القاهرة والجيزة ، يتأمل أضواء العوامات الخافقة ، دوامات التراب الصغيرة والورق ، يلفظ إسمها قرب الفجر بصوت عال . . هدى . .

مادمت أتبعك يا ضيا عينى يا مولاى . . فلن أقطع الأمل فى رؤيتها .

هز الإمام رأسه ، ضوء الطرقات هامس ، تنذر السماء بهلاك مجهول ، رآها الإمام منذ ألف سنة ، ترى ، ماذا جال بعقول أهل الأزمان البعيدة وهم يتطلعون إلى السماء ذاتها ، ما أثارته كل لحظة من أحلام ، الهمس المتبادل ناطق الزمان عرف الغروب فى قرى الهند الفقيرة ، رآه فى الإحساء فى نجد بين ربوع الشام والأناضول بلاد القفقاس ، بحر الزنج والبحر المحيط تجاوزاً شوارع الضجيج ، خرجا إلى الخط الحديدى المار قرب الحقول ، المطار الصغير ، الأنوار الزرقاء على جانبى الممر ، تنفذ رائحة الليل ، أنفاس الزرع ، الوقود المتساقط بين القضبان ، المولى يتطلع يكشف حجب المستقبل ، يرى مدناً أخرى منثورة فى أركان العالم ، جزر صغيرة يسكنها الأعراب والصيادون . .

المراكبية لا يأخذون معهم أحداً ، لكن ريس هذا المركب عندما رآهما أفسح لهما مكاناً رحباً ، قال لناطق الزمان ، أنه انتظره طويلاً ، عند المنحنيات الحادة فى المجرى ، فى جرى الموج ، راح يغنى ، لصوته رائحة أرض الشراقى ، المتشوقة إلى الماء ، يذكر امرأة بعيدة وعيالاً صغاراً ، يذكر مذاق البتا والبيتى ، الحليب الصباحى ، رائحة خبيز الظهيرة ، رحلته تستغرق شهراً كاملاً ، ينقل الحبوب ، الغلال ، أوانى الفخار ، سامى يرقب خطو الليل ، الليل لا ينزل من السماء ، إنما يطلع من النيل ، من الضفتين ، من هسيس الحشرات ، ذرات الغبار التى تثيرها أقدام المارة فوق الطرق الريفية ، يترامى إليه تصفيق غناء ، ربما فرح فى قرية نائية ، تدوم الريح فتطوى الزغاريد وطلقات الرصاص ، ناطق الزمان يغوص فى طبقات الظلام بعينيه ، أينما ذهب يدركه البعض ، يجهله آخرون ، أو يتجاهلون ، ربما أدركهم الأعداء المترصدون ، فى كل مكان ينتشرون ، قال الإمام أنهم فى البحار الكبيرة ، فوق ثلوج الجبال ، فى ناطحات السحاب البعيدة ، فى الآثار القديمة ، فى المصارف ، قواديس السواقى ، تجاويف الطنبور ، بين آلات القطارات ، حول أذرع السيمافورات ، فى أروقة المستشفيات ، فى الابتسامات الصفراء ، ارتعاشات الجفون ، لو عرفوه لانقضوا بحقد ، غل عمره آلاف السنين ، يتوارثونه ، سامى يضيع فى رهبة الليل ، يصغى إلى نبض العالم ، لا يعرف كم إنقضى عليه تابعاً لمولاه ، شهور ، سنين ؟ توقف عمره عند الثلاثين ، يبدأ من جديد أعوامه البعيدة المنقضية بسهولة قاسية لا تصدق ، كأنها سنين غيره ، من يدرى ، ربما لو مد البصر عبر النيل ، يلقى طفولته ، شبابه ، حارة البيرقدار ، وقفته يبيع الثياب ، مساومة الزبائن ، تغير النهار خارج فترينة الزجاج ، ليس معقولاً أن ما إنقضى ضاع تماماً . . لابد من وجوده فى مكان ، زمن ما . . .

يرتعش صوت الشيخ العجوز ، ناظر مدرسة ابتدائية ، قال أنه رأى تباشير الأمل فى إنطلاق النهر كل عام ، فى إكتمال القمر بدراً ، قال ناطق

الزمان أنه لا يجيء بالخوارق ، لكن شيئاً فشيئاً يدرك العالم الحقيقة فيقوم قومة رجل واحد ، سامى يقف عند آخر بيوت القرية ، حافة الصحراء ، يدوس بقدم فى الخضرة ، وقدم فى الرمال ، فى سكون الليل يحكى الشيخ عن رجال ماتوا بعد إنتظار الإمام طوال حياتهم ، كثيرون خرجوا يبحثون عنه ولم يرجعوا ، توهج فى السماء نجم وحيد ، ليست المرة الأولى التى يجيء فيها إلى هنا ، منذ مائة عام قضى بمصر زمناً ، ظهر فى كافة قراها ، نجوعها ، لم يأمن أعداءه كهذه الفترة ، يظهر فى أسواق القرى ، يتحدث إلى باعة السمك المقلى ، وقطع البطيخ ، بالضبط قبل إنكسار عرابى ، توالت الأيام ، تحسس وقع الهزيمة ، وبدأ الحزن يفاجئه ، لم يهاجمه سنين سجنه الطويلة ، ياه . . لا يضارعه إلا حزنه العظيم كلما تذكر موت الحبيب ، المنجب النجيب ، إبن بنت رسول الله فى كربلاء ، فى كل عام ، عاشر محرم يقيم حداداً يكاد يهلك فيه ، لكن الحذار ، لو قضى لن يقوم أبداً ، لن يعرفه أحد ، أبداً يضيع ، إختبأ فى ثياب الفقراء القتلى كما إختبأ من قبل فى جراح ضحايا المغول بخوارزم ، إنطوى مكتئباً فى فوهات المدافع المنطفئة ، ناءت أعضاؤه بالهم فاستتر ، لو أمسكه الأعداء لمزقوه قطعاً أكبرها فى حجم الحبات الرفيعة داخل ثمر البامياء ، غير أن فلاحاً عجوزاً من هذه القرية عرفه ، تحسس سامى بعينيه البيوت فى الظلام ، ربما نام الفلاح الفقير فى بيت من هؤلاء ، ربما طبع أثر قدميه فوق التراب الذى يطأه سامى الآن ، إقتفى الفلاح خطوات الإمام ، أقسم الأيمان وأخذ على نفسه المواثيق والعهود ، لن يعلن حقيقة الإمام لأحد ، إنهما غارقان فى زمن الهزيمة ، الفرحة غاضت من القلوب ، أما الحزن فيثقل الجميع ، شاب الأطفال ، قال ناطق الزمان ، أن هذه الأيام البعيدة ذكرته بأيام أكثر بعداً ، عندما دخل سليم العثمانى أرض مصر ولعب سيفه فى الرقاب فكاد ينهى الحى بها ، عندما إندفع المغول عبر بغداد وإجتاحوا الشام فى أيام ، رأى فى الأعداد رجالاً من قبائل الهون البربرية القديمة ، أعوان تيمورلنك ، الأسبان الغزاة ذابحى هنود الازتيك ، محاربون متوحشون يأكلون لحم الانسان ، إرتعش سامى ، يكاد يسمع وقع سنابك الخيول ، اصطدام

السيوف بعظام الجباه ، قال ناطق الزمان لابراهيم الفلاح العجوز ، ربما لا نرى تحقيق الآمال ، تموت محسوراً ، أصر الرجل على صحبته ، زعق منادياً ربه ، عند قرية « شطب » جنوب أسيوط نسى أهله وماله ، ناطق الزمان أبوه ، كفنه بيديه ، صلى عليه ، يومها تبللت السماء بمطر ، ناءت بحمل غيوم ثقال ، زعق الناس فى الصعيد ، أهذه نهاية الزمان ؟ ؟ أحرق الجثمان ، نثر الرماد فى أركان العالم وزواياه ، إبراهيم العجوز تبعه حتى النهاية ، لم يعرف اليأس .. بكى ناظر المدرسة ، العارفون به ، الذين جاؤوا من القرى المجاورة ، طافوا معه البيوت ، يكاد سامى أن يرى الفلاح العجوز ، ابراهيم الراحل منذ مائة عام ، ذهب ولم تتحقق الأمنيات ، أما هو سامى فكل شىء يراه دانياً ، يدخل الجامعة ، يصبح طبيباً ، يسمع صوت هدى ، هدى الآن قريبة منه ، تقول ..

— مرور سنوات لا يعنى شيئاً ..

تقلب السكر فى كوب الكركديه الساخن ، لحظات صمتها فى أذنيه حديث متصل ..

— إسمع .. نبدأ معاً .. نذاكر دروس الانجليزية ..

لا تتدفق فى صدره رغبة ، يحتضنها ، يذيب فوق صدرها حزنه ، إرهاقاً أيامه ، يرقص فوق الرخام ، يثب فرحاً ، يهدىء ، ينفى آلامه ، آه لو يزعق فى الناس ، تفيض عواطفه ، تعبر ضلوعه ، ولا عاصم بعد اليوم ..

— لن يستغرق الأمر سنة .. تعيد دخول الامتحان وألحقك أنا فى الجامعة ..

أليست رغبة أبيك .. إنها رغبتى أنا يا سامى ..

ينطق سامى ، تتبدل الأشياء ، يرق الهواء ، يقول :

— هدى أنت رائعة .. أنت ملاك ..

— يا سلام يا سامى ..

تضيق ما بين حاجبيها ، يمتلىء الفراغ بينهما بالآمال ، تبدو له سنين عمله

القاسية وهماً ، إسراعه ليلحق مواعيد العمل ، الوقوف النهارى الطويل ، إبتساماته للزبائن ، لم يعرف هدى خلال هذه الفترة ، كانت تعيش فى مكان ما ، قبل أن يعرفها . يفكر ، لابد أنه سيلتقى بإنسانة تعيش الآن فى منزل معين ، تتحدث ، تأكل ، ترى من هى ؟ تبرق عيناها فى ذاكرته ، فى إتساعهما يرى البلاد التى تمنى السفر إليها ، البيوت المغلقة فى الشتاء ، داخلها أصوات الشارع البعيد ، زعيق السكارى ، هدى تحمل صينية فوقها أكواب الشاى الساخن ، بين يديه كتاب ، فى أنفه رائحة الأثاث البيتى ، تسأله عما يجب أن يأكلاه غداً ، تتصل به فى العمل ، تدعوه إلى غداء خارج البيت .

ألا تذكر .. اليوم عيد زواجنا الثالث ..

تحلق ذقنه كل صباح ، تميل تغسل ماكينة الحلاقة ، يخطف منها قبلة ، يحتضنها عند وقوفها أمام البوتاجاز .

يا سلام يا سامى .. حاسب الشاى ..

يدعوها إلى السينما ، يمضيان معاً ، يسمع صلاة ناطق الزمان ، حديثه إلى مريديه ، تضحك هدى ، يبعث أبوه حياً ، مورد الوجه ، فرحاً ، لا أثر لشقاء السنين حول عينيه ، ينفض الغبار عن لافتة مدرسته القديمة ، تعود طفولته ، آه ما أقسى استرجاع الطفولة ، يأكل كشرى الحاج عبد العاطى ، يفرح لمجىء يوم الخميس ، يعقبه الجمعة ، اجازة ، يسمع قبقاب أبيه العائد من صلاة الفجر ، يفرح فى لحظات الهدوء بين أمه وأبيه ، يعاكس الحاج حامد مدرس الرسم الذى يقف فى الفصل ، يتأكد من إغلاق الأبواب والنوافذ ، يتطلع إليه الصغار ، يقول .. اسمعوا يا أولاد .. اسمعوا غناء عن مصر .. عن مصر يا أولاد ، يحمر وجهه ، ينظر الصبية إلى بعضهم ، يتضاحكون ، يستمر غناء الحاج حامد ، الآن ، يذكر مذاق صوته ، يكاد يبكيه . يتحدث الناظر ، والخفير ، والرجال .. لكن لابد من مواصلة الرحيل ..

* * *

— أرى دبيب أقدامهم .. أشعر بانتشارهم ..

ادرك سامى خوف ، صاح طائر غامض فى الفراغ العتيم ، هل يجرؤ انسان ؟ ؟

— أنا لا يدنو منى أحد .. عند الخطر استتى من جديد .. أذوب فى الصخور .

الجأ إلى الكهوف الجبلية .. أغوص فى عروق النحاس فى قاع منجم بعيد .

غير أن الأمنيات تشل إلى حين ..

سامى يهوى ، تصدمه أرض مجدبة ، يسفح عمره عند أفق المغيب ، تعود إليه لحظات إحتضار أبيه ، رحيل هدى ، إحترق قلبه يومها ، ما الذى جرى ؟

— متى يجىء الأوان الذى لا بعده ولا قبله يا مولاى ؟

— ربما بعد شهر .. بعد سنة .. علم هذا عند ربى ..

لو يزعق سامى ، يعبر صوته الهواء ، يجفف صديد العيون ، يدور مع سيور ماكينات الطحين ، أبراج الكهرباء ، الجهال المثقلة بالبوص ..

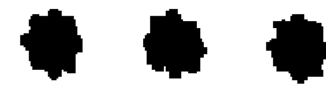
— يكون عمرى إنقضى يا مولاى .. لا أسمع هدى أبداً .. أيرضيك الا أسمع هدى .. لا تعود من الحجاز .. لا أراها بكراً من جديد .. لا أدخل الجامعة .. لا أداعب طفلى الصغير واسع العينين .. طرى العظم ..

زعق ريس المركب ، يلتوى القلع التواء حاداً ، يخف السواد ، يفصح النهر عن ملامحه .

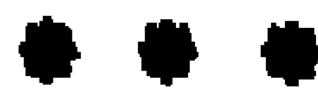
— نشقى من أجل الأجيال المقبلة يا ولدى ..

ينعم أهلها ، يشربون اللبن من النهر ، يطرح نخيلهم خيراً وطمأنينة ، يأوون إلى مضاجعهم آمنين . الغرباء المفزعون فى سواد الليالى ، يرق هواؤهم ، يصفو ماؤهم . إرتجف سامى ، اين أنا عندئذ ؟ أين موقع قدمى ؟ اى أحجار تثقل رأسى ؟ الظلمة تغشى عينى جمجمتى الخاويتين ؟ أحلامى

تتجمد فى أربعة وعشرين ضلعا ، عمود خال من النخاع ، رسغان وساعدان ، كل ما أصبو إليه ، أين أنا حينئذ ؟ أين أنا ؟ .

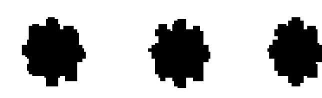


يخوض مياه النهر الضحلة صياد عجوز ، يغرس حربة رفيعة مدببة فى ظهر البلطى والبياض ، سامى يتأمل قدمى الرجل ، منتفختان بالرطوبة والطمى ، أخبرهما أن القوارب تزحم فى النهر ، صغيرة سريعة ، فى كل منها رجلان ، يوقفون المراكب الكبيرة ، يفتشون أوانى الفخار ، ينبشون أجولة القمح والبلح ، حتى الآلات الصغيرة المرسلة فى الصنادل ، يفكون تروسها ، لم يبد على الرجل أنه عرفها ، أيضاً لم يتضح هل يجهلهما ؟ لكن ما الذى دعاه إلى إخبارهما بهذا ؟ عاد صامتاً يخوض فى الماء الضحل ، نظر سامى إلى مولاه ، لطالما أطبقت عليه جبال أعلى من هذه ، صخورها أقسى ، يعرف العالم شبراً شبراً ، وأرض مصر ، يعرف أى نتوء حجرى عند مدخل سهالوط ، التمثال الأثرى القديم قبل جهينة ، الغرف التحتية فى البناء المشيد قبل الطوفان ، حيث الجو رطوبة فى الصيف ، دفء فى الشتاء ، يعرف المصانع ، مواعيد تغيير الورديات ، صوت مدفع رمضان فى دمنهور ، السويس ، صوته فى قنا ، يحملق إلى فراغ بعيد ، ربما يرى أشياء لا يراها هو ، سامى توجعه خواطر مفاجئة ، ربما يعلو أزيز طائرة ، تطل منها عيون فاحصة ، تكشف المخبأ من الآمال ، يمسكون ناطق الزمان وتابعه الأمين .



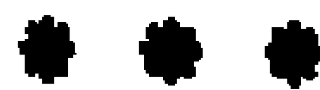
جنود اللورى عند المدينة الريفية الصغيرة ، بكاء أحدهم على صدر الإمام ، أسمر الوجه يتوسط ذقنه وشم أخضر ، مستدير ، باهت ، رآه من زمن ، كان مادة أحلامه ، والصور التى تخللت أيامه ، إنه من الانفوشى ، يمتلك دكاناً صغيراً يبيع فيه الفول والطعمية ، رأى الامام فى صباه ، فى كل تجويف يفصل بلاط الرخام الصغير الذى يرصع دكانه ، فى مرض أمه وشفائها ، إنتظره عند ساحل البحر ، فى أبى قير ، فوق الصخور ، لا

شاطىء ، إنما صخور وحشية ، مقطبة الجبين ، تلتقى التقاء صريحاً بالسماء والبحر ، لم ينله يأس ، حتماً ينطق الزمان ، من زرقة المياه ، من ملوحة طعمها فوق الشفاه ، من الطوابى القديمة ، مواسير مدافع عرابى الملقاة برثاء ، آه يا مولاى .. جئت ، وأين ؟ هنا ، أرتجف اللورى ، لانت ذرات الرمال ، مالت عيدان القمح ، إبتهل بقية الجنود ، دمعوا ، نزلا من اللورى ، تساءل سامى ، هل يراهم ثانية ؟ محمد ابن الانفوشى ؟ حسن نساج الكليم من فوة ، عبد الهادى عامل الآثار الصعيدى ، السائق النوبى ، قال ناطق الزمان ، حتماً سيرجع ، يلقاهم ثانية ، هو موجود حتى لو أستتر ، فوقهم ، حولهم ، لا تبعده عواصف ، لا تقصيه صفارات إنذار أو دوى ..



« لماذا لم يقل إليهم أنه ربما عاد بعد ألف سنة كما أخبرنى ؟ ؟ » .

بماذا يجيبون لو عرفوا أن الأعمار ربما انقضت فى إنتظاره ؟ إستعاذ سامى بالله ، يعرف أن الأعداء يطرقون الوسائل كلها ، ربما بذروا الشك فى حقل روحه ، توجهوا إلى الحجاز ، ذبحوا هدى .. يحضرون دمها الحبيب إليه ، يرمونه على عينيه فيضيع منه البصر ، يقطع من رجوعها الأمل ، شربها الكركدية ، همسها الخفيض ، توقفها أمام فتارين الاثاث ، متاجر التحف ، تقول هى ، لابد أن يحتوى الصالون على فازة صينية ، تمثال محارب زنجى ، ترى الأطفال الصغار المصنوعين من الشمع فى متاجر الثياب ، تهمس ، أنا أحب الأطفال ، يخجل ، يتجدد الحديث ، تطلب بنتاً ، يتمنى ولداً ، يكتفيان لا أكثر ، أما إذا جاء الأول ولداً والثانى ولداً والثالث ، تضحك هدى ، لابد أن نصر حتى تجىء مديحة ، يسأل .. لماذا مديحة بالذات ؟ لأنها تحب خالتها جداً ، هى أمها التى لم ترها ، لم تعرف إلا هى منذ الرضاع ، يتساءل سامى ، هل تذكر هدى بين جدران بيتها المغلق ما قيل ؟ ربما أنجبت إبنة الآن ، حجازية الجنسية ، هل إسمها مديحة أيضاً ، السماء خاوية ، صحراء فى عينى سامى ، الذكرى تلون الأشياء ، تنأى بالامام عنه ، يفيق إلى وجوده .



ــ لابد أنهم يسدون مفارق الطرقات . . يختبئون فى عربات الرحيل .

يكاد يحس لون نظراتهم ، قسوة خوذاتهم المكسوة بشباك التمويه ، الهلاك فى أسلحتهم ، تهب ريح عاتية ، السماء حزينة ، الأرض تقلع ويفيض الماء ، سكت الإمام لحظة كالسنين ، ثم قال إنه يعرف درباً صحراوياً غرب قرية الغنايم ينتهى فى صحراء السودان ، لم تطرقه قدم إنسان منذ مر به يتبعه إبراهيم الفلاح العجوز ، يمضيان فيه ، يخرجان شمال أسوان ، ثم يمضيا ، خطت قدماه فوق الحصى ، رق الغمام ، غير أن شيخوخة غريبة ، زحفت فى عروق سامى ، لكم أحس بقصر عمره ، فى مقهى الكلوب العصرى يطوف رجل ضخم ، يرتدى معطفاً جلدياً ، فوق ظهره رسم لوجه أحمر ، مشوه الملامح ، بارز الأنياب ، لا يدرى أهو لجن أم إنسان ؟ ؟ أربعة شهور ، فى كل يوم ، نفس الميعاد يجىء ، يضع بطاقة صغيرة فوق منضدة الرخام .

« اقرأ الكف ، حاضر ، مستقبل ، أحلام ، أمنيات ــ سيد سعيد » .

يهز سامى رأسه ، يمضى الرجل ، حتى إستبد الفضول بسامى ذات مساء ، شد الرجل كرسياً ، بسط سامى راحته ، ضيق الرجل عينيه ، أسند رأسه إلى يده ، رأى سكة السفر ، وضيقاً فى العمل ، ومرضاً فى الصغر . .

ــ لكن عمرك قصير . . ولو عشت مائة سنة . .

ماذا يقصد ؟ ؟ أى شىء يعنى ؟ ؟ لكنه قام ، دس بطاقته فى جيبه ، طلب خمسة قروش ، فى هذا الوقت لم يمض على سفر هدى أسابيع ، هجره النوم ، راحة عقله متعة نائية ، لا يدرك صاحب المتجر ذرة من همومه ، أما الزبائن فيشيرون ، أعطنا من هذا ، لا . . من الأحمر ، أقطع أربعة أمتار ، لا داعى ، نلف ونرجع ، يشرب الماء تسبقه الأقراص المنومة ، حكى لناطق الزمان عن عذابات الليالى ، سهره حتى مجىء الرجل العجوز مجدوع الأنف ، فى الفجر تماماً يصيح . . « يا نايم قوم وحد الدايم . . بكره تقوم القيامة . . وينتصب الميزان ، يبقى اللى وفى يعدى . . أما الشقى حيران » يدرك أن يوماً إنقضى ، يزعق الرجل ، تبقى النوافذ مغلقة ، من عشرين سنة ، إذ يقترب

الفجر ، يصيح رجال الحارة على بعضهم ، الحاج حنفى جساس البهائم ، يدس يده طوال النهار فى الأرحام ليعرف الأنثى المقبلة من الذكر ، يصيح على سعودى الجزار ، سيد الترزى ، على المكوجى ، ينادى أبوه ، فى دفء فراشه يسمع وقع القباقيب فوق بلاط المساكن ، إندفاق المياه من الصنابير ، تجمعهم فى الحارة ، عز ليالى الشتاء ، يمضون إلى الحسين ، أصواتهم عالية ، تبقى معلقة بين البيوت زمناً بعد ذهابهم . .

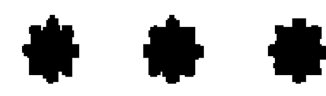
* * *

آه لو يسأله سؤالاً واحداً . . هل ينوى الإستتار عنه ، الإستتار عنه هو ؟ ؟ هو الذى باع كل شىء ، لا يجرؤ على نطق الكلام ، يردده عقله ، فى خطوة فوق الرمال القاسية ، تحت إنصهار الشمس الذى يزرع العوسج فى العيون ، يعرف أن الإمام يدرك ما فى خاطره ، عالم بكل شىء ، قرأ كل ما جرى ، وما سيجرى فى كتاب الجفر الذى تركه الإمام على ، فيه رعشة الأمل ، خفقة القلب ، هم الفكر ، فرحة الغريب بالعودة إلى دفء البيت ، آه لو يجيب حيرته . . يفك ضيقه ، يلملم عذابه . . . . لكنه لم يفه حرفاً . .

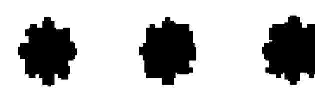
« مناجاة القلوب »

ماذا يفعل بدونه ؟ ؟ يسحقه يأس مخرب كالغزاة ، لحيته طالت ، ملامحه تغيرت ، قبل رحيل أبيه ، موت أمه ، قبل حدوث شىء مخيف ، تمر به لحظات يتجسد فيها ما هو متوقع ، عند خروجه من سينما الكواكب ، عودته إلى البيت فى منتصف الليل ، يرى اللحظة التى تموت فيها أمه ، بكل سوادها الذى ينزف دماً ، عندما رحلت رأى أن الموقف غير جديد عليه ، الآن يهوى قلبه بين ضلوعه ، يرى لحظة يخافها ، إستتار الإمام ، احتجابه عنه ، هل يقتل نفسه ، عندئذ ؟ ؟ وهل هذا سبيل للعثور عليه ؟ ؟ الآن يجلسان أمام كشك صغير داخله عجوز نوبى ، يحرس ملايين الأطنان من الطفلة المنتزعة من المنجم القريب ، مهجور منذ شهور ، لكن من يتوغل أربعين كيلو متراً شمال أسوان فى الصحراء ليسرق حفنة حجارة أو طن حتى ؟؟ الصخور تغرقها ،

تتخذ أشكالاً غريبة ، وجوه آدمية ، سيوف مشرعة ، بيارق مكسورة ، فيها يرى كل شبر وطأه مع مولاه ، القرى ، الآمال فى العيون ، بلاد الأفغان النائية التى شرعا فى الرحيل إليها ، الهند ، البحار الجنوبية ، سفن صيد الحيتان ، رائحة العشب فى الغابات ، قرقرة النرجيلة فوق المصاطب ، تطلع الحراس فى بطاقات الغرباء ، فى الصخور عيون واسعة قاسية فارقت رؤوس أصحابها ، ناطق الزمان صامت ، لماذا ؟ ؟ لا يتحدث عن جيوش الأعداء التى رآها ، أو غضبة الأرض ساعة الزلازل ، الفيضانات ، الأوبئة تكنس البشر ، يسيح بعينيه عبر الأفق ، أيكشف حجب المستقبل ، ربما ضاع منه كتاب « الجفر » الذى يحوى كل شىء ، من بعيد يحبو عويل قطار ، يفاجئه حنين المسافرين ، شعور الغربة المكثف لحظة عودة الأسرى ، لماذا يسكت الإمام ؟ ؟ لماذا يطل الحرمان من جديد ؟ ؟ يكاد يصرخ ، يطلب منه أن يصارحه بما ينوى ، أما الحارس النوبى فينظر إليه ولها خاشعاً ، كأنه قضى فى رفقته العمر كله . .



قال إن عربة لاندروفر ، تتجه إلى حشا الصحراء ، ركابها أربعة ، يحملون أسلحة ، وآلات تصوير ، قبعاتهم تقيهم الشمس ، تابعها ببصره حتى إختفت وسط أعمدة الرمال الناعمة التى ترتفع من الأرض لتتصل بزرقة السماء ساعة الظهيرة ، تمطى فى الفراغ عواء ذئب ، قال الحارس العجوز ، كأنه يقدم تقريراً مفجعاً ، ثمة طائرة حومت إلى الشرق ، جرادة ضخمة ، يظن البحر مقصدها .



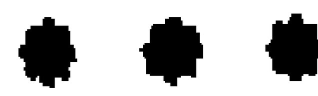
سامى يرى نفسه الآن مصلوباً ساعة مغيب ، ينادى الإمام أن يظهر ، يعيد ما إنقضى ، كان يخرج كل ليلة إلى مقهى مصطفى درويش بميدان الحسين ، يشرب الحلبة ، ينظر البنات المسرعات إلى بيوتهن ، يرى رجلاً مجذوباً ، يلف حول رأسه عمامة حمراء فى لون الدم ، يلبس جاكتة عسكرية عليها شارات ونياشين تجاورها أغطية زجاجات البيرة ، البيبسى كولا ، يرفع

سيفاً خشبياً ، يترصد أعداء يراهم هو ، يطارد أجانب خان الخليلي إذا ما حاولوا التقاط صورة له ، صار يقف في الميدان ، لحظة الغروب ، ينادي الليل ألا يقبل ، والنهار ألا يرحل ، يرميه العيال بالطوب .. بلعو .. بلعو .. عند حارة الوطاويط رآه دامي الوجه ، يمسك إحدى أسنانه بيده ، أي بشر يدنو منه ، هو عدو يبغي رأس الحسين بسوء ، سامي الآن يرى عنقه في قبضة جندي يسوقه إلى غرفة الحجز في قسم ، يلقيه بين اللصوص في غرف الحجز يسألونه لماذا جاء ، أي تهمة ؟ بماذا يجيب ؟ لا يأخذه يأس ، يفتش تحت أخشاب الحجرة ، وراء طلاء الجدران ، في القضبان التي تسور العمر ، في غرف التعذيب ، في اللوريات الرمادية المغلقة ، تأتي امرأة سجين تناديه من الطريق ، يتعلق السجين بقضبان النافذة ، تحكي له أخبار العيال ، ذهاب أخيها إلى المحامي من أجله ، أمه بخير ، سيجذب سامي الرجل ، يتعلق بدلاً منه ، يسأل المرأة ، عابري الطريق عن مولاه ، آه ، يترقرق الحزن في عينيه ، يرى نفسه معتقلاً ، أو نزيلاً في مستشفى للأمراض العقلية ، ولو ، ، سيبحث عنه ، ربما تخفى بين النزلاء ، في الأشجار الجرداء ، في ذرات الرمال المرشوشة بالبول ، كل صباح يكتب خطاباً إلى هدى ، ينتظر مجيئها فجأة ، تطبع أثر قدميها فوق الأرض التي مشيا عليها من قبل ، لكن .. لو ألقاه الأعداء فعلاً وراء الأسوار ، من يزوره ؟ من يحمل خطاباته ليلقيها ؟ من أين يأتي بطوابع البريد ؟ روح أبيه تحوم حوله ، يرى أمه وهماً عند أشجان الفجر ، آه لو يقول كلمة ، صمته يلوي روحه ، يفيض أسياخاً محماة في قلب سامي ، لو كلمة ، آه يا ناطق الزمان ، يا إمام ، العمر الطويل تمهيد للحظات الصمت هذه ، أهكذا .. ببساطة حادة مرهفة كحز السكين .. أهكذا ؟ .

* * *

(دمعة الباكى
على طيبغا
منصف الشاكى)

(.. سبحانك يامن أنزلت الكتاب المبين على نبينا أشرف المرسلين ، وقصصت عليه أخبار المتقدمين والمتأخرين ، نحمدك أن جعلتنا من أمته ، وحشرتنا فى زمزته ، وبك نستعين ، فقد شغلنى أمر هذا الرجل الغريب ، المعروف بين الحاضر والغائب بطيبغا ، فصرت أستقصى أحواله وأحاول أن أجلو أخباره حتى وقع بين يدى من مخلفات السلف هذه النبذ والشتات ، للفقير إلى ربه (ابن الحداد) والتى عنوانها (دمعة الباكى على طيبغا منصف الشاكى) . وقد فرحت بها فرحا عظيما لأنها تكشف بعض ما غمض وطواه الزمن قلت : فلأنسخها وأريها للأصحاب ، ربما نالنا بعض الثواب . والحمد لله رب العالمين . .

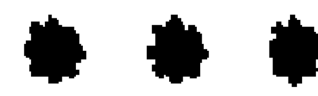


(أقول وكان هذا يجرى أمام عينى الآن ان الليل كان شنيعاً مهولا معتماً حتى النوم فارق العكسر ، صاروا يزعقون . الله أكبر ، الله أكبر ، أما الجليد فبالقطن المندوف أشبه ، وإلى ريم الصابون أقرب . ينزل من السماء ويطلع

متن الأرض فيكاد يغرق خيلنا وأحمالنا ، انقضى وقت طويل على حصار مولانا سلطان المسلمين لآخر قلاع الفرنجة فى بلاد الشام . صار كل منا يقول ، أما فك الحصار فالجند متعبون ، أو الاندفاع ، سرى الهمس بأن تباشير وباء بدأت ، ان لم نتداركه فسيرمينا لقمة هنية سائغة أمام الكفرة . قرب الصباح ، النهار قريب ، وارتجت الأرض رجاً عظيماً ، وأضاءت الوادى نيران النقوط التى سلطت على أسوار القلعة ، أخذنا ، لم نعرف ، أهجمنا أم هوجمنا ، صرنا نحن المشايخ نقرأ الأوراد والأذكار نطلب الرحمة من رب العالمين ، صهلت الخيول أجفلت الأرواح فى الأبدان ، سرى الخبر بيننا كالنار فى عيدان البوص ، اندفع صفوة من فرسان الاسلام إلى القلعة للمغازاة فى الفرنجة الكفار وانهاء الحصار ، قيل من أمامهم ؟ جاءنا الجواب ، الأمير طيبغا آق سنقر ، أول مرة اسمع فيها الاسم ، لم ينقض الكثير حتى تدافع العسكر من ثغرة كبيرة على داخل القلعة ، أقول وقد عاينت هذا بنفسى ، ان الجنود الذين نال منهم التعب وبدأ فيهم الوباء ، رأيتهم فى لحظة اندفاعهم ، أذكر هذا طوال عمرى فالسماء ساعتها محملة بغيوم ثقال لها عيون وآذان ، كل التعب ضاع وراح رفع الفرنجة الأعلام يطلبون الأمان ، دخل سلطاننا المدينة يعرج عرجا خفيفاً فاحدى ساقية أقصر من الأخرى . وخلفه حملة المصاحف ، يصيحون ، مكبرين مهللين ، غير أنه قبل جلوسه على حجر أو دخوله إلى مكان ، نادى من حوله ، أمرهم باحضار فارس الاسلام الأمير طيبغا آق سنقر من اينال .

عانق سلطاننا الأمير طيبغا وضمد بنفسه جروحاته ، أعلن المنادون أنه استقر به نائباً للسلطنة ، مختصا بالمظالم والأحكام ، لهجت الألسن بأن الناصر سوف يعقد لابنته على طيبغا ، لم يتم الزواج ، فلا أستطيع الجزم هل فكر سلطاننا بهذا أو لا ؟؟ كما أنى والحق أقول ، لست عليما بكل الأمور ولم يتبحر طيبغا معى فى حكايا النساء مرة . واحدة فقط كنت حديث معرفة به ، شاورنى فى شراء جارية سوداء يقال لها اتفاق العوادة ، ضحك وقال ، فلنجرب سماع جوارى السودان ، حاث أن بعض اللئام أشاعوا أنه رتب أمراً مع تاجر

الرقيسق الحبشي ليحضر له صغار الجوارى السودان ، قالوا انه يهوى ذلك ، أعود إلى ما كنا فيه ، فيقول ان بعض الأمراء أدراكهم الغضب وأولهم طشتمر جندار ، ذهبوا والسلطان قلاوون فى طريق العودة ، داروا فى الكلام ، تعجبوا ، كيف يأمر سلطان المسلمين باقرار طيبغا وهو ما زال غضا طرياً — كان صغير السن شابا فى هذا الزمان — نائبا للسلطنة ، يحكم فى المظالم الكبيرة ويكفل حقوق المؤمنين والأيتام ، أصغى اليهم . دار برأسه إليهم ، قال : أهذا كل ما عندكم ؟ قالوا والله نحن نخاف سلطاننا ، قال وعيناه فى الأرض لا تحيدان ، غوروا من وجهى ، لو كررتم هذا لقطعت أجسامكم وألقمتكم وحوش الأرض ، ارتجفوا تقهقروا . استدركوا فارطهم وأسرعوا إلى خط التبانة ، السكون فى الدار ، العبيد يقفون فى الزوايا والأركان ، حتى نائبا لها ، هز رأسه : ادعوا لنا حتى نشفى من جروحاتنا ، اطلبوا لنا الرحمة والمغفرة .



نزل الليل ناعما كزيت البلسان ، الصيف انكسرت حدته ، فى كل ليلة يتوجه أهل العلم وأصحاب المعرفة من التواريخ إلى بيت طيبغا القائم عند خط التبانة ، السكون فى الدار ، العبيد يقفون فى الزوايا والأركان ، حتى بعد استقراره نائبا للسلطنة بقى فى بيته ، أبى الطلوع إلى القلعة ، هنا نكون أقرب إلى خلق الله ، هكذا قال ، حمل الخدم فوارغ الصحون من بعد أن فرغ الحضور من العشاء . قال الشيخ سراج الدين أنه جهز من الألغاز ما يعجز الجلوس عنه ، تندر يلبغا اليحياوى أمير اخور وأعز أصحاب الأمير طيبغا . الكل سيحلون الألغاز عدا أنت ياشيخ سراج ، لوح الشيخ بيده ، أنشد :

وذات ذؤابة تنجز طولاً
تراها فى المجىء وفى الذهاب
وما لبست مدى الأيام ثوباً
وتكسو الناس أنواع الثياب

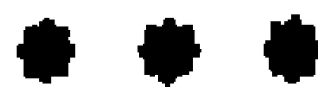
... تحداهم الشيخ أن يحلوا اللغز ، علت الأصوات ، كثرت

التفسيرات ، طيبغا هادىء ينظر إلى الجلوس ، وجهه مريح لكنه عبوس ، يفكر فى أمور بعيدة لا نعرف ما هى ، أخبرنى فيها بعد أنه يضيق بالكلام لو دار ولف ثم استكان ، تثقل الليالى فى نظرة ، يفارقه الأصحاب فيغرق فى الخيال ، ما أصل الحياة ؟ تمضى بنا إلى أى حال ، ضحك الشيخ سراج ، صاح أقول لكم ، هى الأبرة ، لم يكد يشرع فى الحديث حتى علا صوت صياح فى الخارج ، الزعيق أرجف مياه النافورة التى تنزل السكينة فى الجو ، قال يلبغا اليحياوى عجيب ، من يجرؤ على الصياح ؟ خرج طيبغا يلتحف بعباءة حرير شاهانى أصفر ، قال العبيد : لا تؤاخذونا مولانا لا شيء يعكر الهدوء ، خطا عبر الحديقة ، برز شاب يرتدى ملوطة ممزق الثياب جاحظ العينين من فزع ، انطرح قبل الأرض ، أعانه طيبغا ، أخذه ، شاب مليح حلو الصورة صوته مرتعش ، أنا خازن السروج ، رأيتنى كثيراً ، هز طيبغا رأسه ، أخذه العجب ، يراه كل يوم ، يضع سرجه فوق الحصان ولم يحفظ خلقته ، ربما لم يعن بالنظر اليه ، ربت على كتفه ، بكى الشاب ، لا تؤاخذونى يامشايخ ، اندفع شاكياً باكياً ، نادباً حظه ، منذ أسابيع تزوج بنت ناس رقيقى الحال ، لكنها ذات حسن وجمال وكمال ، ويشاء الحظ أن يلمحها فى سوق الشماعين ، الأمير جنكلى ابن البابا ناهز السبعين ، عرف عنه ميله الشديد إلى صغيرات السن ، ويقال انه لا حول له ولا قوة معهن ، بمجرد أن رآها ، طاش عقله ، ضاع صوابه ، قال هاتوا لى هذه ، لا أنام حتى تكون عندى ، قام رجاله وراءها ، زنقوها عند سوق الخيل ، الوقت غروب ، أحاطوها ، لفحوها ثم ولوا ، بكى خازن السروج ، امرأته يتيمة ، مسكينة ستموت لتوها ، يبحها ، يحبها والدنيا فيها الكثير من الحريم فلماذا امرأته من دون النساء ، قال الشيخ محب بن نباته ، وما تظنه سيفعله لك أميرنا طيبغا ؟

ثم أطرق طيبغا مقدار درجة ، ضاق برد الشيخ ، تعلقت عيون الباقين بوجهه ، إذا سخط على الشاب سخطوا عليه ، إذا يبدى الترفق تهونوا به ، طمأنوا أرواحهم أن الأمر سيعدى ، ليست الحادثة الأولى التى يأتيها ابن البابا ، وهو صاحب سطوة وهيبة ، يخافه الكثيرون ، مال الأمير يلبغا همس فى

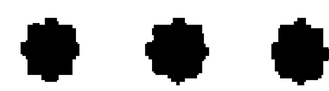
اذن طيبغا ، قال له مثل ذلك ، غير أن طيبغا قام فجأة ، نزع عباءته ، صاح على الشاب ، قم وجهز ركبي . التفت ، لا ينام هادئاً فى بيته وقد لجأ اليه صاحب مظلمة ، نزل الارتياع والخوف على الوجوه . الفاعل جنكلى ابن البابا ، قال الشيخ سراج ، تعرض نفسك لخصومته ياأمير ، ازداد طيبغا قبحاً فى هذه اللحظة مع أنه فى سبيل فعله الخير ، قال لن يرضى سلطاننا بمثل هذه المظالم ، قال يلبغا ، لكن حدث الكثير من ذلك ولسان حاله يقول ، لماذا تستفزك الحادثة بالذات ، لم يجب طيبغا ، خرج لساعته ، كنت مهموما عليه ، انصرفوا كلهم حتى يلبغا اليحياوى ربما انقلبت الأمور فيدهم طيبغا فى بيته عندئذ يؤخذون ، قلت والله لا أمضى حتى أعرف ما جرى ، وأوغل الليل فى العتمة ، عظم البرد ، خلت نفسى فى ليل شتاء عفى . .

وارتجت القاهرة رجاً شنيعاً ، رجفت الألسن بما جرى وكان ، صار العامة فى الأسواق والزعر وأسافل العياق ، وأوباش الناس الشلاق ، لا يلوكون الا ما جرى ، ترامى الأمر بسرعة كصغير الشرر لو دب فى القش العظيم ، فوهج وأشعله ، أقول وقد سمعت ما دار بأذنى ، ان الحديث واحد فى الحوارى والطرقات ، بين الحريم فى البيوت ، فوق الأسطح ، وكلما قابلت انساناً بادرك بسؤال ، هل دريت بما كان ؟ والحق معهم ، فلم يحدث فى سالف العصور والأزمان . أن أميراً أقل رتبة من أمير عالى الشأن ، يجبره على التراجع فى أمر أتاه ولم يعد فى حسبان ، وزاد الأمر هولا أن طيبغا وجنكلى مملوكان لسلطان واحد ، أثار هذا حفيظة أرباب الجاه قالوا فعلها طيبغا فرج علينا العوام ، لكن طيبغا ذاع أمره واشتهر ، وصار كل من عنده مظلمة يقول ، هيا نذهب إلى طيبغا ، فيسأل من هو ؟ فيقال هو من رد امرأة خازن السروج إلى زوجها بعد أن خطفها أمير كبير جنكلى بن البابا . .



حكى الشيخ جلال الدين الكندرى فى تاريخه المعروف (الطريق الآمن إلى حقيقة أهل القرن الثامن) قال لما شاع أمر طيبغا قلت لم يمر على شخص كهذا ، والله لأذهبن إليه ، أراه وأحادثه بنفسى وجدته متواضع الثياب ، بيته

قليل الرياش ، رأيته قبيح الوجه غليظ الشفه ألدغ اللسان ، بطىء الكلام غير أنى قلت ليس هذا ذا شأن قلت كيف تنقذ امرأة واحد من العوام وتعادى جنكلى وهو من عشيرتك وأبناء جنسك ؟ قال بلسان بطىء . تحرق قلبى المظالم ، السماع بها أو رؤيتها ، تمهل وتابع ، وقديماً مشيت فى الركاب خطفنا العمائم من فوق رؤوس الناس أوقع أصحابى شيوخ كبار كنا صغار غير أنى كنت أرثى لحال القوم الذين يطل من عيونهم السؤال شكوت ليبلغا صاحبى حالى ، لكنه قال ما الذى تطلبه من الدنيا وأنت فى أحسن حال ، عندك ما تشتهى من جوارى الروم والسودان هل ستحمل الدنيا على رأسك وتمشى تصرخ بها ؟ للكون رب يدبره ، فى ليل آخر سألت يلبغا كيف مات ألف ألف انسان فى الوباء الأعظم كثيرين ، قال يلبغا ماتوا شهداء قلت وما الفرق أن يموت ابن آدم شهيداً أو غير شهيد قال يلغيا ، أنت تحيرنى ياأمير ، لم أطل معه . سكت ، لكن قل لى ياشيخ جلال الدين وأنت رجل مطلع ، كيف تنام وكل يوم يقع من المظالم ما تنكسر منه الجبال ؟ أطرقت . حرت فى جوابه ، نشفت عليه الكلام ، هل ستعدل الدنيا ياأمير طيبغا ؟ رددت مخطوفة إلى زوجها فقلبت الكون وألبت الأمراء وهيجت الخواطر وأحقدت النفوس فما بالك لو شرعت فى نفى المظالم ؟ صاح طيبغا : والله لا أسمع بمظلمة إلا وأبذل دمى فى سبيل رفعها عن صاحبها والله لا أرد عن بابى صاحب سؤال . أقول الحقيقة ، أننى قمت من أمامه وعندى رهبة زائدة وحيرة مما يسمعه لى ، غير أن الأيام جاءت بالغريب .



ضرب الأمراء مشورة اتفقوا على طلوع طشتمر الجندار وسنقر الخازندار ، إلى السلطان كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ، ركبوا خيلهم ، النهارفى أوله ، قبلا الأرض بين يدى السلطان أخبر طشتمر والدمع يجرى من عينيه الأحوال فسدت والأمور اضطربت ما عاد للسادة حرمة فى الديار ، احمر وجه كجك ، كان صغير السن ، لم يمض عليه منذ اعتلائه السلطنة غير أيام ، ما الخبر؟ انخفض صوت طشتمر ، نائب السلطنة يامولاى أتى جرماً عظيماً وفعلا مهولا ، منع هدم ربع قديم ، كان لابد من إزالته ليتمكن الأمير اقباى

من بناء جامعة ، ولما رافعه اقباى فى ذلك ، قال طيبغا أن البيت به سبعمائة نفس ، أين يروحون ؟ تصور يامولاى ، يحول دون قيام بيوت الله ، الأدهى من ذلك ينصف العامة على اقباى ، ضاعت هيبتنا بسببه ، سهم السلطان ثم قال ، شوفوا ياأمراء لا أبت حتى أشاور أهل الرأى ، صاحا ومن هم أهل الرأى ، مولاى ألسنا رجالك ؟ قال كجك بصوت خفيض أوصانا والدنا بطيبغا ثم أنى لا أرى فيما أتاه ذنباً شنيعا ، ياأمراء . تذكروا أنه أول من رمى نفسه وغازى فى آخر قلاع الكفار ، قالا وهما جزعان : وبيت الله ياسلطان المسلمين ياحامى الدارين ! قال كجك امنحه أرضاً خلاء من اقطاعى فى الريدانية . .

هيا إلى العشاء . قام ، فى هذه الأيام ازدادت قامته طولا ، عظمت مهابته لم يسمع انسان فى بر مصر يذكره مقروناً بقبحه ، أو عدم ملاحته ، قام إلى فناء الدار رجال الصوفية من أتباع البطل المجاهد سيدى أحمد البدوى واتباع القطب سيدى الدسوقى وسيدى الرفاعى ، عليهم جميعاً أفضل السلام ، احشرنا يارب فى ركابهم ، وعزز بأمثالهم الإسلام ، العشاء أباحة طيبغا لكل ذى حاجة . أقول أن مطبخ الدار يذبح كل يوم مائة رأس غنم وثلاثمائة طير ، غير الفاكهة والنقل والمشموم ، يفتح المطبخ فى اليوم مرتين ، ساعة الغداء يدخل الفقراء والأيتام فإذا ما فرغ الواحد منهم قام فيجىء غيره فى العصر ينفض الغداء ، غالباً لا يحضر طيبغا يكون مشغولا بالطواف فى الحوارى والأسواق يسمع أرباب الشكاوى والحاجات ، يفض المنازعات ، أما العشاء فيتصدر فيه المائدة ، ينظر ضيوفه ، يعرف واحداً أو اثنين ، الكل وجوه غريبة ، لكنهم ينظرون إليه ، عيونهم ترميه ، تغرقه بنظرات حب وحنان كأنهم يعرفونه من قبل ولادته ، من سالف الزمان ، كنت أواظب على المجىء أما الشيخ سراج وغيره فاحتجبوا عنه وصاحبه يلبغا ، بل سمعت من يقول ، يلبغا يرمى صاحبه بالجنون سبحانك مغير النفوس والعقول إذ أن طيبغا عن ذلك أبعد ما يكون . مال علىّ وقال : دعوت طشتمر الجندار ، وقفت اللقمة فى حلقى . . كيف ؟ لا يمر يوم إلا ويطلع القلعة ، يحط فيك عند السلطان ،

سيظن الأمر مكيدة لمكسه ، قال طيبغا : وغيره كثيرون ليس بينى وبينه ما يستحق هذا ، طشتمر لم أجالسه فى حياتى لا أذكر شكله ، قلت لكنه يعرف كل كبيرة وصغيرة ياأمير ، ضحك طيبغا ويضيف أكثر مما يعرف قل أنت ما الذى بينى وبينه ؟ أطرقت : والله لا أعرف ، كلامك ياطيبغا بسيط ، لكنه معجز عن الجواب واعر ، دعاء الجلوس فى أذنى ، قلت ربما حب العامة لك أفسد عليهم حالهم ، سألنى كيف ؟ قلت الناس كلها تلهج الآن بذكرك ، يقولون لو كلهم على مثال طيبغا لصار الحال ولا فى الخيال ، تراجع وبدا حشيماً مهيباً ، عليه حرمة زائدة ، لا أفعل إلا ما يرضى ربى ، قلت وعندى تلجلج لسان ، إذا كانوا يطلعون القلعة ويدسون عليك ويحطون فى حقك الفارغ والملآن اطلع أنت مرة واحدة إلى كجك ولا تقل أكثر من الحقيقة ، قال بإيجاز ، لم يطلبنى ، كدت أواصل الكلام ، سكت ، لم أحر جواباً ، الليل يوغل ناعماً وطشتمر لم يصل ، ربما قال ، يهيننى طيبغا بدعوتى للاكل مع العوام ، تزايد صوت الصوفية حتى بدا كغيم الحمام فى وجه السماء ساعة الغروب ، تربع طيبغا أغمض الجفنين بشجن يقطر من وجهه ، اصغى إلى العجوز الذى يتلو الأوراد ضارباً عصاه الحديد بقطعة صغيرة ، يخرج أحلى الأنغام ، الدنيا مركب بلا ريان ، بحار بلا شطآن ، المسافرون فيها عميان ، نزلوا القيعان كشفوا وكان ، سيدنا حبيب الندمان ، آه ياحسين ، عليك أفضل الصلاة والسلام . جرى الدمع من عيون الرجال أحسست بقلب طيبغا مضيعاً فى أصعب حال ، ياشهيد ياحبيبى ، يامن افتدتك أم الغلام ، ابنك مذبوح فى حجرك وأنت لم ندمان . تطلعت حولى ، الجدران عليها مهابة ، ماء الورد فى الأركان والحجارة لها عطر سلسبيل والله فى الدماء رائحة البلسان ، أود لو تعرف ما يقولون عنك ياأمير ، كان ساهماً ، يصغى بلحمه بعظمه ، بحسه ، بنفسه ولو رآه الغريب لظن أنه فى أبعد واد . حرت فيما يفكر فيه ، آه لو أنفذ إلى عقله فأعرف ، أقول الحقيقة ، الحيرة تأخذنى أمامه ، شق جوف الليل صوت زغاريد تلعلط من بعيد ، ملت عليه ، طشتمر لم يكلف نفسه ارسال من ينوب عنه . سكت ، سكت ، قلت إنها إهانة ، نظر إلى ، وكان الليل يدرك منا النخاع ، سامحك الله ياابن الحداد ..

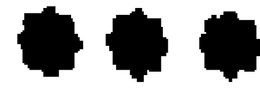
ركب قاضى الحنابلة فحلا قوياً وقصد بيت قاضى القضاة ، ترجل ودخل القاعة الكبرى ، حيث جلس قاضى الحنفية ، وقاضى الشافعية ، وقاضى المالكية ، يتصدر المجلس الشيخ عبد البر قاضى القضاة ، سلموا وتناقشوا فى أمور شتى حتى أثار قاضى الحنابلة حقيقة ما جاؤوا من أجله ، منذ شهور مضت قل نصيب كل منهم من القضايا والشكاوى ، صار القاضى يجلس فى شرفته ليأمر وينهى ، فلا يجد من يجيئه ويشكو إليه ، سرقة أو خطف ، أو حتى قتل ،

فيقوم الواحد آخر النهار كيسه خال من أى درهم رنان كان يجيىء من رسوم المنازعات ولما استقصوا فى الأمر ، وجدوا شيئاً فظيعاً ، الأمير طيبغا نائب السلطنة بدأ ينزل بنفسه إلى الحوارى والطرقات يطلع الربوع ويدخل الخانات يسأل أرباب الحاجات وحدث عنه الكثيرون أنه أوتى من القدرة بحيث ينهى أشد الأمور تعقيداً فى ثوان ، حتى لهجت ألسنة الناس بالسب فى حق القضاة ،

قال قاضى الحنفية ، أنه سمع قائل يتهم قاضى المالكية بقبول البرطيل من الأموال فيغلب الظالم على المظلوم . صاح قاضى المالكية : أنه ترامى إليه من يتهم قاضى الحنفية بأن عينه حافت فى امرأة شكت زوجها عنده ، علت الأصوات ،اشتد الزعيق ، بان الغضب فوق الجباه ، نزع قاضى الحنابله جبته ، لا أكون قاضياً بعد اليوم ، ايش دخل طيبغا فى حوائج الناس؟ رد عليه قاضى المالكية ، لابد أن غرضه عظيم ، لم يسمع بمثل هذا فى قديم الزمان ، طيبغا يخفى غرضاً لئيما هو تقويض دعائم الإسلام ، قالوا فى نفس واحد ، نقيم عليه الحجة والبينة أنه جدف فى حق مولانا رسول الأنام ، يجبر السلطان على الأمر برجمه . أطرق قاضى القضاة سيكون أمراً مكشوفاً مفضوحاً ، خاصة واللعين ، لا يفوته فرض ، يجمع حوله الدراويش ،

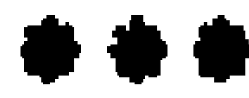
سألوا ، ما العمل إذن والحال منقلب ، نخبره أن ما يفعله هذا يرمى إلى كسب العامة والأوباش ! عندئذ يسهل له الركوب على مولانا . هل شفتم أخبث منه ، يدعى الزهد ويعلن رجاله فى كل مكان ، طيبغا لى يبقى على مظلمة ويقتص للظالم من المظلوم ، حتى إذا استطال أمره وعلا نجمه أظهر ما عنده ، فأنهى الملك ، بالذمة يامشايخ ، هل سمعتم فى تاريخ دولة الترك بديار مصر

عن أمير يأخذ على عاتقه فض المظالم ، يفتح بيته لأولاد الحرام ، يأكلون فيه ويشربون ، قالوا والله ما سمعنا بمثل هذا ، صاح شيخ الحنابلة ، أنه لوطى فاسق ، همس قاضي القضاة ، تمسح وجهه ابتسامة لها رائحة العنبر ، ليس وقته ياشيخ أحمد .. ليس وقته ..



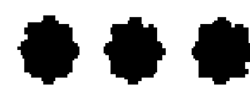
لم يكد يبدأ المؤذن فى الآذان حتى علت ضجة وكبكبة من ناحية جامع الحسين . ويذكر عباد الله يومئذ ان الكل قالوا طيبغا مقبل طيبغا قادم من ناحية ام الغلام ، سرى فى الجمع كالماء فى أرض الشراقى ، طيبغا وصل ، مالت الرؤوس اصغت الآذان كأن الانفس فى الصدور موج علا وهاج بذكر اسمه وفى صحن الجامع كانت الشمس تسطع والضوء فى الفراغ يلمع ، دارت العيون ترمق الرجل الذى انتشر اسمه فى سائر جهات مصر ، حتى ان الكثير من الناس ، توافدوا إليه يشكون حالهم ، وكثيراً ما يجيئه فلاحون ، يقول الواحد منهم ، ياأمير اخذوا أرضى وشالوا عنى حملى ومالى ، ولا أجد القوت ، فيرسل معه من رجاله ما يرد له أرضه ، زعم الامراء ان طيبغا كان يهب كل من شرق وغرب ، يستجيب للناس مهما قالوا له حتى اختلت الاحوال لكنى أقول وأنا واثق ان طيبغا لم يفصل فى أمر الا بعد تأكده وتحققه منه ، ما علينا ، اقول ان اليوم جمعة ، وطيبغا يرتدى الخشن من الثياب ، حوله رجال ، خليط فقراء وعامة جهلاء . ثلاثة أو أربعة من كبار الاغنياء — لزموه ولم يفارقوه ، كان طول النهار يجول الطرقات ، وشاب احدب له طلوع فى ظهره وصدره يصيح امامه ، والعجيب ان صوته قوى جهورى حتى تخاله يطلع من غير جسمه .. من له مظلمة فليعرضها على نائب السلطنة طيبغا ، يتقدم الناس منه ، منذ يومين مشى فى شارع الصليبة ، قام بنفسه بتسعير الاجبان والبيض ، والخضار والسنبوسك ، وقد أثار هذا المحتسب قال فى رجاله وانا باعمل أيش ؟ لكنه لم يجرؤ على النزول ورفع السعر من بعد خفضه ، ولو فعل لأكله الناس ، وهذا من مآثر طيبغا فقد كان المحتسب ظالماً غشوماً ، يفرض الاسعار والمكوس على

ـواه لعنه الله وازال غمه عن أمة الاسلام ، لم يكد القاضي عبد البر يسلم يتتهى الصلاة حتى التف القوم حول طيبغا يبتسمون له يبادلهم الكلام كأنه احد من العوام ، والله كنت اعيب عليه هذا — قلت ياامير انت كبير المقام تعامل معهم باحتشام ، غير انه تترفق وقال : كلنا اولاد لحواء وابناء لآدام ، ثم هؤلاء العوام عفيفو اللسان ، ولو عرفهم الواحد منا لما قيل عنهم ما قيل ، وتصادف فى هذه اللحظة ، ان خرج من الجامع ثلاثة امراء كانوا يصلون بجوار القاضي عبد البر أول الصفوف ، أقول الحقيقة كانت لهم هيبة يلبس كل منهم الكلفتة والعباءة المزركشة كانوا فى غاية الأبهة الأمير طشتمر الجندار — وسنسقر الخازندار ، ويلبغا وكان قد انقلب على طيبغا وتباعد عنه تهامسوا وتساءل طشتمر بأنفة زائلة عن الزحام وتصادف فى اللحظة أن واحداً من شلاق الناس صاح : أنظرؤو الفرق بين الصالحين وبين ظلمة الاسلام ، لفت القول أعناق الناس ، سمعت من يقول أليس هذا (يقصد طيبغا) من جنس هؤلاء ؟ قال آخر : أليس هذا (يقصد طيبغا) أعلى مقاماً من هؤلاء ؟ اكفهرت وجوه الأمراء من الغضب ، صار الناس يرمونهم بجهار النظرات ، تراهنوا فيما بينهم عما سيفعله طيبغا ؟ ثمة قائل أنه سيتقدم منهم ويسلم عليهم ، وآخر يزعم أنه سيدنو منهم ويقطع هدومهم ويمرمغهم فى الوحل ، بهدوء تكلم طيبغا مع الخلق ، الأمراء منه على مسيرة أقدام ، لم يرم إليهم حتى بسلام ولا بدا عليه أنه لحظهم ولا سمع الناس وهم يلوحون لهم ، ويجهرون لهم بالكلام الفاحش المنكى .



.. (هات ما عندك) أطرق طشتمر ، همس بصوت خفيض : الأمير طيبغا يامولاى ! زعق السلطان : قلت لكم طيبغا أوصانا أبونا عليه وله عندنا حرمة فما أريد سماع الكلام فيه ، الليل ناعم ، الدفء فى العرزق والأوصال ، لين الحشايا يتسرب الى الدم والمفاصل ، همس طشتمر ، صوته يزداد انكساراً . أصغى الامراء كافة : اعرف يامولاى . لكن نمى إلى حدث

جلل .. زم سلطاننا شفتيه ، قال طشتمر ، دأب طيبغا مدعى الزهد والصلاح على السهر فى بيته يقارع أولاد الحرام كؤوس الخمر وفى ليل أمس طار دماغه حتى أنه زقف فى صحن داره وهو يصيح .. لا تؤاخذنى مولاى .. خيم الصمت المهول على القاعة ، ارتجف النبيذ فى الدنان . راح السكر من العقول . زعق السلطان : قل ما عندك ! قال طشتمر والأسى العظيم فى صوته : وقف يامولاى ونادى بأعلى صوته هاتو لى قطقط .. هاتولى قطقط .. أنا عايز قطقط . طق شرار الغضب من عينى السلطان كجك رمى الدورق فى الأرض ضرب جدار الرخام ، طلب من طشتمر الكف عن الكلام .. » .



لما شاع أمر مخطوطة « ابن الحداد » وانتشرت بين العوام والفقهاء والمشايخ ومساتير الناس قام الشيخ الجليل والعالم اللوذعى الفضيل أحمد بن عبد المقصود الهندى بتأليف فصل فى الرد على ابن الحداد ، ولد فضيلته عام ١٠١٦ ه ولا زال يدرس الفقه فى الأزهر الشريف ..

« إفحام أهل العناد بالرد على ابن الحداد »

أقول ولا أبتغى غير وجه الحقيقة ، وانقاذ الصدق التائه فى الليالى الغميقة ، انه ما من موضوع طرقنى ، وأخذ من الكد والجهد بقدر موضوع ذاك اللعين الدجال الامير طيبغا آق سنقر من اينال فقد سمعت ما يتناقله عنه الجهال منذ ما يزيد عن مائتين من الأعوام ودفعنى هذا إلى استجلاء الأمر فتبين لى أنهم يحكون عنه الكثير بلا أصل ولا سند ، من ذلك قولهم ان السلطان كجك دس له السم البطىء حتى قتله . وسبب هذا علمه أن طيبغا صاح فى أحد مجالسه هاتولى قطقط وقطقط هذه محظية السلطان السودانية ولا بد أن هذا صحيح ، فابن الحداد نفسه يذكر أول كلامه عشق طيبغا للجوارى السودان . أقول واستغفرك ربى انه بعد اطلاعى على مصادر كثيرة ومؤلفات عديدة ان طيبغا لم يكن يهوى الجوارى السودان — بل كان يهيم ويعشق الغلمان

السودان ، كان فاسقاً لعيناً لا يستقيم له حال ، فكيف يتأتى له كل ما يقال من معجزات لا يصدقها عاقل ولا حتى فى خيال . أقول هل عجز السلطان عن قتله أو شنقه حتى يدس له السم البطىء ؟ يقول ابن الحداد ان كجك خاف هياج العامة وانهم صاروا بعد موت طيبغا يلعنون كجك واذا ما سمعوا بركبه متجهاً الى مكان أقبلوا عليه كالجراد المنتشر ، يسمعونه فاحش الألفاظ ، ويتكون عليه فى الكلام ، حتى انهم فى مرة كادوا يقتلونه مما أغضب السلطان وأمر بالقبض فيهم على ألف انسان وذبحهم تحت الليل ، هكذا أفسد طيبغا الرعية على مولاها وسبحان من له الدوام ، ثم كيف يقتله السلطان وهو أول من مشى فى جنازته ، ولا أجدنى هنا غير ساخر من حكايات ابن الحداد التى صاغها عن أيام الوفاة ، لخبث طيبغا أطال الله مدة احتضاره فبلغت أربعين يوماً كاملاً ، وهذا لم يحدث لمؤمن حتى فى غابر أو حاضر الأزمان . يزعم ابن الحداد أن العامة غصت بهم الدار ، وفد الفلاحون من الأرياف جماعات جماعات ، ينذرون النذور للسيدة زنيب ، يتشفعون عند سيدى زين العابدين ، وسافرت جماعات منهم إلى سيدى المجاهد أحمد البدوى ، يسألونه أن يشفى طيبغا ، قال ابن الحداد ، أوصى طيبغا بتوزيع اقطاعاته كلها على فقراء الفلاحين العوام بعد موته ، حتى بساتينه ، نخيله ، ما يقع فى زمامة من طرح النهر ، أقول كيف يطلب الفلاحون له الشفاء واطالة العمر ، وهم ينتظرون موته ليأخذوا أرضه ، أليس هذا من تخليط ابن الحاد ؟ ثم يطلع علينا هذا الفقيه المجنون المأجور ، برواية غريبة عن يوم الوفاة ، اذ يقول فى الليلة التى طال احتضاره فيها ، ونفث الدم من فمه خيوطاً ، قام واحد من دراويش الصوفية ، صاح فى الناس أنه أغفى هنيهة ، اذ به يرى فى المنام شيخاً مهيباً ، جلبابه أبيض ، ذقنه عظيمة ، يشك فى أنه الخضر عليه السلام ، قال اذا كنتم تريدون لطيبغا الشفاء ، اقرأوا صحيح البخارى ثلاثة آلاف مرة ، وسورة يس أربعة آلاف مرة ، بصوت عال ، قال الدرويش هذا ، بسرعة تضامن العوام أحضروا الفقهاء ، بدأوا يقرأون فى صحن الدار ، يقول ابن الحداد ، ان العوام رددوا وراء الفقهاء ما يقرأوان ، حتى ارتجت السماء رجاً مهولاً ، ارتعشت المدينة من الفزع والرهبة ، الطرقات أقفرت خيم عليها رجفة ، حتى

أن القلوب غاصت فى الصدور ، وكادت أن ترمى كل ذات حمل حملها . يزعم ابن الحداد أن كل واحد من الناس ، تمنى لو أعطى طيبغا من حياته لكن قبل طلوع النهار ، قبل انتهاء الفقراء من التلاوة ، شهق طيبغا شهقة مريعة ، انخلعت لها قلوب الخلق ، طق فى رأسه فرخ جمر ، انحبس نفسه ، وانكتم حسه ، قيل أن السماء اسودت سواداً حالكاً ، ساعتها ودوت الفرقعة من بعيد ، حتى ظن الحضور أن الدنيا عمت عليها القارعة ، وحانت النازلة ، وصرخت النساء وقمن ينعين طيبغا بالطارات أقول ان طيبغا هذا لو كان صالحاً فعلاً ، لو كان عارفاً بالاصول ، وراعياً للناس ، لكان شفى ببركة قراءة صحيح البخارى ، وتلاوة سورة يسن المباركة ، وبفضل طلوع سيدنا الخضر عليه السلام فى المنام ، يزعم ابن الحداد أن الحلوانية صنعوا تماثيل لطيبغا من السكر ، علقوها فى البيوت والخانات ، ولا زال الجهال يشترونها ، وأن العامة بعد موت طيبغا لو حاقت بواحد منهم مظلمة صاح والله انى ذاهب الى قبر طيبغا أشكو له الحال ، ولو كان بعيداً لارسل له الرقاع ، وهذا عين الجهل ، مما يؤكد ما ذكرناه من الاحوال . .

اتحاف الزمان
بحكاية
جلبى السلطان

يا من تعطى ولا تمنع

***

العبد فى دنياه بسعده ،
لا بابيه ، ولا بجده ، ولا بأصله

***

فى الناس من تسعده الأقدار ،
وفعله جميعه أدبار

***

ان رزقت آثرت ،
وان منعت صبرت ،

***

مــن شــك فى رزقــه ،
شــك فى خــالــقــه ،

***

لــو أن الــعــقــول تــســوق رزقــاً ،
لــكــان المــال عــنــد ذوى الــعــقــول

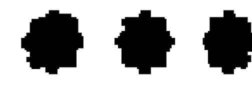
***

ســبــحــانــك يــا مــن تــعــطى ،
ســبــحــانــك يــا مــن تــأخــذ ..

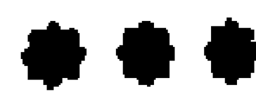
***

كان الغلام عبد الرازق يجلس أمام دكانى ، كان يتيم الأب ، بل ان واحداً من أهل الخط لا يعرف ولا يذكر له أباً ، أما أمه فامرأة ضائعة تسوس الخيل ، تتشاجر دائماً مع النساء بسبب وبدون سبب ، غير أن عبد الرازق كان صغير السن ، هادىء الطبع ، يحبه الزبائن لرقه خلقه ، وخفة يده ، ومهارته ، ولم أسمعه فى حياتى يزعق لانسان ، وحببنى هذا فيه فسمحت له بالجلوس أمام دكانى .. وإذا ما طفش المماليك فى السوق كنت آويه فى زمامى ، وقد توافدت عليه خدام القلعة ، والبيوت الكبيرة .. بل ان محمد المهتار يرسل فى طلبه فيروح عنده يحلق له ، حتى جاء يوم علت شمسه ، وكثر حره ، وتعاظم غباره ، فكأنه غضب من الله رب العالمين ، على عباده الظالمين . بدا المهتار فى أول الطريق ، راكباً بغلته ، فصار الخلق يتساءلون عن وجهته ، وحقيقة مقصده ، وعندما حط ركبه أمام دكانى .. انخلع قلبى ، وأرسل جيرانى التجار يطلبون حامى الحسينية ليدفع عنا ما قد يقع علينا ، فى هذا اليوم لم يحلق عبد الرازق إلا لرجل أو اثنين مما جعل رأسه يغفو ويقع على صدره ، وعندما رأينا المهتار يشير اليه ، ترحمنا عليه ، ورحنا نخمن ما سيجرى له ، أمره المهتار بلم عدته ، هنا انكرش نفس الغلام ولم يعد يدرى يمينه من

شماله ، فكأنه والعياذ بالله قد أدرك يوم القيامة من دوننا ، ولم نستطع أن نهون عليه ، ولم يحس بنا . . ولا بأهل حارته وهم يسعون وراءه يترحمون عليه ، ويأسفون على شبابه . . أما شيخ الحرفة فأخبرنى فى وقار . . أنه لو عاش لبقى له مستقبل عظيم . . ولصار مزيناً صاحب محل ، يجلس عنده الزبائن ، ويضع على صدورهم الفوط المنقوشة ، وقد جاءت أمه مسرعة ، حولها ينحن ويصرخن . . ولما زادت عن الحد ، خرجت وأمرتها بالنهى عن هذا . .

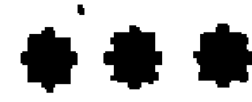


أما سبب ذلك ، فانه كان لمولانا الاشرف أبو النصر قانصوه الغورى أعز الله به الاسلام ، آمين ، لحية تحيط وجهه بمهابة يرتاع لها أصحاب القلوب الجامدة ، وقد قام على حلاقتها جلبى خاص عرف باسم علم الدين ، وكان الجلبى ذا هيبة وسطوة ، اذ ينزل من القلعة تمشى بين يديه الغلمان ، يركب بغلة عالية ، فوق كتفه فوطة حرير كشمير ، وهذا شرف لا يناله الانسان كأى شىء كان فى ذاك الأوان ، غير أن الدنيا غرور لا تستقر على حال ، فقد حدث أن أشار الأمير شاربك الأعور إلى لحية مولانا ، قال انها لم تعد تبدو كما يجب ، فانزعج مولانا انزعاجاً شنيعاً ، وصار يتأملها ، وبيده يتحسسها ، وبأصابعه يتخللها ، وسرعان ما ركبه الهم ، وتدفق إلى رأسه خلف عينيه الدم ، ففض مجلسه ، وقام إلى غرفته وأرسل فى طلب علم الدين ، فأحضروه مشكوكاً فى الحديد وصاح فيه ، تفعل ما فعلت بلحيتى ؟ ! وبعد أن بهدلوه آخر بهدلة أمر مولانا فقطعت رأسه . . غير أن الأيام توالت ، ولحية السلطان تعظم ولا تجد من يهذبها ، وعرضوا عليه عدة حلاقين ، فلم يعجبه أحد ، حتى دخل عليه محمد المهتار ، وقال انه يعرف جلبى صغير ، فقير ، ناحية الحسينية . . يدعى عبد الرازق ، لكنه يحلق مليحاً ، فقال مولانا : لا ممانع . . أحضره لنا حتى نجربه . .



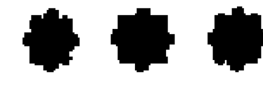
انقض علىَّ الخدم ، فغسلونى ، وهرشونى باللوف العظيم ، أبدوا تقززاً وقرفاً ، غير أنى لم أبال ، فقد كنت مشغولاً بما جرى لى ، وما قاله محمد المهتار

ونحن فى الطريق ، السعد والجاه بين يديك ، وطلوع نجمك أو انخسافه أمام عينيك ، والمطلوب منى بسيط ويسير . وهو أن أتقن الحلاقة الأولى اتقاناً عظيماً ، عندئذ من يدرى ، ربما أعطانى مائة دينار ، أو . . أو . . مائتين . . طلعت الى قاعة صغيرة ، رخامها يسطع وستائرها تلمع ، فى الأركان الأربعة يقف حراس يحملقون الى ، رحت ، ثم جئت ، ثم نظرت من الطاقة الضيقة ، وجف قلبى ، الفراغ فسيح لا أول له لا آخر ، وتحت كانت البيوت والمآذن ، والغبار ، والصيف عامل عمله ، البلدة كلها ملقاة تحت ، والغريب أننى شغلت نفسى ، محاولاً أن أحدد فى أى المواقع أسكن . . ؟ وكيف تبدو القلعة كرسى السلطنة ، عندما أنظر اليها من بين الحوارى ، سمعت صوتاً ينادينى ، التفت فاذا به محمد المهتار ، قال تجهز .



غير أن رئيس ديوان الخلع والهدايا أخذته حسرة نفذت إلى مرارته فى اليوم التالى ، فقد جاءه الأمر الشريف بصرف كل ما يلزم عبد الرازق ليملأ وظيفة الجلبى ، إلى جانب الخلع عليه بفروة سمور . . وفوطة حرير كشمير . وبالفعل . . فقد صرف له رئيس الديوان بغلاً عالياً ، عليه كنبوش لونه أصفر ، تتدلى منه شراريب ، وأيضاً وسائد ، وحشايا ، وستائر ، ودواة ، وعشرون ذراع حرير شاهانى لا يوجد مثيله ، وصار رئيس الديوان يقلب يديه من الدهشة ، وكأن عبد الرازق أدرك ما يجول فى خاطره فابتسم ابتسامة هادئة حيرت الرجل وأسكتته ، وجعلته يناجى نفسه ، فمن بعد الحلاقة للعوام والجعيدية والعبيد وأوباش الخلق ، وامتلاء حجره بالقمل ، يصير جلبياً للسلطان ؟ وهكذا ينال ما لم ينله الرجل طوال عمره ، وعندما أخبره عبد الرازق أنه مسافر مع السلطان إلى الفيوم . . تعاظمت حسرته ، فبعد عشرين سنة من خدمة السلاطين لم ينله شرف كهذا ، أما عبد الرازق فها هو يمضى مع الحاشية ، وربما سئم مولانا فدعاه إلى مسامرته ، وربما أعجبه فيصير من خاصته ، عندئذ يلجأ اليه ، ويقف عند بابه ليقضى له حاجة ، ويكون فى نظره انساناً محقراً ضائعاً لا قيمة له ، من بعد أن كان لا يجرؤ لعبد الرازق الحلم فى

أن يحلق له ، برقت عيناه وهو يرتدى الخلعة الفرو السمور ، وكاد الرجل أن يصيح غيظاً لما أبداه عبد الرازق من هدوء وكأنه تعود على هذا ، غير أن رئيس الديوان هنأه فى صوت خفيض .



عندما تمهل الركب أمام متجر العطار . . بدا ما مر من أيام بعيداً قاصياً ، بل أننى — ساءلت نفسى . هل نوديت يوماً بالغلام عبد الرازق ، وهل هذا الرصيف أكل حتتاً من لحمى طوال جلوسى فوقه ، وهل حقاً مر بى يوم فرحت فيه فرحاً مهولاً لأن واحداً من خدام القلعة حلق عندى ، وإذا جاءنى تاجر صبغة ، أو عطار ، أو حمال ، أكرر عليه بسبب أو من غير سبب أن خادماً من خدام القلعة حلق عندى قبله . . راح زمن من عمرى فى هذا . . وعندما تحرك الركب مرة ثانية ، ارتفعت الأصوات بالدعاء ، أهل الشارع لم يعرفونى ، فعمامتى عالية . . وخلعة مولاى الحمراء تبرق على كتفى ، من أين لهم أن يعرفونى ، وفجأة ارتعبت ، افق ياعبد الرازق ياجلبى ، ربما أنت فى حلم ، لكن استغفرك ربى ، هل جرؤت يوماً على الحلم بمثل هذا ، فى السكة إلى الفيوم ، كانت محفة السلطان تحط كثيراً ، أجلس بجوار رجاله ، الأمير الداودار الكبير ، بينى وبينه مقدار ذراع واحدة ، التزمت الصمت حتى لا أتفوه بلفظ قد يقع من قلوبهم موقعاً غير حسن ، خاصة كلهم يعرفون أصلى ، بل انى حافظت على سكناتى وحركاتى تمنيت لو أن لى عينين أرى بهما نفسى من الخارج أرقب أفعالى وهل هى لائقة ، بل أخرجت أنفاسى حذراً لئلا تزعجهم ، تطلعت إلى أرباب المملكة وحملة السيف ، وفرسان الإسلام ، أحاول التعرف عليهم ، يقول مولانا مخاطباً هذا العجوز الأعور ، ياشاربك ، أعرف أن هذا هو من يلقى الرعب فى قلوب العامة ، ولو ذكر اسمه لسقطت الحامل اذ تسمعه . عندما يبدو موكبه ويسمع الناس أنه أزمع الركوب والنزول من القلعة ليشق من المدينة ، يغلقون دكاكينهم ، يلمون حاجاتهم ، فهو قاس لا يرحم ، لو رأى من يحتكر بيع الخيار الشنبر اذ وجدته رقيقا فى نفسه ، يتكلم

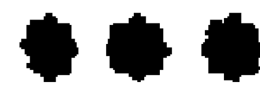
أمام سيدنا ومولانا بتواضع إن لم يكن مسكنة ومذلة ، حرت فى أمره ، حتى كدت أقول أنه ما نسمع عنه ، هل يتصور العامة ان شاربك او شربة الأعور كما يسمونه يركع لمخلوق ، سخرت منهم ولعنتهم فى نفسى ، من يدرى ، ربما كان هذا الشيخ الرمال — ضارب الرمل — والجالس بجوارى يقرأ فكرى ويطلع على سرى ، عندئذ يعرف أننى ألعن السوقة لأنهم قالوا ما قالوه عن واحد من رجال مولانا . تعرفت أيضاً إلى الأمير ططق باى ، وقاضى القضاة ، وهو شيخ مهيب ، ذقنه عظيمة يفوح منها المسك والعنبر ، والله أهالى الناحية بلهاء مجانين ، قاتل الله الضعة ، يتقولون على الصالحين . . شهور كاملة ظلوا يرددون فيها أنه برطل على السلطان برطيلاً مهولاً يقدر بعشرات الألوف من الدنانير حتى يعينه قاضياً للقضاة ، اعتدلت فى جلستى ، وكلما مضى الزمن رأيت فيهم أناساً لطافاً خفافاً يتحدثون مثلى . . بل يمزحون ، يسخرون ، ويتناغشون . أوغل الليل والهواء لا يهش ولا ينش ، ولا حظت أن الأمير المقرى نظر الىّ ، مرة اثر مرة ، خفضت نظرى ، ضحك ، قال لمولاى بلسان فصيح ، الجلبى ساكت كالحجر . أليس عنده ما يبهج مولانا خاصة وأن الجلبية يعرفون من الحكايات مما لا أول له ولا آخر ، أحاطتنى العيون ، الآذان تنتظر ما أقوله ، ارتج على ، غير أنى تداركت نفسى ، قلت وعيناى تطرفان ، الأدب واجب فى حضرة الملوك ، صاح أكثر من واحد ، الله . . الله . . وفجأة مال سلطان المسلمين وحامى البيت ، ولاحظت أن لحيته تبدو أكثر مهابة وحسناً وجمالاً عما رأيتها أول يوم ، ياللعجب صوته كأى صوت ، ونظراته ، سكناته وحركاته ، رحت أتملى وأسمع ، طاف خاطر خبيث بذهنى طردته كما تطرد ناموسة ثقيلة الظل ، كأنى سمعت الصوت ، شيخ عجوز يبيع البسبوسة تحت باب الفتوح اذ يراه القوم مقبلاً . . يتزاحمون حوله ، يقف متشامخاً فى نفسه ، متعاظماً فى روحه ، يقول بصوت عال غليظ كأنه يقطر سمنة . . بالدور . . بالدور . . ارتعبت من المقارنة ، لعنت فكرى ، الأيام التى رأيت فيها بائع البسبوسة ، غير أن ما قاله مولاى انزل برداً وسلاماً على قلبى ، غمر صدرى راحة ، مليح . . مليح ، على من تلقيت علمك ياجلبى ؟ قلت

بمنتهى الأدب .. على يد أشهر المزينين فى مصر ، المعلم الزيتونى رحمه الله وأحسن اليه ، ضج المجلس بالضحك ، انهمر العرق من رأسى وإبطى وعنقى وسائر جسمى ، هل أخطأت ، أذنبت ، أى جرم ارتكبت ؟ غير أن قاضى القضاة قال : هذا علمه يامولانا .. وعندما تكلم انحنى متودداً متأدباً ، وهذا بسبب ذكر اسمى .. ياعالم هل رجل فى مثل ورعه يبرطل على .. وعلى من .. على السلطان .. أحنيت جسمى .. مليح .. مليح .. سألنى عن أى الأماكن كنت أسكن .. فأجبته اجابة شافية وسألنى عن حال الناس فى الخط ، وما يقولونه ويمضغونه من كلام ، وأشهر الحوادث التى كثر الحديث عنها .. ؟ فحكيت له عن المرأة التى ولدت طفلاً له رأسان ، أبدى تعجبه ، استعاذ بالله .. قال كيف لم نر ذلك .. ؟ وراح يستفسر عن هيئة المخلوق وصفاته ومنظره .. ؟ وأنا أصف وصفاً شافياً جامعاً وكأنى رأيت الغلام بنفسى ، استعاذ بالله ، وقال الأمير شاربك أنه سمع بمثل هذا فى الهند . الليل فوقنا يوغل فى العتمة تثاءب مولانا لأول مرة ورأيت أسنانه ، اغمض عينيه .. رأيت جفنيه غليظتين منتفختين ، فجأة فتحهما وقال : أنت جلبى مليح .. ابتل قلبى بماء الورد ، غرق صدرى فى روح النعناع ، قمت واقفاً قبلت الأرض بين يديه ، لم يمض الكثير حتى فض مولانا مجلسه ، انصرف الجمع كله ، أقبل على بعض الأمراء يهنئوننى ، السلطان قال عنى جلبى مليح أثنوا على ، كدت أطير كعود الياسمين وأتمايل طرباً غير أنى أبديت خجلاً وتواضعاً زادهم ثناء على ، فى خيمتى لم أنم ، وبعد عودتنا اذا قابلت واحداً من الحاشية يوقفنى ويبارك لى ، قال السلطان أنت جلبى مليح ، وأخبرنى الشيخ أحمد ضارب الرمل ، هذا القول له مثيل واحد فى التاريخ ، عندما امتدح المنصور قلاوون فى سالف العصور طعام خادمه ، وكثيراً ما يقابلنى الأمير شاربك نفسه .. ألمح فى عينيه رغبة فى أن يحلق له ، لكن من يجرؤ على طلب هذا من جلبى السلطان ، لو أخبرت السلطان لأطاح برأسه ، من يدرى ، ربما يريد استمالتى اليه .. ثم يوزنى لأقطع رقبة مولانا عندما يسلمها لى وتصبح تحت رحمة موسى ، أرسلت فى طلب أمى ، فتحت ذراعيها وأرادت أن تضمنى فى أحضانها قلت ياولية نحن الآن أصحاب جاه ، اهدئى .. هنا ستأكلين اللحم

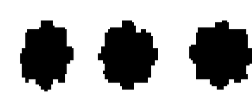
كل يوم ، وتلبسين الحرير والديباج ، بسطت كفيها ، دعت لى ، فى المساء رحت أرقبها وهى تأكل اللحم ، بعد أن صرفت الخدم ، حارت بين المقل والمحمر ، وأصناف المشموم والفواخيت . . تذكرت أيامى الأولى فى القلعة ، كيف إذا جاءنى الأكل لا أترك أثراً من فرخة أو قطعة من لحمة ، الخبز لم أقربه مدة طويلة ، ولما آلمتنى بطنى عالجنى كبير الأطباء نفسه ، مرتبى من اللحم الكبير ، لن يؤاخذنى أحد ، ساعات أقول أن الأكل يكفى حسين ومحمد عبد العزيز واسماعيل وسائر أصحابى فى الحسينية ، اذ أتذكرهم ، ينبعث فى نفسى ضيق ، ما ولى من أيام يبدو قريباً ، كأن السنين وجه له عينيان كبيرتان تحملقان إلى فى سخرية . . إنسان موجود فى مكان لا أعلمه ، يد ضخمكة تمتد لتلحقنى وترمينى من كل هذا النعيم ، اذا ما رأتنى أمى تقول لى ، أعطاك الله وأعطاك . . تمتع ياولدى . . تمتع . . آن لى أن أستريح ، مرة طلبت منى إكمال نصف دينى ، بسطت يدى ، من أين ، ، قالت إنها تعرف بنتاً مليحة وفقيرة ابنة سقاء ناحية سيدى البيومى ، ما أتكسبه لم يكن يقيم أودى ، ويسد رمقى ، وإذا ما رأيت امرأة فى الطريق الهث ، ويسيل ريقى ، لكنى أدوس هذا كله ، ولم أقرب امرأة قط . .

وفى السوق تعلو نداءات الصبيسان مشيرين إلى النساء فوق المصاطب ، أنظر ياسيد ، ليس كل ما استدار جوزة ، ولا كل ما استطال موزة ، ولا كل ما أحمر لحمة ، ويتحسس عبد الرازق صدور البنات الصغيرات . . يتأكد من نفوره واستدارته ، كذا نعومة الجلد وتماسك الردف ، وعن التاجر الرقيق التركى ان يسأله عن السر الذى يجعله يتخير الصغيرات دوماً ، وكان قد استوثق من صحبة التاجر ، وصار يسهل له الكثير من شئونه لدى الحكام ، وقال عبد الرازق ، انهن يذكرنه بسنين تمنى لو نالهن فيها ، غير انه فى المرة الأخيرة انتابه غضب ، فقد تدافع حوله سفلة القوم ، وصاروا يقدمون له الرقاع ، والصحائف ، ليقضى بعض حاجاتهم . . راحو يصيحون ، يزعقون ، وبأيديهم فى وجهه يلوحون ، مما حير التاجر التركى ، وأعجزه فهم ذلك .

هدأتني أمي ، قالت أنت في أعينهم صاحب ثروة وجاه ، عضضت شفتي ، ضممت يدي ، إلى متى يلاحقون ، عبد الرازق كان ثم .. عبد الرازق أصله و .. ما ذنبي .. ؟ لأني كنت واحداً من أهالي الخط ، أليس الله يعطي من يشاء ويحجب رزقه عمن يشاء .. ؟ تمنيت لو إن الطبيب عنده دواء ، أشربه فأنسى ما مر بي لا أسمع إلا من يقول ، عبد الرازق ولد جلبياً للسلطان ، مقصه ، وموسه ، لم يلامسا غير شعر السلطان ، قمت أروح وأجيء أحك ظهري بيدي ، أتخلل لحيتي بأصابعي ، قالت أمي : لماذا لا تأخذ الحسينية في حمايتك ؟ نظرت اليها ، قالت : ألم يكن علم الدين الجلبي السابق متحدثاً عنها ، تعهد أنت المحتسب عن الحسينية .. مقابل ما يريده من مال وتجمع من الخط ما تشاء ، وأهله كلهم تجار موسرون ، نظرت اليها مرة أخرى مضيقاً عيني ، ستسدد ما عليك .. ثم تأخذ ما يفيض وانت تعرف اهالي الخط كلهم ، وهكذا تصبح معهم وجهاً لوجه ، قلت : والله انها لفكرة .. لكن المحتسب لا يمنح الأحياء هكذا لابد من برطيل قالت معك ما يكفي أدفع له .. ثم يرجع لك كل ما أنفقت تلفحت بعباءتي ، تركت القلعة غارقة في صهج الظهيرة .. ووهج الصيف الذي له لون التراب .. سألني الساعي إلى أين ؟ قلت إلى متولي حسبة القاهرة ، قاضينا ، وشيخنا ، الزيني بركات بن موسى .



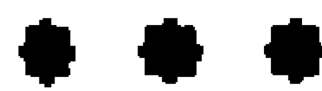
بدأ المنادي يقرع طبلته منذ تجاوزه باب الفتوح ، ياأهالي الحسينية ، صار علم الدين الرومي غريبا عن الخط ، وليس متحدثا عنه ، ولم يعد في حمايته ، وعلى كل من لديه مظلمة أو شكوى ، كل من عليه مال متأخر للسلطان وعلى المتخاصمين ، وأرباب القضايا والمنازعات ، أن يتوجهوا في كل حالهم ومآلهم الى حامي الخط ، والمتحدث عنه ، وحاميه أمام المحتسب وكرسي السلطنة ، المعلم عبد الرازق جلبي السلطان ، وشيخ الجلبية في كافة اتحاد بر مصر ..



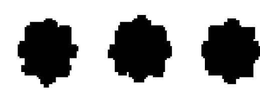
أخبرنى الركبدار أنه عندما شق فى الحسينية اسمعه التجار الكلام المنكى .. وصاروا يتقولون عليه ، اذا كان سيدك نسى اصله وفصله فنحن لا ننسى .. وتوعدوه ، هاشوا عليه بعصيهم .. زاطوا عليه فى كلامهم أخذتنى رجفة ، أكل قلبى الغيظ ، ارتديت ثيابى تحلقت بعمامتى ، ركبت بغلتى ، سألنى الركبدار عن المقصد ، الى الحسينية ، أبدى جزعا وفزعا ، لم أبال صحت فيه فجرى أمامى ، تجاوزت باب النصر ، طلعت على خياشيمى روائح الحى ، انقبض قلبى .. كأن غيرى غاش فيه ، ليس أنا ، مررت على دكان العطار ، رميت السلام .. قام واقفا ، اهتزت سبحته الطويلة .. سلم علىّ ، قدم إلى مقعده ، تبسمت فى وجهه ، أستغفر الله لم أنسك ياعم محمود ، ارتاح وجه الرجل ، هكذا ناس الحى ، سخطوا على ، ذكرونى بالكلام المنكى لأنى زدت درهماً على مجعول الدكان ، لكن بمجرد أن أواجههم ، أكاشفهم ، يخجلون ويتلعثمون ، أما لو واجهنى عالى الحس

والصوت .. سأعرفه ، آمر رجالى أن يذهبوا به إلى الجب ، أمام محل العطار راح الركبدار يصيح فى السوق ، حامى الخط والمتحدث عنه نزل بنفسه ليسمع ويرى حتى لا يدع الفرصة للمشوشين ، وألا يكون لواحد من العباد مظلمة ، جاؤوا من الحارات والخوخ والأزقة فأنا أعرف كيف تسرى الاخبار هنا ، التفت الى محمود العطار ، الكلام لن يبدأ إلا بعد زيارتى لسيدى البيومى ، اشتقت إليه ، حول الجامع رأيت كثيراً من الوجوه التى أعرفها ، هززت رأسى متلطفاً ، بدوا فى دهشة عظيمة .. عليهم هيبة ، منذ طلوعى القلعة لم يرونى ، سألتهم عما بهم ، بعد صمت تعالت الأصوات فجأة ، صاح محمود العطار يطلب منهم الاحتشام ، واحترام المقام ، وأن يتكلم واحد عما يريد الكل أن يتحدثوا فيه فقالوا : أنت عارف يامعلم محمود . لقد زاد الفروة درهما وليس لنا طاقة على هذا .. صاحت عجوز ، رجالى طلبوا منها دفع أجرة دكانها مقدماً ، هى لا تملك ما تدفعه ، سيطردونها غدا ، زعقت .. لن أرضى هذا ياعمة .. كم الايجار .. قالت نصف أشرفى ، ضربت يدى فى كيسى ، أعطيتها نصف الاشرفى ، ضجت المرأة بالدعاء ، التفت فجأة وصحت ..

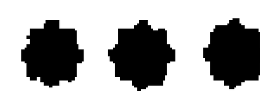
الدرهم الزيادة لابد منه لأن المطلوب منى للمحتسب كثير ، لو ملكت المطلوب لشلت عنهم هذا كله ، زعقا . . هل شوش عليكم أحد منذ أخذت الحسينية فى حمايتى ؟ أطرقوا مقدار درجة ، قال شاب لا أذكره ، المماليك خطفوا شابة من أمام محمد الخضرى . . ولا يعرف لها خبر ، التفت إليهم ، تكاثر الجميع ، تعاظم العدد ، صحت عليهم ، اعذرونى ياناس ، هؤلاء مماليك مولانا ماذا أقول لهم . . هل أنا عبد الرازق ابن الحسينية أقف قصادهم ، لزموا الصمت ، برغم هذا كله سأكلم الوالى ، وأعرف من هم بالضبط وأين راحوا بها ، ثم قلت : من عندكم خطفت امرأة واحد . . من الاحياء الأخرى هل تعرفون كم . . ؟ وكم من العمائم تنزع من فوق الرؤوس . . وكم من الغلمان المرد يطاردون ، كثير . . كثير . . كثير ياجماعة . أنتم فى نعمة . . سكتوا هنيهة . . وقالوا إنهم يلاقون صعوبة عظمى فى مقابلتى ، عندئذ صحت ، أحضروا إلىَّ زين الدين الجزار ، وكان شابا عفياً قوياً ، حسه طالع دائماً فى الطريق ، يرهبه الكثير ، سلم علىَّ متردداً . . قلت : هل يعترض واحد على هذا ؟ سكتوا . . أنت من اليوم مسئول أمامى وأمام هؤلاء والأهم من هذا كله أمام الله رب العالمين أن توصل إلى كل الشكاوى والمظالم ، أعذرونى . . كما تعرفون أنا جليس السلطان ، ومولانا لا يخلو مجلسه منى ، بدا على وجوههم الرهبة ، زين الجزار مفتوح الفم ، لا يصدق ما سمعه ، اقترب منى الركبدار ، همس . قلت : لا تلومونى يا أهل بعد قليل يصحو مولانا ولابد من طلوعى القلعة ، نزل الصمت ، اندفع أمامى زين الدين يفسح الطريق منافساً الركبدار نفسه ، امتطيت بغلتى فجأة انطلقت زغرودة من الطيقان ، ابتسمت تكاثف جميع النساء والحريم والغلمان أمام باب الفتوح ، استدار زين الدين ، زعق عليهم ، أن يرجعوا ، عاد يجرى بجوارى . . ضربت يدى فى كيسى ونفحته عشرة دنانير ليشترى لنفسه ثياباً تليق برجالى ، أمرته أن يطلع القلعة فى الصباح لتتكلم ، تركته مذهولاً ، سائر فتوات القاهرة يرهبونه ، وغدا يطلع عندى وأرتب معه الأمور كلها ، فلا أقلق فى صحو أو منام .



وكان الامير كرتباى شديد الحنق على الامير شاربك الاعور ، فالثانى أكثر قرباً منه لدى السلطان ، وحصانه يلى حصان السلطان نفسه . . ورأى كرتباى أن يتخلص منه . . ويرديه موارد التهلكة ، وبعد طول تفكير ، رأى له أن يتكلم مع عبد الرازق الجلبى ، فقد علا نجمه . . وسطع سعده ، وقرب وعده ، وصار السلطان يوكله فى كثير من الامور يحل فيها ويربط ، حتى ان أرباب الحاجات ما قصدوا الا بابه .

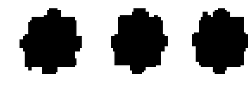


وقد أصغيت اليه . العطر فى الهواء . . حلو ، النافورة ترمى ماءها إلى أعلى ، لا صوت من الطريق عندنا ، وأعمدة الرخام السماقى تقف باردة تحمل السقف المزخرف الجميل بحشو الخشب ، مما ليس له مثيل ولا فى القلعة ، عندما سألته عن هذا الشمعدان الرائع ، بدا مبهوتا ، فهو يحادثنى فى عظائم الأمور ، وأنا أبدى اهتمامى بشىء حقير الشأن ، ارتاع وخاف . . ربما ظن أننى سأبلغ شاربك عندئذ يتنكس وينتهى ، رفعت نظرى فوجدته شاخصا إلى ، عندئذ قلت : فجأة ، ما الذى أنا له من هذا . . ؟ قال لك ما تطلب ، أعطيك من الدنانير والجوارى ما تشتهى ، ضحكة خفيفة ، فلم يلن وجهى ، قلت فى صوت خفيض ، أكون متولياً لحسبة القاهرة ، أصفر وجهه ، نزلت على عينيه حيرة ، قال هذا من السلطان ، أشرت باصبعى ، ترسل أعوانك فيضطرب الحال فى السوق . . وتشيع عن الزينى ما يجعلك تطلع إلى القلعة وتخبر السلطان أن حال المسلمين قد اضطرب وضاعت حقوقهم . . ولا مفر من عزل الزينى ، يسألك من يحل مكانه . . تقول لا يوجد غير الجلبى . . فالناس تلهج بذكره وطيب سيرته ، ولك أن تعلق جثة شاربك الاعور ثلاثة أيام كاملة على باب زويلة .

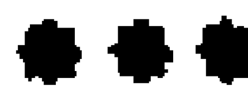


ونزل فوق الناس صمت حتى لتحس حركة الجنين فى بطن أمه ، تحيروا فى أمور الزمان ، كيف تلتف المشنقة حول عنق هذا الذى قارب ذا القرنين فى

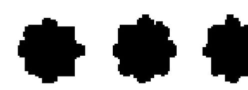
جبروته وعنفوانه ، ها هو يعلق رأسه كأى اعرابى مارق ، أو لص سارق ، بينما يطوف المنادون فى أحياء القاهرة (المدينة) يصيحون على اللئيم الذى أعد ملعوبا خفياً ليخلع حامى الحرمين وسيد البحرين من فوق عرشه ، لكن اللئيم شاربك أخذ قبل أن يأخذ .



وقال إن الناس تحبنى وتثق بى ، والوالى لا يجد غيرى أتولى الحسبة ، واضمن أموال السلطنة ، وأستقر بأحوال الخلق ، قمت فقبلت الأرض بين يديه ، سالت دموعى ورجوته اعفائى فما أثقل المسئولية وما أفظع المهمة على قلبى ، ويكفينى القيام بواجبى بلا زيادة ولا نقصان ، فما الذى يطمح فيه أنسان أكثر من كونه جلبياً للسلطان ، هنا ضرب مولاى يديه ببعضهما . . قال : عجيب . . والله عجيب . . أنت أول من أعرض عليه منصباً فيمتنع ، وحولى يقتتلون ويتصارعون ، ياجلبى . . أنت متولى الحسبة والمتحدث عنها أمامى ، فانحنيت وقبلت الأرض ، لكن لى رجاء يا مولاى . . قال ما هو . ألا تحرمنى من كونى جلبيا .

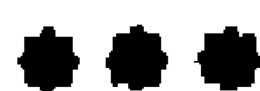


ولهجت ألسنة الناس فى المحلات والأسواق ، ودعوا للمحتسب الجديد ، فقد نزل موكبه تدق أمامه الطبول ، وتنفخ الزمور ، وصار يقف بنفسه ويضع تسعيرة الاجبان . . والسنبوسك ، والبيض ، والخضراوات ، وتحدث الناس فى البيوت عن رقة طبعه ، ولين خلقه . . وطول باله فى الاستماع إلى الشكاوى حتى عندما صاح الرعاع عليه فى الحسينية ، واتكوا عليه بالكلام الناشف ، فقد ظل هادئاً ، لايرد على اهاناتهم ، ولو شاء لقطع رقابهم .



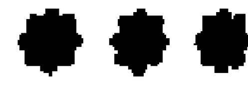
اخبرنى الأمير ابق أن المدينة لم تهدأ كما هى الآن ، شكرته ، اثنى على ومضى ، هكذا تحاشيت كل مشوش لئيم ، من عنده مظلمة فليقدمها إلى

نوابى ، لم أغلق ابوابى ، مايهمهم ؟ أن ما يريدون قوله وصل إلى ، واذا بت فى مظلمة فالأمل لا ينتهى من عند مائة ، فى المساء طلعت أعلى طباق بالقلعة ، الزنلدة على أشدها ، الجوية وخم ، السماء زرقاء . فالليل لم يوغل بعد ، زعق الحراس بالتحية ، رحت وجئت فوق السطح ، أرنو إلى القباب والمآذن ، والغبار ، كل هذا أنا متحدث عنه ، قرضت طرف عباءتى ، سمعت حس رجل ورائى ، الامير كرتباى الوالى . . سلم علىَّ ، وقال أن حسن مسيرتى وسياستى جعلتا الكل راضيا عنى ، صحيح هناك بعض الموغرين يروحون اليه وينمون على . . سكت . . ثم قال : لكم من نم لك نم عليك . . أو مات برأسى ولم أرد ، لعب الفار فى عبى ، ووراءه أمر ما ، بعد سكوت دام درجة ، قال : ان الجمع بين وظيفتى المحتسب والجلبى فيه ارهاق على ، الحسبة لها مشاغلها التى لا تعد ولا تحصى ، ضيقت عينى ، أبطأت عليه فى الحديث . . قال لو أعفانى السلطان من وظيفتى كجلبى ، لكان هذا أحسن ، فصحت فجأة ، والله هذا ما كنت أفكر فيه ، أبدى بشرا وتهللا ، قال أطلب منه ذلك ، قلت سأفعل لتوى ، وبعد أن حلقت ذقن السلطان ، قلت أن الأمير كرتباى طلب منى كذا وكذا وأننى أشك فى مقاصيده الجسام . . . ضاقت عينا مولاى ، ارتخت جفونه ، علامة الغضب العظيم ، قال ماذا تظن ياجلبى .؟ قلت استعيذ بالله فلست تماماً ، صاح علىَّ صيحة مهولة رجتنى فانحنيت اقبل الأرض ، قلت لا تؤاخذنى مولاى ربما أرادوا ابعادى واحضار جلبى لا نعرفه ربما . . صاح السلطان . . لا تكمل ياجلبى . . امش ياجلبى ، فى المساء جاءنى قاصد يخبرنى أن كرتباى قطعوا رأسه فى الصباح ، وأن مولاى يطلبنى بعد العشاء وهذا لأمر خطير ، قلت سمعت وأطعت ، عندما انصرف . . ذهبت إلى أمى وقلت أتعرفين معنى هذا ، نظرت إلى مذهولة دخلت غرفتى . . ارخيت الستائر ، انطلقت فى فرحة ، ضربت الجدار بيدى ، رميت ثيابى على الوسائد وصرت أدور فى الحجرة طالعا نازلا ، لا أدرى ما أفعله . .



وقبل المغيب ، نزل أمير مقدم ألف من القلعة ، وعبر ميدان الرميلة فى

موكب له ضجة ، واتجه ، إلى بيت الأمير المقرى حيث يقيم قصاد ملك البنادقة . ينتظرون من عشرة ايام ، اللحظة التى تحين فيها مقابلة السلطان . وقد اركبهم الأمير ، وعاد بهم فى موكب عظيم ، وكان القصاد خمسة يرتدون الثياب الزاهية ، شعورهم طويلة كا لحريم ، وجوههم حمراء ، وفى أثناء هذا كان الامير يشبك البزدداري يتأمل السلطان برقة . . ويكثر من الدوران حوله ، ولحظ السلطان هذا ، فهو ذكى ، لا تفوته شاردة ولا واردة ، قال له ماذا بك يا بزدداري ؟ قال لا تؤاخذنى يا مولاى والله لا أجرؤ . . نتر مولانا فيه ، ارتجف الرجل فى ثيابه ، وأشار إلى ذقن مولانا ، قال انها هائشة ، غير مرتبة ، ليست مليحة ، ولو رآها القصاد الا جانب لصارت فضيحة ، تحسسها مولانا وتخللها بأصابعه . . عجيب . . عجيب . . عبد الرازق حلقها لى منذ ساعة . . أرخى الأمير يشبك عينيه . . قال يامولاى يد عبد الرازق تلمت عاد يفيق إلى خدمتك . . صاح السلطان . . كفى . . كفى . . صار صوته هادرا فيه غضب لو سلط على مدينة لقلب أعاليها . . أسافلها . . . ارتعش الأمير يشبك ، وقبل الأرض . . صاح السلطان . . لن أقبل قصاد البناقة .



وقائع حارة الطبلاوى

« مذكرة إيضاحية حول واقعة رقم ١٠٦ »
قسم الجمالية « القاهرة »

.. إنه فى يوم الاثنين ، وفى التاسعة صباحاً ، حضر إلى قسم الجمالية عدد خمس أشخاص ، من سكان حارة الطبلاوى ، ثلاثة ذكور ، اثنتان إناث وبيانهم كالآتى :

١ — حسن أفندى متولى ، موظف بإدارة مكافحة الدودة ، قسم الفقس ، وزارة الزراعة .

٢ — فارس سعد (الشهير بأبى قورة) صاحب مقهى بالحسينية .

٣ — عويس يونس فران بناحية كفر الزغارى .

٤ — شمعة لطفى حكيمة بمستشفى الأزهار النموذجية .

٥ — محاسن حسن مدرسة ابتدائى ، تعمل بمدرسة النحاسين الابتدائية .

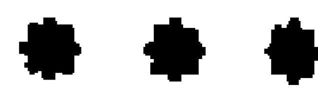
وتولى حسن أفندى متولى الحديث نيابة عنهم ، فأدلى بالبلاغ التالى . . .

« إنه منذ ستة أيام قام دحروج النمرسى ، إعتباراً من الساعة الواحدة صباحاً وحتى السابعة بدون انقطاع بمخاطبة أهالى الحارة مستخدماً بوقاً مما يستعمله شرطة المرور فى الميادين والطرقات العامة ، وسبب إزعاجاً للسكان ، علماً بأنه يبتدىء كلامه بعبارات بذيئة تسب أهالى الحارة كلهم ، وتصفهم بأقبح الألفاظ وأنتنها وتمس العرض والشرف ، ونتج عن هذا إقلاق راحة المرضى ، والإضرار بصحة الحاج أحمد العتر تاجر الورق الذى يعالج منذ عامين بسبب أعصابه ، ولما زاد الحال ، توجه إليه عدد من سكان الحارة وجيرانه القدامى ، طلبوا منه الكف فردهم بعنف ، طالبهم بفعل ما فى وسعهم ، وكرر مرات أنه حر ، ولا يعنيه أحد ولا يوجد نص قانونى يعاقبه لأن الجهاز الذى يستخدمه لا يخضع للقيود المفروضة على استعمال مكبرات الصوت الكهربائية وذكر أرقام مواد ونصوص قانونية ثم حدثهم عن ماضيه الطويل إذ عمل جندياً فى الخدمة السرية لقوات الأمن العام وأعلن (هناك شهود على ما قاله) . إنه خرب بيوتاً عامرة خلال خدمته ، وأن أحد أقاربه يعمل الآن بمنصب هام للغاية ، يقوم بتمزيق كافة الشكاوى المرسلة ضده بعد إطلاعه عليها واحدة ، واحدة ، ثم أغلق الباب بعنف ، وفى الواحدة صباحاً بدأ حديثه اليومى ، قذف من جاؤوه واحداً واحداً بألفاظ بذيئة ، وعبارات غريبة ، عندئذ أطل بعض المسنين ، صاحوا عليه راجين السكوت ، وإحترام الجوار فالنبى عليه الصلاة والسلام أوصى على سابع جار ، وهنا زاد فى بذاءته وسبهم بألفاظ تخدش رجولة كل منهم ، وأطلت غويشة امرأته لأول مرة ، وأعلنت وقوفها بالمرصاد لكل من تسول لها نفسه التهجم عليها ، أو على زوجها وقالت إنها صاحبت حريم الحارة والحى أربعين عاماً ، جمعت لزوجها دحروج معلومات تكفى لسد كل بيت بالجبس ، ثم ذكرت أمثلة ، وسبب وقوع مشاجرات بين أفراد عائلات لم يسمع لهم حس من قبل ، مما اضطر السكان بعد ستة أيام من العذاب المتصل اللجوء إلى الشرطة ، وأنهى حسن

أفندى أقواله مطالباً الأمن العام بالتدخل لحماية الأهالى من المذكور وامرأته غويشة ، فالبيوت العامرة تكاد تخرب . . .

ومن ناحية أخرى أفاد مسعد أفندى القاطن أسفل المذكور ، أنه سمع مكبر الصوت أول ليلة وقيل فيه « آلو . . واحد . . إثنان . . ثلاث إلخ » وتلاوة البسملة عدة مرات ، وبعض آيات الذكر الحكيم ، عندئذ طلع إلى دحروج ظناً منه أن مصاباً وقع ، مما استدعى تجربة مكبر الصوت فى هذه الساعة المتأخرة تمهيداً لتلاوة القرآن فى اليوم التالى ، وعندما طرق الباب فتحت غويشة وقالت بدون مقدمات « أخيراً حانت الساعة ، ولم تدع فرصة لمسعد أفندى كى يستفسر عن أى ساعة تقصد » إنما أكملت « دحروج سيحقق ما إنتوى . . قل لجيرانك ، وجيران جيرانك . . أخيراً . . حانت الساعة ثم أغلقت الباب بعنف ، وأقسم مسعد أفندى على صحة ما حدث بفتحه المصحف على سورة ياسين ، ووضعه على عينيه وأقسم يميناً . .

كما قدم المدعو فارس الشهير بأبى قورة ، شريطاً سجل عليه بعض من أقوال المذكور عن طريق المكبر «تم تفريغ محتويات الشريط » واستعان بجهاز تسجيل ماركة جروندج لاذاعة أغانى أم كلثوم على زبائن المقهى ، وأفاد الجميع بأن الحارة لم تعرف القلاقل من قبل ، وتعد من أهدأ الحارات وأقلها فى عدد المشاغبات والحوادث نادرة بها ، وسكانها مسالمون لا يميلون إلى إزعاج الغير ، ويحترمون القوانين والجوار الذى لا يقل بالنسبة لأحدثهم عن عشرين عاماً ، وأبناؤها التلاميذ متفوقون ، ومنذ عشر سنوات جاء ترتيب سيد ابن الحاج نصيف الثالث على شهادة الاعدادية (وطالبوا بإجراء بحوث وتحريات تثبت هذا) والآن لا يستطيع الطلبة استذكاراً بسبب أعمال المذكور دحروج وامرأته غويشة . . » .



« ملحق ١ »

« محتويات شريط مسجل عليه بعض أقوال المذكور . ولم يتضح فى هذه التسجيلات ، هل تمت ليلاً أو نهاراً ، ولم يعرف تاريخ كل منها ، برجاء وضع ذلك فى الاعتبار » .

١ — . . إلا إذا إطلعتم بأنفسكم ، ورأيتم ما رأيت ، وهذا مستحيل ولم يتوفر لإنسان قبلى ، أذكركم هنا بالمهن العديدة التى عملت بها ، أتقنت كلا منها ، قضيت بها زمناً ، أذكركم بآخر أعمالى ، خدمتى خمسة عشر سنة فى صفوف الخدمة السرية بالأمن العام ، تنقلى بين جميع المديريات والمراكز والقرى ، سفرى إلى بعض بلاد العالم فى مهام خفية ، لن أتحدث عن تفاصيلها الآن ولكن سيحين الوقت ، ستذهلون ذهولاً عظيماً وتقولون كيف عاش بيننا ؟ أكثر من ثلاثين عاماً تواجدت بينكم ، هل شعرتم بى ، هل عرفتم أمراً واحداً عنى ، هل سمعتمونى أتحدث عن أحد بما لا يليق . طال صمتى والآن يمكننى قول ما فى قلبى وعقلى ، ستجدون كلامى شيقاً ، البعض سيضيق به مؤقتاً ، لكنهم فى النهاية سيوجهون إلىّ شكراً ، لأننى قومت حياتهم وأظهرت ما تعرفونه ولكنكم تتجاهلونه ، لكن العذر حق لكم يا أهالى الحارة المساكين ، من لديه خبرة عمر مثلى ، من أمسك بواطن الأمور ، من أدرك الحقائق الخفية مثلى ؟ .

٢ — . . يا معلم يونس ، والله أرثى لك ، سخرت منى ولن أرد عليك خذها منى نصيحة ، أنا لا أحب الشجار ، ولا الوقوع فى مشاكل ، طول عمرى لم أقع فى مشكلة ، لم أقدم كمتهم إلى أى مسئول ، لأننى من زمن طيب ، زمن حلو ، زمن عاتق ، رائق . غير زمانكم الموحل ، الأغبر ، لكننى سأقوم المعوج فيه ، أدبر أموره أوجهه ، يا معلم يونس ، أنا لن أفضحك لكننى أنبهك إلى ما غاب عنك ، طبعاً تعرف دكان المعلم ماهر المنجد فى بيت القاضى ، كلنا ، كل أهالى حارة الفقر هذه . . كلنا نعرف يا معلم . . من

يدخل بيتك بقرطاس الفاكهة كل أحد وأربعاء ، أنت تخرج حوالى العاشرة ويستلم مكانك فى الثانية عشرة . العيون تحفظ منظره بالجلباب الأبيض ، بخواتم الذهب والصندل البنى ، الحارة كلها تعرف ولا أحد يخبرك ، لماذا ، لأن ، سكانها عندهم ما يكفيهم .. و ..

(ضجة ، تصفيق ، أشياء تسقط ، أصوات ...) .

٣ — .. قبل أى كلام ، انتبه يا حسن أفندى ، يا راجل يا دودة ، أنا لا يفوتنى شيء أبداً . ما من نفس زائد لديكم إلا أحصيته ، ما من همسة إلا وترجف طبلة أذنى هنا ، ألا تعلمون أن جدى كان عالماً كبيراً فى الأزهر وأنه ترك لى مخطوطاً قديماً وعلمنى كيف أستخدمه ، فأعرف منه المستقبل الآتى ونهاية أعماركم ، ألا تدركون أننى تلقيت أمراً بالحديث إليكم عن طريق هذا المخطوط ، يمكننى أن أنبىء كلا منكم بيوم يحين فيه أجله ، ومن لديه هذه المقدرة لا يغيب عنه ذهابك إلى قسم الجمالية ، تزعمك وفداً ضدى ، شكوتنى طلبت إبقاء اسمك سراً وهذا جبن ، العجيب أنكم جميعاً جبناء ، هذه سمة يتيمة توحد بينكم ، إذا خفت منى أنا الفقير الضعيف الذى ناهز السبعين فلماذا لا تخشى الله خالقى وخالقك ؟ بلغنى ما قلته عنى أمام مقهى البنان ما جرحت به امرأتى غويشة ، تهديدك بأقاربك فى وزارة التموين ، ماذا تظنهم فاعلين ؟ . اعلم يا حسن .. يا أهالى حارة الطبلاوى الكرام ، أن ابن خالة إمرأتى غويشة كونستابل ممتاز ، ولا ينقطع عن زيارتنا ويرجونى كثيراً أن أرد زياراته للدرجة أننى خجلت منه واعلموا أن علبة سجائره تحت أمرى ـ أسحب منها وقتما أشاء ، ولكننى لا أستعين به قط على أعدائى ، لأن أحوالى وأمورى التى لن أبوح بها قط تحمينى وتجعلنى ..

٤ — .. ما رأيك يا غويشة ؟ ؟

« امرأة » الرأى لك يا دحروج ..

.. لن أرد على ما قاله الحاج سنوسى بائع العطر ..

« امرأة » وصفك أوصافاً دنيئة يا دحروج ..

.. لن أخرب بيته يا غويشة ، لن أذكر مصنع العطور الصغير داخل شقته .. الحاج يتهرب من الضرائب يا غويشة ومن التأمينات الاجتماعية ، ويستخدم أولاداً صغاراً ..

« امرأة » يا خبر .. والنبى لا أعرف هذا كله ، تصور أنه يلف على صفوف المصلين فى الحسين .. يمسح أيديهم بالعطر ويبيع زجاجات صغيرة يقول عنها .. بركة من عند النبى ، بركة من المدينة المنورة ..

٥ — .. يا أهالى الطبلاوى ، يا مساكين ، يا وجوه النحس ، يا أشقياء عندما أطهر حياتكم من الكذب ، عندما أزيح عنكم النفاق والاضطراب ، وأنظم أموركم بطريقتى ، سأنزل إليه ، وأطلب منكم أن تحكموا عليه ، وتلقنوه درساً ..

٦ — .. مثلاً ، امرأة عمى بدوى عساس البهائم فى الأسواق تتحدث دائماً عن أقاربها فى مصلحة السكك الحديدية ، والدى ، والثروات الطائلة دائماً تكلمكم عن أهل زوجها الأشقياء الذين نهبوا نصيبه فى الميراث ، عم بدوى يرفع عليهم القضية تلو القضية ، لهذا فثمة ثروة ستأتيه يوماً ، عندئذ تشترى الست نعيمة بيتاً فى مصر الجديدة حوله حديقة ، وتملأه أثاثاً فاخراً وتفارق الحارة القذرة ، وأهلها الأنجاس ، يا أهالى الطبلاوى البلهاء ، لأننى أعرف كل كبيرة وصغيرة لأننى أعلم خباياكم ، ما تظهرون وما تبطنون ، لهذا سأقول لكم الحقيقة ، الست نعيمة التى تتعالى علينا ، تحدثنا من طرف أنفها ، لا أقارب لزوجها كما تقول ، لها أخت صغيرة لا تدرون عنها شيئاً إسمها راجحة وتسكن بدروماً قديماً فى حارة سيدى معاذ ، زوجها بائع هريسة متجول ، وحتى ألتزم الدقة ، أقول إنه يبيع بطاطا فهو يمتلك فرناً فوق عربة يد ، راجحة تساعده فى كسب العيش ، هل تدرون كيف ؟ عندما تتشاجر امرأة مع جارتها تذهب إليها ، تمنحها قروشاً قليلة ، أو ، قطعة لحم فى رغيف وتستعين بها ، أخت الست نعيمة لها محاضر عديدة فى البوليس وعندما تقل المشاجرات تحترف الندب ولطم الخدود وراء الموتى يا أهالى الطبلاوى ، يا أكذب خلق الله ، فى زمانى البعيد الطيب ، وأين أنتم من زمانى ؟ أمثالكم لا يسمح لهم بالعيش

فيه . آه . . راح زمانى الأخضر أيامه هنيات ، فى الليل نسمع الأغانى فى المقاهى الدافئة ، ونشرب الزنجبيل والقرفة ، نصلى الفجر ، فى نفس هذه الحارة ينزل الرجال يصيحون على بعضهم ، كل منهم ينبه الآخر ، وفى الليل الرائق تسمع القباقيب ، والماء والوضوء ، ثم نخرج جماعة إلى الحسين ، ونقابل النهار بوجوه سمحة ونفوس راضية ، فى زمانى رأيت الأمان ذاته ، لا إنسان يخاف على ماله أو أولاده أو بيته ، وكلما رأيت ما يجرى بينكم يدركنى والله رعب ولكننى ملازمكم حتى أقوم المعوج وأعيد السيرة الصافية هنا فى حارة الطبلاوى وليلحقنا باقى الدنيا ، لن أسمح بتكرار ما قامت به الست نعيمة عندما زارت جارتها أم سهير ، وعندما دخلت لتعد شاياً ، مدت يدها ودست ورقة نقدية قيمتها خمسة وعشرون قرشاً فى صدرها ، أنا الآن أدفع التهمة عن مجدى الإبن الوحيد للست سهير والمتهم ظلماً ، المهم . . أننى لن أطيل عليكم . .

٧ — « أصوات مرتفعة » يا كلب ،

يا . . . إذ . . . إذ . . .

٨ — أرجوك يا مسعد أفندى ألا تتساءل ما وصلنى وصل وانتهينا ، وأنا واثق أنك وحدك تعلم مقدار النقود التى تخبئها ، الفلوس الفضية القديمة ، الفضة الحقيقية ، فيه القرشان والخمسة قروش ، والعشرة ، أعرف عدد علب الصفيح المصفوفة فى منزلك ، وهوايتك ليلة الجمعة عندما تفرغ العلب من محتوياتها ، وتنشىء أكواماً من النقود ، تغير أشكالها كما تشاء ، ثم تغسل النقود كلها فى طشت نحاس كبير ثم تنام هانئاً ، بسبب هذه القطع من العملة والنقود الأخرى التى لن أذكر مكانها ، لم تتزوج ، ذاب عمرك فى عملك الحقير ، كاتب بالمحكمة الشرعية ، لا يهمنى مصادر دخلك من الأموال ، لكن أذكرك بما فعلته الست نعيمة عندما سرقت مبلغاً تافهاً من أم سهير ! تعال نبحث عن السبب معاً ، ثم دعنى أقل لك كيف نمنع وقوع هذا . .

٩ — . . يا ولد يا جابر ، يا سعيد ، زمانكما أجرب ، لم تذوقا طعم النساء ، لم تستمتعا بأى شىء ، لو بيدى لحررت لكما جوازى سفر تهاجران بهما

إلى زمنى الأول ، فيه عرفنا الإبكار الحقيقيات ، رأينا الحياء على حقيقته ، ذقنا المتعة ، الأنوثة الريانة ، كل ما تنالانه وقفة بلا جدوى أمام مدخل الحارة ، أصغيا إلىّ . . .

١٠ — وأثناء قيام السيدة لواحظ . .

١١ — . . أحمد العطار الشاب العفى الذى يركب الكبير قبل الصغير الفاتح الرجولة ، هيه . . لكنه زمن مائع ، لا يعرف فيه الرجل من الأنثى ، فالمقلوب معدول ، والظاهر باطن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى . .

* * *

بعض الوقائع . .

. . كل ما قاله دحروج ، كتبه عبد المقصود أفندى ، لديه خبرة عمر فى كتابة العرائض والشكاوى ، يعرف المدخل المناسب لكل شخصية وذى منصب ما يجب قوله ، وما لا يقال ، ذكر ما قيل فى حق امرأته وما يسىء إلى فوقية ابنته التى دخلت سن الزواج ، ما سيلفت نظر المسؤولين بوزارة الداخلية بالذات هذا المطلب العجيب الذى وجهه المدعو دحروج إلى الأهالى ، ضرورة تعديل أوقات نومهم بحيث يأوى الجميع إلى أسرتهم فى تمام الرابعة والنصف بعد ظهر كل يوم ، مع مراعاة ظروف الذين يعملون فى نفس الفترة ، ثم يوقظهم دحروج عن طريق مكبر الصوت ليتحدث إليهم ، وينظم أمورهم ، لم يكتف بهذا بل منح الأهالى مهلة قدرها ثلاثة أيام يتحولون فيها من نظام إلى نظام ، يغيرون عاداتهم ، عبد المقصود أفندى سطر خطاً ثقيلاً بالمداد الأحمر تحت حديث لدحروج قال فيه « منذ الآن حارة الطبلاوى لها ناموس غير النواميس » .

الآن يضيق عبد المقصود أفندى ، اضطر إلى ذكر أقوال دحروج حول امرأته وجيدة ، سيفضح نفسه ، لكن من الضرورى جداً إثباتها . إذ أنها التهمة الوحيدة الواضحة التى يمكن أن يعاقب عليها طبقاً للقانون ، يتململ عبد المقصود أفندى إذ يتخيل تهامس النساء فوق السلالم حول زوجته « المرأة

جنت على دبر » تؤكد أخرى أنها تعرف ما قاله دحروج من قبل وسكتت طويلاً حتى لا تنهش عرض جارة قديمة ، ما يطمئن قليلاً أن دحروج حذر كل إنسان ، رجل أو امرأة ، من تناول مضمون حديثه بالزيادة أو التشويش ، لكن هل يكفى هذا لربط الألسنة ، قام ، تحسس الأرض بحثاً عن شبشبه ، قضى اليوم كله فى البيت ينسخ العريضة ويرقب تصرفات وجيدة .

نظراتك غريبة يا سى عبد المقصود . .

استعاذ بالله ، يحاول ألا يعلو صوته ، كل حركاته ونظراته تفسر الآن ، كل ما تقوله هى يتحلل فى ذهنه إلى حيرة ، إلى استفسارات ، استجابتها أسرع مما يجب لمطلبه بمنعها من الطلوع إلى عشة الفراخ فوق السطح . حجرة الأسطى عبده بمواجهتها ، سائق النقل العام بمفرده ، ينام اليوم كله ، ينزل فى المغيب ليتسلم نوبة عمله ، ينظر إلى امرأته ، ينهض صدرها ، لم تغب ملاحظته عن عين دحروج بل سخر قائلاً « هل يوجهه الأسطى عبده كما يمسك مقود العربة . ما يضايقه اضطراره إلى ذكر هذا كله فى العريضة . ربما سخر منه المسؤولون ، لكنه أحكم الصياغة ، عدد من الجيران علموا بنيته فى إرسالها ، أبدوا بشراً وعلقوا آمالاً ، يعرفون شهرته بل ان أحدهم قال بالنص « هذه العريضة ستذبح دحروج ذبحاً . . لكن عبد المقصود الآن يتنفس ببطء لم يتشاجر مع امرأته يوماً ، حتى بعد انقطاعهما عن بعض فى السرير ، يذكر الآن حديثاً لحسن أفندى متولى عن شهوة بعض النساء إذ يبلغن الخامسة والأربعين ، يطشن ، ألقت ساعة الحائط ثلاث دقات مختصرة ، بعد غد يحين إنهاء المهلة المحددة ليبدأ جميع أهالى الحارة نومهم فى الرابعة والنصف ، سمع امرأته تتثاءب ، نظر إليها وحنق فى عينيه . .

(٢)

باق عشر دقائق ،

فى الواحدة تعلو مكبرات الصوت ، يزن قليلاً ، يلقى دحروج تحية المساء ويلعن الدنيا القائمة ، ويرثى الزمان القديم ، ويؤكد أنه سينتظر كل شىء ، ثم يتلو ما وصل إليه من أخبار ، يرد عليه البعض ، وتلقى الحجارة على نوافذ

شقته المقفلة ، مهما حدث لن يفتح الحاج حمزة جزءاً من نافذته المطلة على الحارة . حتى الآن لم يتعرض له دحروج ، مع مرور الأيام وقيام الهياج فى الحارة ، أيقن الحاج حمزة ، أن اعتبارات عديدة تدخل فى امتناع دحروج عنه ، أهمها أنه قضى أكثر من ثلاثين عاماً ناظراً لمدرسة كتخدا الابتدائية ، تلاميذه أصبحوا الآن رجالاً ، يقابلونه فى الطريق ضباطاً ومهندسين وكتبة فى المصالح الحكومية ، يصافحونه فى المقهى إذ يجلس مرتدياً جلبابه الأبيض متأملاً لاعبى الطاولة ، أيضاً ربما يعلم عنه دحروج موقفه عندما عرضوا عليه منذ عشر سنوات الانتقال إلى مدرسة الروم الابتدائية مع ترقيته ناظراً ، لكنه رفض ، آثر البقاء فى الحى الذى ارتبط به ، ومرت أربع سنوات كاملة قبل أن يصبح ناظراً لمدرسته ، يعرف أن دحروج لم ينجب ويرثى له ، بالتأكيد يعانى ضيقاً وآلاماً ، لو أنجب طفلاً وألحقه بالمدرسة لأولاه عناية خاصة ، الآن لا يضيق بإزعاج دحروج ، ليفعل ما يشاء ، ليسب أهالى الحارة ، ليعيد تنظيم الأمور فيها كيفما يشاء ، فعلاً كثير من الأوضاع يجب تقويمها ، ليحدد للسكان نوعيات الطعام التى يجب أن يأكلوها يومياً ، المهم . . ألا يذكر شيئاً عن بناته ، دحروج عالم بكل شىء ، مطلع قطعاً على أفكاره الودية ، إنه أول من ينفذ تعليماته ، عندما طلب أن ينام الجميع فى الرابعة والنصف ، أسرع الحاج حمزة بتطبيق هذا على بيته قبل انتهاء المهلة بيوم ، بناته أبدين ضيقاً وامتعاضاً ، اجبرهن على طاعته ، لابد أن يتأكد لدى دحروج أن الحاج رجل طيب ، مرب فاضل كما تتحدث عنه كلمات الطلبة فى المدرسة ، كما وصفه المدير فى العدد السنوى من مجلة المنطقة التعليمية ، فى كل ليلة يصغى إليه ، إذ يسكت دحروج لحظات يمسك أنفاسه خشية أن توجه الفقرة التالية ضده ، تتعاقب عليه الانفعالات . ما يرعبه أن يتحدث دحروج عن البنات ، بالأمس أبدت سعاد إبنته ضيقاً ، تعودت عمرها كله استذكار دروسها من الخامسة حتى الحادية عشرة ثم تنام ، كيف تغير نظامها وامتحان التوجيهية مقترب ، أحاطها بذراعيه ، دفعها أمامه ، كاد يكم فاها ، قال . . لا تزعقى ، عمك دحروج لم يتعرض لنا ، عمك حر صباح اليوم جاء بيومى السائع بمصلحة السكة

الحديدية ، قدم إليه عريضة قال إن نصف سكان الحارة وقع عليها والباقى سيوقع ، سوف تحدث العريضة صدى كبيراً لدى المسؤولين ، خاصة بعد طلبات دحروج الغريبة من الأهالى وإصراره على نومهم مبكرين وتوحيد طعامهم اليومى ، على أن يتولى الطهى بيتان أو ثلاثة يومياً لكل الأسر مقابل مبلغ يتفاوت طبقاً لقدرة هذا وذاك يدفع أول كل شهر إلى حسن أفندى متولى شخصياً قال بيومى أن المسؤولين سوف يتدخلون فوراً ، لأن العريضة سترسل بالتلغراف والمطلوب فقط قرشان والتوقيع ، الحاج حمزة لم يدع بيومى يكمل ، تفجر هدوء عمره كله .

« إسمع . . » .

أسرع يطل من النافذة ، زعق مخاطباً أهالى الحارة ، بيومى يقف فى الصالة ، إنه لن يوقع على أى عريضة ضد جاره القديم دحروج النمرسى ، (وهنا علا صوته تماماً ، وهذا ما لم يعهده أهالى الحارة) . إنه غير منزعج أبداً ، وما يفعله دحروج من حقه تماماً ، سكت لحظة ثم زعق أنه لا يمت بصلة إلى حارة الطبلاوى ولا يعتبر من سكانها لأن مدخل بيته وشرفته الرئيسية تطل على شارع قصر الشوق ، أما النافذة التى تصله بالحارة فسيرسل فى طلب نجار ليسدها فى الحال ، برغم هذا فيصغى إلى دحروج وينفذ كل ما يأمر به ، خاصة وأن صحته وصحة الأولاد تقدمت بعد نومهم مبكرين . إنه ينصح جيرانه نصيحة لوجه الله ، الحذار ، الحذار من أى عمل خفى ضد دحروج ، لأن الرجل مكشوف عنه الحجاب . وإلا . . كيف تأتى له معرفة نص عريضة عبد المقصود أفندى كاملاً ؟ ؟ .

(٣)

فترة تلى أذان الفجر ، يتحلل على مهل سواد الليل ، تولد ملامح البيوت تتخلق ألوانها من جديد . ومن نبع خفى يظل بخار أبيض منظور عالق بالفراغ ، بلاط الحارة يلمع تحت ضوء الفانوس الغازى الوحيد الذى يبدو يتيماً شاحباً فى مواجهة ضوء نهارى وليد ، ومن نافذة متسعة فى الطابق الأول بالمنزل

الرابع تطل الست روحية مع أولادها السبعة صامتون يصغون إلى ما يقوله دحروج ، أيضاً عائلة أم حسنى حتى الجدة العجوز ، منذ فترة وجيزة سكت ، بدت نافذة بيته مغلقة ، بنية اللون ، لم يرها أحد تفتح أبداً ، يعرفون أنه لن يكف تماماً إلا فى تمام السابعة ، لهذا ينتظرون الآن استئناف الحديث فى أى لحظة ، فجأة إنبثق صراخ رفيع ، حاد مسنون ، عويل مستأنف يذله الجسم والنفس معاً ، ممدود مقبض فيه خلاصة العجز الإنسانى فى مواجهة أمر قاهر ، بدأ فردياً ثم أصبح جماعياً غليظاً عبوساً . نظر الساهرون من السكان إلى منزل صالح أفندى ، فتحت نوافذه بصعوبة خرجت كلمة من بين العويل . .

يا خويا . .

إستعاذ أهالى حارة الطبلاوى بالله ، كلهم بدون استثناء ، بدأ خوف غامض على وجوه السيدات ، ينظرن إلى نافذة دحروج المغلقة وكأنها باب للفرج أوصد ، أول أمس صاحت امرأة صالح أفندى فى تمام الثانية صباحاً مخاطبة دحروج ، تحدثه . . إذا أحاط بكل ما يجرى بالحارة ، طالما أنه أوتى معرفة ما سيحدث ، وبعض الأهالى يقولون برفع الحجاب عنه ، فليقل لها إذن هل سيشفى ابنها تيسير؟ وحيدها المريض منذ عام ، الذى حارت به ولفت على جميع المستشفيات ، يذكر أهالى الحارة الآن صمت دحروج ، ثم قوله المقتضب « يا أم تيسير ، لوطلعت شمس يوم الثلاثاء على ابنك ووجدته حياً سيعيش مائة سنة » ثم استأنف كلامه العادى ، الآن يبدو الثلاثاء جهماً لا يطاق وتذوب الأحشاء فى العويل القاسى ، والشمس على وشك الشروق .

(٤)

حتى مغيب اليوم التالى على ما أذاعه دحروج . لم تدر حسنية ماذا تفعل هل تذهب مع أولادها الأربعة إلى ورشة الحاج بندق صانع التماثيل الخشبية ، تولول ، تجمع عليه الخلق ، تحكى كيف تزوج فتاة صغيرة ، ويبالغ فى تدليلها ولا يعطى بيته مصروفاً كافياً ، لم تقصر فى حقه ، بداية حياتهما هنية طرية ، فى سنين زواجهما الأولى رأت امرأة شعثاء جاحظة ، تدفع سرباً من الأطفال وتحمل رضيعاً ، تقف أمام دكان موبيليتى ، تطالبه بالمصروف ، تركها منذ

أسابيع ، تذكر الدم المتدفق إلى وجه المرأة ، عروق رقبتها النافرة الزرقاء ، يومها قالت « بندق لن يفعل هذا بى أبداً » قبل عودته تطمئن إلى نظافة البيت ، تمشط شعرها ، تتهيأ لاستقباله ، تروى بدنها بالأطايب حتى تبدو ريانة يستريح إليها من عناء يوم طويل ، الآن لا تجرؤ على الذهاب إلى الورشة ، ربما يبهدلها ، ستجرى فى أروقة المحاكم ، تتوه فى طرقاتها فى نظرات الكتبة الشبان والعجائز ، تبلى فى الانتظار ، لا تقدر على العودة إلى البلدة ، شقيقها لن يحتملها مع أولادها ، لن تطيق نظرات الحريم ، يقلن فيما بينهن « لم تنفع فى مصر » لا تدرى ما تفعله الآن ، هل ترمى نفسها من الطابق الرابع ؟ تتخلص من ضيقها ، تنهى أوجاعها ومصائبها ، إذا لم تمت ربما قضت بقية عمرها عاجزة لا تصلح لعجين أو خبيز أو غسيل ، من يدرى ربما يرق قلبه إذ يراها مصابة ، يحن ويرجع إلى أولاده . . جاراتها نصحتها بالمضى إلى دحروج . تقف تحت نافذته ، ترفع صوتها راجية أن يدلها أى السكك تسلك ؟ .

(٥)

. . أمام جامع سيدى مرزوق ، يقف حسن أفندى متولى ، يقرأ الفاتحة . فيما بعد لم يدر الحاج بيومى هل تم اللقاء مصادفة أم تعمد مقابلته ؟ عيناه حمراوان ، لم ينم ليل الحارة ، لم يتعود على النوم فى تمام الرابعة والنصف لا يمكنه الآن إلا الإضجاع أثناء حديث دحروج ، قال حسن أفندى انه لا فائدة من أى عمل تم حتى الآن ضد دحروج ، حتى عريضة عبد المقصود أفندى المشهور بصياغة العرائض وحبكها لم تأت بأى نتيجة ، بل ان أحد صورها المرسلة إلى جهة رسمية أعيدت إليه لأن البريد لم يستدل على عنوان إحدى الوزارات ، ثم ما هى حال عبد المقصود الآن ؟ بيته خرب بعد عمار هجرته الست وجيدة بعد أن أغرقها بالشك ، قال حسن أفندى إن ما يقوم به دحروج لا يوافق عليه ، وهو لم يقصر فى سبيل إيقافه عند حده ، وأهالى الطيلاوى يعرفون كلهم ، الكبير منهم والصغير ، إنه أول من ذهب إلى القسم على رأس وفد من الحارة وقدم بلاغاً وقع عليه أمل بصوت عالٍ رقم بطاقته العائلية ،

وحتى الآن لم يحدث اى استدعاء لدحروج ، فلم يره أحد يخرج من بيته ، لم يظهر أبداً لدرجة أن بعض الشبان المتهورين الذين لا يدرون آخر العواقب ، قالوا فيما بينهم لا وجود لرجل اسمه دحروج ، وإلا فأين هو؟ أما الصوت الذى يخاطب الأهالى فربما بعض الأشقياء يريدون فرض أمور خطيرة على الحارة ، وما الصوت إلا تسجيل يضعونه بين الحين والحين ، وربما تتعرض الحارة لظاهرة خفية ، وأمور غير مرئية وعندما ذهب أحدهم إلى بيت دحروج ، تناقش مع مسعد أفندى أكد له وجود دحروج وامرأته غويشة وهذا أمر لا ينكره إلا أجنبى عن الحارة أو مجنون ، لأنه يعيش بينهم طوال عمره ، صحيح لم يسمع له حس ولكنه لم يحتجب إلا بعد بدئه الحديث مع الأهالى ، وقال مسعد أفندى إنه أدرى بوجوده لأنه يسكن تحته ويسمع صوت تحركه بالليل وبالنهار ، وهنا ارتفع صوت حسن أفندى ، هل تعلم ماذا جرى يوم أمس لشكرى أحد الشبان ، قال بيومى إنه لا يعرف بسبب تغيبه فى السفر ، قال حسن أفندى ، فى المساء قال دحروج كل ما تناقشوا فيه ، وحذر شكرى مثير الشكوك ، ثم أنذره بعدم الذهاب إلى

مثير الشكوك ، ثم أنذره بعدم الذهاب إلى امتحان الكلية ، ولو خالف فسيذيع الأدلة الدامغة بانتمائه إلى أحد التنظيمات السرية التى تعمل ضد الحكومة ، قال حسن أفندى أيضاً ، إنه رجل هادىء بطبعه لا يحب الإزعاج ولا يطيقه ، قال حسن أفندى انه يؤمن بعدم فائدة النطح فى الحجر ، وأن النقش على الماء عبث ، والنفخ فى قربة مقطوعة مضيعة للوقت ، لهذا كله ،

ولأسباب عديدة ، بعضها خفى وبعضها معلن ، يرجو من الحاج بيومى سحب توقيعه من . . قاطعه الحاج قائلاً انه أرسل العريضة فعلاً ، صحيح أن السكان لم يوقعوا فعلاً كلهم لكنه أرسلها حتى يحرك المسؤولين ، استفسر حسن أفندى عن الجهات التى أرسلت إليها العريضة وكتبها فى ورقة ، أبدى غماً .

قال انه سيرسل إلى كل منها تلغرافاً يعلن تراجعه ، سيكلفه هذا كثيراً لكنه سيضحى بماله إيثاراً للهدوء ، قال ان الناس يحبون لبعضهم الأذى . ولا يصح للحاج ولا لغيره إرسال العريضة بدون أخذ آراء من وقعوا عليها ، احتد الحاج

بيومى قائلاً ، مجرد التوقيع يعنى الموافقة على إرسالها ، زعق حسنى أفندى ، أبداً ، أبداً ، لا يوجد ولن يخلق من يعلمه الأصول ، هو موظف الحكومة الذى قضى عمره بإدارة مكافحة الدودة ، قسم الفقس . علا صوت الحاج بيومى موضحاً ، أنه هو أيضاً موظف حكومة ، أليس السائق بالسكة الحديدية موظفاً رسمياً يقبض مرتباً شهرياً ويتقاضى علاوات أكثر من التى يتقاضاها موظف فى الدرجة السابعة ، مط حسن أفندى شفتيه احتقاراً ، توقف بعض المارة ، تجمعوا حولهما .

مشاهدات الرقيب صالح عبده ، بالأمن الخاص فى حارة الطبلاوى عندما جاء يستطلع الأحوال . .

« يا حاج بيومى . . يا حاج بيومى . . » .

كان البعض يجيب بتصفيق مماثل ، الضوء عال ، والنهار شاحب مرتحل هدوء ثقيل مراق بسخاء ، منذ دخوله الحارة لم ير طفلاً ، أو امرأة ، عادة يتصايح الصبية حوله ، يمشون خلفه يتوقعون منه حركة عنيفة مفاجئة فيحتفظون بمسافة معينة ، ربما أتقن الأهالى هنا تربية أولادهم ، حرموا عليهم اللعب فى الحارة ، توقف فى الطابق الأول أمام باب جهم المنظر ، خبط مرات ، لم يجب أحد ، دق الباب بعنف ، حركة صغيرة مترددة ، صوت شبشب ، عاد يطرق الباب ، يأتى همس ، إثنان يتبادلان الحديث ، لم يدر أهما رجلان أم امرأتان أم رجل وامرأة ؟ مرتين ، علا صوت .

ما هذا الإزعاج ألا نستطيع النوم فى راحة ؟

الحاج بيومى موجود ؟

فوق . . فوق يا عالم ارحمونا ودعونا ننام . . .

طلع الحاج ملتفاً فى عباءة قديمة من وبر الجمل ورثها عن والده ، عيناه ضيقتان ، فيهما آثار نوم ، الشرطى صالح لا تزعجه مثل هذه المقابلات . أمثال الحاج يتباهون قائلين . . طول عمرنا لم نمض إلى قسم بوليس ، ولم نقف أمام نيابة .

« أنت قلمت » .

لم يكمل الشرطى صالح حديثه ، قاطعه الحاج ، صوته رفيع حاد كصفير قاطرة متحشرج .

« أنا لم أقدم ولا أشكو . .

« ولكن . . .

« تنازلت يا أخى تنازلت عن الشكوى والعريضة ، المصارين تتصارع فى البطن ، ما بالك ونحن جيران ؟

ينظر الشرطى صالح دهشاً ، قال الحاج انه تنازل عن كل شىء وأنه على استعداد للذهاب إلى السجن بسبب إزعاج السلطات ، لكن أن يسأل سؤالا واحداً حول جاره العزيز لا . . ثم يجب على الشرطة اختيار الوقت المناسب للحضور إلى الناس ، أما إقلاقهم فى أحلى ساعات النوم . . نزل الشرطى صالح إلى الحارة . نوافذ البيوت مغلقة ، تلفت حوله حائراً ، دخل بيت دحروج ، فى منتصف الليل قبل بدء الحديث اليومى ، قيل ان دحروج خرج وتحدث للشرطى فعلاً ، وأن ضحكاته سمعت واضحة لمن لم يدركه النوم فى المواعيد المحددة ، أيضاً استفسر دحروج عن بعض الأشياء ، أبدى اهتمامه تجاه أسماء معينة ، أبدى الشرطى دهشة قال دحروج انه يعرف هؤلاء كلهم وكبيرهم رهن إشارته ، ثم أوصاه بإتمام إجراءاته على أتم وجه ، فى هذه اللحظة دخل الحارة المعلم يونس الفران ، رآه الشرطى صالح يرفع يده بالتحية إذ يمر تحت بيت دحروج ، النوافذ مغلقة لكنهم يثقون أنه يراهم ، يعرف من ألقى السلام ومن لم يلقه ، يعرف من جرؤ على تناول الطعام بمفرده خارج الحارة أو فى بيته ، الحاج حمزة يفتح النافذة يومياً قبل نومه ، ويزعق بالسلام حتى بعد تعرض دحروج بالكلام لابنته الصغرى ، وذكر بعض تفاصيل علاقاتها بمدرس الكيمياء ، أم تيسير منذ رحيل إبنها ، بمجرد أن يبدأ دحروج حديثه تنزل مهرولة بقميص النوم ترفع ذراعها زاعقة تحت النافذة « الله أكبر . . الله أكبر » عليه وعلى شبابه ، دحروج بركة ، أى مخلوق يجرؤ على شكواه ستناله ، مصائب ومحن ، وتغرقه رزايا ، حتى الحاج أحمد تاجر

الورق ، المريض بأعصابه ، قال لكل من زاره أخيراً أن صوت دحروج الليل لا يزعجه بل ينبئه أن شفاءه سيتم قريباً ، وأنه قبل ما كلفه به دحروج من قيامه بدور الوسيط بين المتخاصمين في الحارة بعد فترة أيقن رأفة دحروج به ومراعاته لظروف مرضه ، لم يعد يتخاصم أحد ، ومن لديه وجيعة يمضي بها طارحاً إياها أمام دحروج ، أسند إليه أخف المهام ، وفي الواحدة صباحاً يقف بالشرفة ويضحك ويهز رأسه موافقاً ، يصيح مستحسناً ما يقال ، عند باب الحارة توقف الشرطي صالح عبده لم ير أحدا ، لا ينوى توجيه أي سؤال ، رأى طفلاً صغيراً يتجه إلى مدخل الحارة لمعت عيناه لحظة واتجه إلى الطفل انحنى حتى قارب رأسه . .

اسمك يا شاطر ؟

سعد . .

أنت من هنا . . من حارة الطبلاوى . .

أومأ الطفل ، بدا قلقاً ، الأطفال لا يكذبون ، كواجب أخير سيحاول أن يتعرف منه . .

— يعنى ألم تسمع ميكروفوناً أبداً بعد . .

هز الطفل رأسه ، ابتسامة مرتعشة قلقة . .

خيالات يا شاويش . . أبداً . . أبداً . .

هل تنام يا بني . .

رفع الصغير عينين شاحبتين ، بدا متعجباً ، أي سؤال هذا ؟ ما الذى يقوله هذا الشاويش ؟ انفلت يجرى مسرعاً .

« تأشيرة على المذكرة الإيضاحية رقم ١٠٦ م وعلى تقرير الشرطي صالح عبده ، وعلى عرائض مقدمة من بعض أهالى حارة الطبلاوى ، وشكاوى من مجهولين ، ونصوص مكالمات تليفونية ، لمواطنين رفضوا ذكر أسمائهم .

« يحفظ . . . » .

تم بحمد الله

جمال الغيطاني

إتحاف الزمان
بحكاية
جلي السلطان

إتحـــاف الزمـــان بحكـــاية جلبى السلطان

كان الغلام عبد الرازق يجلس أمام دكانى ، كان يتيم الأب ، بل ان واحدا من أهل الخط لا يعرف ولا يذكر له أبا ، أما أمه فأمرأة ضائعة تسوس الخيل ، تتشاجر دائماً مع النساء بسبب وبدون سبب ، غير أن عبد الرازق كان صغير السن ، هادىء الطبع ، يحبه الزبائن لرقة خلقه ، وخفة يده ، ومهارته ، ولم أسمعه فى حياتى يزعق لانسان ، وحببنى هذا فيه فسمحت لـه بالجلوس أمـام دكانى . . واذا ما طفش المماليك فى السوق كنت آويه فى زمامى ، وقد توافدت عليه خدام القلعة ، والبيوت الكبيرة . . بل ان محمد المهتار يرسل فى طلبه فيروح عنده يحلق له ، حتى جاء يوم علت شمسه ، وكثر حره ، وتعاظم غباره ، فكأنه غضب من الله رب العالمين ، على عباده الظالمين ، بدا المهتار فى أول الطريق ، راكبا بغلته ، فصار الخلق يتساءلون عن وجهته ، وحقيقة مقصده ، وعندما حط ركبه أمام دكانى . . انخلع قلبى ، وأرسل جيرانى التجار يطلبون حامى الحسينية ليدفع عنا ما قد يقع علينا ، فى هذا اليوم لم يحلق عبد الرازق الا لرجل أو اثنين مما جعل رأسه يغفو ويقع على صدره ، وعندما رأينا المهتار يشير اليه ، ترحمنا عليه ، ورحنا نخمن ما سيجرى له ، أمره المهتار بلم عدته ، هنا أنكرش نفس الغلام

ولم يعد يدرى يمينه من شماله ، فكأنه والعياذ بالله قد أدرك يوم القيامة من دوننا ، ولم نستطع أن نهون عليه ، ولم يحس بنا . . ولا بأهل حارته وهم يسعون وراءه يترحمون عليه ، ويأسفون على شبابه . . أما شيخ الحرفة فأخبرنى فى وقار . . انه لو عاش لبقى له مستقبل عظيم . . ولصار مزينا صاحب محل ، يجلس عنده الزبائن ، ويضع على صدورهم الفوط المنقوشة ، وقد جاءت أمه مسرعة ، حولها نسوة ينحن ويصرخن . . ولما زادت عن الحد ، خرجتأمرتها بالنهى عن هذا . .

أما سبب ذلك ، فانه كان لمولانا الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى أعز الله به الاسلام ، آمين ، لحية تحيط وجهه بمهابة يرتاع لها أصحاب القلوب الجامدة ، وقد قام على حلاقتها جلبى خاص عرف بأسم علم الدين ، وكان الجلبى ذا هيبة وسطوة ، اذ ينزل من القلعة تمشى بين يديه الغلمان ، يركب بغلة عالية ، فوق كتفه فوطة حرير كشمير ، وهذا شرف لا يناله الانسان كأى شىء كان فى ذاك الأوان ، غير أن الدنيا غرور لا تستقر على حال ، فقد حدث أن أشار الأمير شاربك الأعور الى لحية مولانا ، قال انها لم تعد تبدو كما يجب ، فانزعج مولانا انزعاجاً شنيعاً ، وصار يتأملها ، وبيده يتحسسها ، وبأصابعه يتخللها ، وسرعان ما ركبه الهم ، وتدفق الى رأسه وخلف عينيه الدم ، فض مجلسه ، وقام الى غرفته وأرسل فى طلب علم الدين ، فأحضروه مشكوكا فى الحديد وصاح فيه ، تفعل ما فعلت بلحيتى ؟! وبعد أن بهدلوه آخر بهدلة أمر مولانا فقطعت رأسه . . غير أن الأيام توالت ، ولحية السلطان تعظم ولا تجد من يهذ بها ، وعرضوا عليه عدة حلاقين ، فلم يعجبه أحد ، حتى دخل عليه محمد المهتار ، وقال إنه يعرف جلبى صغير ، فقير ، ناحية الحسينية ... يدعى عبد الرازق ، لكنه يحلق مليحا ، فقال مولانا : لا ممانع ... أحضره لنا حتى نجربه . .

* * *

انقض علىّ الخدم ، فغسلونى ، وهرشونى باللوف العظيم ، أبدوا تقززا وقرفا ، غير أنى لم أبال ، فقد كنت مشغولا بما جرى لى ، وما قاله محمد المهتار ونحن فى الطريق ، السعد والجاه بين يديك ، وظلوع نجمك أو انخسافه أمام عينيك ،

والمطلوب منى بسيط ويسير . وهو أن أتقن الحلاقة الأولى اتقانا عظيما ، عندئذ من يدرى ، ربما أعطانى مائة دينار ، أو . . أو . . مائتين . . طلعت الى قاعة صغيرة ، رخامها يسطع ، وستائرها تلمع ، فى الأركان الأربعة يقف حراس يحملقون الى ، رحت ، ثم جئت ، ثم نظرت من الطاقة الضيقة ، وجف قلبى ، الفراغ فسيح لا أول له ولا آخر ، وتحت كانت البيوت والمآذن ، والغبار ، والصيف عامل عمله ، البلدة كلها ملقاة تحت ، والغريب اننى شغلت نفسى ، محاولا أن أحدد فى أى المواقع أسكن . . ؟ وكيف تبدو القلعة كرسى السلطنة . عندما أنظر اليها من بين الحوارى ، سمعت صوتا ينادينى ، التفت فاذا به محمد المهتار ، قال : تجهّز .

* * *

غير أن رئيس ديوان الخلع والهدايا أخذته حسرة نفذت الى مرارته فى اليوم التالى ، فقد جاءه الأمر الشريف بصرف كل ما يلزم عبد الرازق ليملأ وظيفة الجلبى ، الى جانب الخلع عليه بفروة سمور . . وفوطة حرير كشمير ، وبالفعل . . فقد صرف له رئيس الديوان بغلا عاليا ، عليه كنبوش لونه أصفر ، تتدلى منه شراشيب ، وأيضا وسائد ، وحشايا ، وستائر ، ودواة ، وعشرون ذراع حرير شاهانى لا يوجد مثيله ، وصار رئيس الديوان يقلب يديه من الدهشة ، وكأن عبد الرازق أدرك ما يجول فى خاطره فابتسم ابتسامة هادئة حيرت الرجل وأسكتته ، وجعلته يناجى نفسه ، فمن بعد الحلاقة للعوام والجعيدية والعبيد وأوباش الخلق ، وامتلاء حجره بالقمل يصير جلبيا للسلطان ؟ وهكذا ينال ما لم ينله الرجل طوال عمره ، وعندما أخبره عبد الرازق أنه مسافر مع السلطان الى الفيوم . . تعاظمت حسرته ، فبعد عشرين سنة من خدمة السلاطين لم ينله شرف كهذا ، أما عبد الرازق فها هو يمضى مع الحاشية ، وربما سئم مولانا فدعاه الى مسامرته ، وربما أعجبه فيصير من خاصته ، عندئذ يلجأ اليه ، ويقف عند بابه ليقضى له حاجة ، ويكون فى نظره انسانا محقرا ضائعا لا قيمة له ، من بعد أن كان لا يجرؤ لعبد الرازق الحلم فى أن يحلق له ، برقت

عيناه وهو يرتدى الخلعة الفرو السمور ، وكاد الرجل أن يصيح غيظا لما أبداه عبد الرازق من هدوء وكأنه تعود على هذا ، غير أن رئيس الديوان هنأه فى صوت خفيض .

***

« . . عندما تمهل الموكب أمام متجر العطار . . بدا سامر من أيام بعيدا قاصيا ، بل انني ـ ساءلت نفسى . هل نوديت يوما بالغلام عبد الرازق ، وهل هذا الرصيف أكل حتتا من لحمى طوال جلوسى فوقه ، وهل حقا مر بى يوم فرحت فيه فرحا مهولا لأن واحدا من خدام القلعة حلق عندى ، واذا جاءنى تاجر صبغة ، أو عطار ، أو حمال ، أكرر عليه بسبب أو من غير سبب أن خادما من خدام القلعة حلق عندى قبله . . راح زمن من عمرى فى هذا . . وعندما تحرك الركب مرة ثانية ، ارتفعت الأصوات بالدعاء ، أهل الشارع لم يعرفونى ، فعمامتى عالية . . وخلعة مولاى الحمراء تبرق على كتفى ، ومن أين لهم أن يعرفونى ؟ ، وفجأة ارتعبت ، أفق ياعبد الرازق ياجلبى ، ربما أنت فى حلم ، لكن استغفرك ربى ، هل جرؤت يوما على الحلم بمثل هذا ، فى السكة الى الفيوم ، كانت محفة السلطان تحط كثيرا ، أجلس بجوار رجاله ، الأمير الداودار الكبير ، بينى وبينه مقدار ذراع واحدة ، التزمت الصمت حتى لا أتفوه بلفظ قد يقع من قلوبهم موقعا غير حسن خاصة أن كلهم يعرفون أصلى ، بل أنى حافظت على سكناتى وحركاتى تمنيت لو أن لى عينين أرى بهما نفسى من الخارج ، أرقب أفعالى وهل هى لائقة أم غير لائقة ، بل أخرجت أنفاسى حذرا لئلا تزعجهم ، قطلعت إلى أرباب المملكة وحملة السيف ، وفرسان الاسلام ، أحاول التعرف عليهم ، يقول مولانا مخاطبا هذا العجوز الأعور . ياشاربك ، أعرف أن هذا هو من يلقى الرعب فى قلوب العامة ، ولو ذكر أسمه لسقطت الحامل اذ تسمعه . عندما يبدو موكبه ويسمع الناس انه أزمع الركوب والنزول من القلعة ليشق من المدينة ، يغلقون دكاكينهم ، يلمون حاجاتهم ، فهو قاس لا يرحم ، يحتكر بيع الخيار الشنبر . اذ وجدته رقيقا فى نفسه ، يتكلم أمام سيدنا ومولانا بتواضع أن لم

يكن مسكنة ومذلة ، حرت فى أمره ، حتى كدت أقول انه غير ما نسمع عنه ، هل يتصور العامة أن شاربك أو شربة الأعور كما يسمـونه يـركع لمخلوق ؟ ، سخرت منهم ولعنتهم فى نفسى ، من يدرى ، ربما كان هذا الشيخ الـرّمال ـ ضارب الرمل ـ والجالس بجوارى يقرأ فكرى ويطلع على سرى ، عندئذ يعرف أننى ألعن السوقة لأنهم قالوا ما قالوه عن واحد من رجال مولانا . تعرفت أيضا إلى الأمير ططق باى ، وقاضى القضاة ، وهو شيخ مهيب ، ذقنه عظيمة يفوح منها المسك والعنبر ، والله أهالى الناحية بلهاء مجانين ، قاتل الله الضعة ، يتقولون على الصالحين . . . شهور كاملة ظلوا يرددون فيها إنه برطل على السلطان برطيلا مهولا يقدر بعشرات الألوف من الدنانير حتى يعينه قاضيا للقضاة ، اعتدلت فى جلستى ، وكلما مضى الزمن رأيت فيهم أناسا لطافا خفافا يتحدثون مثلى . . بل يمزحون ، يسخرون ، ويتناغشـون . أوغل الليـل والهواء لا يهش ولا ينش ، ولاحظت أن الأمير المقرى نظر الىّ ، مرة أثر مرة ، خفضت نظرى ، ضحك ،

قال لمولاى بلسان فصيح : الجلبى ساكت كالحجر ، أليس عنده ما يبهج مولانا خاصة وأن الجلبية يعرفون من الحكايات مما لا أول لـه ولا آخر ؟ ، احـاطتنى العيون ، الاذان تنتظر ما أقوله ، ارتج علىّ ، غير أنى تداركت نفسى ، قلت وعيناى تطرفـان ، الأدب واجب فى حضرة الملوك ، صـاح أكثر من واحـد : الله . . الله . . وفجأة مال سلطان المسلمين وحامى البيت ، ولاحظت أن لحيته تبدو أكثر مهابة وحسنا وجمالا عـما رأيتها أول يـوم ، وياللعجب صـوته كـأى صوت ، ونظراته ، سكناته وحركاته ، رحت أتملى وأسمع ، طاف خاطر خبيث بذهنى طردته كما تطرد ناموسة ثقيلة الظل ، كأنى سمعت الصوت ، شيخ عجوز يبيع البسبوسة تحت باب الفتوح اذ يراه القوم مقبلا . . يتزاحمون حوله ، يقف متشامخا فى نفسه ، متعاظـما فى روحه ، يقـول بصوت عـال غليظ كأنـه يقطر سمنة . . بالدور . . بالدور . . ارتعبت من المقارنة ، لعنت فكرى ، الأيام التى رأيت فيها بائع البسبوسة ، غير أن ما قاله مولاى أنزل بردا وسلاما على قلبى ، غمر صدرى راحة ، مليح . . مليح ، على من تلقيت علمك ياجلبى ؟ قلت بمنتهى الأدب : على يد أشهر المزينين فى مصر ، المعلم الزيتونى رحمه الله وأحسن

اليه ، ضج المجلس بالضحك ، انهمر العرق من رأسى وابطى وعنقى وسائر جسمى ، هل أخطأت ، أذنبت ، أى جرم ارتكبت ؟ غير أن قاضى القضاة قال : هذا علمه يامولانا . وعندما تكلم انحنى متوددا متأدبا ، وهذا بسبب ذكر اسمى . . « ياعالم هل رجل فى مثل ورعه يبرطل على . . وعلى من . . على السلطان ؟ » . أحنيت جسمى . . مليح . . مليح . . سألنى عن أى الأماكن كنت أسكن . . فأجبته اجابة شافية ، وسألنى عن حال الناس فى الخط ، وما يقولونه ويمضغونه من كلام ، وأشهر الحوادث التى كثر الحديث عنها . . ؟ فحكيت له عن المرأة التى ولدت طفلا له رأسان ، أبدى تعجبه ، استعاذ بالله . .

قال كيف لم نر ذلك . . ؟ وراح يستفسر عن هيئة المخلوق وصفاته ومنظره . . ؟ وأنا أصف وصفا شافيا جامعا وكأنى رأيت الغلام بنفسى ، استعاذ بالله ، وقال الأمير شاربك أنه سمع بمثل هذا فى الهند ، الليل فوقنا يوغل فى العتمة ، تثائب مولانا لأول مرة ورأيت أسنانه ، أغمض عينيه . . رأيت جفنيه غليظتين منتفختين ، فجأة فتحهما وقال : أنت جلبى مليح . . ابتل قلبى بماء الورد ، غرق صدرى فى روح النعناع ، قمت واقفا . قبلت الأرض بين يديه ، لم يمض الكثير حتى فض مولانا مجلسه ، انصرف الجمع كله ، أقبل على بعض الأمراء يهنئوننى ، السلطان قال عنى جلبى مليح ، أثنوا على ، فى خيمتى لم أنم ، وبعد عودتنا اذا قابلت واحدا من الحاشية يوقفنى ويبارك لى ، قال السلطان أنت جلبى مليح ، وأخبرنى الشيخ أحمد ضارب الرمل ، هذا القول له مثيل واحد فى التاريخ ، امتدح المنصور قلاوون فى سالف العصور طعام خادمه ، وكثيرا ما يقابلنى الأمير شاربك نفسه . . ألمح فى عينيه رغبة فى أن أحلق له ، لكن من يجرؤ على طلب هذا من جلبى السلطان ؟ لو أخبرت السلطان لأطاح برأسه ، من يدرى ، ربما يريد استمالتى اليه . . ثم يوزنى لأقطع رقبة مولانا عندما يسلمها لى وتصبح تحت رحمة موسى ، أرسلت فى طلب أمى ، فتحت ذراعيها وأرادت أن تضمنى فى أحضانها . قلت ياولية نحن الآن أصحاب جاه ، أهدئى . . هنا ستأكلين اللحم كل يوم ، وتلبسين الحرير والديباج ، بسطت كفيها ، دعت لى ، فى المساء رحت أرقبها وهى تأكل اللحم ، بعد أن صرفت الخدم ، حارت بين

المقلى والمحمر ، وأصناف المشموم والفواخيت . . تذكرت أيامى الأولى فى القلعة ، كيف اذا جاءنى الأكل لا أترك أثرا من فرخة أو قطعة من لحمة ، الخبز لم أقربه مدة طويلة ، ولما آلمتنى بطنى عالجنى كبير الأطباء نفسه ، مرتبى من اللحم كبير ، لن يؤاخذنى أحد ، ساعات أقول إن الأكل يكفى حسين ومحمد عبد العزيز واسماعيل وسائر اصحابى فى الحسينية ، اذ أتذكرهم ينبعث فى نفسى ضيق ، ما ولى من أيام يبدو قريبا ، كأن السنين وجه له وعينان كبيرتان تحملقان الىّ فى سخرية . . انسان موجود فى مكان لا أعلمه ، يد ضخمة تمتد لتلحقنى وترمينى من كل هذا النعيم ، اذا ما رأتنى أمى تقول لى أعطاك الله وأعطاك . . تمتع ياولدى . . تمتع . . آن لى أن استريح ، مرة طلبت منى اكمال نصف دينى ، بسطت يدى ، من أين . . ؟ قالت انها تعرف بنتا مليحة وفقيرة ابنة سقاء ناحية سيدى البيومى ، ما أتكسبه لم يكن يقيم أودى ، ويسد رمقى ، واذا ما رأيت امرأة فى الطريق ألهث ، ويسيل ريقى ، لكنى أدوس هذا كله ، ولم أقرب امرأة قط . . »

وفى السوق تعلو نداءات الصبيان مشيرين إلى النساء فوق المصاطب ، أنظر ياسيد ، ليس كل ما استدار جوزة ، ولا كل ما استطال موزة ، ولا كل ما أحمر لحمة ، ويتحسس عبد الرازق صدور البنات الصغيرات . . يتأكد منفوره واستدارته ، كذا نعومة الجلد وتماسك الردف ، وعن لتاجر الرقيق التركى ان يسأله عن السر الذى يجعله يتخير الصغيرات دوما ، وكان قد استوثق من صحبة التاجر ، وصار يسهل له الكثير من شئونه لدى الحكام ، وقال عبد الرازق ، انهن يذكرنه بسنين تمنى لو نالهن فيها ، غير أنه فى المرة الأخيرة انتابه غضب ، فقد تدافع حوله سفلة القوم ، وصاروا يقدمون له الرقاع ، والصحائف ، ليقضى بعض حاجاتهم . . راحوا يصيحون ، يزعقون ، وبأيديهم فى وجهه يلوحون ، مما حير التاجر التركى ، وأعجزه فهم ذلك .

* * *

بدأ المنادى يقرع طبلته منذ تجاوزه باب الفتوح ، ياأهالى الحسينية ، صار

علم الدين الرومى غريبا عن الخط ، وليس متحدثا عنه ، ولم يعد فى حمايته ، وعلى كل من لديه مظلمة أو شكوى ، كل من عليه مال متأخر للسلطان وعلى المتخاصمين وأرباب القضايا والمنازعات ، أن يتوجهوا فى كل حالهم ومآلهم الى حامى الخط ، والمتحدث عنه ، وحاميه أمام المحتسب وكرسى السلطنة ، المعلم عبد الرازق جلبى السلطان ، وشيخ الجلبية فى كافة أنحاء بر مصر . .

* * *

« . . أخبرنى الركبدار أنه عندما شق فى الحسينية اسمعه التجار الكلام المنكى . . وصاروا يتقولون عليه ، اذا كان سيدك نسى أصله وفصله فنحن لا ننسى . . وتوعدوه ، وهاشوا عليه بعصيهم . . زاطوا عليه فى كلامهم ، أخذتنى رجفة ، أكل قلبى الغيظ ، ارتديت ثيابى ، تحلقت بعمامتى ، ركبت بغلتى ، سألنى الركبدار عن المقصد ، إلى الحسينية ، أبدى جزعا وفزعا ، لم أبال ، صحت فيه فجرى أمامى ، تجاوزت باب النصر ، طلعت على خياشيمى روائح الحى ، انقبض قلبى . . كأن غيرى عاش فيه ، ليس أنا ، مررت على دكان العطار ، رميت السلام . . قام واقفا ، اهتزت سبحته الطويلة . . سلم علىّ ، قدم إلى مقعده ، تبسمت فى وجهه ، استغفر الله لم أنسك ياعم محمود ، ارتاح وجه الرجل ، هكذا ناس الحى ، سخطوا على ، ذكرونى بالكلام المنكى لأنى زدت درهما على مجعول الدكان ، لكن بمجرد أن أواجههم ، أكاشفهم ، يخجلون ويتلعثمون ، أما لو واجهنى عالى الحس والصوت . . سأعرفه ، آمر رجالى أن يذهبوا به إلى الجب ، أمام محل العطار راح الركبدار يصيح فى السوق ، « حامى الخط والمتحدث عنه نزل بنفسه ليسمع ويرى حتى لا يدع الفرصة للمشوشين ، وألا يكون لواحد من العباد مظلمة » ، جاؤوا من الحارات والخُوَخ والأزقة فأنا أعرف كيف تسرى الاخبار هنا ، التفت الى محمود العطار ، الكلام لن يبدأ الآ بعد زيارتى لسيدى البيومى ، اشتقت اليه ، حول الجامع رأيت كثيرا من الوجوه التى أعرفها ، هززت رأسى متلطفا ، بدوا فى دهشة عظيمة . . عليهم هيبة ، منذ طلوعى القلعة لم يرونى ، سألتهم عما بهم . . بعد صمت تعالت الأصوات فجأة ، صاح محمود العطار يطلب منهم الاحتشام ، واحترام

المقام ، وأن يتكلم واحد عما يريد الكل أن يتحدثوا فيه فقالوا : أنت عارف يامعلم محمود . لقد زاد الفردة درهما وليس لنا طاقة على هذا . . صاحت عجوز ، رجالى طلبوا منها دفع أجرة دكانها مقدما ، هى لا تملك ما تدفعه ، سيطردونها غدا ، زعقت . . لن أرضى هذا ياعمة . . كم الايجار . . قالت نصف أشرفى ، ضربت يدى فى كيسى ، أعطيتها نصف الاشرفى ، ضجت المرأة بالدعاء ، التفت فجأة وصحت . . « الدرهم الزيادة لابد منه لأن المطلوب منى للمحتسب كثير ، لو ملكت المطلوب لشلت عنهم هذا كله ، زعقت . . هل شوش عليكم أحد منذ أخذت الحسينية فى حمايتى ؟ » أطرقوا مقدار درجة ، قال شاب لا أذكره ، المماليك خطفوا شابة من أمام محمد الخضرى . . ولا يعرف لها خبر ، التفت اليهم ، تكاثر الجمع ، تعاظم العدد ، صحت عليهم . « أعذرونى ياناس ، هؤلاء مماليك مولانا ماذا أقول لهم . . هل أنا عبد الرازق ابن الحسينية أقف قصادهم » . لزموا الصمت ، برغم هذا كله سأكلم الوالى ، وأعرف من هم بالضبط وأين راحوا بها ، ثم قلت : من عندكم خطفت امرأة واحد . . من الأحياء الأخرى هل تعرفون كم . . ؟ وكم من العمائم تنزع من فوق الرؤوس . . وكم من الغلمان المرد يطاردون ، كثير . . كثير . . كثير ياجماعة . أنتم فى نعمة . سكتوا هنيهة . . وقالوا انهم يلاقون صعوبة عظمى فى مقابلتى ، عندئذ صحت ، أحضروا الى زين الدين الجزار ، وكان شابا عفيا قويا ، حسه طالع دائما فى الطريق ، يرهبه الكثير ، سلم على مترددا . . قلت : هل يعترض واحد على هذا ؟ سكتوا . . أنت من اليوم مسئول أمامى وأمام هؤلاء والأهم من هذا كله أمام الله رب العالمين أن توصل إلى كل الشكاوى والمظالم ، اعذرونى . . كما تعرفون أنا جلبى السلطان ومولانا لا يخلو مجلسه منى ، بدا على وجوههم الرهبة ، زين الجزار مفتوح الفم ، لا يصدق ما سمعه ، اقترب منى الركبدار ، همس . قلت : لا تلومونى ياأهلى بعد قليل يصحو مولانا ولابد من طلوعى القلعة ، نزل الصمت ، اندفع أمامى زين الدين يفسح الطريق منافسا الركبدار نفسه ، امتطيت بغلتى ، فجأة انطلقت زغرودة من الطيقان ، ابتسمت ، تكاثف جميع النساء والحريم والغلمان أمام باب

الفتـوح ، استـدار زين الـدين ، زعق عليهم ، أن يـرجعـوا ، عـاد يجـرى بجوارى . . ضربت يدى فى كيسى ونفحته عشرة دنانير ليشترى لنفسه ثيابا تليق برجالى ، أمرته أن يطلع القلعة فى الصباح لنتكلم ، تركته مذهولا ، سائر فتوات القاهرة يرهبونه ، وغدا يطلع عندى وأرتب معه الأمور كلها ، فلا أقلق فى صحو أو منام .

* * *

وكان الأمير كرتباى شديد الحنق على الأمير شاربك الأعور ، فالثانى أكثر قربا منه لدى السلطان ، وحصانه يلى حصان السلطان نفسه . . ورأى كرتباى أن يتخلص منه . . ويرديه موارد التهلكة وبعد طول تفكير ، رأى له أن يتكلم مع عبد الرازق الجلبى ، فقد علا نجمه . . وسطع سعده ، وقرب وعده ، وصار السلطان يوكله فى كثير من الأمور يحل فيها ويربط ، حتى إن أرباب الحاجات ما قصدوا الا بابه .

* * *

« . . وقد أصغيت اليه ، العطر فى الهواء . . حلو ، النافورة ترمى ماءها الى أعلى ، لا صوت من الطريق عندنا ، وأعمدة الرخام السماقى تقف باردة تحمل السقف المزخرف الجميل بحشو الخشب ، مما ليس له مثيل ولا فى القلعة ، عندما سألته عن هذا الشمعدان الرائع ، بدا مبهوتا ، فهو يحادثنى فى عظائم الأمور ، وأنا أبدى اهتمامى بشىء حقير الشأن ، ارتاع وخاف . . ربما ظن أننى سأبلغ شاربك عندئذ ينتكس وينتهى ، رفعت نظرى فوجدته شاخصا الى ، عنـدئذ قلت : فجأة ، ما الذى أنا له من هذا . . ؟ قال لك ما تطلب ، أعطيك من الدنانير والجوارى ما تشتهى ، ضحك ضحكة خفيفة ، فلم يلن وجهى ، قلت فى صوت خفيض ، أكون متوليا لحسبة القاهرة ، أصفر وجهه ، نزلت على عينية حيرة ، قال هذا من السلطان ، أشرت بأصبعى ، ترسل أعوانـك فيضطرب الحال فى السوق . . وتشيع عن الزينى ما يجعلك تطلع الى القلعة وتخبر السلطان أن حال المسلمين قد اضطرب وضاعت حقوقهم . . ولا مفر من عزل الزينى ،

يسألك من يحل مكانه . . تقول لا يوجد غير الجلبى . . فالناس تلهج بـذكره وطيب سيرته ، ولك أن تعلق جثة شاربك الأعور ثلاثة أيام كاملة على بـاب زويلة .

* * *

ونزل فوق الناس صمت حتى لتحس حركة الجنين فى بطن أمه . تحيروا فى أمور الزمان ، كيف تلتف المشنقة حول عنق هذا الـذى قارب ذا القـرنين فى جبروته وعنفوانه ، ها هو يعلق رأسه كأى أعرابى مارق ، أو لص سارق ، بينما يطوف المنادون فى أحياء القاهرة (المدينة) يصيحون على اللئيم الذى أعد ملعوناً خفياً ليخلع حامى الحرمين وسيد البحرين من فوق عرشه ، لكن اللئيم شاربك أخذ قبل أن يأخذ .

* * *

« . . وقال إن الناس تحبنى وتثق بى ، والوالى لا يجد غيرى أتولى الحسبة ، وأضمن أموال السلطنة ، واستقـر بأحـوال الخلق ، قمت فقبلت الأرض بين يديه ، سالت دموعى ورجوته أعفائى فما أثقل المسئولية وما أفظع المهمة عـلى قلبى ، ويكفينى القيام بواجبى بلا زيادة ولا نقصان ، فما الذى يطمح فيه أنسان أكثر من كونه جلبياً للسلطان ، هنا ضرب مـولاى يديـه ببعضهما . . قـال : عجيب . . والله عجيب . . أنت أول من أعرض عليه منصباً فيمتنع ، وحولى يقتتلون ويتصارعون ، يا جلبى . . أنت متولى الحسبة والمتحدث عنها أمامى ، فانحنيت وقبلت الأرض ، لكن لى رجاء يا مولاى . . قال ما هو ؟ قلت : ألا تحرمنى من كونى جلبيا . »

* * *

ولهجت ألسنة الناس فى المحلات والأسواق ، ودعوا للمحتسب الجديد ، فقد نزل موكبه تدق أمامه الطبول ، وتنفخ الزمور ، وصار يقف بنفسه ويضع تسعيرة الأجبان . . والسنبوسك ، والبيض ، والخضروات ، وتحدث الناس فى البيوت عن رقة طبعه ، ولين خلقه . . وطول باله فى الاستماع إلى الشكاوى حتى

عندما صاح الرعاع عليه فى الحسينية ، واتكوا عليه بالكلام الناشف ، فقد ظل هادئاً ، لا يرد على اهاناتهم ، ولو شاء لقطع رقابهم .

أخبرنى الأمير أبق أن المدينة لم تهدأ كما هى الآن ، شكرته ، اثنى على ومضى ، هكذا تحاشيت كل مشوش لئيم ، من عنده مظلمة فليقدمها ألى نوابى ، لم أغلق أبوابى ، ما يهمهم ؟ أن ما يريدون قوله وصل إلى ، وإذا بت فى مظلمة فالأمل لا ينتهى من عند مائة ، فى المساء طلعت أعلى طباق بالقلعة ، الزندة على أشدها ، الجو به وخم ، السماء زرقاء . فالليل لم يوغل بعد ، زعق الحراس بالتحية ، رحت وجئت فوق السطح ، أرنو إلى القباب والمآذن ، والغبار ، كل هذا أنا متحدث عنه ، قرضت طرف عباءتى ، سمعت حس رجل ورائى ، الأمير كرتباى الوالى . . سلم علىّ ، وقال إن حسن مسيرتى وسياستى جعلتا الكل راضياً عنى ، صحيح هناك بعض الموغرين يروحون إليه وينمون على . . سكت . . ثم قال : من نم لك نمَّ عليك . . أومأت برأسى ولم أرد ، لعب الفأر فى عبى ، ووراءه أمر ما ، بعد سكوت دام درجة ، قال : أن الجمع بين وظيفتى المحتسب والجلبى فيه ارهاقى على ، الحسبة لها مشاغلها التى لا تعد ولا تحصى . ضيقت عينى ، أبطأت عليه فى الحديث . . قال لو أعفانى السالطان من وظيفتى كجلبى ، لكان هذا أحسن ، فصحت فجأة ، والله هذا ما كنت أفكر فيه ، أبدى بشراً وتهللاً ، قال أطلب منه ذلك ، قلت سأفعل لتوى ، وبعد أن حلقت ذقن السلطان ، قلت إن الأمير كرتباى طلب منى كذا وكذا وأننى أشك فى مقاصده الجسام . . ضاقت عينا مولاى ، ارتخت جفونه ، علامة الغضب العظيم ، قال ماذا تظن يا جلبى ؟ قلت استعيذ بالله فلست نماماً ، صاح على صيحة مهولة رجتنى فانحنيت أقبل الأرض ، قلت لا تؤاخذنى مولاى ربما أرادوا ابعادى واحضار جلبى لا تعرفه ربما . . صاح السلطان . . لا تكمل يا جلبى . . امش يا جلبى ، فى المساء جاءنى قاصد يخبرنى أن كرتباى قطعوا رأسه فى الصباح ، وأن مولاى يطلبنى بعد العشاء لأمر خطير ، قلت سمعت وأطعت ، عندما أنصرف . . ذهبت ألى أمى وقلت أتعرفين معنى هذا ؟ نظرت ألى مذهولة ، دخلت غرفتى . . أرخيت الستائر ، انطلقت فى فرحة ، ضربت

الجدار بيدى ، رميت ثيابى على الوسائد وصرت أدور فى الحجرة طالعاً نازلاً ، لا أدرى ما أفعله . . »

وقبل المغيب ، نزل أمير مقدم ألف من القلعة ، وعبر ميدان الرميلة فى موكب له ضجة ، واتجه إلى بيت الأمير المقرى حيث يقيم قصاد ملك البنادقة . ينتظرون من عشرة أيام ، اللحظة التى تحين فيها مقابلة السالطان . وقد أركبهم الأمير ، وعاد بهم فى موكب عظيم ، وكان القصاد خمسة يرتدون الثياب الزاهية ، شعورهم طويلة كالحريم ، وجوههم حمراء ، وفى أثناء هذا كان الأمير يشبك البزدداری يتأمل السالطان برقة . . ويكثر من الدوران حوله ، ولحظ السلطان هذا ، فهو ذكى ، لا تفوته شاردة ولا واردة ، قال له ماذا بك يا بزدداری ؟ قال لا تؤاخذنى يا مولاى والله لا أجرؤ . . نترمولانا فيه ، ارتجف الرجل فى ثيابه ، وأشار إلى ذقن مولانا ، قال إنها هائشة ، غير مرتبة ، ليست مليحة ، ولو رآها القصاد الأجانب لصارت فضيحة ، تحسسها مولانا وتخللها بأصابعه . . عجيب . . عجيب . . عبد الرازق حلقها لى منذ ساعة . . أرخى الأمير يشبك عينيه . . قال : يا مولاى يد عبد الرازق تلمت وما عاد يفيق إلى خدمتك . صاح السالطان . . . كفى كفى . . صار صوته هادراً ! فيه غضب لو سلط على مدينة لقلب أعاليها أسافلها . . ارتعش الأمير يشبك ، وقبل الأرض . صاح السلطان . . لن أقابل قصاد البنادقة .

١٩٦٩

غريب الحديث
فى الكلام عن
على بن الكسيح

هذا مخطوط « غريب الحديث فى الكلام عن علىّ بن الكسيح »

ويتضمن أخبار الشيخ على سنان الدين بن الكسيح ، صاحب الحدبة فى صدره ، والحدبة فى ظهره ، (برغم هذا كان وجهه مليحاً ، حلو الصورة ، أسيب اللحية صغيرها) . وكان يرى دائماً محمولاً فوق ظهر غلام اسمه ركين ، لم يسمع له صوت ، ولم يفتح عينيه الا ليرى بها الطريق ، قيل إن الأمير ملكتمر أعطاه له ، وملكتمر هو أول من اتخذ من الشيخ على نديماً وعرفه طريق الأمراء ، أما العوام ، رجال ونساء ، فكلهم يعرفونه . كان باستطاعته دخول أى بيت أو دكان فى أى وقت ، ولو طلب ما شاء من أموال فلا يجد من يبخل عليه ، قيل فى سبب هذا انه الخوف منه ، لكنهم رددوا أيضاً انه خير وبركة ، فقد لهجت الألسن كثيراً بمناقبه ومآثره ، مما حير العقول وأربك الألباب ، وسبحانك أيها المنان الوهاب »

* * *

قال تعالى « . . . إن ربك لبالمرصاد . . »

صدق الله العظيم

لا ولا سبيل الا الانحراف عن الحاقدين . لكن كيف ؟

- ٢ -

حقا . . كيف ؟

اسمه مدون فى السجلات ، والقوائم ستظل مهما جرى ،كيف ؟ . . لا يمكنه أيضاً أن يقف صارخاً ، معلناً انتهاء أى صلة تربطة بماضيه ، حتى لو انقطع عنهم فمن سيغلق الملفات المفتوحة ؟ ثم إنه ذو سجل حافل ، ومعاناته يجب ألا تروح هدراً ، لكن كيف ؟ إنه يأبى إظهار تأييد علنى رخيص . لو أمكنه خلق وضع ينسلخ فيه عنهم ويبقى قريباً منهم ، أى يظل محترماً فى أنظارهم . لكن كيف ؟ . قضى أياماً مهموماً يفكر ، فى هذه الأثناء اشتد الحر ، وظهرت بشائر المانجو ، وتراوح سعر الكيلو من جنيهين إلى أربعة ، وشحت الأنواع المحلية من السجائر ، وتنبأ البعض بارتفاع سعر اللحم ارتفاعاً فاحشاً ، تخيل نفسه متجهاً إلى أحد الفنادق الكبيرة ليلتقى بشخصية هامة ، وفى ركن فمه سيجار فاخر ، أو رنين التليفون فى النصف الثانى من الليل ، يطلبون منه سرعة التوجه إلى المطار للسفر وليقوم بعمله كمترجم فورى فى مؤتمر هام ، القاعات المضيئة ، والكئوس فى الأيدى ، الابتسامات على الشفاه المرتوية الجميلة ؟ . يا سلام . . الوجاهة حلوة بلا شك ، من قال أن البورجوازية متعفنة ؟ كيف صدق ذلك عمراً بأكمله ؟ . مشى كثيراً وجلس وحيداً بالمقاهى النائية ، ونقر أسنانه بالقلم ، وعانى أرقاً ثقيل الوطأة . ثم اتخذ وجهته إلى المسئول الشاب ، إنه لم يتجاوز الأربعين ، غزير الشعر ، هادىء كما يبدو من صورته ، لمع بعد أن عاد إلى البلاد من غيبة طويلة قضاها فى تلقى العلوم الحديثة ، على درجة رفيعة من الثقافة ، وله دراية سياسية ، ابن عائلة . . طبعاً ، ابن الناس ابن ناس ، إنه مختلف عن الآخرين ، لم يلق الاتهامات جزافاً و . . ويشاع عنه سراً أن لديه ميول حقيقية إلى العدالة ، إلى المساواة ، وهذا يضايق بعض العناصر الأمنية المتشددة . إنه الوحيد القادر على تفهم موقفه . .

ورأس الشيخ على مال حتى لامس ظهر الغلام كأنه ينام ، يعرف الحضور أنه متيقظ متنبه فجأة ، استعاذ بالله ، والله حرام ، والله حرام ، لم يعرف الناس أى شىء يقصد بالضبط ، آمنوا كلامه ، زعق فجأة حتى اهتز جسم الغلام ، هذه ساعة دعاء مستجاب ، اطلبوا شيئاً من الله ، فصرخ الجميع بصوت يخلع الجنين من بطن أمه ، اللهم ارحمنـا واجعلنا فى زمـرة الآمنين . . فبكى محب وطـال دمعة . .

* * *

« الأمير طاز شاد العمائر ، أصله من مماليك طشتمر السـاقى ، فى الفترة الأخيرة أصبح متين البنيان ، يرهبه الشجاع والجبان ، استفحل أمره ، واستطال خبره ، وعظم خطره فارتعب منه آروس منكلى بغا ـ سيأتى ذكر هذا ـ كان يكره من يعانده ، وحشاً ، سفاكاً للدماء ، وهو صاحب الواقعة الشهيرة والفضيحة الأخيرة مع الست التى كانت تسوس الخيل ، نقول بلا كثرة كلام ان الأمير طاز حدث فقال :

« . . جاءنى الخدام ، أخبرونى إنه بالأبواب ، خطا الغلام المتين إلى داخل القاعة ، قلت أهلاً بمن لا يهدأ قلبه ولا ينام ، فى مرة سألت عليا ، الا يرغى بما يسمع ، أخبرنى إنه إلى الحائط أقرب ، وبطوب الجدران أشبه ، ارتاح قلبى ، لولاك لما عرفت تدبير حالى ومالى ، فى هذه الليلة البعيـدة داخلنى شك خـرم ضلوعى ، تقرب منى آروس فدعانى للعشاء ، رحت ، كان السماط مهولاً ، فوجئت بالغلام وسط الحضور مطاطىء الرأس ، يبدو وجه الشيخ مرة من يمين كتفه ، ومرة من يساره ، أخذت ، تجاهلنى حتى ان الغلام لم يقف به لتحيتى ، هز رأسه الصغير المثقل بعمامته ، يغيظنى ، وقفت اللقمة فى حلقى ، يضحك مع آروس ، يمازحه ، يقولون ، إذا وجد الشيخ على فى جلسـة ، فهو المـدير للحديث وماسك دفته ، يضحك الحزين ، ألم يكن نديماً للأتابيك ، رجعت بيتى وأرسلت إليه ، لم يأتنى ، أسرجت خيلى وذهبت إليه ، دخلت عليه ، ما الذى جرى يا شيخ على ، تخامر مع عدوى علّى ، لم أر الغلام ، الشيـخ ملقى على

الفراش ، بدا صغيراً ضئيلا ، استغفرت ربى فهذه خلقته ، طاف بى خاطر خبيث ، كيف يقضى حاجته فى الحمّام ، أيبول على ظهر الغلام أم ؟؟ غاظتنى إجابته الباردة ، ماذا جرى لك ، قلت أنت الوحيد الذى أثق به ، ثم أراك تخوننى عند آروس ، أغمض يومها عينيه ، لم يرد قلت إنى خارج لكن سيدرك من آروس أذى عظيماً ، إخرج يا طاز ، بخت فى جسمى ، يقلعنى ثيابى ، تمنيت لو قال . . ابق ، عنده من الكلام ما يقلب به الدنيا على ، لو ذبحته ، لا أدرى ماذا سيفعله غلامه الذى لم أره ، قلت : أهانت عليك عشرتى ؟ عيناه مغمضتان ، أنا لا أرضى بمصاحبة أغبياء ، قرضت أسنانى ، كلما وقع أمر عظيم الشأن ، يسكت ، ثم يجود بما عنده ، الصمت ، الليل ، لو أنفجر ما بصدرى لماجت القاهرة ، غلت ، انقلبت ، قال فجأة ، آروس يروى عنك أموراً جساماً يا طاز ، ليست عادتك يا شيخ على . تكلمت بسرعة انتقلت بسرعة ، انتقلت إلى جواره ، استعاذ الشيخ بربه ، لعن كل وشاء نميم ، تمتم بقوله الكريم : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » صدق الله العظيم ، بعد صمت وخزتنى فيه إبر . قال ، طلع آروس اللعين إلى الأتابيك وأفضى إليه ما هو مشين ، أنا طاز شاد العمائر ، أدخل عند حريمى ، انبطح على وجهى ، آمرهن بضربى حتى يغمى علىّ عند ذهابى إلى الجامع الجديد الذى أبنيه ، الأدهى والألعن ، ما تزلزل الأرض منه ، يأتى بالمصائب ، هل قلت عليه هذا ، من أين لى معرفة أن كان الأتابيك فحلاً مع حريمه أو لا حول له ولا قوة ، هز على رأسه ، وقال ، والله خجلت من قول هذا لكم ، استطال الصمت ، صار له ضجيج ، قمت ، رحت ، جئت ، قعدت ، أطلع من ساعتى إلى الأتابيك أحط فى آروس ، أعجنه عنده ، آه يا شيخ على ، سكوتك يحيرنى ، مرة عرضت عليه مالاً ، صاح وماج ، لطم الخدين ، شق قفطانه ، قال إنه لا ينبغى إلا فعل المرؤة ، حبه لى ما يدفعه إلى هذا ، فى هذه الليلة البعيدة لا أنسى ما قاله لى ، من مصلحتى أن قلت له خذ منى أرضاً يا على أبى ، حيرنى ، يستوثق منه آروس ، يفضى إليه سره وخبره ، لو أعرف طلبه ، أستريح ، لولاه لطاحت رأسى من زمن ، ثم أى شخص مثله يمكنه الدخول إلى أى مكان شاء ، فى أى

زمن ، أى وقت ، يحكى يسمع ، لابد إن الله أوقع محبتى فى قلبه لأنه يشاء سعدي وطلوع نجمى ، فجأة قام الغلام ، يحس الرغبة فى البدن اللصيق به يأتيها بدفلا منه ، استغفرك ربى ، ما الذى فعلته لأروس ، والله آخذه قبل أن يأخذنى . . »

* * *

« فى يوم الأربعاء عاشر شهر رجب ، توجه الشيخ على محمولاً فوق ركين إلى بيت الأمير آروس لأن الأخير استدعاه وألح فى طلبه » يقول الشيخ على :

« اغمضت عينى ، احطت صدر الغلام بذراعى ، سألنى الأمير آروس ، هل تنعس يا شيخ على ، بصوت خفيض قلت . . معك . . معك ياآزوس ، فى الرميلة عند عبوره مرة صاح عليه أحد العوام ، ارفع عنا مكسوك يا آروس . ما كان منه إلا أنه أمر بتوسيطه عند باب الوزير ، لفظ آروس ولم يقرنه بكلمة « يا أمير » ، أقول له ما أشاء ، اطمئنه ، أحيره ، أهدئه ، فى المغيب خرجت من جامع الأقمر ، وقف الغلام جامداً كالحديد ، همست ، إلى سوق الشوائين ، الطريق ملساء ، ما قبل الليل ، لا يلتفت أحد ناحيتى ، تعودونى ، ثم أنى لا أبالى ، نساء محجبات ، خيول يركبها غلمان مزهوون ، تعاظم الزحام . أحكمت ذراعى حول ركين ، وسط الخلائق رأيت رجلين طوالاً عظام القامة ، يرتدى أحدهما ملوطة ، والآخر قباع بأكمام طوال ، كانا طويلين جدا عريضين جدا ، توقف ركين أمامهما ، أطلت النظر اليهما ، اثنان ، رجلان ، مجرد رجلين ، هل سأل واحد فى السوق ما وراءهما ، حكاية كل منهما ، ربما هذا من عرب الشام ، ربما الآخر مغربى ، لصان ، ربما سارقان ، حملقا الىّ ، بخوف ، رهبة ، دهشة ، قال لهما الوقوف ، الشيخ كله بركة ، لم أرمش بعين ، حملقت اليهما صامتا حتى سرى إلى خوفهما وقشعريرة جسديهما . آه من أيام الزحام ، انظر الوجوه فى الطرقات هذا رأس مستدير ، هذه كا لشمامة ، عيون ، أنوف ، ما وراء اصحابها ؟ اتمنى لو أوقف جميع الرجال النساء فى شارع قصبة القاهرة صفا واحدا بل البلدة كلها ، الرجال ، النساء ، ثم الأطفال ، أطوف عليهم ،

اسأل كلا منهم عن حاله وماله ، خناقاته ، مصالحاته ، أكله ، شربه ، نومه ، تفاصيل حياته مع امرأته ، كيف تناديه ؟؟ حالها لحظة المناغشة ، احيانا يهيج بى الخاطر ، اطلع مئذنة قلاوون ، الظلال من أعلى رمادية ، الارتفاع شاهق ساحق ، البيوت سجادة ، لو رميت طوبة فى الفراغ ، تسقط على أى بيت ؟ أشير على أى ربع ، قصر ، من يسكنه ، أبن من ؟ امه من ؟ اسمها ، عندما كنت صغيرا لا أقدر على اللعب مع العيال ، بعد حفظنا وتلاوتنا آيات القرآن ، طوال اليوم أشغل نفسى بمعرفة أسماء أمهاتهم ، هذا زينب ، الآخرى بخيته ، مبروكة ، اذ يقترب الصبى منهم الى ، يهددنى ، يضايقنى ، أخوفه بافشاء اسم أمه ، يبتعد ، اذ أقعد بجوار الغلام منهم ، أردد فى عقلى ، اسم امك فلانة ، أى بيت أدخله ، ينظر الحريم إلى ، أتأمل أجسامهن الحلوة ، كيف تبدو من الداخل ، أمن المعقول أن هذه الحلاوة كلها تستلقى كخرقة تحت رجل كالفحل يمور ويخور ، هذا من شقاوة الصبا ، وسالف الأزمان ، قال آروس ، ما رأيك يا مولانا ، فتحت عينى بطيئاً ، آروس ، لو أعرف مافى مخك الآن ، هذه اللحظة بالتمام ، أفلتت وأصبحت كان ، أطلت الحملقة فيه ، أرخ الطرف عنى ، كررت ، أحك مرة ثانية ، بعد تردد قال أنه رأى فى المنام طاز يجلس بين قوم فى

واد فسيح ، يرتدون جلابيب بيضاء ، وجوههم مهيبة ، لحاهم عظيمة ، يقف طاز بينهم يسبنى سباً فاحشاً ، وراح آروس ثم جاء ، قصير ، متين البنيان أنيق الثياب ، سألنى رأيى فى الحلم ، قلت والله عجيب ، لو كلمته بسرعة ، أشبعت ظمأه ، يبدو قولى غير ذى قيمة ، يطيب على جمر قلقه ، ثم أطفىء ناره قطرة . . قطرة . . أيضاً ، أشعلها ، أوهجها ، زعقت فجأة انهد الصمت ، . . « يا كريم » . . اهتزت الآذان ، رحت أرقبه بعد أن تدارك نفسه من فزع ، بين الجمع يطلع حسى فتلتفت الأعناق وتنخلع القلوب ، تكلمت بصوت عال ، ثابت كوتر ، لا يهتز ، لا يرققه حلم ، لا يخشنه غضب ، الرؤية صحيحة ياآروس ، أنت رجل صالح تقى . كل ما جاء بمنامك صحيح ، قفز إلى جانبى ، اقترب منى حتى كاد يصدم « ركين » ، دار حوله ، لامسنى ، صاح منزعجاً ، أحك ، فسر يا شيخ على لا أحرق الله لك قلباً على غال ، تأملته ،

آروس منكلى بغا ، يبدو أمام السلاطين فحلا جسورا ، لو يراه العامة الآن لتناقلوا وصفه مئات الأعوام ، طلبت المغفرة فأقسم لى برأس أبيه أن أتكلم ، نظر إلى الغلام ، ابتسمت : ينطق الجماد ولا يتحرك فم هذا ، عدت إلى الصوت الرتيب : ما رأيته فى المنام قاله عنك طاز باز شاد العمائر بالحرف الواحد ، زعق حتى كادت لحيته تنخلع من وجهه ، لم أتوقف فى الحديث : وقال طاز أنك تخفى ذهباً فى سرياقوس ، أقسم أن يرافعك وينتزع منك مائتى الف دينار ذهباً خالصاً . أمهلت صوتى ، تأملته ، دفعت رأس ركين حتى أرى وجهه المفزوع ، إذن ما سمعته عن أموالك المدفونة فى سرياقوس صحيح ،ربما فاقت أموال طاز المخفية فى منية أبن خصيب ، كله من دم أيتام مساكين عرايا ، تنبه إلى اضطراب أمره ، حاول أن يلملم نفسه ، يستدرك فارطه ، قلت : يهدأ بالك وترتاح روحك يا آروس . قام ركين مرة واحدة ، ضعت ياآروس ، سمعت همسك ، ارتجاف قلبك . عض شفته ، بلل لسانه تخلل بأصابعه لحيته ، قال أطلب لنا المغفرة يا شيخنا ، قطبت الجبين ، كرر كالبكاء ، ادع لنا يا شيخ على ، اغمضت عينى ، بسطت كفى على قدر ما يمكننى ، فانطلق ركين بسرعة حتى لفحنى هواء غض قوى .

* * *

« بسم الله الرحمن الرحيم »

قال تعالى « وان الله علام الغيوب » ، قال ربى . . « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . . وقال رسول الله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » أما مولانا عمرو بن العاص فحدث « الكلام كالدواء ، إن أكثرت منه فعل وإن أقللت منه نفع » . . أما بعد

من الشيخ على بن الكسيح إلى أمير كبير ، أتابيك العسكر ، فلما أقعدنا مرض غلامنا ركين ، اضطررنا إلى الانزواء ، وفى دارنا البقاء ، فلم نقدر على الطلوع إلى القلعة ، ولما كانت الأحوال مضطربة ، والخلق فى هجاج ، وبين آروس وطاز وقعة وأرسلت لنا مرسالكم الأمين تطلب الاطلاع على الأحداث قبل

فوات الأوان وشدة البأس ، فانتهزنا فسحة من وقت ، سنحت لنا إذ يتكاثر الزوار علينا ، من خاص وعام ، يسألون عن احتجابنا وسر انزوائنا ، هذا عطار غبت عنه يوماً فسعى إلى ، وذاك جزار لم أقل له السلام كعادتى كل صباح فترك دكانه فى حراسة جاره وجاءنى ، كنت صحيحاً غير أن السؤال عنى ، مع أن غلامى هو المريض ، فى خلواتى أدخل إليه لم أهمله ، أوصيت به ثلاثة حكماء ، أقول ولا أفوتكم فى كلام ، إن المدينة كلها أصبحت عندى بالخاص والعام لهذا أرسلنا لكم مايلى من نبذ وشتات ، لعلكم تجدون فيها بعضاً مما فات ، نجلو عنكم ما غمض ومات ، ولا أطلب الثواب إلا من إلهى رب العرش والسموات »نقول . .

★ فى يوم الخميس سابع عشر جمادى الأولى زار منطاش الجمدار بيت طاز وأهداه لفافة من ثياب ، أربعين ذراع قماش أصفر طيلسان ، ورطلى عنبر ، وتموراً عراقية ، وأوزاقى أقفاص ، وهذه بوادر وقوع اقتراب بينهما . . بعدما عرف عنهما أن الواحد لا يطيق صاحبه . .

★ فى الخميس نفسه خرجت خوند زوجة أصلم ، معها أمرأة أبى بكر بن أرغون الاستادار ، وبنات أرنبغا نائب الكرك ، وخرجن إلى ظاهرة القاهرة ، وقضين وقتاً كله متعة فى قبة النصر ، وقيل أن الغوانى رقصن عندهن بالشبابة السلطانية . . أما الأكل فكان مهولاً ، عشرون رأس غنم ، وسبعون فرخ طير ، وعشرون صينية بالمرق ، وسبعون آنية لحم نصفها محمر والآخر مقلى ، أما الفاكهة فأصناف ، إلى جانب النقل والمشموم ، ولم أعرف من الذى انفق على هذا كله . .

قال ارقطاى المملوك إن هدوكم يوم لعب الكرة كانت مضحكة ، وإن القصاد الأجانب والشوام تحدثوا فى هذا ، قال — الله أعلم فالكلام الآتى لست واثقاً منه — إنكم بالغتم فى هز أكتافكم وأنتم فوق السرج المذهب ، وأنكم ما فعلتم هذا إلا لإظهار عظمة زائفة ، (اللفظ الأخير أنا متحقق منه) .

. . أكثر الأوباش ، والشلاق من الأعوام فى الكلام ، لأن المماليك

خطفوا امرأة بيضاء حلوة يقال انها ابنة عجوز يملك بغلا يشيل عليه الأحمال .

* . . بالغ الفقيه محب من ترديد « الطف بنا فيما جرت به المقادير » حتى تعاظم الجمع حوله ، وكثر كلامه ، وأمره مفروط على آخره وسط الناس .

* . . اشترى بيبرس الأحمدى عشر جوار صغار ، قيل أن واحدة منهن لا يوجد مثيلها ، وأشيع انه يأتيهن كالغلمان (أنا على ثقة من هذا) . استجير بك يامن خلقت حواء من ضلع آدم . .

* . . فى ليلة الجمعة التى تعود فيها سنجر الجاولى الطلوع الى القرافة الشرقية والمبيت فيها ، سمعت أن قمارى السلاخور يتسلل الى بيت سنجر من الباب الصغير المطل على درب المسمط والمخصص لدخول الثور الذى يدير طاحونة المياه فى البيت . قيل وعلم ذلك عند ربى ، انه يفعل الفاحشة بأمرأة سنجر ، وإنها راضية » .

* * *

« تنويه وتنبيه إلى القارىء الكريم »

وتحوى الرسالة ـ بعد ما أوردناه ـ الكثير من فاحش الأخبار ، وما ينهش لحم الناس وأعراضهم ، ويكفى القول انه يتطرق الى ذكر طرق الناس فى اتيان حريمهم ويتبحر فى هذا كالعالم ، غير إننا نخجل من نشر هذا ، وللعلم فالرسالة تقع فى عشرين صفحة كبار ، فمن أراد الاطلاع عليها والتحقق منها فعليه مساءلة كاتب هذه الأخبار ، فنصها كله يوجد عنده ، أما أن تنشر هنا فهذا مالا نرضاه ولا نقبله . .

* * *

وفى الليل كاد دماغى ينطلق فيه فرخ جمر ، لم أنم ، الفجر لم الحظه وعندما فتحت عينى رأيت النهار فى الحجرة وركين عند آخر الفراش والحشايا ، تأكد أننى صحوت فسارع إلى ، فى الحمام اجلسنى ، رجعنا الحجرة ، لن انزل المدينة ،

بين أيام والأمان ضائع ، وقعت الوحشة بين الأتابيك وآروس ، فحشر آروس بين غضب الأتابيك ومكائد طاز ، لم يطق صبرا ، جاءنى طاز فقلت إنها فرصتك لو خوزقت آروس فى شارع الصليبة فلن يرافعك أحد ، خرج من عندى ، غير انى والليل ظلام دامس كأن الدنيا لم تعرف النهار أبدا ، رثيت لآروس ، تأكدت من كبس طاز له فى الفجر ، يموت آروس ، داخلنى اشفاق عليه ، حزنت من أجله لم أكلم ركين كلمة ، عرف فى الليل طريقنا ، قلت لأروس خذ احمالك ومالكم وانتع روحك من هنا ، بكى ، قبلنى ، استودعنى ، خرجت والمدينة تغط فى سبات ، طرقاتها تحمل آثارا من مطر أورث الأرض وحلا ، تعب ركين ، مشى متمهلا ، أبواب الحارات مغلقة . قرب بيرجوان مر بنا رجل يستند ذراعه على كتف امرأة تحمل غلاما ، تمهل ركين ، درنا حولهما ، عرفت انهما كفيفان يزعقان يطلبان حسنة ، فى مثل هذا الوقت ؟ من أى انسان ؟ تعجبت من هذا مشينا ، أمام جامع الناصر قلاوون دهمتنى المئذنة برهبتها وضخامتها وسوادها الحى ، كدت أصرخ فيجرى ركين ، مشيت على مهل ، عندما جاءنى ركين ، فى صباح أول يوم يقضيه معى فتحت عينى فوجدته يقف أمام الفراش ، طويلا ، عريضا ، ارتعب قلبى منه والله ، كان صامتا غير أنى خفت ، ساقاه جامدتان ، مليئتان بالشعر الكثيف ، صدره عريض كفحل ، خشيت منه على حريمى ، فى الليل ، آخر الليل أحضرهن ، راوية على ظهرها الأملس العارى ، اتفحص الباقيات ، آمرهن باتخاذ أوضاع معينة . اطيل النظر اليهن ، واذ يجثم الليل فوق قلبى آمرهن بالانصراف ، أصير وحدى فتعلو انفاسى ولا أعرف أن كان النوم

جاءنى أو هجرنى ، لمحت بخوفى الى الأمير ملكتمر فضحك واخبرنى أن ركين خصى أصيل لا خوف منه ، زالت الهواجس من عندى غير انى لم ارتح الا بتحقيقى من هذا بنفسى ، فصرت أشركه معى فى الفرجة وأنا آمن ، بعد خان الخليل عظم الظلام ، عيون خفية ترمينا بشرارها تطل علينا من بيت بشتاك ، خاطر سريع مر بى ، كم من الرجال يتمن الآن مع حريمهن . . الجدران تخفى وتخفى ، آه لو خلق الله انسانا له عقل يرى فى كل مكان ويسمع بما يدور فى أرض قاف ، ضحكت فى سرى ، غير أنى رأيت فى عقلى صورة طاز

فارتعبت ، ربما عرف انى رحت عند آروس ، وأنا بعض محاسيبه ، يكتشف هروب طاز فى الصباح فيعرف انى السبب ، سارع ركين فى جريه ، العيون تضيق وتتسع ، آروس مأخوذ لا محالة ، طاز أمامه من الوقت فسحة ، ربما صار متحكما فى الأمور ، انخفض ركين رأسه وظهره ، دخلنا من الباب الخلفى الصغير ، قلت وصوتى جامد ثابت : خذ خيلك ياطاز وادرك آروس ، خلِّه فى الفجر أمام بيته أو فى الصباح عند ظاهر القاهرة ، لو عوقت لفاتك بزمن انهيت كلامى ، استدار ركين ، هكذا لا أريد ، لا أنقص ، فى الظهر جاءتنى الأخبار أن رأس آروس منكلى أجتزت وان جثته مرمية فى الجبل حتى تصدق عليه فقير فكفنه وغسله ، ولم اعرف اسم هذا الفقير ، وارجح أنه واحد منالعوام ، فى المساء رحت ، جئت فى الطرقات ، الدكاكين مغلقة ، الأسواق مقفرة ، غضب أتابيك على العامة ، اخبرنى الشيخ البنان أن بعض الواشين نقلوا بعضا مما يدور على السنة الناس الى أرباب الشأن فغضبوا ، طفش عسكر المماليك فى الخلق ، ضايقوا الناس ، قتلوا منهم الكثير ، شبح الخراب يجلس القرفصاء فوق البيوت والربوع لعنت الوشاية ، صحت زاعقا : كيف لم يعرف من فعل هذا ؟ فهمس الشيخ وهو يتلفت حوله ، طاب لى منظره فرفعت صوتى ، لاحظت رأسه تغرق فى العرق ، لعن أولاد الحرام ، فارقنى بسرعة ، داخلنى قلق ، رنة صوته بها شىء ، دار ركين فى حجرات بيتى ، لن أفارقه كالأخرين ، آه لو افتح الرؤوس وأعرف ما بها ، لابد أن الأمر شديد الهول ، والله اطلع الى الأتابيك ، الى السلطان نفسه لأعرف حقيقة الحال ، ما الذى جناه محب حتى يذبح ، وآروس يا لحكم الزمان ، من رآه فى جاهه لا يراه فى رميته بلا كفن ، فقير لم أعرف اسمه بعد تصدق عليه ، دفنه ، الغروب ثقيل ، كدت استدعى راوية البنات لكن خيط ملح مر امتزج بلعابى وروحى فسد نفسى ، لا أطيق البقاء ، ركين قلق حبيس ، العصافير صغيرة تقف عند المسربيات ، أصواتها تضفى حزنا طريا مؤسيا على لون النهار .

خاتمـة

« ومـا أن طلع النهار ، حتى علت أصـوات ، دمدمـة ، بكـاء ، عيـاط ، صياح ، عويل ، اسغاثات ، تساءل الشيخ على عن مقصد الجمع ، أسرع ركين إليه ، طلعا السطح ، كاد قلبه يقع عند الحافة ، الطرقـات تغص بالعـوام ، والفقهاء فوق المآذن يرفعون أيديهم ، يصيحون ، أى هول ؟ أى حدث ؟ ارتجف قلب الشيخ ، ما كان يخشاه وقع ، دار الكلام ، لف ، ثم اقترح بعض اللئام المجىء إلى بيته ، يحرقـونه ، هـذا ما ظنـه ورآه ، من يدرى ، ربمـا طاز هـو السبب ، سلط الخلق عليه ، فالشيخ يعرف سره ، علت الدمدمة ، الهياج ، عظم الأمر ، دقت الأكف الباب ، الرؤوس من أسفل ، أيد تعلو ، لا مفك ، لا مخرج ، احتار ركين غير أن الشيخ اضمر النية على عدم مفارقة بيته ، نزل ركين إلى القاعة الكبرى ، سيدخلون عليه ، يلقونه هادئاً رزينـا ، مسكيناً ، يحاججهم ، يقنعهم ، سرت رطوبة الشتاء فى عظامه ، أحاطه ركين برداء ياقته فرو أصلى ، لو هرب ، لتأكدوا واقتنعوا ، لم يلق على شفتيه غير مناجاة خالق الدنيا والدين ، أخذه الحزن ، تحسر على روحه حتى كاد يدمع ، ركين هادىء جامد الوجه ، وقع الأقدام فوق السلالم ، فى غـرف البيت ، يبحثون عنـه ،

ما يلفت من عجين الاصوات ، مناداة ، طلب للرحمة ، انخلع باب القاعة ، رجال مستوقد فول ، عمال حمام قـريب ، بائعـو حلوى وسنبوسـك ، الشفاه متدلية ، العيون جاحظة ، يوم حشر ، ما مر بالشيخ من يجرى أمام عينيه ، زعق حس رجل غليظ : اشفع فينا يا مولانا الشيخ . كأنه صفع ، ماء بارد نزل على قلبه ، تحلقوا حوله ، يتضرعون ، يشكون ، سكت كالجماد ، يكاد يـرتجف كفـرخ صغـير رمـوه فى النيـل ، سكت ، سكت طلب كبـير منهم الكف عن الكلام ، تقدم منه ، طفش المماليك فى الخلق فتعطلت الأعمال ، شنقوا وذبحوا فكادت تغنى أمه الإسلام من يوم ، يومان ، قالوا ربمـا هدأت الحـال ، لكن الأشياء أمست فى زوال ، بعد طول صبر وحرقة بال ، لم يلقوا أمامهم غير الشيخ على ، سكت لم ينطق ، قرض شفته بأسنانه . اغمض عنينيه ، صاحوا كلهم ، أشفع فينا ، لا يوجد غيرك بقدر على الطلوع إليه ، فتح عينيه ، زعق الشيخ على بن الكسيح صاحب ما ذكرناه من أخبار وحوادث بصوت زلزل الأصحاء منهم : يا غفور ، يا رحيم . اطرقوا خاشعين ، زعق مرة ثانية : يا من لا يقدر عـلى جبروته إنسـان ، تقدم منـه ركين ، ارتفعت يـده ، قصيرة رفيعـة ، افسحوا الطريق ، صاروا يدعون ، يزعقون ، قال واقف سيضربهم بالنعال ، قال ثان ، لا يجرؤ غيره ، زغردت النساء ، أخذه هول الجمع حتى أهتز قلبه ، اهتز الغلام ركين ، طرأ شىء على خطوه ، أحسه الشيخ لوح بيده ، زعق مرات ، البيوت ترتعش من شدة الزحام ،والله يوم يشيب منه الجنين فى بطن أمه ، تساءل فى سره ، ما الذى جرى لركين ؟ نظر فى وجهه لحظة ، دموع غزار تجرى من عينيه ، ركين لم يبك مرة واحدة ، ربما أخذه التأثر من شدة الجمع ، صاحت عجوز ، حتى خادمه الأخرس بكى ، اللهم باركنا بالشيـخ على ، ارتعش جسـد ركين لفظاعة بكائه ، تعثر ، حار الشيخ على ، لفـه هديـر الأصوات ، يـرفع يـده فيسكتون ، يزعق ، يا رحيم ، يرددون : يا رحيم ، فاتـوا تحت باب الـوزير ميدان الرميلة قريب ، الحريم بعضهن يزعق وبعضهن يبكى ، كلما مشينا خطوة انضم إلينا الكثير ، غير أن ما حير الشيخ على وأقلق كبده فى مـرقده ، عيـاط الغلام ركين الذى لم يكف بل راح يزيد .

* * *

العـرى

.. لم يلق عقبات ، بعد أن عاين المنطقة ، وموقع العمارة ، وتأمل المبانى الخاصة المجاورة والمحاطة بحدائق تتفاوت فى مساحتهـا ، وأحصى الدكـاكين الأنيقة تحت العمارة ، البقالة ، الفاكهة ، الصيدلية ، اللبان والكواء قال لنفسه إن من يسكن هذه العمارة لا يضطر إلى الذهاب بعيداً ، هذه الدكاكين تشكل سوقاً متكاملة ، قام بجولة فى الطرق المؤدية إلى المبنى ، لو سأله الضابط سيجيبه وكأنه يحفظ المكان عن ظهر قلب ، الشوارع هادئة ، والمكان أنيق ، والمارة قلائل يختلف عن كل المناطق التى ذهب إليها من قبل ، إنه يذكر الزاوية الحمراء ، والوايلى ، وتـل عارف ، الـطرقات قـذرة ، والنساء ، أمـام البيوت ، يحملن أطفالهن نحاف الرقاب ، العمل هناك صعب وسهـل ، لكى يراقب شخصـاً ما يجب أن يتخفى وأن يتسلل إلى الناس بحذر ، كأن يقوم بدور بائع متجول ، أو سمكرى ، لكن هذا لا يستغرق وقتاً أما هنا فلابد من الانتبـاه ، لا يكلف بالمهام المتعلقة بمثل هذه الأحياء الراقية ، إلا أصحاب الخبرة الطويلة والمشهود لهم بالكفاءة ، فى الأزقة والحوارى يصـل بسرعـة إلى هدفـة ، لا شىء يخفى هناك ، لكن كيف يعرف هنا أن الداخل إلى هذه العمارة يقصد المدام كوكيتا ؟

يرتفع المبنى ستة عشر طابقاً ، فى كل دور أربع شقق ، يسكن فيه وكلاء وزارات ومهندسون ومحامون ، وأطباء وصحفيون لكل منهم عائلة ، قال سيادة الضابط ان الشكاوى تراكمت وتكررت ، ويجب التزام اليقظة ، ومراقبة المترددين على شقة المدام كوكيتا فقط ، قال سيادته إن الأختيار وقع عليه لأنه أكفأ رجال الخدمة السرية فى إدارة حفظ الأداب ، وأقدم المخبرين . رفع يده بالتحية وقتئذ ، لكنه لم يتخيل أن المبنى ضخم هكذا ، استغرقه التفكير فى البحث عن وسيلة أو موقع لرصد المكان حتى نسى مطالبه التى اعتزم التقدم بها إلى الإدارة ، كمضاعفة مصاريف المهمة لأن الوقت الذى سيقضيه هنا طويل ، والمكان بعيد عن بيته فى الجمالية ، وسيلجأ بالقطع إلى استخدام التاكسى ، كما أن الوجبات التى سيضطر إلى تناولها هنا مرتفعة الثمن ، سندويتش الجبن مثلاً ، بكم يبيعه هذا البقال ؟ ليس معقولاً أن يطلب من إمرأته إعداد سندويتشات له ، ربما لفتت الأنظار إذا أمسكها بيده طوال النهار ، ما استغرقه هو محاولة إيجاد وسيلة لمراقبة مدخل العمارة ، ثم محاولة فرز الداخلين والخارجين ومعرفة المترددين منهم على كوكيتا .

قضى اليوم الأول كله فوق سور الحديقة العامة الأنيقة الفسيحة الممتدة أمام المبنى ، ولولا معطف قديم عرف كيف يحافظ عليه مع توالى السنين لما احتمل برد نوفمبر ، غير أنه لم يصل إلى نتيجة ، كل ما حدده موقع الشقة فى الطابق السادس ، تواجه الفراغ بثلاث شرفات عريضة ، وأربعة نوافذ ، لم ير حبال غسيل ممدوة ، إنما نباتات تتسلق الجدران ، خمن إنها منبثقة من أصص زرع . فى الشرفة الوسطى فانوس كبير من نحاس قديم ، أما الشرفة الثالثة فمغطاة بستائر برتقالية اللون ، لم يظهر أحد حتى العصر ، حوالى الرابعة والضوء يميل إلى اصفرار ظهرت إمرأة ، لم يستطع رصد ملامحها ، دخلت قرب الغروب فتحت نافذة ، وأضيئت المصابيح فى الشرفات ، أدرك بصره كلل ، فلم يستطع رؤية تفاصيل . عبر ذهنه خاطر سريع . يوجد الآن من يمارس الجنس خلف هذه النافذة والشرفات ، كم شخص يبدأ الآن فى المبنى كله ، وليس فى شقة المدام كوكيتا وحدها ، فارق سور الحديقة متمهلاً ، لا . . لن يصل إلى نتيجة بهذه الطريقة ، حضرة الضابط لم يحذره من تجنب أسلوب معين ، له حرية التصرف .

المهم ، أن يصل إلى هدفه ، عبر الطريق ، توقف أمام المدخل الفسيح ، الباب العريض والجدران المغطاة برخام أسود تتخلله تجزيعات بيضاء شاحبة ، تهب رائحة رطوبة غامضة تنبعث من داخل العمارات الكبيرة التى لا تعرف الغبار أو ضجيج الصغار ، أمام أحد أبواب المصاعد الثلاثة تقف إمرأة شابة ترتدى فستاناً أزرق ، جميلة ، ثابتة النظرات ، لم يلمح البواب ، صفق ، لم تلتفت إليه المـرأة ، ولم تسألـه ، من يقصد ؟ من طـرقة طـويلة إلى اليمـين عـلا صـوت خطوات ، إنه البواب الذى استمر يراه طـوال اليوم ، ومـع ذلك سـأله أنت البواب ؟ خارج الباب انتحى به جانباً ، قال باختصار وهو يبرز بطاقة صغيرة خضراء اللون : مباحث !

لم تهتز ملامح الرجل ، أومأ برأسه . .

خير ؟؟

قال إنه مكلف بحماية أحد السكان ، إنه يحتل منصباً هاماً ، وحياته مهددة لأسباب ما ، سيرقب الداخلين والخارجين ، كل ما يطلبه من عم عبده أن يخبره سراً بأسماء السكان والمترددين على العمارة ، وإذا سأله أحدهم عنه فليقل أنه أحد الأقارب من البلدة جاء ليبحث عن عمل .

عند هذه النقطة من الحديث أخرج علبة سجائره ، غير أن عم عبده اعتذر لأنه لا يدخن ، فى الأيام التالية بدا راضياً ، احتل موقعاً لا يحلم به أى مخبر ، لم يضايقه إلا صمت عم عبده المحدق إلى الدنيا بعينين ضيقتين ، لا يتأثر وجهه بأى انفعال ، ولم يسمع صوته إلا إذا تأخر المصعد فى طابق ما ، عندئذ يخبط الباب المعـدنى : « اقفل البـاب » . الوسيلة الـوحيدة لتبـادل الحديث معـه تـوجيه الأسئلة ، لم يتأخر أبداً عن الرد ، ولكن عندما أدعى أن ضابطاً كبيراً فى المباحث يبعث إلى عم عبده بتحياته وشكره لتعاونه الصادق مع الشرطة لم يبد عليه أى اهتمام ولم يعن حتى بالرد ، اضطر إلى توجيه بعض أسئلة إليه لمجرد الرغبة فى تبـادل الحديث خـاصة فى سـاعات الـظهيرة التى تخف فيهـا الحركـة وتتوقف المصاعد ، وتجىء ، أصوات بعيدة غامضة تزيد من ضيقه وحاجته إلى اغفاء غير

متاح له التمتع بها ، غير أن ما توصل إليه أضفى عليه سكينة حتى أنه قطع المسافة من مصر الجديدة إلى الجمالية مشياً على قدميه ليلتين متعاقبتين بعد توقف المواصلات . لم ينس أن يسأل عم عبده عن المبلغ الذى يحسبه عداد التاكسى عبر هذه المسافة حتى يكتبه فى كشف المصاريف ، خلال أربعة أيام تعرف إلى السكان الأصليين ، أوشك على حفظ الملامح ، مواعيد عودة وخروج كل منهم ، خروج الفتيات اللواتى يرتدين البنطلونات الضيقة التى تكشف حدود الملابس الداخلية ، وقوف إحداهن حتى نزول صديقتها الممسكة بمضارب التنس ، رصد الفارق الكبير بين مظهر الفتيات العائدات فى الظهيرة من مدارسهن ومظهرهن عند خروجهن بعد الظهر ، يرتدين بلوزات وجيبات ، ويضعن مساحيق خفيفة ويمشين خفافاً مرحات ، هل مثل هؤلاء يعتصرن ويقبلن ويتأوهن ، ايقن بالفارق الكبير بين من رآهن هنا ، أو من تابعهن طوال عمره فى الحوارى والأزقة ، والمساكن الشعبية المكتظة ، خلال هذه الأيام لم تقع عينه على المدام كوكيتا ، لم يسأل عنها حتى لا يستثير شبهة البواب ، اكتفى حتى الآن برؤية بعض المترددين عليها ، ارتبك فى البداية عندما رأى رجلاً ثقيل الخطى ، فخم المنظر ، بادى الثراء ، تحيط به هيبة غير منظورة ، لكنه قال لنفسه ، أفق إلى عقلك ، أنت تعمل فى وسط جديد عليك ، رأى ثلاث فتيات أنيقات يرتدين البنطلونات لاحظ أن البنطلونات تثيره إلى حد ما ، أكد عم عبده إنهن أقارب لمدام كوكيتا ، حوالى الساعة التاسعة عبرت فتاة خمن إنها تعمل عند أحد السكان ، لم يسأل عم عبده عن الخادمات ، رآها عدة مرات خلال الأيام الماضية ، لم تلفت نظره ، الليلة انتبه إلى مرورها البطىء المتمايل علس مقربة منه ، إن ثيابها نظيفة ، بلوزة بيضاء لم تخف صدراً سخياً ، يهتز مردداً وقع الخطى ، الأرداف متناسقة ، مستديرة لينة ، العينان سودوان ، الشفتان مليئتان ، لو رآهما فى طريق عام قبل مجيئه إلى هنات لظنها إمرأة عاملة أو ربة بيت ، ترتبط صورة الخادمات فى ذهنه بمن عرفهن فى المناطق الفقيرة ، والبنات اللواتى يعصبن رؤوسهن بمناديل بتدلى من أطرافها الخرز والترتر ، ما جعله يدرك أنها تعمل فى أحد شقق العمارة هيئتها التى تقل بالطبع عن الأخريات . وهذه الحقيبة خضراء اللون المصنوعة من البلاستيك ، رآها معلقة النظر بلوحة

الأرقام ، فى لمحة احتوى وقفتها ، تردد لفظ واحد يلخص انطباعه « كالفرس » انشب نظراته بنصفها الأسفل ، لأول مرة تتعلق عيناه بجسد إمرأة من العمارة ، حاد ببصره دائماً متفادياً السيدات والآنسات ، أم يتجرأ لأنها خادمة ؟ أو لشعور غامض بأنها خصته بالمرور قريباً منه ، اليست خسارة فى العمل كخادمة ؟ ، تنتقل عيناه فجأة إلى عينيها ، يدفق قلبه قبضات دم ، فوجىء ، هناك ابتسامة خفية ، ودهاء صامت ، الدعوة مؤجلة ، يزول تكسر جفنيه وتعبه المضنى كأنه يقف أمام حمام دافىء ، ردت التحية بيسر عندما تقدم بسرعة من زارر المصعد ، أضاء السهم ، التفت إليها مبتسماً (نازل) ، أومأت ، أدركه سرور جديد عليه ، تذكر ما سمعه عن خادمات يقعن فى غرام الباعة ، ومغامراتهن مع الأزواج ، وكيف يترك الزوج إمرأته ويتسلل ليلاً إلى الصالة أو المطبخ ليضاجع خادمة ربما كانت قبيحة ، السر يكمن فى التسلل الليلى ومايجدنه من فنون المتعة .

إنه لا ينظر إليها الآن ، إنما يعلق بصره بالأرقام المضيئة التى راحت تنطفىء واحداً بعد الآخر وعندما بدت الكابينة لم ير ظل أحد فيها قبل أن يفتح الباب يفسح لها الطريق ، كأن يداً تدفعه إلى الدخول ، يلتفت إليها بسرعة ، وداخله رجاء ألا يصل أحد السكان ليستنشق الشذا وحده . . تقول رداً على نظراته المستفسرة :

المدام كوكيتا :

ضغط الزرار السادس بقوة ، أجل التفكير فى المفاجأة ، احتفظ بملامحه ثابتة بعد عبور الطابق الثانى شم رائحتها نفاذة قوية تطغى على رائحة المصعد المعدنية ، تدركه نشوة لم تواته منذ سنوات ، عندما كان يستسلم للهزات ، والارتجافات ، والتوترات يستدير إليها ويسأل بصوت مرتجف فتقول :

نعيمة : . .

يقول إنه قريب عم عبده ، تومىء برأسها :

أعرف

ينظر إليها :

شفتك مرة أو مرتين . . سألت عنك عم عبده . .

عندما خرجت قالت « تصبح على خير » ، عندما نزل وحيداً لفه دوار ، حتى العاشرة ليلاً لم يظهر عم عبده لم تظهر هي ، كل ما ضايقه إنه ضغط الزرار السادس عندما قالت إنها متجهة إلى كوكيتا ، ربما أثار ريبتها ، من أين له أن يعرف الطابق وهو وافد غريب ، لكن أليس قريب عم عبده ملم بكل شيء . ثم إن مدام كوكيتا معروفة في العمارة لكثرة المترددين عليها ، حوالى الساعة الحادية الواحدة توقفت سيارة بيضاء تهادت كسفينة نزل رجل يرتدي عباءة بنية اللون ، وتقدمه السائق ، عندما مر من أمامه قام واقفاً . هذه الحركة التلقائية التي يعقبها أداء التحية عند مرور ضابط . قال عم عبده فيما بعد أن الرجل عربي والأموال لديه بلا عد وأنه من معارف كوكيتا ، في تلك الليلة بدأ المشي في الواحدة صباحاً بعد انقطاع أمله في نزولها لتشتري حاجة ما ، عند اقترابه من العباسية أدركه أثر منها لاصق بروحه : وقفتها ، استدارتها ، في نفس الوقت تبلور لديه ما سيقوله لو حدث ورصدت الإدارة صعوده مع نعيمة سيقول أنه في سبيله إلى تجنيدها ، مصدر هام من قلب البيت نفسه ، توقف لحظة ، لماذا يتصور هذا كتبرير ، أليس هو الواقع ؟ البنت تميل إليه ، لن يخفي شيئاً عن حضرة الضابط ، ما جرى سيكتبه مفصلاً ، لكنه لن يذكرها في تقرير الغد حتى يملأ يده منها ، بدا أنه شعر بالراحة بع أن وصل تفكيره إلى هذا الحد ، بعد أن قطع ثلثي المسافة كان قد استعادها مرات ، تخيل نفسه إلى جوارها ، أو ملتصقاً بها ، أي نعيم ؟ توقف أمام دكان يبيع البسبوسة والفطائر ، أقدم على تناول سلطانية مليئة باللبن الذي تعوم فيه قطع البسبوسة والكنافة المحشوة بالفول السوداني ، تصرف كهذا لا يتم إلا عند حدوث مفاجأة سعيدة له كأن يرضى عنه سيادة الضابط أو يوفق في مهمة ينال بعدها مكافأة ، أو بعد نزوله منتشياً من البيت ، عندئذ يقدر أن ينزه نفسه فيتناول قطعة البسبوسة ، أو يشرب زجاجة بيبسي أو كوب من عصير القصب ، الليلة يدخل الحارة حذراً ، بالوعة المياه متفجرة ، يتدفق منها ماء رمادي اللون ، رائحته كريهة ، يستمر أياماً والنساء يقفن أمام البيوت ، يتحدثن ، ويحملقن ،

ويتطلعن إلى كل غريب ، الأطفال يغوصون فى المياه القذرة ، يتراشقون ، يلعبون ، من فضائل سعدية إنها لا تشارك النساء ثرثتهن ، إنه يخطو حذراً ، لمبة الفانوس محطمة ، الأطفال لا يدعونها تضىء أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام ثم يشوط أحدهم الكرة فيحطمها ، القادرون فى الحارة يكتتبون لشرائها ، غير أن العيال لا يزجرهم أحد . كما أن عمال البلدية لا يجيئون الآن لتسليك البالوعة ، منذ سنوات كانوا يمرون يومياً ممسكين بالأسياخ والعصى ، يقومون باسكات المياه المتفجرة ، أهالى الحارة يعتقدون أن سلطانه بلا حدود لعملة فى الخدمة السرية ، إذا انقطع التيار الكهربائى يجيئون إليه ، إذا تراكمت الزبالة يطلبون منه أن يكلم البلدية ، عند مروره ببيت الجرجاوى يسمع أنات شخص ما . تعب السكان وارهاقهم يكاد أن ينضح عبر الجدران فى العتمة يستدعى العمارة البعيدة فى لحظات الغروب يطل السكان من الشرفات الفسيحة المليئة بالراحة ، مرورهم أمامه ، تفيده هانم تتأبط ذراع شكرى بك المدير العام يفتح لها باب السيارة وعندئذ تستدعى برشاقة وتجلس فى المعد المجاور له ، وبرغم انحنائها فإن فستانها القصير لا ينحسر بوصة واحدة عن ركبتيها ، المدام إجلال بخطوتها السريعة واتجاهها إلى سيارتها الصغيرة ، لم يمض على زواجها أكثر من أربعة شهور ، والدها اشترى لها الشقة بعدة آلاف من الجنيهات ، أما المهندس زكى مدير أحد المكاتب الاستشارية فلا يرجع إلا ومعه قفص فاكهة يهرع عم عبده لحمله ، يطل من فمه سيجار بنى اللون ، نفاذ الرائحة ، يقال إن ثمنه خمسة جنيهات أى ثمن كيلو وربع لحمة مشفاة من سعودى الجزار ، استرى ثلاث شقق وأزال الجدران الفاصلة ، إمرأته تصغره بعدة أعوام ، شابة ضئيلة الجسم ، بيضاء ، تمشى بسرعة ولا تلتفت يميناً أو يساراً ، لم يرها إلا مرة أو مرتين ، لا تكثر من الخروج .

إنه يعبر مدخل البيت ، مندرة بيومى النجار مفتوحة ، شخير ، رائحة تراب ، رطوبة وركود ، يتمنى ألا تستيقظ سعدية ، يود أن يخلو إلى نفسه ، يستعيد نعيمة ، لا يدرى ماذا جرى له مع أنه رأى الكثيرات ، أقفاص قديمة ، قوالب أحذية مهملة ، يتمنى أن يدخل أثناء الهجوم على بيوت البغاء ، سمع بأذنيه أسئلة الضابط الصريحة ، المكشوفة ، دهش لجمال العديدات ، لم يتحرك

فيه عرق عند رؤيتهن ، لكن . . من يسمح له وهو المخبر الذى عاش عمره كله ينفذ فقط ما يسمع وما يصدر إليه من التوجيهات ، عمل دائماً فى الأزقة والأماكن النائية ، يقف الساعات الطوال منزوياً عند النواصى فى البرد ، المطر ، يرقب الأضواء خلف نوافذ البيوت التى يراقبها ، وربما يسمع أصوات الضحكات والـ ، وقد يرى العناق منعكساً على زجاج النوافذ ، ولا يفعل شيئاً أكثر من أن يرصد ، يراقب . . منذ سنوات اصطحب فتاة فى السادسة عشر ليسلمها إلى أحد الأقسام ، أمسك يدها والرغبة نائية ، ظلت مطرقة ، نظر إليها ، إلى وجهها الأسمر ، وعينيها المستكينتين ، ولم لا ؟ شبت فى جسده جذوة ، لكن . . أين ؟ حاد عن الطريق وغاصا فى شوارع معتمة حتى وصلا إلى طريق محاذى لتحويلة مهملة من السكك الحديدية ، دفع بها إلى داخل عربة قطار مهجورة ، فزعت قطط أو فئران ، لم يدر ، كل ما قالته « هنا ؟ » زام بصوته مجيباً ، لم يرها بعد ذلك ، لم تظهر فى أى قضية أخرى ، ولم يجرؤ على الاستفسار عن مرساها . . لكن نعيمة ليست منهن ، إنها خادمة عند كوكيتا ، هل يلتفت إليها أحد هؤلاء الرجال المنفوخين بالمال والجاه ؟ ، حتى الآن رصد عشر نساء أكد عم عبده إنهن يقصدن المدام . كل منهن تحل المعلق إلى حبل المشنقة من فرط الحسن والطلاوة لكن ، وماذا بعد . . لا يدرى ؟ . . يسد الباب . لا فائدة ، تستيقظ سعدية مع وقع خطاه فوق السلم ، تمد يديها إلى كبس النور ، يطلب منها ألا تفعل حتى لا توقظ الولدين ، لا يريد رؤيتها ، يخشى لحظات الحنان التى تضفيها عليه . وترديدها عبارات الإشفاق لصعوب عمله ، ترفع ثوبها . تهرش ساقها ، قملة أو بقة ، العمارة تخلو من هذه الحشرات ، لا شك ، تسأله . . هل تناولت عشاءك ؟ وإذا قال لا ستنحنى على الموقد ، تضغط الكباس مرات ، تبذل عدة محاولات حتى ينتظم لهيب الموقد لا . . لا يريد أن يأكل ، تنظر إليه بدهشة وإعياء . قال إنه تناول طعامه أول الليل بعد شعوره بجوع مفاجىء ، بسرعة يعلو شخيرها المتقطع ، ستوقظ نفسها بنفسها بعد لحظات ثم تروح فى النوم حتى يطلع الصباح ؟ سيركب الأوتوبيس المخصوص الذى لا يسمح فيه لرجال الشرطة بالمجان ، مثل هذه الخفقة القوية لم تواته منذ سنوات ، قبل أن يوغل فى النوم هز سعدية ، طلب منها أن توقظه مبكراً . . لكنه حتى الثالثة من

ظهر اليوم التالى لم ير نعيمة ، هل خرجت فى الصباح ولم تعد ؟ هل أنهت كوكيتا خدماتها ، لو صح هذا فما أتعس الحظ وأميل البخت ، جاء الحزين ليفرح فلم يجد مطرحاً ، فى الثانية إلا ربعاً أفرغ المصعد ثلاث فتيات ، قالت إحداهن أنهن سيصلن قبل موعد الانصراف ، قالت القصيرة إنها تخشى الزحام ، أرهف السمع . . ابتعدن ، لم يحاول متابعتهن مع أنه علم عند صعودهن أنهن متجهات إلى كوكيتا ، أين نعيمة ؟ ماذا تفعل ؟ هل ترقبه من مكان خفى ، إنه يدقق النظر فى الداخلين والخارجين بحثاً عن نعيمة ، عندما لفته الوحدة ، ولم يبد لعم عبده أثر صعد إلى الطابق الثامن وعلى مهل نزل إلى السادس ، أبواب الشقق الأربعة موصدة كأنها لا تؤدى إلى شىء فى الحارة ، يمكنه الإصغاء إلى همسات جيرانه من غرفته ، ألم يعش لحظة بلحظة تلك الليالى التى تلت زواج يوسف الحداد ومحاولاته المستمرة مع محاسن الحلوة ، الشابة التى راحت تنشج كلما اقترب منها وتصده عنها ، فى آخر ليلة سمعه يقول بغيظ سأشكو إلى أمك ، فيما تلى ذلك من ليال لم يسمع إلا صوت خرير المياه المنسال من الحنفية قرب الفجر عندما يصطدم بقعر الصفيحة الفارغة ، ثم يخفت تدريجياً كلما امتلأت بالماء ، لكنه هنا أمام بروج مشيدة يصعب اختراقها بالنظر والاصغاء ، لم يطل وقوفه ، لديه تعليمات مشددة ألا يكشف عن شخصيته ، بعد هذا العمر بعد كل ما رأى من نساء قاموا بالقبض عليهن هل يجرى وراء خادمة ؟ هز رأسه ، البنت تستحق والله ، هنا نعيمة تعيش فى بيت يوقن من طبيعة ما يجرى داخله ، لا يدرى أى شىء خفى يشده ويوثقه ، أوغل الليل والحركة خفت من الطرقات ، تباعد صوت مرور المترو القريب ، منذ لحظات عاد شكرى بك وحيداً ، قال للسائق تعال إلى فى الخامسة غداً ، لم تظهر نعيمة حتى اللحظات الأخيرة التى اختفى فيها عند منحنى الحديقة ، شقة كوكيتا غارقة فى الأضواء وكأنها ذهبية فى الليل ، ترى أين تنام نعيمة ؟ ومتى تصحو ؟ وماذا تفعل الآن ؟ . غير أن قلبه ابتل بالرضى فى اليوم التالى حوالى الثالثة ظهراً ، رآها كان يولى وجهه إلى الطريق عندما استقر المصعد وخرجت منه ، عندما وقفت فى المدخل لفته رائحة غريبة جسدت له تعبه ، وإرهاقه ، ورغبته المضنية فى الاستحمام ، والتخلص من رائحة عرقه ، وحلق لحيته على الرغم من حرصه على نعومتها حتى لا يسمع كلمة زجر من أحد

الضباط الشبان الجدد الذين يتمسكون بالمظاهر ، ويبدون ملاحظتهم حول الكبيرة والصغيرة حرصاً على تأكيد سلطانهم ، إنها تشير إليه هو ؟ نعم ، يخطو ، فى زينتها استعداد خاص للقائه ، إنها أجمل من المرة السابقة ، إنها رحبة ، مريحة ، واعدة ، يداه ، فى جيبى معطفه ، ما هذا ؟ إنها حركة تصحب تقدمه إلى أحد الأوكار ، ربما تلحظها ، يشعر بالحيرة بعد أن أخرجها ، يعقدهما أمام صدره ، تقول باختصار حلو مصحوب بتساؤ ل من الحاجبين . .

أكلت ؟

بسرعة وكأنه يشكو . .

لا . .

تتقدمه إلى المصعد ، يتمكن بعينيه من اهتزاز ردفيها ، كالفرس ، تورق داخله الرغبة ، يسألها ، إلى أين ؟ تقول بابتسامة وثيرة أنه معها . هل رآه أحد عندما أمسكت معصمه ؟ بماذا يفسر ذلك ل سأله أحد الضباط ، لا . . لن ينتظر حتى يقولوا له ، لماذا الصعود مع خادمة كوكيتا ؟ سيكتب كل شىء فى التقرير ، توثيق علاقته بنعيمة من مصلحة التحريات . سيبهر الإدارة بما سيقدمه من معلومات ، سيثبت أنه جدير بالخدمة فى المناطق الراقية ، هذه المرة الأولى التى يخرج فيها إلى منطقة كهذه ليست الأخيرة ، كل شىء سيذكره ، أما هذه النظرات الندية والدغدغة التى تسرى تحت جلده فليست معلومات ، إنها مشاعر لن يرصدها بشر ولن يرقبها جهاز ، عندما تجلس إحداهن للتحقيق ، هل يدون كل منهم مشاعره تجاه المرأة إذا كانت جميلة أو صغيرة ، ثمة خواطر تعبر ذهن كل ضابط ومخبر ، لكن لا يذكرها أحد فى أوراق . سيعرف من نعيمة أسماء المترددين ، سيبدو هذا مبهراً ، إنها تنظر إليه ، لا يدرِّى . . لكنها تقاطعه بوضع يدها على فمه ، توشك أن تلتصق به لكن مسافة فاصلة ، تقول هامسة أن المدام نائمة الآن ، كذلك أقاربها ، إنها بمفردها انتهزت الفرصة لتنزل إليه ، سيأكلان لقمة معاً ، إنها المتصرفة فى البيت أثناء غياب أو نوم المدام كوكيتا ، لكن ما ترجوه ألا يعرف عم عبده بمجيئه ، هز رأسه ، أوشك أن ينسى ما قاله عن قرابته لعم عبده ، تفتح الباب ، إلى أنفه الذى أنهكته رائحة المجارى والعطن

تنفذ رائحة عطر لعم عبده خفية تختلط بالظل الظليل ، المدخل فسيح ، فانوس من النحاس المشغول يهمس بالضوء ، مرآة بيضاوية مذهبة الحواف تستند إلى طفلين من الأبنوس الأسود ، نبت من ظهر كليهما جناحان ، يعبر الممر الضيق الذى يلى المدخل ، فى أركان الصالة المتباعدة مقاعد فسيحة ، يعبر الهدوء خاطر كالبرق ، بماذا يفسر وجوده داخل البيت لو هوجم البيت الآن ؟ يصغى إلى بقايا الأصوات القادمة من الخارج ، يبدو العالم بكل ما فيه بعيداً ، هذا أمر صعب الأحتمال لأنه لم يقدم بعد التقارير الكافية . ولأن مأموريته لم تنته بعد ، لم يتصور أنه سيرى ما يحيطه الآن ، المدام تنام فى هذا البيت ، لم يرها حتى الآن ، يجتاز ممراً قصيراً يؤدى إلى المطبخ ، إنه مكان فسيح ، أبيض ، نظيف ، فى الركن الأيمن ثلاجة ذات بابين فوق القيشانى اللامع . ألصصقت صغيره لأطباق طعام أفرنجية ، تفتح نعيمة الثلاجة ، ياه . . . طعام ، طعام فى أطباق ، طعام فى معلبات ، جبن أصفر ، جبن أبيض ، جبن ملفوف فى ورق معدنى ، صفوف من زجاجات الويسكى ، البراندى ، الجن ، وأنواع أخرى لم يرها بين سائر المضبوطات التى تم الاستيلاء عليها من الملاهى والأوكار ، لمبة حمراء مستديرة تضىء مقدمة فرن البوتجاز ، تفرغ قالب المكرونة المشوى ، تنثر فوقه الجبن الرومى المبشور ، تضع طبق الكوسة ، طبق آخر به أكثر من كيلو لحم مقلى فى السمن ، والمكرونة ، خيار مخلل وباذنجان أسود تقول إنها ستشاركه حتى لا يخجل ، على الرغم من أنها أكلت منذ قليل ، يسأل عن مذاق الكوسة ، تقول أنها بالباشميل ، إنها أكلة المدم المفضلة ، لا تمل منها أبداً . يهز رأسه ، لن يسأل أية أسئلة عن المدام حتى لا يثير الشكوك الآن ، لكل شىء وقته ، يتراجع إلى الخلف رافعاً يديه ، تصحبه إلى خارج المطبخ ليغسل يديه ، تغلق باب الحمام يتلفت حوله ، يصلح للنوم وليس لقضاء الحاجة ، الأرض مغطاة بسجاد قصير الوبر . فوق الحوض رف زجاجى عريض ، فوقه علب ، معاجين ، أدوية ، فرش لغسيل الأسنان حوالى أثنى عشرة فرشاة ، زجاجات مختلفة الأحجام ، يغسل يديه بالماء الساخن ، يتكاثف البخار فوق المرآة المعلقة ، الغبار ملاصق لوجهه ، لكم ترهقه الساعات الطوال التى يقضيها فى العراء ، يقف ساعات

أكثر من جندى المرور ، لا أحد يشعر ، لا أحد يقدر ، وإذا ذهب إلى الإدارة سيجدهم فى بيوتهم ، يغسل وجهه ، الماء فى الحوض يتحول لونه إلى بنى غامق بعد مروره على جلده ، يستدير حوله ، هل من فوطة لتجفيف الوجه ؟ يتصرف بحرية لا تواتى الإنسان إلا فى مكان مغلق كدورة المياه ، يتناول ورقاً من صندوق ملون ، يجفف الماء ، كل شىء ، نظيف هنا ، يخشى أن يقضى حاجته ، لا يرى مقبضاً لصندوق الطرد ، أنه يجلس الآن فى المطبخ ، يتناول الشاى ، تقول إنهارأته جدعاً أبن حلال ، لفت نظرها من اللحظة الأولى ، عندما عرفت أنه قريب عم عبده قررت أن تدعوه ، قالت أنها من مصر ، لا تعرف لها بلدة ، نشأت عند المدام ، لا أهل لها إلا المدام ، إنه يرفع حاجبيه بدهشة قائلاً ، إنها متقدمة فى العمر ، تضحك ، تعتدل فتبدو طلائع الفخذين ، إنها لا تدرى عمر المدام ، لكن من يراها سيجد أنها أكثر شباباً منها ، إن شعرها أسود غطيس ، ووجهها ناعم ، وقوامها . . اسم الله ، ما شاء الله ، إن الذين يخطبون وذها بلا حصر ، يهز رأسه والراحة تتمدد داخله ، الطعام جيد ، والهواء معقم ، والبنت تحدث فيه أزيزاً خفياً ، يقول أنه أثناء وقوفه مكان عم عبده سأله الكثيرون عن المدام . . يبدو أن معارفها كثيرون ، تتراجع نعيمة ضاحكة ، يزداد الأزيز داخله قوة ، تقول أن أحباب المدام بلا حصر وأنهم يسدون عين الشمس لو قضى ساعة واحدة بجوارها لرأى الأحباب من الشرق والغرب ، رجحاجال ونساء وبنات ، أساتذة جامعة ، رجال أعمال ، مقاولون ، إنه يفتح فمه قليلاً فى لهجة نعيمة شىء غامض لا يقدر على الإمساك به ، يسألها عن عمل المدام ، تتثنى ، توليه ظهرها ، « كالفرس » تقول أنها حبيبة الناس كلهم ، اليس هذا كافياً ؟ يرن الجرس ، رنة واحدة ، يقوم واقفاً ، يهرع الدم من قلبه إلى شرايينه ، تبتسم نعيمة ، هذه الضحكة الغامضة ، المحيرة ، أم أنه مخطىء ، تقول أن هذا ميعاد حسين بك ، تقول أنه أحد معارف المدام ، صاحب عدد كبير من التوكيلات التجارية العالمية ، يقضى فى القاهرة أياماً معدودة كل شهر ، فى هذه الأيام القلائل يتردد هنا بانتظام ، يحب إمرأة كالقمر ، صحفية بجريدة أبى الهول المركزية ، لا يمكنه رؤ يتها فى مكان عام ولا يقدر على تأجير شقة وكتابة عقد بأسمه لأنه متزوج ، تستضيفهما المدام ، يهز رأسه ، وهل يجيىء كل أقارب المدام

مع معارفهن ؟ ترفع حاجباً وتخفض الآخر ، بالضبط . . أفهمتها لوحدك ؟ تخرج ، يصغى لا يسمع أى هسيس ، لكن إحساساً خفياً لديه ينبئه بأن شخصاً دخل البيت ، تعود نعيمة ، يتقدمها الشذا الذى يبعث مويجات فى دمه تشب على أطرافها ، تلصق شفتيها بشفتيه ، تلفه نشوة ، ويدركه مرح جديد عليه ورغبة فى الصياح ، ومباهاة الخلق ، لم يعرف هذا من قبل ، لا يقبل سعدية ، يتم كل شىء بينهما فى صمت ، تتراجع نعيمة بعد أن شيعت إليه الدوار ، تتمنى لو قضت معه وقتاً أطول . . لكن البك فى حاجة إلى فنجان قهوة ، ثم تجهز الحمام للمدام كوكيتا التى ستصحو بعد ساعتين ، يتساءل قلقاً . . وهل سيبقى البك بمفرده ؟ تبتسم ، تداعبه ، هل بدأت الغيرة . . على العموم ستصل رفيقته الصحفية حالاً ، إنها تجىء متأخرة دائماً ، ويحلو لها أن يعاتبها ، فى المساء ستتكلم إلى المدام بعد أن تشرب ويشعشع الخمر فى رأسها ، وتتمايل طرباً ، قبل أن تبدأ الدندنة والغناء بصوت خفيض ستحدثها عنه ، ستقول لها يساعدها فى قضاء الحاجة ويحميها من مضايقات الشبان ، ستطلب منها السماح بمجيئه فى أى وقت بدلاً من حضوره هكذا خلسة ، إن طلبات نعيمة لا ترد فى هذا البيت ، تتقدمه إلى خارج المطبخ ، تقول إنهما سيقطعان الصالة فى هدوء . عند عبوره فوق السجادة الوثيرة حرص على التقاط ملامح البك ، قصير ، بدين ، بدا أنه لم يسمع التحية . أمام العمارة استنشق الهواء وانتبه للمرة الأولى إلى متعة التنفس ، ود أن يتحدث إلى أى مخلوق ، لكنه محاط بعزلة لا يبددها صمت عبده ، أى فرصة اتيحت له ؟ لا يحلم بها ضابط يقوم بالمراقبة ، لكن الحذر ، الحذر ، سيكتب كل شىء فى التقارير ، إنه فى مهمة رسمية ، وهدفه يتحقق ، وكل ما يطلب منه سيلبيه . . ماذا يعيبه إذن ؟ لم يتأخر هذه الليلة ، طلب من سعدية أن تعد له لقمة بسيطة ، قالت أنها لديها بيضتين مسلوقتين ، أومأ برأسه ، الأنفاس الثقيلة تزحم الحجرة ، فكر أن يطلب منها فتح النافذة ، ستقول أن الدنيا برد والعيال سيصيبهم البرد . هل ينفع الندم بعد هذه السنوات من الزواج ، ربط نفسه فى سن مبكرة ولم يعش أيامه ولم يعرف الدنيا ، ولم يمر بما يسمعه ويراه ، تقول سعدية إن البيضة تباع بخمسة قروش ، لم يرد ، ستقص

عليه حيرتها فى تدبير أمورها بالقروش القليلة التى يتركها لها ، وأسعار الخضار ، والطماطم العفنة التى تقبل النسوة على شرائها لرخصها ، وأم سعيد التى تقطع مشواراً كبيراً حتى سوق الباطنية لتشترى الباذنجان بأقل من السعر الذى يبيع به الخضرى ، أما هى فلا تستطيع المشى لأن ساقيها تؤلمانها . . لا شىء جديد ، ولا ثوب تفاجأ به ، حتى وجهها لا تغسله ، مع أنه لديها الوقت الكافى قبل عودته ، لا تفعل ذلك إلا يوم الخميس فقط وكأنه واجب روتينى ، أثناء تناول الطعام ستنقنق بصوتها ، ستلت اللقمة فى فمه ، ويفقد طعم صفار البيض ، لو يغمض عينيه فيرى نعيمة ، سعدية تضع الصحن أمامه ، تتراجع وتنظر إليه صامتة ، إن يدا تقبض قلبه ، كيف طاوع نفسه على الاسترسال فى تفكيره حتى يتمنى احتفاءها من حياته ، كيف تمنى أن يعود يوماً فيجد زحاماً وضجيجاً وتهرع إحدى نساء الحارة إليه صارخة ، تطلب منه أن يشد حيله لأن الموقد انفجر فأحرق سعدية والولدين ، إنه ينظر الآن إلى انحناءة كتفيها ، أنه لا يعرف شيئاً من البيت ، تدبر أمورها ، لم تستدن ولم تورطه فى مطالب لا يطيقها ، تتصرف تدبق ، زملاؤه يشكون دائماً ، أما هو فلا يشعر بوطأة الدنيا ، عندما خصم منه مبلغاً فى أحد الشهور لم تطالبه بما اعتادت أن تأخذه ، عرف فيما بعد أنها اختصرت طعامها إلى وجبتين لكنها لم تنقص شيئاً مما تقدمه إليه لأنه يجرى على الأولاد ويشقى عليهم ، يجب أن يجد ما يرم عظامه ، ويبل ريقه ، إن موجة حنان تجرفه إلى سعدية ، لو جاءته نعيمة هذه سينهرها ، لن يستجيب إليها ، حتى لو أمره الضابط بدخول البيت فلن ينفذ الأمر ، فى الصباح أيقظ ولديه وداعبهما ، قرص عمر ، عند وصوله إلى منحنى الحارة استدار إلى الخلف ، سعدية تطل عليه من نافذة الحجرة . أمام العمارة أجاب بجفاء على تحية عم عبده ، فى حوالى الثالثة وهو موشك على إغفاءة دهمه خاطر يقول أنه فى مثل هذه اللحظة منذ أربع وعشرين ساعة كان يشم جسد نعيمة من قرب ، لم يبد لها أثر حتى الآن ، توقع ظهورها لتدعوه ، وليرفض ، لم تظهر اليوم ، متى يقول لها إذن ما قرر قوله ؟ ولماذا لم تأت ؟ ماذا كان الهدف من دعوتها له بالأمس ، هل يوجد هدف خفى ؟ هل قصدت تعريضه لموقف يحاسب عليه فيما بعد ؟ لماذا لم تحضر اليوم ؟ هل كانت تعبث به ؟ لكن . . . ألم يقبس على نعيمة ؟ ألا يسىء الظن

بدون دليل ؟ ألم تعرض نفسها للخطر من أجله ؟ هل نسى نظراتها إليه ؟ قبلتها الهامسة ، الطويلة ، هل سمع عن امرأة بادرت بتقبيل رجل إلا إذا كانت مولعة به ؟ لو جرى ذلك لغيره لتباهى ، واليوم لم تظهر ، وبدلاً من أن يسأل عنها ، ها هو يسىء الظن بها ، أهذه أصول ؟ فى هذه اللحظة طرحت الرغبة وأثمرت ، يريد رؤ يتها ، سماع صوتها استنشاق وجودها الخفى المشع حول جسدها البض ، لكن إذا لم تفتح له ، ألم تقل له أن كوكيتا تنام فى هذه الساعة ، وأنها ستطلب منها السماح له بالتردد ، يضغط الجرس . يفتح الباب ، نعيمة ، تومىء برأسها ، تسأله هامسة ، لماذا تأخر ؟ لم تخرج الطعام مباشرة ، إنما أمسكت زجاجة ويسكى من الحجم الكبير ، يعرف الصنف جيداً ، والسعر ، لطالما كتبه فى كشوف المضبوطات ، من يدرى إلى تذهب المضبوطات ؟ لم يذقه أبداً ، ها هى الفرصة ، مع الرشفة الأولى توهج فمه بمذاق لاذع سرى فى الأعضاء حتى استقر عند سقف الرأس ، يزيد من الجرعة ، يخلع المعطف ، تتناوله نعيمة ، الحذر ، الحذر ، لن يشرب إلى الحد الذى يفقد فيه الوعى ، لكن يجب ألا يبدو أمامها بلا تجربة ، إن طبقة لينة تحل بين مفاصلة ، سكينة تتسرب إليه يشرع فى الحركة لكنه لا يحرك طرفاً ، تنحل عقدة سوداء ، ضئيلة الحجم لكن ثقيلة الجرم ، تسيح فى جسده ولا ترسو عند فكرة معينة أو كدر ، تميل نعيمة فيرى منبت النهدين ، متى يدلكهما بأصابعه ؟ تقول أنه يمكنه أن يجىء فى أى وقت وأن يبقى كيفما يشاء ، المدام لم تمانع لأنها لا ترفض لها طلباً ، يحيطها بذراعيه ، الجسم هش ، لا يمانع ، لكنها تبتعد وشفتيها متباعدتين تطلب منه أن ينتظر ، إلى متى ؟ إلى متى والجدران تتمايل ، والجماد ينثنى ، تقول أن المدام كوكيتا ستسافر خلال أيام إلى بورسعيد لتشرف على استلام شحنة أجهزة كهربائية ، ولوازم منزلية ، وسيارات ملاكى ، ثم تعود . . يمسك مسندى المقعد ، إذن فالقطاف ليس ببعيد ، يرن الجرس ، يجىء أربعة أشخاص ، رجلان ، وامرأة ، وفتاة ، إنهم من العاملين عند المدام كوكيتا ، الفتاة مضيفة فى شركة طيران وتشرف على عدد غير معروف من المضيفات الأخريات العاملات فى عدد من شركات الطيران الأجنبية كلهن يقمن بتوريد الويسكى ، والعطور الباريسية ، والساعات السويسرية والمجهرات ، والأطقم الفضية ، والآلات

الحاسبة ، والمعدات الصغيرة الالكترونية ، تقوم كوكيتا بتوزيع البضائـع على البـوتيكـات التـابعـة لهـا فى شـارع قصـر النيـل ، والشـواربى ، ورووكسى ، والأسكندرية ، أما المرأة فهى مصممة أزياء معروفة تظهر صورها فى المجلات وفى البرامج التى تعرض أحدث الموديلات الشتوية ، وقصات الشعر الأمريكية ، أما الرجل فمدير أحد البنوك الأجنبية ، والثانى صاحب معرض سيارات حديثة وعصرية ، يتساءل بلسان مثقل ، إذن فثروة المدام كوكيتا كبيرة ؟؟ تقول نعيمة أن أموالها لا تحصى ، لديها مجوهرات نادرة ، وأثقال من الذهب ، نزولها إلى سوق الذهب فى الصاغة يحدث هزة فى السعر عند كل الباعة ، لو اشترت يرتفع ولو باعت ينخفض ، تملك مساحات من الأرض فى الأسكندرية والبحيرة ، وبعض محافظات الصعيد ، وسيارات تاكسى ، وشقة فى لندن ، لكن رصيدها فى البنوك صفر ، لأن كل مليم يعمل فى أحد المشروعـات . . وتسكت نعيمة فجأة ، تنظر إليه ، تقول أن أسئلته كثيرة ، يحملق ، هل أخطأ ؟ تبدو نعيمة رحبة ، واعدة يقول أنه يريد معرفة كل شىء يحيط بها لأن حبها لغلغ فى قلبه . .

فى اليوم التالى سأل نفسه ، ماذا سيجرى لـو زاد من جرعـة الويسكى ؟ تقاربت الجدران ودنا السقف ، وانسالت نعية إلى عروقـه ، خلت الدنيـا من الخوف المفاجىء الذى يبعثه ظهور الرتب الكبيرة ، وتساءل ، ألم يكن جديراً باحتلال منصب ، أو العمل فى تجارة ؟ ها هو يكسب المئات فى صفقة واحدة ، يرى ورقة من فئة الجنيه ، وأخرى من فئة العشرة قروش ، جنيه فكة ، وجنيه صحيح ، رأى ضابطاً برتبة ، وجندياً بدون رتبـة ، كان يجب أن يصبـح من هؤلاء الـذين ينفقون مـا يريـدون ، لا ما يجب انفـاقه ، رأى حـديقة بـدون خضرة ، وخضرة بدون حديقة ، مصباحاً بدون ضوء ، وضوءًا بدون مصباح ، رأى مسجداً بدون مئذنة ، ومئذنة معلقة ، أى طنين فى أذنيه ؟ تقول نعيمة إن كوكيتا إمرأة بحبوحة ، عرفت مـر الدنيـا وحلوها ، وهى تحب رؤ يـة الأحبة مجتمعين تحت سقفها ، يغمض عينيه ويفتحهما ، أى طنين ؟ كيف طاوعه قلبه على أن يسبب الضرر لهذه الكوكتاية ؟ لعن الله الأوامر والتحريات وهذا الفخر الـذى شعر بـه عندمـا جاء إلى هنـا لأول مرة لأنـه يراقب الـوجهـاء ، وذوى

المناصب ، ها . . يقف ساعات طويلة فى البرد وهم يمرحون وينعمون بين الجدران الوثيرة ، ألا يشبه حارس المتعة ؟

فى ذلك اليوم تركته نعيمة فى المبخ ، ثمة رجل قادم يستنفر البيت كله ، يجيىء بالطائرة من بلاد بعيدة ، تعلن الصحف عن وصوله ، ويبدو لمن لا يعرف إنه قادم لإنجاز مهام معينة ، لكنه يقصد كوكيتا لأنها توفر له مالا يستطيع أحد توفيره له ، هذا الرجل تجاوز الستين ، عندما يجيىء لا يرغب فى تواجد أى رجل فى البيت ، أو رنين جرس التليفون ، أو فتح النوافذ ، لكن لا ضرر من بقائه فى المطبخ ، هو ليس ممن يخشاهم سموه ، قالت أنه يهوى الأبكار ، يفضلهن فى السادسة عشرة ، تلميذات المدارس الأجنبية ، ويا سلام لو أن الأب أرمنى أو يونانى أو أوربى . . خواجة يعنى . . والأم من بنات العرب ، يحب مجيئهن فى ثياب المدرسة ، يحملن حقائبهن يخاطبن المدام أمامه « يا أبله » يقول آه لو أمشى مع هذه الحلوة فى شارع الكورنيش . . يا سلام . . لكن ليس ما فى كل النفس يدركه المرء . . تغمز كوكينا للبنت البكر وعندما يتزايد خجل البنت يبدى سروراً ، يلعق شفتيه ، يرفع يديه ليزيح أكمام الجلباب الأبيض الواسع إلى الخلف ، ربما يخرج هدية ثمينة لكن الفتاة تتمنع ، ترفع عينيها إلى كوكيتا التى تشجعها . . خذى من سموه . . قبل أن تذهب إلى الغرفة الداخلية تقبلها المدام بحنان وتطلب من الأمير أن يترفق بها . .

ضحكت نعيمة وقالت أنها لن تبخل عليه بأدق الأسرار ، ماذا يحدث فى الداخل ؟ إن الأمير يجلس فوق السرير ، يتطلع إلى البنت ، يتنهد ، ثم يلمس وجنتيها ، ويعاود المنظر ، فجأة يبكى ، ويضرب ركبتيه بقبضة يده متحسراً ، وبعد أن يشبعها عضاً ، وركلاً ، يفتضها بأصبعه ، فى إحدى المرات قال مستشار سموه إن الأمير أبدى ارتياحا لأن البضاعة ليست مغشوشة ضربت المدام صدرها بيديها . كيف يتسرب الشك ؟ لكن المستشار حاول أن يهدئها ، قالت إنها لا تحضر إلا ما يريده بالضبط ، إنها تستعرض وتختار ، وتجرى تصفية دقيقة ، كما تجرى تحريات دقيقة حولهن بمساعدة ذوى التخصصات للتأكد من ماضى كل منهن ، إنها تدفع مرتبات شهرية للمشرفات والعاملات ، وشبان من عائلات

محترمة ، وشخصيات أخرى لا داعى لذكرها ، أو الإفصاح عما تحتله من مناصب . .

فى طريق العودة الليلى ، وبعد تبخر آثار الويسكى تساءل . . لو تعرف نعيمة حقيقة المهمة التى جاء من أجلها ، إن رعدة تشمله إذ يتذكر نظراتها إليه وقولها « أنت أسئلتك كثيرة . . » لكن لو شكت فيه هل كانت ستبوح له بأدق الأسرار سيتعجب الضباط من قدرته على النفاذ إلى البيت عندما يقدم إليهم التقرير الشامل ؟ الآن لا يذكر إلا ما يمكنه أن يراه من مدخل العمارة . لن يصف كوكيتا إلا عند سفرها إلى بورسعيد ، حتى الآن لم يرها ، سمع صوتها فقط ، إنها تستيقظ من نوم العصارى ، تجلس فى الصالة ، تمسك أحد المراوح الدقيقة ، إنها مغرمة بهذه المراوح ، فى العام الماضى أهداها رجل أعمال يابانى مروحة رقيقة من الصدف المطعم باللؤلؤ . من مكانها فى الصالة وعبر التليفون تدير كل شىء ، بعد انصراف المعارف والأحباب تحتسى مشروب الجين المضاف إليه عصير الليمون ، تتأوه ، تمصمص شفتيها ، ثم تطرق وقد تنام مكانها ، كان يظنها أصغر سناً ، لكن نعيمة قالت أن عمرها الحقيقى يتجاوز الستين ، لكن من يرها يظنها أصغر من ذلك بعشرين سنة ، جاءها شاب فى العشرينات ، أين أحد المصدرين الأساسيين ، حمل معه توصية من صديق عزيز للمدام فى الجمرك ، لا تخوض كوكيتا مباشرة فيما جاء الضيف من أجله ، تقدم له الويسكى والطعام ، ثم يجرى الحديث على مستويات مختلفة ، حملق إليها الشاب طويلاً . . ثم قال إن هدفه ومناه أمامه ، نعم . . يريدها هى ، ظنها ستلين له لتقدمها فى العمر ، لكنها ربتت كتفه بيدها ، نادته بأسماء الدلع ، ثم صرفته ، وطلبت منه ألا يدخل البيت مرة أخرى ، بعد شفائها من مرض قالت لنعيمة أن الطبيب راح يتعجب ويقول أنها أكثر صحة من فتاة ، إنها سليمة وجواهرها لم تصدأ ، كوكيتا عزيزة المنال وليس كما يظن البعض .

إنه يقطع الطريق على مهل ، يفاجئه خوف غامض كلما تذكر كوكيتا ، أنه يحار ، لماذا تمارس هذه المهنة التى تجر عليها الخراب . . لكن أى خراب يفكر فيه ؟ عندما دق جرس الباب أول أمس نظرت إليه نعيمة وطلبت منه أن يفتح

الباب ، أبدى تردداً ، قالت أنه لم يعد غريباً ، عبر الصالة الهادئة المعطرة برائحة خفية فوجىء بالضيف يدخل على الفور ، لم يسأل عن كوكيتا ، لم يلفظ حرفاً ، إنما دخل على الفور ، خيل إليه أن شخصاً كان يرافق الضيف ثم اختفى بعد فتح الباب ، عبرت ظهره قشعريرة ، أكدت نعيمة أنها لم تكن تعرف أنه هو القادم ، إنه الوحيد الذى يجيىء فى أى وقت ، وتصحو كوكيتا من نومها لتجلس إليه ، تذكر الطريقة التى خاطبه بها ، واستدارته ، قال له أحد أصحابه مرة أنه لا يخشى ضابط الشرطة الذى يرتدى الزى الرسمى ، لكن ما يبعث على الخشية هؤلاء الضباط والجنود الذين يختفون داخل ثيابهم المدنية ، فى مواجهة هـذا الرجـل أوشك أن يقف متصلباً ، أن يخبط قدمه فى الأرض ، ويؤدى تحية لا يجاب عليها فى كثير من الأحيان ، تأدية التحية بالنسبة له كالتنفس والمشى ، أما الرد فكرم من الطرف الآخر ، غير أن مأموريته لم تخلو من منغصات ، فى تلك الليلة اقترب منه جلال بك زوج نفيدة هانم ، ساكناً الطابق العاشر ، هش الرجل وبش وقال انه يريده فى كلمتين ، قال الرجل بعد أن انتحى به جانباً أنه يراقبه منذ فترة ، وأنه علم بطرق مختلفة أنه مخبر من مباحث الحفاظ على الأخلاق وأنه جاء إلى المنطقة ليراقب كوكيتا .

قاطعه بسرعة :

« غير صحيح . . »

« من حقك أن تنكر ، فالشرطى السرى يجب ألا يعرف إنسان حقيقته ، ثق أنه لا يعرف أحد غيرى . .

على أية حال إذا كنت فى حاجة إلى أى شىء . . إلى أى معلومات أنا تحت أمرك . . هذه المرأة بؤرة فساد . . كم خربت من بيوت . . شد حيلك . . من أين عرف الرجل ؟ كيف ؟ يعتبر مكشوفاً الآن ، هل يبلغهم بذلك ؟ بعد فترة من الوقت قرر أن يؤجل ذلك إلى ما بعد سفر المدام إلى بورسعيد ، وحتى يرى ما سيحدث مع نعيمة ، عـاد إلى بيته متـأخراً ، تنفس إمـرأته يقلقـه ، كيف احتملها طوال هذه السنين ؟ وهندما طلبت منه أن يحاول العودة مبكراً بعض الليالى ليجلس إلى الولدين ، علا صـوته حتى أوشـك الجيران عـلى التدخـل

لتهدئته ، ألا تعرف طبيعة عمله ، ألا تعرف الشقاء الذى يلقاه حتى يوفر لها ولوليها الطعام ، أغمض عينيه واستدعى نعيمة ، حن إلى جرعات الويسكى التى تنفس الخوف ، وتزيح عنه الهموم ، البنت تزداد تعلقاً به ، تداديه ، تناغشه ، لا تبخل عليه بشىء ، أعدت له طعاماً مخصوصاً وأكثرت من السمك عندما أبدى تفضيله له على سائر الأصناف ، قدمت له المقلى والمشوى والصوانى غير أنها لم تعطه ما تمنى ، أرجأت تنفيذ الوعود إلى سفر كوكيتا .

فى الصباح جاءت أم صبحى إلى امرأته ، وقالت الواحدة منهن لا يمكنها أن تعرف ما يتعرض له الرجل من مضايقات ، حتى لو قسا فعليها أن تحتمل من أجل كوم اللحم الذى ترعاه ، نهنهت ، دمعت ، قالت انها لم تقل له شيئاً يثير ضيقه وغضبه .

فى ذلك اليوم لم يصدق عينيه عندما رأى المدام إجلال ساكنة الطابق العاشر ، قالت نعيمة ، إن دهشته تعنى أنه رجل خام لم يعرف الدنيا بعد ، إن كوكيتا تسيطر على سبع نساء فى العمارة ، لا يجئن إلى البيت من أجل أصحاب معينين إنما ليضعن أنفسهن تحت تصرف كوكيتا التى تقدمهن إلى من تشاء وتختار ، قالت نعيمة أن سيدتها تأسر الأرواح ، كل من يعرفها يقع فى هواها ويخضع لها ، باستطاعتها أن تخرب بيوتاً عديدة ، لكنها لا تفعل إلا إذا لاح الخطر وظهر الشر ، كلما تردد أكثر سيرى العجب ، قالت نعيمة أنه لديها مظروف يحوى صوراً من جميع ما يرسل ضدها من شكاوى ، حدث ذات مرة أن إمرأة راحت ترسل البلاغ تلو البلاغ فكيف ردت عليها كوكيتا ؟ بحثت طويلاً حتى اكتشفت أن زوجها يعمل بإحدى إمارات الخليج ، أرسلت إلى أحد معارفها الذى قام بعمل اللازم وتولى ترحيله خلال ساعات ، إن قرصة كوكيتا تؤدى إلى القبر ، يحدث بين الحين والحين أن بعض الضباط الشبان الفرحين بالنجوم المتلالئة فوق أكتافهم ، الذين لم يجربوا الحياة بعد يحاولون مضايقة كوكيتا ، لا يسلم أحدهم أبداً ، واحد ممن أرسلهم أحد هؤلاء الضباط ضمته المدام إليها ، أسرته برقتها ، وكرمها ، وما أبدته من صدق ، لدرجة أنه كان يطلعها على كل ما يكتبه ضدها من تقارير قبل أن يسلمها إلى رئاسته فتجرى فيها من

التعديلات ما تشاء ، بل إنها طلبت منه زج اسم إحدى عميلاتها فى بلاغ عن بيت يدار للدعارة فى العباسية ، إمرأة محترمة فى نظر المجتمع ، كانت تسكن العمارة وتجىء إلى المدام على فترات ، وعندما بدا منها الغدر افترستها كوكيتا ، ولا تزال فضيحتها تدوى . .

وتوقفت نعيمة ، نظرت إليه ،

« لكن أسئلتك كثيرة جداً . . »

فى هذه اللحظات أخفى قلقاً وابتسم مردداً أنه يريد أن يعرف كل شىء عن نعيمه ، لكن ضيقاً ألم به ، هل تعرف نعيمه شيئاً عنه ؟ هذا الخاطر دفع إلى البقاء فترات أطول بالقرب منها لعل دليلاً يتكشف له فينأى بنفسه قبل الوصول إلى حافة الهلاك ، بل أن قلقة تزايد إذ أدرك بعد انصرافه إنه لا يتعجل العودة لرؤ ية نعيمة فقط إنما ليحاول تلمس ما ينم عن إدراكها لطبيعة مهمته ، حاول تهدئة نفسه بأنه سوف يقدم كل التفاصيل فى تقرير يرفعه بعد ذهاب كوكيتا إلى بور سعيد .

ها هو يقف صباح الأثنين المرتقب فى التاسعة ، تتوقف سيارة رمادية من طراز مرسيدس ، خلفها ، سيارة بيضاء من طراز بيجو ، يظهر رجل يحمل حقيبة ثقيلة كما يبدو من مشيه المتباطىء ، عم عبده يرفع يده ، كوكيتا ، لابد أنها هى ، ألا أنه لم يستطع تمييز ملامحها من موقعه الذى اختاره ، عند ناصية الحديقة ، تمشى متهادية ، ترتدى ما يشبه العباءة ، الرجل يتقدم ، يفتح الباب ، على مهل تنحنى ، تتحرك السيارة الرمادية ، تتبعها الأخرى ، بخطى بطيئة يتقدم من العمارة متلذذاً ، مبتلعاً لعابه بين الحين والحين ، مخاطباً دقات قلبه راجياً منها الهدوء ، يود أن تتأجل المتعة حتى يظل الحلم بها قائماً ، تفتح نعيمة ، تتألق ، تضوى ، هكذا يجب أن تستعد المرأة لملاقاة الرجل ، تضحك . .

« هل كنت نائماً بجوار الباب ؟؟ المدام نزلت من دقيقة »

يحاول أن يمسك ذراعيها ، تشمله رعشة ، وخور غامض حتى خشى ألا يوفق وتصير فضيحة بعد هذا الانتظار الطويل ، يقعد فوق الأريكة ، لأول مرة

يجلس فى الصالة الهادئة حيث امتزاج الروائح والظلال والضوء الناعم ، يحاول أن يحتضنها أثناء وقوفها ، يسند رأسه إلى انبساط ورحابة بطنها ، تقرب أصابعها من فمها . .

« أدخل الحمام . . أخلع كل ما عليك وانتظرنى . . سأدلك ظهرك بيدى . . »

لا بأس ، ربما تريد إزالة ما لصق به من روائح الحارة وقرف الحارة ، لها الحق ، ينظر إلى الساعة ذات الإطار الذهبى ، التاسعة والنصف ، لابد أن الضباط كلهم وصلوا الآن ، سيذكر فى التقرير سفر كوكيتا إلى بورسعيد ، لكنه سيضيف أيضاً أن تردد البعض لم ينقطع حتى لا يصدر أمر بتكليفه بمهمة أخرى ، ينفض ما فى رأسه ، ما الذى جعله يفكر فى المكتب والضباط ، والتقارير والممر الطويل الكئيب الذى تصطف على جانبيه الحجرات ، لينس هذا كله مؤقتاً ، بجوار الأريكة ، منضدة صغيرة فوقها أطباق صغيرة مليئة بالمربى ، والجبن الرومى ، شرائح الطماطم المطعمة بالبقدونس الأخضر ، لم يأكل إفطاراً من قبل يتكون من عدة أصناف ، طبق واحد ظل يوضع أمامه طوال عمره .

إنه يقف الآن عارياً فى الحمام الملون ، الرف الزجاجى مثقل بأنابيب ملونةوزجاجات وعطور وعلب صغيرة مستديرة ، يتصاعد البخار ، تتضبب صورته فى الماء ، قال لنعيمة أنه سيستحم بنفسه جيداً ، أدركه خجل ، لم يعتد أن تدلكه إمرأة أو تدعك ظهره ، لكن الباب يفتح ، تقف نعيمة ، تعقد يديها أمام صدرها ، يمد يديه ليستر ما بين فخذيه ، تضيق عيناها ، ما هذه الابتسامة ؟ ليس التعبير المناسب الذى يسبق ما حلم به ، تستعرضه على مهل . . .

« يكفى يا حضرة الصول . . . »

***

نوبة حراسة

.. قالوا له أن اختياره لم يتم عبثا ، تبثت كفاءته خلال التدريبات ، والمهمات ، التى اشترك فيها ، خاصة جرأته وقوة تحمله وشجاعته ، غير أن موقعه الجديد حساس جدا ، ويحتاج الى يقظة عالية ، ان المبنى الذى سيقوم بحراسته هدف لكثيرين ، خاصة الحاقدين ، يقع فى هذه المنطقة الهادئة البعيدة عن قلب المدينة ، مما يسهل الوصول إليه ، خاصة بالسيارات التى يمكنها الاندفاع بسرعة كبيرة ، ربما القيت عبوة متفجرة ، أو جسم غريب ينفجر بعد وقت محدد ، فى كلا الحالتين لابد من اليقظة ، لابد أن يفتح عينيه جيدا والا سيجد نفسه فى خبر كان . . مفهوم ؟ فى ثانية قد تحدث المصيبة ، مفهوم ، عليه أن يلتزم وضع الاستعداد التام ، وأن يحذر الحديث الى أى مخلوق ، ربما يعمد أحدهم مشاغلته ، ربما يعرضه لشم مخدر قوى بواسطة منديل ، أو باشعال سيجارة من نوع خاص ، فى كل الأحوال عليه أن يحذر ، وأن ينتبه الى سلاحه ، ليجعل فقد سرواله أسهل من فقد سلاحه ، مفهوم ؟ قالوا له أنه سيقف وحيدا ، لكنه سيكون موضع مراقبة من مكان خفى ، عند الخطر ستنشق الأرض عن النجدة ، فتح النار يجب أن يتم فى حالات الضرورة القصوى ، واذا

بدأوا هم ، مفهوم ؟ . لم يتكلم ، لم ينطق حرفا لأنه فى السابق عندما قيل له . . مفهوم ؟ قال نعم ، لكنهم زعقوا فى وجهه ، هل ترد . . هل تجرؤ ؟ تعلم الا يرد ، عندما جمعهم الضابط الطويل المتخرج حديثا من كلية الشرطة ، سأله عن أسمه ، عندما أوشك على النطق ، زعق فيه ، كيف يفتح فمه ، أمره بأن يذكر اسمه بدون أن يفتح فمه ، اضطرب ، عرق حتى غطى البلل عينيه ، اضطربت مصارينه ، لم يدر ما يفعل ، تراجع الضابط مقهقها ، لاحظ فى هذه اللحظة أنه أبيض ، ناعم الجلد ، حليق ، نام جيدا ، عندما رآه يضحك لانت عضلات وجهه ، غير أن الضابط تبدل فى دقيقة ، هل تضحك ؟ مما رعبه ، فى هذا اليوم لف الملعب خمسمائة مرة ، بين الحين والحين يأمره بالوقوف ، يعلن أنه أخطأ فى العد ، ليبدأ اذن من جديد ، يحدق اليه الضابط وعندما يتطلع اليه للحظة يرى كراهية عجيبة ، وقسوة تبدو فى ملامح الانسان الذى يتمكن من آخر ، ويصبح مطلق اليد فى أن يفعل به ما يشاء ، سأل نفسه ، لماذا أنا . . هل آذيته ، لا أعرف إلا اسمه الأول ، كثيرا ما أمره بخلع قميصه ، والارتماء فوق الأرض مرتكزا الى يديه وأطراف قدميه ، تمرين الضغط ، بعد المرة الخمسين ترتجف عضلاته وتنفر أوردته ، وعندما يرتعش جسده كله يأمره بالكف ، فى مرة سأله عن الطعام الذى كان يطفحه قبل مجيئه الى وحدات الشرطة الخاصة ، هم بالاجابة ، زعق فيه ، كيف يجيب ؟ انه يسأل فقط ، أمره أن يقيس أرض التدريب بدبوس ابرة ، أمره أن يروى الحديقة مستخدما ملعقة شاى وفنجان كان عليه أن يملأه من طلمبة يدوية ، أمره بأن يفرز الحجر الذكر من الحجر الانثى ، فى كل مرة لا ينفذ الأوامر بشكل يرضى الضابط ، يلف الملعب مئات المرات ، تعلم الصمت فى مواجهة ما يأمر به ، قالوا له ان التفتيش سيتم يوميا ، فى أى لحظة ولن يرى القائمين بالتفتيش ، ان واجباته محددة ، الدفاع عن المبنى ضد أى هجوم يقوم به الحاقدون ، لو رأى رجلا يقتل الآخر فوق نفس الرصيف ، عليه الا يتدخل ، لو ثارت ضجة بسبب لص أو نشال أو رجل يهاجم امرأة عليه الا يفارق مكانه ، ان مهمته حراسة المبنى ، انه مكون من طابقين ، تمتد أمامه حديقة بها أحواض زهور وكشك خشبى أخضر ، تعلو السور قضبان حديدية سوداء ، قالوا له ، عند حدوث خطر سينطلق تنبيه من داخل المبنى ، اذ يوجد

عند اصحابه تليفزيون خاص يرون فيه سعى النمل فى الشوارع المحيطة مباشرة بالمبنى ، على الجانبين تقوم عمارتان مرتفعتـان ، يغطس المبنى بينهـما ، سكان العمـارات تم تسجيلهم ، جمعت كافة المعلومات عنهم ، وعن أقـاربهم حتى الدرجة الخامسة عشرة ، لكل منهم ملف ، فوق الأسطح المجاورة شرطة سرية لمنع الصعود بحجة شم الهواء أو نشر الغسيل ، عليه أن ينتبه الى المترددين ، أن يرصد أى شخص منهم يتصرف بشكل غير طبيعى ، عندما جاء فى اليوم الأول وقف على بعد متر واحد من الباب الحديدى ، بجواره نافذة ضيقة محفورة فى السور ، الممشى المؤدى إلى المبنى مرصع بالحصى الملون ، الباب الزجاجى يحفه مصباحان قديمان ، تذكر عربات الحنطور الواقفة أمام المحطة فى البندر والمصابيح المعلقة على الجانبين ، يراها عند نزوله الأجازة ، أو عودته منها ، قبل ركوبه فوق سطح القطار مع عشرات من زملائه ، فى اليوم الأول خيل له أنه ما من أحد يسكن المبنى ، خاصة والنوافذ مغلقة ، وفوق السطح ينتصب علم غريب ، لم يعرف إلى أى بلد ينتمى ، ومجموعة من الهوائيات الضخمة ، الغامضة التى يراها لأول مرة ، استطاع أن يميز ايريال التليفزيون ، قالوا له أنهم يرونه من الداخل ، راح وجاء فوق الرصيف ، عند مروره أمام الباب يسرع الخطى ، ربما ينظرون اليه من خلال شىء ما فى الباب ، أو تلك النافذة الضيقة ، أو بواسـطة أحد الهوائيات الغريبة المعلقة فوق ، لكن لمـاذا يقلق ، أو يضيق ، ليس فى منظره ما يعيب ، السترة جديدة ، استلمها منذ أسبوع ، والحذاء الضخم لم يلن بعد ، حتى انه يؤلم قدميه ، ولابد من مرور مدة حتى يعتاد عليه ، غـطاء الرأس فى الوضع المناسب ، لم يستطع قراءة اللافتة النحاسية ، مكتوب عليها بلغة غريبة ، أما اللغة العربية فمتداخلة الخطوط ، لم يستطع تفسير الحروف ، ثم ان قراءته بسيطة جدا ، وما تلقاه من تعليم الزامى هزيل ، لم يتبق منه شىء مـع مرور السنين ، نسى الكلمات والحـروف أثناء عمله فى نقـاوة الدودة ، ثم تـلاشى ما تبقى عندما أصبح صبيا للترزى ، وبعد أن اشترى له شقيقه الذى يعمل فى الخارج ماكينـة خياطـة مستعملة ، واكتفى بها عن العمـل كصبى فى دكاكـين الترزية ، ولأن سمعته طيبة فى البلدة ، وأبوه رجل صالح ، جاءه الزبائن ، حتى انه قبل ذهابه لتأدية الخدمة العسكرية كان يعمل ليلا ونهارا ، وعندما يمضى فى

أجازة إلى البلدة ، لا يخلو الأمر من الرزق ، يقضى أيام راحته منحنيا على الماكينة ، أمه العجوز تصر على السهر بجواره ، تحكى له أخبار البلدة أثناء غيابه ، تحفظ آخر خطاب وصلها من الأبن الأكبر الذى يعيش في غربة ، إنه يروح ويجيء أمام المبنى ، ماذا يجرى داخله . من يعيش فيه . ؟ لم يستطع أن يخمن ، تذكر ما قالوه ، المبنى خطير ، وهدف للحاقدين ، لم يدر . . أهو سفارة ؟ أم قنصلية ؟ . . أم . . ماذا ؟ . ركز حواسه على المارة ، وملاحظة المتسكعين ، أو الذين يتكرر مرورهم فى ظهيرة اليوم الأول توقفت سيارة جيب ونزل منها جاويش الفصيلة ، سلمه الوجبة الجافة ، وذكره بضرورة الا يشغله الطعام عن مهمته ، ستمر عليه السيارة فى الثامنة ليلا ، ميعاد تغيير النوبة ، لكن عند الطوارىء ، وعدم وصول البديل ، عليه أن يستعد لمواصلة الحراسة ، حتى مجيىء زميله ، مفهوم ؟ ليضع هذا الكلام حلقة فى أذنه حتى لا ينساه ، والا . . فلن يدرى ما سيفعلونه به ، بعد التهام الوجبة أدركه ظمأ ، كيف يشرب ؟ التعيين لم يحتو على مياه ، انه لا يحمل زمزمية ، لا تصرف لهم الا عند طلوعهم الى الجبل لاجراء التمرينات الصعبة ، تسلق جدران ، وعبور لهب ، ومشى فوق الحبال ، لكنهم لم يضعوا الزمزمية فى الحساب ، ربما لأنه فى المدينة ، لكن ممنوع عليه الحركة أو الاتصال بالغير ، لا يلمح أى انسان خلف الباب المغلق ، يرى الجنايني ، سيناديه ويرجوه أن يملأ كوب ماء ، لابد أن الجنايني ابن بلد ، إن جفافا يكسو حلقه ، خاطر آخر ، أين يتبول ؟ لكن ما شغله الظمأ ، هل يتراجع بظهره حتى باب العمارة المجاورة وينادى البواب ، لكن . . ربما لمحوه من الداخل فى التليفزيون ، ربما جاء الضابط فجأة ، لا يدرى ماذا يفعلون به عندئذ ؟ ، هؤلاء الأجانب لا رحمة فى قلوبهم ، والواحد منهم لا يعرف أخاه ، فما بالك بالغريب ؟ لم يكلفوا أنفسهم بالنظر إلى من جاء لحراستهم ، ودفع خطر الحاقدين لم يرسلوا اليه طبق بطيخ أو قطعة جاتوه . الخفير فى البلدة يخرج له الأكل ويدعى إلى الشاى ، وتدخين الحشيش أيضا ، مع انه لا يختص بحراسة بيت واحد ، أخرج لسانه مرات ليرطب حلقه ، يمكنه التحكم فى البول ، تأجيله حتى يختلس لحظة مواتية ، الشارع بعد الغروب هادىء ، خافت الضوء ، يمكنه أن يتخذ وضعا مناسبا لا يوحى لمن يراه على البعد بما يفعله ، لكن الماء ،

سيتحدث الى الجاويش عند تغيير النوبة ، بدت له أيام الخروج فى النوبات الجماعية أرحم من هذه الوقفة التى لم يتبادل خلالها حتى السلام مع الآخرين ، يمرون به وكأنه غير موجود ، كانوا يركبون مائة ، أو مائة وخمسين جنديا ، يرتدون الخوذات ، وأغطية الوجه الواقية من الحجارة ، يمسكون دروعا رمادية ، وعصيا غليظة ، يصيح الضابط فيهم قبل صعودهم الى اللورى انهم سيذهبون لمواجهة الحاقدين ، هناك احتمال بتحركهم ، يجب التعامل معهم بدون رحمة ، يعبر اللورى طرقات المدينة ، يقف عند ناصية أو بالقرب من ميدان كبير أو فى مواجهة مبنى رئيسى ، أو فى شارع جانبى ، يطول الانتظار ساعات ، ولا يتبدل وضعهم داخل اللورى ، الواقفون قرب الباب ، أو المتعلقون بالسلم الخارجى يتابعون النساء ، وعربات الملاكى والسيارات ، وصيحات الباعة ، والمشاجرات الصغيرة ، وضحكات عابرة ، كان الضابط يجلس بجوار السائق فى الكابينة المغطاة بشبكة واقية من الصلب ، يمر الوقت ثقيلا ، يتسلل الحذر إلى أعضائهم ، يثقل الهواء داخل اللورى ، يضيق الواحد بالآخر ، يتمنى بعضهم أن يظهر الحاقدون ، عندئذ يغادرون اللورى ، ويذيقونهم المر الذى شربوه فى الوقفة وفى التدريب ، يكفى أن يطلقهم الضابط ، لكن خلال المرات التى طلعوا فيها لم يظهر أحدهم ، فى أحد المرات وقفوا ثلاثة أيام متتالية فى انتظار ظهورهم ، لكن الضابط سمح لهم بمغادرة اللورى واحدا ، واحدا ، لقضاء الحاجة ، وعلى كل منهم أن يتصرف اما فى مقهى ، أو دورة مياه عامة ، الطريق . . لا ، كانوا يعودون الى المعسكر كالقتلى ، يرتفع شخيرهم ، يجض بعضهم أثناء نومه ، ولا يحلو للضابط أخضر العينين أن يوقظه الا بعد العودة واستغراقه فى النوم ، ويأمره بالخروج فى الهواء البارد ولف الملعب ، بينما يقف عند مدخل الاستراحة يرقبه وينهره بصوت مرتفع إذا لاحظ أى تباطؤ . كان من السهل أن يقطع المدينة جريا من أقصاها إلى أدناها بدلا من الحشر فى اللورى ، برغم ذلك كان اللورى له مزايا أفضل من هذه الوقفة الكريهة كأنه عود قصب فى غيط برسيم ، لم يتأخر الأكل أبدا فى دوريات اللورى ، لكن هنا كأنهم نسوه ، لكن ، ألم يقل الضابط انه سيراقبه بدقة ؟ عند الخطر ستظهر المساعدة من حيث لا يدرى ، ربما يرصدون حركاته الآن ، قد يستنتجون من وقفته وخطواته أن فى صدره ضيق ،

عندئذ . . لا يدرى ما سيفعلونه به ، فى اليوم التالى تأخر مرور عربـة التعيين خمس ساعات ، آلمه الجوع خاصة أن الدنيا برد والهواء يقص الأطراف قصا ، خلت الشوارع ، واهتزت الفروع العارية للشجر القديم ، وتذكر بأسى العودة إلى البيت ، ووقيد الفرن ، ورائحة الجبن القديم ، والخبز الساخن الذى يحمل لهيب نار الفرن ، ولسعة قرن الفلفل الذى دفس زمنا طويلا فى المش ، وآه . . آه من رائحة التقلية وطشة الثوم عندما يضاف الى الملوخية ، ابتلع لعابه ، لابد أن الضابط أخضر العينين يتتبعه بالأذى ، دائما يقول له . ٧ // ° +ء÷ ٠ إ-- لأن ، أوتوبيس أبيض يتوسطه خط أحمر ، وكتابة بالانجليزية ، نزلت فتاتان ، احداهما أكبر وأطول ، تحتضن حقيبة إلى صدرها ، لا تزيد عن الستة عشرة ، ثوبها قصير ، ركبتاها مرتويتان ريانتان ، الشبع ، الشبع يفط من عينيها ، طلائع الفخذين الشابين ، القويين ، الناعمين ، يسرى دفئا فى جسده ، ينسى جوعه فى ظل جوع آخر ، حاد ، هفا قلبه ، انتبه الى وقوفه ، واحتمال مراقبته من مكان خفى ، نظر إلى بنطلونه خجلا ، خـائفا ، حـاول أن يمسك البنـدقية بـوضع أمامى ، تدخل الكبرى الى العمـارة المواجهـة ، وتمضى الصغرى ، الستـائر مسدلة ، هدوء ، ظلال ناعمة ، راحة بال ، بعد عن الشارع والبرد والهواء ، تخلع ثيابها ولا تبقى الا فى ملابسها الـداخلية ، يضـوى الجسد الفتى الفهـاج بالأنوثة والعافية ، يقتحم الغرفة هادئا ، يبدو الخوف على وجهها ، يلقى البندقية جانبا ، تلين مقاومتها ، تبسط يدها تتحسس عضلات ظهره ، تماما كما رأى فى السينما ، مقاومة يعقبها استسلام ، تصبح فى يده كالعجينة ، آه . . وهل هذا معقول ؟ أن همه الآن اخفاء البروز اللعين الصلب ، ربما يفضحه ، لو يصل الأكل الآن ، لا توجد أكشاك قريبة ليشترى منها باكو باسكويت ، لكنهم أزالوا جميع الأكشاك من المنطقة كاحتياط واجب لأمن المبنى ، بالأمس ، اضيئت الأنوار الداخلية فى المبنى ، خلف زجاج النافذة العريضة بالطابق الأرضى رأى خيال رجل ، وخيال امرأة ، بدا واضحا انهما يعدان مائدة ، مال الرجل ثلاث مرات وقبل المرأة ، ثم اختفت الحركة ، واستمر الضوء الهادى الناعم ماذا يضم هذا المبنى ؟ من المضحك طبعا أن يسأل بواب العمارة المجاورة ، ثم انه من الخطر تبادل الحديث مع الآخرين ، ربما رصدوه ، عندئذ لا يدرى ما يفعلونـه به ،

ليرطب حلقه ، يمكنه التحكم فى البول ، تأجيله حتى يختلس لحظة مواتية ، الشارع بعد الغروب هادىء ، خافت الضوء ، يمكنه أن يتخذ وضعا مناسبا لا يوحى لمن يراه على البعد بما يفعله ، لكن الماء ، سيتحدث الى الجاويش عند تغيير النوبة ، بدت له أيام الخروج فى النوبات الجماعية أرحم من هذه الوقفة التى لم يتبادل خلالها حتى السلام مع الآخرين ، يمرون به وكأنه غير موجود ، كانوا يركبون مائة ، أو مائة وخمسين جنديا ، يرتدون الخوذات ، وأغطية الوجه الواقية من الحجارة ، يمسكون دروعا رمادية ، وعصيا غليظة ، يصيح الضابط فيهم قبل صعودهم الى اللورى انهم سيذهبون لمواجهة الحاقدين ، هناك احتمال بتحركهم ، يجب التعامل معهم بدون رحمة ، يعبر اللورى طرقات المدينة ، يقف عند ناصية أو بالقرب من ميدان كبير أو فى مواجهة مبنى رئيسى ، أو فى شارع جانبى ، يطول الانتظار ساعات ، ولا يتبدل وضعهم داخل اللورى ، الواقفون قرب الباب ، أو المتعلقون بالسلم الخارجى يتابعون النساء ، وعربات الملاكى والسيارات ، وصيحات الباعة ، والمشاجرات الصغيرة ، وضحكات عابرة ، كان الضابط يجلس بجوار السائق فى الكابينة المغطاة بشبكة واقية من الصلب ، يمر الوقت ثقيلا ، يتسلل الحذر إلى أعضائهم ، يثقل الهواء داخل اللورى ، يضيق الواحد بالآخر ، يتمنى بعضهم أن يظهر الحاقدون ، عندئذ يغادرون اللورى ، ويذيقونهم المر الذى شربوه فى الوقفة وفى التدريب ، يكفى أن يطلقهم الضابط ، لكن خلال المرات التى طلعوا فيها لم يظهر أحدهم ، فى أحد المرات وقفوا ثلاثة أيام متتالية فى انتظار ظهورهم ، لكن الضابط سمح لهم بمغادرة اللورى واحدا ، واحدا ، لقضاء الحاجة ، وعلى كل منهم أن يتصرف اما فى مقهى ، أو دورة ماه عامة ، الطريق . . لا ، كانوا يعودون الى المعسكر كالقتلى ، يرتفع شخيرهم ، يجض بعضهم أثناء نومه ، ولا يحلو للضابط أخضر العينين أن يوقظه الا بعد العودة واستغراقه فى النوم ، ويأمره بالخروج فى الهواء البارد ولف الملعب ، بينما يقف عند مدخل الاستراحة يرقبه وينهره بصوت مرتفع إذا لاحظ أى تباطؤ . كان من السهل أن يقطع المدينة جريا من أقصاها إلى أدناها بدلا من الحشر فى اللورى ، برغم ذلك كان اللورى له مزايا أفضل من هذه الوقفة الكريهة كأنه عود قصب فى غيط برسيم ، لم يتأخر الأكل أبدا فى دوريات

اللورى ، لكن هنا كأنهم نسوه ، لكن ، ألم يقل الضابط انه سيراقبه بدقة ؟ عند الخطر ستظهر المساعدة من حيث لا يدرى ، ربما يرصدون حركاته الآن ، قد يستنتجـون من وقفته وخـطواته أن فى صـدره ضيق ، عنـدئـذ . . لا يـدرى ما سيفعلونه به ، فى اليوم التالى تأخر مرور عربة التعيين خمس ساعـات ، آلمه الجوع خاصة أن الدنيا برد والهـواء يقص الأطراف قصـا ، خلت الشوارع ، واهتزت الفروع العارية للشجر القديم ، وتذكر بأسى العودة إلى البيت ، ووقيد الفرن ، ورائحة الجبن القديم ، والخبز الساخن الذى يحمل لهيب نار الفرن ، ولسعة قرن الفلفل الذى دفس زمنا طويلا فى المش ، وآه . . آه من رائحة التقلية وطشة الثوم عندما يضاف الى الملوخية ، ابتلع لعابه ، لابد أن الضابط أخضر العينين يتتبعه بالأذى ، دائما يقـول له . . شكللك لا يعجبنى ، أمـامه يتـوقف الآن ، أوتوبيس أبيض يتوسطه خط أحمر ، وكتابة بالانجليزية ، نزلت فتاتان ، احداهما أكبر وأطول ، تحتضن حقيبة إلى صدرها ، لا تزيد عن الستة عشرة ، ثوبها قصير ، ركبتاها مرتويتان ريانتان ، الشبع ، الشبع يفط من عينيها ، طلائع الفخذين الشابين ، القويين ، الناعمين ، يسرى دفئا فى جسده ، ينسى جوعه فى ظل جوع آخر ، حاد ، هفا قلبه ، انتبه الى وقوفه ، واحتمال مراقبته من مكان خفى ، نظر إلى بنطلونه خجلا ، خـائفا ، حـاول أن يمسك البنـدقية بـوضع أمامى ، تدخل الكبرى الى العمـارة المواجهـة ، وتمضى الصغرى ، الستـائر مسدلة ، هدوء ، ظلال ناعمة ، راحة بال ، بعد عن الشارع والبرد والهواء ، تخلع ثيابها ولا تبقى الا فى ملابسها الـداخلية ، يضـوى الجسد الفتى الضـاج بالأنوثة والعافية ، يقتحم الغرفة هادئا ، يبدو الخوف على وجهها ، يلقى البندقية جانبا ، تلين مقاومتها ، تبسط يدها تتحسس عضلات ظهره ، تماما كما رأى فى السينما ، مقاومة يعقبها استسلام ، تصبح فى يده كالعجينة ، آه . . وهل هذا معقول ؟ أن همه الآن اخفاء البروز اللعين الصلب ، ربما يفضحه ، لو يصل الأكل الآن ، لا توجد أكشاك قريبة ليشترى منها باكو باسكويت ، لكنهم أزالوا جميع الأكشاك من المنطقة كاحتياط واجب لأمن المبنى ، بالأمس ، اضيئت الأنوار الداخلية فى المبنى ، خلف زجاج النافذة العريضة بالطابق الأرضى رأى خيال رجل ، وخيال امرأة ، بدا واضحا انهما يعدان مائدة ، مال الرجل ثلاث مرات

وقبل المرآة ، ثم اختفت الحركة ، واستمر الضوء الهادى الناعم ماذا يضم هذا المبنى ؟ من المضحك طبعا أن يسأل بواب العمارة المجاورة ، ثم انه من الخطر تبادل الحديث مع الآخرين ، ربما رصدوه ، عندئذ لا يدرى ما يفعلونه به ، حفظ ملامح المبنى ، عد البلاطات المربعة مئات المرات ، خطا بقدميه ، بلاطة بلاطة ، ثم بلاطتين ، بلاطتين ، ثم ثلاثة ، ثلاثة ، أطلق على كل واحدة اسم بلدة من التى يمر بها القطار ، ثم اسم شخص من البلدة ، ثم سب الضابط أخضر العينين مرة فوق كل بلاطة ، تابع العابرين وهمساتهم ، بدأ يستلم القادم من أول الطريق بعينه ، ثم يتابعه حتى يختفى عند الناصية المؤدية الى الطريق الرئيسى بالضاحية ، عندما يرى بعض الفتيات يضع يديه فى جيوبه ، يخطو خطوة عسكرية ، يعدل وضع البندقية ، قد يتظاهر بأنه يفحص الماسورة ، أو الخزانة الاحتياطية ، العجيب أنهن لم يبدين اهتماما به ، كأنه لا يقف ، ولا يرتدى هذه الحلة السوداء متعددة الجيوب ، والتى لا يرتدى مثلها رجال الشرطة ، أو فرق التصدى للمظاهرات التى عمل بها زمنا ، عد نوافذ العمارات المخيطة به ، بعد مرور أسبوع تأخرت عربة التعيين أربعا وعشرين ساعة ، ولم يتم تغيير النوبة ، ولم يكن قادرا على تغيير مكانه أو الجلوس ، اتكأ بظهره عدة مرات الى السور ليريح عضلاته ، كان يخطف الراحة خطفا ، عندما شكا سخر منه الجاويش ، ماذا لو حاصره الحاقدون لمدة خمسة أيام ، يجب الا يردد مثل هذا مرة ثانية والا رفع الأمر للضابط ، فى اليوم التالى فتحت نوافذ المبنى فجأة ، أضيئت مصابيح اضافية لم يرها من قبل ، جاءت عربة نقل صغيرة ، فى اللحظة التى توقفت فيها أمام المبنى فتح الباب بدون أن يرى أى انسان خلفه ، اذن فهم يرون من بالخارج فعلا ، على أية حال لم يرتكب مخالفة ظاهرة حتى الآن ، نزل رجلان يرتديان زيا أبيض ، ضرب الأرض بقدمه ، رفع يده بتحية صارمة ، من داخل البيت خرج خواجة طويل ، يرتدى قميصا أبيض ، بدا له غريبا فى عز البرد ، مرة أخرى خبط الأرض بقدميه ، رفع المدفع ، لكن الخواجة أحمر الوجه لم يلتفت اليه ، بدأ نقل طاولات خشبية فوقها أطباق مغطاة ، طعام اناء كبير فيه أرز ، أرز بالزبيب ، الزبيب أكثر من الأرز ، سيحكى ما شاهده لأصحابه ، بدأ توافد الضيوف ، سيارات تحمل لافتات خضراء ، رجال يرتدون أربطة

عنق ، يتأبطون نساءهم ، هفا قلبه ، عاد البروز ، رفع يده بالتحية عندما مرت من أمامه ، امرأة ترتدى فستانا أحمر ، عودها سارح إلى أعلى بلا مانع ، بيضاء ، معقوصة الشعر ، الصدر شبه عار ، أبيض كطبق الفضة ، أدى التحية لكن لم يرد عليه أحد ، بدا له ذلك طبيعي ، انهم شخصيات ، اذ ضحك أحدهم له أو رد تحيته فان الدنيا ستخرب ، أصغى الى الضحكات المتطايرة ، ابتسم فى العتمة كأنه يشارك ، هدأت الأصوات ، الملاعق احتكت بالأطباق ، ضحكة من فم ممتلىء ، لابد أنهم يطفحون ، ماذا لو أرسلوا له طبقا ، لم يسأل عنه أحد ، تأخر الليل وتوالى انصرافهم ، مرت المرأة ذات الثوب الأحمر ، لمح جانب وجهها عندما مرقت سيارة المرسيدس السوداء ، خلا الطريق وقل عدد النوافذ المضيئة ، همد المبنى ، أغلق الباب الحديدى ، لم يسأل عنه أحد ، شغل خواجات ، تذكر أياما ثلاثة قضوها فى مواجهة الكلية التى اعتصم بها بعض الحاقدين ، لم يمر فى حياته أمام الجامعة ، ولو تركوه ليعود بمفرده فلن يعرف الطريق إلى المعسكر ، قال الضابط أن هؤلاء الحاقدين يتعلمون ، ويقبضون ويحرمون أمثالكم من التعليم ، ثم . . لا يعجبهم ، بعد أيام ثلاثة من صد الطوب وارتداء الكمامات ، والجرى هنا وهناك ، أدركهم تعب ، نخ أحدهم كالجمل ، فى الليل اقترب منهم ثلاثة شبان ، خرجوا من الكلية ، كانوا يحملون أكياسا مليئة بالسندويتشات ، قالوا لهم كلاما رقيقا ، وعادوا من حيث جاءوا ، مرت فترة صمت ، لفهم تعب وخوف ، لكن الجوع كافر ، ان الليل يتقدم الآن وهو وحيد تماما ، فى هذه الضاحية تخف الرجل وتختفى بعد التاسعة ، ينفرد الليل بالشوارع والطرقات ، يبدد كل أثر للضجة ، يتثاءب ، لابد أن أمه نامت الآن ، يتخيل المرأة البيضاء ، لابد أنها وصلت الى بيتها منذ فترة ، تغمض عينيها ، تستسلم كالشجرة أم الشعور ، نوافذ المبنى مغلقة ، أضواء فى الحديقة لكن للظلال غلبة ، وقع خطى ، تحفز ، يبدو رجل فى نهاية الشارع ، يمشى بسرعة ، يرتدى معطفا ، يضع يديه فى جيوبه ، أهو أحدهم ، انه لا يدرى شيئا عن ملامحهم ، أو أعمارهم ، أين يتربصون ، ولا لماذا هم الحاقدون ؟ يقترب الرجل ، منذ نهار بأكمله وجزء من الليل لم يتحدث مع أى انسان ، ربما لن يرى شخصا آخر حتى صباح الغد ، يرى ملامحه ، شاب يرتدى نظارة طبية . . يحاذيه . .

كم الساعة من فضلك ؟
العاشرة والنصف
لم يخرج يديه من معطفه ، لم يكلف نفسه عناء النظر الى ساعته ، يخجل من نفسه ، ربما لأن سؤاله لم يلق اهتماما ، لكن لماذا يضيق ، وجوده كله لا يلفت نظر سكان الشارع ، حتى البوابين ، وجامعو القمامة ، وموزعو الصحف ، وباعة اللبن ، بل أن فتاتين جميلتين ، طريتين ، توقفتا بالقرب منه ، راحتا تتحدثان عن مصطفى وعن شيرى ، الأسم الأخير لرجل أو امرأة . . لا يدرى ، اتفقتا على الذهاب الى مصطفى والى شيرى ، وعلى اللقاء بهما أولا فى النادى ، افترقتا ، كأنه غير موجود ، لا يرى ولا يسمع ، ولا نفس له ولا حواس ، لكن . . لماذا يضيق ؟ هل يحلم بالحديث الى احداهن ؟ اين هو من سكان هذه الضاحية ، ليصل على سيد الخلق ، وليذكر اسم الله فى هذه الليلة ، غير أنه فى عصر اليوم التالى ضاق بوقوفه ، وبشعوره المستمر أنه مراقب من داخل المبنى ، يمتد الشارع باستقامة ، لو وصل إلى آخره لن يبتعد عنه ، لو فوجىء بتفتيش لن يخرج عن مدى الرؤية ، كيف غفل عن ذلك ؟ أنه يمشى على مهل متلفتا عند كل خطوة الى الخلف ، يمر ببيت من طوب أحمر ، وبيت تحيطه شرفة خشبية ، يقترب منه رجل يرتدى جلبابا بلديا
تسمح والله . .
يومىء الرجل مجيبا ، انه يسأل عن الطريق الذى يؤدى اليه هذا الشارع يقول الرجل أنه يؤدى الى الشارع الرئيسى ، يتساءل ، الا يوجد دكان فول وطعمية بالقرب . . ينظر اليه الرجل ، فول . . طعمية ؟ لا طبعا ، يستأنف مسيرة وكأن حديثا لم يجر ، يلمح فتى يرتدى ملابس رياضية . .
تسمح والله . .
ينظر إليه الفتى بدون ان يقول نعم ، يستفسر عن اسم الشارع ، لكن الفتى يهز رأسه ثم يمضى مسرعا ، أين هؤلاء من البلدة ؟ لو سأله غريب لمشى معه حتى مقصده ، فى هذا اليوم سأل خمسة أشخاص ، لم يدع رجلا يمر الا وسأله عن الساعة ، لم يتحدث الى أى امرأة ، لكن حوالى السادسة ، والليل يكتمل ، رأى انثى قادمة على مهل ، تحمل سلة ملونة يبرز منها مضرب ، ترتدى ثوبا أبيض ،

ماذا لو سألها ؟ الطريق خال من صراخ ابن يومين ، لن ينتبه آحد ، فوجىء بها تستجيب لسؤ اله ، تتوقف على مقربة منه ، شم رائحة جسدها العطر ، الفستان قصير الى درجة أنه يعلق بالعقل والقلب ، ليته يراه فى الحلم ليفعل به ما يتمنى ، انها ترفع معصمها حتى تعرض الساعة للضوء الباهت ، فستانها ، آه من مقدمة ركبتيها ، طلائع دنيا هيه . . دنيا ، تقاسيمها الخفية تشى وتوحى ، رائحتها تشفى العليل ، ضرعاها ؟ صلبان يمسكان بعضهما ، تقول . . السادسة والربع ، يرفع يده ، ألف شكر ، تمضى متمهلة ، متعمدة ، مستفزة ، مهتزة ، متمايلة ، جنس آخر غير نساء البلدة ألم تتعمد المشى البطىء الم تغمس عينيها فى عينيه ، ثم لماذا تمشى بمفردها والطريق موحش والليل نازل ؟ نساء المدن يظهرن مالا يتوقع ، سمع عن اعجابهن بفحولة أبناء الأرياف لبرود رجال الحضر ، وقلة تخوتهم وضعف شهوتهم ، انه يود لو استعاد لحظة وقوفها ، يحدد المكان الذى وقفت فيه والفراغ الذى امتلأ بطراوتها ، لو تعود ، لكن الليل يستفحل ، والوحشة تغمره ، عند الفجر يصغى الى صفارة القطار البعيد ويدهمه أسى ثم يجىء آذان الفجر ، يرقب المصابيح تضاء خلف النوافذ ، لابد أن بعض الرجال والنساء يقمن للاستحمام بعد الهز واللز ، يتزايد شعوره بالبرد عندما يرى اختفاء الأضواء من النوافذ ، يقول لنفسه ، انهم يذهبون إلى النوم ، إلى الأغطية ، وهو باق ، لا جدران تلمه ، ولا سقف يستره ، ويتزايد أيضا عندما يشتعل مصباح فى منتصف الليل أو قرب الفجر ثم ينطفىء من جديد ، يتخيل دفء الحجرات التى لا يصفر فيها الهواء والتى لا تبدد نفس بنى آدم والنفس مدفأ الأوصال ، فى الصباح المبكر يفتح الباب الحديدى فجأة ، تظهر سيارة سوداء ، من الجراج ، تمرق أمامه ، لا يستطيع أن يلمح ركابها ، لكنه يؤ دى التحية ، يحاول أن يصلب جسده المرهق ، أنه لا يرى سكان المبنى حتى عندما يخرجون ، يسأل كل من يمر أمامه عن الساعة ، يمضى النهار ، لم يسأل أحد عنه ، هل نسوه ؟ يدق قلبه عند اقتراب الموعد ، لو عادت اليه ، لو وقفت لحظات لامدته بزاد للحلم عندما يغفو ، اجابه أحد المارة بانها السابعة والربع ، لم تظهر ، تقترب سيارة من المدخل ، يفتح الباب تلقائيا ، يرفع يده بالتحية ، لايدرى من يركب العربة ،

لكن صبرا ، انها تظهر تتخلق عند نهاية الشارع ، المشى اللين ، لكن . . هى . . لا . . ليست هى ، هل يذكر ملامحها ، أنه لم يرها الا لثوان ، ماذا لو فاجأه الضابط ، أخضر العينين الذى أذاقه المر لأن شكله لا يعجبه ، ماذا لو فاجأه الحاقدون ؟ ربنا يستر . . انها تقترب . . لا . . ليست هى ، تلك أقصر طولا وأكثر امتلاء ، يسأل عن الساعة ، لكنها لا ترد ، يخيب أمله ، يدركه خجل ، قفاه يسخن ، مع ذلك استدار ليشبع النظر بالمؤخرة والاهتزاز المتبادل ، آه . . انها تقف ، تقف بعد نهاية السور ، يلمح بواب العمارة المواجهة ، لكنه على الرصيف المقابل ، لن يتجه اليها فورا ، انه يمسك المدفع بشكل لافت للنظر ، يفرد طوله ، تعب يسرى فى ظهره ، تنظر ناحيته ، يتبدد التعب والجوع ، ، وغموض المبنى ، وتحياته التى لا ترد ، والحرص من الحاقدين ، واضطهاد أخضر العينين ولف الملعب والحبس الانفرادى ، ينصهر هذا كله فى نار تقيد داخل جسده ، يتجه ناحيتها ، لن يقترب منها حتى لا يلفت نظر البواب الرذل الذى لا زال يقف ، ينادى بصوت مبحوح مبلول باللعاب . .

ياجميل . .

أليس هذا ما يقال فى موقف كهذا ، لماذا يرتعش ، لماذا يرتجف ، ليثبت ، عندما تلاغيه سيزول ارتباكه . .

اسمع ياجميل . .

ينتفض ، يد فوق كتفه ، يلتفت ، تتطاير نجوم ويسود ظلام ، صفعة ، تنقشع غشاوة ، رجل متوسط القامة ، مدكوك البدن .

ارنى بطاقتك . .

يرفع يديه حتى يتقى الصفع ، تسقط الخزانة الاحتياطية ، يمسك الرجل ياقته ، يجذبه ، يضربه بالدماغ ، يسيل دم ،

طلع بطاقتك

سامحنى ياأفندى . .

أفندى . . أفندى ياقليل الأدب . . شوف من يكلمك . .

يتولى الصفع ، يصر الرجل على رؤ ية البطاقة ، تقترب المرأة ، ترجو

الرجل أن يكتفى بما جرى ، يدفعه حتى يلصقه بالجدار ، يعلن الرجل أنه سيعود اليه سيريه النجوم فى عز الظهر حتى يتعلم الأدب ، الدم يلوث السترة ، ألم حاد فى أنفه ، يد تلامسه ، يرتجف ، انه بواب العمارة المواجهة ، طلب البواب منه أن يجلس ، تلفت حوله ، هل يصح جلوسه ؟ قال الرجل ، أجلس أنت تخر دما ، طلب منه أن يرفع رأسه إلى الخلف ، قال له ، لماذا لم ترد على الأفندى . . أليس عيبا أن يضربك وأنت طول بعرض ؟ لم يرد ، انه لا يذكر ملامحه ، لم يستوعبها ، لكنه يستعيد ملابسه ، يراها بوضوح ، بلوفر ، قميص ، قال البواب ، لماذا لم ترد عليه ؟ قال ان الأفندى طلب منه أن يبرز بطاقته ، أبدى البواب دهشة ، تساءل . . هل هو ضابط ؟ ردد . . لا أعرف . . لا أعرف . .

* * *

١٩٧٩

القلعــة

. . زنزانة مستطيلة ، طولها أربع خطوات ضيقة ، عرضها لا يسمح بفرد ذراعيه عندما يشرع فى أداء بعض التمارين . أرضيتها حجرية . سقفها مرتفع قدر أربع طـوابق فى مبنى حديث . تتـوسطه فتحـة دائريـة للتهويـة ، مغطاة بالصفيح . فى الليل يخطو جنود الحراسة . تتردد الخطى مكتومة حتى تمر فوق الصفيح . عندئذ يتردد الصدى المعدنى ، فى السنوات العشر الأولى أزعجه ، كثيراً ما أيقظه من نومه مرات . لكنه فى بداية السنة الحادية عشرة . اعتاده كما اعتاد كل شىءمنذ زمن . فوق البـاب مصباح كهـربائى ، صفـراوى ، كابى الضوء ، يراه من أى موضع حتى لو أولاه ظهره فلا سبيل للهروب من ضوئه الشحيح . غيروه سبعا وثلاثين مرة منذ دخوله هنا . يضىء الليل كله ولا يدركه الوهن إلا للحظات عندما تتغير سرعة ماكينة الكهرباء الوحيدة فى هذا المكان القصى ، النائى ، الباب خشبى سميك ، أسود ، تتوسطه طاقة ضيقة ، مغطاة من الخارج بغطاء متحرك ثقيل ليمكن النظر إليه ، يلى الباب الخشبى فراغ طوله خمسة عشر سنتيمترا ، ثم يقوم الباب الحديدى المصمت . يليه باب أقسام أخرى تؤدى إليها أربع درجات متصلة . رآها مرتين عندما أتيح له أن يزيح القلنسوة

عن عينيه . يقودونه مرتين إلى دورة المياه . فى السابعة صباحا ، وفى السابعة مساء . فى السابعة مساء الصيفية أحس بالضوء يغمر ما يحيطه . وفى السابعة مساء الشتوية ارتجف برداً ، وثقلت عليه العتمة . بل ارتعش للمس الضباب على جلده . فى البداية لم تطاوعه أمعاؤه . لكنه مع الأيام تكيف مع ظروفه . أصبح ذلك يتم تلقائياً ، يقع السجن فى أقصى الصحراء الشرقية . شيد منذ قرون ، لكنه لم يفقد وظيفته ، أضاف إليه كل عصر ، وحسنه كل عهد . يقع فى منطقة جدباء ، تخلو من الخضرة ، من عيون الماء ، مسكونة بوحوش نادرة تخلو منها مراجع علم الحيوان . يعرف أنه الوحيد المتبقى فى كافة هذه الزنازين . لكنه لم يدر كم جندياً يقوم على حراسته وإدارة هذا السجن الضخم إنهم يدفعون إليه الطعام فى خشونة ، ينظرون إليه بضيق ، لم يتبادلوا معه الحديث أبداً طبقاً للتعليمات الصارمة . إنه آخر من تبقى ، تكاد عيونهم أن تقول له ، لو أفرج عنه ، ربما تقرر إغلاق هذا السجن الأثرى ، الموحش . .

الزيارة غير المتوقعة

. . حدث فى وقت ما أن رصدت حواسه حركة غير عادية ــ الأصوات لا تصل إليه عبر الجدران السميكة . لكنه يذكر الذبذبات الغامضة عندما كان زملاؤه يقضون مدد عقوباتهم المختلفة ، الهمهمات المهمهمات ، الأصداء المكتومة التى تصدر عن الوجود الإنسانى . عندما خلا السجن منهم استطاع تحديد ذلك . لم يعين اليوم بالضبط ، تداخلت قسمات الأيام ، وتوالى الأسابيع والشهور ، بعد أن أيقن من مغادرتهم لفه خواء ، وأسى ، وغزته وحشة ، كأنه كان يجلس إليهم . ويسامرهم . ويتبادل معهم النجوى والهموم وشد الأزر ، لا يذكر أنه ضاق بسجنه كما ضاق به فى هذا الزمن الذى أدرك فيه أنه بمفرده ، أما الحراس فتضاعفت غلظتهم ، وقست ملامحهم ، قال له أحدهم مرة واحدة إنهم سيقتلونه لأنه آخر من تبقى . عندئذ سيغلق السجن إلى الأبد ، من وقع الخطى فوق الصفيحة ، من عدد المرات التى يطلون فيها عليه ، يمكنه استنتاج إيقاع الحياة ، لهذا عندما فتحت الزنزانة فجأة فى غير موعد ذهابه إلى دورة المياه .

أو إحدى الوجبات ، وعندما رأى الحارس مصمت الملامح توقع حدثا غير عادى ، أومأ إليه ليخرج ، لا يتخطى الحراس العتبة خشية هجوم مفاجىء يعقبه احتجاز يائس . وقف مشدوها بالضوء ، إنه بدون قلنسوة ، أمسك بذراعه . يبدو المكان أضيق مما توقع ، وفى العلو المتناهى زرقة السماء ، عند بداية الدرج يقف حارسان بالملابس الرسمية ، مدججان بالذخيرة والسلاح ، القسم الخارجى مغمور بالشمس ، كان جائعاً إلى الدفء ، إلى تسلل الأشعة الخدر حتى نخاعه . ماذا سيجرى ؟ من سيقابل ؟ هل سيعود إلى الزنزانة مرة أخرى ؟ دفع به إلى زنزانة يتوسطها مكتب . أمامه مقعد بدون مسند وضع على مسافة بحيث لا يمكن للجالس فوقه أن يلمس حافة المكتب ، إنه الجلوس القلق ، المعبأ بالترقب . هل يبدأ التحقيق مرة أخرى فى القضية ؟ . يقف خلفه أحد الحراس يضعونه فى بؤرة الضيق ، والتحفز لتلقى الضربة المفاجئة . تقترب خطوات .

يدخل رجل كثيف الشارب ، يلقى التحية ، ثم يبدى غضبه لأنهم وضعوا المقعد بعيداً عن المكتب ، يشير إليه أن يقترب ، اللهجة الودودة فى البداية ، المهم ما يلى ذلك . . صوت تنفسه مرتفع ، يشبك أصابع يديه . يقول إن المسافة طويلة ، لا يدرى من فكر فى بناء هذا السجن هنا ، كيف اهتدوا إلى هذا المكان فى بداية العصر السلطانى مع تخلف وسائل المواصلات وقتئذ ، يتوقف مبتسماً ، لكنه لا يجيب مع تحرقه إلى الحديث ، إلى ممارسة الحوار مع آخر حتى لو كان جلاداً ، منذ سنوات طويلة لم يتبادل الحديث الإنسانى . لم يستمع ليجيب ، ولم يأخذ ليعطى ، استنفر حواسه لاستنتاج الخطوة التالية . إذن . . هذا الرجل قادم من العاصمة ، إنه ليس قائد السجن ، يقول ذو الشارب الكثيف إنه يحمل خبراً هاماً . .

« يابنى . . تقرر الإفراج عنك . . »

يستمر . لقد مرت خمسة عشر عاماً . نصف المدة . وطبقاً للوائح فإن حسن السير والسلوك يتم الإفراج عنه فوراً . جميع التقارير تؤكد مثالية تصرفه . .

أى يوم هذا ؟ ما موقعه بين الأيام ؟ مفاجأة ؟ نعم ، لكن قلبه لا يدفق

الدم ، وعروقه لا تسرع بالنبض ، بل إنه يركز عينيه على القميص الأزرق الذى يرتديه الرجل ، ورباط العنق الداكن ، أوشك أن ينسى الألوان . وتذكر اللحظات الغريبة عند نواصى الطرقات البعيدة . .

« إننى هنا حتى يتم ترحيلك ، ستصل السيارة الخاصة صباح الغد . . كم الساعة الآن ؟ . . الرابعة . . إنها تتحرك فى هذه اللحظة . ستصل إلى الوادى قبل غروب الشمس . . . »

ينظر فجأة إلى الحارسين الواقفين عند المدخل ، يطلب منهما نقل كافة الأمانات المتعلقة والهدايا التى أرسلت إليه ومنعت عنه . .

« عدا الطعام طبعاً . . »

يضحك ، يقول إنه سيدعه ليحزم حقائبه ، المهم أن يكون جاهزاً للرحيل صباح الغد لأن التوقيتات مهمة جداً . .

ينهض متمهلاً ، أحقاً سيغمض عينيه على خضرة الوادى غدا . . فى مثل هذه اللحظة ؟ .

« . . هل تعرف أنك ستفرج عن ثلاثمائة ضابط وجندى . . أنت آخر من سيضمه السجن . . »

فى الليل تتكاثر النجوم :

. . لأول مرة منذ خمسة عشر عاماً تفتح الزنزانة طوال الليل ، باستطاعته أن يخرج فى أى لحظة ، أن يتجول ، أن يصعد السلالم ، لكنه لم يفارق الزنزانة ، قعد قريباً من الباب بحيث يمكنه رؤية السماء وهذه النجوم كلها ، والشهب المارقة ، وأطياف ضبابية ، فى حياته كلها لم يحدق إلى السماء مثل هذا الوقت ، لم ير مثل هذا العدد من النجوم ، كأنه على وشك العودة إلى الكوكب المسكون بعد رحلة فى الفضاء المهجور ، خمس عشرة سنة من الحبس الانفرادى ، يبدو زمانه كتلة واحدة بلا معالم . أو حوادث تميز فترة دون الأخرى . لكنه لا يخطىء

التفاصيل ، في أيامه الأولى حاول ان يتحدث إلى الحراس الذين يرتدون زياً بني اللون ، تجاهلوه ، حاول أن يبدو مرحاً عندما تحين لحظة ذهابه إلى دورة المياه ، لكن التواصل معهم بدا مستحيلا ، أعدوا إعداداً خاصاً ، وعندما ارتفع صوته بالغناء زعق صوت خشن ، « اخرس يا أربعة وثلاثين » ، كانوا ينادونه بـرقم زنزانته ، في أسابيعه الأولى اختلطت الأيام ، بدأ يحفر خطوطاً نحيلة ، يبدو أنهم اكتشفوا ذلك ، أعادوا طلاء الجدران ، حاول الاحتفاظ ببذور حبات الزيتون الأسود ، لكن في اليوم السابع طالبه الحارس ـ قصير ، أصلع ـ بعدد البذور ، استخلصها منه . مع تداخل الأيام بدا له مرور الزمن أسرع ، يطول الـزمن أو يقصر بنوعية الحركة ، وتنوع الهموم أو الأفراح ، خلال هذه السنوات جاءوا إليه مرات ، أنهوا إليه أخبار خروج زملائـه في القضية . فقط . . كتبـوا عدة سطور ، ثم انتهى الأمر ، أبدوا له اللين أحياناً والقسوة أحيانا أخرى . اعتصم بصمته ، ولاذ بأحتقاره لهم ، وازدرائه لكل ما يجيء من ناحيتهم . لكن عندما كتبت إليه زوجته الخطاب تلو الخطاب في السنة الرابعة ، عندما ناشدته أن يفكر في حياتها ، في المستقبل . في السنوات التي تنقضي ، عندما كتبت إليه تشير إلى أيامها هي ، وحيرتها هي ، عندما طلبت منه أن يفكر في إنسانة ارتبطت به . . . ،

تخلخلت روحه ليالي قائمة ولفـه أسى . ثم اتخذ قـراره . . أن يحلها من كـل شيء ، أن تمضي بمفردها ، كانت أيام سـوداء لكنه اجتـازها ، مـرت كالحلو والمر ، إنه الليلة يفسح قلبه لبهجة لم تواته منذ أمد . وإحساس واع بأنه انتصر عليهم . لا يدرى إلى أين سيتجه بعد خروجـه . أو بمن سيلتقى ؟ لا بيت ، لا أسرة ، لا مأوى ، لا يـدرى الحي والميت من الأصحاب . كيف أصبحت الأوضاع . لكن يكفيه أنه لم ينكسر في زمن الانتكاسة . لم يستجب لهم . حتى إن مالت الدنيا كلها عنه ، وغربت شموس حظه ، يكفيـه أنهم يدركـون أنه لا زال خصماً ، وإن بدا كجزيرة معزولة . إنه يعود إلى الليل ، إلى النجوم ، ترى كيف ستبدو ملامح الطريق الطويل . المدن التي سيمر بها ، الجسور التي سيعبرها ، مفارق الطرقات التي يهفو لها قلبه وتئن روحه ، تدفق المـارة الذى لا ينتهى ، يذكر من المدينة الساحلية النائية طريقاً جـانبياً مبتـلا بماء المـطر ،

وانعكاس ضوء على البلاط اللامع ، وإمرأة عجوز تحمل سلة ، ورجل يرتدى معطفاً ، وإحساس بالرطوبة ، ما أوجعه مراراًاستعادة هذه اللحظات التى تؤثرها الذاكرة دون سائر المواقف وتأبى ضياعها ، ماذا سيفعل ؟ كيف سيرتب أموره . يهفو إلى البحر ، إلى مواجهته بالساعات الطوال ، جاءوه بعشاء خاص ، لأول مرة منذ خمسة عشر عاماً لا يأكل قطعة الجبن ورغيف الخبز والزيتونات التسع . أكل قطعة لحم ، طبق سلاطة خضراء ، وأصبعين من الموز ، ثم جاء إليه ثلاثة من الحراس ، يحملون حقائبه ، عندما جاء إلى هنا لم يصحب إلا حقيبة واحدة ، إنه يرى لأول مرة الحقيبتين اللتين أرسلتهما زوجته خلال العام الأول ، ملابس داخلية ، معاجين أسنان تحجرت محتوياتها ، زجاجات عطور ، مناديل ورقية ، أدوية مقوية ، فيتامينات وحديد ، حوالات نقدية ، ستة جوارب صوفية ، عاد يقلب الأشياء مرة أخرى . . حاشوا عنه كل ما أرسل إليه . إنه يقلب الحاجيات مرة أخرى ، تصله بفترات انطوت من حياته ، ماذا سيفعل بها ؟ لا زال الحراس الثلاثة فى مواجهته ، لم ينصرفوا ، عندما نظر إليهم قال أحدهم : « بالسلامة . . ستخرج سنخرج نحن معك » .

يقول الثانى إن السجن سيغلق ، سيتسلمه الجيش ، سيتحول إلى موقع لشىء ما . إنه يعاود النظر إلى الأشياء ، يطلب منهم أن يقبلوا هذه الهدايا منه . أن يوزعوا ما يفيض على زملائهم . لم يتبق إلاملابسه الداخلية . وحلته القديمة التى حال لونها وتجمد قماشها ، فى السنوات الأولى امتلأ جسمه ، تزايد وزنه ، منذ السنة السادسة تناقص وزنه ، نحل وخف وبرزت عظامه ، عند الفجر جاءه حارس آخر ، سأله ، هل يحتاج إلى خدمة ما ؟ شكره وندم لأنه لم يحتفظ بشىء يعطيه له ؟ ، قال الحارس ، « سنذهب أخيراً إلى بيوتنا . . سينتهى هذا السجن إلى الأبد . . إنه ليس إفراجاً عنك بل إفراج عنا » . . . أومأ برأسه . لم يدر كم أغفى ؟ استيقظ والسماء بادية ، حلوة ، رحبة ، واعدة ، وتذكر وجه فتاة أحبها فى أول العمر . كأنه يراها أمامه ، كان يراها عند خروجه الصباحى وأغنية مبهجة تتردد مبشرة بنهار جميل رائق ، أدرك أنه كان يحلم بها ، وأن الحلم لفه بالحنين الضارى ، خطا خارج الزنزانة ، لم يأت أحدهم إليه ، بمفرده بدون أن

يمسك حارس بذراعه ، إتجه إلى دورة المياه ، عندما عاد رأى صينية نحاسية فوق الأرض ، كوب من الحليب ، قطعة جبن رومى ، صحن من الخزف به أربع بيضات مقلية فى السمن ، سمن حقيقى ساخن ، رغيف طازج ، أين ذلك من طبق الفول الأسود الذى لم يكن يستطيع ابتلاع حباته إلا بعد هرسها . بعد أن ابتلع آخر لقمة ، وآخر رشفة ، جاء الحارس مبتسما ، أصر على حمل الحقيبة عنه ، مشى فى الحلة الفضفاضة والحذاء الذى تيبس جلده ، دخل إلى المكتب النظيف الهادىء الواقع قرب البوابة الرئيسية ، يبتسم ذو الشارب الكثيف ، « أهلا . . أهلا . . لن تتأخر السيارة . . إنها على مقربة من هنا . . »

قال إنه يعرف الأيام القاسية التى عاناها فى هذا السجن الجهنمى ، لكنه يرجوه أن يحاول النسيان ، على أية حال ، الأيام الحلوة والأيام المرة تتشابه بعد مرورها ، ولا يتبقى الا الأسف على مضى العمر الجميل ، إن موقفه مثار احترام عميق حتى من خصومه ، ياه . . لماذا تأخرت السيارة ؟

أصغى صامتا ، فوق الدولاب الرمادى لمح نسخة من جريدة الأنباء ، من المساحة البادية رأى جزءا من العنوان الرئيسى ، زيارة إلى الهند ، نسى شكل الجريدة . يود لو اطلع على عدد واحد ، حتى وإن انقضى عليه أسابيع ، يبدو ذو الشارب قلقا . يخرج ، إنه بمفرده ، إنه مراقب من مكمن خفى ، إن حركاته مرصودة ، جاء إلى هنا فى الليل ، غطوا رأسه بالقلنسوة ، لم ير أى مساحة متكاملة من السجن ، لا بد أن معالم العاصمة اختلفت ، يخفق قلبه ، يشتعل توقه إلى المشى ، المشى ، المشى . . يعود ذو الشارب الكثيف ، تنبىء ملامح الوجه بشىء ما . .

« يبدو أن العربة تعرضت لحادثة من نوع ما . . عطل بسبب وعورة الطريق . . ستصل اليها نجدة خاصة . . للأسف . . يبدو أنك ستشرف السجن ليلة أخرى . لكن يمكنك أن تنام فى أى مكان . . فى استراحة الضباط اذا شئت . . »

« .. إن « لو » تفتح عمل الشيطان .. »

. . لو أن العربة وصلت فى ميعادها ، لو أنه فارق السجن ، لا نقضى على تحركه الآن ساعة أو ساعتين بعيدا ، لأحاطته الجبال التى يتلوى فوقها الطريق الممتد لألف كيلو متر حتى الوصول إلى الوادى . إلى اللون الأخضر ، والظلال ، ورؤية الصغار ، وعبور المفارق ، والتمهل عند الجسور . .

لو أن العربة جاءت لأصبح الآن هذا المكان فى عدد الذكريات التى ولت . عندما دفعوا به داخل الزنزانة منذ خمسة عشر عاماً ، عندما نزعوا عنه القلنسوة السوداء ورأى جدب المكان ، وصفرة الزنزانة دهمته كآبة ، وخيل إليه أنه لن يعيش طويلاً هنا ، لكنه فى صباح أول أيامه قال لنفسه أن هذه الأبواب عبرها من قبله كثيرون . ثم خرجوا ، وإلا لما جاء إلى هذه الزنزانة بالذات . وفى لحظة ما ، فى يوم ما ، سيخرج كما دخل . . لو أن العربة جاءت ، لتحول وجوده المضنى الطويل هنا إلى صور وأخيلة .

العصر ، ودبيب الوهن إلى ضوء الشمس ، ونذر الليل المقبل ، مرة أخرى سينظر إلى النجوم . لو أن العربة جاءت لانقضى عليه الآن ثمانى ساعات على الطريق ، لتبادل الحديث مع حراسه ، لاستفسر عما لحق العاصمة من تغييرات ، الشوارع التى اتسعت والبنايات الجديدة ، الاتساعات ، من مات من المشاهير ؟ وكيف تبدو الأحوال ؟؟

لو أن العربة جاءت ، لأضاءت كشافاتها الآن ، لأجهد السائق عينيه حتى لا تضيع معالم الطريق خوفاً من التيه ، بعد أن تناول عشاءه خيل إليه أنه سمع رفرفة جناحى طائر ، صوت لم يألفه ، لابد أن هذا الخلاء يحفل بمخلوقات غامضة ، يتقدم الليل وما من بادرة بنوم آت .

إنه يغادر الزنزانة ، يتجه إلى دورة المياه بدون قلنسوة سوداء ، يعود محملقاً إلى السماء ، إلى النجوم ، إلى النيازك المارقة ، إلى النقاط الكونية المضيئة المتحركة على مهل . ينزل الدرجات الحجرية العتيقة ربما يرى العربة داخل الفضاء ، تمدد

الظلال ، يبدو المكان غريبا ، وكأنه يقود فى عالم آخر ، يقترب أحدهم . يخشى طلقة مفاجئة ، ربما قتلوه فى اللحظات الأخيرة بحجة محاولته الهرب ، إنه الضابط الكبير ، ذو الشارب الكث ، الآتى من المدينة .

ـ أنت لم تنم . . أنا أيضاً أرق . .

يقول إن المكان فظيع ، تحوم فيه وحوش غريبة ، لا يدرى من الذى اختار هذا المكان ، لابد أنه شيطانى الخيال ، إن حسن سيره وسلوكه سينقذ الضابط والجنود والحراس . يضيق بهذه اللهجة ، كأنهم يحملونه مسئولية بقائهم هنا ، يسأل عن أخبار العربة ، يجيب الرجل قائلاً إن جهاز اللاسلكى لا يعمل إلا فى السادسة صباحاً ، وسوف تجىء الأخبار مع شروق الشمس ، لو أن العربة جاءت . . .

مع بداية النهار تهلل الحراس الثلاثة . حملوا الحقائب . قال ضابط شاب إن السيارة على بعد ثلاثين كيلومتراً ، تم إصلاحها خلال الليل ، لكن الضابط فضل الحركة بعد الفجر ، يضحك الضابط الشاب . .

ـ الحقيقة أنك ستفرج عنا . .

لو أن العربة جاءت أمس ، لما داهمه هذا الضيق ، لكن اليوم ولى ، فات الكثير ، ولم يتبق إلا القليل ، أثناء تحقيق القضية ، فى السجن الرئيسى اعتاد رجل من الجنوب أن يسأل عن الساعة ، يطلب تحديد الوقت بالدقيقة ، يتنهد قائلاً إنه لو خرج الآن لأمكنه الاستفادة من بقية النهار ، ثم يستفسر عن الساعة ويطلب الدقة ، صاح أحدهم ، لماذا تسأل عن الزمن ، لماذا تسأل عن الدقائق والثوانى ، إسأل عن السنوات . . أنت محكوم عليك بتأبيدة .

يظهر ذو الشارب ، يبدو مبتسماً . .

ـ . . لا تغضب . . إنفجر إطاران والسيارة لا تحمل إلا إطاراً احتياطيا واحداً . . عرضت ترحيلك فى أحدى سيارات السجن لكنهم رفضوا لأن

السيارات مخصصة كلها لإخلاء المكان بعد رحيلك . لا تضق بنا بسبب يوم أو يومين . .

آه . . لو جاءت العربة . .

فى السادسة مساء ...

. . جاءوا إليه بغذاء دسم ، سمك مقلى ، وهذا نادر فى السجون ، وفاكهة طازجة ، وكوب شاى ، وهذا من الممنوعات التى لم يتذوقها ، أغفى ، وعندما استيقظ رأى الحراس الثلاثة ، أصروا على نقل الحقائب عنه ، للمـرة الثانيـة ينزل ، يعد الثوانى ، يجيىء ضابط آخر لم يره من قبل ، يقول إن جهاز اللاسلكى التقط إشارة على سبيل الخطأ ، مرسلة على نفس الموجة ولكن إلى أحد مواقع الجيش ، سوء تفاهم ، لا بأس ، فى اليوم التالى يقول ذو الشارب إن ثمة عربة أخرى تحركت من العاصمة ، فى اليوم الرابع حمل الحراس حقائبه ، نزلوا ، نزل معهم ، انتظر ست عشرة ساعة ، ثم جاءوا ، حملوا الحقائب ، عـادوا به إلى الزنزانة ، لم يلتق بأحد ، لم يظهر ذو الشارب أو غيره . فى اليوم السابع أبدى ذو الشارب تأثره . إنه يقدر مشاعره تماماً . إنه يعجب لهذا الموقف الغريب الذى يواجهه لأول مرة طوال خدمته ، يعرف التوتر الذى يسببه انتظار الرحيل ، لكن عليه أن يتذكر أنه هو أيضاً يود العودة إلى أولاده القلقين عليه . .

الحقائب لا تزال مغلقة ..

. . فى صباح اليوم الحادى والعشرين استيقظ وعنده دوار ، تلين الأرض وتتميع ، ترتجف أصابع يديه ، وكان باستطاعته أن يشعـر باستـدارة عينيه فى محجريهما . يظهر الحراس الثلاثة . . هل جاءت ؟ لم يستطع أن يبقى السؤال مكتوماً ، خجل من لهفته ، لكن أحدهم يومىء . .

ــ نعم . . وتنتظرك فى الفناء . .

أخيراً ، إذن تحين اللحظة الأخيرة بالفعل ، سبب ما أدى إلى تأخيرها ، ربما

اختلفوا حول قرار الإفراج عنه ، ربما تعمد أحدهم تعطيله ، ربما حدثت أعطال حقيقية ، لكم ظلم ذو الشارب ، والضباط ، مرت به لحظات تسامح نقية تجاه هؤلاء الحراس ، يقترب من الحقائب . .

ـ لا داعي . . سنلحقك بهم . . هناك إجراءات روتينية قد تستغرق وقتاً قصيراً . .

. . داخل الفناء تقف العربة ، عربة قوية المظهر ، إطاراتها خشنة ، شد إليها خزانات البنزين الاحتياطية ، فوقها لفات قماش سميك وعصى خشبية طويلة .

ـ أخيراً . . أخيراًوصلت . . مبروك . .

يبدو ذو الشارب متهللاً ، يقول إن التحرك سيتم فوراً ، بدون أى تأخير ، وأنه سيرجع فى نفس السيارة معه ، يصمت لحظات ، ثمة إجراء عادى ، خطوة صغيرة ، إنها مجرد قصاصة صغيرة من الورق بها سطرين . عليه اختيار الكلمات المناسبةوالصبغة التى تروق له ، مجرد معنى يطمئن فيه القائمين على الأوضاع

إنه ينظر الآن على مهل إلى ذو الشارب الكثيف ، ينتهى ركضه الطويل عبر الأسابيع الثلاثة ، ينتهى القلق والتطلع إلى مساحات السماء البعيدة ينتهى الاستمتاع بالطعام الساخن الفريد ، المقدم فى غيرمكانه ، يتذكر أيام التحقيق ، عندما كانوا يغطون رأسه حتى الرقبة بقلنسوة سوداء ثم يدفعونه إلى الجرى ، الجرى ، ثم التعثر فجأة فى حبل ممدود . أو الاصطدام بجدار . .

يبسط ذو الشارب راحتيه . لا . . لن يدعه يسىء الظن ، يعرف تماماً مدى حساسيته لكتابة أى تأييد ، أو استنكار لموقف سابق اتخذه ، إنه ليس بهذه الغفلة ، إن من يتحدث إليه ليس رجل أمن ، إنما عقلية سياسية تعرف قدر الرجال ، وتعطيهم حقهم ، المقصود معنى يطمئنهم من ناحيته ، له اختيار الألفاظ ، والشكل ، إنه لم يكذب عليه . قرار الإفراج ها هو . . لينظر . . ليمسكه . . لم يعد سراً . .

إنه يحول عينيه ، إلى المكتب الرمادى ، إلى بقع الحبر الباهتة . إلى البساط الحائل الموشى بنقوش باهتة غابت تفاصيلها كأحلام لا تثبت فى مواجهة الوعى . إنه ينظر إلى شريط الأرض العارى قرب الجدران . إلى النافذة المستطيلة . لا يتوقف عند العربة ، حتى مكان وقوفها اختاروه بعناية . .

تتغير نبرات ذو الشارب الكثيف ، يمد يديه مستنداً إلى المقعد ، يقول إنه سيريح ضميره ، ليصغ إليه جيداً ، إنه لا يتحدث الآن كرجل مسئول يحتل منصباً حساساً ، قرار الإفراج . . ليضعه جانباً ، القضية . . ليلقها وراء ظهره ، ملعون من يحتل أعلى المناصب أو أقلها ، إن ما يعنيه الآن هذا العمر الذى يراه أمامه ، السنوات التى تذوى . انقضت نصف المدة على خير ، انقضت وها هو يقترب من الخمسين ، صحيح أن حياته الخاصة تأثرت ، لكن لا أسف على من لم تقف إلى جانبه . . إنه يأسف ، يأسف حقيقة للخوض فى مثل هذه الأمور ، ها هو قرار الإفراج . . لكن هذه القصاصة جزء من الاجراءات والاجراءات لابد أن تتم ، إذا لم يكتب السطرين سيقضى بقية المدة ، يعنى سيخرج فى الخامسة والستين ، سيخرك هرماً ، كهلاً ، جف فيه رحيق الحياة ، وربما أعيد اعتقاله مدى الحياة بعد انقضاء مدة الحكم . . هل تساوى هذه الحياة هذه القصاصة . . إنه يتكلم الآن كانسان يعرف قيمة الحرية . .

يقوم واقفاً ، لينتبه هذا الموقف . يود الانفراد بنفسه ، يود العودة إلى الزنزانة ، بعد سنة من سجنه جاءوا إليه ، طلبوا منه إرسال برقية تأييد ، لا يذكر الضابط الذى جاءه وقتئذ ، قال له إنه لن يرسل أى برقية ، أنه سيقضى مدة السجن كلها ، لابد أن يعرفوا أن هناك خصماً لهم لا يزال ، وإن كان مقيداً على بعد ألف كيلو من الوادى . عندما جاءوا إليه ، قالوا إن كل زملائه أبرقوا وخرجوا بالفعل ، لم يتبق إلا هو بمفرده فى هذا الحصن الموحش ، هز رأسه ، اتهموه بالجنون ، توعدوه ، هددوه ، لكنه لم يصغ إليهم ، ليبق بمفرده . لابد أن يعرفوا أنه . . .

يضحك ذو الشارب ، يضحك حتى ليهتز جسده . . ، من هم الذين يجب

أن يعرفوا ، هل يتصور أنهم يفكرون فيه ، أو يعرفون بوجوده ؟ إن مشاغلهم بلا حصر ، وليس لديهم ثانية واحدة ليتذكروه . إنه ميت بالنسبة لهم ، لا وجود له ، إن هذه القصاصةلا لن تصل إليهم ، لن يقرأوها . إنها مجرد إجراء ، يخفض صوته ، يميل تجاهه ، يعده بأنها ستمزق ولن يطلع عليها أى مخلوق . . بل يعده بما هو أكثر ، سيمزقها أمام عينيه بمجرد وصولها إلى العاصمة . .

لا يرد ، يتجه إلى باب الغرفة ، أحد الجنود ينظف السيارة ، يسرع ذو الشارب الكثيف إليه ، يمسك ذراعه ، يقول إنه لن يتحدث إليه من أجل نفسه ، إنما من أجل مئات الرجال الذين يعيشون هنا لإدارة السجن الذى لا يوجد به إلا هو . كل منهم يود العودة إلى بيته . إلى أولاده . كل منهم يقضى هنا ستة شهور متصلة هل هذا عدل . . اذا كان يدعى أن لديه الاحساس بالآخرين وأنه يضحى من أجل الذين لم يعرفهم ولم يعرفوه ، فليضحى من أجل هؤلاء . . صحيح أنهم حراسه . . لكنهم بشر . .

لم يتوقف ، يتجه إلى الدرج معتصماً بصمت فادح .

يقول ذو الشارب إنه يعرف مقدار وطنيته ، إن بقاءه هنا يعطل استلام الجيش للسجن الذى سيتحول إلى موقع هام ، هل يقبل أن يعيق الجيش عن أداء مهامه . . لا . . لا يظن . . إن شجناً غامضاً يلفه الآن ، شجن يشد الأزر ويقوى العضد ، تلفه ظلال وتدثره ، يضوى فى عتمة الذكريات وجه بعيد لم يستعده منذ سنوات ، حبه الأول ، كانت تسكن على مقربة منه ، بداية العمر ، يرى وجهها واضح الملامح ، شعرها الملموم فى ضفيرتين ، وملامحها التى تحوى تساؤلاً مستمراً ، أو دهشة بريئة ، كان يراها فى لحظات الخروج الصباحى ، يذكرها مقترنة بأغنية تتحدث عن الزهور ، صوت ليلى مراد اللؤلؤى ، ضوئى الرنين ، والصدى ، تتداخل الملامح ببقايا ، أين هى الآن ، منذ سنوات بعيدة قال أحدهم إنها سافرت إلى أحدى المحافظات وإنها أنجبت طفلين . .

يحيطون رأسه بالقلنسوة ، يسبه الحراس ، يهددونه بالقتل ، سيبدو الأمر

وكأنه انتحار ، قبل تغطيه عينية رأى ذا الشارب الكث واقفاً ، يداه أمام صدره ، وقفة جافة ، بغيضة ، تنفى كل لين تظاهر به ، يدفعه أحد الحراس ، يتعثر فوق الدرج القديم . يطل وجه المحبوبة القديمة . يعتصم بذكرى رعشات القلب ، ويكاد أن يمسك بمذاق الرحيق الأول . .

١٩٨٠

المرصد

. . إنه أكثر اطمئناناً بعد تجهيز المنظار الرئيسى ، وضبط زواياه ، تلك أيام اليقظة ، وليالى الغيوم ، والنجوم الباردة ، عندما يجيىء المذنب فى المرة التالية لن يراه العاملون فى المرصد الآن ، كذا أحفادهم ، ستذكر الزيارة الوشيكة فى السجلات العلمية ، لم يظهر إلا مرات معدودة ، رصده الفلكيون الصينيون عام ٨٧ ميلادية ، ثم عاد أيام وليم الفاتح وأوقع الخوف فى قلوب جنده . وتلك المرة الثالثة ، أحاسيس غريبة تولد داخله ، لم ينتبه إليها فى البداية لكنه رصد دبيبها منذ أيام ، إنه يعيد اكتشاف ماضيه . سنواتَ عمره التى قضاها هنا فى ذلك المكان النائى . أقصى نقطة مرتفعة فى البلاد ، وأقرب مناطق الأرض إلى السماء ، يقع عند حدود الكون الغامض .

كان المكان موحشاً فى البداية ، القبة المعدنية وحجرات خشبية ، تغيرت أشياء عديدة خلال الثلاثين سنة الماضية . سافر إلى مراصد أخرى . تطلع إلى التحام النجوم الوليدة ، رأى التهام النجم الأكبر للنجم الأصغر ، وسجل شيخوخة المجرات ومروق الشهب ، وزع أيام عمره فوق الجبال البعيدة عن كل عمران ، كثيراً ما قالوا له فى مراصد البلدان الأوربية إنهم يحسدونه لصفاء السماء

هنا طوال العام ، إنه يجلس الآن عند الطرف القصى من الحديقة المحيطة بالقبة ، يبدى الأغراب دهشتهم لنضارة حشائشها النابعة من صخور الجبال الجيرية ، تتباطأ الشمس فى الرحيل ، بعد قليل ستتوهج الزهرة فى الأفق ، تنفرد بالفضاء ، عذراء وحيدة متألقة . ثم تتوافد النجوم من الأعماق السحيقة . يشعر براحة لأنه نال كفايته من النوم استعداداً للسهر ، لن يغمض له جفن حتى ترحل النجوم والكواكب ، وتبقى الزهرة وحيدة قبل أن يطويها النهار . . من يدرى ، ربما ظهر المذنب العظيم تلك الليلة . .

يقترب مساعده الأول ، لم يتجاوز الثلاثين ، استعداده لا بأس به ، عيبه الوحيد أنه لا يطيق البقاء بعيداً عن المدينة ، يقول إن إشارة وصلت من العاصمة ، مدير المصلحة يبلغه تحياته ، ويخطره بأن وفداً صحفياً سيزور المرصد لإعداد تحقيق عن المذنب وتصويره إن أسعدهم الحظ لا مانع لدى المصلحة من مقابلتهم بشرط الرجوع إلى المسئولين أولاً ، يضحك المساعد قائلاً أن المدير يحرص على الظهور فى الصورة دائماً . . يرتد وجه المساعد جادا إذ يقول إن المدير ينوى زيارة المرصد مع الصحفيين ، إنه يريد إظهار نشاطه للوزير أملاً منه فى الحصول على درجة نائب وزير ، وهذا سيترتب عليه فرق كبير عند احتساب المعاش . .

يهز رأسه متأنياً ، لا يبدى رد فعل واضحاً ، لم يلتق بهذا المدير كثيراً ، إنه لا يغادر مقر المصلحة إلا نادراً ، يهتم بالمناخ وتقلبات الجو أكثر من اهتمامه بالنجوم . رحم الله المدير السابق ، ارتقى من أصغر المناصب ، لم يدخل المصلحة غريباً ، كان ينادى أصغر العاملين بأسمائهم ، لم يكف عن النظر عبر التليسكوب كأى باحث ناشىء ، لكن المدير الحالى لا يعرف طرق ضبط الزوايا ، إنه قريب لإحدى الشخصيات ، ولم يتول المصلحة إلا للحصول على الدرجة ، لكنه برغم جهله يمكنه توجيه اللوم إليه ، وربما عرف تعلقه بالمرصد ، وحرصه على فرصة العمر هذه ، انتظار المذنب ، عندئذ يأمر بنقله إلى العاصمة بحجة الاستفادة من خبرته ، لن يطيق إجراء كهذا ، لن يحتمله والمذنب على وشك التمدد والتوهج . فرصة لن تتكرر إلا بعد عدة قرون تجىء زيارة المدير فى

غير موعدها ، لكن يجب الاهتمام بها ، إن مكاره نحل به وضيق . . انتزعوه من تأهبه واستراقه ، ولحظات انتظار الظهور المفاجىء ، يقول المساعد إن الدفاتر ستراجع ، وأن هذا المدير يولى أهمية خاصة للفواتير ، وللمنصرف ، والمتبقى وأوامر المشتريات ، يقول إنه يراجع بكل دقة دفاتر الحضور والانصراف وأجازات العاملين ، وأحياناً يصحب مدير المستخدمين معه ، لكن المؤكد أنه سيجىء بمدير العهدة لجرد كل كبيرة وصغيرة . . يلح المساعد فى ضرورة مراجعة بعض الدفاتر الحسابية الآن ، من يدرى . . ربما جاء غدا ، يضطر إلى مفارقة موقعه وإنهاء جلسته ، يتجه إلى حجرة المكتب ، الأرقام عديدة ، التواريخ متباعدة ، صور الفواتير ، المشتريات متنوعة ، المكانس لزوم التنظيف ، جرادل المياه ، ومطهر دورة المياه ، وألواح زجاجية بدلاً من تلك التى كسرت ، ورزم ورق أبيض ، ورزم ورق مسطر ، وعلب كربون ، وغيار للآلة الكاتبة ، وعلب دبابيس مشبك ، وعلب دبابيس إبرة ، وعلب دبابيس لآلة التدبيس ، وثلاث زجاجات حبر ، الفوارغ موجودة ، والعهدة فى حاجة إلى إعادة الجرد ، إن الليل يتقدم ولابد أن يقلع بعينيه عبر الكون ، يجب ألا يغيب عن الفضاء ، إن الحسابات العلمية عاجزة عن تحديد اللحظة والساعة والليلة ، وهو يحلم برؤية ميلاد المذنب لحظة إطلالته ، لكن المساعد يرجوه أن يوقع هذا الكشف ، أن يراجعه قبل توقيعه . . يخرج من المكتب مجهداً ، مضطرب البصر ، لو أنه قضى الوقت كله فى الرصد ، لو أنه لم يدخل إلى المكتب ، كان المرصد أحق بهذا الوقت الذى انقضى ، انتزعه المساعد انتزاعاً ، لماذا لم يضرب عرض الحائط بتلك الزيارة وما تقتضيها من إجراءات ، لماذ ؟ إنه لعله معلق فى فمه ، لم يتح له الوقت الكافى للارتواء ، للتجلى ، تلك لحظات لن تتكرر ، والتفريط فيها صعب على النفس ، لكن هذا المدير ربما اتخذ قرارا بنقله . .

إنه يعاود التطلع إلى السماء ، إلى ثروة الليل المتناثرة ، تشمله رعدة إذ يتخيل إطلالة المذنب ، يبدو الليل سهلاً ، خالياً من الغيوم ، لكن للشتاء تواجداً قوياً يلقى بعمقه على الأفلاك ويخفف من ألق الشهب ، لا نهائية الفضاء تبعث صوراً بعيدة وأسراراً لا حصر لها ، إنه الآن فى التاسعة والخمسين ، تزوج فى

الثلاثين ، ثم أصبح وحيدا فى السابعة والثلاثين ، منذ ذلك الحين يقضى معظم أيامه هنا ، يضم المرصد أربعة عشر . يبعد عن أول نقطة مأهولة بتسعين كيلومتراً ، خمسون منها عبر الصحراء والأسفلت ، وأربعون طول المدق الوعر الذى يرتقى الجبل . مدق يؤدى إلى أسرار الليل ، والمسافات القصوى ، والكواكب الدانية ، فى الشتاء يتم تخزين الطعام والأدوية خشية السيول التى تقطع الطريق ، لا يوجد موضع ممهد لنزول الهليوكبتر ، تطل نافذة حجرته على الوادى السحيق الأجرد الوحشة الغبراء التى تبدأ مع نزول العصر وتعب النهار العفى ، تواتيه رغبة فى البقاء صامتاً ، والبعد عن أى حوار ممكن ، يشعر فى النهار أن الكواكب تنتظره ، وأن الليل سيجمعهما ، لا يتبدد ضيقه الغسقى إلا مع اكتمال الليل ، تنمو الرغبة للوصول إلى الأعماق النائية . ويأسو لأنه سيرحل عن الدنيا قبل اكتشاف هذه الأغوار السحيقة . ومعرفة ما يخبئه الغيب ، فى الليل ينتظر المجهول ، حتى فى السنوات التى لم يكن متوقعاً ظهور المذنب يرصد أصداء نجوم احتضرت منذ ملايين السنين ولا زالت أناتها تتردد . فى مكان ما من الليل تتوهج الشمس لم تكن بغاربة عنه أبداً ، الليل غنى ، خصب بالتوقع ، بكل لحظة مذاق ، واحتمال ، ومفاجأة ، وهمسات مجهولة المصدر ، أما الزهور فلا تتفتح إلا فى كنفه ، الرياح تخترق المكان مصحوبة بصفير وضجيج وصدى . منابعها فى أعماق الكون وليست فى كوكب الأرض ، ألا تبدأ الخماسين فى نفس الوقت الذى تهب فيه عواصف المريخ ؟ لبعضها مظهر أنثوى ، حى ، ولوهج الأخرى جرأة الذكورة . يتوحد مع التكوينات المتفجرة ، ويشكو لها من أبديته الموقوته ، التى لن تطول ، وخلو الدنيا منه يوماً ، من يدرى . . ربما تعى النجوم ، وتتعاطف الشهب ، وعندما يعود المذنب بعد قرون سبعة يرثيه بشكل ما ، أنه يتألم ، من الظلم أن يحال إلى المعاش . والليل ملىء بعد بالأسرار . .

يقول المساعد إن المصروفات النثرية فى حاجة إلى إعادة نظر ، يوجد فارق بين المنصرف والرصيد الأساسى مقداره جنيه وربع ، إن الفارق بالزيادة ولكن الزيادة مثل النقص فى الحسابات الرسمية ، إنه يرجوه التوجه إلى المكتب لمدة دقائق حتى يمكن ضبط الدفتر . ربما تذكر شراء شىء ما أضيف على سبيل

الخطأ ، من الأفضل الانتهاء هذه الليلة لأن ما يجب مراجعته كثير ومتعدد . ثم إن الشواهد تقول بقرب زيارة المدير . بل ربما تمت غداً ، يصحب المساعد إلى المكتب ، مرة أخرى تنتزع منه لحظات ثمينة ، لكن ماذا يفعل والظروف طارئة ، اضطر إلى أن يدقق ، يجرى عمليات الطرح والجمع والضرب . ثم المقارنة عندما فارق المكتب اتضح له أن ساعة بأكملها انقضت ، يضيق ، لماذا لم يترك وشأنه ؟ كاد أن يهب فى المساعد . لكنه التمس عذراً عندما جاء مساعده منذ عام أبدى دهشته لوحشة المكان ، سأله . . كيف قضى هذه السنوات كلها هنا ؟ ، لم يشأ وقتئذ إغضابه ، قال إن القاعدة جرت على قضاء فترات معينة هنا ، لو وجدت وساطة قوية فلن يتجاوز الأمر أسابيع قليلة . قال إن ظروف العمل لا مثيل لها فى أى مرصد بالعالم ، صحيح إن المعدات قديمة ، لكن الجو صحو ، وفى أقصى أيام الشتاء لا تتعكر الرؤية ويظل الكون كالمرآة المجلوة . قال إنه من الأفضل تعود المكان حتى لا نعذب أنفسنا . قال ضاحكاً إن القادم للعمل هنا يبكى فى أول يوم لوصوله ، ويبكى أيضاً يوم رحيله . بعد أسبوعين قال المساعد إن المكان منعزل ، والتفتيش عليه نادر . ولو مضى إلى المدينة لمدة أسبوع فلن يدرى أى إنسان . أبدى غضبه ، قال إن قلة الزيارات الرسمية لا تعنى الإهمال ، قال المساعد أن مدته محدودة هنا ، وستنقضى على أية حال ، لابد منها لسفره إلى باريس ، كشرط من شروط البعثة ، بدا له ذلك عادياً ، لم يحدث إن جاء أحدهم إلى المرصد ليبقى ، إنه معبر مؤقت ، إما لاجراء دراسة ، أو تجربة ، لكن زيارة المدير تجىء فى ظرف غير موات ، إنه لا يخشى مجيئه ، لكن الاحتياطات لازمة ، التشديد على نظافة المكان ، تمهيد الجزء الأخير من الطريق المؤدى إلى المرصد ، رص أحلى الزهور من جديد ، تعليق لوحات تحمل شعارات الحزب الحاكم ، شراء فناجين وأطباق جديدة . لابد أن يبدى المدير بعض الملاحظات ، عليه التقليل من أسبابها . واحتمال بعضها حتى لا يعود فيتخذ إجراء يسىء إلى نظافة الملف أو يتعمد نقله والمذنب على وشك الظهور ، لا يعرف المدير ، لا يعرف أى مسئول شيئاً عن حياته هنا وكيف تمضى ، إنه لا ينام إلا من الخامسة صباحاً وحتى الثامنة . يدخل إلى مكتبه قبل الموظفين فى المصلحة ، منذ سنوات وبه جوع

إلى النوم ، لم يحصل على كفايته أبداً ، لكن فكرة أنه مدير المكان ، وأنه باستطاعته أن يغفو أى وقت يشاء جعلت مشروع النوم العميق مؤجلاً باستمرار . .

عندما انتصف النهار اضطر إلى تأجيل قراءاته للبحوث الأخيرة التى أجريت حول المذنبات الشهيرة ، أصدر تعليماته بنظافة المكان ، بدءًا من الأجهزة وحتى دورة المياه ، ربما اضطر سيادته إلى دخولها ، طلب التزام الدقة فى التوقيع عند الحضور إلى مواقع العمل ، وعند الانصراف إلى الاستراحة ، الإقامة فى نفس موقع العمل لا تعنى إهمال الدفاتر ، يجب أن تكون الأوراق سليمة ، طلب مراجعة سراكى البوستة . . هل سيشعر أى مسئول بمدى ما يبذله من جهد ، لن يتحدث عن نفسه ، ليت المساعد يفضى بملاحظة حول جهده ودأبه ، فى اللحظات الأولى لن يشعر بهم ، عندما ينتبه إليهم سيعتذر ، سيأتى بحركة من يده ، حيرة ، إضطراب ، سيقول إنه آثر البقاء خلف المنظار ، ربما ظهر المذنب فجأة ، تخيل خطاب الشكر الذى سيوجه إليه . تأثر . .

إنه يهز رأسه الآن بمواجهة نجمة نائية تتوهج كأن نبضها الداخلى يعانى شيئاً ما ، إنه أهدأ لأنه خلا إلى نفسه أخيراً ، به ضيق لأنه لم يستطع القراءة فى الظهيرة ، لكنه سيقضى مدة مضاعفة غدا ، ينظر إلى أغوار الليل ، سيصبح الرسو على أطراف النجوم ممكناً يوماً ، لكنه لن يرى ذلك ، إنه يركز البصر خارج المجرة ، فى الاتجاه الشرقى وهج غريب ، نفاذ ، يظهر منذ عام تقريباً ، ظاهرة عارضة أم بداية حدث قد لا يكتمل إلا بعد ملايين السنين ؟ أو من علامات قدوم المذنب ؟ ستتبخر الشمس يوماً ، ما يوجعه إنه ما من شىء سيبقى كما هو . حتى الليل ستتغير خريطة النجوم فيه . وستبدو السماء فى ألوان أخرى ، أى أسى ؟ تذكر المقابر ، منذ عشرين سنة كانت تبدو بعيدة عن المدينة ثم تجاوزها العمران ، بدأوا نقلها إلى الصحراء ، يوماً ما سينقلونها مرة أخرى ، حتى الليل له أجل . لماذا يدهمه حزن غض؟ لأنه غير راض عما قام به اليوم ؟ أم لأن لكل لحظة نهاية ؟ لكن لا نهاية للنهايات ، سيفنى ويفنى الكوكب لكنه سيتحول إلى ذرات أولية تتحد بعناصر الكون ، لكنها عناصر لا تعى ، لا تسمع ، لا تحس

ولا تتذكر ، يلمس المساعد كتفه ، ينتفض ، ماذا ؟ إنها اوامر التوريد يجب توقيعها ، وهذا يقتضي ذهابه إلى المكتب ، التأجيل غير مستحب ، مرة أخرى يقدم كأنه يمضغ طعاماً ولم يزدرده . كأنه يعانق إمرأة وتحول الدفاتر والتوقيعات دون بلوغه ذروة النشوة ؟؟ لا يدرى كم انقضى عندما عاد إلى القبة خاطر مباغت يصدع عقله . ماذا لو أن المذنب أطل وغاب فى مرات غيابه هذه ؟ يطرد الخاطر ، وهل هذا معقول ؟ إنه يظهر لعدة ليال ، لكن ربما كانت هذه المرة فريدة ، إنه يتطلع قلقاً ، مضطرباً ، لماذا لا يرسو فى عينيه بعد أن طال الانتظار ؟ كثيرون يرجفون هلعاً من زمن تواجده ، يقولون إن ظهوره يسبق الحوادث الجسام . لا يعنيه ذلك ، همه الآن أن يرى تألقه النضر ، توهجه الممتد ، المشع ، تلك اللحظة الفريدة التى يختتم بها عمله الطويل . وصف القدماء ظهوره الأخير ، وقربه من الأرض ، ومجاهرته بموضعه فى الصباح الباكر بعد تلاشى الليل ، يريد أن يخلف وصفه وصوره . لكن . . ماذا لوأنه مر واختفى ؟ .

إن الرياح تشتد الآن . اهتزازات غامضة مجهولة المصدر . إنه يتوحد مع النجوم القصية والشظايا الأبدية . يحاول أن يلملم أطراف الليل ، يحاول تبديد ظنونه ومخاوفه لكن الإشارات الدالة على قرب ظهوره مجهولة . ونائية ، ما من أخبار عنه من مراصد العالم ، إنه لا يدرى من أى جهة سيجىء . . ما من بشائر تنبىء به وما من علامات تهدى إليه . .

١٩٨٠

***

المحصـول

. . قبل اقتراب الظل من شجرة الكـافور العتيقـة ، قبل أذان الـظهر ، إفترشوا الأرض بجوار الزرع ، جلسة ما بعد نضج المحصول ، يوم أو يومان ثم يبـدأ الجنى . نجت البسلة من النـداوة التى تجفف الأوراق وتمتص اللون الأخضر ، تجعله كالقش ، إن عبد الموجود راض ، ينظر إلى الولدين جابر الكبير وعبد العال الصغير ، ثم إلى فروع النبات ، لم يتبق مجهود كبير . قرقر الشاى فى البراد ، الصوت الوحيد فى السكينة التى تتوسط النهار . صوت سيـارة ، إنها سوداء ، تبطىء سرعاتها ، تتوقف على الطريق الذى يعلو قليلاً ، نزل ثلاثة ، لم يستطع تمييز ملامحهم ، تلفتوا حولهم كأنهم يبحثون عن شىء ما ، مدوا أيديهم عند نزول المنحدر ، بدا أولهم غير عابىء بـالطين المبلول ، فـال عبد المـوجود لنفسه ، اللهم إجعله خيراً ، ظنهم من المباحث جاءوا للاستفسار عن شخص ما ، أو ضلوا الطريق ، أولهم شاب فى عمر عبد العال ، طويل يبـدو أنه من مصر ، السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، صافح بقلب ملء بالترحيب ، لم يب وجلاً من الأكف الخشنة ، بل إنه قال ضاحكاً ، ممكن نقعد ، قال عبد الموجود . . يا سلام تشرفونا يا بك ، تشربوا شاى ؟ قال الشاب ، آه

والله . . يا عم الحاج ، سأل عن أسماء الكرماء الأفاضل ، ثم سأل ، هل أنتم أصحاب الأرض ؟ ، قال عبد الموجود إنهم مستأجرون ، الزرع زرعهم ، وحده هناك عند الساقية القديمة ، أربعة أفدنة ، قال إنه لا يستطيع تمييز الذرة من القمح ، رجاهم أن يعذروه ، هل هذه خضر ؟ ، قال عبد الموجود إن كل الأراضى فى هذا الخط تزرع بالخضر لقربها من مصر ، هنا طماطم ، ويصل ويطاطس وباذنجان ، وقرب الجبل توجد الفواكه ، أما الأرض هنا فكلها بسلة ، نعم . . رشف الأفندى الشاى من كوب الصاج الوحيد بنفس مفتوحة ، هذا ما يريده تماماً ، هذا اللقاء الذى تم بدون ترتيب ، بدون ميعاد سيريحه تماماً ، وربنا يعمل ما فيه خير الطرفين ، قال عبد الموجود إنه الخير ، ولن يجيىء إلا الخير بأذن الله ، ثم طلب من إبنه عبد العال الصغير أن يقطف بعض البسلة للأساتذة ، ضحك الأفندى ، يبدو أن عم عبد الموجود يعرف ما جاء من أجله تماماً ، قال إنه موظف بأحد الفنادق الحديثة فى مصر ، فندق ضخم سيفتتح أبوابه بعد سبعة أيام ، سيقدم الأكل لأكثر من ألف شخص يومياً ، وعلى الرغم من أن مديريه وأصحابه خواجات إلا أنهم يعرفون السوق وما يجرى فى السوق وألاعيب المتعهدين ، قالوا ، لماذا اللف والدوران ، صاحب الزرع موجود ، والنقود موجودة وعربات النقل جاهزة ، والرجال الذين سيعبئون وينقلون موجودون فى الفندق ، هز عبد الموجود رأسه آه . . خير ما عملوه ، تفكير سليم وتدبير تمام ، فى هذه اللحظة وصل عبد العال الصغير ، مال ليضع البسلة بين يدى الأفندية ، تفضلوا ، قال جابر إن هذه الثمار ، من الدرجة الأولى ، مليئة بالحب ، ومثل هذه لا يعرضها التاجر فى السوق أبداً إنما يدخرها لمن يعرفون الأكل وأصوله ، وكل شىء له ثمن . لم تفت الملاحظة الأفندى ، قال إن الفندق لا يهمه السعر بقدر ما تهمه الجودة ، إنه فندق عالمى ، صمت عبد الموجود ، التفت إلى الإثنين الآخرين ، أحدهما يمسك حقيبة سوداء مربعة لها يد طويلة من الجلد ، يبدو الثانى ساهماً ، بدا له ألا يسترسل فى التفاصيل العملية ، من الذوق أن يهتم بضيوفه الذين نزلوا عليه فجأة ، تساءل عما إذا كان الأستاذان يعملان أيضاً فى الفندق ؟ قال صاحب الحقيبة السوداء ، إنه صاحب البك فقط ولا يفهم فى أمور الفنادق ، قال الثانى إنه سائق العربة ، نعم . . فى الفندق ، أهلاً

وسهلاً ، وهنا سأل جابر مفتتحاً حديث البيع والشراء عن الكميات التى سيطلبها الفندق ، قال الأفندى ، إنه سيتم شراء المحصول كله ، ليس الآن فقط ، لكن فى كل موسم ، الخضر طبعاً ، قال عبد الموجود مقطباً عينيه ، الأرض كلها من هذه الناحية لا تزرع إلا الخضر . قال إن مصر كلها تأكل من هنا ، ومن أراضى الجهة الأخرى ، قال إن الأرض قريبة من النيل ، وقريبة من الصحراء ، أشار إلى الجهة الشرقية لا يوجد بها عمار بعد البلدة ، إذا رمح الجمل فى الصحراء يتوه

ولا يسعى أحد خلفه . هز الأفندى رأسه ، استحسن السائق مذاق البسلة ، طلب من عبد العال الصغير أن يجنى للأسطى ، قال الأفندى إن هذا لا يمكن ، بسط عبد الموجود يده فوق صدره ، الهدية لا ترد . . ثم إنها حاجة بسيطة ليدخل بها الأسطى على الأولاد ، تساءل الأفندى عن سعر الكيلو ـ قال عبد الموجود إنهم يبيعون بالجوال ، الجوال ثمنه خمسة أو ستة جنيهات ، سأل الأفندى . . يعنى الكيلو بكم ؟ نظر عبد العال الصغير إلى والده ، قال إن الجوال فيه حوالى ستين أو سبعين ، صفر الأفندى ، نظر إلى زميليه وكأنه أدرك حقيقة ظلت خفية عليه ، قال إن السعر فى السوق ثلاثون قرشاً ، والصنف الممتاز الذى يأكلون منه الآن لا يقل عن أربعين قرشاً إذا وجد ، قال صاحب الحقيبة السوداء إنه لا ينزل السوق ولا يعرف شيئاً عن الأسعار ، « المدام » تشترى كل شىء بنفسها ، قال عبد الموجود إن المزارع كلها حولهم ، ليبحث بنفسه ، إذا وجد مثل هذه الحبات فى الثمرة الواحدة ، عندئذ يكون كلام آخر ، قام الأفندى منهياً الجلسة ، وقف السائق ، وقف الأفندى حامل الحقيبة السوداء المربعة ، قال إنه لن يبحث ، لن يدور ويلف لأنه دار ولف فعلاً ، إن السعر هنا مناسب جداً ، والمحصول جيد جداً ، الأهم من ذلك كله أن قلبه مال إلى الحاج . . الحاج . . عبد الموجود ، إن « اللوكاندة » وجدت ما تبحث عنه ، قدم جابر الكبير كيساً به حوالى ثلاثة كيلو جرامات إلى السائق ، تساءل عبد العال الصغير بصوت جاد عن عنوان اللوكانده فى مصر ، بسط الأفندى يديه مطمئناً ، قال إنه سيجىء إليهم بنفسه خلال أيام . سيحضر معه أكياساً خاصة لتعبئة المحصول ، يمكنهم اعتبار الاتفاق منتهياً ، سيدفع نقداً ، لن يكلفهم عناء الذهاب إلى مصر لقبض الثمن ،

الدخول إلى اللوكاندة صعب لأنها فى مكان بعيد أولا ، ولأن الحراسة مفروضة حولها دائماً ، كل ما عليهم أن يوقعوا الفواتير وإيصالات الاستلام ، قال عبد الموجود وفى تساؤل له موافقة ، ألن تصل النقود إلى هنا ؟ أومأ الأفندى ، قال عبد الموجود : إذن كما تشاء . . غمضى إنه يرجو من الله أن يعمل ما فيه الخير ، لكن أليس من الواجب البقاء إلى موعد الغداء ؟ أبدوا اعتذاراً ، أبدوا شكرهم ، تمنوا أن يجعله عامراً ، اقترب عبد العال من الأفندى ، ألا يمكن معرفة اليوم والميعاد حتى ينتظروهم ، قال الأفندى إنه لا يمكنه التحديد الآن ، لكنه لن يتأخر عن ثلاثة أيام ، حاول عبد الموجود أن يصعد المنحدر وراءهم ، لكن الأفندى أقسم أن يبقى كل فى مكانه ، احتكت العجلات بالأرض ، تضاءل الصوت تدريجياً حتى استقر الصمت ، بدا الأمر مفاجئاً حتى سأل عبد الموجود نفسه ، أهو حلم أم علم ؟ ما اسم اليوم ؟ الله الإثنين . . الإثنين شرح دائماً ، لكن عبد العال الصغير بدد سكون الظهيرة المشبع برائحة الزرع ، إن قلبه يأكله ، الموضوع فيه ما فيه ، إنه غير مطمئن لهؤلاء الأفندية ، قال أبوه : على العكس ، إنه مطمئن تماماً ، الأفندى فى منتهى الأخلاق والذوق ، كلامه واضح ، هل يكره الراحة من التعب والغلب ، تعبئة المحصول فى أجولة ، الجرى هنا وهناك للاتفاق مع من يساوى ومن لا يساوى للمشاركة فى استئجار عربة نقل ، نزول السوق فى الليل والبرد يقص أطرافهم قصاً ، ربما باعوا المحصول فى ساعة ، ربما خاب السوق فيمضون ليلة أو ليلتين ، ثم يبدأ انتظار المعلم ، لم يتحدثوا إليه مباشرة لم يروه إلا من مسافة ، يجيىء فى عربة ويذهب فى عربة ، يلف رأسه بشال حريرى أبيض ، يمشى الرجال من أمامه ومن خلفه ، أحدهم يجيىء إليهم بالفاتورة ، والنقود ، يأخذ لنفسه ما فيه النصيب ومن قبله الواقف أمام الميزان والرجل الذى أوجد لهم مكاناً ليضعوا فيه المحصول ، هذا يأخذ وهذا يأخذ ، ثم يبدأ بحثهم عن طريقة للعودة من مصر ، قال عبد العال الصغير إنه يعرف ذلك كله ، لكن قلبه غير مطمئن لهذا الأفندى ، لماذا لم يجبه بعنوان اللوكاندة ؟ لن يصدق إلا إذا رأى العربات قادمة ، والنقود فى ايديهم ، قال جابر إن شكله يشبه ضباط المباحث ، إنهم عادة يتظاهرون بالود ، صاح عبد الموجود متسائلاً عما يمكن أن

تهتم به المباحث هنا ، قال جابر ، ربما يبحثون عن قطعة سلاح . . أو يستقصون أثر شيء ما ، ضرب عبد الموجود يده بالأرض ، يا أولاد . . . الأفندى لم يطلب لنفسه شيئاً شرب معهم الشاى بنفس مفتوحة ، صمتوا . . تصاعدت رائحة القش المحروق ، ثقلت الظهيرة ، لم تهتز الفروع والأوراق ، تجمدت شواشى الذرة مع أن أمشير يودع أيامه الأخيرة ، فى الليل ردد عبد الموجود أنه سيستريح من السوق ، وظلم السوق ، وقرف السوق الذى أكل عمره مقداراً إثر مقدار ، لن يقترض من القريب والبعيد لينقل المحصول ، ولن يجر السلفيات من هذا وذاك ، إنه لا يطمع فى المزيد من النقود ، ما يريده الراحة والبعد عن وجع القلب ، فى اليوم التالى ، قبل أن يصل ظل الشمس إلى شجرة الكافور رفع رأسه متسائلاً : ألم يأت الأفندى فى مثل هذه الساعة ؟ لم ينتظر رداً ، قام متحاملاً على نفسه ، كتفه اليمنى مرتفعة قليلاً ، فى مشيته عرج خفيف ، يصعد المنحدر ، يقف محدقاً بالبصر الكليل ، يتدلى فكه الأسفل ، من يدرى ربما أضاعوا طريقهم ، المنطقة كلها متشابهة ، وهؤلاء الأفندية من مصر ، فى اليوم التالى استعان بعصا من جريدالنخيل لأن الوقفة طالت بالأمس ومفاصله تؤلمه ، فات الزمن الذى كان يرفع فيه « الفأس » ويهوى بها على الأرض من طلوع الشمس وحتى غروبها ، فى اليوم السابع إزداد تدلى فكه الأسفل ، قبل طلوعه : هل ضرب سعراً مرتفعاً ؟ هل بان عليه الطمع ؟ قال عبد العال إنه لم يطمع وأنه أظهر الكرم لكن ربما اتجه إلى غيط آخر ، ربما كانوا يشغلون أنفسهم أثناء سفر طويل ، لقد لمح ضحكة على وجه السائق ، لكن عبد الموجود لم يصغ ، بعد الفجر مشى فى الندى الباكر إلى نقطة المرور أوصى الجاويش أن يدل العربة السوداء على الغيط ربما يتوقف الأفندى ويسأل ، فى منتصف الليل قام من نومه فرحاً ، قال إن أفنديا غريباً لم يره من قبل جاءه ، قال . . أنت عبد الموجود ؟ قال نعم يا سيد الكل ، قال الأفندى إن اللوكاندة تأخرت والسبب عدم حضور الزبائن ، لكن الكلام ماشى ، لن تتأخر اللوكاندة عنه أكثر مما تأخرت ، كاد عبد العال يبكى من شدة الضيق وهو يشير إلى جفاف الحب ، وفساد المحصول ، عندئذ يضيع ما وراءهم وما أمامهم لن يطولوا عنب الشام ، أوتين اليمن ، عندما جاءت عربة النقل وراح السائق القادم من مصر يتعجل شحن المحصول اقترب منه وسأله عن عربة

سوداء يركبها ثلاثة شبان ، ضحك السائق ، ضحك ، تطلع عبد الموجود إلى جوف الليل ، ربما ظهرت عربة اللوكاندة ، يأخذون المحصول فى آخر لحظة ، لم يوافق ولديه ، لأول مرة لا يصحبهم ، ربما جاء الأفندى وسأل عنه ، لف على أهالى البلدة ، رجاهم باسم النبى أن يدلوا شابا يرتدى قميصاً أسود سيجىء فى عربة سوداء ومعه صاحبه الذى يمسك حقيبة سوداء حقيبة مربعة . . بالضبط مربعة ، ورجاهم أن يصفوا له الطريق إلى الغيط ، أن يصفوا له شجرة الكافور العجوز ، أقدم شجرة فى الخط كله ، الأفندى من مصر ولا يعرف الناحية ، دار على الدكاكين الصغيرة مستفسراً عن عربة سوداء ، توقف أمام رجال ، واعترض طريق نساء ، وطارد أطفالاً صغاراً ظن أنهم يعرفون بمجىء الأفندى لكنهم يخفون ذلك عنه ، وصاح زاعقاً على كل سيارة تمرق فوق الطريق ، إنه لا يصغى إلى نزول الليل ، وأخطار الطريق ، من تصدمه عربة لا دية له ، إنه يرفع عصا الجريد مهدداً جابر الكبير وعبد العال الصغير ، يريد أن يضيعا فرصة العمر ، الأفندى قال إنه سيجىء يعنى سيجىء ، من يدرى ربما جاء مع الليل ، من سيقابله ليتفق معه ؟؟

١٩٨٠

* * *

البقايـا

بين العمارتين الضخمتين اللتين بنيتا فى وقت واحد خلال ذلك العام ، تمتد أرض خربة يحدها سور حجرى قديم فى الجانبين الشرقى والغربى ، يقال إنه بقايا القصر القديم الذى قام يوماً . أصحاب الأرض يقيمون فى إحدى الدول الأوربية وهذا أمر أعيا سماسرة المنطقة لأن الطلب متزايد والسعر فى ارتفاع مستمر . لكن الورثة لا يجيئون إلا على فترات متباعدة . وعندما يجيئون لا يلتقى بهم أحد ، تطل الشرفات الجانبية للعمارتين على الأرض ، فوقها تراكمت أكوام زبالة ، ويبدو أن مستشفى العظام القريب وجد فيها مستقراً لبقايا الجبس الطبى والغيارات ، بعض تجار الموز أحاطوا ركناً من الأرض بأجولة مليئة بنشارة الخشب ، ظللوه بالقماش ، وأوراق الصحف . استخدموه كمخزن للموز الأخضر الذى لم ينضج بعد . أحياناً يلمح سكان العمارتين بعض الرجال يقفون أمام الجدارين ، يتبولون وكثيراً ما صاح الآباء المحافظون ناهين بناتهم عن الوقوف فى الشرفات اتقاء للمناظر المخجلة . أحياناً يتساءل السكان بقلق عن مصير الأرض لأنها عندما تبنى ستضايقهم ، إذ تتقارب النوافذ ، ويحرج الجار جاره ، وتقل منافذ الهواء . فجر أحد الأيام ارتفع صوت نسائى ، متعب ،

يائس ، شاك . تقول المرأة إنها عملت ما يجب عمله ، كررت ذلـك ، مرات كأنها تريد أن تقرر حقيقـة ، أو تلفت النظر إلى أن مـا عملته لا يتنـاسب مع ما لاقته . أحد السكان فى العمارة البحرية انتبه إلى الصوت أثناء قيامه فى الليل البارد للوضوء وصلاة الفجر ، أزاح مصراعى النافـذة ، تطلع من خـلالها ، لفحهُ الهواء ، البارد لمح على ضوء مصباح الطريق جسماً يرتدى السواد ، يبدو مثل كومة فى الركن المنخفض قليلاً عن مستوى الطريق ، وقال لنفسه ، كيف تحتمل العراء وبرد ديسمبر ؟

فى الصباح لم ينتبه تجار الموز . أو أطفال المدرسة الابتدائية القريبة أو العمال الذين يعبرون مسرعين إلى محطة القطار القريبة اختصاراً للمسافة . لم ينتبه أيضاً السكان إلى المرأة القصيـرة ، النحيلة ، التى سكنت الخرابة ، كانت تتـوسد ذراعها وتلصق ركبتها بصدرها . فى الحادية عشرة مساء سمع شاب فى الثانية والعشرين أنات مكتومة ، وتذكر أن الخرابة مـزبلة لبقايـا المستشفى وأن هذا الجبس ربما نزع من موتى قتلوا بسبب حوادث ، وأن عفاريتهم تملأ المكان . فى السادسة صباحاً زعقت المرأة بأنها عملت ما كان يجب عليهـا أن تعمله . قال الرجل الذى اعتاد صلاة الفجر لزوجته ، إنه توجد إمرأة مجنونة فى الخـرابة . استعاذت زوجته من الشيطان الرجيم ، وقـال موظف الشهـر العقارى الـذى يسكن الطابق الرابع إن هذا شؤم . وقالت إمرأته إن الليل يمتلىء بالضائعين وأنها قرأت فى العام الماضى خبراً يقول إن صبياً تجمد من البرد فى شارع الهرم .

موظف اعتاد الوقوف فى الشرفة الأخيرة خلال الصباح البارد مرتدياً ملابسه الداخلية ليمد ذراعيه إلى أعلى ثم يثنيها ، لاحظ المرأة ، سأل نفسـه ، كيف قضت الليل ؟

مدير مالى كان يعمل فى أحد البنوك المحلية ، ثم انتقـل إلى بنك أجنبى فتضاعف راتبه ، واشترى سيارة ، وعاد من أمريكا مؤخراً ، أبدى ضيقه وقال إن الإنسان فى أمريكا لا يمكن أن يسمع هذا الصوت . أثار ظهورها الاهتمام . النساء أثناء نشر الغسيل أو تبادل الحديث اليومى عبر الشـرفات أطلن النـظر إليها ، خاصة عند زعيقها المفاجىء بـأنها عملت ما كـان يجب أن تعمله . لم

يستطع السكان والعابرون إلا تمييز هذه الجملة ويبدو أنها لم تنطق غيرها . فى غروب اليوم الأول شوهد صاحب كشك الشاى والقهوة القريب حاملاً بقاياخبز ولفافة ورق مبللة بالزيت ، فيها طعمية ، وباذنجان مقلى وزيتونتان ، رفعت المرأة يديها فى دعاء صامت ، وقال صاحب الكشك : كلى يا أمى . قال لبواب العمارة المواجهة له ، إن الدنيا مليئة بالبلايا ، وأن المرأة فى ما يبدو صعيدية ، عندما أصر طفل فى السابعة على سؤال أمه طلبت منه أن يذهب ليحل واجب المدرسة ، إنها إمرأة مجنونة ، ماذا تريد منها ؟ فى اليوم الثالث لم تكن تجلس أو تتمدد فوق أرض مباشرة ، إنما افترشت بقايا سجادة قديمة من فضلات القماش واستندت بذراعها إلى صندوق من الورق المقوى بجوار صفيحة زيت فارغة ، ولوح خشبى فيه عجلتان صغيرتان ، وطبق من البلاستيك أزرق اللون ،وكيس مكتوب عليه إعلان عن نوع من السماد ، لمدة يوم كامل ظلت تجلس القرفصاء ، لم تتحرك ، ولم تبدل وضع رأسها الذى أسندته إلى يدها ، ولم تمد يدها إلى الطبق الذى ملأته المدرسة بأرز وبطاطس وغطته برغيف .

فى الليل جاء صاحب الكشك ، وضع أمامها لفافة ورق ، انصرف عائداً إلى الكشك فوق الدكة الخشبية الصغيرة جلس شاب فى حوالى الثلاثين ، أنيق الثياب ، يرتدى معطفاً قصيراً ، ويحيط عنقه بكوفية من الصوف . تطلع إلى صاحب الكشك إثر عودته من الخرابة ، أومأ الرجل . . كل شىء تمام ، طلب منه الشاب أن يخفض صوته ، ثم تبادلا حديثاً خافتاً وانصرف ، ولم يفت منظره بواب العمارة المواجهة ، إذ أنه ليس من الزبائن الذين يجيئون ليشربوا فنجان قهوة أو كوب شاى مغلياً على قارعة الطريق .

فى هذه الليلة اشتد البرد جدا ، وأحكم الناس إغلاق النوافذ ، وتنبأ البعض بسقوط المطر ، وانقطاع النفس من الطرقات ، وأوقد حراس الموز ناراً فى ركن الخرابة ، وتذكرت المدرسة أن المرأة تنام فى العراء ، وتساءل طالب فى إحدى الجامعات الإقليمية أثناء تسرب دفء جسده إلى برودة الغطاء ، كيف يمكن قضاء ليلة فى هذا الجو الشتوى الذى لم يحدث منذ سنوات ؟ وقبل أن يدركه

النوم سمع أنات متصلة ، ثم صوتهـا الواضـح تقول أنها عملت مـا يجب أن تعمله .

فى الصباح قبل ركوب عمال المصنع الأتوبيس الذى ينتظرونه عند طرف الخرابة ، علت صيحاتها ، تبكى وكأنها خرساء ، تجمع أطفال المدرسة الابتدائية القريبة . رفعت يديها تحمى رأسها من الطوب ، أسرع صاحب كشك الشاى ، طارد الأطفال ، عاد إليها ، انحنى لكنها استمرت فى البكـاء ، خرج مـوظف البنك الأجنبى إلى الشرفة ، شاهـده أمين مخـزن بالمصـانع الحـربية يسكن فى مواجهته . قال لنفسه إن منظره تبدل وتغير ، فى كل يوم ملابس جديدة ، ولا يعود إلا معه فاكهة الموسم ، أو صينية بسبوسة أو علبة حلوى . وفى العطلات يقف بالشرفة يواجه صاحب الكشك أثناء قيامه بغسل سيارته التى اختلف بعض الجيران بشأنها ، أهى ملك خاص له أم أنها ملك البنك ؟

أعلن موظف البنك بصوت عال أن المنطقة ليست ملكا للمجانين والمتسولين وأنه ما من أحد طلب من هذه المجنونة أن تنصرف ، إنه لا يستطيع النوم من صراخها وكلامها غير المفهوم ، إنه سيطلب من مأمور القسم تنظيف الخرابة . فى هذه اللحظة قالت المرأة أنها عملت ما يجب أن تعمله ، غير أن تجار الموز فى ما يبدو فهمـوا أنهم هدف الكـلام ، وإلا فماذا يعنى بتنـظيف الخرابـة ؟ رفع أحدهم صوته كأنه يخاطب شخصاً لا يراه أمامه ، طالباً منه ألا يفترى . فما من أحـد ضمن الدنيـا . ثم ضرب كفـاً بكف وأبدى تعجبه ممـا تفعله الفلوس بالناس . حتى وقت قريب كان المفترى يأخذ الموز بالأجل من الحاج الشرنوبى . الآن لا يعود إلا بالتفاح المستورد . . . دنيا !! .

قالت المرأة إنها عملت ما يجب عمله . اهتز جسدها طويلاً ثم همد ثلاث ساعات . فى العصـر جاءت إليهـا إمرأة تعمـل مشرفـة على قسم التـطريز ، تأملتها ، ثم قالت إنها تعرض عليها العمل عندها ، إنها كانت تبدو عفيـة ، يمكنهـا الكنس والمسح وغسـل الأطباق والأكـواب . إنها تعمل وعنـدها أولاد صغار ، كل ما تطلبه أن تنظف نفسها قبل مجيئها إلى البيت ودخولها على الرجال

والعيال . حملقت إليها المرأة رئيسة قسم التطريز وشما أخضر مستديراً فوق جبهتها يتوسطه نقش مثلث ، كذلك وشم آخر على ذقنها ونظرة استسلام لا نهائى فى العينين الذابلتين . قالت فجأة إنها عملت ما يجب عمله لوحت رئيسة قسم التطريز غاضبة ، إنها مجنونة . وهذا المنظر البائس لن يخدعها ، أمثالها يقعدون على تل نقود ، إنها تعرف المتسولين وحيلهم . قالت المرأة وكأنها تخاطب غائباً لا يرى إنها عملت ما يجب عمله ، فى الفجر توقف الرجل الذى اعتاد صلاة الفجر قبل وضوئه بالماء البارد ، لا . . لم يخطىء . ثمة حديث فى الخرابة ، إن الصمت المصاحب للبرودة يضخم اصطدام الأبرة بالبلاط ، ثمة حديث . . اصغى ، صوت ملىء بالرجاء ، بالضعف . صوت باك ، يرجو أن تعود ويكفى ما حدث . لقد أصبحت فرجة للعالم ، للكبير والصغير . هل يرضيها هذا ، هل تقبل الفضائح ؟

يكفى ما حل بهم بعد ذهابها . قال صاحب الصوت أن هذا يعنى فصله ، إنه يرجوها أن ترجع ، لن تلقى ما كانت تلقاه ، ما جرى لن يتكرر . أزاح الرجل الذى اعتاد صلاة الفجر الستائر ، من بين فرجات النافذة ، رأى ضابطاً ، لم يستطع أن يعد النجوم فوق كتفيه . قالت . . لا . . لا يمكن . . قالت إنها عملت الواجب وخلاص .

تبدل صوت الضابط من الرجاء إلى الخشونة المفاجئة . قال إنها تريد ضرره ، إنها لا تحبه ، لا تحرص عليه لابد أن أحدهم حرضها عليه ، عاد الهمس حاداً ، علا صوتها ، إنها عملت ما يجب عليها أن تعمله . ثم ساد صمت ، تلاشى الهمس . فى الصباح لطم صاحب كشك الشاى وجنتيه . السجادة ملوثة ببقع دماء طرية ، تتخللهاقطع متجمدة أشد قتامة . أين المرأة ، أى إمرأة ؟ لا أحد يعرفها ، لا أحد يعرف إسمها ، أو بلدتها لكن هذه الدماء . . من يدرى ، ربما جرح حيوان هنا ، ربما أصيب شخص ما بنزيف ، ربما تلف هنا أو هناك لتظهر فجأة . أمثالها لا يعرف أحد وجهتهم أو مقصدهم ؟

أحاط تجار الموز وبوابو العمارتين وبعض المارة البقايا . صفيحة قديمة ، كوز

قديم من الصفيح ، قفص ووسادة ، طبق أزرق ، صندوق من الورق المقوى ، كيس سماد منبوش داخله ثلاث صحف قديمة ، وإبرة خيط . قال صاحب الكشك إنه رآها قبل العشاء بعينيه . سأله تاجر الموبيليات . . هل يعرف إسمها ؟ قال . لا . قال أحد حراس الموز : إذن لماذا يوجع قلبه ؟ لو أبلغ البوليس سيقلب الدنيا ، من أجل ماذا . . إمرأة لا إسم لها ولا أحد يسأل عنها . كاد الرجل الذى اعتاد صلاة الفجر والوضوء بالماء البارد أن يصيح متكلماً لكنه صمت . إنه لا يعرف ملامحها . ليته فتح النافذة وتابع الحديث حتى النهاية . لكن ماذا يقول الآن ، جاءت وكما جاءت مضت . . ويادار ما دخلك شر ! !

١٩٧٩

الرؤيـة

قال إنه استيقظ منذ حوالى خمسة أيام ، فوجىء بثقل جفنيه كأنما استطالا ، وبدا سواد عينيه فى غير مكانه . فى اليوم نفسه لمح فى الطريق رجلاً يعرفه ، أحد أصحابه القدامى ، زامله أيام الـدراسة ، لكنـه على بعـد خطوة اكتشف أنـه شخص آخر ، ملامحه مختلفة تماماً ، أبدى اعتذاراً لم يمنع نظرات شك طارده بها الرجل ، فى اليوم التالى سلك شارعاً جانبياً هادئاً ، أمام معرض موبيليا توقف فجأة ، رآها قادمة ، الخطوات السريعة ، واستقامة العنق ، ونظراتها المباشرة ، تلك الجرأة التى أعجبته ، ونفذت يوماً إليه . مد ذراعيه مرحباً وكأنه يستعـد لاحتوائها ، جفلت مذعورة تصرخ ، أدركه اضطراب . إن حوادث الخـطف تتكرر يومياً . كيف يبدى اعتذاراً ؟ ليست نادية ، ولا تمت إليها بصلة . انتبه إلى عامل متجر الموبيليايرقبه وهو على وشك التدخل .

تساءل الطبيب :

ــ هل كشفت عندنا من قبل ؟

ــ حضرتك أعددت لى كشف النظارة !

ـــ هل أحضرته ؟

لا ، لقد غير مسكنه فى العام الماضى . ضاعت أوراق عديدة أثناء الانتقال ومنها الكشف . قال الطبيب إن ذلك لا يهم ، إد أنه أعد أرشيفاً دقيقاً يضم الأسماء والحالات ، والعلاج منذ افتتاح العيادة . كتب الأسم ثم صاح منادياً : عم حسين . جاء التمرجي العجوز الذى لم تخف ثياب التمريض ملامحه الريفية ، ووشماً أخضر مثلثاً على رقبته . نظر من خلال عينيه الضيقتين إليه . لا يدرى لماذا شعر بقلق . طلب منه الطبيب الجلوس فوق أحد المقعدين ، متواجهين . وجه الطبيب آلة سوداء مستطيلة إلى حدقتى العينين . ضغط زرا فأضاء نورا حادا انبعث من ثقب رفيع ، اقترب حتى لا مسنه ثمة رائحة خفيفة لم يدر اعادة مصدرها : أهو عرق الطبيب ؟ أم ذلك الحوض الصغير تحت الصنبور ؟ أو تلك الزجاجات التى تحوى أدوية ومطهرات ؟

امسك الطبيب بالنظارة عرضها لضوء قوى . أبدى آهة وكأنه اكتشف امرا ما ، قال إن البؤرة ليست مضبوطة . من المدهش الا تصدر منه شكوى طوال عامين . إن العينين سليمتين .

قال :

ـــ ما يؤلمنى يادكتور رؤيتى كل يوم بضعة أشخاص . . أظنهم أصدقاء . . أتعرف إلى ملامحهم من بعد وعندما أقترب منهم أكتشف أنهم غرباء . ضحك الطبيب ، وبدا مرحا :

ـــ تلك شكوى من الزمن وليست من عينيك .

أبدى ابتسامة ، ثم قال بخجل :

ـــ أذكر أننى عرضت عليك النظارة بعد تركيبها و . . .

التفت الطبيب اليه ، بدا قاسيا فجأة :

ـــ لا يمكن أن أصرح لك بارتداء هذه النظارة والا فان هذا يعنى جهلى أدركه حرج ، لكنه وجد نفسه فى موقف الدفاع . قال : أذكر حرصك على رؤية النظارة بعد تركيبها . قلت لى ان كثيرين يهملون هذه الخطوة .

تجهم . استند الى حافة المكتب . قال إن الاصرار على ذلك فيه اهانة . فى

تلك اللحظة دخل عم حسين لا يحمل الا الورقة الصغيرة المكتوب عليها الاسم ، بعد ما أعطاها للطبيب ، استدار متجها وكأنه على وشك القيام بعمل ما .

ـ ما من داع للكذب . . كافة المرضى يلقون العناية هنا سواء سبق لهم الكشف أو عند غيرى .

بدا يخط سطورا فوق (الروشتة) يكتب العلاج بحكم الروتين ، مادام دفع الكشف فلابد أن يصف له الطبيب دواء . كيف يجيبه ؟ لقد كشف هنا بالفعل ويذكر قول الطبيب ، ان كثيرا من الشباب يترددون عندارتداء النظارات مع انهم يبدون وقورين بعد استعمالها . يذكر هذا الصندوق المستطيل المزدحم بالعدسات ذات الأطر الحديدية ، لكن كيف يواجه هذه الشراسة البادية فى عيون الطبيب والتمرجى ؟

* * *

عندما خرج من العمارة توقف لحظات ، إن شيئا غير عادى قد جرى ، فى الشارع لم يعد الرصيف مستقيما تبرز بعض البيوت الى الأمام ، يمتد الطريق الى مالا نهاية وهناك بعيدا تبدو عربة ترام كنقطة مع أنه يسمع رنين الجرس واضحا لا يبعد عنه غير امتار . ينظر الى الأرض ، هل ازداد طولا ؟ تبدو وكأنها تقعرت ، غير مستوية ، اما قمم العمارات فلا نهائية ، تطاول سماء بعيدة ، نائية ، رمادية . قرر ان يمشى حذرا . بخطوات قصار ، لكنه تعثر فى مقعد يجلس فوقه رجل يرتدى ثيابا ، ويدخن النرجيلة .

قلب الجمر ، وتناثر والفحم المشتعل .

ـ هل عميتم ؟

إرتجف ، قدرت عيناه أن الرجل والمقعد والنرجيلة أبعد من ذلك ، إنحنى مبديا اعتذارا ، مد يده محاولا لملمة قطع التبغ ، لكنه صرخ لقد أمسك بقطعة جمر مشتعلة بدت له ملقاة بعيدا . مص اصبعه ، زعق الرجل ساخطا ، انحنى ، راح يمسك الفحم المشتعل بمهارة ، ويلقيه فوق النرجيلة . انه يحملق بعينيه ،

يبدو الرجل بعيدا ، يقف على رصيف شارع مقابل لكنه لم يغادر مكانه ، وانفاس الرجل توشك أن تلامسه . مضى على مهل متقدما فى خطى ضيقة حذرة ، متحاشيا البيوت التى خرجت من أماكنها الى الأمام وكأنها مصارين المدينة . استعد لعبور الميدان الذى اتسع فجأة . صحراء من الأسفلت . تمنى لو التقى بأحد أصحابه فى المقهى ، يشكو اليه الطبيب وما جرى له . ضيق عينيه ، الميدان خال ، خطا مفارقا الرصيف . . لكن . . ما الذى أحدث هذا الزحام المفاجىء ؟ سيارات عديدة تتقدم نحوه ، عربة ضخمة من تلك العربات التى ازدحمت بها المدينة مؤخرا ، عربة أخرى ساطعة المصابيح ، اوتوبيسات شبه خالية من الركاب . هل يتوقف مكانه ، ويتركها تتفاداه ؟ لكنه يتجنب النظر الى العربات المتدفقة ، يحيط أذنيه بيديه ، يجرى يجرى ، تلامس قدمه حافة الرصيف المقابل ، يعلو صدره ويهبط . ان رجلا يحمل قفصا رمى فوقه أرغفة ساخنة ، يتوقف يتطلع اليه بدهشة . . . لابد أن يسأل نفسه ، من أى شىء يجرى هذا الأفندى المذعور ؟ الميدان خال من العربات ، تماما كما رآه قبل ان يعبره ، لكنه ازداد اتساعا وكآبة فلم تعد المصابيح قادرة على اضاءته ، يبدو المقهى نائيا ، لكنه يقطع المسافة حذرا متمهلا ، خطواته تصل بسرعة الى قرب المقهى ، الرصيف مزدحم ، الزبائن ينظرون اليه ، كلهم يتطلعون باتجاهه . ما الذى يجعلهم يغادرون الدفء الى الخارج ؟ انتهى برد الخريف ، ويبدأ برد الشتاء الذى يثير الوخز فى العظام لا يسمع الضجة المعتادة التى يجب أن تصدر عن هذا العدد من الزبائن . حركاتهم متسقة ترتفع أيديهم بأكواب الشاى والقرفة والكركديه ، ثم تنزل ، ها هو فاروق صاحبه يتطلع اليه بملامحه الهادئة ، المطمئنة ، يخفق قلبه ، يسرع ، يوشك على السقوط . لقد نزل الرصيف بدون ان يراه ، يتماسك . مع اقتراب خطاه تختلط الملامح بدلا من اتضاحها ، حتى سمات فاروق تتوزع بينهم . ماذا ؟ هل قاموا فجأة ؟ كلهم فى لحظة واحدة ؟ متى ؟ ! اين ذهبوا كيف دفعوا النقود ؟ ان رصيف المقهى خال تماما . ربما الزحام فى مقهى آخر بعيد نقله اليه بصره . إنه يشعر بأسى مفاجىء ، غامض . ثمة شىء اختل ، لكنه لا يدرى ما هو ؟ ان خوفا يغمره . تفلت المرئيات منه ، يحدث له الآن ما سمع أنه جرى لآخرين . استمر به العمر عاديا . لا يشكو ألما

ولا يظهر مرضا ، ماذا جرى ؟ ! أين الخلل ، فى الداخل أو الخارج ؟ انه يقوم ، يتجه الى الصيدلية المواجهة للمقهى ، يوشك ان يصطدم بزجاج الفترينة يغمض عينيه ، يتحسس بيده الطريق الى الباب . يسأل الصيدلى عن طبيب مشهور فى أمراض العيون يمط الرجل شفته السفلى تعجبا وهل هناك من يجهل الـدكتور الباز ؟ !

* * *

قال الدكتور الباز : إن ثمة خطأ وقع .

ثم تساءل :

ــ من أعد الكشف ؟

أبدى الدكتور الباز تهكماً ، هز رأسه ، سأل :

ــ اليس هو صاحب العيادة القريبة من العتبة ؟

أومأ برأسه مجيباً :

ــ من حقك أن تشكو إلى النقابة . . هذا الطبيب يجب أن يسأل . اصغ إلى الطبيب ذي السالفين اللذين خطهما المشيب . إن وجهه يبعث على الثقة . خط سطوراً بالإنجليزية فوق ورقة ، طلب منه إعداد النظارة ، ثم طلب منه ألا يتهاون فى حقه وأن يشكو إلى النقابة ، ثم قال :

ــ كتبت دواء . . . لن تجده إلا فى الصيدلية المواجهة لمقهى الأزهر .

قال إنه يعرفها جيداً ، فهو من زبائن المقهى .

* * *

بعد ما أنهت الإذاعة إرسالها أثناء عبوره من دورة المياه إلى حجرة النوم ، توقف فزعاً . إن جدار الصالة المكسو بالستائر يتراجع بانتظام وكأنه سيسقط إلى الخارج ، أفلتت شفتاه صرخة فزع ، دق قلبه مسرعاً ، لكن الجدار لم يسقط إنما استمر فى الابتعاد ، يحدث شيء غير عادى ؟ هل ينهار البيت ؟ هل يوجد أغراب فى الصالة يحدثون أمراً خارقاً ؟ كيف دخلوا ؟ من سينقض على من ؟ يتقـدم

حذرا ، يزداد الجدار بعداً ، تتمطى الجدران ، تصبح الصورة نقطة صغيرة ، إن البيت يتسع فجأة . يبدو خاوياً ، فارغـاً ، متنائى الأرجـاء . صمت المقاعـد منضدة الطعام ، أزيز موتور الـثـلاجة الخـافت ، تصيح أمـه العجوز بصـوت متعب : من ؟ من ؟ ثم تصمت ، ينظر خلفه ، الطرقة مستـطيلة كممرقـطار طويل ، كيف سيعود إلى حجرته ؟ كيف سيدخل حجرة النـوم ؟ أو الحمام ؟ كيف يقدر المسافات ؟

* * *

أبدى الطبيب الشاب ابتسامة ثم تساءل :

ـــ من يا سيدى ؟؟ الدكتور فايز ؟؟ هذا جيل عفا عليه الزمن . قال إن الجيل القديم يعمل وفقاً لمفاهيم بالية . والعلم يتقدم بشكل لا يصدق فى الخارج . ما رآه فى السويد يدعو إلى الذهول ، ثم قال :

ـــ هل تصدق أن الأعمى هناك إذا أراد أن يعبر الطريق يضغط زراً فى بطارية خاصة معه ، تضىء له النور الأخضر فى إشارة المرور ؟ دعك من هذا . . هل تصدق أن الكلاب . . الكلاب تأخذها شركة متخصصة كل يوم أحد إلى النزهة ، لماذا ؟ حتى لا تصاب باكتئاب نفسى :

ثم قال إن جميع الأجهزة هنا قديمة ، أما الأدوية المحلية محدودة ـــ وأثرها ضعيف .

ينظر إلى الطبيب الشاب ، إنه ابن أحد العائلات الكبيرة التى أرسلته على نفقتها إلى أوروبا وأميركا ، ثم عاد حاملاً عدة شهـادات . نشر عنـه فى أخبار المجتمع كما أن أكثر من تحقيق صحفى أجرى معه .

قال إن هؤلاء الأطباء يعقدون إجراءات ، يطلبون من المريض التردد على العيادات مرات ، يضعون له قطرة (الأتروبين) . فى السويد لا يستغرق كشف النظارة إلا جلسة واحدة .

قال الدكتور الباز أعد له الكشف فى جلسة واحدة .

هز الطبيب الشاب رأسه ، أكد أن الأمر يختلف تماماً فى السويد فى هذه اللحظة بدأ يبعد ، يتراجع ، تتغير ملامحه ، جلده يتهدل ، كأن جسده يتميع . كذلك الجدران ، السقف يتميع . كذلك الجدران ، السقف يرتفع كمصعد ، النجفة مصباح صغير ، الضوء يخفت ، كأنه يبدأ تشد الطبيب بعيداً عنه ، والعلامات السوداء والعلب المعدنية التى تناثرت هنا وهناك ، وعينات الأدوية الأجنبية ، وتمثال الجندى الفرنسى النابليونى .

* * *

انقطع عن المقهى وعن الأصحاب تماماً ، فى الأيام الأخيرة لخروجه امتلأت الطرقات ببرك متحركة من مياه عطنة . وإذ يرفع بنطلونه ويحاول عبورها يفاجأ بنظرات السخرية ، ما يحاول عبوره ليس إلا قليلاً من المياه . الأسفلت أدركته ميوعة . أصبح كموج بحر . تتوقف العربات بلا حد ، تعبر حوله ، تحاصره ، تخدعه الملامح ولكن ، لا أصدقاء ، ينظر إليه الآخرون باستنكار . يقضى الساعات محاولاً العودة إلى البيت ، تراوغه المسافات عندما جاء إليه طبيب المؤسسة بدا متأففاً . البيت بعيد . إصغ إليه ، ثم رأى تذاكر الأطباء قال :

ـ هل هذه التذاكر لك ؟

أجابه بأن إسمه مكتوب على كل منها ، كما أن التاريخ موضح عليها ، ويمكن للطبيب أن يسألهم .

قال :

ـ لن أسأل أحداً . . كل علاج أمامى يناقض الآخر . لا يمكن أن يوصف هذا العلاج لشخص واحد . ثم قال بحزم :

ـ أرنى عينيك من فضلك .

أزعجته اللهجة الرسمية ، لكنه استسلم له . قال الطبيب :

نظرك سليم والنظارة جيدة ، قال إنه لا يمكن أن يحتسب يوماً واحداً له كأجازة أما الفترة الماضية فيجب خصمها من أجازاته الاعتيادية أو من مرتبه .

وفى اليوم التالى حاول الوصول إلى العمل ، بدت درجات السلم متباعدة ، لا نهائية جلس فوق أول درجة زحف إلى الدرجة الثانية ، الثالثة ، عند خروجه بدا الشارع أضيق ، لا يتسع لمروره . التصق بالجدار متفادياً ضيق المسافة وبركا عطنة ، وأحجاراً هائلة . وصل متأخراً إلى محطة قطار الضواحى ، رأى الرصيف يمتد إلى مالا نهاية محاذياً للقضبان التى بدت كخيوط سوداء تتشابك ثم تنفرج . اقترب حذراً من القطار ، العربات بعيدة والفجوة التى تفصل الرصيف عن القطار تتسع فى الوقت الذى يضيق فيه الرصيف ! يصبح كقمة جدار نحيل ، اضطرابا يغمره وخوفاً يأخذه . لو تقدم ، ربما يسقط تحت القضبان . لو ظل واقفاً مكانه ربما ألقاه بعضهم تحت العجلات . أثناء تدافعهم ، وتقدمهم ، ثم تراجعهم ، باتجاه القطار يختلط الجميع ، تدرك الميوعة البيوت المطلة على المحطة ، تبدو مبنية من زجاج سائل يصرخون حوله . لا يدرى به أحد . لا يجرؤ على الإمساك بمقبض عربة القطار البعيد أو التراجع إلى الوراء . . يقفز البعض من نوافذ القطار ، إنه يمد يده . . يصبح متلفتاً حوله

ـــ من يأخذ بيدى لألحق بالقطار . . . من ؟

١٩٧٨

المركب العنقودى

مستحيل . .

أفرج عن همه فى رفض حاد ، باتر ، لكن الطبيب ظل هادئاً ، يده اليسرى فى جيب معطفه الأبيض ، ثم احتوت عيناه الخضراوان قسوة لم يعهدها فيه ، قال إن ما يطلبه مزعج لكن يجب تقبله برحابة صدر ، كثيرون أبدوا رد فعل مماثل لكنهم اقتنعوا ، ومارسوا ما طلب منهم ، وبالفعل مات الميكروب وانتهى الالتهاب . . لم يدع الطبيب يتم حديثه ، تراجع ناحية الباب وكأنه يخشى أن يولى ظهره له . .

« ما تطلبه لن يحدث . . حتى لو كان العلاج الأخير فى الدنيا . . »

أغلق الباب ، نظر إليه التمورجى الأسمر ، يقف وكأنه أصغى إلى ما دار ، نظر إلى أحد الجالسين ، قال بصوت مرتفع . . « لا تؤاخذنى على التأخير . . الأستاذ كان عنده تدليك . . »

إقشعر جسده لطريقة خروج اللفظ . . تدليك . . تأكيده على حرف الكاف ، لم ينتظر المصعد ، نزل السلم بسرعة ، خرج إلى الطريق والزحام الليلى

اللاهى عنه ، يمشى بين الخلق محتويا الميكروب الذى تغلغل فى ثنايا الأنسجة ، تكور وتخندق وتحصن ، بحيث أصبح من الصعب على المضادات الحيوية التى حقن بها حتى الآن الوصول إليه ، عشعش فيه ، شرب شاياً فى مقهى ، هل يجيىء الشفاء من أمر غير متوقع ؟ يجنبه هذا الطبيب وأمثاله ، عندما استعاد ما طلبه منه اقشعر ظهره ، سبه بصوت خافت ثم سكت ، تحفز لتلقى طعنة من الألم ، لكن الوخز لم يتحرك ، كان يخيل إليه أن الميكروب الكامن فى أعماقه يرصد أفكاره ويعيها ، ويجاوبه على بعضها ، ويعاقبه ، خاصة فيما يتعلق بالطبيب ، ربط بين ثورته عليه وتحرك الألم ، أو سبه فى سره ، إنه يكرهه الآن ، ما طلبه فظيع أغرقه فى بئر موحلة ، انتظر . . لم ينبض الألم ، لو استمر الهدوء حتى الصباح ربما كان نذير الشفاء ، لو طال الصمت داخله سيفرق الأرغفة واللحم على سبعين فقيراً حول مسجد الحسين ، لو مرت ساعة أخرى ، لو أن الجسم تغلب على الميكروب الذى يسكنه منذ شهور ، فى البداية استيقظ على ألم خفيف ، لم يهتم ، لكن ضيقاً ايقظه ، بدأ خفيفاً ، لكن غريباً ، لم يعرفه من قبل ، وعندما دخل دورة المياه فوجىء بخيط من لهب بدلاً من البول . قبض نفسه ، تكوم كأنه تلقى قبضة ساحقة ، اتسعت عيناه وكأنه يخاطب كائناً غير مرئى . . آه . . مسمار محمى غرس فيه ، لساعات متوالية خاف دخول دورة المياه . تمنى أن يزوره أحد أصحابه ليشكو له ، لكن الباب لم يطرقه إنسان ، واليوم جمعة ، كان باستطاعته الاحساس بخمود الحركة فى الطرق ، والتراخى الذى يلف المدينة فى أيام الأجازات ، كل العيادات مغلقة ، اضطر أخيراً إلى دخول الدورة ، لكن كل شىء مضى سهلاً ، كأن وخزاً لم يكن ، وحريقاً لم يشب . فيما بعد لم يهاجمه هذا الألم إلا مرة واحدة ، وفيما بعد أيضاً بدت له المرة الأولى بمثابة إعلان الميكروب عن نفسه ، عن ولوجه إلى عالمه ، عن ظهوره فى دنياه ، فى اليوم التالى جرى وجع من نوع مختلف لكنه أقل حدة ، قرأ اللافتات المعلقة فوق شرفات العمارة ونوافذها ، قرأ اسمه . . أستاذ الأمراض الجلدية

والتناسلية ، دكتوراه من أمريكا ، زميل كلية . . دبلوم فى . . شقته ، فى وسط الحجرة وقف الطبيب مبتسماً ، بدا ودوداً ، هادئاً ، بدا وكأنه يتوقع مجيئه ، بل

خاطبه باسمه الأول فقط . يومها فكر ، ربما اعتاد ذلك ليبث الثقة لدى مرضاه ، أصغى إلى الأعراض ، ثم سأله عما إذا كان قد خالط إحداهن ، أكد أنه لم يفعل ذلك منذ شهور ، إنه يعيش بمفرده ، أحياناً يضطر إلى دورة المياه فى المؤسسة ، وقديماً قرأ أن ذلك بسبب العدوى . هز الطبيب رأسه ، قال إن الأمر مختلف . . لكنه بسيط ، سأله عن مرتبه ، عن مؤهلاته ، هل سافر إلى الخارج ؟ قال إنه لابد من التحليل . خلال الأيام الثلاثة التى انتظر فيها نتيجة التحليل اتخذ الألم أشكالاً عديدة . قبل نومه يتمنى أن يستيقظ ليجد كل شىء قد انتهى ، الضيق ولى ، وكتمة الصدر ولت ، فى الصباح يفتح عينيه ، كل شىء طبيعى ، يخشى تغيير وضعه حتى لا يطرأ جديد ، يتساءل ، هل اختفت الأعراض فجأة ؟؟ فجأة يسرى نمل داخله ، يدبدب ، يسرع أو يمشى على مهل . ينخس شعيراته الدموية حتى يغادر الفراش فزعاً ، يسود صمت ، فى الطريق إلى المؤسسة يبدأ حز خفيف يتزايد حتى يصبح شبيهاً بسلك رفيع جداً أولج داخله وبقى مشدوداً ، تتزايد حدته أثناء قراءته الصحف ، أثناء جلوسه فى المكتب ، فى المقهى ، يفاجأ بطعنات حادة ، موجزة لكنها مركزة ، لكن ما طمأنه قليلاً أن الألم المروع الذى فاجأه فى اليوم الأول لم يتكرر ، لم يتصور أن الأمر سيطول هكذا . وأن الشهر سيلى الشهر ، عرف الضيق والمرض . نوبات برد أو التهاب لوزتين ، أو مغص ، كله جاء وراح ، بدأ وانتهى ، لكن الأمر استمر طويلاً فى هذه المرة . قرأ الطبيب نتيجة التحليل . قال بعد صمت إنه ميكروب تافه وضعيف ، ثمة صديد قليل فى البول ، وتضخم يسير ، علاج هذه الحالة يستغرق وقتاً ، يجب خلاله ألا يسافر ، وألا يرتبط بأى شىء ، وألا ينفعل ، وألا يضيق بما يبعث الضيق ، ثمة حقن ، وأقراص ، وأقماع ، لكن الأهم من هذا كله جلسات الكهرباء ، والتدليك ، إنه فى حاجة إلى أربع وعشرين جلسة مزدوجة ، بعدها سيعود كل شىء إلى ما كان عليه ، قرض شفته ، قال إن الأمر لا يتعلق بالمائة جنيه ، هذا مبلغ من السهل تدبيره ، لكن . . ألا يمكن الاستعاضة عن التدليك والكهرباء بعلاج آخر ؟ لقد مر بذلك أثناء التحليل ، وضع قاس ، مهين ، تحتبس خلاله أنفاسه حتى ليوشك على الاختناق . بمجرد انتهاء جملته سرى خيط نحيل من لهب ، تجهم وجهه ، عض شفته ، قال الطبيب

إن هذا هو العلاج الوحيد الذى لم يخترع الطب بديلاً له حتى الآن . . ، الآن . . تمضى الدقائق وهو وحيد فى مواجهة الليل والميكروب المركب العنقودى ، حتى الآن لم ينبض ، لم يهاجمه ، لم يقرض نسيج جلده ، لم يتحرك ليقتات من دمه ، أهى إغفاءة لن تطول ؟ أم إن الجسم تغلب عليه ، نفس الرجاء الذى أضمره ورردده فى كل ليلة قبل نومه ، إن يتغير الحال بعد صحوه ، أن يعود كل شىء إلى حاله ، آه . . لو يعود كل شىء إلى ما كان عليه . لكن لو تحرك المركب العنقودى فإنه لن يستجيب إلى ما طلبه الطبيب . . أبداً . . لن ينفذ ذلك . . إنه يلوم نفسه الآن لتركه الطبيب يسترسل حتى يوضح ما يريده . إنه يتجرأ الآن ، يتهم الطبيب بالإهمال ، بالقسوة ، الشراهة إلى ماله ، إنه مريب ، ربما كان متواطئاً مع ناس لا يعرفهم يريدون به الأذى ، يتوقف لحظة فى هجومه على الطبيب ، يصغى إلى دبيب المركب العنقودى ، لكن . . كل شىءهادىء ، لو مر الغد وبعد الغد ، ما طلبه الطبيب شنيع ، إنه يلوم نفسه الآن ، إنه المسئول عما وصل إليه ، كانت البداية عندما استسلم لجلسات الكهرباء والتدليك . إلى طريقة الطبيب فى التدليك ، فى الجلسة الثالثة لاحظ انه يتمهل ، يحرك إصبعه ثم يضغطه حتى كاد يشب منهيا وضع الركوع الواجب عليه اتخاذه ، أمره إن يبقى كما هو ، حاول امتصاص الألم بشد شعره والجز على أسنانه ، فى الجلسة الخامسة طلب منه ألا يشد شعره ، أن يكتم ألمه أثناء وضع الركوع . إن يخلى ذهنه من كل ضيق ، إن الحالة النفسية تساعد على قهر المركب العنقودى ، يجب أن يعتاد ذلك وإلا أصبح إحتمال المضاعفات خطيراً ، ربما تسرب المركب العنقودى إلى القلب ، أو المخ ، عندئذ . . فى الجلسة الثامنة استقبله الطبيب مرحباً ، قال إن عملية التدليك يجب أن تصاحبها راحة نفسية . طلب منه أن يطلع فوق السرير ، أن يخلع البنطلون والسروال ، لم يرتد القفاز المطاطى ، ولم يدهن أصبعه بالبريانتين الذى يساعد على انزلاقه . قال إن المركب العنقودى فى حاجة إلى ظروف خاصة حتى يتراجع ، إنه ضعيف ، لكنه أطول عمراً ، وأقدر على المراوغة ، إنه موجود داخل كل إنسان ، فوق الجلد ، فى الأمعاء ، فى الحلق ، فى المعدة ، لكن حساسية البعض تختلف ، وهنا تحدث

الإصابة ، المهم أن يستسلم تماماً لما يطلب منه ، تحدث الطبيب أثناء وقوفه بجواره ، تضايق من مؤخرته العارية ، ود لو أصغى إليه جالساً ، أمسك الطبيب بجهاز تسجيل صغير ، وضع الميكرفون أمام وجهه ، بالقرب من شفتيه ، تراجع خطوات حتى منتصف الحجرة ، تأمل ما قام به ، بنظرة جانبية رأى ملامح الرضا والراحة فى عينيه الخضروايين ، طلب منه ألا يتحرك بوصة واحدة مهما إزداد الألم خلال التدليك ، طلب منه أن يتحدث بمجرد إيلاج الأصابع ، أن يتحدث بلا توقف . خفتت الأضواء فى الحجرة ثم ثبت عند مستوى معين ، واتخذت الأشكال أحجاماً على غير حقيقتها . . صاح . . تكلم الآن . . ، قال إنه متعب ، والدنيا بلا طعم ، كل شىء اختل ، اليقظة كالنوم والنوم كاليقظة ، البهجة تبددت ، والأيام الحلوة أفسدت ، ووجهه أصبح أكبر مما يبدو عليه ، لم يعد قادراً على الجلوس طويلاً بين الناس ، أو تبادل الحديث ، أو المشى لمسافة طويلة ، المركب العنقودى أفسد وخرب . . . ، هنا دفع الطبيب إصبعه بقوة ، خرج لسانه وتحشرج صوته من الألم . .

لا تذكر المركب العنقودى بالأذى . . استمر . .

قال إنه يحب الناس ، ولم يسع إلى الحاق الضرر بمخلوق . .

هنا تمهل إصبع الطبيب ، انزلق داخله إلى نقطة أبعد مما وصل إليه ، بدا أكثر غلظة ، قال إنه يتمنى السفر ، وأن يرى من لا يعرفهم ، وأن يعيش أيامه بحق ، قال إن العمر لن يتكرر ، واليوم الذى يرحل لن يرجع . .

استقر الأصبع غليظاً ، بدأ فى حركة دائرية بسيطة ، بينما قال الطبيب من خلال شفتيه المضمومتين . .

لاتقل كلاماً متشائماً . .

زاد الوجع ، وبدا الأصبع كأنه مغطى بدبابيس رفيعة . قال إنه يثق فى الطبيب ، ولن يتوقف عن زيارته بعد شفائه ، إنه لا ينسى من ساعده ، قال إنه لا يعترض أبداً على كل ما يقوم به . . .

ضغط الطبيب إصبعه ، كاد يتقيأ . . « تكلم . . تكلم » . .

قال إنه يحب الخضرة ، وشم الهواء فى الخلاء ، ويتمنى النوم مرتاح البال ، قال إنه يحب أصوات الليل التى تصل من أطراف المدينة ، ويحب أن يهدى الغريب الضال وإذا أتيح له الوقت يمشى معه حتى مقصده ، قال إنه غير نادم لأن بعض الأهداف حادت عن مقاصدها ، لكنه يتمنى ألا يضل ما بى منها ، قال إنه يخاف الطارق المفاجىء ، وأنه يضيق بالوحدة . يهزه مرأى فتاة تمشى بمفردها فى طريق ليلى يبلله المطر ، ولكنه . .

زعق الطبيب وأنفاسه تكاد تلامس الجزء الأسفل من ظهره العارى . .

خش فى الموضوع . .

لم يستطع أن يسأل لبلوغ الألم ذروته ، زعق الطبيب . .

تكلم عن المركب العنقودى . .

قال إن الميكروب لا يزعجه .

ضغط الإصبع ، اقترب الميكرفون أكثر حتى أوشك على إدخاله فى فمه ، اتخذ وضعاً منحنياً ليرقب تعبيرات وجهه ، أصبح الجسد الراكع داخل مجال ذراعيه ، يد تقرب الميكرفون من فمه ، إصبعه الأخرى تتوغل داخله ، زعق . .

هذا لا يكفى . .

تسارعت دقات قلبه ، تغير حجم عينيه ، اخترق لسان من اللهب ، قال ونبرات صوته تتحشرج وتتسلخ ، إنه ليس منزعجاً أبداً ، إنه لا يعترض . . لا يعترض على وجود المركب العنقودى ، إنه . . إنه سعيد ، سعيد بكل ما يتم ، وما يجرى ، وليس له أى اعتراضات . . إنه سعيد . . .

سحب أصبعه متمهلاً ، فى نفس اللحظة أغلق الجهاز ، خلع القفاز ، ألقاه فى وعاء زجاجى ، غسل يديه بسائل تفوح منه رائحة قوية . عيناه تلمعان . قال إن الموقف سيتحسن ، وإن حالته النفسية ستساعد على مواجهة المركب العنقودى ، بعد نزوله الشارع ، بعد ذهابه إلى البيت ، كان لا زال يشعر بالإصبع الغليظة داخله ، وعندما وقف عارياً تحت الدش دق قلبه حتى كاد يقع من صدره ، أثناء غسله لجسده اكتشف إنه اتسع إلى درجة مخيفة ، وأن قبضة

مضمومة يمكنها أن تمر بسهولة عبر شرجه ، وأن مصارينه أصبحت قريبة من الخارج . في اليوم التالي سعى إلى الطبيب في المستشفى ، لم يجده ، اتصل به عند الظهيرة ، كان نائماً ، في الليل قال إنه يرجو علاجاً يقبض أنسجته . . هز الطبيب رأسه ، قال إن المركب العنقودي تمكن من خلايا دقيقة ، الحالة مزمنة ، ثم سأله عن عدد الجلسات ومرات التدليك حتى الآن ، قال إنهم عشرة ، اقترب الطبيب ، قال إن عدة عوامل تجعله يطلب منه إجراء عملية التدليك بشكل طبيعي ، مرة واحدة فقط ، إن هذا مؤلم ومزعج ، لكنه لازم للعلاج ، لابد أن ينزل فوراً ، أن يبحث عن رجل قوى ، ليس من المهم أن تربطهما علاقة سابقة . .

زعق . . لا . . مستحيل . .

إنه يتذكر الآن قامته الممتلئة ، لماذا لم ينقض عليه ، لم يمسك رقبته بكلتا يديه ، الرقبة التي تحيطها دوائر اللحم ، يتقدم الآن إلى دورة المياه ، مثانته ممتلئة ، إن دبيباً خفيفاً يبدأ ، ذرات رمل ساخنة تشتعل داخله ، لا يستطيع لحظة ظهور الألم لو خرجت نقطة بول واحدة ، يروح ويجيء ، مثانته تضغط ، يستعيد ملامح الطبيب ، يخترقه الألم المضني ، يزعق مقلصاً وجهه ، يتردد صوته في البيت الذي يعش فيه بمفرده ،

مستحيل . . لن يحدث هذا أبداً . .

١٩٧٩

.. على المستوى السياسى . !!

. . بعد عمر طـويل من النضـال قرر أن ينحـرف ، أن ينهى المفاجـآت الليلية ، والتعبيرات الساخرة على وجوه ضباط المباحث ، والتفتيش ، وتفحص الخطابات الخاصة ، وتجريد المكتبة من محتوياتها ، وتعمد المخبر المرافق أن يدوس بحذائه المتسخ فوق الأوراق بإهمال . لينه الاستدعاءات والانتظار فى الغـرف الرماديـة ، وصوت الـرتاج داخـل السجون . إنـه يريـد أن يعيش دنيا . أن يستمتـع . أن يـأمن . أن يكف عن تـرقب المجهـول . أن يلحق بـالفـرص الضائعة . أعطى الآخرين سنوات عديدة من عمره . ليعط مزاجه ، أطال النظر لمدة تسعة شهور إلى زملائه فى قسم الترجمة ، ملامحهم أخذت كفايتها من النوم الهنىء ، وارتوت من الشبع ، يسافرون ويعودون ، يرتدون القمصان الثمينة ، ويتحدثون همساً فى التليفونات . . لا . . لا . . رجعة فيها اتخذه واستقر عليه . سينحرف عن رفقة الحاقدين كما يعرفون بين الناس ، تردد اللفظ طويلاً حتى لصق بالأذهان ، أصبح يخيف ويرهب ، طوال عمره يـدخل السجن ويخـرج ويعزل ويفصل ، ويقولون إن ذلك كله يهون من أجل غد أفضل ، ولكن الغد الأفضل لم يأت ، ولم يظهر له أثر . والأيام تمضى ، هل تنتهى حيـاته هكـذا

« على ما يذكر المصلون فى جامع قلاوون ، إنها المرة الأولى التى يجىء فيها الشيخ على هنا ، النهار كله يجول الأسواق ، يجلس عند التجار ، يمازح الناس ، انسال صوت الشيخ محب مرتلاً تواشيحه ، القلوب تخفق فى الصدور كأفراخ الحمام ، ضوء النهار به صفرة تقتم شيئاً فشيئاً ، بدا الشيخ على متأثراً ، مغمض العينين ، لابد أن الله يقبل صلاته ، لا يقدر على ركوع أو سجود ، استغفر البعض ربه إذ تنبهوا لأنفسهم يختلسون النظر إلى الشيخ على ، من فيهما يقرأ الفاتحة ، من يبسمل ، هل بسملة الغلام تنوب عن بسملة الشيخ . قيل ان الشيخ على قد افتى فى هذا رجلاً صالحاً معمراً من الهند عارفاً بالأصول ، وأجاز له هذا ، فجأة صحا صوته غليظ ، عظيم حتى لتحار ، أيصدر من جسمه الضئيل أم من غيره ؟ يا شيخ محب أشجانى والله صوتك ، همس الرجل الورع بخجل ، بارك الله فيك ، بدا وجه الشيخ على مستكيناً هزيلاً ترثى له القلوب الجامدة ، كثيرون يدعونه عندهم ، يزور مرضاهم ، يكتب لهم الأحجبة ، وقيل ان التى لا تحمل لو رأت وجهه لحملت من ساعتها ، قال بأسى عظيم : وددت لو أنى صحيح ومعافى لخدمت المصلين ، قال محب . . عافاك الله ، عافاك ، همس واحد من الحضور ، كلامك جرح قلبنا يا شيخ محب عندما قلت الطف بنا فيما جرت به المقادير ، صاح الشيخ على وخيل للحضور أن الغلام اهتز جسمه ، بالضبط ، بالضبط ، انخفض حسه فجأة ، فى كل قلب من الجروح ما ينكأها قولك يا محب ، اشفق الناس عليه ، تخيل كل منهم نفسه مكانه ، حدبة فى ظهره ، طلوع فى صدره ، ربنا أعطاه فمنحه غلاماً يطوف به المدينة ، لو كان فقيراً لمات على الطريق أجرب مهملاً ، قام تاجر فراء ، قبل يد الشيخ محب ، طلب من الشيخ على أن يدعو له ، لابد من ذهابه قبل صلاة العشاء ، المماليك ناحيته ينزلون من القلعة ، يقطعون الطريق على الخلق ، صاح الشيخ على ، لا حول ولا قوة ، قال عجوز من المصلين ، سبب الاضطراب فى هذه النواحى وقوع الوحشة بين الأمير طار شاد العمائر ، والأمير آروس منكلى بغا ، قال آخر ، كل منهما مترصد للآخر انسال حزن رقراق كحد الموسى فى الهواء ، حبت أصوات من بعيد ، كأن الجامع فيه مخلوقات من عالم غريب ، ترقب تسمع

- ٣ -

. . بعد أن قدم نفسه ، وطلب المقابلة ، سأله الصوت الهادىء عن المكان الذي يتحدث منه الآن ؟ قال إنه الميدان الرئيسى . عندئذ طلب منه أن يجيء فوراً . لم يتوقع ذلك ، خاصة أن ما يريد شرحه لم يتضح فى ذهنه تماماً ، لم يفكر فى العبارات التى يجب أن يصيغ أفكاره من خلالها ، أدركه خوف ، لماذا لا يتراجع ؟ لكن الكالمة تمت ، وإيقاع الصوت الخافت طمأنه ، ابن ناس فعلاً ، فى المكتب الفسيح المجلل بالخشب اللامع جلسا فى مواجهة بعضهما . الحقيقة أنه مهذب ، بل مهذب جداً ، أرتاح إليه ، قال بوضوح إنه يرغب فى الراحة ، فى الابتعاد عمن يسببون له المتاعب ، لكنه ليس مبتدئاً ، وليس مبتذلاً ، إنه يريد أن يتراجع على المستوى السياسى ، لكنه لا يشبه هذا الصحفى الذى انقلب فى يوم وليلة من النقيض إلى النقيض . هز المسئول الشاب رأسه ، وبسط يديه . .

« لا طبعاً . . بالتأكيد أنت مختلف . . . »

يطمئن ، يهدأ ، يرتاح ، يقف المسئول الشاب ، إنه أطول مما توقع ، لم يلحظ ذلك إلا الآن ، يمشى متمهلاً ، يستدير ، يمسك فتاحة الورق المعدنية . .

« ما هو الأسلوب الأمثل فى تصورك ؟ »

يحار . لم يفكر فى ذلك . .

« هل تسمح لى بأن أساعدك ؟ »

يومىء موافقاً ، يقول سيادته إنه ذو تاريخ طويل يجب المحافظة عليه ، لن ينصحه بالنزول إلى الطريق والبحث عن أول مكتب للتلغراف ، أو الإعلان فى الصحف عن رأيه الجديد ، ولن يكون ساذجاً إلى الدرجة التى يرى فيها ضرورة ذهابه إلى إدارة المباحث العامة ، ومقابلة أحد ضباطها ، طبعاً معظم الضباط من الشبان ولم يعايشوا تاريخه الطويل ، ولم يعرفوه عندما كافح ضد السراى ، أو الاحتلال الأجنبى ، أو عندما تطوع للحرب ضد الأعداء الذين أصبحوا الآن أصدقاء ، سيحاولون تجنيده كمصدر للمعلومات ، لا . . لا داعى للانزعاج ، أليست هذه هى الحقيقة ؟ ، بل عند حدوث اعتقالات ، ربما قبضوا عليه لينقل

إليهم ما يدور داخل العنابر ، بصراحة ، وهذا كلام خاص جداً ، إنه يكره التعامل مع رجال الأمن . .

يشعر الآن أنه أكثر قرباً منه ، حضوره قوى ، دقيق فى ألفاظه ، قال « الأعداء الذين أصبحوا أصدقاء » ، كما أنه لم يقل لفظ الحاقدين الذى أشاعته أجهزة الإعلام على ألسنة الناس ، لكن المدهش تعبيره عن كراهيته لرجال الأمن ، ليس من السهل على أى مسئول النطق بذلك ، فلأجهزة الأمن سطوتها ورهبتها . .

إنه يقول فجأة بعد إطراقة . .

« رأيى أن تتطرف . . »

« أتطرف . . كيف ؟ »

« حتى تبتعد عنهم بشكل لا يكشف نواياك . . وحتى لا يقال إنك مرتد ، خائن ، إلى آخر القاموس الذى تعرفه أكثر منى . . تطرف . . إنتقدهم . . إتهمهم بالتخاذل . . بالتقاعس . . تطرف . . إسع إليهم . . اجتمع بهم . . إنه الاقتراب الذى يصحبه ابتعاد . . تطرف . . إن ذلك مناسب تماماً . .

— ٤ —

. . عندما طلعت شمس اليوم التالى كان مجهداً ، لم ينم إلا ساعة أو ساعتين ، سمع أذان الفجر أثناء ذروة قلقة ، نزل مبكراً ، خيل إليه أن أحدهم يقف عند الناصية ، يتظاهر بقراءة جريدة ، طبيعى . . هذا طبيعى يوضع تحت المراقبة الآن ، شوارع المدينة لم تزدحم بعد ، اتجه إلى المقهى النائى ، أحدهم يجىء إليه ، لم ينتظر قدومه طويلاً ، إنه أصلع يرتدى حلة صيفية منهكة ، عيناه متعبتان ، سجن سبعة عشر عاماً متصلة ، كان عاملاً لتجليد الكتب ، سلم عليه ثم جرى الحديث حول الاجراءات الأخيرة التى أعقبت التغيير الأساسى ، قطب عينيه وأصغى على ملامحه تجهماً ، قال إن الجماعات كلها لم تتخذ موقفاً حاسماً ، تساءل زميله القديم عن المواقف التى يجب اتخاذها ، قال إن البيانات لا تكفى ، لابد من اتخاذ مواقف أكثر حدة . بصراحة لابد من خطوة واضحة ، مظاهرة مثلاً ، قال زميله القديم إن الحركة تتم وفقاً لأسس الواقع وليست بمعزل عنه ثم . . قاطعه ، لقدشبع من هذا الكلام ،

العمر ضاع فى الحسابات والحذر وانتظار اللحظة الملائمة ، وتبدل علاقات القوى ، سكت لحظات ثم قال إن معظم الآخرين يرتبون أوضاعهم بينما الضحية فى النهاية أمثالها ، نظر إليه زميله القديم وكأنه ينتبه إلى نبرة غريبة فى حديثه . . . ، ماذ ؟ هل ظهر منه ما يريب ؟ لكنه لم يتوقف ، قال إن سبب مواقفهم هو حرصهم على مصالحهم ، نعم . . هذا ما يجب الاعتراف به ، لم يتردد الزميل القديم ، تمتم بعبارات غير واضحة ، قال مختتماً جلسته إن الوقت مناسب لتحرك عملى ، نظر إلى ساعته ، يجب إلا يطيل الجلوس أكثر من ذلك إلى مشبوه قديم ، صحيح ظاهرهُ مؤمن لكن الاحتياط أمر واجب ، تذكر بارتياح إنه حرص على اتخاذ ملامح تتناسب مع ما اتفق عليه من المسئول الشاب ، بعد مغادرته المقهى شعر بكراهية تجاه زميله القديم وغيظ ، انه عامل يسكن حجرة قديمة ، يأكل الفول ويقلى البيض فى الزيت ، ولا يعرف شيئاً عن الفنادق الكبيرة أو الاحتفالات ولا يحلم بالسفر أو النساء الجميلات ورصيد مناسب فى البنوك وتدخين السجائر الأجنبية ذات النكهة المميزة ، وإذا سجن الآن فإنه لا يبدو وكأنه غير حياته ، عندما رآه لأول مرة كان يبدو وكأنه ولد بين الأسوار وسيقضى عمره داخلها ، يبتسم دائماً ، يروح ويجىء ، يمسح البلاط ، وينظم توزيع الطعام ، ويتصدى لحل المشاكل مع الإدارة ، ويسرع مواسياً إلى الزملاء الذين ينطوون ويستسلمون للوحدة ، وإذا خرج إلى الحرية ينغمس فى النشاط السرى ، أمثاله هم الذين يجعلون الخطر قائماً ، لو كفوا ، لو توقفوا ، لاستقرت حياته ، ولنال كل ما يريده من سفر ، وسهر ، ووجبات فاخرة فى المآدب الكبيرة ، صحيح أنه لا يشاركهم ما يقومون به الآن ، لكنه محسوب عليهم ، وفى أول زفة يمكن أن يأخذوه معهم ، ماذا يفعل . . ملعون أبوهم !!

— ٥ —

لأنها المرة الأولى التى يتحدث إليه ، فلم يتعرف على صوته فى البداية ، وعندما أدرك أنه المسئول الشاب بنفسه ، قال إنها فرصة سعيدة حقاً ، قال إن الأمور تسير على ما يرام ، وإنه قطع شوطاً ليس بالهين على الرغم من قصر المدة ، وأن موقفه الجديد يتضح شيئاً فشيئاً أمام الجهات المعنية . . هناك أمور محددة

سيحدثه عنها فى أول لقاء ، أما الآن فليستمر ، بعد نصف ساعة رن التليفون ، إنه المسئول الشاب مرة أخرى ، نسى أمراً مهماً ، يجب أن يتحدث أمام بعض زملائه فى العمل ، عدد منهم له صلة ببعض الجهات المؤثرة ، أى أنهم يوصلون الكلام ، ليكن حديثه تعبيراً عن موقفه الجديد ، ومخالف ، لما يقوله أو سيعبر عنه لزملائه القدامى . . .

— ٦ —

. . فعلاً . . نبهه إلى أمر كان يجب ألا يغيب عنه ، لا تربطه صلة قوية بزملاء العمل ، اعتاد أن يرد التحية باقتضاب ، وإذا بادر بالحديث فليسأل عن الساعة ثم يومىء شاكراً ، لم يحتفظ بساعة منذ سنوات عديدة ، لكن للظرف الجديد متطلبات ، بدأ يفارق مكتبه ويتجول فى الأقسام الأخرى مؤمناً ، أو متحدثاً ، بعضهم ينقل إلى مدير الفرع . أو إلى مكتب الأمن المحلى، والبعض ينقل إلى جهات أخرى خارج المقر ، جهات أمنية ، جهات سياسية . أو جهات ذات أهمية خاصة . ما يهمه أولئك المعروفين بصلاتهم المشبوهة ، حياهم ، دعاهم إلى الجلوس . تحدث فى أمور عادية . الطقس ، درجة حرارة التكييف فى القاعة الرئيسية ، ميعاد انتهاء تركيب المصعد الجديد ، انقطاع التيار الكهربائى أحياناً . صعوبة الاتصال التليفونى بالضواحى.، ثم قوله عرضاً إن الأمور ستتحسن كثيراً بعد مرور وقت كاف على التغيير الأساسى ، وإتمام الصلح مع العدو . عندئذ يتمهل قليلاً ، وكأنه لم يقل شيئاً غير عادى ، ثم يستأنف حديثه ، الحقيقة أن الأمور لم تكن واضحة تماماً منذ البداية ، نعم ، إنه يقول ذلك بأمانة ، بصدق ، حقيقة بصدق ، إنه لا يخجل ، لا يخاف ، فى البداية كان متردداً ، بل سيقول ما هو أكثر . . لقد تشكك ، بل رفض العملية شكلاً وموضوعاً — مع مرور الزمن بدأ يقتنع ، بدأ يفهم . بدأ يدرك حقيقة اوضاع ، جاء اقتناعه على مراحل ، وهذا أعمق من التأييد الفورى ، كان يهز رأسه عند نهاية المقاطع وكأنه يؤكد لنفسه ما يقول قبل أن يؤكده لمحدثه . لاحظ أن أحد العاملين وله علاقة لا تخفى بجهات حساسة كان يصغى إليه صامتاً ، عندما استعاد ملامحه فى لحظات ما قبل النوم ، رأى ما لم يره فى نفس اللحظة ، رأى الشك والريبة ، فى اليوم التالى حرص على السعى إلى لقائه ، حرص أكثر على أن

يبدو اللقاء صدفة فى المصعد ، فى الممر ، أو عند مدخل الدار ، يبدأ الحديث بشكل عادى ، ثم يستأنف الموضوع . لكن بانفعال أكثر ، وتعبيرات أعمق ، غير أنه لم يلتق به ، اضطر إلى التجول فى ردهات الدار ، ودخول دورة المياه مرات ، الوقوف أمام المصعد ، الطلوع ثم النزول بدون هدف معين ، الإمساك بمقابض الأبواب وفتحها ، النظر داخل الغرف كأنه يبحث عن شىء ما ، خشى أن يسأل عنه حتى لا يخبره أحدهم فيدفعه ذلك إلى التفسير والتحليل ، تعاظم اضطرابه ، لكنه أصبح أهدأ حالاً بعد أن أتيحت له فرصة الحديث مع زميل آخر معروف بصلته الحميمة بدوائر أقل أهمية ، لكن الدوائر كلها متصلة ببعضها . .

— ٧ —

صوت هادىء ، يسمعه لأول مرة ، يقول انه مدير المكتب ، إنه يبلغه أسف المسئول الشاب لانشغاله فى مؤتمر هام ، لكنه يود أن يبلغه أمانيه ويطلب منه الاستمرار . .

— ٨ —

غريب ، يرتدى قميصاً أصفر ، يبدو شعر صدره ، غليظ الرقبة ، سلسلة ذهبية حول عنقه ، يمسك نظارة شمسية ذات إطار معدنى ، يومىء إليه ، يعتذر لأنه جاء على غير موعد ، بدون تمهيد ، إنه مقدم بقسم مكافحة أعداء الصلح . لم يشأ إزعاجه بطلب استدعاء ، أو حتى الاتصال به تليفونياً ، آثر القيام بهذه الزيارة الخاصة ، ثمة نقطة معينة يود الاستفسار عنها ، لقد شوهد يجلس مرتين فى المقهى النائى إلى زملائه القدامى ، تقول الشواهد ان الحديث كان حميما ، ينظر إلى الضابط ، فى نفسه مرارة وشدة ، يلفت نظره الوجه الناعم ، الحليق ، والراحة البادية ، والملامح التى أخذت كفايتها من النوم ، نفس السمات التى واجهها من قبل ، وإن تغيرت الشخصيات ، والظروف ماذ ؟ هل يتتبعونه فى الوقت الذى ينأى فيه ويبتعد ؟ هل بلغهم بعض ما قاله لزميله القديم ؟ هل أساءوا فهم تطرفه ؟ هل يأتيه الواقع بما يعاكس أهدافه الآن ؟ يبدو أنهم لم يعلموا بمقابلته للمسئول الشاب ، يعرف أن الأجهزة تعمل أحياناً بمعزل عن بعضها ، هل يوقعه سوء حظه فى المحاذير ، يعاود النظر إلى الضابط الأنيق ، إنه فى حدود الخامسة والثلاثين ، لم يكن قد حصل على الثانوية العامة عندما اعتقل للمرة

الثانية ، لابد أنه تلقى التدريب استعداداً لهذه اللحظات ، يقول إنه يود التحدث إليه كصديق . .

— ٩ —

س لا . . ليس من المعقول أن تنتهى الأمور إلى هذا الحد ، فى أوعر الظروف عندما كان منفياً بعيداً عن الدنيا العامرة ، فى قلب الصحراء المسكونة بالعقارب السوداء والثعابين . لم يتعامل معهم ، ازدراهم ، والآن يجلس إليهم ، ويقدم إليهم القهوة السادة ، لكنه لم يسع إليهم ، لقد اتجه إلى رجل سياسة ، المسئول الشاب علاقته سيئة بأجهزة الأمن ، ثم إن الضابط هو الذى جاء إليه ، لم يستدعه ، لم يتم اللقاء فى مبنى المباحث ، لكن كيف سمح لنفسه أن يقبل عرض الضابط بزيارته مرة أو مرتين فى الشهر ؟ برر ذلك وقتها بأن المسافة الزمنية طويلة ، وإن الضابط غير معروف ، ويجىء إليه ، لا يوجد زميل قديم فى المقر ، ولا يتردد عليه أحد ، أهم شىء إن اللقاء لا يتم فى مبنى المباحث . هذا سبب بدا له باعثاً على الاطمئنان ، استدعاه إلى ذهنه مراراً ، لكنه لم يهدأ ، لابد من تصحيح هذا المنعطف المفاجىء الذى لم يتوقعه ، لم يفكر فيه ، اتصل بالمسئول الشاب مرة ، مرتين ، ثلاث مرات . لم يجده ، كان مشغولاً فى عدة اجتماعات مع أعضاء حزب الأغلبية ، مشغول حقاً . أم يتهرب ؟ هل يرفض مقابلته لكنه يبدو أنه أساء الظن ، بعد أن اتصل أربعا وثلاثين مرة خلال ثلاثة أيام ، طلبه ، اعتذر بكثافة ، طلب منه أن يحضر فوراً . عند وصوله اعتذر السكرتير ، إن سفير الكاميرون بالداخل ، جاء لترتيب الزيارة المقبلة التى سيقوم بها ، ابتسم . . « باذن الله سيكون لك نصيب . . »

أحقاً سيصحبه ؟ أحقاً سيرحل ويشوف الدنيا ، أفريقيا الغابات والرقص والأقنعة الغامضة ، الخطوة القادمة إلى أوروبا ، سيهاجمونه ويشنعون به ، لكنه يعد الرد من الآن ، كعمله كمترجم فورى يقتضى ذلك ، لم يتنازل ، سيقول لهم ذلك . إنه ينتبه إلى مرور الوقت ، يبدأ فى قراءة الصحف الملقاة فوق المنضدة الدائرية ، يتخذ أوضاعاً مختلفة للجلوس ، يرقب من طرف خفى بعض الذين دخلوا وبعض الذين خرجوا ، يبدو السكرتير وكأنه نسى وجوده ، بعد أربع ساعات من الانتظار بدا المسئول الشاب مرهقاً .

« هل تناولت غداءك . . »

يهز رأسه .

« اذن لنمضى إلى البيت . . لنأكل اللقمة الموجودة »

إنه بمفرده ، الأسرة بالخارج ، لا يوجد إلا الطباخ ، تبعث الدعوة فى نفسه راحة ، تعنى خصوصيـة ما بينهـما ، إنه لا يتعـامل معـه على مستـوى سياسى وحسب ، بل إنسانى أيضاً . تجىء السيارة السوداء المزودة بالتليفون ، يتمنى لو أن الضابط رآه أثناء نزوله بينما المسئول يمسك بذراعه . . ، يتذكر زميله عامل المطبعة القـديم أن مسافـة أبعد تفصلهـما ، لا يهمه الآن استمـراره فى العمل السرى ، أو القبض عليه ، إذا كان هو وأمثاله لا يريدون الانتباه إلى الحياة الهادئة الممتعة ، فماذا بوسعه أن يفعل لهم . . ليحدث لهم ما يحدث . .

ـ ١٠ ـ

. . فى الصالة المدثرة بالظلال أبدى عدم اهتمامه بتردد الضابط قال إنه عمل روتينى ، بحت ، وطبعاً لا يخفى عليه ذلك وهو سيد المجربين . . ثم سأل ، هل عامله بما لا يليق ، هز رأسه ، بالعكس ، كان مهـذباً جـداً ، يبسط المسئول يديه . ألم أقل لك ؟ إنه إجراء عادى لا ضرر منه ، على أية حال يمكن الحد من تلك الزيارات ، أو وقفها تماماً ، إذا ما وافق على خطوة بسيطة . . لكن يجب ألا يسىء الفهم ، ألا يأخذ كلامه بأكثر من معنى ، إنه يقترح كتابة نصف صفحة يعبر فيها عن رأيه الجديد ، يبرز فى خـطوط عامـة تغير مـوقفه ، لمـاذا يقترح ذلك . . لابد من توضيح ، إن المستويات العليا تستمد معلوماتها من الأجهزة ، والملفات صماء لا تدرى بما يجرى داخل الإنسان ، لا علاقة لها بمناطق الظل التى تتداخل فيها الألوان ، إذن . . ما قيمة هذه الورقـة ؟ إنها تقطع الـطريق على الأجهـزة ، إنه يضمن لـه تصعيدهـا إلى أرفع مستـوى ، طبعاً . . هـذا مجرد اقتراح ، وموافقته أو رفضه موضع تقديره . فى هذه اللحظة دخل الطباخ سأل عن قهوة البك . قال إنه يفضلها مضبوطة ، صاح المسئول الشاب ، إنه يشربها مضبوطة أيضاً ، ياللصدفة ، إنهما متفقان ، ثم تحدث عن اضطرابات العمال فى بولندة ، واهتمامه بها ، إنه يهتم بمتابعتها لسبب لا علاقة له بالسيـاسة ، لأن بولندة أول بلد أوروبى زاره ، كان ذلك منذ خمسة عشر عاماً . قال إنه قرأ عن

جمال الطبيعة هناك ، قال المسئول الشاب متحمساً فجأة . . لا . . ليس الطبيعة فقط ، إنه روح البلد ، شخصية المكان ، توقف ، بدا غارقاً فى إجترار ذكريات بعيدة منعشة ، لم يشأ فض صمته ، لكنه قال بعد لحظات إنه سمع عن رحلة قريبة إلى الكاميرون سيقوم بها سيادته . .

ـ ١١ ـ

الآن ، ساعات نومه أقل .

يزعق لبواب العمارة لأنه نسى أن يدفع بصحف الصباح من تحت الباب ، كما اتفق معه ، ألم يعطه النقود مقدماً . لماذا يهمل الآن إذن ، يتردد صوته مرتفعاً ، بعد إغلاق الباب ، يلوم نفسه لأن الأمر لم يكن يستحق . .

يقترب منه موظف الاستعلامات ، يصافحه مستفسراً عن الصحة ، لم يرد فوراً ، إنما تساءل بينه وبين نفسه ، ماذا يقصد الموظف ، وهل من عادته أن يغادر مكتبه ليستفسر عن صحته . .

لم يكمل الرشفة الأولى من فنجان القهوة ، صاح منادياً عامل البوفيه ، هل أصابه الصمم ، طلبها مضبوطة ، مضبوطة وليست سادة ، لماذا يعانده عامل البوفيه . .

يمشى فى الشارع وداخله غضب مكظوم إنه يحمل عامل المطبعة القديم مسئولية ما يجرى له ، لو كف هو وأمثاله عن هذه الاستهانة ولفظ المتع ، لو أعلن كل منهم تأييده ، لما أضطر إلى أن يعانى ما عاناه . يدير قرص التليفون ، يتصل بأحد معارفه القدامى ، اقترض منه حقيبة سفر منذ شهور ، لم يعدها إليه ، لماذا ؟ وإذا كان يضمر نية الاستيلاء عليها ، لماذا لم يصرح بذلك ؟ إنه يريد الحقيبة فوراً ، ليتركها له فى استعلامات الفرع . .

يتذكر بكراهية عامل المطبعة القديم أثناء تناوله الطعام الردىء فى السجن ، ينهمك مستمتعاً به بدون أن يتأفف أو يضيق . .

ـ ١٢ ـ

. . يخفض الضابط صوته ، يتساءل عن سبب انقطاعه عن المقهى النائى ، يقول إنه لن يذهب إليه ، لا يرغب فى رؤ ية أحد ، انقطعت صلته بهذا المكان ،

يهز الضابط رأسه ، إنه يعرف ، يعرف ذلك جيداً ، ولكن ترديده عليه الآن لن يسبب له أذى ، إن الورقة التى كتبها تحميه تماماً ، لكن هل من السهل على الإنسان قطع علاقته بمن ارتبط بهم أحلى سنوات العمر . . ، يقول غاضباً إنه لم يعد يطيق رؤيتهم ، إنهم فى سكة وهو فى سكة أخرى . . يبتسم الضابط هادئاً . . ولو . .

— ١٣ —

لمدة أسابيع ، كان المسئول الشاب مشغولاً ، اتصل مرات ، تجاهل صوت السكرتير البارد ، وعندما ذهب فى بداية الأسبوع الثامن اعترضه موظف الاستعلامات ، إن مدير المكتب مشغول ومقابلته متعذرة ، سلم الموظف مظروفاً يحتوى على صور برقيات التأييد التى أرسلها ، ونسخة من الرسالة التى سجلها فى البريد مرتين . صور من إيصالات مكتب البريد الرئيسى . . ،

— ١٤ —

. . فى الصفحة الأولى قرأ خبراً عن سفر المسئول الشاب إلى الكاميرون على رأس وفد كبير للتصدى لمحاولات الدول المناوئة . أدار قرص التليفون ، رنين رنين ، رنين . .

— ١٥ —

إنه فى ضيق ، يود أن يتحدث إلى أى إنسان ، إن يفضفض ، لكنه عندما رأى الضابط فى انتظاره عند مدخل الفرع خطر له أن يصيح فى وجهه . أن يطرده ، أن يضربه ، لكنه مد يده مصافحاً ، ابتسم ، وكأن ما يجرى داخله شىء ، وما ينعكس على وجهه شىء آخر ، استدار ليصحبه إلى المكتب ، لكن الضابط استوقفه . إن تردده على الفرع يهدد بكشف شخصيته ، وهذا ضار جداً بالأهداف العليا . إنه يمد يده ببطاقة بيضاء تحمل اسمه ، يكتب رقم التليفون ، يقول باختصار حازم . . عندما تجىء ستبرز هذه لمدير مكتب الاستقبال . . . »

١٩٨٠

جمال الغيطاني

ثمار الوقت

محــاق

. . لم يسألني إذا كنت أعرف اسمه أولاً ؟ هكذا جنبني حرجا . بعد تطلعي إليه أكتفى بتساؤله .

ــ ألا تعرفنى ؟

قلت مبتسماً

ــ معقول ؟

حدث هذا أكثر من مرة خلال الأعوام الأخيرة ، أن التقى بشخص ما ، أعرف ملامحه ، قسماته عندى ، لكن يغيب الاسم عن بالى ، فى زمن فتوتى قال شيخ أجله على مسمع منى . أول ما يدرك ذاكرة الإنسان من عطب ، نسيان الأعلام . هل لحقنى ذلك ؟ . هل بدأ اندثار لحظات عشتها ، وغياب أشخاص يمثلون أمامى ولا أعرفهم مع أن حواراً جرى بينى وبينهم يوما ، ومعرفة امتدت واتصلت ، ألقاهم ، أراهم ، ولكنى لا أبصرهم بوعى ، عند وقوع ذلك أبادر بصياغة استفسارت عامة ، لعل بارقة تسطع عندى فأدرك ، هكذا بادرت قائلاً . .

ــ وأين أنت الآن ؟

لم تثر الإجابة تداعيا واحداً عندى . تتدفق العربات فى عرض الطريق ، إضطررنا إلى التقهقر خطوتين ، طلعت فوق الرصيف ، حاذانى ، أعرفه ، ملامحه مألوفة عندى ، فيها هدوء ، وفى عينيه استكانة ، شاربه قصير يعلو شفتين تبقيان شبه مضمومتين عند الحديث ، أعرف الوجه ، لكن خلا رصيدى ومخزونى مما يمكن أن أقارن به ، بدا ودوداً ، راغباً فى البوح ، قلت . .

ــ فى نفس المكتب ؟ــ لا . . نقلنا منذ سنة إلى شارع عدلى . .

ــ أمام البنك . .

ــ بالضبط . . أنت زرتنى فى المكتب القديم . .

خشيت أن يسألنى عن المكان القديم بدافع اختبار معرفتى به ، يقدم بعضهم على ذلك ، بل يلحون متسائلين : طيب ــ من أنا ؟ . أما هذا فبدا هادئاً ، أما أنه يصدقنى ، أو غير راغب فى إحراجى ، كنت أكبح حيرتى حتى لا تسفر عنها ملامحى . أى مكتب عنيته يا ترى ؟ متى زرته بالضبط ، ولماذا ؟ لأى غرض ؟ ، قال :

ــ الأيام تمر بسرعة . .

ــ نحن الآن فى أغسطس ، والله كان رأس السنة أول أمس . .

ــ كل شىء يجرى . .

لحظات صمت ، توقفت السيارات ، يمكننى الشروع فى العبور لكنه سألنى . .

ــ هل ترى نبيل مهران ؟

ــ على مدد متفاوتة . .

ضاقت عيناى ، قلت :

ــ آخر مرة منذ ستة شهور

قال متأسياً :

ــ ياسلام . . كنا لا نفترق . .

ياه . . عنى أو عنه ؟ أو ثلاثتنا معاً ؟ تبدو المناطق المعتمة من ذاكرتى مستعصية ، قصية عنى ، خشيت إحراج الرجل لو بدا منى ما يدل على جهلى

ونسيانى ، لا أعرف إلا الملامح فى مجملها . لكنها غير متصلة باسم ، بموقف ، بزمن خاص ، يسألنى :

ــ ما أخباره ؟

ــ من ؟

ــ نبيل

قلت إنه منطو ، وأنه غير سعيد بعد عودته من الخارج ، يبدو أن أموراً تغيرت عنده ، أشياء لم أقدر على تحديدها تماماً ، لكنه لم يعد ذلك الإنسان المنبسط ، المرح ، الذى لم يكن يكف عن السخرية حتى من نفسه ، الأغرب . . أننا بعد دقائق من اللقاء لم نجد ما نقوله ، فنضطر إلى إبداء الأعذار ، نفترق بدون الاتفاق على موعد تال . .

ــ تصور . .

قال متأسياً ، وهو يتجاوزنى بنظراته .

ــ إضطربت أموره بعد الطلاق . .

ــ ياه

ــ ألم يخبرك بانفصاله ؟

أقسم

ــ أبداً والله .

ــ ألم يخبرك عندما رأيته ؟

ــ لا

ــ متى قابلته ؟

نبيل مقر عمله قريب ، لا يفصلنى عنه إلا شارع واحد ، لكن نوبته تبدأ فى الثانية والنصف ، أى قبل انصرافى بنصف ساعة ، عملى مهارى أما هو فمسائى ، الحق أننى لا أذكر متى قابلته ، لكننى وحتى أمعن فى الحديث عن ثالث لا يتواجد معنا تجنباً للحرج .

ــ لازم تشوفه . . حالته كانت صعبة جداً . .

ــ وابنه ؟

ـ أظن مع أمه . .

ثم قال إن نبيل مقيم الآن فى فندق قريب من الدقى ، لم يعثر على شقة حتى الآن ، هذا صعب ، مكلف جداً الآن ، قال إنه ترك لها كل شىء ، قلت . .

ـ من رآهما لم يكن ليتخيل أبداً . .

ـ كل شىء يمكن فهمه إلا العلاقات الإنسانية . .

ـ خسارة . . إبنهما لطيف جداً . .

يبتسم ، يقول . .

ـ ألم تدر . . أصبحت جداً . .

تتزايد حيرتى ، حتى قوله هذا لم يخدش ذاكرتى ، كلما اتصل الحوار إزداد نأيا عنى ، أصبح جداً ، لكن من هو ؟ من ؟ صحت مداعباً . .

ـ يا عجوز . . أنجب ابنك إذن . .

ـ إبنتى

ـ لم تخبرنا ولم تدعنا . .

ـ والله تم كل شىء فى أضيق الحدود . . الولادة تمت فجأة . . ثم كيف نستدل عليك . . أسفارك كثيرة . .

ـ فى السنة الأخيرة . .

يقول :

ـ كان الله فى العون . .

تتوقف السيارات ، بعضها تجاوز الخط الأبيض ، أتطلع إلى أضواء المرور قلقاً ، أشير بيدى إلى اللاجهة . .

ـ ما تتفضل معنا

ـ كأنه أدرك رغبتى ، وعجلتى .

ـ خلينا نشوفك . .

طبعاً ، طبعاً ، تصاعد حماسى عند دنو اللقاء من نهايته ، لم أخط مباشرة ، إنما أحنيت رأسى إحتراماً ، لحظة عبورى التفت ، لم أر إلا مؤخرة رأسه وكتفيه . أدركت إلى أى حد بدا مهموماً ، مثقلاً ، وأن لهجته فاضت وداً ورغبة

فى القربى ، هل كنت فظاً عندما أنهيت اللقاء بدعوتى المحتوية على رغبتى فى المضى ؛ لكن . . الأهم من ذلك ، هل أدرك عجزى عن استحضار إسمه ، أو قبس من الفترة التى جمعتنا ، ليتنى أعرف . * * *

يوليو ١٩٨٨

عـنوة

. . بعد تحرك القطار مباشرة . بالضبط . . بـين محطة الملك الصـالح ، ومحطة مارجرجس ، فجأة ، صفعـة عنيفة ، تقيلة عـلى صدغ الفتى الـذى لم يتجاوز الثانية عشرة على أكثر تقدير ، هكذا قدر أحدهم فيما بعد عندما وصل بيته ولام نفسه لأنه لم يتدخل .

كان يقف قرب الباب المغلق ، صغير ، مرجوف ، عيناه تطلقان رعباً ، ويداه ممدوتان تجاه الركاب الذين لزموا أماكنهم ، فـوق أرض العربـة سقطت حقيبة أدوات رياضية التقطها أحد الثلاثة الذين أحدقوا به . لم ينتبه أحد إلى تقدمهم من مؤخرة العربة صوب الولـد . كان أولهم يـرتدى قميصـاً رماديـا وبنطلوناً ضيقاً ، يشده إلى خصره حزام جلدى عريض ، عريض الكتفـين ، مستنفر ، متأهب للمنازلة ، عدوانى الحضور ، عريض الذقن . أما الثانى فنحيل يرتدى جلباباً تحته فانلة تغطى ياقتها المستديـرة رقبته . أمـا ثالثهم فـأقصرهم مدكوك البنية ، لم يتجه بنظراته إلى الصبى ـ الذى تداخل فى بعضه وتلملم حول نفسه منتظراً ، راجياً الغوث ـ إنماأولى ظهره إلى رفيقيه ، يواجه الركاب الذين تطلعوا بدهشة ، وفضول حذر . .

يزعق أولهم

ـ إنطق يا ولد . .

ـ يرفع يديه ليتقى الصفعة التى بدت وشيكة . .

ـ مالك ومالى يا عم ؟

يمسك النحيل ، ذو الجلباب بشعره الغزير ، يلفه حول يده . .

ـ مالنا ومالك يابن الحرام ؟

يزعق الأول ، أليس من الحرام أن يدوخ أهله السبع دوخات ، أين كان طوال هذه المدة ، آه . . أين ؟

فيما بعد أدركت إمرأة موظفة فى التلفزيون أن هذه العبارات كانت موجهة إلى السامعين أكثر منها إلى الولد ، ولفترة طويلة لم يغرب عن بالها عيناً الفتى اللتان فاضتا رعباً . واستنجاداً بالقوم الذين تابعوا من أماكنهم ، لم تكن العربة مزدحمة ، وكانت بعض المقاعد خالية ، ليتها صرخت ، ليتها حرضت الجلوس . .

ترتعش شفتا الفتى ، تختلط ملامحه ، يقول إنه لا يعرفهم . .

صفعة ثالثة ، أقسى ، سيدة تحمل طفلاً تصيح . تطلب الرفق ، الولد صغير ولا يحتمل الضرب . يتطلع القصير إليها .

ـ خليكى فى حالك ياولية انت . .

الكلمات موجهة أيضاً إلى الكافة ، فيها نذير ، يستمر تساؤ ل أولهم عن المكان الذى كان فيه ، والشلة الفاسدة التى كان ملموماً عليها .

فيما بعد تذكر عامل بمصانع الحديد والصلب ، يسكن فى شبرا ويقطع الطريق الطويل إلى التبين يومياً مرتين ، تذكر أن ملابس الفتى وهيئته مختلفة عن مظهرهم ، أما ملامحهم فلا تمت إليه بصلة .

يتراجع الفتى بينما ينزل على مهل ، يوشك أن يتكور متداخلاً فى بعضه ، يكاد يقع على ركبتيه ، يتطلع إلى المحدقين بمصيره ، بحضوره الغض ، وعندما أمسك الأول بمعصمه إتجه إلى الركاب ، عيناه اتسعتا ، يجعر جعيراً مشروخاً

متصلاً ، يبدو قادماً من حشاه ، حتى بدا غريباً خروج هذا الصوت المرعوب ، المرجوف ، المستنجد ، يلطمه الأول على فمه مباشرة ، لكن الجعير لم يتوقف إلا لتتخلله كلمات ممزقة موجهة مباشرة إلى أقرب الجالسين فى مواجهته مباشرة ، رجل دين مسيحى يرتدى ملابس الرهبانية السوداء وكان يتطلع ممتعضاً . متألماً ، وإلى جواره رجل - ربما فى الخمسين - يرتدى ملابس بلدية . .

ـ يا عم لا أعرفهم . . والله لا أعرفهم . .

يزعق الثانى ، يبدو صوته مختلفاً ، محملاً بنبرة شكوى

ـ تعبت أهلك ودوختهم . .

يقوم عجوز عليه هيبة ، يفارق مقعده . تتعلق عينا الولد به . .

ـ إلحقنى يا عم . . والنبى يا عم . .

يقترب العجوز منهم ، يهم الفتى ولكن النحيل يحكم قبضته على شعره ، حتى يضطر الصغير إلى تولية وجهه صوب السقف ، عاضاشفتيه ، بينما تتقلص ملامحه لألم الشد ، وشمول الرعب ، يغالب محاولاً التطلع تجاه العجوز .

ـ والله لا أعرفهم ياعم . .

يصفعه الأول على فمه مباشرة .

ـ وتحلف كذباً .

يحول القصير ، المتحفز دون تقدم العجوز . .

ـ خليك فى حالك . .

يتساءل العجوز :

ـ مالكم وماله . .

يصيح النحيل مرتدى الجلباب

ـ ابن أختنا وأحرار فيه . .

يلتفت الأول .

ـ أسبوع ولا نعرف طريقه . .

إزاء إصرار العجوز ، يدفع القصيربأصبعين مشرعين ، مشدودين فى صدر الرجل ، يلتفت العجوز إلى الركاب ، تتوالى اهتزازات القطار . خاصة عند عبور العربات فواصل القضبان ، السرعة تخف تدريجياً ، تقترب المحطة ، فى

الخارج ضوء النهار خريفى شاحب ، والسماء تتأهب لغروب ثقيل ، يصيح العجوز . .

ـــ ما تلحقوا الولد . . الولد يضيع .

يصيح القصير ، الممتلىء . منفرج الساقين .

ـــ من يقترب سيعرف شغله يلوح بمطواه قرن غزال ، لا يدرى أحد متى أخرجها ، ومتى شهر سلاحها ، رسم بها نصف دائرة فى الهواء ، يكف العجوز عن التقدم يوشك القطار على التوقف ، تصل العجلات ، يمسك الأول والثانى بذراعى الفتى ، يحاول الفتى بالالتصاق بأرض العربة ، التشبث يثنى ركبتيه ، يلوى رأسه محاولا عض النحيل ، تتعاقب صفعتان .

يفتح الباب . .

فيما بعد أدرك أمين شرطة كان يرتدى الملابس المدنية ، ويجلس مرهقاًفى نهاية العربة أنهم لم ينادوا الولد باسم ، وأنهم لم يظهروا طيفاً من شفقة ، كانوا عتاة . وبدأ الصغير بينهم كالفرخ المبلول ، أدركه ندم ، لماذا لم يتدخل ، لكن . . « ماذا كان بوسعى أن أفعل ؟ »

يدفعانه محمولاً إلى الخارج ، يصبح الصوت المنبعث من الفتى غريباً ، لائذاً يائساً ، بدائياً ، يتناول ثالثهم الحقيبة أثناء تراجعه بظهره شاهرا المطواة ، كانت هناك فتاة تتأهب للصعود ، تراجعت لتفسح الطريق للثلاثة الذين حمل اثنان منهما الفتى ، الأول يصفعه معلناً أنه سيأخذه إلى أبيه ، وأن ما جرى لن يتكرر أبداً .

يتحرك القطار ، تلتقى عينا الفتاة بعينى الفتى ، تتشبث نظراته بها ، بينما يدفعونه محمولاً ، مفارقاً الرصيف ، والوقت !

* * *

يوليو ١٩٨٨

صنوه

. . بقيت الأسباب كامنة ، فلم تسفر الأيام التالية ، ولم تلح علامات ، لم يقف المتتبعون للأمر على تفاصيل دالة ، بقى الأمر حتى الآن فى إطا اجتهادات ، وتخمينات شط بعضها .

أمور كثيرة قيلت ، وأحداث أعيدت روايتها بطرق شتى ، وهمس جرى ، إلا أن سؤ الاً بعينه تردد . « من تصور أن هذا يحدث من خليفة أفندى . . من ؟ »

سنوات سبع أمضاها فى المؤسسة ، لم يثر مشكلة ، لم يصدر عنه ما يقلق ، ما يشين أو ما ينفر الخلق منه ، لم يسمع له حس ، ولم يزعق عند مخاطبة أحد ، لم يصدر عنه ما يقلق أو يشين .

تذكر مديحة العاملة بالبوفيه أنه لم يؤخر حساباً ، كان يبحث عنها قبل إنصرافه ليسدد حساب القهوة والشاى ، لم يتفوه بلفظ غليظ و جاف ، طوال مدة خدمته فى وجه أحد العاملين ، مع أنه عانى ضغطاً ليس بالهين ، فهو مدير مكتب مدحت بك رئيس مجلس الإدارة ، ومدبر أموره ، رأس اثنتين الأولى متزوجة والأخرى آنسة ، الأولى مسئولة عن تسلم البريد ، وتصدير المكاتبات ، والثانية

تقوم بفض المظاريف ، وترتيب الخطابات فى الملفات الخاصة بالعرض الفورى ، والحفظ ، أو تحويلها إلى جهات الاختصاص ، عدا ما كتب عليه « سرى » أو « خاص » أو « لا يفتح إلا بمعرفة سيادته » فهذا كله من شئون خليفة أفندى ، يتسلمها ويفتحها ، ويقدمها إلى سيادته ، أو يرد على ما يستحق العرض ، وهذا أمر يقرره هو لا غير .

كان يرتب المواعيد واللقاءات ، عنده ثلاث مفكرات مجلدة ، الأولى خضراء تتضمن كافة مواعيد المكتب ، والثانية بنية اللون تحوى المواعيد خارج المؤسسة والمناسبات التى يجب عندها إرسال برقيات تهنئة أو باقات زهور باسم سيادته ، والثالثة صغيرة حمراء فيها أمور خاصة جداً ، ويتردد أنها اختفت بعد الذى جرى .

كان يجىء قبل الجميع ، قبل أن يشرب كوب الشاى الذى يتناوله عادة على الريق قبل الإفطار يتفحص الصحف ، أى خبر عن المؤسسة يقصه ويلصقه بعناية على ورق أعد خصيصاً لذلك ، يتفحص صفحات الوفيات ، وأخبار المجتمع ، يصيغ برقيات التعزية أو التهنئة إذا لمح إسماً يمت إلى سيادته بوشيجة صلة ولو واهية ، أو إسم مسئول هنا أو هناك ، أما المناسبات الكبرى فلم يكن فى حاجة للنظر فى التقاويم المختلفة ، حفظها عن ظهر قلب ، وأعد لكل منها صيغة مغايرة ، لم يفته شىء ، ولم يقع فى هفوة .

كان هو المسئول عن تحديد معظم المقابلات ، يقلب الصفحات ، ينظر ما عنده ، ثم يدرج الموعد طبقاً لما يراه هو ، ويتولى إنهاء المقابلات التى تطول عن الحد ، وكان له فى ذلك طريقة خفيفة ، لطيفة ، كان يفتح الباب برفق هين ، ولا يتجاوزه يقف مبتسماً ، عندئذ يتطلع إليه البك ، متسائلاً ، مستفسراً ، فيقول والابتسامة مستمرة إن موعد فلان قد حان ، وأنه ينتظر فى الخارج ، هنا يتطلع سيادته إلى ضيفه . علامة على إنتهاء المقابلة . لوحدث أن الضيف تغافل عن الإشارة . يعود خليفة أفندى . يدخل الغرفة ، يقول بحزم إن وقت المقابلة أزف ، أو يذكر سيادته أنه عليه مغادرة المؤسسة بعد نصف ساعة ، أما إذا كان حريصاً على إطالة اللقاء ، فإن خليفة أفندى يدرك ذلك ، لم تكن هناك علامة ،

أو رمز ، أو إشارة متفق عليها ، إنما يتراجع خارجاً ، ولا يطرق المكتب إلا بعد إنسحاب الضيف المرغوب ، الغريب ـــ كما أكدت زميلته ذلك فيما بعد ـ أنه كان يقوم واقفاً ، مدركاً بشكل ما انتهاء المقابلة ، وأن وقوفه وتأهبه كانا قبل سماع صوت سيادته عند توديع الضيف ، أو رؤ يته تأهب الساعى بدير فى الممر ، أو مرور الضيف بالمكتب عند انصرافه إلى المصعد المجاور لغرفة السكرتارية ، لا يمكن لأى إنسان الوصول إلى المكتب الرئيسى إلا إذا مرّ من هنا ، كان خليفة أفندى يدرك حركة البك داخل الغرفة من موضعه ، كان شيئاً خفياً ينبئه ، أو ينبهه ، إذا قام البك إلى دورة المياه الصغيرة الملحقة فإن خليفة ينتبه مصغياً ، يقف وعندما يجلس يقول لزميلته . « خرج الآن . . »

ويتطلعن إليه بدهشة ، لكنهن لم يسألن ، ولم يستفسرن !

لم يكن ممكناً لأى زائر ، سواء من العاملين بالمؤسسة ، أو القادمين من خارجها أن يتقدم بمفرده ، يسبقه خليفة أفندى ، يفتح الباب ولا يخطو ، ينتظر ولا يتقدم ، يفسح للضيف ، يعلن اسمه ، تلك هى المرات الوحيدة طوال النهار التى يسمع فيها صوته ، يبدو وكأن شخصاً آخر يصيح من داخله . ذلك أنه كان خافت الحضور ، هادئاً ، يمشى بلا ظل يلمح ، أو وقع خطى يسمع ، يظهر هنا أو هناك ، فكأنه لم يأت ولم يول ، مع أنه يميل إلى امتلاء ، غليظ الرقبة ، مضغوط القامة ، أما وجهه فمتساوى الملامح ، فى عينيه استسلام دائم ، وأحياناً يبدو كأنه على حافة بكاء ، أو شكوى طويلة .

لا يمكن لمخلوق مهما اقترب منه الإصغاء إلى صوته عند حديثه فى الهاتف ، لطالما حاولت زميلتاه ، خاصة نوال الأقرب إليه ، كن يطرقن أذانهن وهن يبدين التشاغل ، لكن عبثاً . . ما من لفظ ، ما من علامة ، فيما بعد قالت السيدة إقبال . وهى أقدم من نوال بثلاث سنوات أنها اطلعت على المفكرة الخضراء ، والثانية البنية ، لكن الحمراء لم ترها إلا عند تقليبه صفحاتها ، لم يحدث أن غفل مرة واحدة وتركها فوق المكتب ، كان حريصاً جداً عليها ، تؤكد أنها خاصة بمواعيد مدحت بك الخاصة جداً ، كان خليفة أفندى يتولى متابعتها ، وأحياناً ترتيبها ، وضمان عدم التعارض فيما بينها ، بل قالت وأكدت أنه كان يقصد

المكان الذى ستتم به الخلوة ، فيرتبه وينظمه ، باختصار يهيىء القعدة ، هذا ما قالته السيدة إقبال والله أعلم !

فلم تبد أى شواهد على علاقات مدحت بك النسائية ، أو آثاره بعد أن جرى ما جرى .

كتوم جداً خليفة أفندى ، لم يفصح أبداً . لا تذكره الآنسة نوال إلا فى وضع الإجابة ، مع أنه دائم الاستفسار عن البريد ، عن الوارد ، عن الصادر ، عن دقة التوقيعات ، قالت لإحدى الموظفات فى إدارة المتابعة إنها لم تلمح منه ما يكن صدره عن رجل تجاه إمرأة . عندما التحقت بالعمل أضمرت هماً محوره الحذر والخشية من البك ، سمعت عن جرأته الغريبة ، وغرابة أطواره ، حتى أنها تخيلت ردود أفعالها إذا قام فجأة واحتضنها . أو أمسك بثدييها ، أو لفظ كلمة فاحشة ، أو عرض عرضاً غير لائق ، لكنها بعد فترة نزل بها إطمئنان ، الحق يقال إن خليفة أفندى جنبهن الاتصال أو الاحتكاك المباشر بالبك ، لم تدر أهوترتيب مسبق بينهما ، أم أنه قصد ذلك ، طوال سنوات خمس لم تدخل إلا مرات معدودات ، حدث ذلك عندما اضطر خليفة أفندى إلى القيام بأجازة ، عجيب أمره . . طوال مدة عملها لم يتغيب إلا مرتين ، وفى كلتيهما كانت أجازة مرضية . .

يؤكد ذلك حلمى المسئول عن الأجازات فى قسم المستخدمين ، والمعروف عنه الدقة البالغة ، وحرصه على ارتداء حلته كاملة شتاء وصيفاً . حتى فى عز الحر ، قال حلمى إن رصيد أجازاته كان يرحل من عام إلى عام كاملاً غير منقوص ، وعندما صدر قرار إلغاء عملية الترحيل هذه ، كان يلتقى به صدفة ، أو عند انصرافهما فى الثانية والنصف ، كان يبدأ قائلاً . .

ـ كيف أحوال مدحت بك ؟

يجيب خليفة أفندى .

ـ الحمد الله . .

ـ هل سيقوم بأجازة قريباً ؟

ـ ربما . .

عندئذ يقول حلمى . .

ــ رصيدك بخيره . . يا رجل خذ لك يومين . .

فيجيب

ــ والله المشاغل كثيرة .

كان يعود بمفرده بعد الظهر . فى الخامسة والنصف تماماً ، سواء جاء البك أو لم يحضر ، يبقى بمفرده فزميلتاه تعملان نهاراً فقط .

ما بين انصرافه وعودته ثلاث ساعات لا غير ، حتى تساءل البعض . خاصة من حراس الأمن الملازمين للبوابة ، كيف يمكنه الذهاب وتناول الغذاء والراحة ثم العودة ، مع زحام المدينة ، وصعوبة المواصلات . لم يدر أحد مكان سكنه . قال أحدهم إنه على مقربة ، وأن بيته لا يبعد إلا ناصية واحدة ، أى أنه يسكن وسط المدينة ، فى شقة صغيرة . من حجرة وصالة فوق سطح عمارة قديمة يمتلكها تاجر قبطى من الصعيد ، وأنه يعيش بمفرده . ويأكل فى مطعم صغير بجوار سينما أوديون ، وأن اضطراباً حل به خلال العامين الأخيرين ، بعد موت صاحب المطعم وتحوله إلى معرض لبيع بطاريات السيارات الجافة . وأنه شوهد مرات يمشى كالتائه وقت الغداء . ولم يعرف أحد إلى أى مطعم مضى واستقر ، أكد ما قيل إفضاؤه يوماً إلى زميلته إقبال ، عن عيشه بمفرده ، بعد انفصاله المبكر عن زوجته التى لم ينجب منها إلا إبنة واحدة فقط يراها مرة لا غير كل أسبوع ، ولمدة ساعتين . أما ما قيل عن إنجابه إبناً توفى فى الثالثة مما أورثه هذا الحزن البادى ، فلم يتأكد ذلك .

لكن آخرين أكدوا أنه كان يسكن ضاحية بعيدة ، وأنه شوهد يركب قطار المرج ليلاً ، وينزل فى عزبة النخل ، أما الساعات الثلاث فاعتاد أن يقضيها داخل مقهى ناحية باب اللوق ، ينزوى فى ركن قصى يتضاءل عنده الضوء النهارى ، يقل الرواد فى مثل هذا الوقت ، يشرب الشاى أو القهوة . وبعد إغلاق المطعم كان يصحب معه رغيفاً وأقراص طعمية ، أو قطعة جبن ، أو سمك بياض مقلى .

موظف بالإدارة الخارجية قال إنه رآه فى المقهى ، لم يلحظه ، وأن المعلم استقبله بترحيب وأنه سأله بمجرد رؤيته . .

ـ البك فى مصر ؟

ـ فى مصر يا سيدى . .

تقدمه المعلم إلى المنضدة التى اعتاد الجلوس إليها ، كان يبدو سعيداً بالاهتمام به ، بكوب الماء الذى وضع أمامه قبل أن يبدأ الأكل . وعندما مال عليه المعلم هامساً هز رأسه مرات ، من يدرى . . ربما يطلب خدمة يمكن للبك أن يقضيها له .

هل كان يقيم فى وسط المدينة ، أو فى الضاحية ؟ لا أحد يدرى لأنه لم يخبر إنساناً . أما الأستاذ منسى مسئول الملفات فى المستخدمين ، قال فيما بعد إن عنوانه المدون لفندق فى منطقة الحسين ، يقيم فيه منذ انفصاله . ويدفع إيجاراً ثابتاً أول كل شهر . لذلك حصل على تخفيض كبير ، لكنه قال أيضاً أنهم لم يضطروا أبداً إلى إرسال أى خطاب إليه طوال مدة خدمته . لم يكن هناك مبرر ، لهذا لا يمكنه القطع إذا كان الفندق مكان إقامته عندما حدث ما حدث .

هل كان متزوجاً ؟

مؤكداً . .

هل كان منفصلاً عن إمرأته ؟

لا شك فى ذلك .

هل كان والداً لطفلة ؟

نعم . . مع أنه لم يتحدث عنها إلا نادراً ، لم يشد بذكائها ، ولم يتحدث عن تفردها ، أو تفوقها فى المدرسة ، كما يرددمعظم الآباء ، فيما بعد أدركت الآنسة نوال أنه كان يحتفظ بصورة لها فى حافظته . وفى الدرج الأيسر ، والأخير عثروا عليها أثناء عملية الجرد النهائية ، وعت أيضاً ـ لكن متأخرة ـ بهجته وخفة حركته ولطفه كل يوم سبت ، رغبته فى تلبية ما يعرض عليه ، ما يطلب منه ، تكرار مداعباته للساعى العجوز ، لا تدرى كيف علمت بلقائه ابنته كل جمعة ؟ لم

يفض إليها لكنها أدركت أنه كان يستعد لهذا اليوم ، ويشترى حلوى ، ولعباً ويمضى إليها .

لامت نفسها . كيف لم تلحظ ذلك ؟ لماذا لم تسأله عن ابنته ؟ ، لم تر فيه إلا ظلاً لمدحت بك ، عندما تصل تسأله عما تبقى على مجىء البك . إذ يخرج من عنده تتعلق نظراتها به فى انتظار ملحوظة قالها البك ، تبحث فى ملامحه عن غضب البك ، أو رضائه وانبساطه ، وعما إذا كان ثمة عمل سيؤدى ؟ لم تنظر قط فى ملامحه باعتبارها قسماته هو ، أو رؤ ية حالته باعتبارها انعكاساته داخله هو ، لا هى ، ولا زميلتها ولا أى شخص فى المؤسسة كلها ، صغر أو كبر ، كلهم كانوا يبادرونه عند مقابلته باستفسار تتنوع كلماته ولا يتغير مضمونه ، أن كان على سفر فأول ما يسمعه

ــ متى سيرجع مدحت بك ؟

وإذا كان موجوداً .

ــ البك عنده سفر قريب ؟

عند ذهابه إلى الإدارات ، والأقسام ، يبادره المديرون ، والموظفون .

ــ مدحت بك مشغول اليوم ؟

تعجب الآنسة نوال ، كيف لم تنتبه . كيف ؟ ، تستعيد هذا الصباح البعيد ، بدا غامقاً ، شارداً ، عليه غم ، لم تسأله ، لم تستفسر عما به ؟ ، تذكر أبداءها الملاحظة لزميلتها الست إقبال ، إن خليفة أفندى على غير عادته ، إجابته أن البك ربما قسا عليه ، أو أسمعه ما لا يرضيه ، فى هذا اليوم جاء مدير الإدارة الفنية ، لحظة دخوله قال قبل أن يصافحه . .

ــ كيف أحوال مدحت بك ؟

إنها المرة الوحيدة التى رأته يرفع فيها عينيه . منهما أطل قدر غير هين من ألم ، من ضنى ، من عتاب ، من لوم ، وبغض أيضاً ، تسترجع هذه النظرة فترى فيها ما لم تره لحظتها . لكم بدا متألماً . لكنها لم تستفسر ، حتى عندما نزل على غير عادته وغاب لمدة نصف ساعة ، ثم رجع بلفافة ورق عليها اسم الصيدلية

القرية ، راح يفرد محتوياتها من زجاجات صغيرة ، وأقراص فى شرائط معدنية ، يقارن المكتوب فى النشرات الصغيرة المطبوعة بما دونه الطبيب ، تحدث عبر الهاتف مرات ، فى إحداها ارتفع صوته ، ونادراً ما يحدث ذلك . .

ـ والنبى خذى بالك من مواعيد الدواء . .

ظنت الأمر متعلقاً بإحدى قريبات البك ، كان من الطبيعى اتصال أسرة مدحت بك به . كان يلبى بعض أمورها ، أو يسهم فى إنهاء إجراءات تتعلق بالزوجة ، خاصة عند السفر ، أو الحصول على تأشيرات من السفارات الأجنبية ، أو مراجعة محل تخزين الفراء فى وسط المدينة ، أو تدبير الحجز عند طبيب ما .

لم تدرك فى حينه أن تلك الآلام البادية تخصه هو ، بدا لها مقطوعاً دائماً عن كل صلة . حتى عن ذاته هو .

يقول عم يحيى . الساعى النوبى العجوز ، الذى يقضى مدة خدمة استثنائية بقرار خاص من البك ، أنه لم يستقبل أى زائر فى مكتبه . عدا مرة واحدة ، مرة لا غير ، كان ذلك فى أحد الأعياد ، الكبير أو الصغير ؟ لا يذكر أى العيدين ؟

فى المناسبات يقوم العاملون بأجازة . باستثناء عدد محدود يتم اختيارهم من قبل مديرى الإدارات الرئيسية ، لتسيير الأعمال الضرورية . خليفة أفندى لم يقم بأجازة قط ، كان يجىء فى موعده ويمكث منشغلاً بترتيب أوراق ونظر فى ملفات ، وتدوين ملاحظات ، عادة يسافر البك فى الأجازات إلى قرية مراقية التى امتلك فيها بيتاً صغيراً مطلاً على البحر مباشرة ، يبدو خليفة أفندى حائراً ، لا يطيل المكث فى مكتبه ، يتردد على دورة المياه العامة فى نهاية الممر أكثر من المعتاد ، يمشى ذهاباً وإياباً ، يداه وراء ظهره ، متوقفاً بين لحظة وأخرى ، مطلقاً آهة قصيرة ، أو صوتاً يدل على تعجب ودهشة ، فى البداية ظن عم يحيى أنه شروع فى محادثته ، كان يتأهب ، ولكنه يواجه بصمت مدجج بشرود عظيم ، اعتاد منه ذلك ، ولكن فى أيام العمل المعتادة كان يتحرك بسرعة ، بنشاط ، لا يلتفت يمنة أو يسرة ، هذا حاله مادام تواجد البك .

فى يوم العيد هذا فوجىء عم يحيى بخروجه من المكتب ، وقوفه أمام المصعد ، شك فى وصول مباغت للبك ، قام مفارقاً مقعده .

ــ البك طالع ؟

تطلع بعينين فيهما سطوع وألق وافد . غريب عليه .

ــ لا . . واحد صاحبى . .

استبد فضول بعم يحيى ، لم يسبق أن رأى صاحباً له أو قريباً ، وعندما توقف المصعد ، أسرع خليفة أفندى يفتح الباب .

ــ أهلاً . . أهلا . .

أحاط ضيفه بذارعيه ، حتى أن عم يحيى لم يتمكن من رؤ يته فى اللحظات الأولى ، تحقق من ملامحه عندما انفصلا ، بقى خليفة أفندى محتفظاً بيد ضيفه ، فارداً ذراعه ، مشيراً إلى المكتب . .

ــ تفضل .

كان الضيف قصيراً ، ممتلئاً ، مماثلاً تماماً لقوام خليفة أفندى ، بل أن خطوهما بدا متشابها .

قال عم يحيى إنه حرص على إبداء أقصى علامات الاحترام للرجلين ، حتى يبيض وجه خليفة أفندى أمام ضيفه ، سأل عما يريده البك . شاى ؟ قهوة ؟ فيه عصير ليمون أيضاً . .

بدلاً من الإجابة ، أشار خليفة أفندى إلى صاحبه ، قال إنه رفقة عمر ، وأنهما خدما فى الجيش معاً ، منذ سنوات طويلة لم يلتقيا ، سنوات طويلة جداً ، عمر بحاله . .

جاء الساعى بالصينية ، والأكواب والفناجين التى تقدم للبك نفسه ، قام بكافة أصول الخدمة ، ثم انسحب بهدوء ، فى أيام الأجازات يعمق الصمت ، ينزل هدوء ، وتأتى أصوات من بعيد ، شاحبة ، واهنة ، لكنه لم يستطع الإصغاء إلى حوارهما . وعندما دخل ليأخذ الفناجين الفارغة ، سمع الضيف يسأل . .

ــ وبدوى . .

ــ سافر ؟

ـ سافر . . إلى أين ؟

أظن إلى البحرين . . أو . . قطر . .

فى المرة التالية عندما دخل حاملاً كوبين من عصير الليمون ، رأى صمتهما ، كل منهما يحدق إلى جهة مغايرة ، لحظة أن أولاهما ظهره ، سمع خليفة أفندى يقول . .

ـ كانت أيام . .

عند انصراف الضيف تقدمهما ، ضغط زر المصعد ، خبط الباب مرتين ، نادى ، حتى يغلق أحدهم الباب المفتوح هناك ، تحت ، تبعه خليفة أفندى ، سأله عم يحيى . .

ـ سترجع يابك ؟

قال إنه بدا مبتهجاً عند عودته ، راغباً فى الحوار على غير عادته ، حتى أنه سأله عن أحواله ، عن أسرته ، متباهياً بصاحبه ، قال بدون مناسبة إنه ابن ناس طيبين ، صمت لحظات ، ثم قال إن مثله لا يعوض ، طال سكوته وعم يحيى مازال واقفاً . لفظ كلمة واحدة لم يدر الرجل كيف يجاوبه ، أو كيف يعلق عليها . .

ـ دنيا . . !

بعد أن جرى ما جرى ، روى عم يحيى لبعض زملائه ، كيف تعرف خليفة أفندى إلى البك ، إنه الوحيد الذى حكى تلك التفاصيل ، قال إن والده كان ممرضاً عند البك الذى كان طبيباً مشهوراً ، فالصلة قديمة ، يبدو أن خليفة ترك عمله فى مصلحة التحاليل الوقائية لسبب ما لم يطلع عليه ، سعى والده قبل وفاته بعام واحد . وكان للبك مديرة مكتب جميلة ، عملت معه منذ أن كان مديرا عاما فى الوزارة ، قبل تولى المؤسسة ، لكنها تزوجت ، واشترط عليها رجلها ألا تعمل ، فرضيت واستقالت . ولأن البك لا يثق تماماً فى الموظفات الأخريات ، لهذا رضى بتعيين خليفة ، يقال إنه اشترط عليه أموراً عديدة ، لا يعرف تفاصيلها أحد ، وأنه بعد أسابيع لا غير رضى عنه لتفانيه ، ولتفرغه الملتزم .

كان ذلك منذ سبع سنوات . قبل هذا اليوم الذى لم ير عم يحيى أسود منه عبر عمره الطويل . أى منذ أربعة وأربعين عاماً ، إنه أول من رأى . .

يؤكد زكريا موظف الاستعلامات أنه سمع بأذنيه صباح ذلك اليوم رد خليفة أفندى رئيس شئون الأفراد عندما قابله عند المدخل ، وأقبل محيياً . سأله عن أحوال البك ، عندئذ زعق غاضباً . .

ـ يا أخى اسألنى عن نفسى . .

ثم مضى إلى المصعد ، غاضباً ، مطأطئاً ، يقول زكريا معلقاً إنه لوتنبأ بما سيجرى بعد ساعة واحدة لكان له تصرف مختلف ، لكن من كان يتصور ، من ؟

قالت الآنسة نوال أنه بعد هذه المكالمة بقى كابياً ، محمر العينين ، صامتاً ، لا يقلب ولا ينظر إلى أوراق . وأنها سمعته يعلو بصوته أثناء حديثه الهاتفى . .

ـ إذن . . بيننا المحاكم . .

قال عم يحيى . إنه عندما سمع الصرخة ، هى واحدة لا غير ، ثاقبة حادة ، لم يصدق ، قام من مقعده فى الممر منتفضاً ، اندفع إلى الباب مباشرة ، توقف مرة واحدة ، معقول . . معقول ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، البك فوق المكتب ـ منكفىء ، ظهره يكبكب دماً ، أما خليفة أفندى فانحنى فوقه ، ويداه ممسكتان بمقبض خنجر . أو سكين . . لا يدرى بالضبط ، غرسه فى موضع القلب منه تماماً . .

* * *

يوليو ١٩٨٨

طـلة

أرق ولم ينـم إلا وقتاً قصيراً بعد الفجر . . فى الصباح ، أول المستيقظين ، على غير العادة أيام الزيارات بدأ نشيطاً . مرحاً ، راغباً فى المحاورة ، ساعياً إلى الصلة ، رتب فراشه بعناية ، بسط الملاءة مرتين حتى رضى عن منظرها ، وقبل تناوله الإفطار مضى إلى الحلاق فى العنبر المجاور ، لاحظ زميله تغير هيئته . .

ــ كأنك عريس . .

تطلع إليه ولم يفصح ، لم ينطق كلمة ، وإن لاحت فى عينيه النظرة الشاردة التى تلوح عند بدء نـوبات صمتـه الطويلة ، والتى تتخـذ خلالهـا عيناه هيئـة زجاجية ، وتزم شفتاه ، ينزل بينه وبين الموجودات ستار مُصمت ، إلا أنـه لم يقبع ، ولم يتجه إلى النافذة الضيقة التى تتخللها ثلاثة قضبان حديدية ، إعتاد التطلع عبرها خلال وقت الزيارة إلى الفناء المنبسط ، المؤدى إلى الباب الرئيسى ، بعد تناول الإفطار جاء الممرض ، جال بعينيه فى أنحاء العنبر ، هذا يعنى ضرورة البدء فى الإعداد ليوم الزيارة ، أى ترتيب الأسـرة والحاجيـات ، كنس العنبر ورشه ، نفض التراب عن الجـدران ، تنظيف الـدورة ، رص المقاعـد ، فرد المنضدة المستطيلة وتغطيتها بملاءة بيضاء ، وتعليق لوحة مستطيلة ، كتب عليها آية قرآنية . « . . فيه شفاء للناس . . »

حروف مذهبة . الخلفية سوداء .

عـادة يبدى نشـاطاً زائـداً قبل بـدء الزيـارة ، ينوب عن المـرضى الذين لا يستطيعون الحركة ، أو الذين تناولوا جرعات إضافية من الأدوية المهدئة ، وجلسوا فى أسرتهم أو تمددوا ، محملقين إلى الفراغ ، حتى أن بعضهم يقضى حاجته مكانه . منهم من لا ينتبه إلى الزوار ، الـذين يحيطون بهم طـوال مدة بقائهم ، يتحدثون فيما بينهم ، ويتناقشون فى أمور شتى ، ويوصون المرض خيراً بأقاربهم ، ويدسون فى يده ما تيسر ، وفى نهاية اليوم يتركون ما جـاءوا به من طعام ، أو حلوى ، أو ملابس ، وبعد انصرافهم مبـاشرة ، يـدخل الممـرض ليجمع هذا كله ، حتى ما يتركونه خفية للمرضى من نقود أو هدايا صغيرة يمكن سترها .

اليوم راح وجاء ، كنس العنبر كله ، أبدى عناية خاصة بـالفراغ المحيط بسريره . نـظف الجدران . نفض التـراب عن النوافـذ الضيقة ، المـرتفعة ، المفتوحة ، والتى يسدلون عليها بعض الملاءات والبطاطين القديمة فى ليالى الشتاء الصعبة .

هذا حاله ، أن يبدى الهمة ، ومع اقتـراب وصول الـزائرين يـأوى إلى قعـدته ، إذا نـاداه أحدهم لا يجيب . لا يتنـاول غذاءه ، ويـأوى إلى فراشـه مبكراً . وفى الليل يسمع منه نحيب مكتوم . .

ثلاث سنوات وشهور ، لم يزره أحد ، لم يطل عليه إنسان ، حتى عـرف بذلك ، وعدد آخر فى العنابر الأخرى . إلا أنه ضـرب به المثـل بين المـرضى والأطباء . إنه الوحيد ، المقيم هنا منذ وصوله ، لم يأته أى مخلوق ، الآخرون جاءهم البعض مرة أو مرتين . حتى قيل إنه مقطوع من شجرة ، ولا أهل له ، فردانى ، وعلى العكس من ذلك قيل إنه من عائلة كريمة ، وإخـوته فى مـراكز مرموقة ، أحدهم فى الخارج ، والثانى يشغل منصباً هاماً فى الداخل . وله شقيقة طبيبة ، لكنهم مشغولون عنه ، آيسين منه ، فمرضه طويل ، قـديم ، لكنهم يوصون أطباء المستشفى خيراً به ، وربما فسر ذلك مداعبتهم له عنـد المرور ، وحنو الطبيب الشاب عليه .

كل هنا متداخل فى نفسه . منشغل بذاته أو بمالا يدريه آخر ، تنقضى أوقات طويلة على بعضهم . وربما تتجاوز الأسبوع ، بدون لفظهم كلمة ، ولكن تحدث أحياناً انفجارات مفاجئة بدون مقدمات أو انذار ، حدث أن صاح ذلك الطالب الذى كان جامعياً . زعق بأعلى صوته . . .

ـ بص إلى نفسك . وأنت مرمى هنا لا يسأل عنك أحد . .

فوجىء الجميع برد فعله ، إذ حملق بثبات مريب إلى الطالب الذى بدا عليه الحذر ، خاصة عندما ارتفعت يداه مبسوطتان ، متصلبتان ، منفرجتا الأصابع ، خيل إليهم أنه سيندفع تجاه الطالب ويطبق على عنقه ، لكنه رفعهما إلى أعلى ، تجاه نفسه ، لطم خديه ، أول مرة بقوة ، بعنف ، ثم صك وجنتيه صكاً مدمياً ، موجعاً ، بادئاً فى جعير نابع من بئر الحشا ، متألم ، وحشى ، فيه شكوى واحتجاج واستغاثة ، قم أقعى على قدميه مردداً ، صارخاً . .

ـ آه يا ابويا . . آه يا أنا . .

فوجىء الجميع ، الراقدون ، الواقفون . من على مقربة . ومن يقبعون فى العنبر القريب ، ولشدة عويله وحرارة ندائه ، تبعه آخرون فعلاً صراخ جماعى ولم يهدءوا إلا عندما لاح الممرضون عند مدخل العنبر ، أمروهم أن يلزموا أماكنهم . لا صوت . . فسكتوا . . ليلة كاملة لم يهدأ نشيجه سعى إليه الطالب .

ـ سامحنى ياأخى . . لم أكن أقصد . .

لوح بيده ، حركة طفولية ، تنتمى إلى بدايات العمر .

ـ سامحتك يا أخى . . سامحتك . .

تساءل الطالب :

ـ لكنك تبكى .

أشاح بوجهه تبدلت ملامحه لنقل ما حط عليه من ألم ، اقتربت هيئته من تلك اللحظات التى تنتابه خلالها نوبات الصرع الحادة ، المباغتة . قال . .

ـ أبكى على نفسى . . على حظى يا أخى . .

ثم كرر . .

ـ سامحتك . . سامحتك والله . .

وانحنى مغيباً ملامحه ، لعدة أيام تالية أبدى الطالب حذراً ، يتحرك بعيداً عنه ، غير أنه لم يبد غضباً ، بدا ذاهلاً عنه ، منقطعاً . دام أمره أربعة أيام ، لم يقل لأحد صباح الخير ، مع قيامه بما يطلب منه ، مهام نظافة ، ملء أوانى المياه ، حمل الطعام من المطبخ إلى العنبر ، لكنه لم يفه لفظاً ، لم يبد انفراجة ، حتى جاء الطبيب الشاب الذى التحق بالمستشفى منذ تسعة شهور ، أبدى اهتماماً به حتى أنه داعبه أحياناً ، يبدو أنه علم بما جرى ، بعد مروره المعتاد ، إقترب منه ، اصطحبه إلى الخارج ، عند باب العنبر رأوا بأعينهم ذراع الطبيب تحيط كتفه ، لم يسأله أحد عما جرى بينهما ، لكنه فى اليوم نفسه نطق ، وجاوب الآخرين ، وإن لاح ظله كابياً ، غامقاً فى نظراته . .

اليوم ، يبدو وكأنه بدل تبديلاً ، دار فى العنبر مستفسراً ، هل يحتاج أحد إلى قضاء حاجة ؟ . ملأ دورتين بالمياه . وطارد ذباباً حام فى الفراغ وحط على وجوه بعض المرضى .

قرب موعد بدء الزيارة اتجه إلى المدخل ، يؤدى إلى صالة مربعة رمادية الجدران ، مرتفعة السقف ، يطل عليها باباً العنبرين الآخرين ، تتوسطهما مائدة مستطيلة من الصاج ، تغطى اليوم فقط بمفرش أبيض نظيف . .

ممنوع تجاوز الأبواب إلى الصالة التى يجلس فيها الممرضون ، ليلاحظوا الزائرين ، وليراجعوا التصريحات ، وليراقبوا أيضا الهدايا التى يجىء بها الأهل والأقارب ، معظمها يئول إليهم بعد إنصراف الزوار . . حتى النقود التى سلمها الأهل إلى المرضى فيجمعوها قبل إغلاق العنابر ، أحياناً يقومون بتفتيش المرضى ، والويل لو اكتشفوا قروشاً مخفاة ، إن عقاباً ثقيلاً يلحق المريض عندئذ ، بدءًا من الضرب ، وحتى حقنه بمادة مخدرة تلقيه طريحا لا يعى مدة ربما تتجاوز يومين ، هى فى الأصل علاج يستخدم عند حالات الهياج الشديد ، أو الاضطراب الصعب .

أول من وصل اليوم المرأة القصيرة ، البدينة ، التى تجىء فى نفس الموعد ، إذ تصل فى قطار التاسعة ، وتستغرق خطواتها البطيئة المتثاقلة حوالى الثلث ساعة ، من المحطة إلى المستشفى ، ثم قطع الفناء الطويل الذى تتخلله

شجيرات قصيرة متشابهة ، يقال إن الانجليز زرعوها فى زمن الحرب الأولى أثناء إدارتهم ، إنها تجيء فوق رأسها قفة صغيرة فيها جبن وأرغفة ولحم ، وفاكهة الموسم . تصافح أولاً ممرض العنبر ، تدس فى يده ما فيه النصيب ، ثم تمضى إلى إبنها الذى يرقد فى نهاية العنبر ، أحياناً يراها قادمة فيبدى غضباً ، ويدير ظهره ، تقعد عند حافة السرير ، تربت ظهره ، تداديه ، تعتذر إليه عن أمور لم تأتها . تطعمه بيدها ، تلملم ثيابه المتسخة ، تصف ما جاءت به . تبقى صامتة أحياناً ، أو تحدثه ، أو تميل مسندة ذقنها إلى راحة يدها ، تشرد بنظراتها ، أما إذا صاح فجأة فإنها تطبطب عليه ، وإذا دفعها بقوة فإنها تعود إليه ، مرددة . .

ــ حقك علىَّ . . حقك علىَّ يا ضناى . .

اليوم تقدم منها عند باب العنبر ، تطلعت إليه صامتة ، حذرة ، لم تعتد منه ذلك . قال بمودة . .

ــ عنكِ يا خالة . .

ابتسمت حائرة ، علا صوت ابنها من نهاية القاعة . صارخاً ، مهدداً . .

ــ مالك ومالها يا جدع انت . .

اضطر إلى التراجع ، عاد يحملق إلى المدخل الرئيسى . جاء شقيق الطالب الذى كان جامعياً ، إنه لا يملك كثيراً ، لا يأتى معه بطعام ، أو هدايا ، إنما يترك نقوداً لا يعرف إلا الممرض مقدارها .

الجميع فى أسرتهم ، بعضهم محملق ، يتحدث إلى من يجاوره ، ورائحة مطهر قوى تضفى على الفراغ حضوراً يائساً . .

الرجل خفيفة اليوم ، ربما لأنه الأسبوع الأخير فى الشهر ، يقل فيه الزوار عادة ، عدد منهم يصل فى قطار العاشرة ، يقضى ساعة أو أكثر ، ينصرف قبل صلاة الجمعة .

عائلة المقاول العجوز تجيء قبل الثالثة ، إنهم الوحيدون الذين يصلون بسيارة ملاكى خاصة ، تنتظر فى المكان المخصص لسيارة المدير ، والأطباء حتى العاشرة لم يكف عن الشخوص ناحية الفناء ، يسأل الممرض عن الساعة ،

وبالرغم أنه لم يصرح ، فإن المرضين ، وبعض زملائه أدركوا أنه ينتظر زيارة اليوم . لكن لم يعرف أحد ، من القادم ، متى سيصل ؟ لم يسبق لأحد رؤ ية أى زائر له ، أمره معروف فى المستشفى . بل إن بعض الضيوف أدركوا أمره ، وحن بعضهم عليه فى المناسبات ، لاحظ الممرض قلقه . .

ــ ما تقعد يا أخى . . انت خايلتنا . .

تطلع إليه راجياً . .

ــ والنبى خلينى واقف هنا . .

عند العاشرة سأل :

ــ القطار وصل ؟

لم يجبه أحد ، بالرغم من إصغاء الممرضين الثلاثة إليه ، عندئذ أجاب نفسه . .

ــ طبعا . . وصل . .

فى العاشرة والربع أقعى ، لكنه بعد دقائق انتفض ، وهنا بدأ ذلك التناقض الحقيقى فى حضوره ، فى هيئة جسده ، لم يكن يلوح إلا عند نوبات افتعاله إن غضبا أو فرحاً ، كان بنيانه قويا ، أما وجهه ، وملامحه ، خاصة عينيه ، وفمه ، ونقاط اتصال أعضائه بجسده ، تحتوى شبهاً وثيقاً بالأطفال الذين لم تستقر حركتهم بعد ، لم تستو أمورهم ، يزداد الشبه عندما يتحدث . طبقاً لعمره المدون تجاوز الخامسة والعشرين ، لكنه من ناحية الهيئة وردود الأفعال ، واللهجة ، لم يتجاوز التاسعة ، بعد إفاقته من نوبات الصرع الحادة التى تدهمه فجأة ، يبدو طفلاً غير قادر على المشى . .

يميل إلى الأمام ، يفرد ذراعيه حتى المدى ، فى البداية مالا إلى أسفل ، دفعهما ثم خفضهما من جديد ، يبدو حائراً ، لا يدرى بأى وضع يقابل الزائر الذى بدا فى الفناء ، وعندما تقدم خطوتين ، صاح الممرض . .

ــ إبق عندك . . هو سيجىء إليك . .

يبتسم ناظرا إلى الممرض .

ــ ربنا يطول عمرك . . خلينى أقابله على الباب . .

يصيح الممرض . .

ــ من يعنى . . وزير ؟

لكنه يبدو أنه أدرك لهفته ، هو الذى لم يسأل عنه أحد منذ احتجازه ، قال متسامحاً . .

ــ لكن لا تخرج .

فى وثبة واحدة يقطع المسافة إلى الباب الرئيسى . .

ــ أهلاً ، أهلا بالأحباب . .

قصير جداً الزائر ، أجعد شعر الرأس ، يرتدى قميصاً رمادياً ، وبنطلوناً أسود من الصوف الصناعى ، يمسك حقيبة كتب عليها الحروف الأولى من اسم شركة طيران عربية ، أحاطه بذارعيه ، اضطر إلى الانحناء بينما يتراجع الزائر بنصفه الأعلى ، يبدو حذراً . .

ــ باسم الله ، ما شاء الله ، صحتك بخير . .

يطفطف زبدا بين شفتيه . لا يدرى ما يجب قوله بالضبط ، الحيرة بالغة ، والاضطراب عظيم ، الانفعال زائد ، يتجه إلى المنضدة ، بجوارها مقعدان خاليان ، يجلس بعض الزوار أحياناً فى الصالة الخارجية ، عندما هم الضيف بالجلوس ، قال .

ــ لا . . سلم أولاً . .

يبدو الرجل خائفاً بعض الشىء ، يتقدم من الممرضين الثلاثة ، يبدو أكثر إطمئناناً بعد أن رآهم ، إنهم ليسوا مرضى .

سلم على عم عوض . . وعم حسين . . وعم جابر . . يشير إليه . .

ــ ابن خالتى . .

يتقدمه مرة أخرى إلى المنضدة ، عندما يوشك الزائر على ملامسة المقعد ، يصيح .

ــ لا . . تعال هناك . .

ينظر إلى الممرضين بطرف عينه ، يرقبون باهتمام ، يبدو وجلاً ، يخشى صدور لفظ أو حركة تكسفه أمام ضيفه ، لهذا تتبدل الانفعالات بسرعة بالغة

ما بين التفاته ناحيتهم وعودته إلى ضيفه . لم يتحرك أحدهم . لم يبد ملاحظة قاسية . على الرغم من أن الزائر لم يقدم لأحدهم أى مبالغ مالية ، بدا واضحاً أنه يجهل المتعارف عليه هنا . أما الحقيبة فأثارت فضولهم . . يتقدمه إلى داخل العنبر ، يتطلع محموماً إلى المرضى ، بعضهم يرقبه بهدوء ، والآخرون لم تتبدل حدقات عيونهم ، لكن معظمهم راحوا يرقبونه . لم يروه من قبل بصحبة زائر . .

إن سريره الرابع إلى اليمين ، يميل عليه ، ينفضه ، يشد الملاءة . . يهم الضيف بالجلوس ، لكنه يتناول الوسادة ، يثنيها . .

ـ ضعها وراءك حتى لا تتعب . .

يقعد ، يداه أمام صدره ،يفرد اليمنى ، يتلفت حوله ، ليس لديه شىء يمكن أن يقدمه ، ليس عنده نقود ليدعوه إلى كوب شاى مما يعده ممرض العنبر الثالث ، إلا أن ذلك لم يمنعه من النطق . .

ـ تشرب حاجة ؟

ـ أقعد . . أنا فطرت وشربت

يواصل إلحاحه ، لكن الضيف يصرّ . .

ـ لا تتعب نفسك ، قلت إننى لن أشرب .

ينظر حوله حذراً ، خاصة عندما يفارق أحد المرضى فراشه ،يتداخل فى بعضه كلما اقترب أحدهم منه . يقترب المريض الذى يرقد قرب نهاية العنبر ، إنه أصلع تماماً ، يرتدى نظارة طبية إطارها من السلك . .

ـ تعال ، تعال سلم على ابن خالتى . .

يتوقف إنه يمسك صحيفة قديمة ، يبدو متئداً ، متمهلا ، يتقدم قائلاً بعربية واضحة النطق . .

ـ أهلاً وسهلاً بك

يلوح وجل . وتبدو خشية . خاصة عندما أمسك الرجل بيده لحظات ، يبدو أن هذا ضاعف من اضطرابه . .

ـ ابن عمى . . مهندس . .

يلتفت إليه الرجل .

ـ ابن عمك ولا ابن خالتك . . يا بنى إرس على بر . .

يتراجع مفاجئاً ، يتردد ، لكنه يكرر . .

ـ مهندس كبير فى السعودية . .

يرتفع صوته . كأنه حريص على أن يسمعه كل من جاوره فى العنبر ، خاصة أنه خفت عندما التفت ليقدم زميله المريض ، قارئاً اسمه بوظيفته السابقة كمدير عام أحد فنارات البحر الأحمر . . مما دعا الرجل إلى الابتسام ، والتصحيح .

ـ يابنى ، لم أصل إلى درجة مدير عام . .

يشير إلى حافة السرير . .

ـ تفضل . . تفضل معنا . .

يفكر الرجل لحظة ، يضرب راحة يده اليسرى بالجريدة المطوية . .

ـ لا بأس . . لا بأس . . لكن اسمح لى أن تقبلا دعوتى . .

يلتفت إلى الزائر ، يحدق فيه بقوة . .

ـ شاى . . شاى أو قهوة ؟

يرتفع احتجاج

ـ تعزمنا هنا . . هذا واجب علّى أنا . .

ـ خلاص يا بني . . أنا مثل والدك . .

يقول مبتسماً . .

ـ إنهم يعدون شاياً جيداً . .

يوليهما ظهره ، يخرج يعودان إلى مواجهة بعضهما ، لم يدر ما يقوله بعد عبارات الترحيب ، كما أن خجلاً بدا عنده لأن الرجل طلب منه الرسو على بر ، إبن عمه أو ابن خالته ؟ هل لاحظ الآخرون ؟

ـ وصلت بالطائرة ؟؟

ـ لا والله . . جئت بالسيارة . .

يصيح بأعلى نبرة ممكنة .

ـ من السعودية إلى مصر فى عربتك ؟

ـ طبعاً . . فيه طريق جديد الآن . . العقبة . . نويبع . .

ـ هذه المسافة كلها . . سقتها أنت ؟

يبتسم الزائر لأول مرة .

ــ وأكثر منها . .

ــ طبعاً عربة غالية جداً . .

ــ يعنى !

ينحنى الزائر ، حانت اللحظة التى يفتح فيها الحقيبة ، يتطلع مترقباً ، يب
بهجة عند رؤ يته جهاز المذياع الصغير . .

ــ لى أنا ؟ لى أنا ؟

يبتسم الزائر متواضعاً . .

ــ لتسلى نفسك . .

يقلب الجهاز ، يتحسس أزراره المتعددة ، لم يدر كيف يعبر عن إمتنان
ماذا يفعل ؟ يقوم واقفاً ، يقبل المذياع ، يميل محتضناً ضيفه .

ــ ربنا يخليك . .

لم يكن المذياع الشىء الوحيد ، يخرج جلبابين ، يؤكد أنه اشتراهما
جوار الحرم النبوى المبارك فى المدينة المنورة .

ــ وعلبة حلوى . كلفت نفسك . .

صوته مرتفع ، كأنه يريد إبلاغ كل من حوله ، يقلب علبة الحلوى الأ
مرتين ، يحاول فتحها ، يود أن يقدم بعض محتوياتها إلى الجيران الذين يح
بعضهم الآن إلى العلبة ، إلى الجلبابين ، إلى الراديو . . ، يتطلع إلى مد
العنبر لم يحدث من قبل أن ظهر أحد الأطباء أثناء الزيارة مواعيد المرور معرو
الاستثنائى منها عند وقوع حالات هياج مفاجئة ، لكنه يتمنى ظهور الـط
الشاب الآن ، لو يلمحه الآن ، يسارع إليه ، يرجوه مصافحه قريبه الذى
من السعودية خصيصاً لزيارته ، يلتفت إلى ضيفه ، كيف يقدم الطبيب الشا
بماذا . . أى العبارات ؟ أى كلمات ؟

سيقــول إنــه ، لا . . أفضــل طبيب فى المستـشفـى ، لا . . فى ك
المستشفيات ، إنه يرعاه يوصى به خيراً ، يعالجه بأحسن الأدوية ، لو يظهر

لو يدخل الآن . يلمح الممرض عند المدخل ، يرجف قلبه ، يهرع نبضه ، سيتم تفتيشه آخر النهار بدقة ، قبل ذلك أهملوه لأنه لم يستقبل أى زوار ، ليته يفتح العلبة ليلحق قطعة منها ، لكنها محكمة !

يصل الرجل حاملاً صينية الشاى ، عليها ثلاث أكواب .

ـ بنفسك يا سعادة البك . .

لا توجد منضدة ، يمسك الكوب ، يقدمه إلى الضيف . يتمتم بما يعنى إنه لا داعى ، يتناول الصينية ، يقعد الرجل متسائلاً عن البلدة التى يعمل فيها الضيف ؟

يقول إنه فى الرياض . يتساءل الرجل عما إذا كان فى الرياض ذاتها أو فى بلدة قريبة منها ، ثم يقول إنه يعرف مستشاراً قانونياً عمل فى الرياض قبل ثلاثين شنة ، من أوائل المصريين الذين ذهبوا إلى السعودية ، كانت المدينة صغيرة .

يقول الزائر إنها مثل أوروبا الآن . .

يقول الرجل إنه أمضى مدة خدمته فى جزيرة عليها فنار تتوسط البحر الأحمر ، وفى النهار كان يمكنه رؤية الساحل السعودى ، جزيرة صغيرة عاش فوقها سنوات طويلة معه ، خمسة أفراد لا غير .

يصمت لحظة ، يسأل إذا كان مستريحاً . .

فى هذه اللحظة يدركه ضيق ، إن الرجل يثرثر كثيراً ، يطيل جلوسه ، يوشك أن ينبهه ، هذا ضيفه هو ، إنه قريبه ، فليتركهما معاً . .

يحمد الزائر ربه ، ثم يقول إن الغربة صعبة ، أمضى أربع سنوات متصلة إنها المرة الأولى التى يجىء فيها إلى مصر . سيرجع فى نهاية الشهر ، هناك لا يعرف إلا بيته وعمله ، وربما تمضى عدة أعوام قبل مجيئه مرة أخرى . يفضل أن يمضى مدته كلها متصلة . .

ياه ، عدة أعوام ، ثلاثة ؟ أربع ؟ يعنى لم يره مرة أخرى ، إن خوفاً غامضاً يدركه ، وحشة تزحم صدره ، ما زال الممرض يقف عند المدخل ، لا يتطلع إلى صوبه ، ينظر إلى قريبه يمسك يده . . ـ أربع سنوات . .

يتطلعان إليه ، يقول راجياً . .

ـ يعنى لن تطل علّى مرة ثانية !! ؟

* * *

نوفمبر ١٩٨٨

سفر

عند بدء سفرى ألوذ بوحدة . لا أرغب مخاطبة من يجتورنى ولا أسعى ، أرحل فى رحيلى ، فأمضى إلى ما كان ، وأستشرف ما سيكون ، أحاول النفاذ إلى كنه ما لم يكن . وما لن يكون ، ما هو غير كائن ، أرى ما لم أره ، ما لم تساعدنى أيامى المنهكة على استبصاره . هذا دابى ، وتلك خصلتى ، إن فى طائرة ، أو فى قطار . أيا كانت المركبة ، لذا حرصت على حجز مقعد مفرد إلى الجانب الأيمن ، حيث يمكننى رؤية الطريق المحاذى للخط الحديدى ، والمدن المتعاقبة ، المطلة على الترعة ، كذا المزارع الممتدة ، والبيوت المتناثرة ، وأشجار النخيل التى تزداد كثافة وتراصا كلما ازداد الإيغال جنوبا .

لم يتبق إلا دقيقة واحدة على موعد التحرك عندما تقدم من المعقد الذى يقع أمامى ، يحمل حقيبة متوسطة الحجم ، لم يضعها فوق الرف ، إنما فوق الأرضية المغطاة بالمشمع . يتأبط جهاز تسجيل ومذياعا متوسط الحجم ، يرتدى زيا أزهريا ، عمامة صغيرة تغطى رأسه . فى منتصف العمر ، لم يحلق ذقنه يومين على الأقل ، متعب العينين ، يتطلع إلى ، يبدو راغبا فى القرب ، لكننى أولى بوجهى تجاه الرصيف .

يبدأ القطار ، يسرع بعض المودعين ، رجل نحيل يجتاز العربة من أولها إلى آخرها ، المحه خارجها ، جسده يميل أثر قفزة ، يخلع جارى عمامته ، تبدو صلعة مستديرة وشعر قصير جدا . عندما التفت إلى الوراء تجاهى ، ملامحه متغيرة ، كأننى فى مواجهة شخص آخر .

ــ التكييف بارد . .

صوته مرتفع ، تعليقه منطوق ، غير ذى وجهة أو قصد ، لكنه يسعى إلى المجاوبة ، لزمن صمتى . أسمع تكة إثر ضغط مفتاح جهاز التسجيل ، لحظات ويرتفع صوت مطرب شعبى ، مدائح نبوية ، لم يغط ضجيج القطار على الغناء ، فيه جمال قديم ، وشجن خفى ، وبحة لا تخفى ، إلى ما بعد الجيزة لم يتوقف ، كف فجأة ، هل انتهى الشريط ، أم أن الرجل أوقفه ؟

أغمض عينى ، أحصى البلاد التى سيتوقف فيها القطار ، والمدن التى سيمرق عبرها ، والقرى الصغيرة التى سيثير عند مزلقاناتها الغبار والحذر ، أستعيد سفراتى العتيقة ، بصبحة والدى واشقائى ، عينا أبى وقعتا على ما أمر به الآن ، قطعنا الطريق مرات ، كانت القاطرة سوداء ، تنفث دخانا ، وفى الليل يلوح منها وهج نيران ، لها زعيق وكبكبة ، كنا صحبة وجمعا ، إما الآن فما أنا إلا مفرد ، مبتوت . أسعى فى دنيا خلت ممن أتيا بى إليها . انتظر ما تجود به أحلامى من رؤى أحيانا تعلق بذاكرتى الواعية أثر صحوى ، يوما تطلعنا إلى ما أمر به الآن ، فهل ثمة أثر ، هل للفراغات ، للفضاءات ذاكرة ؟ . هل ثمة بقايا للحظات المارقة عدا المخيلة ؟ أحقا تفنى الأصداء ؟

ــ ياه . . الدنيا برد . .

لم يتطلع ناحيتى ، أدرك صدى . طالع انزوائى ، كرر تعليقه لحظة التفاف راكب يجلس فى الصف المجاور ، حيث المقاعد مزدوجة .

ــ لكن التكييف رحمة . .

يقول ذو الزى الأزهرى .

ــ طبعا . . المسافة طويلة . . هو الأخ من أى بلدة . .

ـ من أخميم ..
ـ أحسن ناس ..
ـ تعيش يامولانا .. وأنت ؟
ـ من طهطا .. لكن شغلى فى إدفو .

وليت بوجهى تجاه النافذة ، وبنظراتى عبرها ، انها سفرتى الأولى التى لن أرى فيها خالى ، دائما كان ينتظرنا ، بيته مأوانا ، اسعى إليه ، لكن لأقف على مثواه ، غدا تممة الأربعين ، كان هادئاً ، آخر من تبقى لنا ، لم يعد لنا إلا اقارب لم ألتق بمعظمهم ، يتقدم الواحد منهم إلى ، ألا تعرفنى .. أنا ابن بنت عمتك ! . لم يعد لنا خال ولا عم ، صوته رائحة ثيابه ، وضع عمامته ، غرف البيت ، مخزن الحبوب ، صومعة القمح ، وثمرات الدوم الجافة ، هذا من مكونات صباى .

صوت الأزهرى مرتفع ، جنوبى اللجهة ، مع ميل إلى النطق بالفصحى ..

ـ من أخميم نفسها ، أومن نواحيها ؟

يؤكد الآخر أنه من أخميم ذاتها ، يستفسر عن شغل الشيخ فى ادفو . يقول إنه مدرس لغة عربية ، أنه هناك منذ أربع سنوات . مرت والله كأنها أربعة أسابيع ، ناسها طيبيون لمن يعايشهم ويعرفهم . إذ أمنوا للغريب ، إذا وثقوا به . فكأنه بين أهله ، لذلك يقولون إن القادم إليها يبكى ، وعند مفارقتها بعد تمام مدته يبكى ، ناس أخميم مشهورون بالكرم ، يعرف منهم الشيخ أبو ضيف ..

ـ الشيخ أبو ضيف العقيلى ؟
ـ عرفته ؟
ـ ومن لم يعرف أو يسمع بسيد الناس ؟

لاحظت ان الأزهرى خلع حذاءه ، قعد متربعا فوق المقعد ، يتطلع اليه

الراكب الآخر . حول معصمه ساعة ذهبية ، فى أصبعه خاتم غليظ الفص ، استعدت صمت خالى ، تطلعه الطويل . ثم أهته المفاجئة المحيرة ، كان تاجرا للغلال ، أمره معروف ، وأمانته مشهورة ، ومكياله لا شك فيه ، لكم صبحته طفلا إلى الأسواق ، سوق الاثنين فى خارج جهينة ، وسوق نزة الحاجر الأربعاء ، وسوق السبت قرب الطليحات ، والأخير أبعدها عن بلدتنا جهينة ، كان يرفع تليس القمح أو السمسم أو الفول فوق ظهر الحمار الأبيض القوى ، يقعدنى . وأحاول الاحتفاظ بتوازنى ، بينما يعدو هو ممسكا بعصا قصيرة . .

ــ مثل هؤلاء لا ياتى الزمن بمثلهم .
يتحسر الراكب ذو الخاتم على زمن الناس الطيبين .

كان خالى قليل اللفظ ، خفيض الصوت ، طويل الشرود بعينيه ، إلا عند حديثه عن والده — دى — كان أزهريا ، مضى إلى العاصمة ورجع بعد سنوات قضاها مجاورا فى الأزهر ، أصبح هو من يحل ويربط فى أمور الناس ، يؤم المصلين ، ويخطب الجمعة ، وينهى اجراءات الزواج ، والطلاق ، ويحسم نزاعات الميراث ، ويفضى النصيحة إلى من لجأ إليه ، كان مسموع الكلمة حتى من كبار السن . له هيبة ، أحبه الناس لرقته ، وطيبته ، وحنوه البادى ، وحتى اليوم مازال المعمرون يذكرونه بالخير ومعظمهم يتحدث عن جمال صوته ، وقدرته على النفاذ إلى دهاليز القلوب ، حتى أنه فى ليالى الموالد ، خاصة مولد النبى ، كان يقف فى الرحبة ، ممسكا بعصا معدنية كثر الحديث حولها ، يطرقها بقضيب صغير ، مستخرجا أنغاما شجية لم يسمعها أحد قبله ، ولم تتكرر بعده ، فى هذه الليلة كان النسوة يخرجن عن العادة ، فيقفن فوق أسطح البيوت المطلة ، يضعين ويدمعن حتى مطلع الفجر . كانت شهرته فى رواية السيرة ضاربة فى النواحى القريبة ، ولها أصداء حتى قنا وأسيوط ، غير أنه لم يلب أى دعوة تلقاها من خارج جهينة ، ولو تنقل بين البلاد راويا ومنشدا ، لجمع الثروة ، واشترى الأطيان ، والجمال . وبنى الدور العالية ، لكنه لم يفعل لأمر لا يعلمه إلا ذو الجلال والإكرام ، لم يفارق البلدة ، وكان

يمضى ساعات نهاره ، وقدرا من الليل بصحبة كتبه ومخطوطاته القديمة التى رجع بها من مصر . .

يعلو صوت الأزهرى ، إلتفت بسرعة . جاره مصغ ، ثالث يجلس فى المقعد الأمامى استدار تماما . يقول الأزهرى انه نزل أخميم منذ خمسة عشر عاما ، جاءها كمراقب فى أمتحانات الشهادة الأبتدائية ، عندما كان المدرس ينظر إلى الطالب مرة واحدة فيجمد مكانه ، بعكس تلاميذ هذه الأيام غلاظ العيون ، كان بصحبته أربعة من زملائه ، اثنان منهما مازالا يعيشان ، واحد فى مدرسة الصنائع بمدينة فوة بحرى ، والثانى راح اليمن ، والأخران توفاهما الله عندما انقلبت بهم عربة أجرة فى الرياح المنوفى ، حمولة العربة سبعة ، كان داخلها أربعة عشر . .

ــ طمع . . وأرواح الناس تضيع . .

قال الراكب الأمامى ان أصحاب العربات فى الأرياف عموما ليس عندهم ضمير ، مرة كان مسافرا من الفيوم إلى اطسا . حشره السائق حشرا فى العربة ، كانت قديمة ، قديمة جدا ، وحتى يتخيلوا مدى الزحام ، كان على المقعد المجاور للسائق ثمانية أشخاص ، حدث أن أوقفهم ضابط مرور من المركز ، تطلع دهشا ، متعجبا ، قال للسائق إنه لن يؤذيه ، لن يحرر له مخالفة ، لكنه يطلب منه انزال الركاب . وإعادة حشرهم أمامه . حتى يرى كيف استطاع ترتيبهم فى هذا الحيز الضيق .

يقول الراكب ذو الخاتم . .

ــ لو رأى الشيخ أبو الفضل مثل هذه العربة لمنعها . . رحمة الله . .

ــ مات ؟

يبدو جزع الأزهرى حقيقيا .

ــ تعيش انت

ــ ياساتر

— متى . .

— من سنتين . . حكاية ، الناس تعرفها .

يقول ان الشيخ أبو الفضل عاش عمره كله مهابا من الكافة ، الغنى والفقير على السواء ، كان بيته مفتوحا دائما ، فى أى وقت يمكن للغريب للعابر أن يدخل ويقيم ويأخذ حقه من الضيافة كاملا . وفى اليوم الثالث يسأله بعد تناوله الأفطار عن اسمه والجهة التى جاء منها ، ومقصده النهائى ، وسبب انتقاله .

يقول الأزهرى . إنه لم يقض فى أخميم إلا أسبوعا لاغير ، لكنه عرف الشيخ وكأنه عايشه دهرا ، بمجرد وصولهم خرج إلى استقبالهم وقال فى حسم لا يقبل الجدل ، ان ضيافتهم عنده حتى نهاية الامتحانات ، ليس معقولا أن يباتوا فى سوهاج . ويتحملوا عناء المشوار يوميا ، صحبهم إلى المضيفة التى عرف فيما بعد أنها لم تغلق منذ مئات السنين ، تعهدها الجد تلو الجد . قال لهم أن البيت بيتهم ، وأنهم أحرار ، لم يزعجهم أحد . ولن يزعجوا أحدا ، فهم كما يبدو أبناء أصول ، صباح كل يوم كان يجىء أحد رجاله بالإفطار ، أقراص سخية تشر سمنا ، ودوارق ملأى بحليب طازج ، له رائحة وعبير ، لم يعد الآن مثله ، وجبنا معتقا أحمر اللون ، لقدمه . وعسلا مصفى ، أما الغداء لم يخل أبدا من اللحم ، أو البط ، أو الأوز ، والويكة أو الملوخية ، والبامية البورانى المعتبرة . والله . . والله طعم الأكل مازال فى الحلق حتى الآن ، آخر يوم ذبح خروفا وجاء ليأكل معنا . المرة الوحيدة التى شاركنا ، قعد ولم يتناول إلا لقيمات . ورغم ذلك لم يتحرك إلا بعد شبعنا كلنا ، ثم صب الماء على يدى كل منا ، كان يحمل المنشفة على ذارعه ، ياسلام . . مثل هذا يموت ؟

— مات . . وكيف مات ؟

يقول الجار إن الحاج أبو ضيف من ناس الزمن القديم ، أنجب ابنا واحدا لاغير ، حكمة ربنا وتقديره ، ربى الولد أحسن تربية ، كان ابنه على خلق ، لكن بعد ان أتم تعليمه فى مصر ، طلعت فى دماغه فكرة السفر ، قال لأبيه انه

يريد رؤية بلاد الله ، ان يجرب حظه ، الحاج كان حكيما ، أصغى إلى ولده وهو قاعد فوق الدكة القديمة وعصاه بين يديه ، كان يعرف ويفهم انه لو رفض فلن يبدى ابنه اعتراضا . لكنه سيبقى غصبا ، لن يكون على هواه ، البلد كلها تعرف أنه لم يرفع عليه يدا . كانت النظرة منه تكفى ، الولد كبر وأصبح رجلا . صحيح . . كان يتمنى بقاءه إلى جواره ، الولد سند وظهر ، خاصة أن العمر يتقدم به ، لكنه كما قال فيما بعد لأحد أصحابه التجار إنه أدرك لحظة سماع رغبة ابنه ان الفراق دنا واقترب . وأن ما كان يبدو ثابتا . جزءا منه ، ان له أن ينفصل عنه ، لم يضغط على ابنه ، لا تصريحا ولا تلميحا ، بل . ساعده على تدبير أموره ، نزل سوهاج واشترى قمصانا وحذاء وقماش بدلة لكن الولد رجاه أن يفصله جلبابا له ، اعتذر بضيق الوقت ولكاعة الخياطين ، هذا القماش طواه الرجل ، كان يتوسده عند نومه ويقول لامرأته ومعارفه أنه يشم رائحة ابنه فيه . مع أن ابنه لم يرتده يوما ، المهم . . الولد سافر . وصل منه خطاب ، والثانى ، والثالث ، وكان الحاج يقرؤها على مهل ، وبصوت مرتفع ، ويمنع امرأته من البكاء . فالبكاء شؤم على الغائب . .

سرعة القطار مستقرة نسبيا ، عند مزلقان صغير ألمح امرأة عجوزا . فوق رأسها قفة صغيرة ، بمفردها ، احتواها بصرى للمحة ، لحظة خاطفة هى فى ثبات ، أنا فى حركة . فى جزء من الثانية توارينا ، لا أذكر ملامح جدتى ، أحاول استعادتها فلا أرى إلا رداءها الأسود وقوامها النحيل ، الطويل ، وبقايا وشم مثلث يتقدم جبهتها ، أما يدها المعروفة . فمازلت أعى ملمسها المقدد ، أبت الزواج بعد غياب جدى ، ماتت وهى تؤمن أنه حى يسعى ، وأنه يوما ما . إن فى غسق ، أو فى فجر . سيبدو عند مطلع الطريق المؤدى إلى القرية إلى الرحبة .

راكب يرتدى عمامة من اللباد ، ملفوف حولها شال أبيض ، يخاطب الأزهرى متأسيا . .

ـ وحد الله ياMولانا . . الدنيا لا تدوم على حال أبدا . . يقول إنه من

بلدة اسمها نزه الحاجر ، عاش عمره كله فيها . . يتاجر فى الأقمشة . له أصحاب من أسوان إلى القاهرة . لو قال لهم أريد بضاعة بألف جنيه لأرسلوها إليه بدون ورقة ، ولا استفسار حتى . . الحمد الله . . الحمد الله على كل شىء .

يسكت لحظة ، يبدو أنه استعاد أمرا آلمه . . يقول إنه كان على صلة برجل طيب ، صالح ، اسمه الحاج عبد اللطيف ، لكن الناس عرفوه بمجير الطير . ذلك أنه ورث سبعة فدادين ، أحاطها بسور ، أمر ألا يؤذى أى طائر يحط على زراعة ، أو يشرب من قناة تتخلل أرضه . ألا يطارد عصفور يلتقط حبات قمح ، أو هدها يسعى فوق سعف النخل ، أو غرابا أوى إلى غصين شجرة . يبدو ان الطيور مثل البشر ، تدرك وتفهم . إذ بدأت أسراب منها تجىء ، لتحط آمنة يمشى الرجل أو الطفل بجوارها فلا تفزع ولا تفر ، كان الحاج مجير الطير ، يفرد ذراعيه ، يبسط يديه وفيهما الحب . فيجىء البط البرى . وعصافير عجيبة الخلقة لا تظهر إلا من السنة إلى السنة ، تقف على كتفيه ، وتتلاعب . وتتناغى على ذراعيه . ويراه الخلق راضيا ، متبسما ، قال بعضهم انه يلاغى الطيور . وأنه يفهم لغاتها . .

ــ سبحان الله . . سبحان الله . .

يقول إن مجير الطير كان قصيرا ، ممتلئا ، تغمز عينه اليسرى ــ إذا تحدث ــ رغما عنه . كان مسموع الكلمة ، له احترام ، أنجب ثلاثة . إثنان ذكور ، وبنت واحدة ، الولدان تخرجا من المعهد فى أسيوط . أصبحا مدرسين . .

يتدخل الأزهرى مقاطعا .

ــ تقصد المعهد الدينى ؟؟

ــ بالظبط

ــ أياك تتكلم عن ياسين والسيد ؟

ــ تعرفهما ؟

ــ إلا أعرفهما ؟ خدمت معهما فى سوهاج . . ياسين والسيد عبد اللطيف .

ـ بالضبط .
يقول ذو الخاتم الغليظ
ـ مولانا يعرف كل الناس . .
يجيب الأزهرى .
ـ ربنا يرضى عنا أحبابه . .
ثم يقول :
ـ ربنا فتح عليهما . . واحد راح الجزائر . . والثانى سافر إلى السعودية . .

يقول ذو العمامة .
ـ ليتهما ما سافرا .
يجزع الأزهرى .
ـ ياساتر استر . . ماذا جرى لهما ؟
يقول الأزهرى انه لم يحدث لهما هما ، ذلك أنهما بعد سفرهما جرى المال فى أيديهما . لم يقصرا فى حق والديهما ، الكسوة تصل اختهما مرتين ، مرة فى الصيف ، مرة فى الشتاء ، أحسن قماش ، أحسن مصاغ أولاد حلال بصحيح ، بعد غربة ثلاث سنوات اجتمعا لأول مرة فى بيت والدهما مجير الطير ، القادم من السعودية تأخر شهرا حتى يلقى أخاه . وفى ليلة ، بعد تناولهما العشاء ، قال القادم من الجزائر لابد من بناء بيت جديد ، من الخرسانة والطوب الأحمر ، راح يعدد البيوت التى بنيت حولهم .

هذا عاد من العراق وبنى ، وهذا رجع من ليبيا وبدأ ، هم ليسوا أقل ولا أهون . . الأخ لم يعارض أخاه ، لم يختلفا طوال حياتهما ، نعم الأخوة والربابة ، ليتهما هذه الليلة ، لكن ما جرى جرى ، اتفقا على اقتطاع ثلاثة قراريط لا غير من الفدادين السبعة ، فى البداية أبدى مجير الطير رغبة مخالفة لولديه ، أن يعيد بناء البيت القديم ، لكنهما أقنعاه . أو سكت على مضض حتى لا يكسر خاطرهما ، قال اكبرهما ضاحكا : تخاف ألا تأتى الطيور بعد البناء ؟

كان والدى يحصى مرات وقوف القطار البطىء الذى نركبه . يحفظ مواعيد دخوله هنا وهناك حتى وصوله إلى طهطا ، حيث نفارق . . فوق الرصيف يقف خالى وعدد من الأقارب ، تحذرنى أمى من الوقوع فى الخطأ ، نصل البيت الذى ولدت فيه عند الغروب ، فى الفراغ رائحة وقود الفرن الذى ظل مشتعلا طوال النهار ، والخبيز ، فوق الألواح الخشبية المغطاة بذرات الدقيق الأبيض تتراص الأرغفة المستديرة ، المنتفخة ، لكم أحببت مذاقها وغمسها فى اللبن الرائب ، بعد الوصول تقعد أمى ، النساء يتوافدن عليها مرحبات ، متطلعات . يتفحصنها ، يسألنها عن أحوالها ، عن مصر وناس مصر ، لم يكن يخلو حديث بعضهن من غمز أو لمز ، كانت جدتى تدفع عنها ألسنتهن ، وتزجرهن ، أرى أمى تجلس حزينة ، ساهمة ، أرى جدتى واقفة تنظر إليها ، لا أدرى هل يجمعهما زمن واحد ؟ لحظة واحدة ؟ أم تنتمى الوقفة إلى وقت ، وقعدة أمى إلى يوم آخر ؟ لا أدرى ، يستبهم على ما كان ، أرى جدتى تجلس مصغية ، أمسك كتابا قديما ، أصفر الورق ، يحتوى على لوحات لفارس يغوص سيفه فى جسم أسد ، شطره نصفين ، هذا حد من عمرى كنت أعرف عند القراءة ، اتلو بصوت مرتفع ، هى تصغى . لماذا نجلس نحن الاثنين فى البيت ، أين أمى ، أين امرأة خالى ، أين أخوتى ؟. فى الغرفة المواجهة مكتبة جدى ، ثلاثة صناديق من الخشب الغامق ذى الرائحة الذكية ، تحتوى كل منها على مخطوطات عتيقة ، كتب بعضها بالأسود والأحمر ، تحتوى صفحات على أشكال مثلثة ، ومربعة ، وأرقام . وحروف غريبة ، يقول خالى إن هذه الكتب أمضى عمره كله فى جمعها ، وقبل غيابه الغامض جاءه رجل سودانى ، يقود جملا محملا بالمخطوطات القديمة ، كان يجىء مرتين كل سنة . مرة أول الصيف ، ومرة أول الشتاء ، فى المرة الأولى يجىء من قبلى ، وفى الثانية يكون قدومه من بحرى ، منذ ظهوره عند الجسر يتجه مباشرة إلى البيت ، لا يكلم أحدا ، لا يقف هنا أو هناك ، لا يلقى السلام ، كان ظهوره يثير الرهبة والخوف عند البعض ، فالكتب التى ياتى بها إلى جدى قديمة ، تحوى

أمورا فى السحر . والتنجيم ومعرفة غوامض الآتى فى الأزمنة المقبلة . بعض هذه الكتب له حراس ، أو خدم ، من الجن ، والتعامل مع المخطوط ، الإمساك به يجب أن يتم بطريقة معينة ، بل ييجب تلاوة جمل وألفاظ قبل فتح بعضها ، وأى تصرف مخالف يلحق أذى لا مثيل له ، هذا ما ردده خالى دائما ، قال أيضا إن هذا الرجل السودانى كان يقضى بصحبة جدى خمس أو ست ساعات ، يعرض عليه ما جاء به ، أحيانا ياتيه بكتاب معين كان الجد أوصى عليه منذ عشرين عاما ، لم يكن ينسى ولم يكن يقضى لحظة واحدة بعد انتهاء لقائه بجدى ، يقوم إلى جمله حتى لو انتصف الليل ويفارق البلدة مبتعدا فى جوف الظلمة .

استر ياستار . .
صاح الأزهرى . .

يتمهل الرجل ذو العمامة . متأسيا ، محزونا ، يقول إن الأرض ساخت بالبناء ، الأرض اصلا زراعية ، مع أنهم صبوا فيها خرسانة بالشيء الفلانى . مالت الجدران . وقع السقف على الرجل وامرأته ، كانت سابع ليلة لهما فى البيت ، وكأن مجير الطير كان قلبه مدركا لما سيقع ، بعد اكتمال البنيان ، لم ينتقل إليه ، نفسه لم تطاوعه على مفارقة القديم ، لكن امرأته الحت ، قالت إن البيت لابد أن يكون فيه نفس ، الطيور اعتادت عليه ، وتقف على شرفاته وعند نوافذه ، قالت : ما نفس إلا نفس بنى آدم ياحاج ، والولدان لابد أن يجيآ فيجدانه عامرا ، بعد انتقالهما كان يروح فى كل صباح إلى البيت القديم . يفتحه ويرشه بالماء . ويقعد أمامه ساعة أو أكثر ، كأنه كان يشعر ، البلدة كلها خرجت وراءهما . ، لكن الأغرب ، الأعجب ، الطيور ، الطيور غطت السماء وهى تنعق وتصرخ مثل البنى آدميين ، وبقيت تحوم فى سماء البلدة حتى الغروب ، فى اليوم التالى عثروا على عدد منها فوق عتبة البيت ، عند النوافذ ، فوق السطح . وسط الزرع . بعدها لم ير أحد عصفورا . ولابطا ، ولا هدهدا ، كانت الطيور تحوم حول الفدادين السبعة ، ولا تقربها . .

ـ سبحان الله

ـ العمل الطيب لا يروح أبدا . .

صمت الحديث ، ضجيج القطار الرتيب ، انتقال العجلات فوق القضبان ، رجل يرتدى معطفا يقف فى الممر ، حتى اتى ؟ لم الحظه يقول . .

ـ الفاتحة على أوراحها وأرواح المسلمين . .

يبسطون الأيدى ، لم يتطلع صوبى أحد ، منذ البداية أخرجت نفسى من الدائرة ، لكننى رفعت يدى ، قرأت فاتحة الكتاب ، رأيت والدى كأنهما يصغيان ، وخالى الذى أسعى حتى أحضر ذكرى الأربعين ، أدركنى أسى ، لا أدرى ممن سمعت أن أصعب الأيام على الميت ، يوم الأربعين ، فيه يسقط الأنف . وتتلاشى تماما ملامح الوجه ، لهذا وجب الترحم عليه وزيارته وقراءة ما تيسر من القرآن الكريم عليه .

يمضى القطار . أدرك زيادة السرعة ، يتكاثف النخيل ، أحقا قطعت هذا الطريق من قبل . طفلا رضيعا ، وصبيا ، وفتى ، وشابا ؟ أمضى قاطعا المسافة الطويلة لاحياء ذكرى مازالت بعد غضة طويلة ، كان قدوم خالى فى صبانا يغير إيقاع حياتنا ، ننتظره ببهجة ، ويتعاهد أبى وأمى ألا يختلفا فى حضوره ، وعندما يجىء ويصل نعانقه فرحين ، رائحة جلبابه الصوفى وعبير جنوبى غامض ، نتحلق حول القفه ، تفرغ أمى محتوياتها ، الأوزة المذبوحة ، حمامات ، الكشك ، الملوخية الجافة ، البلح وأخيرا الخبز المعجون باللبن ، والخبز الشمس ، فى اليوم التالى مباشرة ينزل خالى بصحبة أبى ، يمضيان إلى المقهى . ثم يبدان الرحلة إلى الأضرحة ، إلى آل البيت والأولياء . وأعز المشايخ ، ضريح الحسين هو المركز ، يصلى فيه الظهر والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، وأحيانا الفجر . فى اليوم الثالث يشكو ثقل الرأس ، والدمار ، ويبدو عصبيا ، يتطلع أبى حذرا ، خائفا ، هكذا أدركت فيما بعد ، إذ حانت اللحظة التى يجب أن يقوم فيها بما يكره . أن ينزل ليبحث عن فص أفيون . فقد نفذ ما جاء به خالى من البلدة . طوال عمره لم يقترب والدى من

المخدرات ، كانت بالنسبة له فى دائرة المحرمات . حتى السجائر ، نادرا ما رأيته يدخن ، لكن لابد من القيام بالواجب ، يسعى عند العصر إلى حلاق فى الباطنية ، اعتاد التردد عليه ليحلق شعر رأسه ، وأحيانا لحيته ، يرجوه أن يعثر له على فص أفيون ، يؤكد انه لا يحتاج إليه ، إنما هو مضطر بسبب وصول نسبية من البلدة ، . يومىء الحلاق مبتسما ، يؤكد أنه يعرف تماما بعده عن هذه الأمور ، يقطع أبى الطريق إلى البيت مرتجفا ، حتى انه ليدخل فى عز الشتاء مبتلا بعرقه ، مرتبكا ، يسارع بالنظر عبر النافذة . إذ خيل إليه أن أحدهم يتبعه ، يقعد خالى القرفصاء ، يمسك بالقطعة الضئيلة بين أصبعيه ، يشمها ، فى قدر حبة العدس . يعاود فركها قبل ان يدسها تحت لسانه ، ثم يشرب الشاى على مهل ، بعد قليل يفارقه التوتر ، تلمع عيناه ، يبدو مبتهجا ، راغبا فى الحديث ، ساعيا إلى التوصل برغم حبه الصمت ، وإيثاره الأنزواء . ها هو فى مدخل البيت بالبلدة ، ها هو يمشى مع أبى ، أين . . لا يدرى ، شعاع للشمس ينفذ من فتحة فى سقف علوى ذرات الغبار ، سلم الضوء يفضى إلى أين ، باستمرار ، دائما ، تستحيل الموجودات ، المحسوسات إلى صور ، بعضها يبقى إلى حين ، ولكنها فى النهاية مندثرة جميعها ، يتحدث الأزهرى عن رجل مهيب ، محترم عند الشرطة والمسئولين ، حتى أن بلدته نجت من البهدلة عندما قامت الشرطة بحملة لجمع السلاح ، كانوا يأخذون النساء كرهائن فى القرى المجاورة حتى يتم تسليم البنادق والمدافع ، يتم احتجازهن فى النقطة ، عندئذ يبيع الرجل ما أمامه وما وراءه ليشترى قطعة السلاح المطلوبة . حتى يفتدى عرضه ، لكن فى هذه البلدة لم يحدث شىء من التطاول والفضل يرجع إلى هذا الرجل ، عندما بدأت الحملة سعى بنفسه إلى المامور ، استفسر عن المطلوب من قريته ، عاد بالكشف المسلم إليه ، جمع الرجال ، وخيرهم بين تسليم القطع التى أفادت التحريات البوليسية بوجودها وبين بهدلة الحريم ، ولو جرى لهم مكروه فسيبقى الأمر عارا إلى الأبد ، قبل غروب الشمس كان يدخل المركز ويصحبته رجلان يحملان عشر بنادق محلية الصنع ، وثلاثة مدافع رشاشة ، وكمية كبيرة من الطلقات ، هذا الرجل كانوا يلقبونه بالشيخ . متزوج من ابنة عمه ، يقولون أنها كانت جميلة جدا ، وأنه

أحبها حبا لا قبله ولا بعده ، ولم يكن يرفض ها طلبا ، كسوتها كان يأتى بها من مصر ،

والعطور من الخارج ، وبالرغم من تأكيد الأطباء أن القصور منها وليس منه ، وبالرغم من عرضها هى ، والحاحها ، وضغطها ، ان تزوجه بمعرفتها ، حتى يرى ابنا من صلبه ، لكنه رفض تماما أن يأتى إلى البيت بضرة .

كان الرجل الجالس فى المقعد الخلفى طرفا أساسيا فى الحديث ، كان يخبر عن شخص اسمه ابراهيم ، لم يخلف صلاة الفجر فى المسجد قط ، بعد عودته من الجامع تقعد امرأته أمام الفرن . تشوى البيض . تسوى الأقراص ، كان لا يتناول الفطائر إلا غارقة فى السمن البلدى السائل ، يغمسها فى القشدة ، ثم يخلط أربع بيضات نيئة بنصف كوب من عسل النحل . من يمكنه الآن تناول إفطاره كهذا ؟ . أما الغداء فلم يخلو من البط أو الأوز أو اللحم ، كان اللحم له مذاق مغايرا فى الزمن القديم ، مات الرجل بعد السبعين .

كبس عليه الأكل بعد عشاء ثقيل .

كم انقضى من الوقت ؟ صرت إلى رحيل ، إلى حضور ، إلى وصول ، تأخذنى اغفاءة . يوقظنى ثقل رأسى وميله المفاجىء ، صوت العجلات ، النخيل خارج القطار ، الأشجار المولية إلى الخلف بسرعة ، لم أدر النقطة والتى وصلنا إليها عندما فتحت عينى ، فرأيت بلادا نائية ، وقرى لا أعرافها ، ورجالا من الزمن القديم يعبرون جسورا من أخشاب النخيل ، وبيوتا متضامة ، وشيخا عجوزا يرتدى عمامة خضراء ، وطارق آخر الليل يقف محدثا جدى ، يتبعه ولا يظهر بعد ذلك ، أرى جدى يقدم حجابا مثلثا عليه خرزة زرقاء ، يطلب من رجل يقعى أمامه شاخصا ان يحتفظ به تحت ابطة ما دام حيا يسعى حافظ الرجل على الحجاب ثلاث سنوات ومرة خلع ثيابه ونزل الترعة ، سقط الحجاب فى الماء . نزل الرجل ولم يطلع ، ابتلعه اليم . أحدهم يتحدث عن رجل شجاع ، اعتصم بالجبل وتوحد به وعندما قرر رد اهانة إلى ضابط شرطة تعرض لأهل بيته ، نزل من الجبل . تصدى له فى سوق الناحية

المزدحم ، على مسمع ومرأى من الخلق كلهم ، جرده تماما من ملابسه ، ثم ذاب كفص الملح فى الماء .

يتلاشى صوت القطار ، يتبدد الحضور المحسوس . من أرى ؟ ملامح الأزهرى أو الراكب ذا الخاتم ، أو الآخر مرتدى المعطف الأصفر ؟ أم أنفى أطالع خالى . وجدى . والشيخ أبو الفضل ، ومجير الطير . وذلك الشاب الذى رحل فى بعثة ، وبعد أن استقر شهرا واحدا أرسل يطلب اختيار عروسه ، زوجة أبيه ابنة مدرس غريب عن البلدة ، سافرت إليه مرتدية زى الفرح ، لولا ذلك ما عرفها فى المطار ، كانت من أنجح الزيجات ، أولادهم كبروا الآن ، الأول مهندس ، والثانى ضابط فى سلاح الجو ، والبنت طبيبة ، أما الأب فمحام كبير ، مكتبه يدر آلاف الجنيهات شهريا ، رأيت مدقا ترابيا طويلا وفى نهايته مبنى قديم لا يعرف أحد ما بداخله ، يقولون ان عليه رصدا يؤذى من يقربه ، رأيت خالى مبتسما ، ومجير الطير متطلعا إلى السماء ، وسقاء يحمل قربا من الجلد ، رائحتها غريبة ، يدخل مطرقا يملأ الزير الكبير فى مدخل الدار ، يستمر اندفاع القطار ، موغلا فى الغياب ، بينما يقوى حضور البعاد ، فتحت عينى ، محاولا عبثا أن أرى ما يحيطنى منذ بدء سفرى ولكن لم يكن ذلك فى مكنتى . .

اكتوبر — ١٩٨٨

ملكة

لم يصدق ما رآه فى البداية ، عندما طلع السلم على مهل ، وكمن قرب مدخل السطح ، وراح يرقب المحاسب الذى انحنى على السور ، مطلا ، محملقا عبر المنور ، كتم ولم يفصح لامرأته ، فلو أفشى ربما تعرض لفقد مصدر رزقه كبواب وحارس لهذه العمارات الأربع . لقمة العيش أتت به إلى مرسى مطروح ، هذه المنطقة النائية ، البعيدة عن موطنه ، عن بلدته سوهاج ، عندما خرج قاصدا الإسكندرية إلى أقاربه فى الميناء ، ولأن الحال كان صعبا ، والأمور معسرة ، فلم يطل به المقام هناك ، والحق أنهم لم يقصروا ، حاولوا مساعدته ، لكن فرص العمل كانت ضيقة ، والحال واقف .

فى أحد الأيام عرض عليه صاحبه أن يقصد مرسى مطروح للعمل فى مخبز افتتح حديثا هناك ، عزم أمره وتوكل على الله ، غير أن أيامه لم تطل فى المخبز ، إذ جاء بعد غروب يوم الجمعة ، شاب فى الثلاثين ، وبعد أن اشترى عشرة أرغفة بلدى ، عرض عليه مباشرة العمل كحارس على أربع عمارات يتم تشييدها قرب البحر ، عمل مزعج ، فيه قرش حلو ، وضمان المستقبل ، فبعد إتمام البناء سيحصل على غرفة فى الطابق الأرضى ، مستقلة ولها دورة مياه ،

عندئذ يمكنه أن يأتى بأسرته من الصعيد ، بدلا من إقامتهم فى ناحية وهو فى جهة ، لا يرى امرأته وطفليه إلا فى العيد الكبير ، من السنة إلى السنة .

فى اليوم التالى مباشرة رأى المحاسب لأول مرة ، كان يقف فى موقع لبناء أكداس من الخشب ، وحديد التسليح وتلال من الرمل والزلط ، لم يكن هناك إلا حفرة كبيرة ، كشفت عن الأرض الرملية التى يميل لونها إلى صفرة غامقة .

كان طويلا ، أسمر ، يرتدى قبعة بيضاء ، من القماش ، وقميصا رماديا ، وبنطلونا رياضيا قصيرا يكشف ركبتيه ، وحذاء من الكاوتشوك ، هكذا رآه ، وهكذا أيضا ظل يراه طوال شهور الصيف ، أيضا الجيران والمعارف ، وموظفو الإدارات المختلفة فى المحافظة لم يروه إلا هكذا ، لم يبدله إلا مرة واحدة عندما ارتدى الحلة السوداء التى يأتى بها من بلدته ، ثم ذهب بعد صلاة العصر ليوقع عقد شراء الأرض الجديدة المطلة على البحر مباشرة ، والتى أحاطها بسور ، وعلق عليه لافتة تحمل اسمه ، لكنه لم يشرع فى البناء بعد .

أيقن أنه ينام فى نفس الثياب ، لا يبدلها ولا يغيرها ، خاصة عندما فتح باب الحجرة الخشبية ، ورآه متمددا ، نائما أما الحذاء والجورب فوضعهما قرب المدخل ، أثناء البناء لم يقم فى أحد فنادق المدينة ، لم يستأجر شقة مفروشة ، فى البداية جهز مأوى له ، صف أكياس الأسمنت ، بسط ألواح الخشب ، وافترش مرتبة قديمة ، وتوسد حقيبته الجلدية ، ثم بنى له المقاول تلك الغرفة الصغيرة من الخشب ، كان يتمدد عند العصر بعد الغداء ، وينام فى ساعة متأخرة ، يجول بين أكوام الرمل والزلط ، وعندما بدأت طوابق المبنى تظهر متكاملة وترتفع ، كان يستيقظ فى الليل ، يصعد السقالات الممتدة ، ينتقل هنا وهناك يتقدمه ضوء المصباح اليدوى ، خابطا أعمدة الخرسانة براحة يده ، كأنه يتأكد من متانة البنيان ، كثيرا ما أيقظه وطلب منه أن يرافقه ، إذ خيل إليه أنه سمع صوتا غريبا ، ربما يمضى ساعة فى التجول الحذر هنا أو هناك ، متوقفا بين لحظة وأخرى ، متطلعا بحذر ، مدققا بصره فى العتمة ، مطرطقا أذنيه ، فجأة يصيح : « من هناك ؟ » ، ثم يصمت ، لا يتردد فى السكون العميق إلا

الأصداء البعيدة ، وتدافع الموج الأبدى ، قال له أن حوادث السرقة هنا نادرة ، وسكان الناحية معظمهم أعراب مازالوا على الفطرة ، غير أن المحاسب يزجره قائلا : « أسكت أنت لا تعرف الناس .. »

يوميا كان يعد اكياس الأسمنت ، ولو استطاع لأحصى قوالب الطوب الأحمر كلما مرّ بصفوفها المتراصة ، لم يهدأ قط ، أشد ما خشيه سرقة شيء ما ، حفنة رمل . بعض المعدات ، كان يتعجل المقاول دائما ، يستحث العمال ، يصفهم بالكسل ، أو يرجوهم بذل الهمة ، فلابد من إنهاء تلك الرحلة حتى يعود إلى عمله بالسعودية . تأخير يوم واحد يعنى خسارة فادحة بالنسبة له . احيانا تنتابه حالة عصبية ، فيزعق قائلا أن الناس لا يعرفون إلى أى حد شقى وتعب ، كل قرش فى هذا البناء فيه عرق وجهد أضعاف قيمته ، ما أن يهدأ ، حتى يلف على العمال والملاحظين يسترضيهم ويعتذر إليهم . ويطلب منهم أن يسامحوه ، فالنقود لأيتام وهو مؤتمن عليها ! لم يعرف البواب عدد السنوات التى أمضاها فى السعودية ، لكنه من الذين سافروا فى فترة مبكرة ، قبل موجة الرحيل إلى بلاد النفط ، يبدو أن هذا تم بعد تخرجه مباشرة من كلية التجارة فى بداية الستينات ، طبعا البواب لم يخض معه فى تفاصيل كهذه ، لكنه علم عنه الكثير من خلال المعايشة ، والملاحظة ، ومن الآخرين ، وان لم يتوقع منه مارآه فى ذلك المساء فوق السطح ..

فى المنزل المواجه مباشرة يسكن موظف شاب بالعلاقات العامة بالمحافظة ، تعرف إلى المحاسب ، دعاه إلى كوب شاى ، الحقيقة أنه كان حذرا فى تلبية الدعوات ، إذ لابد أن يرد بمثلها ، وظروفه كما ردد أحيانا لا تسمح ، فهو أعزب ، وعيشه صعب ، ولا يجيد الطبيخ ، كما أنه يؤثر العزلة ، لكن هناك علاقات لابد أن يسعى إليها ، وأشخاص يجب التقرب منهم ، مثل هذا الموظف ، وبالفعل قدم إليه مساعدات شتى من خلال موقعه العام والذى يجعله على صلة بمديرى الإدارات كافة ، عرفه على وكيل دائرة الإسكان ، وعلى مدير التصاريح ، والمسئول عن إمداد المدينة بالمياه ، وعلى مقاول الكهرباء الذى كان فى الأصل مدرسا للرياضيات الحديثة بالتربية

والتعليم ثم استقال وتفرغ للأعمال الكهربائية ، إضافة إلى خدمات عديدة أخرى ، ولفترة شغل المحاسب بهم طارده كثيرا ، ماذا يبغى الموظف منه ؟ هل يريد مبلغا من المال ؟ لكنه لم يلمح لا من بعيد أو من قريب . هل يفكر فى تأجير شقة عنده ؟ لكنه صرح مرارا أمامه أن العمارات الأربع سيؤجرها فى الصيف فقط للشركات ، والمجموعات ، وسيغلقها بقية شهور السنة ، درس هذا بدقة ، على أية حال . قرر أخذ الحيطة ، والحذر ، والتلويح أمام الموظف الشاب بعلاقاته الخاصة مع مسئولين فى أجهزة حساسة ، وبالرغم من مضى سنوات لم يتقدم الموظف خلالها باى تلميح ، إلا أنه ظل على حذره وخشيته . قال الموظف فيما بعد لبعض معارفه ان المحاسب قضى فى السعودية خمسا وعشرين سنة كاملة ، منها عشرون متصلة ، لم يخبره المحاسب بأى تفاصيل عن هذه المدة الطويلة ، غير أنه كان يرفع أصبعه محددا بدقة وإيجاز . قضاءه المدة كلها هناك متنقلا بين الرياض ، وأبها ، وجدة ، وأنه آثر الانقطاع تماما حتى يكون نفسه ، والحمد الله على كل شيء ، ثم بدأ يتردد على مصر كل سنة مرة . حتى استقر وجاء إلى هنا ليبدأ أول مشروعاته . لكنه لم يقطع العلاقة تماما ، قال أنهم يحبونه هناك لعمله ودأبه وأمانته ، وبقائه هذه السنوات كلها بدون خطأ واحد . كان يحمل بطاقة خاصة تيسر له العودة فى كل سنة لمدة محددة ، ثلاثة أشهر . نظم أموره بحيث يسافر قبل بدء موسم الحج بشهر ويعود بعده بشهرين .

ما طبيعة عمله ؟ فى أى المجالات بذل جهده ؟ لا أحد يدرى ، كما أنه لم يطلع إنسان ، لم يكن يتحدث عن نفسه بإفاضة ، دائما أبدى الحذر ، فأى إنسانا يسعى إليه ، إنما يريد قضاء حاجة منه ، هذا ما أعتقده ، وهذا ما قاله صراحة للبواب ذات ليلة وهو يقف أمام العمارات الأربع بعد اكتمالها ، قبل بدء موسم الصيف .

أحد سائق عربات الأجرة ، وكان يعمل بانتظام على الخط بين مصر وليبيا ، وبعد إغلاق الحدود ، بدأ العمل بين مرسى مطروح ، والإسكندرية ، هذا السائق اعتاد السفر إلى السعودية للعمل خلال موسم الحج ، قال وأكد

لأصحابه اثناء جلوسه بالمقهى الكبير فى السوق الرئيسى ، أنه شاهد المحاسب الذى ينادونه هنا بالبك يعمل فى شركة نقل ، وانه كان يقف فى الساحة الرئيسية للمدينة المنورة ، بعد صلاة الفجر وحتى صلاة العشاء ، لا ينتقل ، ولا يروح هنا أو هناك . يرتدى جلبابا أبيض . يغطى راسه بغترة . يعصبها بعقال ، يتحدث لهجة بدوية ، لكن السائقين وهم خليط من فلسطينيين ولبنانيين وافغان ومصريين ، كانوا يعرفون أصله وفصله ، كان يمسك كشفا بالحركة ، ويشرف على ركوب الحجاج . وصعودهم ، وترتيب أمتعتهم ، حتى إذا اكتملت العربة ، دون اسم السائق ، ورقمها ، وعدد ركابها ووجهتها . اذن لها بالمضى .

فى إحدى المرات قال المحاسب إنه عمل فى شركة اقتصادية كبرى . بدأ مع صاحبها عندما كانت لا تضم إلا خمسة أشخاص ، تركها وهى من أكبر شركات المملكة ، لها فروع فى العالم العربى ، وأوروبا .

مرة أخرى قال إنه لف السعودية مدينة ، مدينة ، ومضى إلى أنحاء بعيدة فى البادية ، وأنه اتفق قبل عودته النهائية مع مؤسسة معروفة على المجىء خلال موسم الحج ، لاحتياجهم إلى خبرته ، ثم يعود إلى مصر .

لم يذكر شيئا واضحا عن عمله هذا ، لكنه العام الماضى لم يسافر ، جاء موسم الحج مع قرب انتهاء الصيف ، بدا مهموما ، مدرا ، قلقا ، يستثار عند أى بادرة ، وكثيرا ما يرتفع صوته غاضبا ، طالبا من الخلق أن يتركوه فى حاله . وحدث أن وصل أحد المصطافين ، كان مدرسا معارا للعمل فى المملكة ، أبدى المحاسب اهتمامه به ، سأله عن الأحوال هناك ، عن الرياض ، عن الشوارع الجديدة التى شقت ، عن المعالم التى تغيرت ، عن المدينة المنورة والمبانى التى هدمت لتوسيع الحرم النبوى المبارك ، والدكاكين التى أزيلت ، والفنادق التى اختفت ، والفندق الكبير الذى بدأ بناؤه العام الماضى ، ثم سأل مدققا عن سعر صرف الريال ، والدولار ، والجنيه المصرى ، ثم يختتم قعدته الليلية مع المدرس بآهة حسرى . .

ـ كان المفروض أن أسافر . . لكن أولاد الحرام . .

بعد سفر المدرس وأسرته نزل به كمد ، صار قليل الكلام ، كثير العبوس ، صامتا ، شاردا بعينيه على الدوام ، مما دعى البواب إلى أن يقول له . .

ـ يارجل وحد الله . . لا أحد يعرف أين الخير ؟

لم ينس فيها بعد تطلعه إليه مغتاظا ، لكنه لم ينهره ، إنما قال شاكيا . .

ـ عارف ثلاثة أشهر هناك كم تساوى . . كم يا جاهل ؟

يعنى دورا جديدا كان يمكن أن أضيفه إلى هذا . .

أشار إلى المبنى الرئيسى الواقع على يمين الداخل ، ثم ردد بعد صمت قصير . .

ـ لكن ليس هذا ما يكوينى . . المهم حنينى إليه ، إلى الحبيب المصطفى . .

رفع يديه إلى السماء .

ـ إنتقم لى منهم . . إنتقم لى من أولاد الحرام . .

بقى أياما يجلس بمفرده . ظاهر الغم ، عازفا عن الخلق ، يمر به البواب ، يطلب منه أن يذكر الله ، أن يصلى على الحبيب ، يشير إلى الفراغ ، منبها إياه إلى الهواء النقى ، العذب ، هل هناك فى الدنيا أجمل من بحر مطروح ؟ غير أنه يلوح بيده مهموما .

لم ينزل البحر قط ، لم يمش بحذاء الشاطىء ، لم يجلس بأى مقهى ، لا مطل على البحر ولا فى الشوارع الداخلية ، طوال فترة البناء أقام فى هذه الزاوية الصغيرة لم يغيرها ، فى الصباح كان البواب يحمل الدورق ليصب المياه عندما يغسل وجهه . يمسك الصابونة حذرا ، يحركها بين يديه ، ثم يضعها فى ورق معدنى قبل أن يزيح الرغاوى عن وجهه ، على فترات متباعدة ، كل أربعة أو خمسة أيام يطلب وعاء مملوءا ، يقف داخل الزاوية ليستحم ، بينما

يقف البواب على مقربة حتى لا يدنو أحد فيرى صاحب الملك عاريا كما ولدته أمه ، لم يستغرق البناء طويلا ، الحق أنه بذل مجهودا ، كان يمضى إلى الجهات المعنية عدة مرات يوميا ، يتردد على متعهد توريد الزلط ، والرمل ، ومقاول الأدوات الصحية ، يقول دائما ان أى تأخير معناه تعطيل لدورة رأس المال ، أى خسارة حقيقية . بعد ما يقرب من عام اكتمل بناء العمارات اثنتان إلى اليسار ، اثنتان إلى اليمين . يتوسطهما ممر عرضه ثلاثة أمتار . مبلط ، يحيط بهم سور متوسط الارتفاع ، يتخلله باب خشبى فوقه لوحة زرقاء كتب عليها بحروف بيضاء « أدخلوها بسلام آمنين » . فوق السور علق أربع لافتات خشبية ، كتب على كل منها . « مصيف السعادة ـ شقق فاخرة بالكماليات ـ تليفون . . .» ، إلى يمين الداخل ، عند ناصية العمارة الأولى . يوجد المكتب . يشبه الدكان ، إذ يغلق بأبواب من الصاج المضلع ، داخله أريكة جلدية قديمة ، ومنضدة فوقها تليفون أمكنه الحصول عليه بعد وساطات عديدة ، لعب فيها موظف العلاقات العامة دورا أساسيا . من موقعه هذا يمكنه رؤية الداخل والخارج . ومتابعة المارة . يغلق الباب بمجرد خروجه . حتى إذا غاب عدة دقائق .

بعد تمام البناء والتشطيب . تسلم كافة المفاتيح ، مفاتيح الأبواب الرئيسية ، مفاتيح الغرف ، من كل واحد نسختين ، بدا واثقا ، سعيدا ، مستبشرا ، نصحه البواب أن يذبح عجلا عند العتبة ، ويفرق لحمه على الغلابة ، لكنه أبى ، قال إن هذا مكلف ولا داعى له ، لكنه فى اليوم نفسه أخرج حزمة من أعواد البخور ، وزعها على الشقق ، أشعلها وقال أن هذا أكثر بركة .

تتكون كل عمارة من خمسة طوابق ، عدا الأولى إلى يمين الداخل ، أدوارها ستة ، فى كل طابق ست شقق كل شقة حجرتان وصالة ، ومطبخ صغير ، ودورة مياه افرنجية ، فرشها بأثاث متشابه ، اشتراه من تاجر الموبيليا الوحيد . كما اشترى أكداسا من الملاءات ، وأكياس الوسائد ، ومراتب إضافية . وعندما أبدى البواب ملاحظة حول كثرة العدد ، قال إن كل شقة ستحتاج إلى

طقمين . واحد للفرش ، والثانى لتغييره بمجرد سفر الفوج . وما زاد عن ذلك سيتم تخزينه . الشيء الذى ثمنه قرش واحد اليوم ، سيصبح غدا بقرشين . وبعد غد بثلاثة ، أما ما يفقد قيمته باستمرار فالجنيه ذاته .

البواب أبدى ملاحظة أخرى بعد خجل وتردد ، إذ انتظر طوال مدة البناء ، نام فى العراء صيفا وشتاء ، على أمل سكنه بالغرفة التى تقع فى نهاية الممر والملحق بها دورة مياه مستقلة ، هذه الغرفة جعلته يتحمل أشياء عديدة ، أبسطها طول غربته ، وانقطاعه عن أسرته ، المحاسب وعده أن الغرفة من نصيبه ، إنه بحاجة إليها . لتلمه هو وعياله ، هل نسى وعده ؟ لكنه فوجىء باستخدامها كمخزن للملاءات والوسائد الزائدة .

لوح المحاسب بيده مهونا . مخففا الأمر ، ما الداعى للعجلة ؟، شهور الصيف ستنقضى بسرعة ، بعدها ستصبح العمارات الأربع خاوية ، يمكنه فتح أى شقة والنوم فيها ، أليست بيده المفاتيح كلها ؟

البواب لم يسكت ، إنما جادله قائلا إن الفرش له مكان فى الطابق تحت الأرضى من العمارة الثالثة ، إن غربته طالت ، وتركه عائلته بعيدا أمر لا يرضى الله . ولا تقبله ملة ، ولا يجوز فى أى شرع أو دين ، غربته طالت ، ويتمنى لم الشمل .

المحاسب قال ان الطابق تحت الأرضى به بقايا المواد المستخدمة فى البناء . براميل فارغة ، أسلاك الكهرباء أكياس « مونة » البياض . هل يرمى هذا كله فى الشارع ؟، فليأت له بمن يشترى هذه البقايا ، وليعد المكان . ثم انه سيشترى غسالة كهربائية حديثة وينوى وضعها هناك ، والا كيف وأين سيتم تنظيف المفارش والبياضات ؟

قال البواب إنه ممكن الاحتفاظ بالغسالة فى الغرفة ، هنا زعق المحاسب . .

ــ وتديرها على كيفك . .

لم يخف البواب ضيقه ، نتر بيده ابتعد ، وقف المحاسب بمفرده متصورا أن

الموضوع انتهى . غير أن البواب مضى إلى موظف العلاقات العامة ، لطالما ارتاح إليه ، وصفه بأنه ابن حلال ، طيب ، وكريم ، امرأته لا تنساه يوم الطبيخ ، ترسل إليه طبقا ورغيفين ، وربما شريحة بطيخ ، أو عنقود عنب ، أو قطعة بسبوسة ، اعتاد هو أن يقضي حوائجهما خفية . قبل ذهابه إلى السوق يمر بالبيت . يسأل عما إذا كانا فى حاجة إلى أرغفة من الفرن ، أو أى شيء آخر ؟، بدا راغبا فى الخدمة ، الأسرة طيبة ، لا يسمع لأفرادها صوت . دائما فى حالهم ، حتى الولد والبنت لا يلعبان فى الشارع ولا يثيران أى ضجيج ، وكثيرا ما صاح محذرا من الجانب الآخر إذا رأى البنت الصغيرة تشب برأسها عبر حاجز الشرفة إذا طلبت منه الزوجة أمرا أو قضاء حاجة سعى مبتهجا ، خفيفا ، راضيا ، وإذا طلب منه المحاسب شيئا فأنه يتباطأ ، وإذا أستطاع أبداء الحجج أو الاعذار فانه لا يتردد . مع أن المحاسب صاحب الملك ويمكنه أن يلحق به الضرر ، لكن شعورا خفيا لديه أن المحاسب فى حاجة إلية ، ولن يمكنه الاستغناء عنه . والحقيقة أن المحاسب وثق به . تحدث دائما مع القوم الذين يزورونه للاتفاق على قدوم أفواج المصطافين عن أمانة البواب . وإخلاصه . وخوفه الشديد من الحرام .

هذه الثقة لم تأت بين يوم وليلة ، لكنها نمت عبر المدة الطويلة ، منذ أن كان البناء مجرد خطوط بيضاء فوق الأرض . ثم حفرة ، ثم أساسات متقاطعة ، حتى ارتفعت الطوابق واحدا بعد الآخر ، وعندما عرض عليه مقاول البياض إكرامية سخية راوده شك ، فأبلغ المحاسب . وعندما عثر على ورقتين فئة العشرة جنيهات فى الممر . قدمها إليه . قائلا ، « عد فلوسك » . أبدى تأثرا ، دس النقود فى جيبه ، لم يقل صراحة إذا كان المبلغ من نقوده . أو يمت إلى شخص آخر . ردد « يا سلام على الأمانة » . قال البواب « الحرام ما يعمر » . كان يعرف الحسابات الخاصة بالمقاولين ، والعمال ، ومرفق المياه الذى تم الاتفاق معه على تزويد العمارات بماء الشرب ، ومرفق الصرف الصحى ، واقساط الأثاث المستحقة للتاجر .

اصعب الأوقات عند الدفع ، يؤجل خروج القرش من جيبه حتى آخر

لحظة ممكنة ، يجادل ، يثير ، العقبات ، يدقق ، يراجع الكشوف عدة مرات ، ثم يخرج آلة حاسبة صغيرة من جيبه ، يمسحها جيدا ، ثم يضغط الأزرار الصغيرة العديدة . ثم يتأكد من صحة التوقيعات ، يضاهى ، يقارن ، ينظر عن قرب ، يحلق بدون منظار . .

عند الدفع ، يا ساتر على منظره لحظة عده النقود ، أولا ، يقعد ، لا يمكنه الدفع أبدا واقفا ، حتى لو فى صالة بنك . يجلس على كرسى على حجر ، على الرصيف إذا لزم الأمر . ثم يخرج حافظته الجلدية ، يبل طرف أصابعه ، يخرج ورقة ، يفرك طرفها خوفا من التصاقها بأخرى ، ثم يمد ذراعا مترددة ، ورقة ، ورقة ، حتى لو كان المبلغ الفا أو الفين ، أحيانا يرفع العشرة الجنيهات ، أو العشرين إلى الضوء ليرى العلامة المائية ، ربما يطلب تغيير واحدة بأخرى .

عند تسلمه مبلغا ما يبدو مرتاحا ، مستمتعا ، كأنه على وشك الشروع فى المضاجعة .

فى اليوم الذى يسدد فيه مبلغا ، أو يتسلم مقدارا من النقود ، يمكن رؤيته تحت المصباح مباشرة ، يدون أرقاما وعلامات ، ثم يستدير متمهلا إلى الخزانة الحديدية ، لا تفتح إلا بعد إدارة أرقام معينة لا يعرفها إلا هو .

بعد أن يقضى ساعة أو أكثر فى التدوين ، والترقيم ، وإجراء اتصالات هاتفية بصوت هامس ، يخرج متعبا ، يقف أمام المكتب فاردا طوله ، واذ يلمح حنفى يقول له . .

ــ اعمل لنا كويين شاى . .

المقهى لا يذهب إليه ، والشاى لا يشربه إلا من البواب ، وكثيرا ما تغاضى عن تلميحاته فيما يتعلق بالمشروبات التى يقدمها للسائقين . ضاق البواب حتى أوشك على هجاج أكيد ، أرض الله واسعة ، والرزق هنا يتحمل ويصبر ، أمله فى هذه الغرفة ، وعندما أبدى المحاسب المماطلة أصبح قاب قوسين من مغادرته المدينة كلها ، وحتى لا يندم لجأ إلى جارهم الشاب الطيب موظف

العلاقات العامة بالمحافظة ، حكى الأمر من بدايته ، كيف تحمل المشاق ، ونام فى الظل شهورا على أن تلمه هذه الغرفة . أن يرسل فى استدعاء أسرته من البلدة . منذ مفارقته لهم ، وهو يحلم بحجرة تجمعهم معا ، لها باب يغلق عليهم ، ودورة مياه مستقلة ، ثم ان العبء ثقيل ، انه ينظف سلالم العمارات الأربع يوميا ، ويمسحها مرة كل أسبوع ، كذا الممر ، يضع المفارش فى الغسالة وينشرها ، يقضى بعض الحوائج . أمور المحاسب نفسه فى حاجة إلى اثنين ، وليس شخص واحد ، طوال النهار يبعث به إلى هذا ، إلى ذاك ، وفوق هذا كله عليه الانتباه إلى مدخل البيوت حتى لا يقترب أحد الغرباء ، حمل ثقيل ، لكنه صبر ، على أمل تسلمه الغرفة التى وعده بها ، وها هو الآن يماطل ، يطلب منه النوم فى العراء ، بين السور والمبانى ، هل كتب عليه العيش عمره كله فى الخلاء ، هو فى ناحية ، وامرأته وأطفاله فى ناحية ، الحق أن موظف العلاقات العامة أصغى مطولا ، بدا عليه التأثير ، قام على الفور متجها إلى المحاسب ، قابله هذا حذرا ، متوجسا ، مع انه زاره فى بيته ، وأكل عنده مرتين ، وتوسط له مرارا فى المحافظة .

قعد إلى جواره فوق الدكة الخشبية التى صنعها النجار للبواب من بقايا أخشاب البناء . قال موظف العلاقات أنه يقصده لأول مرة فى أمر ويرجو منه ألا يرده خائبا .

تزايد حذر المحاسب ، غاصت رقبته بين كتفيه ، تداخل فى بعضه ، تطلع إليه بعينين ضيقتين . .

ــ خيرا إن شاء الله . .

قال موظف العلاقات العامة ، ان البواب هو رجله بلا شك ، وفى غيابه يبدو حريصا على المِلْك أكثر من صاحبه ، حتى انه تشاجر مرة مع سائق عربة نقل بمقطورة أوقف سيارته أمام المدخل ، كما انه يطارد الأطفال الذين يحاولون تسلق السور . .

ــ هو . . اشتكى لك ؟

أبدا ، أبدا لكنه فهم منه حاجته إلى أسرته ، وهذا لن يتم إلا إذا نفذ

المحاسب وعده . ألم يخصص حجرة له ؟

لوح بيده مهونا ، قال ان هذا البواب ثرثار ، تحدث معه أكثر من مرة . الحجرة مشيدة خصيصا له ، لكنه قفل لا يريد أن يفهم ، المصيف لا يستمر إلا أربعة شهور ، أربعة ونصف على الأكثر ، بعدها يمكنه أن يتمدد فى الملك كله ، سيصبح بمفرده ، يفتح أى شقة ويدخل ، عليه تحمل شهور الصيف لا غير . .

تساءل الموظف :

ـ فى العراء ؟

لا ، لا ، أشار إلى الممر الضيق الذى يفصل بين السور والبناء ، سيجهز له مرقدا مؤقتا ، ماذا يفعل . . الاتفاق مع الشركات اتسع بحيث أصبح عدد الأفواج القادمة أكثر مما قدر . .

ـ هذه الحجرة الصغيرة سوف تضيف إلى دخل المشروع ألف جنيه فى الشهر . . عرضوا تأجيرها فى أيام الذروة بخمسين . . ويمكن أن تصل إلى خمسة وسبعين . .

قال الموظف ان البواب لم يقصر معه ، هو ائتمنه على الملك كله ، ليس من المعقول أن يبخل عليه بحجرة ، طبعا ، يصدق كل كلمة قالها حول تسكينه فى الغرفة بعد الصيف ، لكن الرجل يريد أن يحضر أسرته ، وعلى أى حال ، فعندما تتوفر له الراحة ، سيأخذ منه أكثر . . عملية اقتصادية أيضا . .

ـ يعنى أضحى بألف جنيه عشانه ؟ ، أنا شخصيا لن أنام فى شقتى ، رتبت أمورى فى المكتب ، لكن أخسر ألف جنيه عشان خاطر عيونه ، يا سلام . . نجوم الظهر أقرب له . .

قام الموظف يائسا ، متخليا عن هدوئه ، ولباقته التى اكتسبها من ممارسته الطويلة كموظف علاقات عامة ، استدار مرددا . .

ـ أول طلب أقصدك فيه وتكسفنى .

ـ اطلب شيئا معقولا . . لكن طلبك ثمنه ألف جنيه فى الشهر . .

فى الليلة نفسها جاء البواب صامتا ، لملم خلقاته ، صرها فى بقجة كبيرة ،

وقف أمام المِلْك ، صاح بأعلى صوته انه لن يكسر لقمة خبز أخرى فى هذه البلدة ، انه راحل إلى أرض الله الواسعة ، إلى ناس يقدرون قيمته ، يوفون بوعودهم ، ويحترمون كلمتهم . .

اختفى المحاسب تماما ، كان فى مكان ما داخل العمارات ، وعندما بدأ البواب يخطو مبتعدا كان آخر ما سمع منه .

ــ حسبى الله ونعم الوكيل . .

تابعه الموظف وزوجته من الشرفة . . صامتين ، متعجبين ، لكن فى الليلة نفسها حدث ما لم يتوقعه أحدهما ، فبعد انصراف البواب بساعة تقريبا ، ظهر المحاسب أمام العمارات مرتديا البنطلون القصير ، والقميص الأبيض وغطاء الرأس ، والحذاء الرياضى ، رفع رأسه باتجاه شقة الموظف ، لم ير أحدا . لكن النافذة كانت مفتوحة ، وصوت التليفزيون يسمع بوضوح ، بخطى سريعة قطع الشارع ، مضى إلى موقف عربات الأجرة ، إلى الميدان الرئيسى ، إلى مقهى الصعايدة ، إلى محطة القطار ، فوق الرصيف يقعد حنفى فوق الدكة الرخامية منتظراً قطار الواحدة صباحا ، المتجه إلى الاسكندرية ، وقف أمامه ملامسا خصره بيده ، قال . .

ــ قم معى . .

تطلع إليه صامتا .

ــ والغرفة ؟

بحلق البواب فى اليد الممدودة إليه بالمفاتيح ، فيما بعد قال للموظف انه لقى نفسه أمام شخص آخر تماما .

ــ مبروك عليك يا عم . . مادمت لا تريد أن تفهم . .

أبدى البواب همة عالية فى تنظيف الحجرة ، وإعدادها لقدوم أسرته ، اشترى بالتقسيط كنبة بلدى ، يمكن استخدامها كمقعد وسرير ، وطشتا من الألومنيوم ، وأطباقا ، وموقدا ، ومصباحا غازيا تحسبا لانقطاع الكهرباء .

وافق المحاسب على تغيبه ثلاثة أيام لا غير ، حذره من التأخير ، أول

الأفواج سيصل فى بداية الأسبوع القادم ، وقع عدة اتفاقيات مع شركات صباغى البيضا ، وغزل المحلة ، ونسيج كفر الدوار ، ومؤسسة مطاحن الشهال ، ومصلحة الأرصاد الجوية ، مدة الفوج أسبوع . الوصول أيام الجمع والآحاد والثلاثاء ، يتم تسديد القيمة كاملة ، ويجرى الحساب بالنسبة للشخص الواحد . فإذا جاءت عائلة خصص لها شقة مع الأخذ فى الاعتبار عدد الأفراد ، الحق انه شغل وقتا طويلا ، وقضى ليالى عديدة يدون أرقاما ، ويجرى عمليات طرح وضرب ، وقسمة وجمع ، شطب وكتب ، حذف وأضاف ، دوّن العديد من الملاحظات ، فكر وخطط فى أفضل وسيلة لاستغلال المِلْك . التأجير الدائم لأهالى المحافظة أو العاملين بها غير اقتصادى ، ثم انه من المتعذر تأجير كافة الشقق مفروشة طوال السنة ، يا سلام . . يا سلام لو أن شركة كبيرة تقدمت ، وطلبت تأجير الشقق طوال الاثنى عشر شهرا لموظفيها ، لكن أين هذه الشركة فى تلك المحافظة النائية ؟ أين ؟، يعرف مهندسا عمل فى السعودية ، عرفه عن قرب ، عاد إلى القاهرة واشترى مساحة من الأرض فى ضاحية المعادى ، شيد عمارة من خمسة طوابق ، كل طابق شقة واحدة لا غير ، لكنها تدر له مبلغا هائلا ، لماذا ؟ لأنه أجرها إلى شركة بترول أمريكية ، والإيجار يدفع مقدما لمدة سنة ، أى حظ ؟

لكن الأراضى فى المعادى مرتفعة السعر ، هنا الأسعار رخيصة جدا ، ثم أن شهور المصيف ستدر ربحا يتجاوز بكثير الإيجار السنوى لو أنه أجر الشقق كلها خالية ، أما إذا رزقه الله بمستأجر فى الشتاء فهذا خير وبركة ، ترك عند البواب عقودا بيضاء ، وحدد له اسعارا ، وشرح له ما يجب أن يقوم به أثناء غيابه ، إنه يثق به تماما ، لهذا ضحى بتلك الغرفة .

نجح فى تجنب سماسرة المدينة حتى لا يدفع عمولات ، لكنه لم يبادرهم بالجفوة ، إنما تعرف إليهم ، وسعى إلى بعضهم ، هؤلاء هم من سيأتون إليه بزبائن الشتاء ، والخريف أيضا ، ومما أسعده كثيرا اكتشافه أن صاحب فندق الخليج الأخضر من بلدة مجاورة لقريته ، اتفقا على التنسيق وتبادل المنفعة ، إذا

زاد العدد واكتمل فى الفندق يمكنه ، تدبير مكان فى العمارة للنزلاء ، وإذا حدث العكس يمكن للفندق إيواء الزبائن ، ثم تسوى الأمور فيما بعد .

قبل مجىء أول الأفواج بثلاث ليال ، وصل البواب ، حاملا على ابطه ابنه الصغير ، وراءه امرأته الشابة ، سمراء ، ممتلئة ، رآهم موظف العلاقات العامة لحظة وصولهم ، تبادلا التحية ، بعد دقائق طرق البواب الباب ، صافح الموظف بحرارة ، قدم إليه فطيرا ، وجبنا حلوما وثلاث حمامات مذبوحة .

قالت الزوجة ان هذا تعب لا مبرر له ، قال إن خيرهم سابق ، وهنا تساءلت عما إذا كانت امرأته فى حاجة إلى شىء ، الحت عليه ، يجب أن تجىء إلى زيارتها ، انها غريبة ، وهى غريبة أيضا .

قال البواب خجلا ، وهل من المعقول أن تعلو العين على الحاجب ، إلا أن الزوجة طلبت منه الانتظار ، دخلت وعادت تحمل حلة من الألمنيوم ومقلاة بيض ذات يد طويلة مكسوة بالخشب ، قالت إنها فى غنى عنهما . .

نزل مرددا أن الدنيا ما تزال بخير ، وعلى الرغم من عزمه ألا يقدم إلى المحاسب لقمة واحدة ، إلا أنه عندما تذكر وقفته ، ونظراته إلى القفتين ، أدركته رجفة ، عينه وحشة ، وربما أصاب الولد أذى إذا لم يلقمه شيئا مما أتى به . قدم إليه نصف فطيرة ، وقطعة لحم حمراء ، ابتسم فرحا ، قال انه الخير الحقيقى ، مذاق اللحم مختلف ، بسط صحيفة قديمة فوق المكتب ، التهمه بشهية ، وأطال مضغ اللحم ، من طلب كوبا من الشاى الثقيل حتى تكتمل المتعمة .

لم ينس البواب قط منظر فكيه وهما يمضغان اللحم ، يثير الضيق ، لم يحدث أن اشترى « زفرا » ، أى زفر ، لا لحم ولا طير ، طعامه الدائم قطعة من الجبن ورغيفان ، عنده علبة حلاوة طحينية ، يفتحها مرتين فى اليوم ، يخف منها رقيقة هشة ، يستحلبها على مهل ، لا يفتح فمه طوال مضغها ، أما الشاى فيشربه مع البواب .

بعد وصول الزوجة من الصعيد ، بدأ متطلعا ، متنظرا ، وعندما قال مبتسما . .

— البيت كله رائحته تقلية . .

تجاهل البواب إشارته ، لم يفته التلميح ، كان ممكنا تقديم طبق من الملوخية التى فاح عبقها فى المدخل ، لكنه أحجم ، عند الظهيرة تراجع متمهلا ، أغلق الباب . قعد إلى الطبلية والولد فوق حجره . وعندما طرق الباب ، أشار إلى زوجته أن تتوارى ، قال مجاملا . .

— تفضل معنا . .

قال واللوم باد فى صوته . .

— انت لم تسأل فينا يا عم . .

اضطر إلى الالتفات .

— طبق للبك . . ورغيف يا بنت ؟

صاح المحاسب ، مسمعا الزوجة . .

— لا داعى للخبز . . عندى أرغفة من أمس !

فى العصر أعاد الطبق فارغا ، ممسوحا ، وليس مغسولا ، قال إنه لم يذق ملوخية كهذه ابدا ، ضحك . .

— تذكرنا بعد ذلك ولا تنس . .

هذا ما حاول البواب تفاديه ، لكن الأمر جرى وكأنه مقدر مع وصول امرأته وعياله ، فبمجرد فوح رائحة الطبيخ ، يرفع وجهه متشمما ، متسائلا . .

— يا ترى المدام طابخة ملوخية ؟

اضطر مرغما إلى إضافة فرد بالغ ، شره إلى أسرته فى أيام الطبيخ ، أو عند قلى الفطائر ، أحيانا يأتى المحاسب بنصف كيلو باذنجان ، أو ربع كيلو بطاطس ، يعطيه له ، راجيا أن تقوم المدام بإعداده ، أنه مشغول دائما ، كان

يأتى بما يكفيه بالكاد ، يستعيذ البواب بالله ، عندما يحمل ثمرة باذنجان واحدة ، أو ثلاث حبات بطاطس ، ويرجو من امرأته قليها للبك ، حتى الزيت لم يأت به . وطبعا الفلفل ، والملح ، والبهارات .

ثمة أمر آخر أقلقه ، لكنه لم يفض به لأى شخص ، حتى أقرب الناس إليه فى هذه المدينة النائية ، موظف العلاقات العامة ، أنه تلصص بصر المحاسب عند ظهور امرأته الشابة ، لكنه استعاد هيئته فيما بعد ، عقب ما رآه فوق السطح .

خيل إليه حينئذ ، وتأكد فيما بعد أنه يقترب فى عمق الليالى من الغرفة ، يقعى بجوار الباب ، أو تحت النافذة إذا عجز عن النفاذ ببصره فى ليلة حارة يتركان فيها مصراعى النافذة مواربين ، حرص على تنبيه امرأته أن تغلق الباب جيدا عند بقائها بمفردها ، وإسدال الستائر ، ألا تمسح البلاط إلا والباب مغلق ، قبل وصول المصطافين ، وبعد ذهابهم ، لا يكون فى العمارات الأربع إلا هى وطفله البكر .

لم يفته أيضا متابعته للمارات عبر الطريق ، عندما يكون بمفرده فى مكتبه ذى الواجهة الزجاجية ، أحيانا يقوم ويخرج ، يستند إلى الجدار ، يقدم ساقا ، يؤخر أخرى ، يثبت بصره أو يهرول بنظراته إثر ردفين ممتلئين يتجهان صعدا حتى يغيبا تماما عن دائرة رؤيته ، بينما يده مدسوسة فى جيب بنطلونه القصير ، أوشك على سؤاله دائما ، لماذا لم يتزوج ؟ لكنه أثر الصمت ، وأن لم يتخل عن حذره ، ولم يفارقه ضيقه بسبب نظرات الجوع الشره المسددة بإتقان وخفية إلى امرأته فى لحيظات ظهورها ، إلا أن مجىء المصطافين وبدء الموسم أتى بمشاغل جديدة ، بدأ معه كده وتعبه .. طبعا لم ينس أول فوج ..

أمام الباب الرئيسى الذى يتوسط السور الخارجى وقف المحاسب لحظة وصول أربع عربات كبيرة ، غادرها رجال ونساء وأطفال ، تصاعد ضجيج القادمين ، صيحات الأطفال ، وتساؤلات عن الحقائب التى بدأ إنزالها من الأبواب الجانبية ورصها فى الطريق ، صخب ، لكن تسوده بهجة . أنهم

قادمون إلى مصيف ، مشهد اعتاد الجيران رؤيته عند الوصول ، وعند الرحيل . .

يقف عند المدخل ، عاقدا يديه أمام صدره ، متطلعا إلى الجميع ، منتظرا لحظة توجههم نحوه ، وعندئذ رفع يده ، باسطا أصابعه ، طالبا منهم الهدوء ، وراءه وقف البواب ، فى شرفة البيت المقابل وقفت زوجة موظف العلاقات وشقيقهما التى نزلت عليها ضيفة عدة أسابيع فى الصيف . وعندما هدأ الضجيج ، قال بصوت خطابى ، مرتفع ، إنه يرحب بهم فى المصيف الجميل ، وأنه وفر لهم كافة وسائل الراحة فى شققه الخاصة ، الفاخرة ، المزودة بالكماليات ، إنه يقدم إليهم نفسه ، فهو صاحب هذا المِلْك ، وهو فى خدمتهم ، إقامته هنا لمدة أربع وعشرين ساعة ، مستعد لتلقى أى شكوى ، لكن هناك ملاحظات ضرورية لابد من الاصغاء اليها أهمها . ضرورة الحرص على كل نقطة مياه . يرجوهم عدم الأسراف ، ألا ينسوا الصنابير مفتوحة . المياه هنا مشكلة فى المحافظة كلها ، سيوفر لهم احتياجاتهم لمدة ساعتين فى الصباح ، وثلاث ساعات بعد الظهر ، طبعا لابد من الاستحمام لإزالة ملوحة البحر .

ضحك مبتسما ، جاوبه البعض . .

الأمر الثانى ، ضرورة الحفاظ على الأثاث ، كل شىء مرتفع السعر ، وأى قطعة سيتم إتلافها لابد من دفع تعويض عنها .

ثالثا ، لابد من الانتباه إلى الكهرباء ، يرجوهم الا يتركوا مصابيح الشقق مضاءة طوال الليل ، أما أنوار السلالم فستبقى حتى الفجر .

رابعا ، سيتم تغيير أنابيب البوتاجاز فى المواعيد المقررة . . المحافظة بعيدة يا اخوان ، آخر شىء ، عدم إلقاء الزبالة فوق السلالم أو من المناور ، سيوزع عليهم أكياسا من البلاستيك على كل شقة ، وعند الذهاب إلى البحر يرجو وضعها بجوار السور الخارجى ، وسيتم إزالتها أولا بأول . .

بعد أن فرغ ، أصغى إلى استفسارات شتى ، بعضها حول جهة البحر .

وأفضل الأماكن للنزول ، الحق .. أنه أجاب بالتفصيل ، أشار إلى ناحية الشاطىء ، ذكر أسعار النقل بواسطة العربات الصغيرة التى تجرها الحمير ..

طلب تقدم العائلات أولا ، ثم بدأ يدون عدد أفراد كل منها فى دفتر متوسط الحجم . أما الموظفون والعمال العزاب ، فخصص لهم العمارة المطلة على الطريق الجانبى ، وعندما لمح طبلة وآلات موسيقية أخرى ، حذر من إحداث ضجيج بعد الثانية عشرة ، ثم طلب الانفراد بالمشرفين على الفوج ، وهو من سيتعامل معهم . سلم كل منهم المفاتيح لتوزيعها بمعرفتهم ..

طوال الأيام التالية كان المحاسب يرى فى مختلف أوقات النهار ، متجولًا هنا وهناك ، مرتديا الزاى الرياضى ، وغطاء الرأس ، بين الحين والحين يدخل المكتب حيث يرفع سماعة الهاتف ، يتحدث بعض الوقت ، وفى الغالب يمسك قلما ، ويدون أرقاما . سمح للمصطافين استخدام الهاتف ، مقابل جنيه واحد للمكالمة ، الأجر الرسمى ثلاثون قرشا ، لكنه أخبر موظف العلاقات العامة أن الكثيرين لا يفضلون الذهاب إلى مكتب البريد ، وانتظار الدور ، من هنا يمكن لكل منهم الاتصال مباشرة بمحافظته أو بلدته بواسطة النداء الآلى ..

لاحظ البواب مكوثه أثناء اتصال أحدهم ، وقوفه متظاهرا بالنظر إلى الساعة لضبط مدة الدقائق الثلاث المسموح بها والمحددة للمكالمة ، ولكنه وثق أنه يتصنت ، وإن لم يتصور أبدا ما رآه فيما بعد ، فوق السطح ، فى العتمة !

لا ينقطع الضجيج طوال اليوم ، يتزايد خاصة فى الصباح ، قبل الخروج إلى البحر ، وبعد تناول الإفطار ، ترتفع صيحات النساء ، وأحاديث الرجال ، كثيرا ما يصيح أحدهم من الطابق الثالث أو الرابع ، معلنا انقطاع المياه ، وربما زعق آخر على المحاسب شاكيا إيلاجه مفتاح الشقة وعدم استطاعته إخراجه ، أو عطل مفاجىء أصاب مفتاح الكهرباء أو تسرب البوتاجاز من الأنبوبة ..

أحيانا يصعد بنفسه ، أو يطلب من البواب الذهاب لمعاينة ما جرى ، فيما

بعد أدرك حرصه على الطلوع عند الأسر ، ليلمح امرأة فى قميص النوم ، أو ليتبادل الحديث البطىء مع الفتيات ، لم يكن يرسله إلا عند العزاب .

شكا لموظف العلاقات منعه من تلبية حاجات بعض الأسر ، مثل قضاء الحوائج من السوق ، كشراء الخضار ، أو الذهاب بصينية سمك إلى الفرن ، أو شراء الصحف والمجلات لهذا أو ذاك ، مثل هذه الخدمات تعود إليه بمال يسير تعوض قلة المرتب ، وزيادة الغلاء ، المحاسب اعترض بحجة أن هذا سيشغله عن ملاحظة المِلْك ، وعندما ألح ، وقال له إنه يحجب عنه الرزق ، اقترح قيام امرأته بهذه المهام ، إنها شابة ، وعفية ويمكنها ذلك . أجابه غاضبا أنه لا يوجد رجل صعيدى يقبل قيام امرأته بخدمة هذا أو ذاك ، قال ، إذا خشى عليها من العزاب فلماذا لا تخدم الأسر ، غير أنه أبى واستنكر ، بعد أيام عاود الإلحاح ، فوجىء بالمحاسب يطالبه بنسبة معينة من الإكراميات ، ثم قال بالانجليزية . .

— هذا بيزنس . .

— نعم !

— شغل ، يعنى شغل يا غبى ، أنت تستفيد من شغلك فى المِلْك . . وأنا لى نصيب . .

صاح البواب :

— لكن هذا رزقى . .

جاوبه بزعيق حاد ، ألا يكفى أنه ضحى بألف جنيه فى الشهر من أجله ، ألا يكفى ذلك ، هذه الحجرة التى يشغلها مع عائلته لا ينام هو فى مثلها ، فى هذا المِلْك شقاء وعرق سبع وعشرين سنة ، ويجب أن يستعيد نقوده . وما اقترضه من البنوك ، عندئذ أقسم البواب أنه لن يخدم هذا ولا ذاك ، ما دامت عينه على أى قرش يدخل جيبه . . ليست المرة الأولى أو الأخيرة التى يلمح فيها أو يذكر صراحة سماحه له بسكنى الحجرة ، ردد دائما تضحيته بمكانه ، بشقته الخاصة ، وبقاء البواب فى حجرته ، فى البداية أعد مكانا لنومه فى مخزن المفروشات الموجود أسفل الطابق الأول ، لكنه بعد أسبوعين قال إن

المكان مكتوم ، طلب منه أن يحمل مرتبة وملاءة ، ويصعد بهما إلى سطح العمارة المخصصة للعائلات ، قرر النوم فى الهواء الطلق ، حذره من الهواء البارد آخر الليل ، وأنه ربما أصيب بنزلة برد ، أو روماتيزم ، وعلاج هذا مكلف جدا ، لكنه لوح بيده .

— أنت جاهل .. هل تفهم أكثر منى ..

ولكنه فهم فيما بعد اختيار هذا السطح بالذات لنومه ، فى الليل لا يكف عن التجوال ، أو صعود السلالم ، التوقف أمام الشقق المغلقة ، أو النظر عبر المناور إلى النوافذ الصغيرة المفتوحة ، محاولا الإصغاء إلى المياه المنسالة ، أو متتبعا أضواء الكهرباء الموقدة ، مرة أثار مشكلة صاخبة مع أحد المشرفين ، إذ لاحظ بقاء بعض المصابيح موقدة طوال الليل . قال المشرف إن بعض الأسر تضطر إلى ذلك لخوف الصغار من النوم فى العتمة . أطرق ولم يجب ، فى اليوم التالى مباشرة جاء بالمقاول الكهربائى يصحبه صبى صغير . قام بتركيب مصابيح صغيرة جدا ، تبث هسيسا من الضوء ، شدد على استخدامها بعد منتصف الليل ، قال إنه يفعل ذلك حفاظا على الطاقة ، من أجل البلد .

كان يغلق المحبس الرئيسى للمياه فى المواقيت التى حددها ، والمياه من أكثر المشاكل التى سببت إزعاجا للكافة ، وأولهم البواب ، يوميا يهرول مرات إلى المرفق لاستعجال وصول العربات ، أعداد المصطافين كبيرة ، واستهلاكهم مرتفع ، فى البداية كان السائقون يجيئون على مضض ، لأن صاحب المِلْك أبدى شحا غير معهود ، وعندما صارحه البواب رد عليهم أن هذا شغلهم ويجب القيام به ، قال له إن البلد كلها ماشية هكذا ، وأن سمعة المِلْك ستسوء إذا اشتكى النزلاء من انقطاع المياه ، لكنه صاح مقاطعا ..

— هل تعرف كم سيكلفنى هذا ؟ — لكن الناس .

— اسكت يا أخى .. أنا ضحيت بألف جنيه بسببك ..

لوح بيده ، وانصرف مبتعدا ...

— أنت حر ..

لكن الأمر ازداد تعقيدا عندما تأخرت عربة الماء فى الوصول ، ولم يعد فى الخزان نقطة واحدة ، علت الاحتجاجات ، وهدد المشرفون بكتابة تقارير إلى إدارات شركاتهم لفسخ العقود . اضطر المحاسب إلى الاختفاء ، لم يجدوا أمامهم إلا البواب الذى طلع إلى موظف العلاقات ، رجاه استخدام نفوذه ، لولا ذلك ما وصلت عربة المياه فى التاسعة ليلا ، بعد أن صرخ الأطفال من لسع ملح البحر ، ولم تستطع الأسر تجهيز وجبات العشاء . فى هذه الليلة خاطب المحاسب بحدة . .

— شوف يا ابن الناس ، هذه أول سنة للمصيف ، والناس سوف تطفش منك . .

فيما بعد حكى لموظف العلاقات أن ألما شديدا بدا عليه ، وكأن مشرطا يمر بجلده .

— يعنى كم نعطيهم ؟ قبل أن يجيب ، فوجىء بصياحه . .

— طوال النهار تقعد معهم أمام العمارة ، وتعد لهم الشاى . .

أجابه بهدوء :

— المودة لها حدود ، شىء من الإنسانية ، وشىء من بعد النظر يا بك . .

بعد يومين . رآه واقفا أمام المدخل .

— انت لم تر المدينة . .

تطلع إليه متسائلا ، عندئذ قال له . .

— يعنى انت لا تخرج ولا تدخل . . روّح عن نفسك . .

أشار بيده :

— واسيب المِلْك لمن ؟

— العمارة باقية مكانها . .

لوح المحاسب لا مباليا . .

— أصلك فاضى . .

عندما رأى امرأة موظف العلاقات تقف أمام البيت ، بينما يقوم اثنان من العمال بتسوية الرصيف ، قام من مكانه ، عبر الطريق ، بعد أن حياها بأدب

شديد ، تساءل عما يفعله هذان . قالت انهما يسويان الرصيف حتى يصبح منظره أفضل ، تساءل عما إذا كانت اتفقت معهما ؟ ، أومأت مجيبة ، قال مبتسما ، هل من الممكن مساعدته فى تسوية عتبة المدخل الرئيسى فقط ، عملية بسيطة لن تستغرق سوى دقائق معدودات . أشارت إليهما . .

— اتفق معهما . .

لم يجب ، إنما أولاها ظهره مبتعدا ، ابتسمت ، تذكرت عندما أحضر زوجها بعض أصص الزهور ، ورصها عند مطلع السلم ، يومها أسرع المحاسب ، إليه ، واستفسر عن ثمنها . وعندما أصغى إلى الإجابة ، ردد شاكيا . .

— هذا كثير . . كثير جدا . .

ثم قال أنه أنفق كل ما عنده ، والمِلْك لم يدر بعد ما يكفى ، مع ذلك ضحى بألف جنيه فى الشهر وأعطى الغرفة للبواب . .

— سمعت كلامك يا عم . . لكن كلفنى هذا كثيرا . .

قال زوجها له إن البواب أمين ، وهذا لا يقدر بثمن ، أومأ موافقا ، لكنه قال إن لسانه طويل أحيانا ، قال زوجها له إنهما يأكلان فى ماعون واحد ، تطلع إليه بعينين ضيقتين ، حذرتين ، ثم دعاه إلى المكتب ، صاح طالبا من البواب إعداد كوبين من الشاى ، قال إنه يحتاج إلى موافقة من المحافظة ، ينوى العام القادم تحويل مكتبه هذا إلى « سوبر ماركت » صغير ، يبيع فيه الأطعمة المحفوظة ، والمأكولات الخفيفة ، ولوازم البقالة . لماذا يدعهم يذهبون إلى السوق ، لو وفر لهم هذا هنا فسيدر ذلك ربحا ، ويريح الناس ، المهم أنه ينتظر موافقة السفر إلى السعودية .

سأله زوجها . .

— فيه مشاكل ؟

قال إنه مرتبط بعمل مؤقت مع شركة للنقل ، أحد زملائه سافر ولم يخبره مع

أنه هو الذى توسط له ، وهناك سعى ضده ، حتى حرمه من تصريح الإقامة إثر وشاية رخيصة .

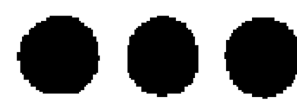
— منه إلى الله . .

— يا رجل ، ألم تشبع من السفر؟

— أسكت . . الشغل هناك كله بركة . .

عندما بدأ حضر اساسات مبنى جديد قرب ناصية الطريق ، بدا قلقا ، لم يهدأ ، راح يسأل عن المالك ، من أى جهة ؟ ولماذا جاء إلى مرسى مطروح ، الغرض من الإقامة ، عدد الطوابق ، عمق الأساسات والتكاليف . . التكاليف مهمة جدا .

طلب من البواب تسقط الأخبار ، وتحرى الأمر ، لكن البواب صار أمره إلى اضطراب ، ولولا ضيق مجالات الرزق لفارق المكان بصحبة أسرته ، من يدرى ؟ ربما تسلل المحاسب ، وكمن لامرأته كما رآه هذه الليلة ، شىء مقرف . لكن ماذا بوسعه أن يفعل ، بل إنه لم يعد يراه إلا من خلال هذا الوضع الغريب الذى رآه عليه ، عندما صعد إلى السطح بعد العشاء ،وفوجىء به مطلا إلى المنور ، وبنطلونه القصير بين قدميه ، كذا سرواله ، مؤخرته عارية تماما ، ولانهماكه البالغ فى استحلاب متعته لم يشعر به ، ولم ينتبه . .



نوفمبر ١٩٨٨

دمـــعات

إذن .. سافرت ؟

استوثقت الأمر عندما فتح الباب ، وأطل وجه فتاة سمراء ، ترتدى المعطف الأبيض ، تحمل صينية فوقها أكواب الشاى والماء ، وفناجين القهوة . سألتى ..

— تامر بشىء ؟

— أنت معنا ؟

— نعم ..

أومات شاكرا ، استعدت اللحظات الأخيرة التى رأيتها فيها . ترى .. أين هى الآن ؟ . وإلى أى المصائر تسعى ؟ .

بعد وصول زميلتى ، سألت ..

— مديحة سافرت ؟

— بعد بدء اجازتك بيوم ..

— اعتدنا عليها ..

قالت ، هذا صحيح ، كانت بنتا طيبة ، مهذبة ، مبتسمة ، بشوشة الوجه ، كانت منا ، عندها قبول حسن .. سكتت لحظات ثم قالت :

— لكن العاملة الجديدة مهذبة أيضا ..

أومأت موافقا ، قلت ..

— نصحتها ألا تسافر ..

— الدنيا صعبة ، وبختها وحش ..

تراجعت إلى صمتى . فى هذا اليوم أدركنى قلق خفى ، مستتر ، استعصى علىّ تقصى بداياته ، محوره وقوع خلل ، يسير ، ضئيل ، لا يمكن للبصيرة ، أن تلحظه ، يستعصى على الرصد ..

عند الظهر أدركت دهشا أنه سفرها ، غيابها ، إلى هذا الحد اعتدت وجودها بيننا ؟ عجيب .. لم أصافحها مرة واحدة ، لم أضع يدى فى يديها ، جرى الحوار وثمة مسافة مرئية وخفية تفصلنا ، دائما .. عبارات سريعة ، موجزة ، خاطفة ، وفى الأغلب الأعم ، بمبادرة منها وإقبال .. استعيد طرقها الباب ، دخولها المتمهل ، المبتسم ، تدركنى وحشة ، اتساءل ، أين هى الآن ؟ لا أذكر متى رأيتها أول مرة ، متى التحقت بالبوفية الخاص ؟ من سبع ، من ثمان سنوات ؟

لم تكن موجودة سنة اغتيال السادات ، هذا مؤكد ، لكنها كانت بيننا عندما انتقلنا من المقر القديم ، إلى المبنى الجديد المواجه .. منذ خمس سنوات لا غير ..

جاورت فى المبنى الأول أربعا آخرين ، حاجز خشبى حال بينا وبين بقية الصالة المستطيلة ، جدارتها تغطيها الأرفف الخشبية ، تتخللها نافذتان مطلتان على الشارع الجانبى .

لم يستغرق وقوفها إلا ثوانى معدودات ، كانت حانية ، لطيفة الطلة ، مبتسمة ، غير ذات ثقل ، وجهها الذى أراه عند انصرافها ، أشهده بنفس

الملامح التى طالعنى بها فى الصباح الباكر ، فكأنها لم تبذل المجهود ، ولم تتعب اليوم كله ، ولم تستكن .

عرفت أننى أفضل شرب الشاى الثقيل بعد وصولى مباشرة ، وفى منتصف يوم عملى ، وقبل انصرافى بنصف ساعة ، عدا ذلك تقترب على مهل ، تسأل ضاحكة العينين . .

— أجيب شاى ؟

افارق سطور الورق ، ربما أومىء موافقا ، ربما أطلب عصير الليمون ، منذ أربعة أعوام بدأت تنتابنى حالات الدوار تلك ، بدأ غوصى فى قرار سحيق ، فى أيام اعيائى الأولى ، وبدأ نصبى ، كانت تستفسر جزعة . .

— مالك . . لونك مخطوف . .

عندما واجهتها بعينى المجهدتين ، وداخلى المنهمك . قالت جزعة . .

— سأرجع حالا . .

عادت بعد لحظات تحمل الصينية المستديرة ، عليها كوب واحد فقط ، مستطيل ، مملوء بالليمون المركز ، والسكر الغزير ، جرعته مرة واحدة . كأنى الود به ، درءا لهذا الدوار البغيض ، وقفت ترقبنى راضية ، قالت إننى احتاج إلى مشروب حلو ، ثم قالت أنها ستعد بيديها كوبا مثل هذا عندما يدركنى التعب ، فيما تلا من أيام توقفت أمامى مرات .

— لا . . أنت فى حاجة إلى ليمون . .

لم أردها أبدا ، أحيانا أخجل من اهتمامها الآتى من أعماقها البعيدة ، من زمن كانت تسعى فيه أمى قبل غيابها الأبدى ، بعد اكتمال المبنى الجديد ، انتقلنا اليه ، خصصوا لى غرفة صغيرة تفيض بالضوء ، نافذتها واسعة . أواجه الخلاء الممتد ، وأرى تغير السماء ، وتوالى الظلال فى ساعات النهار المختلفة ، فأدرك وأعى دائما تسرب الوقت . إذ يرهق الكدر عينى اسعى بنظراتى إلى الأفق الممتد . بيوت المنطقة عتيقة ، بالية ، وفدت من القرن الماضى ، طابقان أو ثلاث على الأكثر ، بناء مؤسستنا يرتفع ثلاثة عشر طابقا .

بقيت مديحة فى المبنى القديم . لم يكتمل بعد المحصل المخصص للبوفيه وحتى . تلبى طلبات زملائى قام أحد السعاة بإحضار موقد كهربائى يعد به الشاى سرا ، فهذا غير مسموح به طبقا لتعليمات إدارة الأمن .

لا أذكر السبب الذى سعيت من أجله إلى المبنى القديم ، لمحتها ، جاءت متهللة ، وقفت ويداها من الجيبين الأماميين اللتين أضافتهما إلى تنورتها . الأول للنقود الورقية ، والثانى للمعدنية .

قالت إنها فى وحشة . اعتادت علينا ، الشغل هنا خفيف ، تود الانتقال لكن المتعهد يرفض ، لكنها ستحاول .

قلت إننى أتمنى أن أراها هناك قريبا . .

مالت إلى الأمام ، سألتنى عن الدوار ، عن تعبى الذى يحل عند الظهيرة ، قلت إننى أفضل ، وإن هذا التعب يحل فى الأيام التى يقل فيها نومى . قالت :

— لاترهق نفسك . .

— الشغل كثير . .

بعد أيام قليلة فوجئت بها تقف أمام المصعد ، قالت انها ستعمل معنا من الغد . قالت انها فرحة جدا ، خفضت صوتها ، قالت إن بعض الزميلات طلبن من المتعهد انتقالها هناك ، قالت إن أولاد الحلال كثيرون .

قلت . طبعا .

عادت .

كانت تدخل إلى الغرفة بعد وصولى بدقائق ، تحمل صينية الشاى ، الكوب كريستال الشفاهية ، السكر فى طبق صغير ، كوب الماء . تضع هذا بعناية ، بتأن ، وإذ تفرغ ، تقف لحيظات تسألنى خلالها عن صحتى ، ثم تستدير مفارقة . غير أن حضورها الباسم يبقى فى الغرف . .

كانت تصل فى الصباح ، ضاحكة ، مستبشرة ، مع أن رحلتها من منطقة الزاوية الحمراء إلى مقر المؤسسة طويلة ، شاقة ، تبدل المواصلات مرتين .

عند وصولها ترتدى المعطف الأبيض وتجول مرحة عند قدوم ضيف لم أكن فى حاجة إلى الخروج بحثا عنها ، كان حاسة خفية عندها تنبئها . عرفت المترددين علىّ ، الذين يجيئون على فترات متقاربة . أولئك الذين يندر ظهورهم إلا لحاجة ماسة ، بل عرفت ما يفضله البعض ، مرة بعد خروجها ، قال صاحب لى يدير مكتبا تجاريا .

— البنت لطيفة جدا . .

لم يغب عنى ما احتواه صوته من محاولة إيحاء ، قلت انها بنت مكافحة ، تساءل ساخرا . .

— وهل يمنع ؟ أليست امرأة ، لها جسد وروح ؟

لم أتماد فى الحوار ، عندما استعدته به ذلك ضقت به ، لمت نفسى لأن ردى لم يكن حاسما ، هل بدر منها ، أو طالع فى هيئتها ما يوحى بخصوصية ما ؟ . حنوها البادى لم أغفله ، لكننى لم أسع بخيالى إليها كأنثى .

ملامحها جميلة ، هادئة ، قمحية ، شفتاها غزيرتان ، فى عينيها مس حزن ، وبصيص فرعونى قديم . حضورها يستدعى إلى وعيى لوحة قديمة لم أطلع عليها ، أيضا ما تخلف فى الفراغ من انتظار أمومى طويل مشوب بحنين . وقوف أمام جدار من مادة رقيقة بيضاء . لا تعرف ، إذا انهار أو تصدع تبدأ غيبة طويلة .

لماذا تلك الصور بالذات ؟

لا أدرى ، لكننى لم أستدعها إلى خيالاتى كأنثى مرغوبة ، حتى عند جموح شهواني . مع أنها خصتنى بمالم تفض به إلى غيرى ، تأكد لى هذا بعد سفرها ، لم تجلس فى غرفتى إلا هذه المرة الأخيرة ، لكنها اعتادت الحديث إلى واقفة ، توجز قدر استطاعتها ، بينما أبدى التشاغل ، لا أضع القلم فوق المكتب ، انما أظل ممسكا به ، شاخصا إليها ، مومئا ، متطلعا إلى الأوراق المتناثرة . لزمت الحذر . ربما أساءوا طول مكوثها داخل غرفة مكتبى . أكره أقوال الخفاء ،

الهمسات التى يمكن أن تبدأ هنا ، وهناك . ربما قام ذلك الحاجز بسبب حذرى ، ثم أصبح جزءا من الصلة .. ربما .

فى ذلك اليوم ، بدت حزينة ، كابية ..

— عم غازى ..

— ماله ؟

اطرقت ، غازى هو العامل الذى يقوم بإعداد الشاى والمشاريب المختلفة ، عمل سنوات طويلة فى المقاهى ، تقلب فى أكبرها وأصغرها حتى استقر به الحال هنا ، تجاوز الخمسين ، رقبته نحيلة ، طويلة ، عيناه جاحظتان متزوج ، أب لأربعة ، هام بمديحة حبا ، عرض الزواج ، اعتذرت ، ضيق عليها ، أحاط بها ، صار يثير المشاكل كلما رآها تتحدث إلى أحد السعاة ، خاصة محمود النوبى ، ان عواطفه تجاهها لم تعد سرا ، انما أصبح أمرهما ذائعا ، منتشرا ، بل موضعا لسخرية البعض ، خاصة أنه زوج وأب ، لكن ما يطمع الناس فيه خفته ووهجه ، وقلة صبره ..

سألتها فجأة ..

— ولماذا لم تتزوجى

— غازى ؟

— لا .. أنا أسأل عموما ..

قالت بصوت خفيض . ان شابا يسكن بالقرب منها ، إذ أنها تعيش مع شقيقها ، طلبها . شاب طيب ، يريد أن يعيش ، ابن ناس فقراء لكن سمعتهم حسنة . اخوها رحب به ، صارا صديقين ، لكن الأمر لم يتم ، لماذا ؟

أحواله معسرة ، لم يدخر المهر ، كان عندها كردان دهب عرضته عليه ، ان يبيعه ويتم بثمنه ما ينقص ، لكنه أبى ، كل شىء يرتفع سعره بصورة كبيرة ، حتى جاء يوم اضطر أخوها أن يطلب منه الكف عن الدخول والخروج ، الناس تلاحظ ، وتتكلم ، والوقت يمر ، وما من خطوة حقيقية تمت ، كان ذلك مؤلما جدا ، لكن ما من مفر .

— من يومها . لم يتقدم إلىّ أحد . .

أبديت أسفى . بقيت واقفة ، تود لو أطالت المدة ، لكن . . ماذا سيقول الآخرون عن الغيبة .

متى تحدثت أول مرة عن سفرها ، كان مجرد فكرة . إنه يوم سبت ، غابت يومى الأربعاء والخميس وصباح السبت مبكرة ، مبتسمة ، راغبة فى الحديث .

— فطرت ؟

— طبعا . .

— لا . . عندى لك حاجة حلوة . .

سألتها . أين اختفت ؟ قالت إنها زارت البلدة ، تبعد ساعتين عن القاهرة ، أمها هناك ، قالت انها أحضرت فطيرا معمولا بالسمن البلدى ، وجبنا قديما ، بالتأكيد سيعجبه . حاشت نصيبه ، ربع فطيرة . . أكلت ، اثنيت على مذاق الفطير الذى يصبح من علامات الماضى ، أكدت لى أنها لو سافرت مرة أخرى ستحضر لى فطيرتين كاملتين ، أشارت باصابعها فى الفراغ . ثم قالت انها ربما ترحل . .

لم انتبه أول لحظة ، لكننى أدركت أنها تعنى سفرا مختلفا ،

— إلى أين ؟

قالت ان شقيقها ينتظر عقد عمل من الأردن ، قابل صاحب ورشة هناك ، عرض عليه . ولما أخبره أنه يعيش مع شقيقته ، وأنه لا يقدر على مفارقتها . فلا أحد لها غيره . قال إن الأمر بسيط ، سوف يدبر لها عملا فى المدينة كمشرفة حضانة ، مادامت تعرف القراءة والكتابة ، وذات مظهر لا بأس به . .

تطلعت إليها ، لمحت نظراتها مستفسرة ، حائرة ، كأنها تسألنى رأيى تسعى إلى مشورة .

قلت اننى أكره فكرة السفر ، إلا إذا حتمت الضرورة ، على شقيقها أن

يدرس الظروف جيدا . الغربة صعبة ، سألتها عما ستتقاضاه ؟ ، قالت : مائتى دولار . استفسرت عن السكن ، قالت : هم سيدبرونه . قلت ان الأسعار هناك مرتفعة ، عدت أسأل : كم تتقاضين هنا ؟ . قالت إن متعهد البوفيه يدفع لها ستين جنيها مرتبا ثابتا ، ويأتيها مثلها تقريبا من البقشيش مرت أسابيع ، لم تذكر شيئا عن السفر ، استعيد ملامحها خلال تلك الفترة ، فأراها ناطقة بالود ، بالحيوية ، والرغبة فى القرب ، شمولية البسمة ، عدا يوم لا أذكر موقعة الآن بين أيام الاسبوع . رصدت ضيقا فى عينيها ، سألتها عما بها ؟ . كانت قريبة جدا ، وددت لو تراجعت مقدار شبرين بمقعدى ، رغبت أحدهم إلى الجلوس ، لكن . . لم يحدث هذا من قبل ، غير معتاد هنا .

قلت إن الناس قساة ، قساة جدا .

استفسرت مرة أخرى ، قالت إن أحد رجال الأمن يضايقها منذ فترة ، وأنه كتب تقريرا يقول فيه ان عاملة البوفيه تبقى بعد انصراف العاملين ، وأنها تخلو بمحمود الأسمر فى غرفة المدير . .

— تصور يا أستاذ . . تصور . .

— وأين وصل التقرير ؟

التفتت الىّ منفعلة ، بادية الحدة ، قالت انها منذ خمسة أعوام هنا ، لم يبد منها ما يشين ، كل شخص يعرفها ، كما أنها تعرف كل انسان هنا ، تفهم النظرات المسددة إليها ، والذين يتظاهرون بشىء ويضمرون خلافه . قالت . .

— فيه ناس طيبين مثلك ، لكن فيه أشرار . . أشرار قوى يا أستاذ . .

أمسكت حافة المكتب ، لاحظت تحرك وجنتيها إذ تعض على أسنانها وأضراسها قدمت إليها منديلا ورقيا ، أومأت برأسى ، طلبت منها أن تخبرنى بتطور الأمور ، خاصة إذا حولوها إلى التحقيق ، ليس سهلا تلويث الناس . . ، انجلى كدرها فجأة ، قالت :

— أناآسفة . . حملتك مالا ذنب لك فيه . . قلت إن ما أفضت به لم

يزعجنى ، إنما يطلعنى على بعض مما يجرى فى هذه المؤسسة . وهنا قالت :
— أنت الوحيد البعيد عنهم .. أنت فى حالك .

فى اليوم التالى قابلت الساعى محمود الأسمر صدفة ، بادلته التحية ، مضيت ، لا أدرى . ربما ، استعدت لحظات رأيتها تتحدث إليه ، كان هذا فى منتصف نهار بعيد ، هل بدا شيء ما ؟ اثمة خصوصية ، فى الوقفة ، فى النظرات ؟ لم أحسم !

أيام قلائل مضت ، نهار يقترب من نهايته ، عندما طرقت الباب ، دخلت تحمل صينية فوقها كوبان فارغان ، وجهها كدر ، أكثر من المرتين السابقتين ، عندما جاءت تشكو عم غازى ، ورجل الأمن ، وضعت الصينية فوق المنضدة الصغيرة .
— ممكن أقعد ؟
— طبعا .. تفضلى ..
أشرت بيدى ، التفتت إلىّ .

— تصور يا أستاذ ، إننى لو رأيت ان استريح فلا أجد مقعدا أجلس إليه .. طوال النهار أدور كالنحلة ..

بدا صوتها مغموسا بالأسى ، مترقرقا ، قالت انها أحيانا تود لو تخلو بنفسها لحظات ، أوقات تضيق بالآخرين ، من ذاتها هى . تطلعت إليها صامتا لا أدرى ما يجب أن أقوله ، أو أفعله ، قالت :
— حزينة .. حزينة جدا ..
قبل استفسارى ، استمرت ، قالت إنها ستسافر ..
— إلى أين ؟
— إلى الأردن ..
— يا ه .. هذا العرض القديم ..

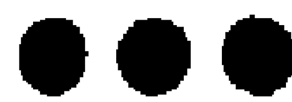
قلبها مقبوض ، ستسافر مع شقيقها ، لكن إلى بلد لا تعرف فيه أحدا ،

بلد غريب ، لا تدرى . بمن ستلتقى . أو بمن ستجاور ؟ قالت انها اعتادت الناس هنا ، تعتبر نفسها واحدة منهم ، وأنها فى ونسة ، لكن هناك ستكون فى وحشة ، لا تعرف متى سترجع . .

كانت ترثى ولا تودع ، نقبت عن كلمات مؤازرة ، للتهوين من شدة الأمر ، لكن لهجتها فتقت عندى جروحا . وحركت اساى ، وعيت فى هذه اللحظة أنها موشكة على اغتراب ، لكننى مغترب فعلا ، وأنها ظلت هائمة ، دائرة حولنا ، على مرأى منا ولم ندرك ، وها هى تحط جالسة فوق مقعد ، عندى هنا لأول مرة ، ورحيلها على وشك انما لتبكى . .

فى لحيظات تحول بكاؤها إلى نشيج أرجف جسدها ، واستدرج دمعاتى إلى مشارف مآقى ، فدنوت داخلى من شفا نواح طالما كتمته ، خاصة عندما رددت فى كلمات متقطعة مجروحة . .

ـ يا عالم . . متى يلتقى الحى بالحى ؟



نوفمبر — ١٩٨٨

كشـــف

. . مدة انقضت ، زمن غير قصير ، حتى أدرك كنه الصلة بين قدرته على استعادة ملامحها ، وحضورها ، وبين تخلصه من علامات هذا العرض البغيض . يثقله إذ يبدأ . يسد عليه جهاته ، لم يعرفه فى سنى عنفوانه ، وأوان شدته ، لم تلح نذره ، خاصة وأن المسافة لم تكن اتسعت بعد ، أما الآن فما أشد الفارق ، وأوعر القفر . .

إذ يبلغ ارهاقه مدى ، يبدأ هجوعه بعد نصب ، متمنياً الإفلات من أرق بغيض ، يقضه قضاً ، أرق يلح ويجثم ويضمضم ، خاصة عند سفره ، فى الليالى التى يمضيها بعيداً ، وتلك التى تسبق رحيله .

بمجرد تلون الرؤى ، تميع الصور ، تداخل اللحظات المولية بالآتية بالمقبلة ، لحظة الاجتياز التى لا يمسك بها الوعى ، اجتياز برزخ ما بين النعاس واليقظة ، ينتفض !

يقوم بغتة ، خطر غامض ، شائه الملامح ، لا يدرك مصدره ، يدهمه ،

يوشك على تمام الإحاطة به وتطويقه ، يهرع نبض قلبه مرجوفا ، يبقى أيسا من كل عون ، فى داخله تشتد زلزلة ، ويلوح انخساف أمر ! يشتد وعيه انه مغادر ، مفارق ، مقلع بعد لحيظات إلى أبد لا يعرفه . ما تبقى من زمنه الخاص مقدار طرفة عين . أما شمس الغد فلن تطلع عليه .

يفزع

يجتاز الفراغ بكينونته الجثمانية من سفل إلى علو ، تتباعد أطرافه ، ساعيا صوب غوث غير مرتجى ، قاصداً الهواء ، الفراغ ، يشرع فى الإفلات مما يحيط به ، يفتح النافذة حتى وإن نزل بلاداً تتدنى فيها الحرارة ، ويحتوى الجليد سائر الموجودات ، يبقى تحت وطاة انتظار المحق ، المحو . لكنه لا يكتمل ، لا ينتهى عنده . انما يستمر فى عبوره ، لكن مع تكرار الأمر ، مع تأكيد الطبيب المداوى أن الداء ليس عضوياً ، انتبه إلى بدء الفكاك مع طلة ملامحها ، بزوغها من داخله ، يمعن البصر صوبها وهو حسير . وإذ ينزل به همود يعى أنه نجا ، ولكن . . إلى حين لا يعى متى لاحت له الصلة والرابطة بين هذا الوجه الذى لم يعلق نظره به إلا لحظات عابرة ، مارقة ، حتى شك فيما جرى واق عليه حين من الوقت لم يدر ان كان ما رآه حقيقة أو هما ، كانت الملامح التى راها ، إطلع عليها ، التى حدق إليها فى هذه اللحظات النهارية النائية ، المشعة بالضوء الساطع . تراوحه . تفارقه ، تدنو ، تبعد ، حتى أيقن فى الفترة الأخيرة أن الأمر متصل ، ذو وشائج . .

متى راها ؟ متى وقف على هذه اللحظة ؟

لا يمكنه القطع ، أو التحديد ، لا يقدر على القول أن هذا جرى يوماً بعينه ، اثنين أو ثلاثاء . ذاكرته لم تع ، لم تستوعب ، لكنه يوقن أن هذا جرى فى أيام أوجه ، ومرحلة شدته ، وإيناع فتوته .

كان يعمل رساماً فى القسم الفنى بالمؤسسة التعاونية ، يومياً يقطع الطريق من بيته فى الحى القديم إلى منطقة الدقى الحديثة ، يبدأ رحلته اليومية فى وقت مبكر ، إن صيفاً أو شتاء . يمضى عبر السكة الجديدة ، ثم الموسكى ، ميدان

العتبة العتيق ، معظم المتاجر ما تزال مغلقة ، فارق كبير بين هدوء الشارع أول النهار وصخب ما بعد ساعتين ، يجتاز قلب المدينة الحديث ، وجسرى النهر .

إلى يمين الميدان الذى تحوطه أشجار مورقة ، خضراء فى تلك الفترة ، يقع مبنى المؤسسة ، عمارة أعدت فى الأصل لتكون مقراً للسكن ، ولكن الإدارة استاجرتها كاملة من المالك .

فى الطابق الرابع القسم الفنى ، فى الحجرة الداخلية منضدة الرسم . اعتاد الجلوس فوق مقعد مرتفع ، مصباح قوى مثبت بذراع معدنية إلى سطح المنضدة الخشبى المائل . يضيؤه أحياناً عندما يمعن فى التفاصيل ، أو فى أيام الشتاء الرمادية ، الكابية .

إنها أيام قصية الآن . لكنه يعى منها الضوء ، وامتداد الأفق ، وتوثب روحه عند عبور النيل . لا تلوح بقايا للكدورات التى عرفها وقتئذ ، لم تمس منه العصب ، لم تنفذ إلى صميم النخاع .

ما تزال التفاصيل جلية فى ذاكرته ، أبعاد الغرفة ، لون الطلاء ، ملامح بعض من اعتاد رؤيتهم وقتئذ ، عامل المصعد ، فى مقدمة ذقنه وشم أخضر مستدير ، مدير الإدارة ، شبه المقابل ، امرأة راسخة القوام ، مهيبة الجمال ، لايستعيدها إلا أثناء خطوها ، لايراها إلا مرتدية قميصاً أصفر من القطن ، لظهورها أزيز . لتقدمها وقع ، اسمها هيام ؟ ، ربما .. لا يذكر ، زوجها أصلع تماما . رآه مرة واحدة عندما جاء ليصحبها ، تبقى منه نظارته السوداء الإطار ، وزجاجها السميك ، وتهدل ثيابه ، وهمس جرى بين زميلين حول خشونة مظهره ، ونعومة حضورها الهادىء .

يذكر زميلاً هادئاً ، منحنياً دائماً ، غاب عنه سنوات ، ثم لمحه صدفه يقف خلف مكتب الاستقبال بأحد الفنادق الحديثة .

إذ يستعيد هذه الأيام المولية يراها مندغمة ، لحظة من هنا ، هبة من هناك ، نفحة باقية ، وأخرى مطموسة ، ظهور شخص كان صاحباً ، اقبال امرأة . يد تمسك قلما ، صوت يجيب على رنين الهاتف ، ما أكثر الأمور التى

تستعصى على الاستعادة . عبثا يحاول ، كأن شخصاً آخر عاشها ، أما عمره الذى كان يجتاز العشرينات وقتئذ ، فمنفصل عنه ، تام الكينونة ، كأنه يمت إلى شخص آخر ، تبدو الأوقات التى كانت متصلة ، متناثرة ، ما من واحدة مكتملة ، عدا تلك اللحظة ، كل زمن وهن إلاها ، كل ما عبره تميع عداها . .

أى رداء كان يستره ؟ أى وضع اتخذ ؟

بالتأكيد ، الالتفات صوب النافذة ، إذ يشعر باجهاد نظره لطول انكبابه ، يولى وجهه الطريق ، كان باستطاعته رؤية جزء من النهر ، وعدد من الأشجار الخضراء التى اجتثت من جذورها فيما بعد . .

فى مواجهة النافذة تماما تقوم عمارة مرتفعة ، يرى الجانب الخلفى منها . حيث نوافذ الحجرات ، والمطابخ ، وفتحات التهوية . . تطل على الشارع الرئيسى المحاذى للنهر ، تصله منه روائح خاصة لازمته مدة ، لم تتكرر عبر مكان آخر ، طعام يُطهى ، ورائحة خبيز كعك وأقراص حلوى فى الفرن الواقع تحت مباشرة .

نافذة مفتوحة ، أو أخرى مواربة ، تطل خادمة لتنفض سجادة ، أو تتطلع إلى لا شىء ، لا ينظر متلصصاً ، يحيد ببصره بعيداً عند ظهور شخص ما حتى لا يظن به أحد سوء القصد والنية .

هذا الصباح . رأى النوافذ كلها مغلقة ، لم يلحظ ذلك إلا فيما بعد ، حتى بدا الأمر وكأنه تمهيد خفى .

لا يمسك حتى الآن بحواف البداية . لكنه يعى الانبثاقة ، بل انها تكررت داخله مرات فيما تلا ذلك ، يندلع لها نبضه مع أن ربع قرن مضى . فوجىء بمصراعى النافذة المواجهة له تماما ، ينخفض مستواه قليلا ، فتحا ، ، حركة قوية ، عفية ، بدون تمهيد أو تأن ، كأن ريحا عاصفة مصدرها داخلى ، لكنه رأى ذراعيها على امتدادهما ، تسندهما حتى لا يرتدا فيكون انغلاق .

أنثى . .

شابة ، ذات بهاء واكتمال ، مرمرية التكوين ، فواحة الحضور ، ضاجة الحيوية ، عارية تماما ، كما وفدت لحظة انضمامها إلى الخليقة ، رآها بازغة ، متدفقة ، فانصهر الفراغ ، ونبع الضوء منها ، لم يعد إلا هى . . ارتج عليه فلم يدر ما يفعل ، لكنه شد ، أوثق إلى وجودها . حام منجذباً إلى فلكها . .

نهدان مشرعان ، بضّان ، فى أوجهما ، استدارة كتفين متناسقين ، عنق طيع ، أما الخصر فيرق ويدق حتى يستعصى على المرء تصور إمكانية احتوائه على شىء .

فيما بعد ، لم يدر كيف ألم بتقبب أردافها ، وتناغمهما ، وحسن تجاور شطريهما ، مع أنها لم تستدر ، ولم تغير وضعها ، كيف اطلع على أطرافها السفلى ، على قدميها وتناسقهما ؟ مع أن شطر الجدار حجب وأخفى ، فكأنه نفذ عبر حجب المادة ، وأحاط بها من جهاتها ، لكم استعاد حركتها ، تلفتها يميناً ، ثم شمالا ، رفع رأسها اتجاهه ، بالضبط ناحيته ، إليه صوبت عينيها الفوسفوريتين . نفثت طلاتها ، فثبت ، وتركزت كل الجهات عندها الأصلية والفرعية معا . .

لم يتخلله ارتباك ، إنما نشوة غامضة ، لم يعرفها من قبل ولا من بعد ، مزيج من رعشة حسية ، وانبثاق داخلى .

وجهها متلألىء ، مشعة ، أما الابتسامة فمنبعثة من ملامحها بأسرها ، يؤطر وجهها شعر أسود ، فاحم ، ولد تناقضاً خفياً مع بشرتها الضوئية التى كان بإمكانه إدراك نعومتها وطلاوتها من مكانه رغم المسافة التى فكر فى اجتيازها ، ولو فعل . . لمضى إلى هلاك .

انفراجة ثغرها ، لحظ تبسمها ، بهاء تواجدها ، هذا كله بدد سائر الموجودات المادية حولها ، حتى أوشك أن يراها واقفة فى فراغ مبين ، ما عداها عدم . .

استوعبها فى مجملها ، وقفتها ، امتداد ذراعيها ، تناسقها ، أصولها الكامنة ، وفروعها البادية ، وعندما تأهب ليرجع الكرة ، فوجىء بها تتراجع قليلاً ، بدأ انسحابها متمهلا ، بطيئاً ، لم يدر من يدفع مصراعى النافذة ، لكنهما انغلقا بقوة ، توارت ، اختفت ، ولكن بعد نفاذها إلى لب كينونته ، وعميق مسامه ، غلب على بقية يومه دهشة وعجب ، وطوال الليل انتشى فلم ينم إلا فجراً ، وصل المكتب مبكراً ، خفيفاً ، مشرقاً وبقيت النافذة مغلقة .

عبر أيامه التالية علق بصره بها ، لكن لم تظهر ، لم يفض بما رآه إلى مخلوق وإن أثقله الأمر ، شغله ونال منه ، أخذ الحيطة ، خشى أن يجرى انبثاقها فجأة ، أثناء انحنائه على لوحة . أو عند خروجه من الغرفة ، أمل فلزم ، لكن عبثا .

مع بدء إيوائه إلى فراشه تغمره نشوة . ويتفجر داخله فيض ، حتى ليود المضى فى عمق الليل إلى مكتبه ، لعل وعسى ، وعند بدء مشيه تتسع خطاه ، يخف تعبه ، لطالما تعجل طلوع النهار ، ثم الوصول .

أحب الخلوة ، آثر الانفراد ، النأى عن الخلق ليستعيد بمفرده ما رأى ، ليسترجع الرؤيا ، الجسد النافر ، الداعى ، ملاحة الوجة ، جمال لم يطلع عليه من قبل ، رصده فى لمحة ، لكنه أودع داخله أثراً لا يمحى ، لا يزول ، لاتبهته الليالى ، وتوالى ساعات الكدر أو الصفو . .

أحياناً يجد المتعة فى استعادة التفاصيل ، التعلق بأمل الظهور ، لكن . . عبثا ، لم تفتح النافذة قط ، فكأنها أوصدت إلى أبد أبيد .

حتى بدأ الوهن ينال منه ؟

لا يمكنه القطع أو التحديد ، لكن فى الشهر الأخير الذى سبق انتقاله من مقر عمله هذا ، خطر له أن يرقب باب العمارة ، لعله يراها داخلة أو خارجة ، ما أيسر ذلك ، البناية مطلة على النيل ، لا يفصله عنها إلا عرض الطريق ، فوق مقعد حجرى قديم . بين شجرتين عتيقتين ، ثبت .

بدأ فى السادسة صباحاً . ليس معتاداً خروج امرأة قبل هذه الساعة لكنه

أثر الحيطة . إذا لم تكن موظفة أو طالبة فعليه الانتظار . ربما تمضى لشراء حاجة أو لزيارة أقارب . . يوم بأكمله ، من شروق الشمس إلى ما بعد غروبها ، لم يفارق بصره مدخل العمارة رمادية الطلاء . .

فى سنواته التالية ، كلما مر فى الشارع ذاته ، تطلع إلى المبنى ، يدور حوله ، فى وقت خريفى ، ومساء موشك على الاكتمال ، رأى النافذة مفتوحة ، لم يكن باستطاعته الصعود إلى الغرفة التى شغلها ست سنوات متصلة .

المؤسسة ألغيت ، المالك استرد المبنى ، يقيم فيه الآن آخرون لايعرفهم ، الملابس المغسولة ظهرت فى الشرفات الخلفية . يجهل من يأوى إلى الغرفة التى لزمها سنوات متتالية ، لا يعرف من يتطلع عبر النافذة التى رأى منها ما رأى ، طال وقوفه فى الطريق ، خشى أن يسأله أحدهم عن تطلعه ، عن تعلق بصره بالطابق السادس فى هذا البناء ، مضى حسيراً خاوياً . .

من يدرى ، ربما انتقلت إلى منطقة أخرى من المدينة ، ربما تزوجت ربما رحلت إلى مكان ما فى العالم ، ربما تتنفس هواء غربة .

فى إحدى الأمسيات جلس أمام التليفزيون ، أم كلثوم تشدو ، تتمايل ، تتنقل الكاميرا بين المستمعين فى صالة المسرح والمنصة ، رأى رجالا ونساء ، هى . . هى . . لمحها ، لايمكن أن يخطئها أبدا . يعرف صبوحة الوجه ، ودقة الملامح ، مال ممسكا بحافتى الجهاز ، حدقه وأطال ، لكن لم تظهر صورتها قط ، حتى عندما عادت الكاميرا إلى المستمعين صورت آخرين . بعد انتهاء الأغنية تراجع منهكا ، متعباً . . التسجيل قديم ، تمت اللحظات المصانة إلى بداية الستينات . . أحقا هى أم تشبه له ؟

أين هى الآن ؟ أين ؟

لابد أن ملامحها تغيرت ، ربما أصابها مرض ، ربما أدركها وهن ، ربما لم تعد فى بهاء اللحظة ، فى هذه الليلة أدرك أن ملامح الوجه نال منها الوقت ، لم تعد واضحة ، محددة ، كان يدركها فى مجملها ، ولكن التفاصيل التى استرجعها حولا كاملا اندغمت ، انطمست . .

دهش وهو يمعن الرحيل داخل ذاته ، أحقا هو الذى عاش اللحظة المتفجرة بالجمال ، الاستثنائية ، التى أعمت بصره عما عداها ؟ هو أم شخص آخر لا يمت إليه بصلة ؟

لكم مضت السنوات بسرعة ، كأنه ماض فى طريق طويل ، منقسم إلى مراحل ، لا تتضح له كل منها إلا بعد تمامها ، إذ تنتهى بقوم حاجز مستحيل اجتيازه ، أو التراجع عبره ، كأن يدا خفية تدفعه دائما صوب نقطة يجهلها ، مع كل خطوة تبهت الصورة ، وتتميع . . صاح ، اعتل فرح وحزن ، طرب وشجن ، لكن تبدلت به المواقع ، بعض من تصور أنهم مقيمون أبدا فارقوا ، ومن توهم دوام وئامهم بغير خلل ، وقعت الوحشة بينه وبينهم .

لكن فى حله وترحاله فى بسطه أوطيه . فى إقباله أو إدباره . لم تندثر هذه اللحظة وإن غامت ، لم تفن وأن خبت ، لم تنمح وإن تميعت .

تعاوده فى مواقف شتى ، فى لحظات لم يع لها ، وأوقات يبدو ذهنه خلوا تماما منها ، فجأة . . تنبثق فوارة ، متدفقة ، فإذا كان صامتاً غمغم وهمهم ، وإذا كان فى حركة كف وتوقف ، وإذا ضمته صحبة انفرد ، ربما هج مسافة ليخفف من الاندفاع المتوالى فى أعماقه ، والذى يدفع به إلى الرغبة فى الصياح ، أو ذرف الدمع . أو نطق الحسرة الموجوعة ، أوقات ينوء بالحمل ، فيلفظ آهة يدهش لها محاوروه ، يستفسرون عما به ، ما جرى له ، هل يشعر بمكروه ، لكنه يكتم ولا يبوح . .

الغريب . . أن لحظات ود شتى . وأوقات صفاء مع ذوى الود والقربى ، أوشك على البوح ، أحياناً يشتد به الدافع أن يحكى ، أن يفضفض ، أن يروى للآخرين باللفظ المسموع حتى يسمع نفسه أيضاً . لكنه إذ يهم يفاجا بقلة حيلته ، وانتفاء رغبته . . لم يشأ مشاركة آخرين له ، فى الشهور الأولى التالية ، كثيراً ما تساءل ، هل بدت لغيره ، هل رأى آخر ما رأى ؟ ويتمكن منه غيظ لو أتاه الخاطر بمجرد احتمال إيجابى . .

ما رآه لم يقصه على أحد ، لم يصفه لمخلوق ، أما رغبته التفوه به ،

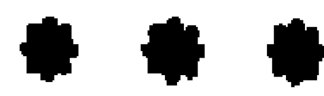
فيحققها إذا خلا بنفسه ، خاصة فى الفنادق النائية ، فى البلاد القصية التى اغترب فيها أياما معدودات .

إذ يعمق الليل ، ويمعن فى وحدته ، يحلق فى الفراغ المكانى الضيق ، يحاول استدعاء اللحظة ليراها ، جلية ، سافرة ، وكثيراً ما تنتفض رغبته ، فيسرى عنده شبق غريب ، حتى ليراها منحنية ، معانقة ، منفرجة ، فيقدم على بذل الجهد الأتم لمضاجعة العدم . .

أحياناً يوغل ، لكنه كلما بذل الهمة ازدادت الملامح بعدا ، عندئذ يلفظ يحدث نفسه بما رأى فى هذا اليوم البعيد . .

ــ أنا من شاهدها ، أنا من اطلع عليها ، هى نظرت إلىّ ، كانت عارية كلحظة ولادتها ، لم تحتجب للتو ، إنما بقيت تضوى فى مجال بصرى . .

حتى دهمه ذلك العرض ، واكتمال وعيه بأوان المفارقة ، ما أفظع اكتمال الوعى بانقضاء المدة بعد دقائق ، بعد ثوان ، كالمعصوب فى الثوانى الأخيرة منتظراً رصاصات الفريق المتأهب ، لكنه وحيد تماما ، خلو من كل عون ، لن يطأ أرضاً أحبها ، وميناء اعتادت البهجة أن تلامس روحه إذ يصله . . فى العتمة المطبقة لاح له هسيس ضوء ورؤى بعيدة ، أطياف من وقفتها ، تطلعها نحوه ، شروعها ــ الذى كان ــ تجاهه ، لم يستعد التفاصيل ، إنما المعنى ، وبقدر تشبثه تنتظم أنفاسه ، وبقدر تعلقه اليائس الضارى بالعبير العتيق يخف الخطر ، أدرك الصلة وكنه الرابطة ، بين قدرته على استرجاع قبس من اللحظة المنقرضة ، الموالية ، وبين استطاعته استنفاد قوى توشك على الأفول ، تمكنه من الطفو . .



ديسمبر ١٩٨٨

خــروج

اضطر إلى مفارقة الصحبة ، مع أن الصفو دام ، والود اتصل طوال السهرة الحميمة ، يجب اللحاق بالمترو قبل توقفه ، انه غريب عابر ، أيامه قليلة هنا ، لا يعرف المدينة جيداً ، والجهل يتبعه رهبة ، مأواه فى منطقة هادئة ، بعيدة ، حذره الكثيرون من المشى بمفرده ليلا ، خاصة أن الغرباء عرضة لتهجم المتعصبين هنا ، أما عربة الأجرة فستكلفه كثيراً . زاده محدود . .

بمجرد دخوله المصعد ، تطلع إلى لوحة الأزرار المستطيلة ، يشير المفتاح ، المضاء إلى الطابق الثانى والعشرين حيث يسكن صديقه .

بتلقائية ضغط الأخير ، هذا ما خبره واعتاده فى مبانى القاهرة ، الشاهق منها ومتوسط الارتفاع ، هذا مصعد حديث ، سريع ، لولا انتقال الضوء عبر الأرقام ما شعر بالسرعة الخاطفة ، كأن الحركة لم تبدأ بعد .

فى المصعد رائحة عطر خفيف ، بقايا عبير غامض لم يدر مصدره أو

مكوناته ، لكنه يثق لسبب ما أن المكان سيرتبط به عنده ، لكل موضع رائحته الخاصة . .

يهز رأسه .

لكل امرأة أيضاً ، كثيراً ما أعاد له طيف رائحة قديمة حقبة بأكملها فيتجدد الأمر ، ولا ينسى .

الطابق الثانى ، يقترب ، الأول . . لكن الضوء لا يثبت ، يستمر انتقاله من دائرة إلى أخرى ، لكنه لا يقرأ أرقاما . .

عندما جاء مع صاحبه . قدما من المحطة ، عبرا الطريق ، ارتقيا عدة سلالم . تؤدى إلى مجمع المتاجر التى تتوسط العمارات الأربع الشواهق قال له ان مثل هذه الارتفاعات لم يعد مسموحاً بها ، البلدية احتجت ، أثير الأمر فى البرلمان ، هذه الأبراج تشوه الطابع التاريخى للمدينة التى تتباهى بعراقتها ، وعتاقتها ، مع أن المبانى تقع عند الطرف الشرقى للنهر ، وبعد عبور الجسر القريب تنتهى الحدود الإدارية للعاصمة ، لكن الجدل حسم لصالح الحفاظ على الطابع القديم ، حتى فى المناطق المحيطة . .

يضىء المفتاح الأخير ، يستقر المصعد تماما ، يفتح الباب تلقائيا ، يخرج .

أين هو؟ أين ؟

صالة خرسانية تنتهى بباب أحمر مصمت ، إلى الجدار الأيمن أنبوب اطفاء حريق ، انابيب معدنية ممتدة عبر السقف ، سع تطلعه إليها انتبه إلى انغلاق باب المصعد .

الفراغ الخرسانى المصمت ، هل أخطأ لكنه ليس المدخل الأنيق ، المبلط بالرخام الذى صعدا منه ، عندما جاءا معا عبرا بابا من زجاج متين ، الجدران مغطاة بمرايا مستطيلة ، إلى اليمين صناديق البريد الصغيرة ، إلى أحدها مضى ، عاد برزمة أوراق ، قال إن الشركات هنا ترسل إعلانات لا حصر لها ، عن كل شىء يسلمونها إلى البواب ويوزعها هو على الصناديق . .

أين هذا البواب ؟

أين مقره ، لم يره عند الصعود ، ولا أثر له هنا ، حيث كل شيء متغير . كأنه في بناية أخرى .

ما تزال الدائرة مضاءة ، تشير إلى وجود المصعد ، لا بأس . . سيعود إلى صاحبه ، يستفسر منه ، ثم يسلك الطريق الصحيح إلى الخارج ، حقا . . إن الغريب أعمى ولو كان بصيراً .

يضغط المفتاح الخارجي ، يظل الباب موصدا ، كيف إذن ؟ ، يخبط شطري الباب . محاولا الإفساح بينهما بيديه ، لعل وعسى ، لكن محال تحريكه ، يعاود ضغط المفتاح . .

عبثاً . .

يلمح شقا صغيرا تحت الزر المستدير ، مخصص لتلقي مفتاح معين ، مفتاح لا يمتلكه ، اجتهد في التذكر ، هل أخرج صاحبه مفتاحا عندما استدعى المصعد ؟ . لم يستطع الجزم ، نعم أولا ، لكنه واثق أنه عند نزوله منذ دقائق لم يكن معه مثل هذا المفتاح . .

إذن . . يمكن النزول ، لكن الصعود مستحيل بدونه ، مفتاح معين لا يوجد إلا مع ذوي العلاقة ، سكان البناية ، تحوطا وحذرا حتى لا يتمكن الأغراب من الصعود .

كيف لم ينتبه ؟

كيف فاته الاستفسار ؟

لكن اللوم واقع على صاحبه ، اكتفى بتوديعه عند باب شقته ، اكتسب عادات أهل البلاد ، حتى في نوعية الطعام وكمياته ، كيف يتركه وحيدا ؟ كيف . .

برودة غريبة في الفراغ ، التدفئة في الطوابق العليا ، في المصعد حتى ، لكن هنا . . لا أثر لها ، تسرى عنده قشعريرة خفيفة ، يلمح لافتة خضراء مستطيلة ، كتب عليها « خروج » ، لحسن حظه أنه يعرف طرفا من لغة أهل

البلاد ، بقايا دراسته الثانوية ، سهم مضىء فى اتجاه الباب . .

ظلام !

فارقه الضوء بغتة ، بدون سابق علامة ، ضوء موقوت يبدأ مع فتح باب المصعد ، لا يستمر إلا ثوانى معدودات ، هدأ عندما رأى الفوسفور المشع يجسد السهم ، ودائرة صغيرة مضاءة بهسيس ، إتجه إليها ، ضغطها .

ضوء . .

يتصرف تلقائيا ، وكأن رصيدا من خبرة مجهولة يدله ، ويشير عليه ، يتقدم صوب الباب ، الخرسانة صارمة . صادة ، رماديتها قاسية ، باب أحمر اللون ، مقبضه أبيض ، الطلاء الكثيف لم يخف حضوره المعدنى الحاسم .

يدير المقبض المستدير ، الباب ثقيل ، لكنه مجاوب ، عندما اجتازه لم يدر ، إلى خروج يمضى أو إلى دخول ؟

النور المتسرب لم يبدد الظلام الكثيف ، السائل ، يلمح المفتاح الصغير بجوار الباب ، يضغطه . .

ضوء . .

تلك قاعة أكبر . صمتها أرسخ . لكن ثمة سهم أيضا ، يشير إلى الاتجاه الأيمن .

خرج . .

باب أحمر آخر . يتقدم بسرعة قبل انطفاء الضوء الذى يدرك الآن أنه لن يستمر إلا ثوانى معدودات ، أمامه طريق يميل منحدرا ، يمضى متمهلا فى البداية .

هل ثمة من يرقبه ؟

تدركه رعدة ، غير أن المكان يبدو مقفرا ، نائيا عن كل صوت وصدى ، تستمر خطاه مع الميل الذى يستوى عند منعطف شبه دائرى ، عيناه ترقبان الجدران ، ليحدد مفاتيح الضوء بسرعة قبل انطفاء الضوء .

انه فى مواجهة ممر كبير ، على الجانبين أقسام يفصل كل منها عن الآخر جدار يبدأ من الأرض . لكن لا يصلها بالسقف ، ينتهى فى المنتصف . فى كل

قسم تربض سيارة ..

جراج إذن !

كيف ؟ يتطلّع إلى الضوء الذى سيظلم بعد لحظات ، كيف وصل إلى هنا ؟، فى مصر ينتهى المصعد فى الطابق الأول المؤدى إلى الخارج مباشرة ، لكن الأمر مختلف هنا ، إذن .. كان ينبغى ضغط المفتاح رقم واحد ، هذه الأزرار التى تحمل حروفا إنما تعنى الجراج ، جراجا متعدد الطوابق ، فى آخرها الآن ، آخرها أو أولها ، لا يدرى ، يجهل المخارج المؤدية .

يسترجع محادثة جرت فى القاهرة يوما مع صاحب مهاجر إلى كندا ، حدثه عن تلك المساحات الهائلة الممتدة تحت المبانى ، عدة طوابق تحت الأرض تؤوى آلاف السيارات ، لا يذكر مناسبة الحديث ، لا يعنيه ذلك الآن ، المهم .. خروجه من هنا فى أقصر وأسرع وقت ممكن .

لن يلحق بالمترو الآن ، هذا غير مهم أيضا ، يمكنه قطع الشوارع مشيا لو اضطر ، المضى إلى موقف عربات الأجرة ، فوق .. سيتصرف رغم كل الأحوال والظروف . المهم الآن .. خروجه بسرعة إلى الطريق ، إلى الفراغ ، إلى الهواء المتجدد ، النقى ، إلى برد الشوارع ، يمكنه تفاديه ، إحكام المعطف ورفع ياقته ، لكن البرودة المحيطة به هنا ، هامدة ، جاثمة ، أبدية ، غير ممكن تبديدها ..

لن يتبع اللافتات ، لن يوغل أكثر ، يجب الرجوع والانتظار أمام المصعد ، سينتظر مجىء أحد السكان ، يشرح حاله ، إذا رأى دوائر الضوء تشير إلى تحرك المصعد ، يمكنه دق الباب المعدنى ، الصراخ طلبا للمساعدة . أمام المصعد حيز محدود ، لكن هذه القاعة الممتدة تبدو بلا نهاية ، غامضة ، السهم يشير إلى اتجاه الخروج ، لكن أى خروج ؟

يتراجع صوب الباب الأحمر . يضغط المفتاح الذى كان بإمكانه رؤيته حتى بعد انقطاع الضوء ، يمسك المقبض الأبيض المستدير ، يلفه .. لكن عبثا . المقبض لا يدور ..

ألم يفتحه من الناحية الأخرى ، ألم يكن سلسا ، عناقدا ليده بأقل مجهود ؟ لكنه موصد الآن ، محكم ، مستعص ، لأول مرة يواجه الغلق الذى لا علاج له .

يلمح غطاء معدنيا بلون الباب ، يزيحه . . فجوة طولية نحيلة ، أيضا . . مفتاح ليس معه ، لا يمسك به ولم يكن له يوما ، باب يفتح من جهة واحدة فقط ، للقادم ــ أو الذاهب ــ من هناك إلى هنا ، ثم يوصد ، يستحيل اجتيازه للغريب ، كل من يقيمون فى الطوابق العليا يمتلكونه ، المفتاح موجود عند كل منهم ، لا يفصله عنهم سوى تلك الطوابق .

صاحبه لديه مفتاح ، ربما أكثر من نسخة ، لم ينبهه ، لم يطلعه ، كأنه يتصور معرفته المسبقة بالبناء وخباياه ، مع أنها المرة الأولى التى يزوره ، إنه قريب ، لكنه بشكل ما يدرك أنه قصى جدا ، يعبر ذهنه صباح شتوى ، مشمس ، قاهرى التكوين ، لحظة عبوره أحد جسور النيل ، تدركه وحشة ، للصمت هموم ، وثقل بغيض . .

عليه التفكير بهدوء ، أن يقصى الجزع . درء الخوف متعدد الشعب الذى بدأ يطل داخله ، انه قريب من المدخل أو المخرج ، يختلط عليه الذهاب بالإياب ، يتحرك من موضع إلى موضع ، من نقطة إلى أخرى ، داخل تكوين يجهله .

لا بديل للهدوء ، للتأنى ، واقصاء المخاوف الغامضة ، وان اشتد عليه همّى الأفكار وتتابعها ، ألم يقرأ ، ألم يشاهد أفلاما عن عالم الجراجات التحتى ، قتل ، سرقة ، اغتصاب ، أين قرأ عن رجل فى الخمسين اغتصب شابة فى جراج ؟، لم يتوقف كثيرا أمام الحادث ، فما أكثر مظاهر العنف هنا ؟ لم يتوقع أنه سيئول إلى مكان مشابه ، جراجات القاهرة من طابق واحد ، قريبة المدى ، لا يخطىء المرء طريقه فيها ، لم يجهل هذه الطوابق المتعددة ، التحتية ، لم يتوقع وجوده فى أحدها يوما ، لم ينبه صاحبه ، وعندما ضغط مفتاح المصعد الأخير ، عندما خرج منه ، لم يدر أنه ينتقل من حضور إلى آخر . . مغاير تماما .

ينادي ذاته ، الثبات ، الثبات ، ليس أمامه إلا أن يتبع السهم الذى يشير إلى اتجاه واحد ، عليه الكلمة المضاءة « خروج » ، أى خروج ؟ ما يظنه خروجا ربما إمعان فى الدخول . عليه الإسراع ليتبين موضع مفتاح الضوء ، لحسن الحظ أنه مصنوع من مادة شفافة تضىء تلقائيا فى العتمة . موجود دائما بجوار الأبواب الحمراء التى لا تفتح إلا من جانب واحد .

على الجانبين تقف السيارات ، كل قسم يحمل رقما كتب بحروف سوداء على لافتة مستطيلة من الصاج ، قرب النهاية تبدأ الأرض فى الميل ، يدرك من ثقل جسده أنه ينزل . .

منعطف ، يدور معه ، يفاجأ ، باب حديدى ضخم يسد الممر تماما ، إذن . . كيف تخرج السيارات ، السهم يشير إلى الحاجز الذى يصل ما بين السقف والأرض . لابد من مفاتيح خاصة لدى أصحاب السيارات من السكان تمكنهم من رفع الحاجز ، أيقن عندما رأى مستطيلا معدنيا معلقا إلى الجدار ، فى مستوى قائدى العربات ، بمقدمته فتحة مستطيلة . إلى الجانب الأيسر باب أحمر ، واحد من هذه الأبواب المتشابهة . فوقه لافتة صغيرة . .

خروج . .

إلى أين ؟

لا يدرى . .

هل يقدم ؟

وهل من بديل ؟

من المستحيل عبور هذا الباب الحديدى الضخم . إلا إذا اقتربت سيارة ، آتية . أو ذاهبة ، عندئذ يطلب العون من صاحبها ، حتى لغة البلاد لا يعرف منها إلا ألفاظا متناثرة . كلمات محدودة لن تمده بعون يمكنه شرح حاله ، وتقديم موقفه وهويته ، ثم ان الوقت متأخر ، وربما انتظر ساعات قبل ظهور عربة ما .

لا مفر إذن من اجتياز هذا الباب رغم إدراكه مقدما أنه سيفتح وبعد الغلق لن يمكنه العودة منه . . يتقبل ذلك الآن كارها ، مضطرا .

لكن . . ماذا يحدث إذا لقى نفسه فى حجرة صغيرة ، معزولة عن البناء ، ان رعدة تسرى عبره ، تنميها تلك البرودة القاسية التى نفذت خلال أنسجة ملابسه وتلامس جلده . .

فليحدق ، فلينظر ، فليتبين قبل المرور ، يمسك المقبض الأبيض ، يديره ، يشده ، يضغط مفتاح الضوء ، هنا بداية سلم أو نهايته ، ضيق ، حلزونى ، مؤد إلى أسفل . فوق الجدار سهم يشير إلى الأمام ، وكلمة « خروج » . إذن . . ليست غرفة مغلقة ، ليس ركنا قصيا مهملا ، يؤدى السلم إلى شىء ما .

من أى مادة صنع الباب ؟ ثقله غير مألوف ، الطلاء يخفى طبيعته ، ليس حديديا ، وليس خشبيا ، يضغط جسده ، يتقدم . واذ يصغى إلى التكة الخافتة يطوله حزن وأسى ، تكة مختصرة ، دالة ، يعرفها الآن ويدرك ماتعنيه .

هذا باب آخر أقفل ولن يفتح له أبدا .

لكن . . لماذا يجزم ؟ ربما اختلف عن الآخرين ، يعود صاعدا الدرجات الأربع ، يحاول إدارة المقبض ، عبثا . . ، انه الإغلاق ذاته ، الحائل المنيع ، ما من مفر ، النزول يعنى الولوج إلى مسافة أبعد ، أو الانتقال من أعلى إلى أسفل ، لكن هذا السهم الخافت ، يبرز كلمة « خروج » مرة أخرى ، أى خروج ، من أين إلى أين ؟

السلم يلتف حول عمود ضخم من الخرسانة ، فى لحظة بدا وكأنه بلا نهاية ، فى لحظة مباغتة ضاع الضوء ، يتحسس الدرج بمقدمة حذائه ، يمضى وكأنه يعوم فى عتمة ، يلمح الضوء النحيل ، الباهت ، الدال على المفتاح . يسرع . يضغطه . .

لم يتبق إلا ثلاث درجات .

ضوء أخفت ، هواء أثقل . برودة أوعر ، وادراك يكتمل بالاقصاء ، يرى قطيرات ماء تنضج عبر الجدران ، أمامه مساحة مستطيلة ، ممتدة ، على الجانبين خانات ، لكن كل منها مغلقة بساتر حديدى من قضبان حديدية

نحيلة ، متقاطعة ، بالداخل سيارات ، بعد عدة خطى ، وتطلعه مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار ، يعكمه كمد .

العربات كلها قديمة الطرز ، غبار متراكم ، بعضها تحتويه أغطية من المشمع حائل اللون ، يقترب من مأوى سيارة سوداء ضخمة ، الزجاج الأمامى محطم ، يطل . . ، يرى إطاراتها مفرغة ، باركة ، أما التالية فبدون مقود .

بطل استخدامها . أم نسيها أصحابها ؟ ، يتذكر شارعا جانبيا هادئا بمصر الجديدة ، يدهش . . لماذا تبدو الذكرى صعبة ، بعيدة جدا ، بتأثير الخوف ، الارهاق ، التوتر . . أم لأنه غامض لا يعرفه ، يقطن أحد أصحابه فى عمارة عند الناصية . أمامها مباشرة عربة قديمة ، لونها الأخضر حال وبهت ، قال صديقه إنه منذ مجيئه وسكنه وماتزال فى مكانها . لا يدرى أين صاحبها ، ولكن على فترات متباعدة يلحظ اختفاء بعض أجزائها ، حتى لم يتبق منها إلا الهيكل الخارجى .

ينطفىء الضوء الآلى ، الموقوت ، الأشد خفوتا ، تعود العتمة الملساء ، لا يدرك ما ينتظره على بعد أمتار ، لم يحدق ، لم يتبين المكان جيدا ، أما الشعور الخفى أن أحدهم يرقبه فلم يواته هنا ، كل ما يعيه الآن أنه بعيد . .

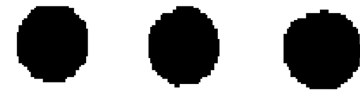
يلمح المفتاح المشع ، يعود الضوء الباهت ، الكابى ، تنتهى الصالة المستطيلة ، أمامه سهم لكنه أكثر قتامة ، أما كلمة « خروج » فحروفها متآكلة . على الجدار علقت لوحة مستطيلة ، تحوى رسما هندسيا ، مستطيلات ، مربعات ، أسهما ، حروفا صغيرة ، وكلمات رقيقة لا يتبينها ، خريطة المبنى ، تصميم المكان . .

أين هو ؟
فى أى منطقة ؟

لا يقدر على التحديد ، لا يمكنه فك رموز التصميم إذا صح حدسه ، تميل الأرض منحدرة ، عند المنعطف ممر ضيق . تنتهى المساحة المستطيلة فجأة ،

ينتهى بباب أضيق ، أقل ارتفاعا حمرته أقتم أقتم بتأثير الضوء الواهن ، ام الإرهاق عينيه ، أو لمحاولته استنفاد ما تبقى من قواه ، أم لإدراكه أنه قصى ، أو لحيرته وتساؤله ،

إلى أين سيؤدى ؟



ديسمبر ١٩٨٨

غـــرق

أرقت فلم أنم . .

ينزل الليل الشتوى على المدينة والخلاء القريب مبكرا فتشتد غربتى ، تخلو الطرقات إلا من عابرين قلائل ، وتغلق المقاهى أبوابها ، تهرع الرياح فتهز حواف الأشجار ، أما أصداء الأضواء الخافتة البعيدة فتضاعف بُعدى .

أعود إلى تلك الاستراحة فيتم اقصائى ، أقابل الليل بمفردى ، خلوا من كل عون ، منبتا ، وما من مساعد !

يقيم فى المبنى مهندس زراعى ، كتوم ، منقول قبلى بأسبوعين ، يأوى إلى غرفته مبكرا ، أبقى بابى مواربا ، أصغى إلى صلاته ، مسيحى هو ، أحيانا أعبر الصالة ، أرضيتها خشبية ، تصر الألواح المستطيلة ، العتيقة ، ألمحه واقفا فى الركن موليا وجهه تجاه النافذه ممسكا كتابا صغيرا يتلو بصوت منغم ، رتيب ، إذ يفرغ يرسم علامة الصليب فى الفراغ مرات ، ثم على صدره ، يقول بصوت مرتفع . .

« تصبح على خير » . .

أجاويه من داخل حجرتى ، أو أخرج أمام الباب ، يغلق غرفته فينقطع كل حس ، أرتد إلى الفراغ القديم ، الجدران المرتفعة ، السقف البعيد مصباح كهربائى يتدلى سلكه القاتم من المنتصف ، يتوسط غطاء من الصاج الأبيض .

هذا مبنى من طابقين ، يفصله عن المدينة نخيل كثيف ترعة الابراهيمية فى المواجهة ، يحاذيها خط السكة الحديدية ، متابعة القطار سلوائى ، خاصة المتجهة شمالا ، الآن أعرف مواعيدها ، السريع منها والبطىء ، الفاخر والعادى ، الركاب والبضائع ، يفجعنى صفير القاطرات السريعة ، يتغير مع الحركة ، سرعان ما يتحول إلى صدى واهن لكنه يبث داخلى الحنين الممض ، والرغبة التى لا مجال لتحقيقها ، الرغبة فى التواجد بين الأهل ، ورؤية من اعتدتهم .

فى المبنى ست حجرات ، أربع خالية ، دورة المياه فى الطابق السفلى بعيدة ، أرهب الخطر ليلا فأحصر بولى حتى الصباح إلا إذا اشتد الأمر وغلبنى . يجىء للتنظيف فراش عجوز ، يعيش فى قرية قريبة ، يصل عند انصرافنا ، ويذهب قبل عودتنا ، دائما يوصينا بمفتاح الاستراحة ، أن نحذر فقده ، باحكام الباب الرئيسى ، أولاد الحرام كثيرون ، الناحية منقطعة ، والمبنى قديم ، يظنه البعض مهجوراً . فى الأصل أقيم لمفتشى الرى الانجليز العابرين ، ثم ضم إلى المحافظة ، وخصص منذ سنوات لإقامة الموظفين المنقولين مؤقتا ، حتى يتمكنوا من تدبير أمورهم .

ترى من نزلها قبلى ، ومن سيحل فى ذات الموضع بعدى ؟ ، ينهكنى تداعى الأفكار ومحاولتى وصل أخيلة من أحببت ، أسلم أمرى إلى وحدة قصوى ، ولولا جهاز المذياع الصغير لقض مضجعى ، لم أعتد النوم مبكرا . .

أطفأت المصباح الشاحب منذ ساعة أو أكثر ، أقوم إلى النافذة ، بعد قليل سيعبر القطار الفاخر ، يقوم من القاهرة قبل الغروب ، لا يتوقف إلا فى أسيوط ، ثم يواصل إلى الأقصر ، ركابه أجانب ، غرباء عن الديار ، لسرعته

تتصل أضواء نوافذه فى شريط طويل حارق ، يبدد العتمة والصمت لحظات ، يخلف عندى وحشة ، اتطلع إلى اصداء المدينة المتكومة عند الضفة الأخرى من الليل ، حيوات شتى تمضى ، لكننى منفى عنها ، ما من صلة . .

لكن . . ما هذا ؟

همهمات ، أمعن مصغيا ، أمسك أنفاسى ، أحبس شهيقى ولا أطلق زفيرى . من ؟ يندر المرور هنا بعد الغروب ، لم ألمح شخصا منذ قدومى ، من ؟ الاستراحة هدفهم ؟، هل أمضى إلى زميلى ، انبهه إلى خطر وشيك ، راح فى النوم منذ وقت غير قصير ، لم أتحرك ، أنتظر لأرى ، أرهف سمعى ، أى عبث بالباب الرئيسى يمكننى الاصغاء إليه من هنا ، أخشى خطوى ، صرير الخشب ينم علىّ . .

رجل طويل ملابسه بلدية ، عمامته ثقيلة ، ادركه فى مجمله ، يقف عند الزاوية اليمنى للمبنى ، هنا ينتهى الممر الضيق المؤدى إلى النخيل الكثيف ، يدير ظهره إلى الترعة ، ليس بمفرده ، يلوح بيده . . يتراجع خطوات . . أربعة . .

هكذا بدوا فى اللحظات الأولى ، اثنان طوال القامة ، آخران قصيران ، مدكوكا البنية ، لا . . انهم خمسة ، الخامس محمول ، يمسك به أحدهم من جهة واثنان من الناحية الأخرى ، لا أتمكن من الملامح ، لكننى أقدر على تحديد الرأس والقدمين والزراعين الموثقين وراء الظهر . .

يشير اولهم إلى الترعة ، لم أصغ إلى نطق ، أدرك أن يحدد موضعا . يتوقفون ، يتطلع كبيرهم تجاه النافذة .

يرجف نبضى ، لا أحيد ، لا أغير وضعى ، أى تقلقل سيكشف حضورى ، أغمض عينى ، أرهب لحظة تتواجه فيها نظراتنا ، أكتشف خلالها انه أدركنى ، يستمر تطلعه صوب النافذة . هل انتابه شك ما ؟ هل ينتابه شعور غامض ان ثمة من يراه ، يحجبنى عنه الزجاج الذى يعكس الأضواء البعيدة ، ومصراعا السلك القديم الذى يمنع البعوض .

يشير بيديه ، يطمئن من معه ، يطلب منهم التقدم .

إذن . . لم يلمحنى .

أواصل ثباتى ، أى تغير فى وضعى ربما يدرك بالحس ، يحثهم على الإسراع ، يحاولان رفع القدمين الموثقتين ، غير أن عنتا يبدأ ، فى مواجهتى ينتفض الجسد الذى ظننته هامدا ، انات مكتومة مصدرها الأنف ، الفم مكمم ، يميل أحدهم فينقطع الصوت .

يهمد النصف الأسفل إذ يمسك به القصيران ، يلفان القدمين بحبل متين ، يثبت ثالث حجرا نقله من الضفة ، يشده ، شخص واحد يمسك الرأس تنتفض الكتفان . يضغطه الرجل الجاثى على قدميه ، ينفلت الرأس فى حركة سريعة يمينا ويسارا .

يبدأ عندى دوار ، لم أدرك ميلى إلا بعد لحيظات وعرة ، يثقل صدرى ، يبدأ داخلى ثقل مرير . أرقب انتفاضات الجسد المراوغة . تقوسه عند الخصر ، يثبتونه من ناحية فيفلت من الأخرى ، امرأة أو رجل ؟ لا أقدر على التحديد . .

تتوالى علىّ صور ، الطريق الممتد حتى المدينة ، مياه الترعة الهادئة ، الماضية بلا توقف . الجسر القريب المقفر الآن ، المزدحم نهارا ، مرور القطارات السريع ، المارق ، مدخل بيت عائلتى ، دفء فراشى هناك ، وجه يخيل إلىّ أننى أعرفه ، تساؤل . هل تطلع علىّ شمس الغد ؟ وإدراك بعدم قدرتى !

يقف كبيرهم ، لا يشارك فى محاولة اخراس انتفاضات الجسد المسجى عنوة ، إشاراته سريعة ، مختصرة ، دالة ، حازمة ، مع بدء حركة يده تتردد الدماء عن المضى داخلى ، تتوارى حقب من وجودى ، اتلخص فى لحظة أنية لا أثق من اتصالها بأخرى .

هل طغى الهمود ؟ هل خبت الجذوة ؟. عندما بدأوا ربط الحجر بالعنق تبزغ انتفاضة هائلة . لم تتبعها ولو حركة ضئيلة . رجفة أعى بقاءها فى ذهنى إذا ما قُيد للأيام التوالى ، لو أستعيدها بالمخيلة أجزع ، ينزل علىّ صمت إذا

صرت متكلما ، أكف إذا توصلت حركتى ، يسدل على ملامحى وجوم إذا لفنى بشر وجمعتنى صحبة .

انتهوا من ربط الأحجار ، كم ؟ لم أستطع التحديد ، أقدرها بخمسة ، اثنان عند القدمين ، مثلهما إلى الخصر ، وحجر شد إلى الرقبة . يحملونه ، تتدلى الأحجار ، يخبط أحدها الآخر ، تنبئنى حركتهم البطيئة بثقله ، من ردود أفعالهم أمكننى تقدير الرجفات المتتالية ، لم ينته الأمر ، باستطاعتى الزفير البطىء بعد أن اثقل صدرى ، يتراجعون فجاة . يزداد ميلهم إلى الأمام ، يسرع كبيرهم عند دنوهم من الضفة . يفسح مجالا بينهم ، يسهم فى حمل الجثمان أم ماذا يفعل ؟

لا أدرى ، لكننى أدرك الآن أننى وحيد تماما ، ناء عن كل مساعد ، غير قادر على المضى إلى زميلى وإيقاظه .

يرفعون الجسد بصعوبة . لم أخطىء رؤية آخر الانتفاضات المتعاقبة فى الفراغ ، محاولات الإفلات الأخيرة ، المجدبة ، اليائسة ، المتطلعة إلى فراغ بعيد . قبل اللحظة التى يصطدم فيها بمياه الترعة ، يعتدل كبيرهم واقفا ، يميل محدقا . يده تمسكان بركبتيه .

يتناثر رذاذ ، أصغى إلى وشيشه ولا أراه ، لم يحدث طفو ولو لجزء من الثانية ، تلتحم قطرات الماء المنتزعة مرة أخرى بسطح الترعة . تتصل بالأصل يظل الرجل منحنيا ، لا أرى الرجال الأربعة ، لا أشرع حتى فى تعقبهم بالفكر لم أعبأ . ربما لمحونى ، ربما يدورون ، حول البناء العتيق فى محاولة للنفاذ إلىّ ، يوثق بصرى وتحديقى إلى هذه النقطة ، فى مواجهتى ، تستقر فى الأعماق الانتفاضات والرجفات ومحاولات الإفلات ، وإرهاصات البداية ، أما ثباتى فطال أمره ، يتعاظم ثقل بغيض داخلى ، حتى اننى لا أقدر على التراجع خطوة . .

* * *

يناير ١٩٨٩

بــوابــة

. . هكذا مضى الأمر إلى ما انتهى إليه . إلى ما أصبح معروفا ، شائعا ، عند القريب والبعيد ، حكايات شتى تتردد ، بعض تفاصيلها نشرت فى الصحف ، خاصة المعارضة ، إن تلميحا أو تصريحا ، لكن لم يتبدل شىء ، ولم يعلن عن إجراء ، إنما ثبت الوضع ، أنه معروف الآن للكافة مطروق من الجميع خاصة بعد طال الدرجتين الأولى والثانية بنوعيها ، العادى والفاخر .

عندما ظهر لأول مرة هنا ، عرفه البعض كمستاجر للدكان الصغير الذى حول إلى مقهى ، ليس مقهى بالمعنى الحرفى ، لكنه محل لاعداد الشاى والقهوة ، كان فى الأصل لتاجر أصباغ بلدية عاد ، إلى بلدته فى الصعيد فجاة بعد أربعين عاما متصلة قضاها هنا ، صفى تجارته وذهب ، ولم يعرف أحد سببا لذلك !

بقى الدكان مغلقا لفترة ، عدة شهور ، حتى ظهر فيه عبده الأسمر ، نحيل ، طويل ، لم ير إلا مرتديا بنطلونا واحدا من قماش الجينز ، وقميصا لم يغيره حتى بعد أن جرى أمره وأفرخ حاله .

عرفه الناس واشتهر أمر بينهم ، خاصة الشباب ، لأنه يمت بصلة قرابة للاعب كرة مشهور يلعب فى فريق نادى الزمالك ، شوهد مرة واحدة عندما جاء جلس إلى المنضدة التى تقع إلى يمين الداخل ، وشرب كوبا من القرفة ، عبده الاسمر ترك ما فى يده وجلس إليه ، تحدثا فترة قبل أن يشيع أمر وجوده ويجيىء نفر للسلام والتحية .

مرة لا غير ، لم تتكرر ، لكن بعدها راج المقهى ، وضاق عن استيعاب مريديه من شباب الحى ، وبعض الموظفين ، اضطر عبده الاسمر إلى شراء أربع مناضد إضافة إلى الاثنتين الموجودتين بالداخل ، عصر كل يوم يرصها . يصف المقاعد فوق الرصيف ، أحيانا يجيىء أحد رجال البلدية ، يبدى ملاحظة أو احتجاجا ، لا يطلب مباشرة ، انما إذا لقى مجاوبة وتناول ما فيه النصيب يمضى ساكنا وكان شيئا لم يكن ، وأحيانا يقول أحدهم إنه تجاوز عن تحرير المخالفة من أجل اللاعب الشهير الذى تطل صوره المقصوصة من الصحف والمجلات من فوق جدران الدكان . يقع المقهى تحت بيت من طابقين ، إلى جواره عمارة من خمسة طوابق تمت بدايتها إلى أربعينيات القرن عندما كانت الحقول تمتد هنا وهناك ، ولم يكن إلا بنايات قليلة متناثرة ، معظمها قرب السكك الحديدية .

الطريق حديث ، شق فى نهاية الخمسينيات . خصص أخيرا لمرور العربات فى اتجاه واحد فقط ، يطل المقهى عليه ، كذا العمارات القليلة والتى تتخللها ورش خراطة ، واصلاح عربات ، ومغلق للخشب ، وخرابة لا يعرف أحد مصدرها ، ومخزن تابع لشركة التأمين القومية ، الجانب الأخر من الطريق يحدده سور قديم من الطوب الأحمر الصلد . متوسط الارتفاع ، أعلى قليلا من قامة انسان مكتمل ، هنا وهناك سيمافورات ، وأعمدة غليظة تنتهى بقطع مستطيلة من المطاط ، ما بين القضبان اكتسى لونا أسود قاتما غطى حتى الفلنكات الخرسانية التى وضعوها بدلا من الخشبية القديمة . طوال النهار والليل لا تكف الحركة .

هنا ورش ومخازن القطارات ، يقع المقهى بالتحديد فى مواجهة مدخل الجزء

المغطى ، السقف المعدنى القديم ، حيث يتم تجهيز العربات ، وشدها إلى بعضها ، وتنظيفها ، وإعدادها للسفر ،

فوق السور ، فى المواجهة تماما ، لا فتة خشبية عتيقة ، بيضاء فى الأصل ، مرسوم عليها جمجمة وعظمتان متقاطعتان ، وعبارة تحذر من عبور المشاة ، برغم التحذير القديم لم يتوقف الكثيرون عن محاولة التسلق والعبور تفاديا لصعود الكوبرى المرتفع ، والذى يمكن رؤيته إلى الناحية اليمنى من أمام المقهى ، يصل بين شرق السكك الحديدية وغربها ، هناك تقوم المساكن الشعبية المتراصة التى أقيمت مع بداية الخطة الخمسية الأولى حتى انتبه عبده الأسمر ؟

ثمة روايتان متداولتان ، تقول الأولى أنه رأى رجلا يحاول عبور السور حاملا حقيبة ، ولكنه لم يقدر ، فتقدم عابرا الطريق ، ومد إليه يد المساعدة ، وسأله عن مقصده ، فقال الرجل وإنه قطع تذكرة سفر من المحطة ، لكن الزحام هناك شديد ، وسفره طويل ، لهذا جاء إلى هنا ليحاول ركوب العربة من المخزن قبل دخول القطار المحطة وهجوم الخلق عليه .

وتقول الثانية إن عددا من الغرباء بدأوا يترددون على المقهى ، يقضون فترات طويلة ، معظمهم من الجنوب ، يجيئون ومعهم حقائب منتفخة ، وبطاطين ملفوفة ، وأجولة من البلاستيك ، بعضهم يجىء من المطار مباشرة ، فى البداية لم يلتفت إلى الأمر ، فالمقهى على طريق عام ، سريع . وزبونها «نقالى» ليس له صفة المواظبه ، والدوام ، باستثناء قلة ، يعرفهم الآن بالاسم ، يجذبهم إليه قرابته من لاعب الكرة الذى قيل إنه أهداه جهاز التليفزيون الملون الذى ظهر فى المقهى ، فى أيام المباريات يخرجه ، ويضعه فوق منضدة مرتفعة القوائم ، يرص المقاعد متجاورة ، كان يروح ويجىء صامتا ، بين يديه صينية المشروبات ، لايلتفت إلى التليفزيون ، هو الذى يعد القهوة والشاى ، وهو أيضا الذى ينتقل هنا أو هناك ملبيا طلبات الزبائن ، وأحيانا يغيب دقائق عندما يمضى إلى عمال مغلق الخشب المجاور ، أو المخزن القريب ، لم يكن يكف عن الحركة ، ويجلس بين الشاهدين إلا فى حالتين ،

الأولى عند اذاعة المباريات التى يلعب فيها نادى الزمالك ، وعندما يظهر قريبه ، أو يذكر المذيع أسمه ، يتطلع إليه القوم مبتسمين ، أو يصفقون مجاملة ، لكنه يظل متطلعا مشدودا ، وكانه يتفرج بمفرده . لكنه لايلزم الصمت عندما يسأله البعض عن أخبار اللاعب الشهير ، هل يواصل التمرين ؟ هل سيلعب فى المباراة القادمة ؟ هل شفى من الإصابة التى لحقت به مؤخرا فى أفريقيا ؟ وربما سأله أحدهم همسا عن الاشاعات القائلة بزواجه سرا من راقصة معروفة ، وذاع صيتها مؤخرا بعد أن قامت ببطولة المسلسل التليفزيونى الأخير ؟ يجيب ذاكرا تفاصيل دقيقة ، يؤكد أو ينفى ، يهز رأسه أو يشير بأصبعه ، أو يطلب ارجاء الإجابة إلى ما بعد لقائه به غدا أوبعد غد .

أما الحالة الثانية التى يتسمر فيها أمام التليفزيون ، فهى ظهور ممثلة شابة صاعدة . يتدفق فيضها الأنوثى عبر الصور فى الصحف والمجلات أيضا ، يشترى المجلات الفنية التى تنشر عنها ، ويعلق صورها داخل المحل بجوار قريبه ، ويؤكد البعض أنه يكتب إليها خطابات بصفة منتظمة ، هذا ما كان من حاله تجاهها فى أول أمره ، وأن اختلف بعد ذالك .

كان يتحرك طوال اليوم ، لم يره أحد من رواد المقهى جالسا إلا نادرا ، هو الذى يجهز المشروبات ، ويقدمها أيضا ، استمر فترة طويلة بمفرده ، يعد المشاريب ويحمل الصوانى ، ويرص الجمرات والمعسل ، وآخر الليل يلملم المقاعد ، يكومها فى صفوف مستطيلة بالداخل ، ثم يفرش حشية فى الفراغ الضيق المتبقى . وينام بعد أن يغلق الباب ، لم يكن له سكن فى البداية ، وإن استأجر فيما بعد شقة فى الطابق العلوى من المبنى المجاور بعد أن انتقل سكانها إلى مدينة نصر ، وتقاضى منه صاحب المِلْك خلوا معقولا . . لكن متى انتبه ، متى بدأ ؟

الحقيقة ، لا يمكن القطع أو التحديد ، حتى هو نفسه ، لكن هناك واقعة رواها هو ، إذ جاءه ذات ليلة أربعة رجال أشداء من ابناء مدينة طما ، كانوا قادمين من المطار ومعهم حمولة ثقيلة ، قعدوا ، قال أحدهم أن أمامهم مشقة ،

إذا ركبوا القطار من المحطة لن يتمكنوا من الجلوس ، الزحام شديد ، ومشوارهم طويل ، صعب قضاء عدة ساعات وهم وقوف ، قال أحدهم . .

ـ تصدق . . أننا مسافرون منذ أربعة أيام . .

خرجوا من طرابلس الغرب يوم الجمعة الماضى ، وانتظروا فى مطار مالطة أربعة أيام ، رحلة صعبة ، وبهدلة لاحد لها ، منهم فاحت رائحة عرق وتعب ، طمأنهم ، طلب منهم ألا يعولوا هما ، فالأمر يسير ، تلفت حوله ، ثم عبر الطريق ، بخفة اعتلى السور ، قفزة واحدة ، غاب عن أبصارهم ، عاد بعد دقائق ، قال ان كل شيء جاهز ، حجز لهم أربعة مقاعد متجاورة متواجهة فى إحدى عربات الدرجة الثالثة ، وانهم يمكنهم البقاء والتحرك قبل موعد قيام القطار بربع ساعة فقط . ذهابهم قبل ذلك سيعرضهم للمتاعب من القائمين على أمور المخزن ، أو من شرطة السكك الحديدية . .

دعوا له بالتوفيق ، والسداد ، لم يمانعوا عندما طلب منهم جنيهين فقط ، سيقوم بدفعهما إلى أحد الأشخاص الذى سيجيء إلى الناحية الأخرى من السور ، ويصحبهم حتى العربة . قال ضاحكا : لا بد من دليل فالمخزن كبير ، ولاتوجد أرصفة ، والعربات متشابهة ، وأحيانا يتم تبديل بعضها وفصلها من هنا والحاقها هناك ، وهكذا . . بدلا من سفرهم إلى طما يمكن أن يجدوا أنفسهم فى مرمى مطروح . .

ضحكوا . قال إنه لم ينس أبدا انفراجة فم أحدهم ، وتراجع رأسه إلى الوراء ، واهتزاز جسده بالضحك فترة ، مما أدهشه فلم ير فى قوله سببا لهذا الضحك كله .

يقول إنه لن ينسى أبدا ملامحهم ، ولا ملمس الجنيهين ، نال منهما واحدا ، أول رزقه من هذا الباب ، لكن . . هل مجيء هؤلاء تم صدفة ؟ أم أن أحدهم أرشدهم إليه . عبده الاسمر لم يحسم ذلك ، ولم يشف غليل أقرب الناس منه عندما تنتابه حالات الصفو ويحكى مطولا ، ويقص تفاصيل عديدة ، معظمها لا يمت إليه ولا يخصه .

على أية حال ، فى صباح اليوم التالى مباشرة تكرر ذلك ، جاءه مدرس فى منتصف العمر ، منقول إلى قوص ، يحمل حقيبة صغيرة ، بدا حزينا ، مكتئبا ، نافرا من الرحيل ، شرب كوبين من الشاى ، وسأل عن النشالين فى القطار ، صمت ، ثم هز رأسه مرتين ، وأبدى إشارة تعجب من يده مرة ، وقبل اعتلائه السور بدقائق . قال :

ــ هل تصدق انها المرة الأولى التى أفارق فيها عائلتى ؟ لم أسافر إلا مرة أثناء دراستى فى رحلة إلى أسوان والآن .. أمضى إلى بلدة لا أعرف فيها أحدا ..

تطلع إليه ، وحنى عليه ، أدرك ما يمر به ، لم ينس ملامحه لفترة ، ولم يره مرة أخرى .. قال له :

ــ توكل يارجل وقابل أيامك بقلب رضى ونفس مفتوحة هل أنت متزوج ؟

يهز المدرس رأسه .

ــ من يدرى ، ربما تجد ابنة الحلال هناك ، وتعيش أحلى أيامك .. توكل على الله ، توكل يارجل ..

الحق أنه كان بشوشا ، مرحا ، سريع الاستجابة ، لكنه يعود دائما إلى صمته بسرعة ، فكأنه أدى دورا خاطفا ثم عاد إلى طبيعته .

فى اليوم التالى لسفر المدرس شوهد كسر أعلى السور . طوله حوال متر ونصف وعمقه نصف المتر ، لا يعرف أحد متى أقيم السور ، هل بنوه مع مد السكك الحديدية ؟ أو فى فترة لاحقة ، بعض القدامى خاصة من العاملين فى مغلق الخشب يؤكدون أن الانجليز هم الذين أقاموه أثناء الحرب العالمية الثانية لاخفاء حركة القطارات العسكرية ، خوفا من عيون عملاء المحور ، المهم أنه شيد من الحجارة الغليظة ، والطوب الأحمر الصلب ، استعصى سنوات على أهالى الناحية الذين حاولوا مرارا إحداث ثغرة فيه للعبور تجنبهم صعود الكوبرى المعدنى المرتفع ، لكنهم فشلوا ، البناء عريض ، متين .

كيف أزيل هذا المقدار ؟. لا أحد يدرى . لكنها اتسعت فى الأيام التالية بحيث أصبحت فتحة طويلة ، تسمح بمرور رجل أو امراة بدون بذل أى محاولة

للتسلق ، وفيها بعد جرى تسويه الجانبين ، والعتبة القليلة الارتفاع ، وتم تركيب باب من الحديد المتين ، له قفل ، مفتاحه عند عبده الأسمر أو بعض معاونيه الذين جاءوا مع زيارة المسافرين ، وتعقد أمور العمل ، لا يعرف أحد بمن أتصل عبده الأسمر ؟ بمن أقام العلاقات الوثيقة ؟ لكن أصبح معتادا تردد عدد من العاملين هناك فى تجهيز العربات أوتنظيفها أو صيانتها ، وإعدادها للسفر ، ويجلسون إليه ، يتبادلون المزاح ، يدقون الكف ، ويستفسرون عن أخبار قريبه الشهير ، أو يبدون ملاحظاتهم على لعبه فى المباراة الأخيرة ، يطلبون منه إبلاغ تحياتهم إليه ، ورغبتهم فى رؤيته ، فيعدهم خيرا .

فى فترة قصيرة ، وجيزة جدا ، أصبح ملما ، عارفا بكل تفاصيل المخزن ، أقسامه ، أركانه ، القائمين على أموره خلال نوبات العمل المختلفة ، ليس العمل فقط ، إنما المهندسون أيضا ، القدامى منهم وحديثو التخرج ، بدا وثيق الصلة بهم ، متداخلا بينهم ، فطنا بطنا بطباعهم ، كانه يعرفهم منذ زمن طويل ، ثم شرع فى ترتيبه .

بدا بذالك الدفتر الصغير الذى احتفظ به حتى فى الفترات التالية والتى شهدت ازدهاره . ونمو أمره ، وطلوع سعده ، دون فيه مواعيد تجهيز القطارات وأواقات تحركها من الورش إلى الأرصفة ، عدد المقاعد فى كل عربة . والعربات الإضافية التى يتم ولحاقها بالقطارات فى أيام الزحام ومواقيت الشدة .

بدأ الأمر بعربات الدرجة الثالثة ، ركابها أول من سعوا ، كان عددهم محدودا ، صحبهم ، عبر بهم الطريق ، بل ساعدهم فى حمل الامتعة . لكنهم تزايدوا مع مرور الأيام ، ازدحم المكان ، صار يطلب منهم افساح طريق للخروج والدخول ، أو الأنتضار بعيدا ، بعضهم يفترش الرصيف الضيق ، يجلس منتظرا، أطفال ، نساء ، رجال ، يظهر عبده الأسمر ينادى على ركاب قطار الثامنة والنصف قبلى السـ يع العادى يتقدمون ، يتبعونه ، يفتح البوابة ، يبدأ عبورهم ، واحدا واحدا ، ينهرهم أحيانا لتدافعهم ، وتزاحمهم . خلف السور يقف أحد العاملين بالمخزن ، عند حد معين يصيح . .

كفى ..

يتقدمهم إلى العربة الصحيحة ، فيما بعد تيسر الوضع ، أصبح هناك شخص يلازم السور باستمرار . بينما يقوم آخرون بمرافقة المسافرين واجتياز القضبان المتقاطعة ، المتصلة ، وتحذيرهم فى مواضع الخطر ، ونهرهم أحيانا ليلزموا الصمت . أو الحذر ..

اشترى خزانة ضخمة قديمة عليها رسم بارز لرجل أجنبى يمسك أوراقا مالية ، تفتح بعد لف مقبض نحاسى مستدير عدة مرات ، اشتراها من سوق الرويعى القديم ناحية العتبة ، وضعها فى الزواية اليمنى ، احتلت حيزا ، لكنها ضرورية ، فالمبالغ فى ازدياد ، والاحتفاظ بها فى الدرج الصغير لم يعد ممكنا ، إذ يجب عليه حفظها حتى ساعات معينة من الليل ، يجىء إليه عدد من العاملين هناك ، لا يطليون المكث أو البقاء ، وإذا جلس أحدهم فإنه لا يظل أطول من الوقت اللازم لشرب كوب الشاى أو فنجان القهوة ، لم يغب عنه الهدف الحقيقى من الجلوس اليه ، مراقبة الأسعار التى تم الاتفاق عليها ، والتى حددها طبقا لمسافة المسافر ، فليس من المعقول ان يدفع الراكب الذى يقصد المنيا نفس المبلغ الذى يستحق على الراكب المتجه إلى ادفو أو اسوان مثلا . الحقيقة انه التزم الدقة ، ولم يبالغ ، بل أكد انه دفع من جيبه لبعض العجائز جدا الفقراء الذين لم يكن باستطاعتهم تحمل قرش واحد زيادة عن ثمن التذكرة . كان يعلم انهم يدسون عليه البعض للتأكد من التزامه بالأسعار ، لكنه لم يعبا ..

ضايقه بعض رجال البلدية ، وآخرون يمتون إلى الجهات المعنية ، لاستمرار المقهى مفتوحا إلى ما بعد المواعيد المحددة ، لكن يبدو أن قريبه تدخل عند ذوى الاختصاص ، واستخرج له تصريحا يقضى ببقاء المكان مفتوحا لمدة أربع وعشرين ساعة ، بعض الجيران قالوا أنه دفع مبلغا كبيرا مقابله ، لكنه لم يثبت صحة ذلك . أحدهم أرسل شكوى ، توجه إليه عبده الأسمر ، عاتبه ، هل ضجيج المقهى أعلى أم ضجيج القاطرات التى لاتكف عن اطلاق صفاراتها

طوال الليل ، ثم أخرج أصل الشكوى من جيبه ، مزقها على مرأى من أخرين تجمعوا ، بعدها لم يسمع أحد بأية شكوى أخرى مماثلة .

صباح أحد الأيام توجه إلى فرع البنك الأهلى القريب ، وبعد أيام وصله مظروف أصفر مسجل استلمه بعد أن وقع لساعى البريد الإيصال الخاص . تأمل طويلا أول دفتر شيكات يمتلكه فى حياته ، لم يستخدمه ، لكنه عند دفع مبلغ كبير يسأل . .

ـ نقدا أو اكتب لك شيكا ؟

طبعا يفضل العاملون بالورش والمخزن تقاضى انصبتهم نقدا وعدا ، تحرير شيك وقبوله أمر فيه مخاطرة ، هذا يعنى اثبات تقاضيهم مبالغ منه . ولكن السبب الأبرز . هو اضطرار حامل الصك للذهاب فى مواعيد معينة ، والانتظار ، والمرور بإجراءات عديدة ، ما أسهل تسلم النقود مباشرة ودسها فى الجيب !

مع مرور الأيام ، وإقبال الخلق ، ازعجه أمران ، أو لهما ضيق المكان ، الدكان لم يعد مناسبا إطلاقا ، والثانى توزيعه النقود يوميا على أولئك الذين يسهلون الأمور داخل المخزن .

بالنسبة للمكان ، لم تستمر المشكلة ، ويبدو أنه تحرك بسرعة بعد أن نصحه أحد الكبار هناك بالبحث عن مكان أفسح ، بدلا من هذا الزحام وتلك الجمهرة اللافتة للنظر ليلا ونهارا ، استيقظ السكان يوما فوجدوا مغلق الخشب مقفلا ، غاب صاحبه العجوز ، والملاحظون ، والعمال ، بعد ثلاثة أيام لاغير فتحت الأبواب ، وظهر عدد من العمال ، بدأوا اجراء تعديلات ، هدموا حواجز فاصلة ، رمموا الجدران ، نقلوا أكداس الخشب إلى أماكن غير معلومة ، تم تبليط الأرض ، اتضحت معالم المكان ، مقهى فسيح ، لا يوحى مدخله الضيق ، المكنون بمدى رحابته ، المدخل ضيق ، الباب منخفض ، على جانبى الصالة صفت المناضد والمقاعد وفى وسطها أيضا ، إلى الركن الأيمن حاجز نصفه من الخشب ونصفه العلوى من زجاج مصنفر ، خصص لا نتظار

العائلات ، كثير من أبناء الصعيد كانوا يلاقون حرجا وضيقا إزاء بهدلة حريمهم أمام الدكان الضيق ، فى نهاية الصالة دورتان للمياه ، الأولى للرجال والثانية إلى الناحية الأخرى للنساء ، لم يقدم الشاى والقهوة والقرفة والحلبة والنرجيلات فقط ، لكنه خصص ركنا لاعداد السندويتشات الخفيفة ، كثير من المسافرين يحتاجون إلى طعام يسير لطول الرحلة ومشقة السفر . قال عبده الأسمر لبعضهم أنه يفكر فى انشاء فندق من عشرة طوابق ، للانتظار والراحة ، يدفع النزيل مقابل عدد ساعات إقامته ، إن ليلا أو نهارا . بلا من الانتظار فى المقهى ، أو فوق الرصيف ، عدد كبير يجىء من المطار مباشرة إليه ، لمثل هؤلاء يبيع تذاكر السفر أيضا ، بعد اتفاقه مع أحد العاملين على بيعه مقدما عددا من التذاكر يوميا ، وإذا زاد المنصرف عما لديه يرسل أحد أعوانه ، لا يقف فى طابور المنتظرين ، أنما يدخل مباشرة يحصل على العدد المطلوب ، لا يستغرق الأمر إلا دقائق معدودات .

أنه يولى آهتماما خاصا للقادمين من المطار . حمولهم ثقيلة ، ورغبتهم فى الإسراع بالسفر قوية ، وقدرتهم على الدفع أقوى ، كما أن فرحهم بالوصول يصاحبه كرم سهولة فى الانفاق ، فى إخراج القرش ، يعرف الآن مواعيد وصول الطائرات ، خاصة القادمة من العراق أو عمان . يحسب مدة انتظار الحقائب ، والجمارك ، والمسافة ، ثم يومىء إلى بعض مساعديه . .

ــ طائرة بغداد على وشك . .

يسرى تاهب . هذا يعنى ضرورة إخلاء مساحات للحقائب الضخمة ، والأجولة المتنفخة ، والصناديق ، كثيرا ما تحدث عن هذا الفندق ، يستريح فيه المسافرون ، ومنه يخرجون مباشرة إلى البوابة لعبورالسور ، سيخصص فى الطابق الأول معرضا لبيع المأكولات ، والهدايا . بحيث يجدون كافة مافاتهم شراؤه من المدينة ، مشروع كبير فى حاجة إلى اعداد ورأس مال . والأهم إقناع سكان العمارات المجاورة ومن قبلهم الملاك ، لابد من الشراء والهدم ثم البناء . فى هذا الوضع بالتحديد ، الفندق لابد أن يقام هنا فى مواجهة البوابة .

ابناء المنطقة تبادلوا عبارات شتى حول الحظ الذى ابتسم له ، حاول بعضهم تقدير دخله اليومى ، وتذكره آخرون عندما جاء ، واستأجر الدكان ، والله . . كان يمشى ببنطلون مقطوع . وحذاء قديم يوشك أصبعه أن يطل منه ، أشاد البعض بأخلاقه ، هدوئه ، وذكائه فى استغلال الموقع والظروف ، السور قائم منذ عشرات السنين ، هل فكر أحد مثله ؟

عندما اكتملت معالم المقهى الجديد ، تذكر بعض الجيران تردده اليومى مرات عديدة ، يحمل صوانى المشروبات ، كثيرا ما نهره المعلم ، وزعق فى وجهه . مرة لنقص السكر فى الشاى ، ومرة لأن القهوة بدون « وش » ، سبحان مغير الأحوال ، لم تمض إلا مرة بسيطة حتى اشترى المخزن ، وقال البعض إنه دفع مبلغا كبيرا مقابل اخلائه ، وانه استأجره من المالك الأصلى ، ولكن آخرين قالوا انه اشترى الأرض أيضا ، ولم تعرف حقيقة ذلك ، عبده الاسمر كتوم ، قليل اللفظ ، ولا يرد إلا إذا بادره أحد بالكلام ، عندئذ يبدى المجاوبة والحميمة ، كأن الصلة من قديم ، ولم تتغير طباعه بعد اتساع نشاطه . وجريان المال بين يديه .

لم يتس ابناء المنطقة يوم افتتاح المقهى ، جاء عضو مجلس الشعب عن الناحية ، ورئيس الحى ، وقام بقص الشريط لاعب الكرة الشهير ، كما تم تصوير الحفل بالفيديو . وعلى الرصيف رصت باقت زهور ضخمة ، أحدها مرسل من عمال ومسئولى مخزن القطارات ، وآخر من مهندسى الورش . وثالث من صحفى معروف يظهر اسمه فى جريدة صباحية ، فى هذا اليوم شوهد عدد من قدامى العاملين فى « مغلق » الخشب ، اثنى الناس عليه ، لأنه لم يقطع عيشهم ، انما استعان بهم فى خدمة المسافرين ، وتنظيم انتقالهم وعبورهم البوابة .

عبد لم يغير موقعه الاصلى ، يبدو أنه يتفاءل بالمقهى الصغير ، لم يغير معالمه . أصبح مكتبا له ، مع بقاء « النصبة » التى أعد فوقها الشاى والقهوة زمناً طويلاً ، استبدل الخزانة الحديدية الضخمة بأخرى أصغر حجما ، تفتح بأرقم معينة لا يعرفها إلا هو ، صباح كل يوم يفتحها ، ويذهب بنفسه لإيداع

الإيراد . من موقعه هذا يتابع أدق التفاصيل ، بدءا من تنظيف المقهى ، وتغطية أرضيته بنشارة الخشب ، ثم كنسها آخر النهار ، إلى عملية حجز أماكن المسافرين ، وصرف قطع صغيرة من الورق الملون ، كل لون يعنى مسافة معينة ، كل ورقة تحمل رقمين ، العربة ، والمقعد ، هذا خاص به هو ، إضافة إلى تذاكر السفر التى توسع فى بيعها من المقهى مباشرة ، لكنه أحاط هذه العملية بسرية خاصة . وأسند مسئوليتها إلى شاب نحيل أسمر مثله من أقاربه ، وهذا شاب صموت مثله ، لكنه يردد دائما أنه جامعى دفعة الف وتسعمائة وخمسة وثمانين !

الأمر الثانى الذى سبب له ربكة فى البداية ، فتوصل إلى حله ، لكن بعد صعوبة ، التقى مرارا بالعاملين فى مخزن القطارات ، ناقشهم ، أجرى معهم حوارات مكثفة ، مطولة ، واستخدم خلالها آلة حاسبة صغيرة جدا ، كان يضعها فى جيب قميصه الأمامى ، يبدو أنه نجح فى اقناعهم ، فبدلا من التردد عليه يوميا لاستلام انصبتهم ، أقترح تخصيص مبالغ ثابتة يقدمها إليهم بداية كل شهر ، متوسط عدد الركاب معروف الآن تقريبا ، أنه يأخذ فى الاعتبار أيضا أيام تزايد الحركة عن معدلها ، الأعياد والمواسم ، كل شيء منظم الآن ، لكل مسافة سعر معروف ، لم تحدث مشاكل خلال الفترة الماضية إلا فيما ندر ، ثم ان المبالغ إذا سلمت إليهم أوائل الشهور تكون فاعليتها أقوى ، إذ تتزامن مع استلام المرتبات ، المرتبات التى لم تعد تفى بالحاجات الضرورية ، الأسعار ترتفع يوميا ، وسعر اليوم ليس سعر الغد ، طبعا الموظف هو الضحية أولا وأخيراً ، هذه بوابة للرزق ، وما دام الخير وفيرا فليعم الجميع . . ولكن وفقا لنظام وأصول !

أكد لهم أنه يراعى الحق والضمير ، لن يأخذ أكثر من حقه . ثم هناك وجوه أخرى للانفاق ، مثلا . . عدد العمال الذين اضطر لتشغيلهم حتى يمكن ضبط الأمور ، الديون المتبقية عليه من تكاليف هذا المقهى الجديد ، هناك مصاريف أخرى لا عكنه الافصاح عنها ، لكنها لازمة وضرورية حتى يستمر العمل فى

هدوء ، بعيدا عن أي ضجة أو مضايقة ، اولاد الحرام والمتربصون كثيرون ، وهذه البوابة يمكن أن تغلق فى أى لحظة باجراء بسيط جدا .

هل اتضح كل شيء الآن ؟

الحق أنهم ابدوا الاقتناع ، وكما قال أحدهم بعد انصرافهم ، لم يكن بوسعهم غير ذلك ، فهو يمسك بهم تماما ، يدير الأمر وكانه خلق له ، يعرف كافة العاملين الآن . والمواعيد ، والحالة الفنية للقاطرات ، والعربات ، وأعداد المقاعد ، خلال المناقشة فوجئوا بصرامته ، وعباراته القصيرة ، ولهجته الصادة لأى نقاش ، الرافضة للمجاوبة ، فكأنه عبده آخر غير الذى يعرفونه .

على أى حال وافقوا ، وانتزعوا منه وعدا بصرف مبالغ إضافية فى الأعياد والمواسم ، وعند دخول المدارس .

الحق انه لم يقصر ، حتى كل منهم يصله ، لم يضطرهم إلى التردد عليه ، بل انه تدخل لدى رؤساء بعض الأقسام لحل مشاكل عانى منها صغار العاملين ، أصبح المقهى الجديد من معالم المنطقة ، واشتهر أمر البوابة فى القرى والمدن البعيدة ، وبين المصريين المغتربين فى البلاد العربية ، لم تفتح أى ثغرة أخرى فى السور ، رفض عبده الأسمر اقتراحا من أحد المهندسين الشبان الملتحقين حديثا بالورش فتح بوابة أخرى لتسهيل مرور الركاب ، أكد أن هذه تكفى ، بوابة واحدة يمكن ضبط الأمور من خلالها ، ولكن إذا تعددت البوابات ستبدأ متاعب عدة .

ان البوابة التى تم تركيبها من خشب متين ، طليت بلون الجدار ، تبدو الآن وكأنها جزء منه ، يتعاقب على حراستها رجال أشداء استعان بهم عبده الأسمر لفض أى منازعات ، ولترتيب مرور المسافرين ، بعضهم مدربو رياضة قدامى ، عملوا فى نادى الزمالك ، وجاء بهم قريبه ، وتردد انهم يتقاضون مرتبات عالية ، حتى ان عاملا قديما بالورش جاء يوما إليه ، وقال انه يقصده فى خدمة ، ويرجوه ألا يرده خائبا . ولما تطلع إليه صامتا ، قال الرجل ان ابنه تخرج من كلية الزراعة منذ عامين ، يعنى مهندسا زراعيا ، ولم يعمل بعد ، انه

قعيد البيت ، لكنه يحتاج إلى مصروف يومى ، على الأقل جنيه ونصف ، الولد جيد ، على خلق ، وشغال ، لكنه يخشى عليه من الفراغ ، ولا يعرف ماذا يمكن ان يحدث له ؟ . كل ما يرجوه أن يلحق ابنه بأى عمل فى المقهى ، أو عند البوابة ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

تطلع عبده الأسمر إليه ، بدا العامل القديم منهكا لصعوبة الأيام ، شقى الملامح ، رق له ، لكنه أبدى تأسفا ، فعنده ما يزيد عن حاجته ، وكم يود اللتخلص على الأقل من أربعة . فيما بعد قال لقريبه انه لو فتح هذا الباب فلن يمكنه إغلاقه ، لهذا كان لابد من الحسم بداية .

مضى عام بدون منغصات ، بل راج أمره جدا ، وتيسر حاله ، وشوهدت سيارة بيضاء متوسطة الحجم تقف أمام الدكان ، يقودها أحيانا إلى جهات لا يعرفها أحد ، أما لاعب الكرة المشهور فأصبح يتردد عليه بانتظام ، وأحيانا يصحبه فى عربته المزودة بهاتف ، يراه الناس ممسكا بسماعته بينما يده الأخرى تحرك المقود . كما يطلع معه إلى الشقة التى استأجرها فى العمارة المجاورة ، شقة تحتل الطابق الأخير بأكمله . كان يسكنها رجل محال إلى المعاش ، ماتت زوجته وتركت له ثلاث فتيات ، أصغرهن فى الثامنة ، انجبها على كبر ، وكانت أحواله معسرة جدا ، حتى انه اقترض من سائر الجيران ، كان موظفا ذا هيبة فى هيئة التأمينات الاجتماعية محاسبا مشهودا له بالكفاءة ، ولكن المعاش أقل من المرتب ، وأبواب الرزق الإضافى معدومة .

دفع عبده الأسمر مبلغا كبيرا له ، ولصاحب البيت ، وبذل جهدا قيل ان قريبه المشهور لعب فيه دورا ، حتى حصل للرجل على شقة فى مساكن الإيواء العاجل بناحية عين شمس ، والمخصصة لمن تهدمت بيوتهم . سعى عبده الأسمر إلى هذه الشقة بالذات لأن نوافذها وشرفتها الواسعة تطل مباشرة على البوابة . فى ساعات راحته ، ليلا أو نهارا يمكنه أن ينظر ويتابع الأمور ، وعند اللزوم يصيح مناديا هذا أو ذاك .

فى البداية أقام بمفرده . لكن فيما بعد شوهدت امرأة شابة جميلة تنشر

الغسيل ، وتنفض التراب عن النوافذ ، وبعد الظهر تقف مرتدية ثوبا منزليا ، تنظر إلى العابرين ، تتابع ما يجرى عند البوابة ، صموتة . عيناها تلتقيان بعيون جارتها ، لكنها لا تبادلهن الحوار ، وإذا استجابت فمجرد إيماءة ردا على تحية وسرعان ما تولى وجهها بعيدا .

ظهورها عصرا ، وقوفها وحيدة ، انحناءاتها ، شعرها الأسود يستلقى على ظهرها ، مسترسلا ، كثيفا ، ناعما ، ترفع رأسها فجأة لتزيح خصلة تدنت فدنت من عينيها .

هل تزوج ؟

لا . . وإن أوحى لبعض الجيران بذلك ، خاصة موظف البنك المقيم بالطابق الثالث ، انه صعيدى ، مازال ينطق اللهجة الجنوبية ، تردد عليه مرتين ، قال معاتبا ان أسرته تود التعرف إلى المدام ، انهم جيران ، والنبى أوصى على سابع جار ، لكنها تبدى صدا .

لم يغب عن عبده الأسمر غرض الرجل الذى سبق أن أبدى قلقه من سكنى أعزب فى البيت ، انه أب لابنتين ، الأولى مدرسة ابتدائى ناحية غمرة ، تخطت الثلاثين ولم تتزوج بعد ، والثانية ماتزال طالبة فى معهد السكرتارية ، ترجع متأخرة لأنها تدرس الانجليزية بأحد معاهد اللغات الخاصة ، أحيانا تقابله على السلم ، تتطلع إليه . . لكن فى خفر !

قال عبده الأسمر ان المشاغل كثيرة ، ويوما سيقوم بزيارة عائلية إذا سمح وقته ، ثم ان امرأته لا تحب الاختلاط .

غير ان هذه الزيارة لم تحدث قط . ولم يكن صعبا على الجيران ملاحظة غيابها بعد خلو ساعات العصارى منها . تساءل بعضهم . .

هل طلقها ؟

الحقيقة أفضى بها إلى قريبه اللاعب المشهور ، وهذا رواها بالتالى لآخرين ، فهذه البنية فوجىء بها ذات صباح باكر فى الدكان ، ترتدى جلبابا أسود ، تمسك حقيبة متوسطة ، ظنها ساعية إلى مقعد ، لكن نظراتها إليه ، وبقاءها

لحظات بدون لفظ ، وانوثتها البادية ، البضة الفياضة ، جعله هذا كله يوقن أن الأمر استثنائى . يوميا يرى نساء عديدات ، مسافرات إلى نواح شتى ، بعضهن يبدين ما هو أكثر من التلميح ، لكن هذه بالذات أخرجته عما ألزم به نفسه ، ألا يستجيب وألا يبادر إلى غواية ذات صلة من قريب أو بعيد بالبوابة . .

« تفضلى » .

قعدت . قالت باختصار . .

« أنا غريبة وعاوزة أتاوى فى أى مطرح . . »

على الفور اجتاحه شبق ، ربما لادراكه انها فى المتناول ، استفسر منها ، عرف انها من بلدة أبو كبير ، وانها هاربة من أهلها .

لماذا ؟

هذا ما لم يصرح به ، كما انه لم يذكر شيئا بعد ذهابها ، لم يفصح ، ولم يكشف ، أحيانا يقول انه اعتاد الوحدة ، ملّ بعد أربعة شهور . اعطاها ما فيه النصيب وطلب منها ان تروح إلى حالها .

قيل انه عاد يوما فلم يجدها ، لمت كل شىء وراحت !

لا أحد يدرى . ولم تعرف حقيقة الأمر . .

إلا أنه استعادها فى نطقه مرارا ، قال مرة انها كانت تشبه هذه الممثلة الصاعدة التى يتعقب صورها فى الصحف والمجلات ، ويترك مشاغله كلها عند ظهورها فى حلقات تليفزيونية . . الخالق الناطق هى ، هى . مرة قال انه اعتاد طهيها .

على أية حال صار بعد ذهابها أعمق صمتا ، لا يجيب مباشرة على ما يوجه إليه ، وأحيانا يغيب ساعة أو ساعتين ولا يخطر مساعديه بوجهته ، غير ان همته لم تهن فى متابعة الترتيبات ليلا ونهارا .

فى بداية العام الثانى ، جاءه موظف من مكتب الحجز الرئيسى ، جاء بصحبة عامل قديم بالمخزن ، قال الموظف انه يتحدث باسم عدد من زملائه ،

الأحوال تزداد صعوبة ، والمرتبات ضئيلة لا تفى ، الحقيقة انهم سمعوا عنه خيرا .

عرض تخصيص عدة من أماكن الدرجة الثانية الممتازة ، والأولى المكيفة ، سوف يسلمه التذاكر مقدما ، وصورا من لوحات الحجز ليعرف خريطة المقاعد ، والأماكن المخصصة له ، كثيرون يضطرون لدفع زيادة مقابل الحصول على المقاعد ، زيادة يمكن الاتفاق عليها واقتسامها . اختتم الموظف حديثه .

ـ انت كلك نظر يا عبده باشا . .

هنا قال العامل القديم مبتسما . .

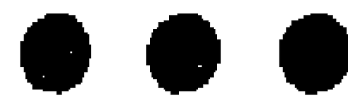
ـ والأخ عنده مفاجأة جميلة لك . .

استمر عبده الأسمر متطلعا إلى الموظف ، كأنه لم ينتبه إلى ما قاله العامل ، ردد .

ـ الأولى والثانية . . أولى وثانية . .

ضرب المكتب براحته

ـ لكن هذا وضع جديد يحتاج إلى تدبير مختلف !!



يناير ١٩٨٩

احتجاج

. . فلما كان يوم الأربعاء الموافق الثالث والعشرين من شهر يناير . . توجه سعادة السفير بصحبة المترجم الخاص إلى مبنى وزارة الخارجية لمقابلة وكيل الوزارة المختص .

لم يطل مكثهما عند مدير المكتب سوى لحيظات . فالموعد محدد مسبقاً ومدرج . فى منتصف الحجرة يقف الوكيل ، متوسط الطول ، نحيل ، يرتدى نظارة طبية مذهبة الإطار . الدفء يشيع فى الفراغ العبق برائحة قدم غامضة ، السجاد ، الأثاث ، المكتب راسخ القوائم . صوان حفظ المجلدات ذات اللون المتشابه .

يتقدم السفير خطوة ، ويتقدم الوكيل خطوة لكنها فسيحة ، يلتقيان فى منتصف المسافة ، يتصافحان ، يمد ذراعه مرحباً بضيفه ، مشيراً إلى الأريكة الوثيرة ، العريضة .

يقعد المترجم فى مواجهتهما منحنياً قليلاً ، يبدو الوكيل مسترخياً فى جلسته ، يحرص أن يبدو متبسطاً ، كأنه يستريح من عناء العمل خلال المقابلة . إنه يعرف السفير جيداً ، أمضى ثلاث سنوات وبضعة شهور فى البلاد قابله فى مآدب عشاء أو غداء عديدة ، التقى به مرات فى هذا المكتب ، إنه يعرف المترجم أيضاً ، ملم بماضيه ، إذ تلقى تعليم اللغة العربية فى الجامعة .

يبدى ترحيباً بهما ، يلامس جبهته بأطراف أنامله ، يقول إنه من الصعب الاستمرار فى القراءة بنفس الوتيرة بعد الخمسين .

يظهر وداً ، يبدأ الحديث بهم ذاتى حتى يضفى على الجلسة درجة من حميمية ، صحيح أن العلاقات بين البلدين تمر بمرحلة جمود ، وجفوة من فترة ليست بالقصيرة ، لكنه دبلوماسى محنك ، يعرف الأصول ، وفوق ذلك فإن انطباعه عن السفير مريح ، إنه رجل طيب .

يقول السفير إنه من الضرورى استخدام نظارة للقراءة بعد سن الأربعين يتراجع إلى الوراء . يشير بإصبعه ، إنها ملازمة له منذ سن الثالثة والأربعين أى منذ ثمان سنوات . منذ ذلك الحين يمشى بنظارتين ، واحدة للنظر وأخرى للقراءة ، ها هى فوق المكتب . .

يقول السفير . هناك عدسات تجمع بين الاثنتين فى إطار واحد . أحياناً يكون استخدام نظارتين مربكاً .

يبسط يديه ، ما العمل ؟ إن الفارق بين عدسات المشى والقراءة كبير بحيث لا يمكن الجمع بينهما . .

يقطب السفير حاجبيه ، إذن . . الأمر هكذا . هذا جديد بالنسبة له !

يقول إن مثل هذه العدسات أصبح العثور عليها ميسوراً هنا ، إنهم يصنعونها بمهارة .

يعدل السفير من وضعه ، يقول إنها موجودة فى بلاده أيضاً ، وعلى درجة عالية من الجودة .

يدخل الساعي غامق السمرة . يومىء السفير مبدياً رغبته فى شرب قهوة أما المترجم شاياً بدون سكر . .

يتراجع إلى الوراء قليلاً . يتخذ وضعاً متصلباً إلى حد ما ، كأنه يوشك على القيام ، أو الإقدام على شيء ما ، ينظر إلى المترجم ، يبدأ الحديث بلغة بلاده غير الشائعة ، حتى هذه اللحظة كان الحديث باللغة الانجليزية يصغى المترجم ممسكاً بورقة وقلماً ، ثم يبدأ الحديث بعربية فصحى يعرف الوكيل إيقاع نطقها ، خاصة أولئك القادمين من هذا البلد دائماً ما تلقى اللغة الأصلية بظلالها ، هكذا يختلف نطق اليونانى عن الامريكى عن الروسى .

— سيادة الوكيل المحترم . . جئت لأقدم احتجاجاً رسمياً . .

— احتجاجاً ؟

ينهى الوكيل جلسته المنبسطة ، يفارق ظهره الأريكة ، تبدو ملامحه أكثر حدة .

— نعم . . احتجاج رسمى . .

— إذن . . لحظة من فضلك . .

يقف . يخطو باتجاه مكتبه ، يقعد ، تتشابك أصابع يديه ، يستدير المترجم ليواجهه ، السفير الآن جالس على حافة الأريكة تقريباً ، يمسك الوكيل بقلمه بعد أن بدل نظارته ، يبدأ التدوين . .

— يمكننى الإصغاء يا سعادة السفير . .

— حسنا يا سيادة الوكيل المختص . . باسم دولتى أتقدم باحتجاج رسمى . .

يتوقف لحظات ، يعدل وضع رباط عنقه .

— نشرت صحفكم عدة مقالات معادية لبلادى . فيها تهجم صريح . هذه المقالات كان لها أثر سيىء يهدد العلاقات التى استمرت فترة طويلة عادية وطيبة .

يتوقف المترجم . .

— هل انتهى الاحتجاج ؟
— نـعـم .

يومىء السفير، يبدأ المترجم فى تدوين ما يسمعه . .
— سعادة السفير المعتمد ، لابد من إيضاح ، إن الصحافة فى بلادنا تتمتع بالحرية ، وما يكتب فيها يعبر عن رأى العاملين فيها . .
على الرغم من بقاء ملامح السفير شبه جامدة ، إلا أن ضيقاً يلوح . .

— إن نشر هذه المقالات فى وقت متقارب لا يمكن أن يكون صدفة . . خاصة إن الصحف شبه رسمية . .
— هل قلت شبه رسمية ؟
يومىء المترجم مؤكداً ، ينقل بصره بين السفير والوكيل الذى أحنى رأسه قليلاً حتى يمكنه النظر من فوق إطار نظارة القراءة . .

— أؤكد أن صحافتنا تتمتع بالحرية . وما يكتب فيها يعبر عن آراء الصحفيين ، إن وضع صحافتنا يختلف عن الصحف فى بلادكم المملوكة للدولة . .

يقوم السفير واقفاً ، تبدو لهجته أكثر حدة ، يقف المترجم أيضاً ، يقطب .
— سيدى . . إن صحافتنا مملوكة للشعب . .
يخلع الوكيل نظارة القراءة ، يهزها بيده . .
— على أى حال ، سأبلغ احتجاجكم اليوم إلى الجهات المسئولة . .

— أشكرك يا سيدى الوكيل المختص . .
يلتفت إلى المترجم .
— هل انتهى الاحتجاج ؟ ؟
— نـعـم .

يقوم . يفارق مقعده وراء المكتب ، يتناول علبة سجائر معطرة بالنعناع يقترب من السفير ، يقول بالانجليزية :

— أعرف أن سعادتك تدخن أحياناً . .

— الحقيقة أنني امتنعت تماماً منذ شهرين . .

يتردد المترجم ، يتطلع إلى السفير الذى أومأ له مشجعاً ، يتناول السيجار يبقيها بين أصابعه وكأنه يحاول إخفاءها ، يمد الوكيل قداحة ذهبية يدخل الساعى حاملاً صينية المشروبات .

— القهوة لسعادة السفير ، والشاى هنا . .

يدس السفير يده في جيبه ، يخرج علبة صغيرة ، يضغط حافتها ، يتناول قرصاً دقيقاً ، مستديراً

— سكارين ؟

— لا . . هذا نوع جديد ، سكر مستخرج من الفاكهة . .

— تسمح . .

إنه فرنسي . . لا يغير طعم القهوة . .

— ولكننى أعرف أنك لست مصاباً بالسكر !

— لابد من إنقاص وزنى قليلاً . .

— هذا أفضل . . ننسى أنفسنا أحياناً فى المكاتب . .

— رياضة النادى لا تكفى . .

— على أى حال . . إننى أفضل القهوة بدون سكر . .

بعد الرشفة الأولى ، يبدى السفير ارتياحاً .

— البن رائع . .

— قهوتنا على الطريقة التركية دائماً . .

يتدخل المترجم بصوت خفيض .

— هناك القهوة العربية المرة ، شربتها فى الكويت . .

— إنها طريقة مختلفة تماماً .

ينتهى السفير من رشف القهوة . يتراجع قليلاً . يتحدث بلغة بلاده متوجهاً إلى المترجم الذى سارع بوضع شوب الشاى . وتناول القلم والورق . .

— أرجو الاهتمام بهذا الاحتجاج . .

— طبعاً . .

— إننى أتمنى وقف الدعاية السوداء ضد بلادنا . .

يقف الوكيل ، تساءل بعربية فصحى ، متأنياً فى لفظه . .

— ماذا ؟ هل قلت الدعاية السوداء ؟ وماذا تعنى بذلك ؟

فبراير ١٩٨٩

* * *

شتات الشقائق

فانبعثت يقظة ، بعد أن وسنت للحظات . .

تخشى مواصلة النوم إلى ما بعد الموعد . ألا تتمكن من إيقاظه ، فى السادسة يجب أن يكون فى المطار ، عربة الأجرة ستجىء فى الخامسة ، الشوارع خالية فى الصباح الباكر ، قدر السائق ساعة للوصول إلى المطار ، هذا ما حدده عند الاتفاق معه ، إنه جارهم . ويسكن الناصية القريبة ، عيّن توقيت المفارقة ، تمام الخامسة ، لكنه يجب أن يصحو فى الرابعة والنصف ، يغتسل ، يصلى ، يرتدى ملابسه ، لكن الأهم تناولهما لقمة معاً لآخر مرة قبل الرحيل ، آخر إفطار بصحبته . .

آخر إفطار ؟

لماذا ؟ لماذا تقرن النهاية باللحظات المنتظرة ؟ فال سىء ينبغى تحاشيه ، صحيح . . إنه سيغيب سنة ، لن نراه قبل اثنى عشر شهراً ، سنة ستتبدل خلالها أحوال ، تقوم أوضاع وتحيد مصائر ، لكنه سيرجع ، سنراه مرة أخرى ، لماذا يردد. خاطرها ، آخر إفطار ، آخر مرة .

صحيح . . الغياب صعب ، ولكنها يجب أن تبدى الجلد . إلا يذكرها طوال الشهور القادمة دامعة ، يجب أن تبتسم ، أما أن تدمع في حضوره ، فهذا شؤم . غداً ستجلس إلى المائدة بمفردها ، ستعد كوباً واحداً من الشاى بدلاً من اثنين ، ستضع رغيفاً بدلاً من رغيفين ، ستأكل بمفردها ، ستشرب الشاى مطرقة إلى الأرض .

يا عالم . . متى يلتقى الحى بالحى ؟
فى مثل هذه الساعة غداً ، سيكون هو فى ناحية ، وهى فى ناحية ، سينزل أرضاً غريبة يطأها لأول مرة ، وستمسى هى غريبة فى موطنها ، حذرة ، منقطعة ، فما أبعد الأقارب الذين يعيشون فى الصعيد الأعلى ، وهنت الصلات التى كانت يوماً وثيقة ، خاصة بعد رحيل الوالدين .

تقعد عند حافة السرير ، تدنو من ذرى الشجن ، توشك أن تدمع ، تحوش نفسها . يجب ألا يلمح طيف حزن فى عينيها ، يجب ألا تحمله هماً فوق همومه ، يكفيه قسر الغربة ، ومشقة الرحيل ؟
ثم إنها ليست المرة الأولى التى ستبقى بمفردها ، ألم يسافر خارج القاهرة مراراً ؟ ، ألم تختلف مواعيد خروجهما إلى عملهما ؟ .

لكن . . فرق بين سفر قريب ، ورحيل طويل ، فى رحلاته القصيرة تدرك بشكل ما أنه هنا . وهنا تعنى هذه الصالة والشوارع المحيطة والضواحى . والبلاد التى يمضى إليها يوماً أو يومين إن فى بحرى أو فى قبلى . لكنه غداً سيكون بعيداً ، سيغيب نفسه من البيت ، سنة كاملة لن تسمع صوته إلا عبر الهاتف ، هكذا يقضى العقد الموقع بينه وبين صاحب العمل ، عام متصل . . ثم إن عليها اعتياد البقاء بمفردها ، لن يظل معها إلى الأبد ، يوماً ما سيذهب إلى بيته ، سيتزوج ، يطل عليها بين الحين والآخر ، هى شقيقته الأكبر منه ، التى مال حظها ، وقضى عليها أن تعيش بمفردها ، سيجىء أولاده الصغار إليها ، ستحنو عليهم ، ستجهز لهم الحلوى ، سيملأون البيت صياحاً ، وضجيجاً ، ودفئاً ، ثم يمضون .

يجب أن تعد لأيام وحدة مقبلة . لكن الأيام التالية لرحيله ، الأيام الأولى ستكون صعبة ، قاسية ، هذا مفروغ منه ، ولا لوم عليها لأن قلبها يفيض شجناً ، لكنها يجب أن تحجب ، أن تدارى عنه .

تقوم ، يجب إيقاظه بعد قليل . تقف عند الباب المطل على الصالة الضيقة ، المائدة ، المقاعد الأربعة ، بجوار باب الشقة حقيبة سفره بنية اللون ، مرتفعة ، أقفالها صفراء نحاسية المظهر ، تلمع فى الضوء الخافت ، على حافتيها ورقتان مستطيلتان ، كتب عليهما اسمه وعنوانه ، حقيبة أصغر ، سوداء ، سيحملها بيده ، رفعها مراراً قبل نومه ، دعاها لتجرب ثقلها ، سعى إلى إشراكها فى كل خطوة ، لم تتردد ، لم تتقاعس ، لم ترجف تأثراً ، بل أقبلت مبدية حماساً مضاعفاً ، قالت إن ما يثقلها الكتب ، لكنه وزن معقول ، كلتا الحقيبتين اشترياها من الدرب الجديد قرب العتبة الخضراء . لم يمتلكا إلا حقيبة قديمة استخدمها فى أسفاره القريبة .

تجتاز الصالة ، تقف أمام باب غرفته الموارب قليلاً ، صعب عليها الوقوف على حاله ، نائم . . مستيقظ ؟ ، الليلة القادمة ستخلو هذه الحجرة منه ، لن تغلقها ، ستبقيها مفتوحة ، ستنظفها يومياً وتفتح النافذة لتهويتها ، وترتب ما تركه من أوراق وتنفض الغبار عن الكتب ، تعود النظر إلى الحقيبتين ، إلى جواز السفر الموضوع على حافة المنضدة ، تطل منه بطاقة الطائرة ، تتجه إلى المطبخ ، رائحة غاز ؟ لكنها أحكمت إغلاق الصمام قبل النوم ، أوصاها مراراً خلال الأيام الماضية بضرورة إغلاق باب الشقة جيداً ، ومحبس الغاز ، تفتح الصنبور ، تملأ كوباً ، تفرغه فى البراد المعدنى ، كوب آخر ، اثنان ، بعد ذلك لن تعد إلا واحداً . . حتى عودته سالماً .

تشعل الموقد الغازى ، للنيران حفيف خافت ، بعد أن يغلى الماء تضع الشاى ، تتركه قليلاً ، كوب مضبوط ، معطر بالنعناع ، إعتاد شربه قبل خروجه إلى عمله .

تضع طبق الجبن ، طبق الفول ، الخبز تصلب قليلاً ، ستضعه على

النيران ، لم تعد تتحرك بحذر ، حان موعد صحوه ، تقف بالباب .

— أنا صاحى . .

— صباح الخير . . الساعة الرابعة والربع . .

يزيح الغطاء ، يشعل الضوء ، عيناه مزرورتان .

— آذّن الفجر ؟

— أظن الصلاة بدأت . .

تتجه إلى المذياع ، ينبعث صدى الفراغ ، إنها لحظة الركوع ، أو السجود ، لحظة صمت الإمام ، شخص ما يسعل ، ترى . . من هو ؟ ، الله أكبر . . تذاع الصلاة من مسجد الإمام الحسين ، عاشا بالقرب منه طفولتها وصباها . وصدر فتوتها ، بعد انتقال الأسرة إلى تلك الضاحية ، وحتى غياب الوالدة ، اعتادا صحبتها أسبوعياً لزيارة ضريح الحبيب الشهيد ، ثم العروج على الصحب من جيران العمر .

كانت المرحومة تقول إنها لا تستطيع العيش بعيداً عن الحسين ، وافقت من أجل راحتها ، فالبيت عتيق وضيق ، لكنها من الضرورى أن تطل بين الحين والحين على الأحباب القدامى . جيران العمر ، كانت تقول إن عمرها تفرق هناك على النواصى ، الحوارى ، والمتاجر التى اعتادت شراء حاجاتها منها ، إسماعيل الخضرى ، نصرى الجزار ، عبد الهادى البقال .

بعد رحيلها بغتة ، سعت إلى الأماكن التى أحبتها المرحومة ، إلى الأرض التى مشت فوقها . بعد إحدى زياراتها ، قالت لشقيقتها إنها رأت المتقدمين فى العمر يسعون ، كلهم هناك . . فلماذا غياب أمها البكر ؟

لماذا وهى أصغر سنا من كثيرين مازالوا . .

يومها قال إنهما يجب ألا يكفرا بالقضاء ، إنه أجل ، ولكل أجل كتاب .

تعرف أن أمها رحلت محسورة ، لم تطمئن عليها ، لكم ودت أن تراها فى بيتها ، لكم تمنت أن تداعب أحفادها منها ، كثيراً ما عادت إليها بأدوات تجميل ، وقماش جديد ، تتطلع إليها صامتة ، لم تقل كلمة . لكنها أدركت

نظراتها ، وجرى حوارهما بالصمت ، حاداً عن الخوض فى أسباب الحظ المائل ، والبخت الوحش ، كانت تقول إنها زينة البنات ، فهى هادئة الملامح ، خفيفة الحضور ، متناسقة ، لم تحد قط ، لكنه الحظ المائل ، وصعوبة الوقت ، وتعثر الأحوال !

لو أنها بالقرب منها الآن ، لو أن نفسها يتردد فى البيت لاطمأنت ، ولما خشيت الليالى المقبلة ، لكنه الأجل ، لكنه النصيب .

لا تستمر ، فتوالى الصور ، وانبعاث اللحظات الشاردة ، أمر جالب للتأثر ، للدمع ، مثير للحرقة ، وهذا ما يجب تحاشيه وتجنبه حتى خروجه وسفره بالسلامة .

يقف فى الصالة ، يجفف وجهه . يتطلع إليها . .

— الدنيا برد . .

آخر الليل . . وبرد السنة صعب . .

بعد لحظات تساءلت . .

— وهناك ؟

— النهار معتدل ، ولكن برد الصحراء شديد ليلاً . .

تفرجت على النشرة الجوية فى التليفزيون ، عاصمة البلاد العظمى فيها اثنا عشر والصغرى صفر . .

لم تقل إنها تساءلت دائماً عن جدوى عرض درجات الحرارة فى عواصم الدنيا وهذا يوم يجىء تهتم فيه بطقس بلد لم تره أبداً ، سيسعى شقيقها فى نقطة نائية منه .

— أنا كتبت أرقام عداد الكهرباء ، علقت الورقة على الباب . . يستحسن هذا دائماً . .

تومىء ، طوال الأيام الماضية يوصيها أن تنتبه ، ألا تفتح الباب لأى إنسان إلا بعد رؤية شخصه من العين السحرية ، أن تعود من ناحية العمارات بعد نزولها محطة الأوتوبيس ، صحيح المسافة أطول لكنها أكثر أمناً من الطريق

المجاور لسور النادى ، يردد أن الدنيا صارت وحشة ، والأمان شحيح ، تبتسم وتوصيه أن ينتبه هو إلى نفسه ، ألا يعول هماً ، كل ما أوصاها به ستنفذه بحذافيره .

إنه يحوش نفسه عن النطق بوصاياه ، تكرار ما قاله مراراً خلال الأيام الماضية ، إلآن . . والوقت يمر ويدنو يتحاشى معانى لها وثيق صلة بغيبته الطويلة ، بسفره ، ببقائها وحيدة . . ، يقف مرتدياً قميصه ، وبنطلونه ، لم يرتد الحذاء بعد ، أخرجه من تحت سريره ، وضعه أمام المقعد المجاور للمائدة .

— تأخرت سهرة التليفزيون أمس ؟

تلتفت إليه ، وضعت طبق الجبن الأبيض ، والفول ، وبراد الشاى . . ثم طبق البيض المقلى . .

— لم أكمل التمثيلية . .

— لا يضعون فى الاعتبار ذهاب الناس مبكرين إلى أشغالهم . .

— صحيح . . لكنه يسلى الخلق . .

ينظر إلى المائدة .

— غداء أو إفطار ؟

— أسند نفسك . . اليوم طويل . .

نفس العبارة كانت تقولها المرحومة للوالد عند شروعه فى السفر إلى البلدة زمان . كان يركب قطار الثامنة ، يغادر البيت فى السادسة أو بعد صلاته الفجر مباشرة .

يجلس إلى المائدة الصغيرة ، يمضغ بسرعة ، هذه لحظات سوف تستعيدها مراراً ، من بين كل مرات إفطاره لن تذكر إلا تلك اللحيظات ، يتطلع إلى الساعة ، لم تصل العربة بعد ، إيقاع الدقائق الآن أسرع ، الصمت بالغ مداه ، وثمة طنين غامض مجهول المصدر ، صوت الصمت ذاته .

— تغير طعم البيض .

ملاحظة أبداها من قبل مراراً ، تجيبه بنفس الكلمات . .
— من الصعب الحصول على البيض البلدى . .
ثم تقول ؛
— كل شىء تغير طعمه . .

يطوف بعينيه حول الصالة ، كأنه يدقق معالمها ، يتحاشى مثلها تلاقى نظراتهما ، ترى . . أى الصور تتوالى عليه الآن ؟ الآن بالذات ؟ تحجم عن النطق بالسؤال ، أوقات جلوسهما إلى بعضهما محدودة ، قصيرة ، تعقب دائماً أوقات الطعام ، ولكن هذه المرة تتقدمه ، فبعد أن يفرغ سيفارق مباشرة ، وربما لن يتم شرب كوب الشاى ، كان حديثهما اليومى يدور حول موضوع بعينه ، الآن يحومان حول بعضهما ، فى لحظة يدنوان ، وفى اللحظة عينها ينأيان ، لا تذكر من قال أمامها إنه يفضل السفر والأهل نيام اللحظات الأخيرة مرهقة .

إنها ترى لحظات استعادتها هذا الوقت القصير ، الفاصل ، ستذكره متمهلة ، والحنين إليه يهمى ، يغرقها ، هو فى ناحية ، هى فى أخرى ، لكم جلس إلى المائدة ، لكم تناول إفطاره ، لكم رشف الشاى ، لكن هذه اللحيظات بالذات ، هذا الحضور !

محرك السيارة ، يتزايد ، يعلو ، يتوقف .
— وصل . .
يقوم ، مستنفراً للإقلاع ، حركته الآن أسرع ، لفتاته ، ارتداؤه الجاكتة .
— معك تصريح العمل . .
يومىء ، يشير إلى حجرته .

— التوكيل فى الدرج الأيمن . .
— ياه . . لا تذكر هذا التوكيل . .

تواجه ابتسامته الهادئة ، ابتسامة تبرر قولاً ، أو تخفف أمراً لا تود سماعه . .

— الحياة علمتنا أن نحتاط .

— أذكر خيراً . .

يقول خافت الصوت .

— كله خير بإذن الله . .

— دعنى أصحبك .

— معقول ؟ وكيف ترجعين من المطار . . الدنيا شتاء والظلام يستمر حتى السابعة صباحاً . .

لا تدرى ما يجب القيام به ، تبذل جهداً حتى لا تدمع عيناها ، لن يذكرها باكية ، هو من بقى لها فى الدنيا ، وها هو يرحل ، تميل على الحقيبة الكبيرة ، يربت كتفها .

— ستبقين هنا . .

— لا . . حتى الباب .

— طيب . . هذه ثقيلة عليك . .

تصر ، وكأنها تشارك بقدر فى حمل عبء الرحيل ، تنزل درجات السلم . هل ازداد إطراقه .

— يكفى هنا .

— حتى العربة . .

لكنه يقف أمامها ، هذا كاف جداً ، لا داعى لخروجها إلى الطريق . برد الدنيا شديد ، وملابسها خفيفة ، يمد يده ، يلمس شعرها ، تنحنى ممسكة بيديه ، تقبلهما ، تماماً كما كانت تفعل عند بدء غياب أبيها فى الزمن القديم الذى لن ينبعث « أبداً . . » .

مارس ١٩٨٩

* * *

شغل

حتى الآن لم أعرف السبب . .

كراهيتها غير المبررة ، سعيها ضده بكل ما تتقنه ، وتوظيفها تراثها وعلاقاتها مع شسوع البون بينهما ، هى موظفة وهو ساع ، هى مهندسة وهو عامل . هى ثرية ، متنفرة ، وهو بسيط الحال ، لا حول له ، ولا قدرة على إيذائها ، أو إلحاق الضرر بها .

لاقيته عند التحاقى ، منذ عشر سنوات ، أما هي فلم تظهر فى المؤسسة إلا منذ خمس سنوات وبضعة شهور ، لم تمكث طويلا بعد تخرجها من كلية الفنون التطبيقية . مع مجيئها ترددت أقاويل عن والدها الأستاذ بكلية الطب . صديق عدد من ذوى النفوذ ، أولاد بعضهم يدرسون عنده ، يترددون عليه فى البيت ، يقضون السهرات عنده ، وخلال بعضها يتم الاتفاق على أمور هامة ، يعلن بعضها على الخلق من خلال وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة . . هكذا قيل ، غير أن زميلة من قسم التصاميم الهندسية أكدت انها تعرف عائلتها ، قريبها مقيم بنفس العمارة التى يقطنونها بناحية العجوزة ، قالت إن والدها رجل طيب ، أطيب من اللازم ، نعم . . هو أستاذ مرموق فى

عمله ، صارم مع طلبته . لكنه رقيق الحال فى بيته ، أمره . نْ ، طرى ، تجاه امرأته ، إنها ربة البيت تردد دائماً أن أمها من أصل يونانى تتباهى بذلك وتتميز تتقن الفرنسية مع أنها لم تتم تعليمها الثانوى ، لكنها ذات صلات شتى ، خاصة بزوجات المشاهير ، تعرف أحوالهن وأخبارهن وتقلباتهن ، فى كل ليلة بصحبة إحداهن ، إما ذاهبة إلى عشاء ، أو داعية بعضهن إلى مأدبة فى بيتها ، لذا حق لها أن تسمى سيدة مجتمع ، عرف عنها درايتها الأتم بتهيئة الجلسات ، وتوفيق المشروبات للمأكولات ، فهذا النوع من النبيذ يوافق هذا الطبق ، وهذا المشروب يسبق ذاك . إضافة إلى قدرتها على معرفة حكايات لا تحد عمن بيدهم أمور الحل والعقد ، ونجوم السينما والمسرح ، ومشاهير الكتاب ، تلك خصال وسمات حببت القوم إليها ، فسعوا إلى التردد عليها والائتناس . وأثناء السهرة تقوم زميلتنا الجديدة بالخدمة مع شقيقتيها . أعمارهن متقاربة ، بين كل منهن والأخرى سنة واحدة لا غير ، متأنقات ، لسن زاعقات الجمال ولا هن بالدميمات ، عندهن جاذبية خفية وحظ ، عضوات بنادى الجزيرة ، لهن من الحرية قدر وافر ، قالت زميلتنا إن الأب كثيراً ما يعتذر بعد استقباله الضيوف ، ينسحب إلى مكتبه أو إلى حجرته متعللاً بالإرهاق أو ضرورة إعداد المحاضرات .

كلام كثير تردد ، تفاصيل رُويت . أصغيت حذراً ، وأن بدأ منها فيما بعد ما يؤكده ، ولفترة أجهدت ذاتى فى محاولة فهم الصلة بينما سمعته وما بدر منها تجاه بدوى ، لكننى لم أدرك الكنه . عندما جاءت أبدت اهتماماً كبيراً بالحصول على مكتب ذى مواصفات معينة . حتى قيل إنها عرضت على المدير الإدارى أن تشترى مكتباً على نفقتها . لكنه قال إن هذا غير مسبوق ، وعدها بالتدخل لدى قسم الميزانية ، وبالفعل أتوا له بواحد غطى خشبة بطبقة من الفورمايكا ، مزود بأربعة أدراج ، مع إن الموظف المبتدىء يسمح له بمكتب ذى درجين فقط ، شارك بدوى فى حمله ، حتى استقر فى موضعه بجوار النافذة المطلة على الطريق العام . خصص الركن لصوان حفظ الملفات والتصميمات ، لكنها أعلنت علينا نيتها فى نقله إلى جوار المدخل ، لأن عينيها فى حاجة إلى الضوء ،

لم يمانع أحد منا ، نحن الخمسة الذين نشاركها الجلوس فى الصالة المستطيلة الواقعة آخر الطابق ، بدوى متفرغ لخدمتها ولقضاء الحاجات .

يجىء مبكراً . يسكن الطرف الآخر من المدينة ، لكنه يصل مبكراً ، يكنس الصالة ، ينظف زجاج النافذة ، واسطح المكاتب ، يشغل عوداً من البخور طيب الرائحة ، يأتى به من جوار ضريح سيدنا الحسين . عند وصولنا نجد المكاتب نظيفة ، المكان مهيأ ، يستقبلنا مبتسماً ، راضياً ، على الفور يبدأ إعداد الشاى ، وراء باب الصالة ، فى الركن الأيسر منضدة صغيرة فوقها موقد كهربائى صغير ، براد شاى وستة أكواب ، وأربعة فناجين ، للمنضدة درج متوسط الحجم يضع فيه السكر والشاى والنعناع المجفف والبن ، بن خاص يشتريه من رجل عجوز فى المغربلين ، يخلطه بالمستكة ، والزعفران ، ومواد أخرى يضعها بنسب معينة يكسب القهوة نكهة خاصة جداً ، حدث ببعض الأصدقاء إلى زيارتى ، وطلب قهوة عم بدوى ، صاحب لى أكد أن المذاق نادر .

يقبل بدوى على إعداد مشروبات الصباح ، يحرص على نظافة المنضدة . يمسك بيمينه فوطة صفراء ، يمسح بها البلل ، يزيل ذرات السكر المتناثرة ، يمضى إلى الحمام ، يغسل الأكواب بصابونة يحتفظ بها ، ويشطفها جيداً . يرجع ، يصف الأكواب . اثنان . اثنان . يصب أولاً قليلاً من الشاى ، يرفع الكوب فى مواجهة الضوء ، يتأمل اللون الياقوتى الداكن ، يعرف مزاج كل منا ، يعرف تفضيلى الشاى الثقيل ، يصب لزميلاتى أولاً ، ثم يحمل إلىّ الكوب ، يضعه فوق الحامل المستدير عند حافة المكتب اليمنى .

إذ نفرغ يسأل عمن يريد الإفطار ، إنه يعرف من اعتاد تناوله فى المكتب ، لكن هذا لم يمنعه من السؤال اليومى المعتاد ، يمضى إلى مطعم قرب ميدان الدقى اشتهر بنظافته ، يعود بالسندويتشات ، يفك اللفافة ، يكور الورق ، يلقيه فى سلة المهملات ، يوزع قطع المخلل على أطباق ستة يحتفظ بها ، يبسط ورقة بيضاء فوق المكتب أولاً ثم يقول :

« بالهنا والشفا »

بعد الفراغ ، يتناول الأطباق . يمضى ليغسلها ، ثم يضعها فى مكانها من الدرج ، ينسحب إلى خارج الصالة ، مبتدئاً جلسته فوق مقعد دائرى صغير بدون مسند ، بين الحين والحين يطل متسائلاً عما إذا كان أحدنا فى حاجة إلى شيء ؟

عندما تسلمت عملى ، أول أيامى ، بادر بإعداد الشاى ، سألته آخر النهار عن الحساب ، كم ؟

ابتسم . هز رأسه من أعلى إلى أسفل ، قال إن ما قدمه اليوم تحية التحاقى . فى اليوم التالى جاوبنى بابتسامته الهادئة التى تحوى رغبة فى الود ، والقربى ، وسلاماً ومسرة ، ومسا فى خضوع إستسلامى لأمر ما !

« أى حاجة يا أستاذ . . » .

اعتدت أن أعطيه ما فيه النصيب ، لم ينظر فى النقود ، لم يعتد إحصاءها ، إنما يدسها فى جيبه على الفور ، مع توالى الأوقات لاحظت أنه يعرف عاداتى ، متى ينال التعب منى ، متى يدركنى نصب ، متى احتاج كوب الشاى ، أحياناً يدنو ، إنتبه من خلال إنهماكى فى تلوين وتحديد المربعات الصغيرة ، المتراصة ، المتتابعة ، المتجاورة . يقول بنبرة أقرب إلى الهمس .

« استرح قليلاً يا أستاذ . . » .

أرفع عينى المجهدتين ، فعلاً . . لابد من الراحة ، أحملق عبر الفراغ الممتد . بعد دقائق معدودات أعود إلى توحدى بالتصميم ، عندما جاءت بدأ تبدل وتغير ، أبدي ترحيباً ، أظهر وداً ، لكنها قابلته بصد حازم ، منذ الأيام الأولى بدا واضحاً أنها لا تتصرف مثل الموظفين الجدد . الذين يبدون لطفاً ورغبة فى القربى ، لاح حرصها على أفهامنا أنها مسنودة . إن العمل لا يليق بها ، إن مجيئها ظرف استثنائى . وأن ثمة تغيراً سيحدث ، وهى فى الانتظار .

مشيتها . خروجها ، دخولها ، قصر خطواتها ، نظرها فى اتجاه واحد ،

تأففها ، وضعها زجاجة عطر باريس أمامها ، بعد أى مصافحة تبادر إلى مس يديها كأنها تزيل أثراً تخشى منه .

فى الغرفة جهاز واحد الهاتف ، يتصل بالبدالة ، إذا شاء أحدنا الاتصال بالخارج ، يجب أن يدق مرات ، ثم يرجو العامل وصل الخط ، منذ أول أيامها لاحظت اتجاهها إلى المكتب الموضوع فوقه الجهاز ، تدير عينيها بيننا ، تقول باختصار « ممكن ؟ » .

لا تنتظر رداً ، تحمله إلى مكتبها ، تبدأ إجراء مكالمات شتى ، ثم اعتادت حمله إلى مكتبها فوراً ، تحتفظ به معظم الوقت ، لم تفتنى نظرات زميلاتى الثلاث ، وزميلى الصامت دائماً مثلى ، لم نكن نستخدمه إلا فيما ندر . أما هى فلا تفرغ من اتصال إلا لتبدأ آخر . بعض مكالماتها قصيرة جداً ، لكن معظمها يطول لنصف ساعة أو أكثر ، لاحظت قدرتها على الهمس ، بحيث لا يمكن الواقف أمامها مباشرة أو الجالس على مقربة أن يحدد الألفاظ أو يتبين مخارجها . تتحدث أحياناً بالفرنسية . أثناء حديثها إلينا تلفظ كلمات عديدة ، ترفع عينيها إلى الفراغ ، تقول الكلمة أولاً بالفرنسية ، ثم تبدو متعثرة فى التوصل إلى مقابلها بالعربية التى تحرص دائماً على إبداء عدم إتقانها لها ، أثناء استرسالها فى حوار ينطلق لسانها باللغة الأجنبية ثم تتوقف فجأة مبدية اعتذاراً كأن ما بدر منها مجرد هفوة عابرة . أحياناً يرتفع صوتها ، تنتقل من الهمس إلى الجهر ، تذكر إسماً معروفاً ، تتساءل عما إذا كان سيبقى إلى العشاء ، أم إنها مجرد زيادة عابرة ؟ ، تذكر اسم مسئول كبير بالمجلس النيابى مقترناً بلفظ « أنكل » وإذا جرى حوار ورد خلاله اسم مسئول ، أو أحد الوزراء تقرنه بنفس اللفظ ، تشير إلى لقاء به تم ، أو سيتم !

اعتدت الإصغاء صامتاً ، لا أظهر دهشة ولا عجباً ، عندما سألها بدوى عما تفضله . شاياً أو قهوة ؟ قالت إنها تشرب القهوة ، هم بالاستدارة لإعداد الفنجان المضبوط ، أشارت إليه أن ينتظر ، فنجاناً من الخزف الملون ، وعلبة معدنية مستديرة ، قال بدوى مبتسماً . .

« عندى بن محوج سيعجبك يا هانم . . » .
أشارت إلى العلبة .
« هذا بن خاص من السعودية . . » .

قالت إنها اعتادت الشرب منه . . ونبهت إلى ضرورة عدم خلطه . أومأ بدوى ، وصدت مضضه الخفى ، إعتاد تقديم الشاى والقهوة مع بذله العناية ، وإبداء الحرص .

لشهور عدة لم تبد تجاهه جفوة ، كانت تسلمه مظاريف مغلقة ، وأحياناً لفافات لا أعرف ما تحويه ، تطلب منه توصيلها إلى عناوين محدودة ، أو يحضر لها أوراقاً من هنا أو هناك ، تعطيه أجرة المواصلات العامة . لم يبد بدوى تذمراً ، أو شكوى ، لاح لى حرصها الوعر وشحها ، وإخراجها القرش بصعوبة ، حتى قالت زميلتى يوماً إنها ترجىء كل مكالماتها الهاتفية لحين حضورها إلى المكتب .

صباح أحد الأيام زعقت لبدوى ، أشارت إلى سطح المكتب . ذرات غبار عالقة ، قالت إنه لا يعرف شغله ، إنه مهمل ، حول الصالة إلى مقهى ، إلى مطعم . ألا يكفى احتمالها لرائحة زيت الطعمية ، ألا يكفى سكوتها على هذا القرف ؟ ! .

تطلع بدوى إليها صامتاً ، دهشاً ، رجاها ألا تغضب نفسها ، ثم أتى بفوطة صفراء ، مسح الزجاج مرات .

صباح يوم تال دخلت نافرة ، لم تلفظ حتى تحية الصباح ، اتجهت مباشرة إلى مكتبها ، فتحت الأدراج أحدثت جلبة ، تابعناها خفية ، لم نتجه بنظراتنا إليها مباشرة ، مرة أخرى استدارت ، تطلعت حولها ، اجتازت الفراغ ، عند الباب اتجهت إلى بدوى ، قالت إنها ستذهب إلى فرج بك .

بعد ذهابها ، قالت إحدى زميلاتى .
« تفهمنا أنها ستقابل رئيس مجلس الإدارة . . » .
قالت زميلتى الأخرى . .

« يسهر عندهم . . » .
هنا علقت الثالثة .
« طوال النهار تمثيل فى تمثيل . . » .

انتبهت إلى بدوى يرمقنا صامتاً . مفاجأة ربما بالحوار لكنه لا يعلق تأدباً وحشمة ، الحوار بين مهندسات حول زميلتهن ، لا يصح التدخل .

فى اليوم التالى لحقنى فى الممر ، لاح لى حزيناً ، متأسياً . حتى ظننت مكروهاً لحق به ، اعتذر ، بعد اليوم لن يستطيع إعداد الإفطار لنا ، لن يشترى الطعمية والأرغفة الساخنة والباذنجان المخلل ، استدعاه مدير مكتب الأمن ونبه عليه ، قال إنها شكته ، ولما جاوب الرجل قائلاً إن الأساتذة يجيئون من البيت مبكرين بدون إفطار ، قال إن من يريد الطعام فليتناوله فى بيته .

قال بدوى إنه يعتذر ، باستطاعتها إلحاق الأذى به . إنها تدخل مكتب رئيس مجلس الإدارة بدون موعد سابق . تقضى عنده أوقاتاً ، وتخرج ضاحكة ، تتبسط معه ، وتناديه « أنكل » .

قال حزيناً ، مغموماً ، إنه منذ سنوات يعد الإفطار للجماعة ، لكن ماذا بوسعه أن يفعل ، ثم قال إنه سيلزم مقعده فى الممر ، ولن يدخل إلا إذا ناديناه ، طلبت منه ذلك صراحة ، فى الأيام التالية لاحظت غسقه وإعتامه . قلت مهوناً . .
« ربنا على القوى يا بدوى . . » .
قال بصوت خافت .
« أصلها صغيرة يا أستاذ . . وفرحة بشبابها . » .

لم أعلق ، شعرت بحيرته وضيقه ، وبقائه فترات طويلة جالساً فى الممر محملقاً فى الفراغ . أو مطرقاً ، مع أنه لم يكن يكف عن الحركة طوال اليوم ، والدخول والخروج طوال اليوم مستفسراً عما إذا كان أحدنا يريد شيئاً ما ، لم تتوقف عن طلباتها وإرساله هنا وهناك ، صارت لهجتها جافة ، لكننى لم أتوقع تطور الأمور إلى ما صارت إليه .

حدث ان جاءت يوم أربعاء متأخرة عن موعدها ساعة كاملة ، ولجت الصالة بصرامة وحدة ، لم تلق تحية الصباح ، جرى ذلك منها مرة أو مرتين من قبل ، قبل جلوسها فتحت درج مكتبها ، صاحت متأوهة ، مستنكرة ، أين جهاز التسجيل ؟ .

طلبت زميلتنا الأكبر سناً أن تفتش بقية الأدراج بتأن . صاحت إنه ليس إبرة لكى يختفى هكذا فجأة صاحت ، جاء بدوى مسرعاً ، تطلعنا متوجسين ، لاحت نُذر الشر

فيما بعد قالت زميلتى إنها جاءت مضمرة الأمر ، حتى إنها تساءلت عن الجهاز قبل نظرها إلى الدرج ، لفترة طويلة ظلت ملامح بدوى تتردد عندى ، أحياناً أثناء مشيى ، أو خلال سعيى ، أو سكينتى ، قبل نومى ، زعر حط عليه بغتة ، اتساع عينيه ، انفراج شفتيه ، غموق لونه تهدل حضوره ، تعلق بصره بأصبعها الذى ارتفع فى مواجهته مهدداً ، موحياً بكافة النُذر ، مدت ذراعها مشيرة إلى الخارج ، آمرة ألا يمشى ، أن ينتظر ، ألا يتحرك .

لاذت نظراته بى . لن أدرى ما يجب أن أفعله فى هذه اللحظات ، كذا زميلاتى ، أدارت قرص الهاتف بعصبية ، ثم راقت ملامحها وهدأ صوتها ، أدركنا أنها تخاطب ضابطاً فى قسم الشرطة ، ارتفعت ضحكاتها متعمدة ، غير تلقائية ، اعتدتها ، إذ صغيت إليها مراراً أثناء مكالماتها الطويلة ، كأنها تنبه لمن يجلسون على مقربة أنها هنا ، قريبة ، لها حضور . وتتحدث إلى أشخاص مهمين .

روت للضابط مجيئها إلى المكتب . اكتشافها ضياع الجهاز الذى اعتادت سماع الموسيقى الأوروبية من خلاله أثناء عملها ، قالت إن الجهاز لا يعنيها ، يمكنها إحضار غيره ، لكن دلالة ما جرى أهم ، كيف تأمن مع وجود لص على مقربة منها ؟ ، مرة أخرى ترددت ضحكاتها . قالت أخيراً « بأى » . لم تنظر تجاه أحدنا ، قلبت أوراقاً ، أحصت أشياء ، خطت كلمات ، بعد لحظات قالت زميلتنا الأكبر سناً إنه كان ينبغى التروى قبل إبلاغ الشرطة . ليس سهلاً

إتهام إنسان هكذا ، ربما أخذت الجهاز معها إلى البيت ، زمت ملامحها ، قالت إنها واثقة ، إنها سكتت عليه طويلاً ، لكنها هذه المرة لن تتراجع ، وستعرف كيف تربيه !

قلت إننا لم نلحظ ما يدل على سوء نية بدوى . ولم تلح منه علامة عبر فترة طويلة تدل على أنه يمكن أن يمد يده .

التفتت ناحيتى ، قالت بحدة إننى أدلله ، وأعامله كما لو كان مهندساً أو مساعد مهندس . كأنه أحدنا ، ثم أشارت إلى الخارج .

— هذا صنف أعرفه . .

قلت إنه ليس سهلاً اتهام إنسان بالسرقة قبل ظهور أدلة . ثم ألم يكن ممكناً الشكوى إلى المسئولين فى المؤسسة ، هنا إدارة أمن ، أما الاستعانة بالشرطة فأمر غير مسبوق .

قالت انها تعرف ما تفعل .

قلت اننى لم ألمح بادرة تدل على سوء نيته ، وإذا لزم الأمر فإننى سأشهد معه . عندئذ ارتفع صوتها .

« إذن . . من أخذ الجهاز ؟ »

تطلعت إليها بحدة بينما رددت زميلاتى الأكبر سناً . . حرام والله حرام . . قامت ، عند الباب التفتت موجهة حديثها إلى لا أحد ، أعلنت انها ماضية إلى « أنكل » ، رددت بينى وبين نفسى « ملعون أبوكى وأبو أنكل » .

دقائق وجاء أربعة ، من الشرطة السريين ، يرتدون الثياب المدنية ، أحاطوا بدوى ، أمسك اثنان منهم ذراعيه ، طلب منه الآخر إبراز بطاقته ثم طلب منه أكبرهم المضى بصحبتهم فى هدوء ، خرجت إلى الممر منضماً إلى الزملاء الذين وقفوا يتابعون ما يجرى ، عند المنحنى التفت بدوى ناحيتى بعينى أسير ، وذعر مغلوب على أمره .

« والله يا أستاذ لم أسرق . . »

فيما بعد ، قال إنهم اقتادوه إلى الشرطة ، وأنهم أمروه بالجلوس فوق دكة خشبية فى ممر طويل ، رمادى الجدران ، آمروه ألا يتحرك ، أربع ساعات كاملة ، لم يطل فى وجهه أحدهم . بكى خلالها على ولديه . وعلى نفسه . ورثى سوء بخته ، وتوسل إلى الله ، إلى الأولياء لكى تنفك ضائقته ، بعدها قادوه إلى ضابط شاب ، وبخه ، وسبه ، ونهره ، وأصر على أن يعرف بكم باع الجهاز ؟ ، ثم دخل اثنان أحدهما يمسك بسلك كهربائى غليظ ، لوح به وسط الفراغ فأحدث أزيزاً اقشعرت منه روحه ، سألوه عن أصله وفصله ، دنوا منه وابتعدوا ، لكنه لم يقر ، قال إنه فقير الحال ، لا حول له ، ظهره عار تماماً من أى سند ، منقطع عن كل عون ، لكنه لم يسرق ، قال إن ما طغى على حاله تفكيره فى صغيريه ، وما يمكن أن يجرى لهما بعده ، وأن استدعاء صورتهما قوّى أمره وثبت حاله .

فى موعدها جاءت ، بعد أن أجرت اتصالات بهذا وذاك ، ورددت عبارات حرصت على إسماعها لنا ، ذكرت فيها ألفاظ مثل « سيادتك » و« معاليك » و« سعادة الباشا » ، واستفسرت عن القمورة » ، فرغت والتفتت ، بدت رائقة المزاج ، ساعية إلى الحوار ، قالت إنها اتصلت بالشرطة مساء أمس ، طلبت إطلاق سراح هذا البنى آدم ! ، وأنها تنازلت عن الشكوى التى لو اتخذت مجراها لمضى إلى السجن ، لكنها أرادت تلقينه درساً حتى لا يمد يده مرة أخرى .

قالت زميلتى كبيرة السنة ، إن المسامح كريم . .

استدارت لتواجهها ، قالت إنه لن يدخل الصالة أبداً ، طلبت نقله إلى جهة تابعة للمؤسسة ، بعيداً عن المقر ، إنها لا تطيق رؤيته ، ثم إن هذا الصنف الوضيع يمكنه الإقدام على أى شىء ، بصراحة . . تخشى على نفسها ، ربما ألقى على وجهها ماء النار . قالت إنهم أخذوا عليه إقراراً فى الشرطة . .

لم أعلق ، لم التفت ناحيتها ، أعرف أن الكلام موجه إلىّ ، إذ كنت أكثرالحاضرين إبداء للود تجاهه ، وكان يبدى عناية خاصة بأمورى ، ويطيل

الحديث إلى عندما نكون بمفردنا ، ويطلعني على شهادة إبنه الأكبر في المدرسة ، وصورة صغيرة الذى ما زال يحبو .

فيما تلا ذلك وقعت داخلى وحشة ، وغزانى أسى ، لم تكن علاقتى بالمسئولين في المؤسسة جيدة ، ولم تكن رديئة ، فمنذ التحاقى بها وأنا محايد في حضورى ، علاقتى الحميمة قاصرة على اللوحات ، والخطوط ، والألوان ، أمضى ساعات منحنياً حتى لأعشى في ذروة الضوء ، ويؤلمنى عنقى ، لا أنتبه إلا وبدوى يقف على مقربة ، مبتسماً ، يضع كوب الشاى أمامى يوصينى بلحظات راحة ، اللوحات باقية ، لكن البصر يذهب بدون أن نشعر .

لم أعد قادراً حتى على رد تحيتها العامة غير الموجهة إلى واحد منا بالتحديد ، حضورها قربى صار صعباً علىّ تحمله ، فلم يبق إلا بذل الجهد لتناسيه ، أو تجاهله . أخبرنى عم نصر ، أقدم سعاة المؤسسة ، انهم نقلوا بدوى إلى المخزن الفرعى في العباسية ، الآن هو الحمال المختص بنقل الصناديق والأثقال إلى العربات التى تمضى إلى المحافظات . قال إنه تسلم عمله بالفعل ، لكنه في حال صعب وعر ، طلب من نصر أن يبلغنى تحياته ، بسط عم نصر يديه . الله على المفترى ، ما من إنسان يمكنه مواجهتها أو التصدى لها ، إنها تدخل مكتب رئيس مجلس الإدارة بدون المرور على السكرتير ، لكن . . لكل ظالم نهاية ، دنا منى ، قال همساً اننى ادرى الناس ببدوى ، مع ذلك يخشى أن يساورنى شك ، يقسم إنه مظلوم ، ماجرى منها تجن فادح ، بدوى رجل طيب ، نقى العنصر ، همه في الدنيا تربية ولديه ، كان إذا لقى في العمر . . حدث ذلك فعلاً . . يسلمه إلى المعاون ، لم يقبل الحرام على نفسه قط ، أما متعته في الحياة فكانت التفانى في الخدمة ، لا يمكن تصور حاله بعد أن منعته من إعداد الشاى والإفطار ، ولزم الجلوس في الممر ، دبرت الأمر ، ظهر هذا منها فجأة ، لماذا . . لا أحد يدرى وبدوى لا يتكلم .

استعدت ما قاله عم نصر عندما رأيته بعد يومين إثر انصرافى ، مضيت إلى محطة الأوتوبيس ، كنت أحرك عنقى يمنة ويسرة . آلمنى طول الانحناء ، وحنين غامض ، ممض ، تثيره عندى الأيام الخريفية ، فوجئت به أمامى .

ينتظرنى ، قال انه حصل على تصريح خاص للانصراف قبل موعده بثلاث ساعات حتى يتمكن من المجىء ليرانى . خشى الا يقابلنى ، أن أغير خطتى وأركب من محطة أخرى ، أو أمشى مباشرة إلى ميدان التحرير كما اعتدت احيانا ، ابتسم ، الابتسامة التى اعتدتها صباح كل يوم ، استفسر عن حالى ، عن الزميلات ، ثم قال باختصار دال . .

— والله أوحشتمونى . .

المت بملامحه واستعدتها مرارا بعد انصرافه ، بدا نحيلا ، تحت عينيه قتامة ، وفى حدقتيه أسى ، تساءلت . .

— ماذا جرى لك ؟ هذا كله من أسبوع واحد ؟

قال أنه فى نار . . والله فى نار . سنوات طويلة اعتاد المجىء يوميا فى الوقت ذاته ، أحب عمله معنا ، ألف الجدان حتى ! ، لكن . . ماذا يفعل ؟ انه بلا حول فى مواجهتها ، البون شاسع بينهما ، مع ذلك حطت كل ثقلها عليه .

ــ لماذا ؟ لماذا يابدوى ؟

حاد بعينيه بعيداً .

ــ تصور يا أستاذ إنهم عصبوا عينى ، هددونى . كدت أيأس من رؤية الأولاد . . كانت تتصل كل نصف ساعة ، والضابط يجىء من حين إلى آخر ويقول إنه سيرسلنى وراء الشمس ، لكننى عزمت على الموت وألا أقر كذباً بالسرقة . . والله ياأستاذ لم أر المسجل . . والله . .

إننى أصدقه . ما من دافع يدعو إلى القسم . . الناس فى المؤسسة متعاطفين معه ، ولا أحد يصدق زعمها .

ــ صحيح . . صحيح يا أستاذ . .

بدت لمعة فى عتمة نظراته ، قال إنه أحب شغله معنا ، لكن العمل فى المخزن صعب . لم يألفه ، لم يعتده ، صحيح إن الأحمال خفيفة ، ومعظم الوقت يقضيه شاغراً ، لكنه لا يطيق المكان ، المخزن تحت الأرض ، معتم ،

يمضى معظم يومه قرب المدخل . لكن شغله فى المؤسسة شىء آخر ، قلت إن الأمور سوف تتخذ مسارها الصحيح فى المستقبل ، ليس معقولاً استمرار الظلم .

أشار إلى الأتوبيس ، يعرف أى خط أتخذه عند عودتى إلى بيتى ، بذل جهداً للملمة شتات الكلمات ، وجهداً للنطق بها ، رجانى إبلاغ سلامه إلى زميلاتى الطيبات اللواتى تعاطفن معه .

سألته وأنا أهم إلى السيارة ، هل يحتاج شيئاً ما .

ـ أبداً والله ، مودتكم ولا شىء آخر . .

قال إن العشرة لا تهون إلا على ابن الحرام ، وأيامه معنا لا يمكن نسيانها . .

أسبوعان مضيا ، أول أيام الشهر فوجئت به يقف فى الممر ، ينتظر باسماً ، بدا وجوده غريباً ، فى غير موضعه ، قال إنه يعرف مجيئى مبكراً قبل الآخرين أول أيام الشهر ، ابتسم . .

ـ انت فى حاجة إلى شاى . .

هذا اليوم عرفت أنه احتفظ بالبراد والموقد الغازى والأكواب عند عم نصر ، بدا مرحاً ، خفيفاً ، شديد العناية بما يقوم به ، صب الشاى ثلاثا ، فى كل مرة يرفع الكوب إلى الضوء ، يهز رأسه غير راض ، وعندما قلت له إن هذا الكوب لم أشرب مثله منذ ذهابه كاد يدمع تأثراً ، عندما دنت الثامنة أنهى قعدته ، لملم حاجاته ، استفسر عما إذا كنت فى حاجة إلى شىء ، ولما قدمت إليه نصف جنيه أبى واستنكر ، قال إنه جاء ليرانى ، وتلك تحيته ، أدركنى خجل ، بعد أسبوع قالت زميلتى الأكبر سناً عند انفرادنا إننا سنرتاح من البرنسيسة ، قالت إنها ستقوم بأجازة ، ستسافر إلى الخارج ، وأنها تحدثت إلى عدد من صاحباتها وأصدقائها . أخبرتهم بسفرها . لم أدر كيف علم بدوى ؟ . فى أول أيام غيابها جاء ، لقيته واقفاً أمام مدخل الصالة ، تقدمنى باسماً ، مسح

المكتب بالفوطة الصفراء ، نفض التراب عن المقعد ، قام بذلك قبل قدومى كرره مرة أخرى إبرازا للمودة وتدقيقاً للعناية ، قال إنه اتفق مع زميل له على أن يوقع له فى كشف الحضور خلال هذه المدة ، خاصة أن العمل خفيف جداً خلال فترة الصيف ، على أى حال هو قادر على تسوية أموره هناك ، قال إنه يمضى أوقاتاً طويلة بمفرده هناك . . بدون شغل ، يحملق إلى المارة من مكانه الذى ينخفض عن مستوى الطريق ، من يرد الراحة والتنبلة فليذهب إلى هناك ، العربات تجىء على فترات متباعدة ، تمضى أيام لا ينقل خلالها صندوقاً واحداً ، لا هو ولا زميله .

كعادته أنهى كلامه فجأة بابتسامته الهادئة . . تحوى أسى غامضاً ، حيرتى زمناً ، أرقبها ولا أجد لها بين الابتسامات التى أراها على سائر الوجوه ، كثيراً ما سعيت إلى تصنيفها ، إلى تحليل سماتها ، ولكننى كمن يحاول إعادة اللون إلى عناصره الأولى بعد امتزاجها ، قال . .

ــ والله يا أستاذ عُشرتكم لا تعوض . .

تابعت دقته وعنايته ، كأنه انتظم مرة يخرى ولا يجتاز فترة موقوتة .

سروره الداخلى الذى لاح فى حركته ، خاصة عندما مضى ليأتى بالإفطار المعتاد ، الفول والطعمية والأرغفة ، تقسيمة الخبز وحشوه ، لفه الشطائر فى مناديل ورقية ، ثم عودته بعد فراغنا ليحمل البقايا ويضعها فى لفافة كبيرة ليلقى بها فى صندوق القمامة نهاية الممر . وقوفه بالباب . على فترات متقاربة ليسأل ، إذا كنا بحاجة إلى شىء ، دخوله قبل انصرافنا . ليساعدنا فى طى اللوحات وتجميع الأوراق ، وإزالة ما طال أسطح المكاتب من ألوان أو أحبار ، وإسداله الستائر على النافذة العريضة المطلة على الطريق الجانبى . .

بقى بشره ملازماً له . كذا ابتسامته ، وإبداؤه الود والتعلق ، حتى دنو عودتها . فى اليوم الأخير ودعنا كمداً مرغماً ، كان اجتثاثه يتم للمرة الأولى ، قال إنه سيجىء كلما سنحت الفرصة . .

انقطع أسبوعين متصلين ، استفسرت من عم نصر ، أبدى الرجل قلقاً ،

قال إنه لم يتصل به منذ مدة ، رجوته أن يسأل ، لمت ذاتى ، كان يجب أن أسعى لأتبين حاله منذ تجاوزه المدة التى اعتاد أن يظهر بعدها ، لكننى لم أهتم لم أعبأ ، أخبرنى عم نصر إنه فى أجازة مرضية ، وإنه راقد فى بيته قال الرجل متأسياً .

ــ بدوى منذ تركه الشغل هنا وهو فى النازل . .

أكدت على ضرورة زيارته ، أبدت زميلتى تعاطفاً ، قالت إنها ستتحدث إلى الآنسة حتى يعود الرجل إلى عمله ، ولكنها بمجرد بدئها الحديث فوجئت بالغضب ، بالنزق ، والقسم أنها لو لمحته فى الصالة ، بل فى المؤسسة فلن تهدأ حتى تزج به إلى السجن ، كان بإمكانها الحاق أذى لا يمكن تخيله به ، لم تتصل بعمها المسئول الكبير فى مكان حساس ، لكن يبدو أنها ستفعل !

قالت زميلتى إنها فوجئت برد الفعل . لا تدرى مصدر هذا الغل كله عندما ، قلت غاضباً ، متعجباً « ولا أنا » .

مارس ــ ١٩٨٩

* * *

شبه

متى بدا اقترابه منه ؟
كيف بدأت الصلة
كم من الوقت استغرق هذا التحول الذى لحظه القريب والبعيد ، ورآه هو نفسه ذات صباح باكر ، عندما حلق مطيلا النظر فى المرآة قبل إتمام حلاقة ذقنه ؟ يمكن التحديد ، فمن الثابت ، المقطوع به ، انه لم يكن من المقربين إلى سيادته قبل توليه المسئولية الجديدة ، كما أنه ليس من أقاربه أو أبناء بلدته ، هؤلاء لم يغين أيًا ولم يساعدهم حتى عُرف عنه ذلك ، فانتقطعوا عن السعى إليه ، أو طلب مساعدته .

من الثابت ، المعروف ، انه تعرف عليه خلال المحنة العابرة التى جرت قبل توليه المسئولية التنظيمية ، عندما هاجمت الأجهزة الرقابية كافة الإدارات والفروع ، وبدأ تحقيق دقيق ، وشمل التحفظ عددا ليس بالهين ، كان هو من بينهم ، أمضى خمسة وأربعين يوما فى الحبس الشديد فيما بعد عندما تغيرت الأوضاع وبدأت المرحلة الجديدة بعد الحركة ، التصحيحية المباركة ، أصبحت تلك الفترة عنصرا من رصيده الإيجابى ، أشار إليها مرارا فى أحاديثه خلال

المحاضرات والمؤتمرات ، والندوات ، وذكر تفاصيل خلال جلساته الخاصة ، وفى لحظات صوفه مع صحبه الخلص ، الأوفياء .

تعرف عليه إذن فى المعتقل ، كان يمضى فترة عقوبة لم يعرف أحد على وجه الدقة سببها ؟ جريمة اختلاس ؟ أو اعتقال سياسى ؟ أو جريمة مدنية ؟ كثيرون سعوا إلى معرفة السبب لكن لم يتضح لهم الأمر . أما معرفة الجميع بصحبته لسيادته فترة السجن فمن العناصر التى أكدت متانة العلاقة بينهما رغم اتساع الفوارق ، وتباعد المراكز لكن عرف بين الكافة انه حمل على سيادته الكثير خلال مرحلة الشدة ، إذ كان يتولى ترتيب فراشه ، وإعداد طعامه سرا بواسطة الامكانيات المتاحة والأدوات التى صنعها المساجين من علب الصفيح الفارغة ، كان يغسل له ثيابه أيضا ، يقول البعض إن هذا تم لقاء أجر معلوم ، قدره علبة سجائر يوميا ، وهذا كثير فى ظروف السجن ، بينما أكد آخرون أنه لم يتقاض مقابلا لتعبه ، وهذا ما حببه إلى سيادته ، بحيث إن السنوات العشر بين أيام الاعتقال ، وبدء توليه المسئولية كاملة لم تزحه من ذاكرته ، لم تنسه إياه ، إنما أرسل إليه استدعاه ببرقية ، وبعد وصله بساعة تسلم عمله كسكرتير خاص ، وهذه وظيفة لها مهام تختلف عن مسئوليات مدير المكتب الذى يتولى إعداد التقارير ، ودراسة الخطط قبل عروضها ، وتلخيص بعض البحوث ، واجراء الاتصالات مع الجهات ذات العلاقة . . لا . . إن مهامه مختلفة تماما ، فهو المسئول عن ترتيب المقابلات ، وتلقى الاتصالات الهاتفية أو اجرائها ، كما انه يتولى أمور سيادته الخاصة جدا ، بدءا من متابعة حاجيات البيت ، وإرسال الملابس للتنظيف ، وإعداد وجبة الإفطار المكونة من البسيكويت والشاى فقط ، وتقديم طبق عند الواحدة والربع ظهرا فيه خيار مقشر مقسم إلى شرائح ، ذلك أن سيادته يلتزم نظاما غذائيا خاصا ودقيقا لم يحد عنه منذ سنوات طوال . البعض قال ان مهامه جديرة بسكرتيرة . لكن سيادته لم يحدث طوال تقلبه فى مواقع المسئوليات المختلفة أنه استعان بأى امرأة فى تدبير أمور مكتبه ، عرف عنه قوله إن أفضل ، وأقل جلبا لوجع الدماغ !

الحق انه قام بالمهمة على الوجه الأكمل ، حتى أيام الأجازات داوم

خلالها ، لم ينقطع ، لم يخلف موعد عبوره البوابة الخارجية ، حتى حار عامل المصعد ، كيف يمكنه ضبط الموعد ؟ بحيث لا يتأخر ولا يتقدم دقيقة . . مجرد دقيقة !

عامل المصعد أول من لاحظ تغير خطوه ، أسر بذلك إلى زميله المحال إلى التقاد والذى جاءه فى زيارته ودية ، لكنه لم يفض إلى أى شخص خوفا من تفسير الأمر على أنه مساس برئيس المؤسسة ، وهو مشهور بقسوته ، رددها بينه وبين نفسه : انه يشبهه !

الملاحظة دقيقة ، ويمكن تحديد إعجابه يوم قيام سفير دولة النمسا المعتمد بزيارة المقر الرئيسى لتوقيع عقد مبرم . يومها غادر مكتبه ليشرف على إجراءات الاستقبال . ليتأكد من تمام كل شىء . رص أصص الزهور على الجانبين ، السجاد الأحمر وتغطية الدرج ، تعليق أعلام الدولتين وصور الرئيسين ، فى هذا الصباح رأى اجتياز سيادته للمدخل ، وصل قبل السفير ، خطاه ليست سريعة وليست بطيئة ، ليست فسيحة أو ضيقة ، إنما معتدلة ، واثقة ، كما أن ميل قامته إلى الأمام جلى يلحظ .

تراجع خطوة حت كاد أن يلتصق بالجدار ، رفع يده ، تبعه حتى المصعد ، ثم قال إنه ينتظر سعادة السفير هنا ، أوما برأسه إيماءة سريعة ، موجزة ، دالة بدون النظر إليه .

اعتاد انتظار فى المكتب ، المرة الأولى التى يرى دخلته ، يطلع على لحظة اجتيازه ، حضوره الصارم ، طوال اليوم وحتى بعد انصراف السفير ، فى زروة العمل+ ، وبعد عودته إلى البيت ، ولحظات انتقاله من الصحو إلى النوم ، كان يستعيد لحظة الاجتياز تلك .

فى اليوم التالى عند عبوره المدخل ، استعاد لحظة الأمس ، تقمصها ، تفحصها ، ثم اتى بما حوته من جديد ، هكذا تبدلت خطواته ، ومالت قامته ميلا يسيرا ، واتخذت عيناه اتجاه النظرات ذاتها ، وعندما صافح أول القادمين

اتخذ زراعه وضعا مشابها تماما لسيادته عندما يصافح ضيوفه الذين يتقدمون منه .

انه لا يرى سيادته خلال ساعات العمل إلا لفترات جد وجيزة ، عندما ليوقع أوراقا ذات صفة خاصة ، أو ليستفسر عن بعض التوجيهات المتعلقة بأمور شديدة الخصوصية ، أو عند تقدمه الضيوف ، خاصة الأجانب أو القادمين من المحافظات ، أو الهيئات الإقليمية ، أما كبار المسئولين عن القطاعات الفنية بالمؤسسة فلا يتقدمهم ، إنما يعلن فقط عن وصولهم ، أما من خلال الهاتف ، أو بوقوفه عندمدخل الحجرة وذكره الاسم مقترنا — طبعا — باللقب والمنصب الذى يشغله ، لم يتخلف عن ذلك حتى وإن تكررت الزيارة مرتين أو أكثر فى اليوم الواحد .

دائما . . نفس الصوت ، ذات الإيقاع ، ثم يعود إلى مكانه خلف المكتب ، فى هذه الأوقات يكون حضوره حوله وداخله قويا ، فكل حركاته وسكناته مرتبطة به ، عينه على الهاتف الذى تتوسطه دائرة حمراء . إذا اضاءت فهذا يعنى انه يتكلم .

بمضى الوقت أصبح يمكنه تحديد اللحظة التى يشعر فيها بضيق سيادته من ضيفه . برغبته فى إنهاء المقابلة ، عندئذ يفتح الباب ، يقف متطلعا وعلى ملاحه حرج ، يقول إن الموعد التالى حان أوانه !

بعد الإنصراف يبدأ التفكير فى ترتيب المكتب ، لملمة الأوراق ، حفظ بعضها فى الخزانة ذات الأرقام ، لا يعرف الرمز السرى اللازم لفتحها إلا اثنان ، سيادته وهو ، وهذا من أسباب راحته ، وعوامل انفراجه عند الضيق ، اشتراكه معه فى أمر خاص لا يعرفه ثالث . أنه لا يذهب مباشرة ، إنما يتحرك قليلا فى المكتب ، تماما كما يفعل هو فى الأوقات التى تتخلل المقابلات ، قال إمامه مرة أنه لا يمشى إلا فى النادى ، والنادى لا يذهب إليه إلا مرتين فى الأسبوع ، لهذا ينتهز فرلاصة متاحة للمشى فى المكتب ، خاصة قبل نهاية يوم العمل .

يمضى ذهابا وإيابا ، ثم يلقى نظرة على المكتب ، ثم يستدير متمهلا .

يميل رأسه قليلا جهة اليمين ، ويده اليسرى فى جيب جاكتته ، يتجه فجأة إلى المصعد ، يحيى موظفى الأمن الدائيمن بتلويحة مقتضبة ، سريعة .

مع ابتعاده ، ينشغل به أكثر من حضوره بقربه ، يفكر ، لابد انه الآن فى الطريق ، يجلس فى المقعد الخلفى يقرأ بعض الصحف ، أو الأوراق التى أخذها معه . العربة تعبر الجسر ، تتوقف أمام بيته فى الضاحية ، البواب يحمل عنه الحقيبة . بنفس الخطى يتقدم صوب مدخل العمارة . عندما يجلس لتناول الطعام ، ينظر إلى الساعة : لابد أن سيادته فرغ الآن يصل إلى بيته قبله ، أحيانا يتصل به للتأكد ، من أمور معينة ، أو للتذكير بضروريات حساسه ، مرات يطلبه قبل وصوله ، أو أثناء نزوله لشراء لوازم البيت ، تبلغه زوجته ، عندئذ يستعيدها مرارا ، ويستنطقها الألفاظ بالضبط ، ولهجته ، فرب كلمة عنى بها أمرا ، أو أشارة خفية غاب عنها معزاها ، لابد أن يتأكد . أما إذا رأى سيادته جهما . كدرا ، فسرعان ما يقطب جبينه . يصعب الحوار معه ، يأوى إلى غرفته قبل أن يشرب الشاى الذى اعتاده تدرك امرأته فتنأى عنه ، أن ضيقا يستقر داخله لا يخفى ولا يفارقه إلا إذا رأه اليوم التالى رائق البال ، كان يدرك هذا من رؤيته فى اللحظة الأولى ، طريقه دخوله ، إيماءاته ، من أجاباته المقتضية ، أو المتصلة . . ويا سلام . . ياسلام . . عندما يبدى التبسط ويبادر بالمداعبة !

ينظر إلى الساعة قبل نومه ، لابد أنه أوى إلى فراشه الآن ، قال على مسمع لأحد أصدقائه وهو يودعه « من الضرورى نومى ست ساعات على الأقل . . » .

بشكل ما ، لا يمكنه تحديده ، أو تعيين الفوارق الفاصلة ، أدرك عاداته ، فمنها قراءة قصة خفيفة ، غرامية أوبوليسية قبل نومه ، اضطراره عند اشتداد

الأرق إلى استخدام جرعة صغيرة من أقراص منومة اتى بها من فرنسا ، يستخدمها بقدر معلوم .

عندما رأى العلبة فى حقيبته ، صغيرة ، خضراء الغلاف ، انتابه الأرق ليالى موالية ، فكر فى استخدام منوم ، وعندما افضى إآلى امرأته بأن جزعها ، قالت ان هذا خطير ، ويمكنه التعود عليه ، لن يستطيع النوم بعد ذلك إلا به ، أوشك على القول إن سيادته يتناوله . لكنه أحجم ، لم ينطق ، فى اليوم التالى اشترى علبة ، فى الليل بلغ نصف قرص ، لكنه امتنع بعد ذلك ، إذ انتابه طوال اليوم التالى دوار . وقام بينه وبين الخلق حاجز شفاف غير مرئى ، خشى أن يعتاده . ان يقطع أولى خطى الإدمان بدون قصد ، خشى ما تكتبه الصحف ، ما تردده وسائل الإعلام عن انتشار الأقراص ، وذيوعها ، ولجوء بعض ممن يتعاطونها إلى الأنواع المهدئة ، المنومة ، أما ما ثبت امتناعه وقواه سماع سيادته يقول إنه لم يستخدم المنوم إلا مرات قليلة ، خاصة عند سفره إلى الخارج ، وتغيير مكان الرقاد ، وتعاظم إحساسه بالمسئولية ، يتصاعد تأثير سيادته داخله عند ابتعاده عنه ، بالأخص عند رحيله ، الحق انه لم يكن غليظا ، فظا ، مؤذيا حتى يرهبه ، لكن عرف عنه قسوته التى تتفجر عند الغضب ، أو وقوفه على الخطأ ، قسوة يمكن أن تصل إلى آماد لا يمكن معرفتها . كان حضورها فى المؤسسة صارما ، حتى أثناء سفره . يخشاه الكل ، يرهبونه ، إذا قام بزيارة مفاجئة إلى إدارة أو قسم ، أو فرع ، يصمت المتكلمون ، ينفرط عُقد المحتمعين حتى وإن ظلوا متجاورين ، شاخصين ، ومهما أبدى من لطف أو بشاشة ، فلم يخف هذا عن العاملين والأقربين بذور الغضب الجامح . المفاجىء الذى يمكن تفجره عند أول بادرة ، ومن ثم .. لا يبقى ولا يذر ..

حدث إحدى الأمسيات أثناء خروجه مع زوجته من دار عرض سينمائية وسط المدينة ان اشتبه فى اقتراب شاب منها أكثر مما ينبغى ، عندئذ انتفض غاضبا ، أمسك بياقته ، صفعه ، أعلن إصراره على اصطحابه إلى قسم الشرطة ، ورغم مفاجأة زوجته بما جرى . وتوسلها إليه أن يترك الشاب الذى

راح يقسم انه لم يقصد ، وأن مسافة تفصله عن الهانم ، إلا أن ملامحه عكست نفس قسمات سيادته عندما يبلغ غضبه مداه ، خاصة زم الشفتين وخروج الألفاظ متاكلة متدافعة وإشارة الأصبع التى تحمل معنى التهديد ، بالذات إشارة الأصبع ، ممتدة ، متصلة ، حادة العلامة ، مدببة الطرف ، لطالما تأملها عند شروعها أمامه . فى حضوره ، حتى أثناء المناقشات الجادة كان رأسه يميل قليلا ، ويبرز أصبعه أما محذرا ، أو منبها ، أو منذرا . ، هذا ما كان يبدو منه أثناء القائه الكلمات الافتتاحية ، أو الخطب الاحتفالية .

لا يمكنه تحديد الوقت الذى بدأ يردد فيه تلك اللازمة التى اعتاد سيادته النطق بها عند بدء الحديث ، أو خلال اعرابه عن أدائه ، يقول متمهلا ، « أعتقد أن . . » انتبه إلى نفسه يرددها كما سمعه ينطقها ، خاصة بداية الحديث ، وإذ يصغى يهز رأسه ذات الهزات المختصرة ، الدالة ، وإذ تدركه راحة ، أو يسمه رضى ، تلوح ابتسامة معلقة ، ويلفظ آهة مطولة .

فى يوم خفت فيه اللقاءات ، وقف يعرض عليه صورا التقطت أثناء الزيارة الأخيرة ، رن جرس الهاتف المباشر ، أومأ مرات ، ثم نطق جملا لم تسترع انتباهه ، لكنه توقف عند قول سيادته انه لا يقرأ جيدا إلا إذا اضطرا إلى الرقاد بسبب وعكة .

فى المساء بعد تناوله الشاى المعطر بالنعناع الأخضر ، قال لامرأته انه يشعر باعياء ، سيرقد مبكرا ، لن ينام مباشرة ، إنما سيقرأ قليلا . .

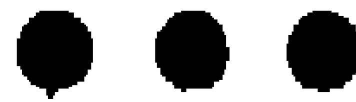
ـ أصبحت مشغولا إلى درجة انى لا يمكننى القراءة إلا إذا مرضت . . أما ذروة راحته فعند ذهابه بصحبة سيادته لافتتاح معرض اقيم ضمن انشطة المؤسسة ، أو لتوزيع ميداليات التفوق على النابهين ، أو لمنح بعض المتميزين شهادات التقدير ، أو لحضور مقابلة هامة ، أنه يمشى خلفه مباشرة ، يتأخر عنه مقدار نصف خطوة ، وإذا نظر فإنه يتبع اتجاه نظراته وإذا مد يده ليتفقد معرضا أو شيئا ما ، فإنه يحدث فيه باهتمام ولا يحيد ببصره إلا وإذا فرغ سيادته ، وعند منح هذا الشهادة أو ذاك ميدالية فإنه يضفى جدية وراحة على ملامحه ، يتطلع

إلى الشخص فى اللحظة نفسها ، أما إذا استدار متطلعا هنا أو هناك فإنه يستدير فورا . لا يتأخر ، لا يتقدم ، بطول الصحبة أصبح عنده تقدير خفى لحركة سيادته . وللتوقيت الذى يلتفت فيه هنا أو هناك ، تماما كما اعتاد الاستيقاظ فى موعد صحو سيادته والذى عرفه بعد طول المعايشة ، أما إذا خلا به فى الحجرة ، إذا واجهه ، وقد وقف أمامه ، فإنه جموده ينزل على ملامحه ، لا ينطق اللازمة « اعتقد ان . . » ولا يشير باصبعه . . ولا يميل برأسه قليلا .

لم يكن عسيرا على المتعاملين معه ، وذوى القربى ، ملاحظة اكتسابه صفات سيادته ، ترديد العبارات ، الإيماءات حتى اسلوب الانفعال . أما هو فلا يدرى أحد حقيقة ما جال عنده الصباح ، عندما تطلع إلى المرآة قبل تأهبه لحلاقة ذقنه وهذا من عادته « القديمة » إطالة النظر إلى ملامحه .

هذا الصباح أطال ودقق .

العينان ، نظراتهما . الخطان الغائران يحددان الوجنتين ، الشارب الكثيف الذى اهتم به ورعاه أخيرا . الفم المزموم ، الذقن المدببة ، لم يكن يطالع ملامحه التى تحتفظ بها الصور الملتقطة له على فترات ومراحل شتى ، التى اعتادها الآخرون ، لكنه كان يطالع الملامح الحسية . والمعالم المألوفة لوجه سيادته ، لتكوين هيكلة الجثمانى بالضبط . . كما يراه الخلق . .



مارس — ١٩٨٩

انتظار

توقفت مرات خمسا ، سلم مرهق ، كانه لن يؤدى إلى طابق تال ، مع أن العيادة تقع فى الطابق الأول ، المبنى قديم ، لم أتقن استخدام العصا بعد ، ادفع بها إلى الوراء بينما ساقى إلى الأمام ، أو أثبتها فى الوقت الذى أخطو فيه ، داخل ساقى يتمدد لهب محمى ..

اللافته سوداء قديمة . . .

حروف عتيقة ، متآكلة ، اسم الطبيب فقط ، ما من تخصص مكتوب أو درجات علمية ، اكدوا لى فى المؤسسة ان اسمه معروف . ، والبعض يصفه بأنه الطبيب الأول فى مصر ، المتخصص فى علاج الأوعية الدموية ، تنشر الصحف أخبار سفره لحضور مؤتمرات علمية ، وملخصات الأبحاث التى توصل إليها ، قيل لى ان بعضا من أثرياء العرب يرسلون طائراتهم الخاصة إليه ، يقلع فى الصباح ، يوقع الكشف ، يرجع فى نفس اليوم ، امره مفروغ منه . . .

انى قلق ، إذ وصلت متأخرا عن الموعد المحدد بخمس دقائق ، حذرنى

المرض من التأخير ، وأكد لى ان الحجز سيلغى إذا لم أصل قبل الميعاد المحدد ، أعددت ما يجب قوله ، سكنى النائى ، ازدحام المرور وألمى الذى يبطىء حركتى ، عندما ولجت المدخل فوجئت بالممرض يقف ، كأنه كان يصغى إلى صوت خطواتى ، انه يدس يديه فى جيبى سترته ، يتطلع إلى الفراغ ، يتجاوزنى بعينيه ، ملتح ، عريض الفك والوجنتين ، يغطى رأسه بطاقية من القطن الأبيض .. يقول ، « فعلا ، أنت تأخرت ، لكنك محظوظ .. الدكتور لم يصل بعد ... »

ارتياح وقلق ، خشيت إلغاء الكشف ، أما لقلى فرؤيتى المنتظرين ، ما من مقعد شاغر ، بعد أن دون اسمه ، لاحظت أن رقمى الثالث والعشرين ، يعنى ... لو وصل الآن ، لو أن متوسط ما سيقضيه مع كل مريض عشر دقائق ، سألتقى به بعد مائتين وثلاثين دقيقة ، أربع ساعات ! اخشى الا احتمل وجع ساقى التى ستبقى مدلاة فترة طويلة ، من الأفضل مدها إلى أعلى ، هكذا نصحنى طبيب المؤسسة التى أعمل بها ، لكن أنى لى بمقعدين ؟ ، زحفى البطىء وألمى البادى لم يلفت أنظار أحد ، الكل مرضى ، لكن يبدو أنهم اجتازوا المراحل الأولى ، هل كان ضروريا ان أكون راقدا الآن ؟ هل أخطأت إذ جئت بمفردى ؟ ، عبرت الصالة إلى الغرفة الجانبية ، تطل على الطريق ، مروق العربات ، نداءات بعض الباعة أو المارة ، أريكة قدرت انها تتسع لأربعة ، عليها ثلاثة ، اتجهت دابا بعصاى ، تطلع أحدهم ، أفسح لى ، بقى الآخران جامدان ... « شكرا » ، أسندت ظهرى إلى ما تيسر لى من المقعد العتيق ، منخفض الحشايا ، « آه » وخزنى ألم حاد ، عندما عبر اعتدلت ، أواجه امرأة تعصب رأسها بمنديل أبيض ، فستانها أصفر منقوش بدوائر خضراء ، رجل يرتدى جلبابا بنيا ، متورم القدمين ، حجمهما كثيب ، خارج عن المألوف ، ربط إليهما مداسا مسطحا . إلى الجدار الأيمن علق إطار مذهب بال ، أضيق عينى ، قصيدة اهداها إلى الطبيب العبقرى محمود أمين ناظر جراج الشمال شكرا وامتنانا بعد نجاح العملية الجراحية ، المرأة مستمرة فى التطلع إلى ، هل تحاول التثبت من ملامحى ؟ أم ترثى لتعبى الواضح ؟

نظرات الآخرين تحدق بى ، أنا القادم الجديد ، الحدث الطارىء بالنسبة إليهم ، شاب نحيل جدا ، يمدد ساقه متخذا . . . وضعا يماثل وضعى ، لكنه لا يقبض عصا ، امرأة قصيرة ، بدينة ، حضورها أمومى ، أصابعها متشابكة ، انها فى المقعد الأقرب إلىّ . تذكرت أمى !

رجل ذو سمات جادة ، يمسك مظروفا أصفر تطل منه اوراق بيضاء ، يحملق إلى السقف ، فوقه لوحة تتوسطها آية قرانية كتبت بحروف مذهبة فى لوحة مجاورة على أرضية سوداء ، الجدران مرتفعة الطلاء حال لونه لقدومه ، فى الركن القصى عنكبوت ضخم اسود نسيج بيته لما تراكم عليه من غبار ودخان ، تتطلع المرأة البدينة عبر الباب ، انها قريبة يمكنها رؤية الداخل والخارج أتساءل :

● هل جاء الدكتور ؟

● لا . . .

تختلج الأوردة اختلاجات متوالية ، كان ثقل ساقى يتزايد .

● من عادته التأخير ؟

تقول المرأة مرتدية الثوب الأصفر .

● يجىء عادة ما بين السابعة والثامنة . .

يقول شاب قصير ، أصلع تماما . .

● السابعة ؟ لا يمكن أن يدخل العيادة قبل صلاته العشاء . . تتطلع إلىّ ذات الثوب الأصفر ، تقول . .

● فى الأسبوع الماضى ، فى مثل هذا اليوم ، وصل السابعة إلا ربعا . . . بلوح متورم القدمين بيده . .

● لا مواعيد ثابتة له . .

الاختلاجات تصبح وخزا ، ألم غريب ، كريه ، غير مسبوق ، وأشد الآلام ما كان مجهولا ، غريبا ، لم نعرفه ، لو خبرناه ، لعرفنا مداه ، هذا لم أعانية من قبل ، يتحدث متورم القدمين ، لا يوجه حديثه إلى أحد . .

● ربما يجىء فى الثامنة ، أو التاسعة ، فى الأسبوع الماضى ، يوم الأربعاء ، جاء بعد منتصف الليل ، كان المرضى قد بدأوا فى الأنصراف ، قابلهم على السلم ، عادوا وكشف عليهم ..

اقول :

● إذا كان يجىء متأخرا ، فلابد انه ينصرف متأخرا ..

تنظر إلىّ المرأة البدينة ، تبدو مشفقة ، كأنها تتساءل عما أعانى منه ، عما اقاسيه ، تقول ..

● لا .. أنه لا يطيل الكشف ، لا يحب الكلام الكثير .

لا يسأل عن الاسم ، أو الأصل ، أو الفصل ، لا يثرثر كالآخرين ..

تبدو سخريته على ملامح الرجل متورم القدمين ، يستمر محدثا محملقا إلى السقف ..

● حديث .. أى حديث ؟ انه لا يتبادل كلمتين حتى مع المريض ، أحيانا لا يسأل عن المرض ، ينظر إلى الداخل عليه فى لمح البصر يعرف سر الوجع .

المرأة البدينة ترفع كفيها ..

● الله يعمر بيته الله يخليه ، والله أعرف كثيرين أعاد إليهم قيمة الكشف بعد أن عرف صعوبة أحوالهم .. فجأة ، أشعر بمن ينظر إلى ألتفت إلى الصالة ، انه الممرض ، يقف قرب الباب ، يداه وراء ظهره ، يتطلع إلىّ ، أحيد ببصرى ، يجتاز المدخل ، على مهل يتجه إلى النافذة ، انه أطول قليلا مما رأيت عند وصولى ، يجتاز المدخل ، على مهل يتجه إلى النافذة ، انه أطول قليلا مما رأيت عند وصولى ، عنقه غليظة ، أثق أن الطاقية تخفى صلعا مكتملا ، استدار ناحيتى ، يتطلع إلى الوجوه التى صمتت ملامحها ، هل يبحث عن شىء ما ؟ هل يفترس ، هل يستوثق أمرا ، يخرج متمهلا يدركنى قلق خفى ، ذو الشعر الأبيض يعود إلى تقليب الجريدة ، عليه سمات ترفع وأنفة ، لم ينظر إلى من الذين تحدثوا ، بين لحظة وأخرى يعدل وضع المظروف

الأصفر ، ساقى الآن اثقل ، صوت خطى سريعة فى الصالة ، هكذا يدخل الأطباء إلى حجرات الكشف غير ملتفتين إلى المرضى ، فى أعقابهم يسرع الممرضون ، يعدون القهوة قبل بدء الكشف .. اتساءل ..

● جاء ؟

تهز المرأة راسها نفيا ، لم أدر كم مضى من الوقت قبل ان اتساءل ..

● بعد وصله ، هل يستدعى المرضى مباشرة ؟

تومىء ، لا تنطق ، أنها متقدمة فى العمر ، تبدو مهمومة ، لا أظن أن أحد الجالسين سيخطر له أننى اتلمس سبلا للحديث إليها ، الملى بادى ، يدركه الناظر إلى ، أشير بيدى اليسرى غير الممسكة بالعصا إلى الحجرة المغلقة .

● هل يكشف على المرضى هنا ؟

لم يجبنى أحد ، بعد لحظات قالت المرأة البدينة ، أمومية الحضور ..

● منذ عشر سنوات ، كان مكتبه أمام هذا الباب مباشرة ، لكنه أزال الجدار الفاصل بين الحجرتين ، وسع حجرة الكشف .. وسع الله عليه دنيا وآخرة ..

اتساءل :

● ألا يتصل تليفونيا عندما يتأخر ؟

يلتفت إلى الأشيب ، المترفع ، لأول مرة يرفع عينيه عن سطور الصحيفة .

● يتصل ؟ من هو الذى يتصل ؟

يبدأ حديثه متمهلا ، يتجه إلى مباشرة كأنه ينوى وضع حد لتساؤلاتى .

● أنت فى عيادة طبيب لا مثيل له فى مصر . عالمى ، والهيئات العلمية تسعى إليه .. هل تعرف ذلك ؟

انفى علمى بهز رأسى

● الأسبوع الماضى أرسلت الجمعية الطبية فى ميلانو تستشيره فى حالة مستعصية ، ألم تقرأ هذا فى الصحف ؟

كدت أهم مجيبا بالنفى ، لكنه واصل . .

● طبيب مثله يعتذر . . لمن ؟

الشاب مرتدى القميص الأبيض .

● انه يتاخر لانشغاله فى عمليات دقيقة ، يجرى العمليات فى عدة مستشفيات ، ربما يرى حالة عاجلة ، ربما ينقذ مريضا الآن يشرف على الموت . . ونضيق نحن أو نتململ لأنه تاخر ساعة أو أكثر ؟

لم يفتنى غمزة لى ، التفت ، الممرض يقف عاقدا يديه أمام صدره ، منفرج الساقين قليلا ، أرى علامة السجود تتوسط جبهته ، كيف لم ألحظها إلا الآن ؟ مع أنه يقف فى ضوء أقل خفوتا ، الرجل الأشيب يواصل حديثه ، كانه لم يصغ إلى أحد ، الاحظ اتجاه نظراته إلى الممرض . .

● أمير عربى . . لا داعى لذكر اسمه ، اعتاد ان يرسل إليه طائرته الخاصة ، مرة دعاه لقضاء عدة أيام فى قصره ، أنا أعرف قصر الأمير . . جنة الله فى أرضه ، لكنه اعتذر بلطف ، قال ان مرضاه فى انتظاره . .

المرأة البدينة مرتدية السواد . .

الله يعمر بيته . .

● أسمع خطوات ، انها بطيئة ، مرضى جدد ؟ ربما ، بباب يفتح ثم يغلق ، تتطلع إلى ذات الفستان الأصفر ، يكمن فى ملامحها جمال عتيق صاف ، هفا على نسيم عشق قديم هون من تَيقُّظى المحدق ، أدرك إلى أى حد يمضى العمر مسرعا . .

● جاء ؟

تهز رأسها نفيا الرجل الأشيب يمسك المظروف الأصفر ، يعلو صوته ، ينظر باتجاه الباب ، . هل يحرص على إسماع الممرض ؟

● من يَعرف انه صائم منذ تشعة شهور ؟ يفطر يوميا بعد الغروب ، وأحيانا في غرف العمليات ، يكتفى بكوب ماء ، ثم يتناول إفطاره بعد العملية . .

المرأة البدينة :

● يقولون انه لا يدخل غرفة العمليات إلا إذا صلى ركعتين يتصاعد انفعال الأشيب ، يلوح بالمظروف الأصفر . .

● لماذا يصوم منذ تسعة شهور ؟ بالضبط منذ موسم الحج الماضى ؟ أنا أقول لكم . . سيادته اعتاد الحج كل سنة ، وهو الآن — بالمناسبة — يستعد للسفر ، انه يحج على نفقته ، وأثناء الحج يقيم عادة بجوار الحرم المكى ، يكشف على الفقراء مجانا . . أى والله مجانا !

امرأة ضامرة ، قصيرة ، تجلس قرب النافذة ، تعدل وضع طرحتها ، تنتهد من ألم كامن أم إعجابا بما تسمع ؟

● فى العام الماضى اصطحب معه ولديه وامراته للحج ، حدث ان تاه ولداه فى الزحام عند قضاء الليل فى منى ، أحدهما ، صغير لم يبلغ العاشرة . .

برغم ألمى المتعاظم ، اتساءل . .

● إذن . . هو ليس كبيرا فى السن ؟

لا ينظر الشاب إلى عندما بدأ فى صوته تهكم خفى ، كأنه يردد أمرا معلوما .

● عمره أربعة وأربعون . .

أقول :

● ياه . . انه صغير ، وهذه الشهرة كلها . .

يرد رجل عجوز لم الحظ وجوده إلا الآن .

● عبقرى .

المرأة البدينة . .

● لا يرد فقيرا أبدا . .
يواصل اشيب الشعر ، كأن أحدا لم يتحدث . .
● لم يجزع ولم ينهر ، أمر زوجته بالكف عن البكاء ، وقبل ذهابه إلى البوليس ، لاحظوا انه لم يلجأ إلى معارفه ، وهم على أعلى مستوى ، قبل ذهابه نذر على نفسه ، لو انه عثر على ولديه سيصوم عاما كاملا ، بعد ساعات ، مجرد ساعات ، عثر عليهما . . وأين ؟ أين تظنون ؟
يجيب أكثر من صوت .
● أين ؟

يثقل الألم ساقى ، كان جوالا من الرمل الساخن شد إليها ، لا أقدر على الجلوس ، أقوم على مهل ، منحنيا ، متكئا على عصاى ، أزحف باتجاه الباب ، دوار وخفق قلب ، وسوء حظ ، وأسى على ما حل بى ، بمجرد اجتيازى الباب ، بدون أن يتقدم أحد لمساعدتى ، افاجا بالممرض يقف أمامى ، أنه ضخم ، ممتلىء صحة رغم تقدمه فى العمر . .

● إلى أين ؟
● هل سيتاخر ؟
● قطعا سيجىء .
● أرجوك ، لا أقدر على القعاد . .
يقول بصوت غاضب ، أرجفنى :
● أرد الكشف ؟ سبعة عشر عاما انقضت على هنا ، لم يطلب أحد ما تطلبه . .

أغالب المَى حتى أجاوره .
● ألم تحدد لى موعدا فى الخامسة . .
● يبدو أن الأمور لا تعجبك . . .
يتسع جوال الرمل الساخن المشدود إلى ساقى . .

● أنا مريض ، لا أقدر على القعاد وعندى . .

تصدم وجهى قوة هائلة ، افقد الرؤية لثوان ، أعود إلى الغرفة منبطحا على ظهرى ، بينما يقف الممرض منفرج الساقين ، ضاما قبضته ، متاهبا للكمى مرة أخرى . .



ابريل ١٩٨٦

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٠/٢٤١١

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٢٤٠٠ - ١

... اهتدى الغيطانى فى اعقاب ٦٧ إلى اسلوب مميز . فقد عاد بلغته وتركيب جمله الى التاريخ . الى ذاكرة الناس . تلاقت كتابات الغيطانى مع احاسيس الناس فى تلك الفترة ووضعه النقاد والقراء فى مكان الصدارة .

وتوالت اعماله مؤكدة انه كاتب متمكن يتمتع بقدر كبير من الدأب والاصرار . واختلفت الرؤيا فيما يلى ذلك من اعمال بدأت بذكر ماجرى وقصة العسرى . ثم نوبة حراسة . توجه الكاتب فى هذه الاعمال الى ضمير الناس الاجتماعى . الى المفارقة الكبيرة التى يخلقها الفقر والقهر ، وحاول أن يقيم اعماله على التعبير عن التناقض ، وايقاظ مايوحى به من دلالات ، وقطع بذلك مسافة طويلة من الذاكرة الى الضمير . اهم مايميز اعمال الغيطانى من ١٩٦٩ الى ١٩٨٠ ، هو الاصرار على الاحساس بالمسئولية الاجتماعية للأدب ، الاحساس بأن الأدب وظيفة لخدمة الناس ومناقشة مايعانون منه من قضايا ومشاكل . الخلق والابداع هو المجال الذى ينطلق اليه اصرار الغيطانى وعمله الدائم .

علاء الديب

تصميم الغلاف للفنان محمود الهندى

١١٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب